

الدكتور أحمد الأقباني

الأمشوق

في العصر الأيوبي

دراسة سياسية، اقتصادية، اجتماعية، ثقافية

تقديم

الأستاذ الدكتور سهيل زكار

التلوين

الدكتور أحمد الأوتوبي

الاستاذ المساعد
دكتور فاضل
بن محمد آل
الشيخ

شامات

٤

٥

٢٢
٢٣

يعد هذا الكتاب أول بحث علمي موثق لتاريخ دمشق خلال العصر الأيوبي، أي لقرابة قرن من الزمن، امتاز بالصراع ضد الصليبيين، وبظهور الخوارزمية وأوائل المغول، ويقدم صورة للتدهور السياسي الذي أحاق بدمشق على أيدي الأيوبيين بعد صلاح الدين، وكيف انشغل الأيوبيون بعد صلاح الدين بحروبهم الداخلية، وعرضوا دمشق للدمار والحريق والاستباحة، وأهملوا الجهاد ضد الصليبيين، ولم يتورع بعضهم عن الاستعانة بالصليبيين.

وهكذا مرت دمشق المنتصرة في حطين بأقصى مراحل حياتها، ولذلك عندما وصلتها جيوش هولاكو تسلمتها من دون مقاومة، لأن الأيوبيين جردوها من كل قواها.

وتعافت دمشق العربية الأصيلة بسهولة بعد معركة عين جالوت، فخاضت معارك تصفية الوجود الصليبي والتصدي للمغول حتى دمرت قواهم في معركة شقحب.

ويتناول هذا الكتاب بالتحليل العميق دراسة سياسية، اقتصادية، اجتماعية، ثقافية، لمرحلة حاسمة من حياة مدينة دمشق وأوضاعها زمن الأيوبيين. كما أنه يبين تلك الإنجازات الثقافية والمعمارية للأيوبيين في تلك الحقبة الزمنية، وهو يوضح لنا حقيقة الصراع الذي دار بين الأيوبيين أنفسهم على دمشق، وأثر ذلك الصراع على هذه المدينة.

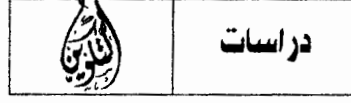
وقد عرض المؤلف ما وصل إليه من نتائج علمية مع تبيان حياة المدينة، وأوضاع سكانها بأسلوب واضح يضيف كثيراً من القيمة على هذا الكتاب.





دمتنق في العصر الأيوبي

سلسلة تواريخ دمشق الشام



ومننق في العصر الأيوبي

الدكتور أحمد محمد الأوتاني

© جميع الحقوق محفوظة

الطبعة الأولى 2007



للتأليف والترجمة والنشر

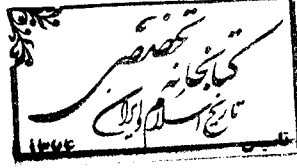
دمشق - حلبوني

تلفاكس 0112236468 جوال 0944330989

ص.ب. 11418

taakwen@yahoo.com

الدكتور
أحمد محمد الأوتاني



دمشق في العصر الأيوبي

٥٧٠ - ٦٥٨ هـ / ١١٧٤ - ١٢٦٠ م

تقديم
أ.د. سهيل زكار



بِسْمِ اللّٰهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِیْمِ

.. وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ...

من الآية ٤٥

الأنفال

إلى دمنتق التنام ...
بمناسبة انتخابها عاصمة للثقافة العربية

إلى ابنتي غزل
التي فيها من دمنتق المدوية والأصالة والوفاء

أحمد

تقديم

غالباً ما نردد هذه الأيام القول: إن دمشق أقدم مدينة في التاريخ، لم تتوقف الحياة فيها أبداً، لكن هذا القول يحتاج إلى دراسات معقدة، وإلى الاهتمام بتاريخ دمشق، وكشف أدوارها، وعطاءات أصالتها، والذي أوقفني دوماً وأنا أتعامل مع تاريخ هذه المدينة، هو قدرتها على النهوض من بين أركان الدمار والمآسي والأزمات، دون التخلي عن أصالتها العربية، التي تمازجت مع الإسلام تمازجاً لا نظير له، فقديماً منذ النصف الأول من القرن السادس قبل الميلاد، وقعت دمشق مع بقية بلاد الشام تحت الحكم الأخميني الفارسي، وبعد زوال هذا الحكم في النصف الأول من القرن الرابع قبل الميلاد، حل محله الحكم الإغريقي، ثم الحكم الروماني، ثم الحكم البيزنطي حتى معركة اليرموك عام ٦٣٧م، أي بقيت البلاد الشامية وعلى رأسها دمشق تتحمل حكم الغزاة، ألف ومائة عام، ولكن ما أن كانت اليرموك حتى عبرت دمشق عن أصالتها العربية، فكانت حاضرة دولة العرب والإسلام الأعظم في التاريخ.

وحفاظ دمشق على أصالتها العربية أنقذت عروبة مصر والشمال الأفريقي والأندلس، وأحدث الاندماج الكامل مع الإسلام، حيث باتت العروبة هي الإسلام، والإسلام هو العروبة، ودولة الخلافة الشامية هي التي أوصلت الإسلام إلى أقصى بقاع الأرض، ولم يعرف العرب في تاريخهم المديد دولة أعظم من دولة الخلافة الشامية، وكان لهذا ثمنه الباهظ!

صحيح أن دمشق أوصلت الهداية إلى الإسلام إلى جميع بقاع الأرض، لكن هذا العمل قضى على قوميات كثيرة وعلى ديانات عديدة، وتطلعت أعداد كبيرة من رجالات البلاد المفتوحة إلى الانتقام، وتسارعت الخطط نحو الانتقام منذ قيام عبد الملك بن مروان بالسعي نحو تعريب الشعوب المفتوحة، فاعتناق الإسلام لا

يكتمل إلا بالتعريب، فالقرآن عربي، والنبي محمد صلى الله عليه وسلم كان عربياً، ولغة أهل الجنة هي العربية.

وظهرت إجراءات الانتقام بما عرف باسم الثورة العباسية، مع أنها كانت بالفعل ثورة خرسانية، وبعد القضاء على الخلافة الشامية، نزلت بدمشق ضربات قاصمة شملت الأحياء والأموات، فقد نبش الخراسانيون قبور الخلفاء، وقاموا بتصفيات جسدية وحشية لجميع أفراد البيت الأموي، واستبيحت دمشق ولحقها دمار مروع، وأهملت هي والشام أجمع، ومع ذلك لم تمت روح الأصالة العربية الشامية، فكبار شعراء العصر العباسي الأول كانوا من أهل الشام وغيرهم كثير.

وعندما ضعفت الخلافة العباسية استردت دمشق والشام بعضاً من حيويتها، حتى القرن الخامس للهجرة/الحادي عشر للميلاد، عندما اجتاحت شعوب الغزّ التركية العراق والجزيرة والشام، وآسيا الصغرى، وشهدت دمشق الكوارث والمآسي على أيدي الغزّ، فبعدما حاصرها القائد الغزي أتسز بن أوق لسنوات، دخلها سنة ٤٦٧هـ/١٠٧٥، فوجدها أشبه بجثة هامدة، إن لم نقل بقايا مدينة محروقة، كان فيها قبل حصارها أكثر من خمسمائة ألف إنسان، لكن عندما دخلها كان قد بقي فيها ثلاثة آلاف، وكان فيها قبل أتسز مائتان وأربعين خبازاً، فوجد فيها يوم دخلها خبازين فقط.

لقد تمكن الغزّ من تحويل أراضي الإمبراطورية البيزنطية إلى أراضي تركية، ولكنهم في الشام استعربوا، فمن المعروف أنه بعد عقدين من دخول أتسز بن أوق إلى دمشق، كانت الحروب الصليبية، وأنه على يدي نور الدين محمود بن زنكي، وهو أبرز المستعربين المسلمين، أمكن بعث الروح الشامية العربية الإسلامية الثقافية، وتوحيد شمال الشام مع جنوبه، ونقل روح الوحدة والثقافة إلى مصر، ووضع الخطط من أجل تحرير القدس واقتلاع الصليبيين، وصحيح أن المنية داهمته قبل أن ينجز هذا كله، لقد نجح تلميذه صلاح الدين بذلك.

ولسوء الحظ مات صلاح الدين وهو ما يزال في منتصف عقده السادس، فأعقب موته فراغ هائل ودمار، تمزقت دولته وتشرذمت بين أفراد البيت الأيوبي، وانشغل الأيوبيون بحروبهم الداخلية، ولم يكتفوا بالتخلي عن روح الجهاد ضد الصليبيين، بل تحالف بعضهم معهم، فالكمال بن العادل دعا الإمبراطور فردريك

الثاني من أوروبا وسلمه القدس، وتجنّد بعض سلاطين بني أيوب في الجيوش الصليبية، وقاتلوا معهم قرب غزة، وفي أثناء الصراعات الأيوبية تعطلت رسالة دمشق الجهادية، وتعرضت أجزاء كبيرة منها للحريق والدمار، ففي إحدى المرات التي حوصرت المدينة فيها أثناء الصراعات الأيوبية: «حكى أن رجلاً كان له عشر بنات أبنكار، فقال لهن: أخرجن فقلن: لا والله، الحريق أولى من الفضيحة، فاحترقت الدار واحترقن، ولم يخرجن، وجرى على الناس ما لم يجر في بلد آخر». وبعد سجل الحكام الأيوبيين لدمشق، ولبلاط الشام، بعد صلاح الدين سجلاً أسود وفي غاية السوء، وهم الذين أعطوا الصليبيين فرصة البقاء قرابة القرن بعد صلاح الدين، ووقف بعد زوالهم، وقيام حكم السلطان بيبرس المملوكي جرى استئناف الجهاد ضد الصليبيين، وأمكن اقتلاعهم وتحرير البلاد في أقصر وقت. ولما تقدم يعد البحث في تاريخ دمشق في ظل الحكم الأيوبي، على درجة عالية من الأهمية، ولكنه موضوع شائك وصعب، وقد قام بأعبائه الباحث أحمد الأوتاني، الذي أمضى عدة أعوام في كتابة أطروحة للدكتوراه، حيث أجاد في بحثه ونجح، وغطى جميع جوانب الحياة في دمشق، ذلك أن هذه المدينة الأصيلة - على الرغم من سوء أوضاعها السياسية - حافظت على نشاطاتها الثقافية، والمثير للدهشة اهتمام الأيوبيين بالثقافة العربية، وظهور عدد من الشعراء من بين صفوفهم، ومحاولة عدد منهم التخلي عن النسب الكردي، وادعاء النسب الأموي. ولسوف يبقى موضوع التاريخ لدمشق على رأس الأولويات، وبالفعل بدأت بالتخطيط لتغطية تاريخ هذه المدينة الأصيلة خلال العصور الإسلامية، وصدر حتى الآن عدة مجلدات، سوف يعقبها غيرها إن شاء الله، وأن أقوم بهذا وليس بسبب اختيار دمشق عاصمة للثقافة العربية في العام المقبل فقط، بل لشعوري بالمقام الأول أن لدمشق في عنقي وعنق كل عربي ومسلم، لا بل كل إنسان متحضر دين عظيم، ولا بد من بذل الجهد لوفاء هذا الدين. والله المستعان والموفق إلى السداد.

دمشق ١٢/٧/٢٠٠٧

سهيل زكار

استهلاك بالمصادر والمراجع

تحدد طبيعة موضوع كل بحث من الأبحاث التاريخية نوعية مصادره، فإذا كان الموضوع عاماً جاءت مصادره عامة، وإذا كان خاصاً جاءت مصادره من نوع خاص تلي الغرض وبالنسبة لموضوع بحثنا اقتضى الحال التعامل مع نوعي المصادر العام والخاص.

من المعروف أن المصادر الموائمة للدراسة الاقتصادية والاجتماعية في العصور الوسطى مبعثرة، كما أنها نادرة، والمصادر المتوفرة هي المصادر السياسية والتي لم تول الحياة الاقتصادية والاجتماعية أهميتها لأن أغلب الذين أرخوا لهذه الحقبة بالذات أبهرتهم الانتصارات العسكرية والأحداث السياسية الجسام، فاشتغلوا في تسجيلها وأغفلوا كل ما هو اقتصادي أو اجتماعي، ولذلك تطلب العمل مني التفتيش عن هذه المصادر في زوايا المكتبات العامة والخاصة.

ومن المصادر والمراجع الهامة التي أمكن الاستفادة منها أذكر كتب التواريخ العامة، وتواريخ المدن الشامية القديمة والحديثة، وكتب الجغرافيين، وكتب الرحالة والأدباء والفقهاء، والكتب المترجمة وغير المترجمة نهلت منها كل قول أو إشارة تلقي شعاعاً من المعرفة والتوثيق وسأقوم بالتعريف ببعض أهم المصادر والمراجع التي اعتمدت العام منها ثم الخاص، مرتبة بحسب قدم وفاة المؤرخ، لا حسب أهمية فائدها علماً بأنني قد أثبت في نهاية الدراسة جريدة بأسماء جميع المصادر والمراجع التي ورد ذكرها في حواشي الرسالة مرتبة حسب حروف المعجم.

كانت أهم المصادر التي اعتمدت:

١- (ابن القلانسي): حمزة بن أسد علي بن محمد التميمي (ت

٥٥٥هـ/١١٦٠م):

عني بالحديث والأدب، وله خط حسن ونثر ونظم وصنف تاريخه للحوادث بعد سنة ثمان وأربعين وأربعمائة إلى حين وفاته، وتولى رئاسة ديوان دمشق

مرتين، كان من أعيان دمشق ومن أفاضلها المبرزين، وكانت أسرة ابن القلانسي من كبار أسر دمشق وأعظمها مكانة.

يعتبر كتابه «تاريخ دمشق» من المصادر الهامة التي تحدثت عن قرنين من الزمن هما من أهم القرون، وبالنسبة لكثير من الأحداث هو المصدر المنفرد في هذين القرنين، جرت أحداث الصراع القرمطي الفاطمي على الشام، وأعقب ذلك الحكم الفاطمي للشام، وكان حكمه لم يعرف الاستقرار، لأسباب داخلية فاطمية، ولمقاومة أهل الشام لهذا الحكم، وابن القلانسي يروي لنا سيرة المقاومة الشامية، وهي سيرة لشعب دمشق، سيرة لمنظمات هذا الشعب وفتاته الاجتماعية، سيرة لعمران دمشق وخططها، من هنا كانت الإفادة من هذا الكتاب إفادة عظيمة وخاصة في الجانب السياسي والاجتماعي.

٢- (البيساني): القاضي الفاضل عبد الرحيم البيساني (ت سنة ٥٦٦هـ /

١١٧١م):

وله اليوميات التي تسمى بالمتجددات أو المياومات، أو الدستور، وهو يشمل الكتب والرسائل التي أنشأها كاتب صلاح الدين ومشيره الأمين، وقد وصلنا بعضها كاملاً أو في صورة مقتبسات في مؤلفات عماد الدين، وأبي شامة، وفي مجموعات مختلفة من الوثائق، ونحن نحس بمدى الود بين القاضي الفاضل وصلاح الدين، إذا نحن قرأنا رسائل القاضي الفاضل إليه وبخاصة خلال الحملة الصليبية الثالثة، فهذه الرسائل كان تشد من أزره في الملمات بل تقدم إليه التتبيه واللوم في بعض المناسبات، وعلى المؤرخ أن يأخذ الرسائل الرسمية العامة التي كان يرسلها القاضي الفاضل نيابة عن صلاح الدين إلى الخلفاء وغيرهم من الرؤساء بكل ما يقتضيه من حذر، ولكنه حين يرى كيف يعبر القاضي الفاضل عن بعض الموضوعات والأفكار في سداد وثبات لا يعتريهما تناقض، فعليه أن يعد ذلك على الأقل - صورة تمثل أهداف صلاح الدين ومثله الحقيقية.

٣- (ابن عساكر): أبو القاسم علي بن الحسن بن هبة الله الشافعي

الدمشقي توفي سنة (٥٧٢هـ / ١١٧٦م):

أسرته لا تحمل اسم عساكر ولكنه لقب نبذ به وأثبتته ابن الجوزي له فاستمر علماً عليه. نشأ بدمشق، وسمع الكثير عن شيوخها إلى أن أصبح شاباً، ثم ارتحل طلباً للعلم وسماع الحديث، فارتحل إلى بغداد ونيسابور وغيرهما من البلاد، وأخذ الكثير عن شيوخها حتى بلغ عدد شيوخه الذين أخذ عنهم بالسماع ألفاً وثلاثمائة شيخ، وستة وأربعين شيخاً أنشدوه، وعن مائتين وتسعين شيخاً بالإجازة «جمعهم في معجم شيوخه» ويضع وثمانون امرأة لهن معجم صغير وقد أشار إليه الذهبي، ثم عاد ابن عساكر بعد رحلته العلمية الطويلة إلى دمشق، وبرز في علم الحديث واشتهر أمره في البلاد، وولي مشيخة دار الحديث النورية بدمشق، ودرس، وصنف تاريخاً لمدينة دمشق في ثمانين مجلدة، ويعدّ هذا الكتاب من عمالقة ما صنف في هذا المجال.

وجاء كتابه على نمط كتب الطبقات للمحدثين والعلماء، ومولياً بعض الاهتمام لسواهم ولبعض رجال الحكم، ورتبه حسب حروف المعجم على طريقة المحدثين وذكر فيه من سكن دمشق، أو ورد إليها، أو مرّ بها من العلماء والأعيان.

كما تحدث ابن عساكر في تاريخه عن خطط مدينة دمشق، وتناول فيه أيضاً كثيراً من شيوخه وعدداً من شيخاته، ورجال السلطة والوجهاء الذين عاصروه، وكان للمرأة اهتمام واضح في كتابه «تاريخ دمشق» فقد أفرد لهن مجلدة كبيرة، ترجم فيها للنساء الشهيرات اللواتي قطن دمشق، أو وردن إليها، أو مررن بها، ورتبه أيضاً حسب حروف المعجم على طريقة المحدثين.

ويبدو أن الحافظ ابن عساكر فرغ في تصنيف تاريخ دمشق في سنة (٥٦٢هـ/١١٦٦م) ويؤكد صحة ذلك ما ذكره العماد الأصفهاني: «أنه عندما قدم إلى بلاد الشام، وأقام بدمشق، وكان ذلك في السنة المذكورة. تردد إلى ابن عساكر، وكان ابن عساكر قد صنف «تاريخ دمشق» وشاهده العماد الأصفهاني وكان في سبعمئة كراسة، كل كراسة عشرون ورقة، وعندما مات ابن عساكر لم يأخذ الكتاب شكله النهائي، والذي أعطاه شكله النهائي ولده القاسم بن عساكر، وهو أهم رواية هذا الكتاب، ثم أبو اليمن

الكندي، وذكر ابن العديم في كتابه «بغية الطلب» أن أحمد بن شأكر بن عبد الله بن محمد، أبو العلاء (ت ٦٣٨هـ، ١٢٤٠م) كان من أهل الفضل، وبيت العلم والقضاء، سمع أباه أبا اليسر شاكراً، والحافظ أبو القاسم علي بن عساكر الدمشقي وغيرهما، وكان يقطن معرة النعمان، وقدم إلى حلب مراراً متعددة. وقال ابن العديم: «وكنت ظفرت بسماعه بعدة أجزاء من تاريخ دمشق للحافظ أبي القاسم فانتخبت منها جزءاً لطيفاً وقرأته عليه بسماعه منه، وسمعه بقراءتي جماعة كانوا معي بحلب» وهكذا يؤكد ابن العديم أن الحافظ علي بن عساكر درّس كتابه «تاريخ دمشق» لطلاب هذا الشأن أيضاً. وبعد هذا الكتاب من المشاريع الهامة التي تراود خاطره وهو أعظم تاريخ من تراثا العربي، وكتابه هذا من المصادر الهامة والموثوقة لدى الباحثين المتقدمين والمتأخرين وتلحظ ذلك من خلال مصنفاتهم، كابن العديم، وأبو شامة، وابن خلكان، وغيرهم، والجدير بالإشارة أنه ترجم لهؤلاء العلماء من أول الإسلام إلى زمنه، هذا وقد خصص ابن عساكر المجلدة الأولى لذكر فضائل دمشق، وبعض الثانية لدراسة خططها ومساجدها وحماماتها وأهنتها وأبينتها وكنائسها. ثم أخذ بالترجمة لكل من نبع من أبنائها أو دخلها من غيرهم أو اجتاز بنواحيها من الخلفاء والولاة والقضاة والعلماء والقراء والتحات والشعراء والرواة ومنهجه في الترجمة هو منهج المحدثين في ذكر السند مهما طال أو تعدّد ثم ذكر الخبر، وأنهى الكتاب بمجلدة تحوي بمن عرف بكنيته فقط، وقد اعتمد ابن عساكر في جمع مادته ثلاثة أنواع من المصادر السماع من الشيوخ أولاً ثم المكاتبه معهم ثم الكتب المخطوطة ومؤلفات السابقين، ولعل أهم ما صنعه ابن عساكر أنه حفظ لنا في كتابه هذا تلك المصادر والمؤلفات المتفرقة التي كتبها الدماشقة وغيرهم حول تاريخ دمشق في القرون السابقة ثم أتى عليها الضياع.

من هنا يعدّ الكتاب بكامله عظيم الفائدة وبخاصة لبحثي فأفدت منه في التعرف على العلماء بمختلف فنونهم الذين قطنوا دمشق، والآثار العلمية التي خلّفوها، وكذلك بالنسبة للعلماء الواردين أو المارين بدمشق، فكان كتابه من

المصادر التي أغنت بحثنا ودراستنا. لابن عساكر مصنفات كثيرة جلّها في علوم الدين وهنالك مؤلفات تاريخية أيضاً تتحدث عن فضائل المدن وهي خمسة، القدس، مكة، المدينة، الخليل، عسقلان، وبعضها في المعاجم، وهي أربعة: معجم الشيوخ، ومعجم الشيوخ النبيل، ومعجم النساء، وكتاب البلاد والقرى التي حدث فيها ابن عساكر.

٤- (الوهراني): محمد بن محرز بن محمد (المتوفى بدمشق سنة ٥٧٥هـ/١١٧٩م):

وأصله من المغرب ولكنه بعد جولة في المشرق استقر في دمشق وعمل فيها خطيباً لجامع داريا وكان من الفقه والأدب والظرف بالمحل الكبير، له مجموعة من الكتابات نشرت باسم «منامات الوهراني» نشرها أحمد عبد العزيز الأحواني - القاهرة وفيها تصوير حي رائع للحياة الاجتماعية والأدبية في الشام في عصر نور الدين وصلاح الدين، ندر أن يعثر على مثله لدى مؤرخ آخر وبخاصة ما فيه من التصوير الكاريكاتوري الناقد لطبقات الناس، وكانت الإفادة منه واسعة أثناء الحديث عن الحياة الاجتماعية والثقافية.

٥- (ابن منقذ): أسامة بن منقذ (ت ٥٨٣هـ/١١٨٧م):

أحد أمراء بني منقذ، أمراء قلعة شيزر على نهر العاصي في شمال الشام، وما زال هذا المكان يعرف إلى اليوم باسم سيجر على بعد خمسة عشر ميلاً شمالي حماة على الضفة الغربية لنهر العاصي، لم يستطع الصليبيون الاستيلاء على قلعة شيزر لحصانتها والتفاف العاصي حولها، ولهذا استطاع سامة بحكم جواره للصليبيين أن يكون شاهد عيان لكثير من الحوادث التي جرت في تلك المنطقة.

هذا فضلاً عن أنه طاف بمعظم العواصم الإسلامية بالشرق العربي وقد دون كل مشاهداته أو مذكراته عن هذه البلاد في كتابه الذي أسماه «كتاب الاعتبار» وهو يعتبر وثيقة تاريخية هامة عن فترة الحروب الصليبية في تلك الآونة سواءً من ناحية الجانب الإسلامي أو الجانب الصليبي، فضلاً عن أنه يتضمن

صوراً مقارنة بين عادات المسلمين والفرنجة، شاهدها وعاينها سامة بنفسه، وقد مدح العماد الأصبهاني شاعريته وأدبه في كتابه خريدة القصر، كذلك أشار أبو شامة إلى أن صلاح الدين كان يحتفظ بديوان شعر لسامة وأنه كان معجباً بشعره، وكانت الإفادة في كتابه «الاعتبار» في مجمل فصول البحث وخاصة السياسي والاجتماعي.

٦- (الشيذري): عبد الرحمن بن نصر (ت ٥٨٩هـ/١١٩٣م)

يعدّ كتاب «نهاية الرتبة في طلب الحسبة» نبع من منابع المعرفة في أحوال المجتمع الإسلامي عامة، والأيوبي خاصة، وقد جاء على ذكر ما كان يقوم به أصحاب الحرف والصناعات من أنواع الفشوش في مبيعاتهم ومعاملاتهم، مما ينبئ عن أحوال التجارة في عصره، وفيه معلومات جمة ووافية عن الأسواق والموازين والنقود والمكايل والصناعات المختلفة، الخبز، والبطور، والحلوى، والحدادة، والنحاس، والأدوية، والأشربة، وفيه أيضاً أحكام البيع والشراء والوسطاء، ولذلك وجهت اهتمامي إلى معلوماته الموثقة والتي أغنت البحث من جميع جوانبه.

٧- (ابن الجوزي): أبو الفرج جمال الدين عبد الله بن علي بن محمد (ت

٥٩٧هـ/١٢٠٠م):

له شهرة واسعة بين المؤلفين الكبار، ولعله واحد من بضعة نفر في التاريخ الإسلامي، له كتب عدة في الحديث والفقه واللغة والأدب والتفسير والشعر والأصول والتصوف والطب، لكن أهمها في التاريخ كتاب «المنتظم في تاريخ الملوك والأمم» وهو التاريخ العام الذي كتبه في عشرة مجلدات وقد أفدت من كتابه هذا وخاصة الجزء السادس والسابع منه في الفصل الخاص بالأحداث الداخلية والخارجية وما خلفته من آثار على الناحيتين الاقتصادية والاجتماعية.

٨- (الأصبهاني): العماد الكاتب محمد بن محمد الأصبهاني (ت

٥٩٧هـ/١٢٠١م):

ولد العماد سنة (٥١٩هـ/١١٢٥م) بمدينة أصفهان ونال بها ثقافته الأولى، وأتقن اللغتين العربية والفارسية، وخشي والده من شر السلاجقة، فارتحل بأسرته إلى بغداد سنة (٥٣٤هـ/١١٣٩م) ليعيش في حمى الخليفة العباسي، وكان العماد قد بلغ الخامسة عشر من العمر. دخل العماد المدرسة النظامية ببغداد وتفقه فيها على المذهب الشافعي، وقرأ علوم اللغة العربية. وهكذا قضى العماد أيام شبابه ببغداد مكباً على التحصيل والدرس في أشهر مدارسها منتقلاً بين حلقات العلماء سعياً وراء المعرفة والتعلم.

قدم دمشق سنة (٥٦٢هـ/١١٦٦م) وتعرف بها على قاضيها، ومدبر أمورها، كمال الدين بن الشهرزوري، فأنزله بالمدرسة النورية الشافعية عند باب الفرج، خدم العماد الكاتب في ديون الإنشاء، وكان كاتباً وشاعراً، وكان له شأن أيام الدولتين النورية والصلاحية لقب بالكاتب لأنه عمل كاتباً لنور الدين ثم صلاح الدين، وصار في منزلة مرموقة لأنه أصبح الوزير الثاني بعد القاضي الفاضل، فكان القاضي الفاضل ينقطع بمصر لمهمات فيسد العماد في الخدمة مكانه، وكان العماد يصحب صلاح الدين في كل تنقلاته، فكان مؤرخاً حربياً نقل في كتبه العديد من أخبار حروب صلاح الدين وانتصاراته، وبعد وفاة صلاح الدين سنة (٥٨٩هـ/١١٩٣م) خدم ابنه الأفضل نور الدين على بضاعة الإنشاء، وخلال هذه الفترة اقتصر عمله على الكتابة بسبب ما شاهده من كثرة الدسائس والمؤامرات التي تكثف البيت الأيوبي من أجل السلطة لا سيما أن الأفضل اتخذ ضياء الدين بن الأثير وزيراً له.

وبعد فترة اضطر العماد إلى الارتحال إلى الملك العزيز بمصر، وأقام بها إلى سنة (٥٩٢هـ/١١٩٥م) حيث قدم مع الحملة التي قادها الملك العزيز مع عمه الملك العادل لعزل الملك الأفضل وطرد وزيره ابن الأثير، واعتزل العماد في هذه المدة العمل الديواني، ولزم بيته وعكف على التصنيف والتأليف، ومن أهم مؤلفاته كتابين أرخ فيهما لبلاد الشام وصلاح الدين يوسف بن أيوب وهما:

«البرق الشامي» يتحدث فيه عما وقع أثناء خدمته لنور الدين وصلاح الدين كما يتحدث عن فتوحات هذين البطلين في الشام، ورتب تلك الوقائع والأحداث

على السنين، وأرخ فيه منذ السنة التي قدم فيها إلى بلاد الشام، وتأتي أهمية هذا الكتاب من وثاقبته ومعاصرة مؤلفه للأحداث ومشاركته فيها، وهذا الكتاب لا يزال جلّه محفوظاً. وقد أفدت منه بما يخص أحداث دمشق في فترة صلاح الدين سواء السياسية أو الاجتماعية.

أما كتابه الثاني، وهو كتاب «الفتح القسي في الفتح القدسي» فقد أوقف مواده على سيرة صلاح الدين يوسف بن أيوب، وفتوحاته، ورتب وقائمه حسب السنين، وبدأه بسنة (٥٨٣هـ/١١٨٧م) وهي السنة التي فتح فيها صلاح الدين بيت المقدس، وأنهى الكتاب بوفاة صلاح الدين سنة (٥٨٩هـ/١١٩٣م).

وتتبع أهمية الكتاب من ذكره أخبار فتح بيت المقدس بشكل تفصيلي لكون المؤرخ قد رافق صلاح الدين في حروب التحرير هذه، وقد أفدت من هذا الكتاب بذكر العادات والتقاليد الاجتماعية ودور المرأة في الحروب، وكذلك فيما يخص أخلاقيات صلاح الدين الحربية ومعاملته لأعدائه.

وأيضاً حصلت من هذا الكتاب على بعض التراجم للأشخاص وأسماء الأسلحة والإقطاعات والأوقاف والمصطلحات مما أغنى البحث.

أما كتابه الثالث وهو من آثاره النثرية ويعرف بكتاب «خريدة القصر وجريدة العصر» وهو من المصنفات الهامة كتبه في عشرة مجلدات، وقسمه إلى أربعة أقسام، وذكر فيه أنه ترجم للشعراء الذين كانوا بعد المائة الخامسة إلى سنة (٥٩٢هـ/١١٩٥م)، من أهل العراق والشام ومصر، والجزيرة والمغرب، والأندلس.

وقد أفدت من هذا الكتاب القسم الثاني شعراء الشام، وخاصة ما يخص شعراء دمشق حيث أغنى البحث بعدد من الشعراء الذين تطرق إلى ذكرهم سواء في الجانب الاجتماعي من البحث أو الجانب الفكري.

٩- (الجويري): عبد الرحيم بن عمر الدمشقي المعروف بالجويري:

يعتبر كتابه المسمى «المختار في كشف الأسرار» من الكتب الهامة التي تكشف لنا أسرار الكثير من المهن والأطباء والمهندسين، ورجال الدين، والصنائع، والكتاب مؤلف من ثلاثين فصلاً كل فصل من فصوله يتحدث عن

جانب منفرد بأسراره عن الفصل الآخر فمثلاً الفصل العاشر يتحدث في كشف أسرار العطارين والفصل الثاني عشر يتحدث في كشف أسرار أصحاب السير وهم «المنجمون» والفصل الرابع عشر في كشف أسرار الأطباء الطريق والفصل الرابع والعشرين في كشف أسرار الجوهريين وفعلهم، وعلى هذا كانت الإفادة من هذا الكتاب رغم صغر حجمه كبيرة، وخاصة ما يخص الجانب الاقتصادي أثناء الحديث عن الصناعات، وكذلك الجانب الاجتماعي.

١٠- (ابن ممتي): الأسعد بن المهذب (ت ٦٠٦هـ/١٢٠٩م):

وهو أحد وزراء الدولة الأيوبية. وكتابه «قوانين الدواوين» من الكتب الفريدة في بابها، العظيمة في مضمونها، قدّم فيه معلومات هامة جداً قلّما نجدها في المصادر الأخرى، ومع أن الكتاب خصص للديار المصرية إلا أن المعلومات التي أوردها في البابين التاسع والثامن والتي تحدث فيها عن النواحي الإقطاعية والاقتصادية تنطبق على بلاد الشام ومصر لأن البلدين يكملان بعضهما اقتصادياً. وقد أفدت منه من كل ماله صلة ببحثنا، وقد ذكرت ذلك في أثناء البحث.

١١- (ابن جبير): محمد بن أحمد الأندلسي (ت ٦١٤هـ/١٢١٧م):

الرحالة الأندلسي، وكتابه «تذكرة بالأخبار عن اتفاقات الأسفار» المسمى برحلة ابن جبير، وهو أشبه بمذكرات يومية، سجل فيه ملاحظاته ومشاهداته، واهتم بالشؤون الاقتصادية والاجتماعية للبلاد التي زارها، وقد اقتبست منها الشيء الكثير لصلتها المباشرة في مُدة «موضوع البحث»، وابن حبير أوثق المصادر لأنه شاهد عيان، وبخاصة فيما يتعلق بالعلاقات الاقتصادية بين العرب المسلمين والفرنج الصليبيين، وبحركة التجارة إلى مصر والحجاز، كما انه وصف دمشق وأسواقها وحماماتها، وعرج على النواحي الاجتماعية، لذلك كانت الإفادة منه عظيمة.

١٢- (ابن الأثير): عز الدين أبو الحسن علي بن محمد بن الأثير الشيباني

(ت ٦٣٠هـ/١٢٣٢م):

عرف بابن الأثير الجزري نسبة إلى جزيرة ابن عمر، وهو المحدث والمؤرخ، وهو ثالث ثلاثة إخوة هو أوسطهم، أما أكبرهم فهو مجد الدين أبو السعادات المبارك بن محمد (ت ٦٠٦هـ/١٢٠٩م).

عاش بالموصل، وكان قاضياً على المذهب الشافعي بها، وكان أصغرهم ضياء الدين أبو الفتح نصر الله بن محمد صاحب كتاب «المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر»، (ت ٩٣٧هـ/١٢٣٩م) وزير الملك الأفضل علي.

نشأ عز الدين في عيش رغيد لأن والده كان من الأثرياء، وارتحل عز الدين مع والده وأخوته إلى الموصل وتلقى العلم من بعض رجالاتها، وارتحل إلى الشام طلباً للعلم، وسمع بالقدس ودمشق عن جماعة إلى أن برع وصار من أئمة الحديث متناً وإسناداً، وحافظاً للتواريخ المتقدمة والمتأخرة عالماً بأنساب العرب وأخبارهم وأيامهم ووقائعهم.

صنف ابن الأثير العديد من الكتب، وقد اعتمدت كتابيه «الكامل في التاريخ» وكتاب «الباهر في الدولة الأتابكية».

ويعدّ كتابه «الكامل» من أهم وأعظم مؤلفاته فهو واحد من الكتب التاريخية العربية التي خرجت من النطاق المحلي، لتشمل ما يدور خارج نطاق العراق وبلاد الشام.

عدت كتابات ابن الأثير مصدراً موثقاً، لكونه مطلعاً على خفايا الأمور ومجرياتها لكن هذه الثقة أخذت تتزعزع مؤخراً، إذ اتضح للباحثين أن ابن الأثير كان يحرف الكلام عن موضعه لينال من صلاح الدين يوسف بن أيوب وأسرته، لأن ابن الأثير كان قد عاش في حمى أتابكة الموصل أعداء صلاح الدين لذلك نقم على صلاح الدين وخاصة عندما تملك صلاح الدين مصر واعتبره خارجاً على سيده نور الدين وأنه أراد الاستقلال بها وأنه يريد إبقاء الخلافة الفاطمية خوفاً من نور الدين، لأنه كان يخاف أن يدخل نور الدين الديار المصرية، ويأخذها منه فكان صلاح الدين يريد أن يكون العاضد

الفاطمي معه حتى إذا قصده نور الدين امتنع به وبأهل مصر، وهذا على حد قول ابن الأثير علماً بأن الوقائع تشير إلى عكس ما ذكره ابن الأثير. ومع ذلك يظل ابن الأثير مؤرخاً حقيقياً، لا بد للعودة إلى كتبه لذلك اعتمدت كتابيه «الكامل» و«الباهر في الدولة الأتابكية» كمصدرين أساسيين من مصادر البحث وقد اعتمدت على الأجزاء الثلاثة الأخيرة من كتاب «الكامل» واستخلصت منه كل ما يخص البحث في الفترة الأيوبية بدمشق سواء السياسية أو الاقتصادية أو الاجتماعية، والحرب الأيوبية واستخلصت منها فوائد كثيرة أغنت دراستي بما يخص فترة البحث.

١٣- (الحموي): محمد بن علي نظيف (ت ٦٣١هـ/ ١٢٣٤م):

لم يكن مؤرخاً فحسب بل كان شاعراً، لم يبق من شعره سوى خمسة أبيات، وقد ألف ثلاثة كتب تاريخية أشهرها «الكشف والبيان في حوادث الزمان» وقد فُقد، ولخصه بكتابه «التاريخ المنصوري» ومع أنه التزم الإيجاز فقد قدم أخباراً كثيرة مفصلة عن حمص وأخبار صاحبها الملك المجاهد، وفيه معلومات هامة عن حوادث القرنين السادس والسابع الهجريين، وقد أفادتني في معظم النزاعات الداخلية بين أفراد البيت الأيوبي كمعوقات اقتصادية بالإضافة إلى إشارته عن الأمراض والأوبئة والإقطاعات.

١٤- (ابن شداد): أبو العز يوسف بن رافع بن تميم الحلبي (ت

٦٣٢هـ/ ١٣٢٤م)

كان حافظاً للحديث بارعاً في الفقه على المذهب الشافعي، اتصل بالسلطان صلاح الدين وحظي عنده وولاه قضاء العسكر، وقضاء بيت المقدس، ثم ولاء قضاء حلب ونظر في أوقافها، ولازم ابن شداد صلاح الدين ورافقه في أغلب معاركه ضد الفرنجة الغزاة كذلك صنف كتابه «النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية» أو ما عرف بـ «سيرة صلاح الدين يوسف بن أيوب» وبدأه بأحداث سنة (٥٥٨هـ/ ١١٦٢م) وأنهى بسنة (٥٨٩هـ/ ١١٩٣م) وهي سنة وفاة صلاح الدين

يوسف، ويمكن تقسيم كتابه إلى قسمين، الأول: خصصه لحياة صلاح الدين وفضائله وخصص لكل فضيلة فصلاً، أما الثاني: وهو القسم الرئيسي للكتاب تضمن الأحداث التي حصلت منذ زمن حملات شيركوه في مصر، وحتى وفاة صلاح الدين، ونلاحظ أن رواياته عن أحداث الفترة التي رافق فيها سيده صلاح الدين تامة ودقيقة، فهو شاهد عيان لها، أما بالنسبة للسنوات السابقة، استمد مواده من المصادر الأكثر أهلاً للثقة أو التي أخبره بها بعض الناس، لذلك جاءت تلك الروايات غير دقيقة في بعض الأحيان، ومع كل ذلك يعدّ كتابه (سيرة صلاح الدين) في أهم المصادر لسيرة صلاح الدين بشهادة جميع المؤرخين، ويحتوي هذا الكتاب على إشارات كثيرة تتعلق بالناحى الاقتصادية والاجتماعية والثقافية، وبخاصة إزالة المكوس، وكذلك فيه معلومات عن الإقطاعات التي منحها لأقاربه وقادته وغيرهم. بالإضافة إلى التعاليم التي وجهها إلى الجباة والمحاسبين لإقامة العدل بين الرعية، وقد استتبعت كل هذه المعلومات وأفدت منها فأغنت البحث علماً وتوثيقاً.

١٥- (البنداري): الفتح بن علي (ت ٦٤٣هـ/١٢٤٥م)

مؤرخ ذو ثقافة عربية وفارسية، كان مولماً بالتاريخ أوجز كتاب البرق الشامي للأصبهاني بكتاب أسماه «سنا البرق الشامي» والكتاب سجل كامل للأحداث التي وقعت في عهد صلاح الدين، والقسم المنشور يمثل المجلد الأول وحوادثه من سنة «٥٦٣هـ/٥٨٣م» والمعلومات الاقتصادية ضئيلة لذلك كانت الإفادة منه قليلة.

١٦- (سيبط ابن الجوزي): يوسف بن قزا أو غلي (حفيد صاحب المنتظم)

تركي بغدادى، رحل إلى دمشق بعد الستمئة بقليل، وعاش فيها قرابة نصف قرن واتصل بملوكها (ت ٦٥٤هـ/١٢٥٦م) أشهر مؤلفاته «مرآة الزمان» وهو في أربعين مجلدة بدأ فيه من أول الزمان حتى سنة وفاته، ورتب ما بعد الهجرة على السنين يذكر الحوادث ثم الوفيات، ويتحدث الجزء الثامن منه ما

بين السنتين (٤٩٥ - ٦٥٤هـ) ويعتبر هذا الكتاب من التواريخ العامة التي قدمت معلومات وافية من أحداث القرن الخامس والسادس في بلاد الشام بشكل عام، وتزداد أهمية الكتاب لاعتماده على مصادر مفقودة، وقد أفدت منه في معظم فصول البحث وخاصة فيما يتعلق بالأحداث الداخلية والخارجية، وأثرها على الحياة الاقتصادية والاجتماعية.

١٧- (ابن العديم): كمال الدين (ت ٦٦٠هـ/١٢٦٢م)

نشأ ابن العديم وتعلم في حلب على يد والده وعمه وعديد من العلماء، ورافق أباه في رحلاته إلى دمشق والقدس والعراق والحجاز، ترك لنا ثروة تاريخية هامة، وأشهر كتبه «بغية الطلب في تاريخ حلب» و«زبدة حلب في تاريخ حلب»، والكتاب الثاني مطبوع، اعتمدت على الجزء الثالث منه والذي يؤرخ فيه من سنة (٥٦٩هـ/٦٤١هـ) وهي الفترة الأيوبية موضوع البحث، وهذا الجزء سجل حافل لأحداث بلاد الشام في ظل الأيوبيين، وفيه إشارات كثيرة إلى النواحي الاقتصادية.

١٨- (أبو شامة): شهاب الدين عبد الرحمن بن إسماعيل بن إبراهيم

المقدسي ت (٦٦٥هـ/١٢٦٧م):

كان عالماً واسع الاطلاع، ولي التدريس في مدارس دمشق الكبار، كان متقناً للقراءات واللغة والفقه، حافظاً للحديث، عالماً بأخبار الناس، ومعرفة الرجال، وقد صنّف كتبه حسب طريقة الحوليات بدأ كتابه «الروضتين» بأحداث سنة (٤٨٥هـ/١٠٩٥م) وأنهاه بأحداث سنة (٥٨٩هـ/١١٩٣م) وهي سنة وفاة صلاح الدين الأيوبي أما كتابه «الذيل على الروضتين» فقد بدأ به بأحداث سنة (٥٩٠هـ/١١٩٤م) وأنهاه بأحداث سنة (٦٦٥هـ/١٢٦٧م) واعتمد في تاريخه الأول على الوثائق الرسمية والمستندات، وهو سجل غني بمعلوماته الاقتصادية عن الصناعات المختلفة والألبسة، والأسعار، والإقطاع، والتراجم، واعتمده

كمصدر هام من مصادر البحث حيث أفدت منه بكل المعلومات التي لها صلة بموضوع البحث.

أما كتابه «الذيل على الروضتين» فقد تناول فيه فترة الانتقال بين الأيوبيين والمماليك وكذلك الصراع الأيوبي على دمشق، وقد اعتمد فيه على مشاهداته وكذلك اعتماده على مصنفات المؤرخين الذين عاشوا في قلب الحدث، وكانت إفادتي من هذا الكتاب كثيرة ومتعددة الجوانب، وذلك من خلال رصد الأعمال العسكرية بين أبناء البيت الأيوبي، وما آلت إليه هذه الأعمال من دمار وخراب لدمشق، وكذلك معاناة المجتمع الدمشقي من هذه الأعمال، وأثرها على هذا المجتمع وكذلك تم رصد تراجع لبعض الشخصيات السياسية والاجتماعية والفكرية الدمشقية، وأيضاً رصد معاناة أهالي دمشق نتيجة ما حل بها من كوارث طبيعية وأثرها على الوضع الاجتماعي، فكانت الإفادة من هذا الكتاب شاملة لمختلف جوانب البحث.

١٩- (ابن أبي أصيبعة): أبو العباس موفق الدين أحمد بن القاسم بن خليفة

الخرزجي (المتوفى سنة ٦٦٨هـ/١٢٧٠م):

ولد سنة ٦٠٠هـ في دمشق لوالد من أشهر الكحالين (أطباء العيون) فيها. وانصرف إلى تلقي الطب عن والده، ثم سافر إلى القاهرة والتحق فيها بالمدرسة الناصري ويدرّس ويتمرن، وقد اشتهر بمهارته للدرجة التي استدعاه فيها أمير بلدة (صرخد) الأيوبي. فرحل إليه وأعجبه مناخ البلد الجبلي فبقي هناك حتى وفاته وضع ابن أبي أصيبعة مؤلفاً ضخماً قدمه لبعض وزراء الأيوبيين بعد أن قضى السنين الطوال في جمع مادته وتحقيق أخباره وهو «عيون الأنبياء في طبقات الأطباء» وهو من بين كتب الفلاسفة الأطباء ورجال الحكمة أوفرها مادة وأوسعها أخباراً، أورد فيه حوالي ٤٠٠ / ترجمة بدأها بمقدمة عن تاريخ الطب وأهله ثم أورد تراجم كبار الأطباء الإغريق والرومان وغيرهم وبعد أن تناول تراجم الأطباء من أول ظهور الإسلام والعصر الأموي ينصرف إلى ذكر «الأطباء

السريانيين الذين كانوا في ابتداء ظهور دولة بني العباس، ثم الأطباء الناقلة إلى العربية، ثم يتناول ذكر أطباء العصر الإسلامي في الأقاليم المختلفة، في بلاد العجم والهند، والمغرب العربي، ومصر وبلاد الشام، كل ذلك حتى عهده. تميز ابن أبي أصيبعة بالحس الأدبي فقد أدخل على كتابه الكثير من الطرافة ومن الإشارات والفوائد الاجتماعية والاقتصادية ومن أخبار التصوف، لذلك كانت الإفادة من هذا الكتاب كبيرة، وخاصة في ميدان العلوم الطبيعية ومدارس الطب في دمشق.

٢٠ - (ابن خلكان): شمس الدين أحمد بن محمد بن إبراهيم بن خلكان:

كان قاضي دمشق مرتين درس في كثير من مدارسها (ت ٦٨١هـ/٢٨٣م) يعتبر كتابه: (وفيات الأعيان، وأنباء أبناء الزمان) من كتب التراجم الهامة وقد أفدت منه بالتعريف عن بعض الشخصيات الواردة أثناء البحث.

٢١ - (ابن شداد): عز الدين محمد بن علي (ت ٦٨٤هـ/٢٨٥م):

عاش في كنف السلطان الظاهر بيبرس، وهو صاحب كتاب «الأعلاق الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة»، وقد اعتمد فيه على روايات الثقات، وعاصر الأحداث التي وقعت في أواخر عصر الدولة الأيوبية. قسّم الكتاب إلى قسمين فجعل الأول لما في داخل دمشق، والقسم الثاني لما في خارجها. والفصول التي أوردها حول بلاد الشام تكاد تجمع كل ما في الكتب العربية التي وصلتنا حتى اليوم، ففيه دراسة شاملة عن الأسواق والتجارات والإقطاعات والنباتات، والقنوات، والجبال، وهذا ما جعلني أوجه الاهتمام إليه، أرشف من معينه، وأدعم قولي بمروياته الموثقة عن النواحي الاقتصادية.

٢٢ - (ابن واصل): جمال الدين محمد بن سالم (ت ٦٩٧هـ/٢٩٨م)

وقد عاصر احتضار الدولة الأيوبية، وقيام دولة المماليك وكتابه «مفرج الكروب في أخبار بني أيوب» «حجة في تاريخ الدولة الأيوبية المتأخرة» قيم بمعلوماته عن الحياة السياسية والإدارية والاجتماعية، والعلمية، والأدبية لعصر

بني أيوب، وأما الفائدة فكانت كثيرة، وخاصة بالنواحي السياسية والإدارية والاجتماعية.

٢٣- (الذهبي) : محمد بن عثمان بن قايماز، التركماني الأصل، الدمشقي

المولد والوفاة (ت ٧٤٨هـ/١٣٤٧م)

الحافظ المحدث المؤرخ، أعظم المؤرخين الدمشقيين بعد ابن عساكر، من كتبه «تاريخ الإسلام» في اثني عشر مجلداً جمع فيه بين الحوادث والوفيات، وقف فيه عند سنة (٧٠٠هـ) وكتاب «سير أعلام النبلاء» وكتاب «تذكرة الحفاظ» و«العبر في خبر من غبر» و«دول الإسلام» وهناك العديد من الكتب منها ما هو مخطوط ومنها ما قد طبع.

وقد أفدت من كتبه في معظم فصول البحث وكذلك في التراجم .

٢٤- (أبو الفداء): عماد الدين إسماعيل بن محمد بن عمر صاحب حماة (ت

٧٣٢هـ/١٣٣١م)

وكتابه «تقويم البلدان» معجم بلداني يتحدث فيه عن كل بلد وصفاً مع ضبط الأسماء والمصدر الذي اعتمد عليه، وقد اعتمده كمصدر هام للتعريف بالمدن، ووصفها ومحتوياتها الاقتصادية والزراعية والصناعية، وشهرتها التجارية. وبالتعريف أيضاً في بعض الأماكن التي وردت في متن الدراسة، ولها علاقة اقتصادية.

وأما كتابه «المختصر في أخبار البشر» ففيه إشارات عن النواحي الاقتصادية والاجتماعية كانت الإفادة منها في موضوع البحث.

٢٥- (الداوداري): أبو بكر عبد الله بن أيوب (ت ٧٣٦هـ/١٣٣٢ - ١٣٣٦م):

وهو من المؤرخين الذين كتبوا عن الدولة الأيوبية، وكتابه الشهير «كنز الدرر وجامع الغرر» أفرد فيه جزءاً خاصاً . هو الجزء السابع . أسماء «الدر المطلوب في أخبار بني أيوب» وقد تضمن معلومات جغرافية وأهية عن مدن بلاد الشام، ومعلومات زراعية عن الغوطة وغيرها من المناطق وعن أنهار الشام،

والمنشآت العسكرية والمعوقات الاقتصادية «زلازل»، قطاع طرق، وصراعات داخلية، طواعين، كما تحدث عن العملات والتجارات والأسعار والمبيعات، وقد أفدت منه فائدة كبيرة.

٢٦- (ابن كثير): عماد الدين إسماعيل (ت ٧٧٤هـ/١٣٧٢م):

وكتابه «البداية والنهاية» جاء في أربعة عشر مجلداً أغناها بالمعلومات لفترة البحث، الجزء الثالث عشر، وفيه تراجم للسلطين والأمراء مع إشارات واضحة عن المعوقات الاقتصادية، وبخاصة الأوبئة والزلازل، ويتضمن أيضاً معلومات عن أنواع الملبوسات وبعض الزراعات، والمواد المجلوبة من اليمن، كما يفصل في الأحداث السياسية وبخاصة النزاع بين أبناء البيت الأيوبي فهو من المصادر التي أوليتها اهتمامي واعتمده في توثيق معلوماتي الاقتصادية.

٢٧- (ابن بطوطة): محمد بن عبد الله بن محمد (ت ٧٧٩هـ/١٣٧٧م):

وهو مغربي الأصل ولد بطنجة (٧٠٣هـ/١٣٠٣م) ورحل إلى جميع أنحاء العالم المعروف آنذاك مدة تسعة وعشرين عاماً، قطع خلالها ما يقرب من مائة وعشرين ألف كيلو متر، وكتابه «تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار» المشهور برحلة ابن بطوطة سجل تاريخ جغرافي عظيم لثراء مادته ووفرة ملاحظاته ودقة معلوماته عن البلاد التي مر بها، فهو يذكر البلد ويشير إلى تاريخه، وأهم معالمه وأحداثه واقتصادياته، ولذا كانت الفائدة منه كبيرة، استكمالاً لمعلومات ابن جبير، وبخاصة الأمور الاقتصادية والزراعية والصناعية والتجارية..

٢٨- (ابن الفرات): ناصر الدين محمد بن عبد الرحيم (ت ٨٠٧هـ/١٤٠٤م):

صاحب التاريخ المسمى باسمه، والذي أورد معلومات كثيرة عن النواحي الإدارية والإقطاع وفيه إشارات إلى أنواع السفن، والأوزان والمكاييل وأنواع الثياب، كما ورد فيه ذكر للعملة والنقود والزلازل، وقد أفدت من كل هذه الإشارات لصلتها الوثيقة بالبحث.

٢٩- (الفلقشندي): أحمد بن علي (ت ٨٢١هـ/١٤١٨م):

يعتبر كتابه «صبح الأعشى في صناعة الإنشاء» موسوعة ضخمة للحياة السياسية والاقتصادية والثقافية والاجتماعية والأدبية، والكتاب يقع في أربعة عشر مجلداً، وفيه من المعلومات الاقتصادية بما فيها الصناعات والمتاجرات وملكية الأراضي والزراعات، مما جعلني أقبل على ما احتواه بكامل أجزائه لأنه غني بالمعلومات التي تخص البحث بأكمله.

٣٠- (المقريزي): تقي الدين أحمد بن علي (ت ٨٤٥هـ/١٤٤١م):

وهو شيخ المؤرخين، وصاحب مدرسة تاريخية تنوعت مادتها وتعددت، فكتب التاريخ والسياسة والعمران، وعالج الأزمات الاقتصادية ومشكلاتها. وأشهر كتبه:

أ - السلوك لمعرفة دول الملوك: وما أورده فيه على قصره واختصاره أحياناً وعدم معاصرة مؤلفه للفترة الزمنية التي يكتب عنها جاء أوفى بكثير مما كتبه معاصرو الأيوبيين ويتحدث عن الدولة الأيوبية بشيء من التفصيل، ويشير إلى فتوحات صلاح الدين وأعماله العسكرية ونسب الأيوبيين. وقد أفدت منه وخاصة من الإشارات التي أوردها حول الأمور الاقتصادية، وأما الكتاب الذي كان موضع اهتمامي، واعتمدت عليه بشكل كبير فهو الخطط المقريزية لاشتماله على معلومات هامة عن الحياة الاقتصادية بكل أشكالها، والناحية المالية وأحوالها، وإن كان الكتاب خاصاً بمصر فإن أوضاع مصر كانت مشابهة لمثيلاتها في دمشق، حيث شكلت وحدة جهادية في ظل الأيوبيين.

كذلك أفدت من كتابه «شذوذ العقود» وما اشتمل عليه من النقود والأوزان والمكاييل و«إغاثة الأمة في كشف الغمة» أفدت منه في الجانب الاقتصادي والاجتماعي وكذلك كتاب «المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار» والذي يعرف بالخطط. شكلت كتب المقريزي مصدراً هاماً من مصادر البحث،

وأفدت منها فوائد عظيمة في الإقطاع العسكري والنقود والمكايل والموازين والأحداث السياسية، والعلاقات التجارية وغيرها.

٣١- (ابن تغري بردي): أبو المحاسن يوسف (ت ٨٧٤هـ/١٤٦٩م):

أفدت من المعلومات التي أوردها في كتابه «النجوم الزاهرة في أخبار ملوك مصر والقاهرة» وخاصة الأجزاء الثالث والرابع، في الباب الأول من البحث، وكذلك في الفصل التمهيدي، وخاصة أثناء التحدث عن العلاقات بين حكام دمشق وعلاقاتهم مع الخلفاء الفاطميين في مصر.

٣٢- (الحنبلي): أحمد بن إبراهيم (ت ٨٧٦هـ/١٤٧١م):

يعتبر كتابه «شفاء القلوب في مناقب بين أيوب» من أهم المصادر التي تحدثت عن النشاط التجاري للمدن الإيطالية في مصر والشام، وبخاصة في عصر العادل سيف الدين أبي بكر، كما أنه يذكر تاريخ أعلام بني أيوب بشكل موجز إن لم نقل سيرة بني أيوب منذ تأسيس دولتهم حتى سقوطها، ويورد إشارات عن الإقطاع، والمعوقات الاقتصادية، كالتطاعون مثلاً، كما يصف مناخ بلاد الشام، واستقيت من هذا الكتاب ما أغنى البحث تعرفاً على بني أيوب واقتصادياتهم.

٣٣- (ابن بسام): محمد بن أحمد (ت بعد ٨٨٤هـ/١٤٧٩م) (من رجالات

القرن الثامن الهجري):

كان محتسباً وأدخل الكثير من تجاربه في كتابه «نهاية الرتبة في طلب الحسبة» كان معجباً بالشييزري، وكتابه إلى حد أنه أطلق على كتابه عنوان الشييزري نفسه، ونقل مقدمته كذلك اختصر بعض الأبواب، وعلى أية حال فالكتاب يصور الحياة الاقتصادية من كافة الجوانب تصويراً دقيقاً، وقد أفدت منه لإكمال الثغرات التي تركها الشييزري من حيث الأسواق والمبيعات، وبعض الصناعات والنباتات وملكية الأراضي والإقطاع والأسعار والعملات.

٣٤- (النعيمي): عبد القادر بن محمد (ت ٩٢٧هـ/١٥٢٠م):

اشتهر بعلمي الحديث والتاريخ، وكتابه «الدارس في تاريخ المدارس» يأتي من حيث أهميته بعد تاريخ ابن عساكر، جمع فيه المؤلف تاريخ دور القرآن والحديث والمدارس، والخوانق، والتكايا والربط، والزوايا، والجوامع المعروفة في دمشق، فهو خير كتاب يبسط لنا النهضة العلمية في دمشق خلال خمسة قرون، ومن مميزاته ومحاسنه أنه جمع أخبار ما هو مشتمت في كتب التراجم فهو فريد من نوعه، وكانت الفائدة منه عظيمة في الجانب الثقافى من حيث تعداد المدارس، وطرائق التدريس، والأوقاف التي أوقفت لهذه المدارس.

هذا وقد استعنت في بحثي بالمصادر التي سبقت مدة الدراسة والتي تحدثت عن دمشق جغرافياً واقتصادياً وسياسياً. لأن الحقبة التي أكتب عنها هي استمرار لتاريخ متقدم، ومنها كتاب «نزهة المشتاق للإدرسي» وكتاب «صورة الأرض» لابن حوقل، وكتاب «المسالك والممالك» لابن خرداذبة، وكتاب «أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم» للمقدسي، وكتاب «الأحكام السلطانية» للماوردي.

وهكذا فقد أغنت هذه المصادر الجغرافية البحث وجعلته أكثر توثيقاً من النواحي الاقتصادية والاجتماعية أيضاً.

وتعدّ المصنفات الأدبية شعراً ونثراً مصدراً غنياً لتاريخ دمشق زمن الأيوبيين الذين ازدان بلاطهم بباقة زاهية من الشعراء والأدباء، لذلك فقد أفدت من دواوين شعراء هذه الفترة، ويأتي في مقدمتهم، شرف الدين ابن عنين، والأمير سامة بن منقذ، ونشوء الدولة أبو الفضل أحمد بن عبد الرحمن بن علي بن مبارك السلمي، وعرقلة اندمشقي، وفتيان الشاغوري الدمشقي، وقد اختلفت طبيعة أشعارهم، فمنهم من وصف البلاد، وبعضهم قدّم وصفاً لحياة أفراد المجتمع، ومنهم من اقتصرت أشعاره على مدح الحكام ووصف حروبهم مع الصليبيين واعتمدت في البحث على الكثير من كتب التراجم وأفدت منها

بالتعريف ببعض الشخصيات وأهم هذه الكتب «فوات الوفيات» لابن شاکر.
وكتاب «الأعلام» للزركلي.

كما أفدت من بعض المراجع التي تلت فترة البحث والتي لها علاقة وثيقة
ببحثنا ومنها كتاب «نزهة الأنام في محاسن الشام» لأبي البقاء البدری، وكتب
«النظم الإسلامية» لأنور الرفاعي، وصبحي الصالح، و«نظام الإقطاع» لإبراهيم
طرخان، وكتب د. سهيل زكار «حطين ومسيرة التحرير»، و«تاريخ الحروب
الصليبية» و«التاريخ العباسي والأندلسي» و«الموسوعة الشامية» بأجزائها التي
تخص موضوع البحث.

و«النظم المالية» لحسنين محمد ربيع، وكتب سعيد عبد الفتاح عاشور،
ومحمد كرد علي، وشاکر مصطفى وغيرهم، مما سيرد ذكرهم في ثبت
المصادر والمراجع بالإضافة إلى الكتب الأجنبية المترجمة مثل كتاب «الحضارة
العربية الإسلامية» لأدم متز و«التاريخ الاقتصادي والاجتماعي» لآشور، كما
أنني عدت إلى الكتب اللاتينية التي تخص موضوع البحث، وأخذت منها كل
ما يفيد البحث وجُلُّ هذه الكتب موجودة في «الموسوعة الشاملة».

هذا وسأذكر في ثبت المصادر والمراجع أسماء الكتب التي عدت إليها
وأغنت البحث علماً ومادة وتوضيحاً.

مدخل

الأحوال السياسية خلال العصرين الأتابكي والأيوبي

١- العصر الأتابكي:

لدمشق بين مدن العالم الإسلامي مكانة خاصة تميزت بها على مر العصور تاريخها قبل الإسلام عريق في القدم، وهناك من يعدها أقدم المدن المسكونة، والعرب الفاتحون عرفوا قيمتها فاهتموا بالمحافظة عليها ورفعوا شأنها، حتى أصبحت داراً للخلافة وقاعدة للدولة الإسلامية النامية الفازية، المتوسعة في عصر بني أمية، ثم جار عليها الزمن في عصر بني العباس، وتواترت فيها الفتن، فتداعت معالمها الأموية واضمحلت، ولم يبق منها قائماً إلا الجامع الكبير عند باب البريد، والعمقوان الأموي الذي حافظ عليه أهل دمشق على الرغم من حيف السلطان وتماقب المحن.^(١)

في أواخر القرن الرابع للهجرة بلغ التنافس أشده بين حاضرتين عظيمتين من أشهر الحواضر الإسلامية، القاهرة في الغرب، وخليفتها المعز لدين الله الفاطمي، وبغداد في الشرق وخليفتها المطيع لله العباسي. وأخذت كل منهما تسابق الأخرى لبسط نفوذها على العالم الإسلامي، وتفرض سلطانها عليه غير أن الغلبة والفوز كانا أولاً للقاهرة دار الخلافة الإسماعيلية الفتية، على بغداد دار الخلافة العباسية المتداعية، التي انتقص الكثير من أملاكها واتسعت أملاك دار الخلافة الإسماعيلية، وامتدت من المحيط الأطلسي غرباً إلى نهر الفرات شرقاً، ودعي لخليفة مصر على منابر الحجاز والشام واليمن والموصل ومالطة وصقلية، وكادت هذه الدولة أن تملك ملكاً عاماً وأن تدين الأمم لها.^(٢)

(١) يحيى بن سعيد الأنطاكي: التاريخ المجموع على التحقيق والتصديق ص ٢٠٦ السيوطي تاريخ

الخلفاء ص ٢٧٤ - ابن خلدون: العبرج ٤ ص ١٠١

(٢) ابن ميسر: تاريخ مصر ص ٨١ - المقرئ: الخطط ج ٢ ص ٣٤١ - أنماط الحنفا ص ١٤٥ - ١٤٦ -

السيوطي: تاريخ الخلفاء ص ٢٧٤ - ابن خلدون: العبرج ٤ ص ٢٢٥ - ٢٥٤.

وهكذا نجح الفاطميون بتأسيس دولة شاسعة وحضارة متميزة، واشتهرت بنظمها الإدارية المحكمة وفنونها، وجيوشها، وأساطيلها، وإقامة العدل في محاكمها، وتسامحها الديني إلى جانب ما عرفت به من تشجيع للعلم والثقافة، وكانت دمشق جزءاً من هذه الدولة.

بسط الفاطميون عليها سيادتهم سنة (٣٦٣هـ / ٩٧٤م) وأرسل الفاطميون ولاتهم وعمالهم إليها، لكن هؤلاء الولاة لم يستطيعوا أن ينشروا الطمأنينة والأمن فيها، وكانت الأخبار تنتهي إلى المعز لدين الله بما يجري على أهل دمشق من الحروب وإحراق المنازل، والنهب والسلب، وإخافة المسالك وقطع الطرقات على يد عساكر المغاربة.^(١)

وحمل الاضطراب في الأمن والإدارة، الدمشقيون على أن يحيوا حياة خاصة فقد انقسمت المدينة إلى أحياء مستقلة عن بعضها، كل حي أشبه بمدينة صغيرة تتألف من أزقة ضيقة ودخلات لا منافذ لها فيها مسجدها وسوقها، وحمامها، ومياهاها، ولها باب يقفل في الليل يتناوب على حراسته أفراد من أبناء الحي نفسه، أما الأماكن التي يشترك فيها سكان دمشق جميعهم فهي:

أولاً: الجامع الأموي:

لأداء صلاة الجمعة وصلاة العيدين أحياناً، ثم فيه يستمعون إلى ما يذاع عليهم من أنباء الجهات ومراسيم السلطان.

ثانياً: الأسواق:

كان عرضها من متر إلى ثلاثة أمتار تمتد متوازية في قلب المدينة.^(٢) فيها حوانيت التجار والصناع ويختص كل منها بحرفة من الحرف وتقع الخانات التجارية بينهما ولكل سوق مدخلان يقفلان عند المساء، ولا تزال بقايا هذه

(١) ابن القلانسي: تاريخ دمشق ص ٢٠ أبو الفداء: المختصر في أخبار البشر ج ٢ ص ١١٧

(٢) المقدسي: أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم انظر وصف دمشق سنة ٣٧٥هـ.

الأسواق ماثلة حتى الآن مثل سوق القطن، وسوق الخواصين المعروف اليوم بسوق الخياطين، ولكن مع قليل من التحسين والاتساع.^(١)

وظلت دمشق تتبع الفاطميين نحو قرن كامل، وفي أواخره أخذ شأن الدولة الفاطمية بالاضمحلال، واستأثر رجال مصر بالسلطنة دون خلفائها وصاروا يلقبون بالملوك، واشتد التنافس بينهم على المناصب في الوقت الذي قويت فيه شوكة السلاجقة في خراسان، واستولوا على إيران، والبلاد المتاخمة لها، ودخلوا بغداد وناصروا خلفاءها العباسيين، وأعادوا رونق الخلافة فيها، وعمل سلطانهم ألب أرسلان في سبيل الاستيلاء على البلاد الشامية، وخطب للقائم العباسي وأخذ ظل الدولة الفاطمية يتقلص.^(٢) فخضعت دمشق لسلطنة السلاجقة عام (٤٦٨هـ / ١٠٧٦م) بعد أن تمكن الأمير أتسز التركي أن ينتزعها من أيدي الفاطميين. ويعلن عن سلطة السلاجقة.^(٣)

كانت أحوال دمشق قبل دخول أتسز بن أوق الخوارزمي - أبرز زعماء التركمان الذين خلفوا في الشام بعد حملة أرسلان - قد بلغت حداً لا مثيل له من السوء والاضطراب والفقر وندرة المؤن، وبعد هروب الوالي الفاطمي معلى من دمشق إلى مصر حيث حبس فيها فمات، قام المصامدة - "نسبة إلى مصمودة إحدى قبائل البربر" - بتعيين مقدمها انتصار بن يحيى المصمودي المعروف برزين الدولة مكان معلى ولم يرض أهل دمشق به وقامت الفتن من جديد واشتدت في دمشق، وعمل أتسز على استغلال هذه الظروف فنزل عليها في المضايقة لها إلى أن اقتضت الضرورة إلى تسليمها إليه بالأمان، وتوثق منه بوكيد الأيمان، حيث دخلها في ذي القعدة سنة (٤٦٨هـ / ١٠٧٦م).^(٤)

(١) - قتيبة الشهابي: أسواق دمشق القديمة ص ٥٢ - ٥٥ - ٥٩.

(٢) ابن الأثير: الكامل في التاريخ ج ١١ ص ١١٧ - حسن إبراهيم حسن: تاريخ الدولة الفاطمية في المغرب ومصر وسورية ص ١٧٩ - ٢٦٠.

(٣) ابن كثير البداية والنهاية ج ١٢ ص ١١٢.

(٤) د. سهيل زكار: الموسوعة الشامية في تاريخ الحروب الصليبية ج ١ ص ١٥١.

عانت دمشق أثناء حكم أتسز محناً لم يُرَ ما يماثلها منذ الفتح الإسلامي ومرت بحقبة من أحلك حقب حياتها وأصعبها، ويكفيها هنا أن نسوق ما أورده غرس النعمة محمد بن هلال الصابئي في وصف أحوالها، وهو وصف ربما اعتمد به على تقارير شهود عيان أرسلت إليه إلى بغداد.

يقول غرس النعمة: "ولم يبق بها - دمشق - من أهلها سوى ثلاثة آلاف إنسان بعد خمسمائة ألف، أفناهم الفقر والغلاء والجلأ وكان بها مائتان وأربعون خبازاً فصار بها خبازان، والأسواق خالية، والدار التي تساوي ثلاثة آلاف دينار ما تشتري بدينار ينادى عليها بعشرة دنانير فلا يشتريها أحد، والدكان التي كانت تساوي ألف دينار، ما تشتري بدينار، وكان الضعفاء يذهبون إلى الدار الجليلة ذات الأثمان الثقيلة فيضرمون النار فيها فتحترق ويجعلون أخشابها فحماً يصطلون به، وأكلت الكلاب والسنانير، وكان الناس يقفون في الأزقة الضيقة فيأخذون المجتازين فيذبونهم ويشوونهم ويأكلونهم."^(١)

لقب أتسز نفسه بالملك المعظم، وأوقف في دمشق الدعوة للفاطميين وحاول بسط نفوذه على القاهرة لكن قواته هزمت أمام المصريين وذلك سنة (٤٦٩هـ/ ١٠٧٧م) وكان قد استخلف في دمشق ولده ومسمار أحد أمراء الكلبيين، وبعد عودته إلى دمشق استقبله أهلها فخدموه وهنوه بالسلامة، وحدثه أهل دمشق وشكوا إليه أوضاع بلدهم وقال له أحدهم: "قد عرفت أنه لم يبق في هذا البلد عشر العشر من الجوع، والفاقة والفقر والضعف ولم يبق لنا قوة" فوعد أهالي البلد خيراً.

ثم أقام بدمشق وجاء التركمان من الروم ولم يستخدم غيرهم، وعصى عليه أهل الشام، وأعادوا خطبة صاحب مصر في جميع أنحاء الشام، وقام بذلك المصامدة والسودان.^(٢)

(١) د. سهيل زكار: الموسوعة الشامية ج ١ ص ١٥٢

(٢) الموسوعة الشامية في تاريخ الحروب الصليبية ج ١ ص ١٥٢ - ١٥٥

وخرج أتسز من دمشق فيمن انضوى إليه من التركمان بعد أن اضطهد الناس وصادروهم مما أدى إلى غلاء الأسعار، وأخذ من الأموال، لا ييلغه الحصر بحيث بيعت الفضة بدمشق كل خمسين درهماً بدينار، مما كان يساوي ثلاثة عشر درهماً بدينار ووصل إلى قريش القدس، ثم تمكن من دخول المدينة، وبعد ذلك دخل غزة ثم يافا ثم أخذ عائداً إلى دمشق وفي سنة (٤٧١هـ/١٠٧٨م) وصلت الجيوش المصرية إلى دمشق بقيادة نصر الدولة الجيوشي، مما دفع أتسز صاحبها إلى مراسلة تاج الدولة "تُش بن ألب أرسلان" يستجده ويستصرخ به، فاستجاب له وعندما عرف نصر الدولة الخبر ترك جهة دمشق واتجه نحو الساحل، ووصل السلطان تاج الدولة إلى عذراء في عسكره لانجاد دمشق. فدخلها وأقام بها مدة مديدة ثم قرر استخلاصها من أتسز، فقبض عليه، وقتل أخاه أولاً ثم أمر بخنق أتسز فخنق بوتر في المكان المعتقل به، وملك تاج الدولة دمشق واستقام له الأمر فيها.^(١)

لم تتعم دمشق بالاستقرار بعد تملك تاج الدولة لها، حيث أنه في سنة (٤٧٤هـ/١٠٨١م) بدأ مسلم بن قريش العقيلي صاحب حلب والموصل يعدّ العدة للاستيلاء على بقية الشام وخاصة دمشق وطرده تُش منها، ودخل مدينة حمص وحاصر قلعتها، وأثناء الحصار علم بأن تُش يعد عدته للتحرك ضده من دمشق، لذلك قرر سحب نفسه شمالاً إلى حلب، ثم شرقاً إلى الموصل ليجهز قواته استعداداً لاستخلاص دمشق من تُش، لقد كان مسلم بن قريش يدين بالتشيع على مذهب الإمامية الاثني عشرية، وكانت الخلافة الفاطمية هي الدولة الشيعية الوحيدة في مصر والشام، وكانت هذه الدولة قد تضررت كثيراً من التركمان. لهذا كان من الطبيعي أن تتلاقى مصالح هذه الخلافة مع مصالح مسلم بن قريش، لذلك عندما كان مسلم يعد عدته للحملة على دمشق قامت

(١) الموسوعة الشامية في تاريخ الحروب الصليبية ج ١ ص ١٥٦ - ١٥٧ ابن كثير: البداية والنهاية ج ١٢

اتصالات بينه وبين بدر الجمالي في القاهرة وتمّ الاتفاق بينهما على أن ترسل القاهرة جيشاً فاطمياً يساعد مسلم بن قريش في الاطباق على دمشق عندما يصلها مسلم ويأخذ في حصارها^(١)، وفي هذه الأثناء كان تُنشر رسائله التي تعبر عن التضامن معه للقضاء على مسلم بن قريش حيث وصلته رسائل من أمراء الأسرة المرداسية، ومن صاحب حمص خلف بن ملاعب، ومن صاحب شيزر الأمير المنقذي، وعندما علم مسلم بن قريش بهذه التحركات توجه بقواته من حلب باتجاه دمشق، ولقد أجبر هذا الإجراء السريع الذي قام به مسلم بن قريش تُنشر وحلفائه على الإقلاع من متابعة أعمالهم والتراجع كل إلى بلده.^(٢)

وفي سنة (١٠٨٣/هـ٤٧٧) حاول مسلم بن قريش استخلاص دمشق من تُنشر بعد حصار لها دام قرابة الشهر، لكنه أخفق وأجبر على الانسحاب، وفي سنة (١٠٨٥/هـ٤٧٩م) تمكن تُنشر من ضم حلب إلى أملاكه، وبهذا خلس معظم الشام للسلاجقة، لقد كان سقوط الشام ووقوعه تحت الحكم السلجوقي المباشر حدثاً في غاية الخطورة، وذلك لما جلبه معه من تغيرات في ميادين الحياة السياسية والدينية والاجتماعية، تغيرات تأثر بها جميع سكان بلاد الشام على مختلف مشاربهم واختلاف أنماطهم في الحياة وتعدد عقائدهم.^(٣)

لم يدم حكم تُنشر في حلب طويلاً، وخلال مدة ليست بالطويلة وصلت طلائع السلطان ملك شاه إلى حلب لهذا أثر تُنشر ألا يصطدم مع أخيه وألا يلتقي به بأي حال من الأحوال لذلك جمع قواته وانسحب عائداً إلى دمشق، وأقام قسيم الدولة آق سنقر والياً عليها [حلب] من قبل السلطان ملك شاه.^(٤)

وفي سنة (١٠٩٤/هـ٤٨٧م) تمكن تُنشر من إحراز النصر على آق سنقر والي حلب حيث جرت معركة بين الطرفين، كان النصر فيها حليف تُنشر، الذي

(١) الموسوعة الشامية ج ١ ص ١٧٧ - ١٧٨

(٢) الموسوعة الشامية ج ١ ص ١٧٩ - تاريخ الفارقي ص ١٩٣

(٣) الموسوعة الشامية ج ١ ص ١٧٨ - ١٩٠

(٤) الموسوعة الشامية ج ١ ص ٢٠٢، ابن كثير: البداية والنهاية ج ١٢ ص ١٣٠

دخل حلب في الحادي عشر من جمادى الأولى من السنة، لكن تُثش لم ينعم بفرحة النصر حيث قتل غيلة في خراسان في شهر صفر سنة (٤٨٨هـ/١٠٩٥م).^(١) خضعت دمشق لحكم رضوان بن تُثش بعد أن أوصى تُثش ابنه رضوان بأمور دمشق إن أصابه مكروه وكان ذلك بعد توجهه إلى حلب، وكان رضوان قد ولد في دمشق سنة (٤٧٥هـ/١٠٨١م) وكان عمره عند وفاة أبيه لا يتجاوز الثالثة عشر من عمره، وكان أبوه قد زوج أمه إلى واحد من الشخصيات التركمانية الكبار وكان اسم هذه الشخصية حسين وعرف عادة باسم جناح الدولة وأحياناً باسم باقي الدولة وهكذا كان جناح الدولة أتاكاً لرضوان بن تُثش.^(٢) تمكن تُثش من انتزاع حلب من كربوقا وبوزان بعد أن فتح أحداث حلب له أبوابها ونادوا بشعار تاج الدولة.^(٣)

وبعد أن رتب تُثش الأمور في حلب، وعين أبا القاسم الحسن الخوارزمي وزيراً بحلب^(٤) ونائباً عنه فيها، توجه إلى خراسان ليعمل على الحصول على السلطنة لتي كانت غايته الأولى، وفي طريقه إليها استولى على حران والرها، وميافارقين، والمدن الواقعة بين حلب وبغداد.^(٥)

وعندما وصل إلى همدان كتب إلى ولده رضوان يستدعيه من دمشق.^(٦) لبي رضوان نداء أبيه لتجدته فسار العسكر من دمشق نحو بغداد عن طريق الرحبة في أول سنة (٤٨٧هـ/١٠٩٤م) فلما قارب هيت ورده خبر مقتل أبيه فخاف أن يلحق به جند السلطان بركيا رق فأسرع في العودة إلى حلب ووصلها سنة

(١) الموسوعة الشامية ج ١ ص ٢١٢ - ابن الأثير: الباهر ص ١٥ - بيتشوف: تحف الأنبياء ص ٤٧ - الذهبي: دول الإسلام ج ٢ ص ١٧ - ابن خلدون: العبرج ٣ ص ٣١٩.

(٢) الموسوعة الشامية ج ١ ص ٢١٥ - ٢١٦ ابن الأثير: الكامل ج ١٠ ص ٢٤٦.

(٣) ابن القلانسي: المصدر السالف ص ٢٠٨ - زكار: المدخل ص ٢٢٧.

(٤) العظمي: تاريخ العظيمي ص ٧٥٧ - ابن القلانسي: المصدر السالف ص ٢٠٩ - ابن الأثير: الكامل ج ١ ص ٢٢٣ - زكار: المدخل ص ٢٢٨.

(٥) ابن القلانسي: المصدر السالف ص ٢٠٩ - ابن الأثير: الكامل ج ١٠ ص ٢٢٣.

(٦) ابن القلانسي: المصدر نفسه ص ٢٠٩ - ابن العديم: زبدة الحلب ج ٢ ص ٤٨٢ - ٤٨٣.

(٤٨٨هـ/١٠٩٥م) حيث كان الرجل الأول فيها الوزير أبا القاسم الخوارزمي ففتح له أبوابها وأخذ بالاستعداد لمواجهة ما يستجد من أمور^(١). وكان أخوه الثاني دقاق بن تئش من بين فلول جيش تئش التي جاءت إلى حلب وخاف دقاق على نفسه من أخيه رضوان وكان نائب القلعة في دمشق ساوتكين قد أراد أن يحتفظ بسلطانه واستقلاله بدمشق، لكنه كان يحتاج إلى إضفاء نوع من أنواع الشرعية على حكمه، لهذا راسل دقاق بن تئش سراً فهرب المذكور من حلب سراً إلى دمشق، حيث دخلها وأصبح حاكمها الشرعي وذلك في سنة (٤٨٨هـ/١٠٩٥م) وقد وصل إلى دمشق في العام نفسه الأمير ظهير الدين طفتكين، فاستقبله دقاق وأركان دولته وقد اتفق الاثنان على التخلص من ساوتكين.

وهكذا عاد التمزق السياسي من جديد إلى الشام وأصبح الآن إعادة السيطرة على دمشق الشغل الشاغل لرضوان.^(٢)

وحاول رضوان مراراً الاستيلاء على دمشق لكنه أخفق على الرغم من اتفائه مع الفاطميين على ذلك وكان هذا سنة الحملة الصليبية الأولى على دمشق سنة (٤٨٩هـ/١٠٩٥م) حيث توجه رضوان إلى دمشق بعد أن أبقي زوج أمه جناح الدولة حسين في حلب، ووصل رضوان وجيشه إلى أطراف دمشق بينما كان دقاق مع قواته في مهمة خارج دمشق، وقد ترك فيها الوزير زين الدولة محمد بن أبي القاسم وعدد قليل من العساكر والأجناد والأحداث، والمرجح أن جيش رضوان استطاع أن يتحاشى جيش دقاق وأنصاره، وأن يصل إلى أسوار دمشق ليفاجئ الأهالي الذين تولوا صد القوات المهاجمة، ويصف ابن القلانسي دفاع أبناء

(١) ابن الأثير: الكامل ج ١٠ ص ٢٤٦ - ابن القلانسي المصدر نفسه ص ٢١٢ - ٢١٣ - الذهبي: دول الإسلام ج ٢ ص ١٧ - ابن خلدون: العبرج ٢ ص ٢١٩ - الفاربي تاريخ الفاربي ص ٢٤٣.
(٢) الموسوعة الشامية ج ١ ص ٢١٧ - تاريخ الفاربي ص ٢٧١ - ابن كثير: البداية والنهاية ج ١٢ ص ١٤٨ - ابن الأثير: الكامل ج ١٠ ص ٢٤٧ - الأصفهاني: البستان الجامع ص ٩٣ - ابن أبي الدم: تاريخه مخطوط ص ١٤٠ - اليافعي: مرآة الجنان ج ٣ ص ١٥٤.

دمشق عن مدينتهم وصفاً دقيقاً وحيماً فيقول: "وأغلقت الأبواب وارتكبت الأسوار وصاحوا، ورشقوهم بالسهام، وكانوا قد بلغوا في الزحف (أي قوات رضوان) إلى سوق الغنم، وقربوا من السور، وباب الصغير، وطلب جماعة من العسكرية وأحداث البلد الخروج إليهم والدفع لهم عن البلد فمنعهم السلار بختيار شحنة البلد، والرئيس أمين الدولة أبو محمد بن الصوفي رئيس البلد من الخروج، وقاتلوهم على الأسوار ومنعوهم من الوصول إليها... وبلغهم أن دقاق عائد في العسكر إلى دمشق، فرحل رضوان في العسكر عائداً إلى حلب خائباً في الأمر الذي طلب".^(١)

وفي عام (٤٩٦هـ/١١٠٣م) تسلم دقاق صاحب دمشق حمص بعد أن اغتيل جناح الدولة حسين من قبل الحشيشية بتحريض من رضوان ابن نُشش، وأحسن دقاق إلى أولاد حسين وسار بهم إلى دمشق، فأقر عليهم أقطاع أبيهم.^(٢)

ويبدو أن عملية اغتيال جناح الدولة شجعت طفتكين أتابك دمشق على التخلص من دقاق، ولقد تولت أم دقاق زوجة طفتكين - مهمة التخلص من ابنها. "فزينت له جارية فسمته في عنقود عنب معلق في شجرته ثقبته بإبرة فيها خيط مسموم" وكان هذا سنة (٤٩٧هـ/١١٠٤).^(٣)

وعندما توفي دقاق خطب أتابكه طفتكين لولد له صغير، له سنة واحدة وجعل اسم الملكة فيه ثم قطع الخطبة له وخطب نعم هذا الطفل أرتاش بن نُشش بعد أن استدعاه من بعلبك وكان في الثانية عشرة من عمره وعينه ملكاً جديداً

(١) ابن القلانسي: المصدر السالف ص ٢١٥.

(٢) العظيمي: تاريخه ص ٣٦١، ابن القلانسي: المصدر نفسه ص ٢٣٠. ابن الأثير: الكامل ج ١٠ ص ٣٤٥. ابن أبي الدم: تاريخه مخطوط ص ١٤٢. أبو الفداء: المختصر في أخبار البشر ص ٢١٦.

(٣) الموسوعة الشامية: ج ١ ص ٢٢٨. ٢٢٩. ابن كثير: البداية والنهاية ج ١٢ ص ١٥٤. ابن الأثير: الكامل ج ١٠ ص ٣٧٥.

لدمشق. "وتقدم إلى الأمراء المقدمين والأجناد بالطاعة لأمره والمناصحة في خدمته وأجلسه في دست المملكة".^(١)

ثم إن طفتكين أشار عليه بقصد الرحبة، فخرج إليها فملكها وعاد فمنعه طفتكين من دخول البلد ويقال أن سبب عدم اطمئنان أرتاش لسلامة نفسه من طفتكين أن والدته خوفته منه وقالت إن زوجته والدة دقاق لن تتركه حتى تقتلك ويستقيم الملك لولدها، فهرب بعد أقل من شهرين مضياً على تمليكها، واستقام الأمر من بعده لظهير الدين أتابك وتفرّد بالأمر، واستبد بالرأي وتخلص من بقايا أسرة تُتَشُّ ورجالاتها، فبعد وقت قصير من فرار أرتاش توفى في آخر أفراد أسرة دقاق، وهو تُتَشُّ بن دقاق وكان طفلاً صغيراً.^(٢)

وبهذا عدت سنة (٤٩٨هـ/١١٠٥م) البداية الفعلية لتأسيس الدولة البورية في دمشق من قبل طفتكين، وحكمت هذه الدولة الجزء الأكبر من بلاد الشام لمدة تقارب النصف قرن، وكان طفتكين في تاريخها هو الشخصية الأبرز والأطول حكماً والأكثر استقراراً.^(٣)

عمل طفتكين خلال مدة حكمه على نشر العدل، وحسنت أحوال دمشق وأعمالها ورخصت الأسعار، وظهرت الغلات، وانبسطت الرعية في عمارة الأملاك في باطن دمشق، وظاهرها لإحسان سيرته وإجمال معاملته، وكف أسباب الظلم عنهم.^(٤)

كذلك عمل ظهير الدين أتابك على محاربة الإفرنج، حيث أسرى بعساكره إلى طبرية وفرق عسكره فرقتين نفذ إحداهما إلى أرض فلسطين، والأخرى غاربا على طبرية فخرج إليه صاحبها المعروف /بحر فاس/ في رجاله، وهو من مقدمي الإفرنج المشهورين بالفروسية، والشجاعة والبسالة، وشدة المراس،

(١) ابن القلانسي: تاريخ دمشق ٢٣٤. ابن الأثير: الكامل ج ١٠ ص ٣٧٥. ابن كثير: البداية والنهاية ج ١٢. ص ١٦٤.

(٢) الموسوعة الشامية: ج ٣ ص ٢٦٠. ٢٦٧. ابن الأثير: الكامل ج ١٠ ص ٢٧١.

(٣) الموسوعة الشامية: ج ٣ ص ٢٦٧، ابن الأثير: الكامل ج ١٠ ص ١٧٧.

(٤) ابن كثير: الكامل ج ١٠ ص ٣٧٧. ابن القلانسي: المصدر السالف ص ٢٣٦.

فالتقاءه وأحاطت خيل ظهير الدين به وبأصحابه فقتل أكثرهم وأسروا هو وجماعة معه وحملوا إلى دمشق.^(١)

وعمل طفتكين خلال مدة حكمه على صد الفرنج عن البلاد والزود عنها مراراً كما أنه عمل على توقيع مهادنة بينه وبين الملك بغدوين (بلدوين الأول ملك القدس) بعد أن ترددت رسل بغدوين إلى ظهير الدين في التماس المهادنة.

وفي سنة (٥٠٣هـ/١١٠٨م) قاتل ظهير الدين أتابك الإفرنج وخرج من دمشق متوجهاً لقتالهم وخيم بعساكره في السلمية، ووصل الخبر بحصول الإفرنج على الفرات عازمين على قطعه (قصد) الرها فرحل أتابك في الحال وتوجه إلى ناحية الرقة وقلعة جعبر، وقطع الفرات، ووصله الخبر بأن الفرنج قد أحجموا عن العبور لتفرق سرايا العساكر الإسلامية وطلائعهم في سائر الجهات والمسالك إلى الفرات.^(٢)

لقد كانت مدة حكم طفتكين مليئة بالأحداث الجسام المتمثلة بالزود عن البلاد ضد الطامعين من الفرنج كما أنه عمل على توحيد البلاد بغية وضع إمكانياتها في خدمة المعركة.^(٣)

هذا وقد استطاع طفتكين الحفاظ على حكمه حتى سنة وفاته في سنة (٥٢٢هـ/١١٢٨م) وكانت سنة وفاة طفتكين السنة التي تسلم فيها عماد الدين زنكي حكم الموصل الأمر الذي كان له أبعد الآثار على دمشق وحكامها البوريين وكان طفتكين قد أوصى بالملك من بعده لابنه بوري، وهو الذي نالت الدولة اسمها منه، وقد افتتح بوري عهده بمذبحة كبيرة، أوقعها بإتباع الدعوة الإسماعيلية الجديدة، وعند ما عرف إسماعيلية بانياس بما حدث في دمشق

(١) ابن القلانسي المصدر نفسه ص ٢٥٨ . ٢٥٩.

(٢) ابن القلانسي: المصدر السالف ص ٢٦٣.

(٣) ابن القلانسي: المصدر السالف ص ٢٧٠ . ٢٧١.

تخلوا عن بانياس لصالح الصليبيين. حيث أن بانياس كانت تمثل بالنسبة إلى دمشق مركز الدفاع الأول ضد المملكة اللاتينية بالقدس.^(١)

وعلى أثر ذلك تشجع الصليبيون فحشدوا قواتهم وزحفوا ضد دمشق وحاصروها في محاولة للاستيلاء عليها، لكن هذه المحاولة أخفقت، هذا وقد تعرض بوري لمحاولة اغتيال من قبل أتباع الدعوة الإسماعيلية الجديدة، وقد أصيب بوري بجراح بليغة وتوفي على إثرها سنة (٥٢٦هـ/١١٣٢م).^(٢)

تسلم أمر دمشق بعد وفاة بوري ابنه شمس الملوك إسماعيل الذي استطاع استعادة بانياس من الصليبيين سنة (٥٢٧هـ/١١٣٣م) غير أنه ما لبث أن تخبط في إدارة أموره الداخلية وعندما شعر بعجزه راسل عماد الدين زنكي في سنة (٥٢٩هـ/١١٣٥م) يطلب منه الإسراع إلى دمشق ليسلمها له وإلا فإنه سيسلمها إلى الصليبيين، وعندما علمت أمه بذلك أمرت غلمانها بقتله، وعينت الخاتون صفوة الملك ابنها محمود حاكماً جديداً لدمشق، وكان على هذا الحاكم دفع زنكي عن دمشق وعمل زنكي على محاصرة دمشق، وشدد عليها الخناق، وأثناء ذلك تلقى رسالة من الخليفة العباسي المسترشد بالله، يأمره برفع الحصار عن المدينة.^(٣)

وفي سنة (٥٣٣هـ/١١٣٩م) استطاع عماد الدين الاستيلاء على بعلبك، وعهد بالحكم فيها إلى نجم الدين أيوب والد صلاح الدين الأيوبي، ثم استولى على بانياس^(٤) وبعد هذا عمده عماد الدين إلى الدبلوماسية فعقد مع البوريين زواجاً

(١) ابن القلانسي: المصدر السالف ص ٣٤٢ - ٣٤٣ - ٣٤٧. ابن كثير: البداية والنهاية ج ١٢ ص ١٩٩. ابن الأثير: الكامل ج ١٠ ص ٦٥٢

(٢) ابن القلانسي: المصدر السالف ص ٣٥٠ - ٣٧١. ابن كثير: الكامل ج ١٠ ص ٦٧٩ - ٦٨٠. امرأة الزمان طيبة حيدر آباد ج ١ ص ١٤٥ - ١٥٣

(٣) ابن القلانسي: تاريخ دمشق ص ٣٩٠ - ٣٩٢. امرأة الزمان ج ١ ص ١٥٣ - ١٥٤، الكامل ج ١١ ص ٢١ - ٢٢

(٤) ابن القلانسي: تاريخ دمشق ص ٣٩٧ - ٤١٣. ابن الأثير: الكامل ج ١١ ص ٦٨ - ٦٩.

سياسياً حيث تزوج هو من الخاتون صفوة الملك المعروفة باسم زمرد، وزوج ابنها محمود من ابنته، وتنازل له عن حكم مدينة حمص، لكن محمود لم يعمّر طويلاً حيث اغتيل سنة (٥٣٣هـ/١١٣٨م) فبايع الأمراء جمال الدين محمد بن بوري الذي فوض أمور دولته إلى معين الدين أنر الذي أصبح الحاكم الفعلي للدولة البورية، وقد استطاع الحفاظ على استقلال دمشق بواسطة توازن حذر بين عماد الدين زنكي، والمملكة اللاتينية بالقدس، فقد كان يستعين بالصلبيين ضد عماد الدين، وبعمداد الدين أو حلفائه ضد الصليبيين.^(١)

وعندما علمت زمرد بمصرع ابنها في دمشق عرضت زوجها عماد الدين على الثأر فجاء معه قواته وحاصر دمشق وضيق الخناق عليها (٥٣٤هـ/١١٣٤م) وأثناء الحصار مرض محمد بن بوري مرضاً أودى بحياته، وعندما علم عماد الدين بذلك ازداد طمعاً بالاستيلاء على دمشق، لكن أنر استطاع ضبط الأمور وجلب أبق بن محمد وعينه حاكماً جديداً، إنما بشكل اسمي، وراسل الصليبيين في القدس وعقد معهم تحالفاً ضد عماد الدين على أن يسلمهم بانياس بعد استردادها من عماد الدين مقابل حمايته وفعلاً استطاع أخذ بانياس وتسليمها للفرنجة.^(٢)

لكن الفرنجة لم يكونوا حريصين على سلامة دمشق وحكامها، حرص أنر عليهم، فهم أرادوا احتلال دمشق إذا أمكنتهم الفرصة وإذا لم تمكنهم لذا دفعوا غيرهم عنها حتى تحين الفرصة، لأن الفرنجة كانوا يخشون إلى أبعد الحدود وحدة أجزاء بلاد الشام. واغتيل زنكي سنة (٥٤٠هـ/١١٤٥م) وتسلم الحكم في حلب ابنه نور الدين، وعقد نور الدين معاهدات مع أنر وتزوج ابنته، مما دفع بالصلبيين نتيجة معطيات الوضع الجديد، التراجع عن فكرتهم

(١) الموسوعة الشامية ج ٣ ص ٢٦٩ - ٢٧٠. ابن القلانسي: تاريخ دمشق ص ٤١٣

(٢) ابن القلانسي: تاريخ دمشق ص ٤٢٤ - ٤٢٧. ابن الأثير: الكامل ج ١١ ص ٧٣ - ٧٤، وليم الصوري:

تاريخه ج ٢ ص ٧٠٥ - ٧٠٧

(احتلال بانياس وقلعة صلخد، وقلعة بصرى) والانسحاب بعد أن خسروا معظم جنودهم نتيجة هجمات المقاومين العرب عليهم.^(١)

وفي خضم هذه الأحداث، وعلى أثر تحرير عماد الدين لمدينة الرها سنة (٥٣٩هـ/١١٤٣م) كان توجه ما يعرف بالحملة الصليبية الثانية التي قادها أكبر حكام أوروبا لويس السابع ملك فرنسا وكونراد الثالث إمبراطور ألمانيا، وفي عكا عقد مؤتمر موسع لزعماء الفرنجة تصدره ملك القدس وملك فرنسا والإمبراطور الألماني، واتفق الثلاثة على الزحف إلى دمشق لاحتلالها، وفي دمشق قام معين الدين أنر بتنظيم الدفاع على المدينة، واستغاث بنور الدين محمود صاحب حلب وبأخيه سيف الدين صاحب الموصل وبالقوى الموجودة في البقاع ومنطقة بعلبك فهب الجميع لنجدة دمشق.^(٢)

وصل الصليبيون في حشودهم فخيّموا بناحية المزة، لقربها من الماء ووقف المسلمون بإزائهم في يوم السبت السادس من شهر ربيع الأول سنة (٥٤٣هـ/١١٤٨م) ونشب قتال عنيف بين الفرنجة والمدافعين عن دمشق واشتد قرب نهر يزيد عند منطقة خانق الربوة، إثر هذا انتشر الصليبيون داخل البساتين، وتعاضمت المقاومة داخل البساتين، وعلم الصليبيون بوصول نور الدين مع قواته إلى منطقة حوران وبتدهق النجدات نحو دمشق، وخشية أن يطوقوا داخل البساتين قرر الصليبيون التحول نحو المنطقة الواقعة بين باب الصغير وباب شرقي آملين أن يلقوا بعض المساعدة من الداخل لأن معظم السكان هناك كانوا يدينون بالمسيحية ومجدداً خاب قائل الفرنجة فعرب دمشق على اختلاف

(١) الموسوعة الشامية: ج ٣ ص ٢٧٣.

(٢) ابن القلانسي: تاريخ دمشق ص ٤٦٣ . ٤٦٦ . مرآة الزمان: ج ١ ص ١٩٧ . ٢٠٠

دياناتهم نظروا إليهم نظرة واحدة، واشتدت المقاومة لذلك اضطر الصليبيون إلى رفع الحصار والرحيل عن دمشق.^(١)

حافظ نور الدين على التعاون مع معين الدين أنر حتى وفاته سنة (٥٤٤ هـ/١١٤٩م) وبعد هذا عزم على دخول دمشق وإزالة حكم الأسرة البورية، تمكن نور الدين من استخلاص دمشق من حاكمها مجير الدين (أبق) بعد محاولات عديدة سنة (٥٤٩هـ/١١٥٤م) وكان دخوله إليها الحدث الأعظم من تاريخ بلاد الشام منذ قيام الحروب الصليبية فقد تم الآن توحيد بلاد الشام، وكانت هذه الوحدة الانطلاقة لوحدة عربية، أوسع وأهم، وتحول نور الدين الآن من حلب إلى دمشق وبهذا تحولت دمشق من موقفها السلبي اتجاه الصليبيين إلى وضع إيجابي تقود به حرب الاسترداد بشكل حاسم.^(٢)

وكان مما ساعد نور الدين على التفرغ الشامي، ومن ثم التوجه نحو دمشق والجنوب اهتمامه بالجهاد ضد الصليبيين وتضاؤل اعتماده على البداية التركمان كطاقة عسكرية منفردة لأن اهتمام التركمان تمركز منذ آمد على آسيا الصغرى، ولأن أعداداً كبيرة من الأكراد تجمعت في حلب حول أسد الدين شيركوه، وجاء هؤلاء الأكراد إلى بلاد الشام من أقصى المناطق الشمالية في أطراف جورجيا الحالية، فهناك وجدت دولة كردية اسمها دولة منوجهر أو دولة بني شداد، وكان ملوك الكرج (جورجيا) المتعصبون لنصرانيتهم يخوضون هناك حرباً صليبية ضد المسلمين وقد تمكنوا من الاستيلاء على أملاك دولة بني شداد قلعة تلو الأخرى، الأمر الذي دفع بالأكراد إلى الهجرة وكان من أوائل المهاجرين أسرة صلاح الدين حيث عمل جده ثم والده أيوب وعمه شيركوه

(١) ابن القلانسي: تاريخ دمشق ص- ٤٦٦. مرآة الزمان: ج ١ ص ١٩٧- ٢٠٠ - ابن كثير: البداية والنهاية ج ١٢ ص ٢٢٣- ٢٢٤. ابن الأثير: الكامل: ج ٢١ ص ١٢٩- ١٣٠. وليم الصوري: تاريخه ج ٢ ص ٨١٤- ٨١٥.

(٢) ابن القلانسي: تاريخ دمشق ص ٤- ٥، الكامل ج ١١ ص ١٩٧- ١٩٨، مرآة الزمان ج ١ ص ٢٢٠ - ٢٢٣، وليم الصوري ج ٤ ص ٢٨١- ٨١٥، ابن كثير: البداية ج ١١ ص ٢٣١- ٢٣٢.

في العراق، ثم التحقاً بخدمة زنكي واستقرا في بلاد الشام، وعندما سقطت دولة بنو شداد كثر عدد الأكراد وتجمعوا حول شيركوه الذي بات الآن أكبر القادة العسكريين لدى نور الدين زنكي.^(١)

عمل نور الدين على ضبط الأمور في دمشق وساهم في القيام بحركة علمية نشطة حيث بنى البيارستان النوري، وأقام دار العدل، ودار الحديث النورية، التي تعد أول جامعة لعلوم الحديث في التاريخ الإسلامي، وهو أيضاً الذي شجع ابن عساكر على كتابة تاريخ مدينة دمشق في ثمانين مجلدة، وحصن سور المدينة، وأصلح طرقها وأسواقها ومنع من أخذ ما كان يؤخذ منهم من المغارم بدار البطيخ وسوق الغنم، والكيالة وغيرها، وعاقب على شرب الخمر^(٢).

وقال ابن الأثير معقياً على دخول نور الدين لدمشق وتوحيده لبلاد الشام: « وكان أبغض الأشياء إلى الفرنج أن يملك نور الدين دمشق لأنه يأخذ حصونهم ومعاقلهم، وليست له، فكيف إذا أخذها وقوي بها»^(٣).

بعد ضم نور الدين دمشق وتوحيد بلاد الشام أصبح شغله الشاغل إيجاد وحدة كاملة وشاملة بين بلاد الشام ومصر، هذا وقد أرسل نور الدين ثلاث حملات عسكرية إلى مصر، تمكنت أخيراً من إنقاذ هذا البلد وإلحاقه بالشام، وقاد هذه الحملات أسد الدين شيركوه وقد رافقه فيها ابن أخيه يوسف بن أيوب "صلاح الدين" وشغل صلاح الدين في هذه الوقائع دوراً رئيسياً وتجلت في تلك الأثناء مواهبه ومؤهلاته مما رشحه للزعامة وذلك بالإضافة إلى تعرفه على مصر وعلى مشاكلها وإمكاناتها^(٤).

(١) الموسوعة الشامية: ج ٢ ص ٢٨٠. الكساندر خاتاشاثيريان: ديوان النقوش العربية في أرمنية ترجمة شوكت يوسف ص ٤٠

(٢) ابن الأثير: الكامل ج ١ ص ٤٠٢ - ٤٠٥، أبو شامة: الروضتين ج ٢ ص ٢٢٧ - ٢٣٠، الذهبي: المبرج ص ٢٠٨ - ٢٠٩

(٣) ابن الأثير: الباهر في الدولة الأتابكية ص ١٠٧.

(٤) الموسوعة الشامية ج ٣ ص ٢٩٠ - ٢٩٢.

لقد تنفست هذه المدينة العظيمة الصعداء في منتصف القرن السادس الهجري الثاني عشر الميلادي، حيث دب فيها أمل جديد وبدأت تعود إلى مسرح الأحداث العالمية كعاصمة لزعيمين عظيمين من زعماء العالم الإسلامي في ذلك العصر هما نور الدين، والثاني صلاح الدين الأيوبي وتحظى في عهدهما بقدر من العزة والمجد والازدهار ليعيدا إليها مكانتها المفقودة منذ انتهاء العصر الأموي، وتغدو خلال قرن من الزمن مركزاً سياسياً وحضارياً مرموقاً.

وفي الوقت ذاته الذي أخذت دمشق تستعيد مكانتها السياسية والعسكرية في العالم الإسلامي عاد إليها النشاط التجاري، وازدهرت فيها الصناعات والحرف وتجدد فيها البنيان وبرزت في المدينة الفنية بقديم التراث معالم حضارة إسلامية مستجدة، أكثر ما يكون في حقول الدين والتصوف والعلم والأدب، وعلى هامش هذه النهضة الاجتماعية والعلمية التي قامت بدمشق في ذلك الوقت ظهر عند علماء دمشق اهتمام جديد بتاريخ المدينة، وبتاريخ الحركة الحضارية الإسلامية المترامية الأطراف التي عدّ الدمشقيون مدينتهم مركزاً ومنطلقاً لها^(١) وفي سنة (٥٦٩هـ/١١٧٤م) توفي نور الدين بشكل مفاجئ بعلة الخوانيق بدمشق ولذلك دعي بالشهيد وقام بعده صلاح الدين الذي استطاع أن يرث دولته.^(٢)

علاقة بني أيوب مع الزنكيين:

لقد سكنت المناطق الجبلية الواقعة في أعالي الجزيرة شمالي الموصل وشماليها الشرقي أعداد كبيرة من القبائل الكردية، وكان الأكراد غالباً ما يهاجرون إلى بلدان الجزيرة حيث يندمجون بسكانها وعندما ضعفت السلطة المركزية في بغداد أخذت أطراف الدولة تتفصل وكان من بين القوى التي تحركت بعض قبائل الأكراد، فمنهم من تجند في واحد من الجيوش، ومنهم

(١) منتجيات التواريخ لدمشق ص ١٥٩ - ١٦٠

(٢) الموسوعة الشامية ج ٣ ص ٢٩٢ - ابن أثير: الكامل ج ١١ ص ٤٠٥ أبو شامة ج ٢ ص ٢٣٠ - الذهبي: دول الإسلام ج ٢ ص ٢٠٩. ابن كثير البداية والنهاية ج ٢٢ ص ٢٧٧ - ٢٧٨.

من شغل نفسه بالإغارة على أراضي الإمبراطورية البيزنطية، وهكذا وجد في القرن العاشر لدى الأكراد عدداً من الغزاة تجمع حول كل واحد منهم عصابة عسكرية خاصة، واشتهر من بين هؤلاء رجل اسمه (باز) استطاع أن يؤسس دولة في ميافارقين وديار بكر عرفت باسم الدولة المروانية (٣٧٢ - ٤٧٨هـ/ ٩٨٣ - ١٠٨٥م) وفي القرن الحادي عشر هاجرت قبائل التركمان من منطقة ما وراء نهر جيحون إلى خراسان، فالعراق والجزيرة وآسية الصغرى والشام، وقد دفع التركمان أمامهم أعداداً كبيرة من الأكراد، ومع نهاية القرن الحادي عشر صار عدد العناصر الكردية العاملة في جيوش دويلات بلاد الشام والعراق والجزيرة كبيراً، وجذبت الحروب المزيد، ولكن كان لانسيح التركمان في آسية الصغرى وأرمينية وأذربيجان والحروب هناك مع الأرمن والكرج والبيزنطيين الأثر الأعظم في قدوم أعداد جديدة كبيرة من الأكراد، كما حدث مع بني شداد منهم، ومع تزايد الأكراد وتناقص التركمان قامت الفرص أمام الأكراد في بلاد الشام بشكل خاص لوراثة دول التركمان (الدولة الزنكية) ومن المعروف أن عماد الدين زنكي تورط في عدد من الصراعات السلجوقية في العراق ففي سنة (٥٢٦هـ/ ١٣٣٢م) هزم زنكي في العراق فانسحب بفلول جيشه نحو تكريت يريد جواز دجلة، وكانت قلعة تكريت يحكمها ضابط كردي اسمه نجم الدين أيوب بن شادي بن مروان^(١) وكان نجم الدين أيوب وأخوه أسد الدين شيركوه قد قدما من بلد دوين التابعة لأذربيجان بصحبة أبيهما شادي، قدما إلى العراق وخدموا مجاهد الدين بهروز شحنة بغداد وهو أيضاً من بلد دوين فرأى بهروز من نجم الدين عقلاً ورأياً وحسن سيرة، وكان أكبر من أخيه أسد الدين، لذلك جعله (دزداراً) بقلعة تكريت "محافظةً" فسار إليها نجم الدين برفقة أخيه^(٢).

(١) الموسوعة الشامية ج ٣ ص ٢٩٥.

(٢) ابن الأثير: الكامل ج ١١ ص ٣٤١

وقام نجم الدين أيوب هذا بتقديم المساعدات والمعابر لزنكي بعد هزيمته مما كان له عظيم الأثر على زنكي، وبعد عودته إلى الموصل أرسل زنكي له الهدايا وأخذ الطرفان يتبادلان المراسلات والسفارات وقد ضاق بتصرفات أيوب سادة بغداد أعداء زنكي واتفق مع ذلك أن أخاه أسد الدين شيركوه، قد أته امرأة باكية وذكرت له أن فلاناً الاسفهلار تعرض لها وهي داخلة من باب القلعة، فقام أسد الدين وضرب الاسفهلار بحربة فقتله فأمسكه نجم الدين واعتقله، وكتب يعلم بهروز بخبره فكان جوابه: "إن لأبيكما شادي علي حقاً ما يمكنني أن أكافئكما بسوء، ولكن اتركنا خدمتي، واخرجنا من بلدي"^(١)

فاضطر أيوب في سنة (٥٣٢هـ/١١٣٨م) إلى مغادرة تكريت ميمناً شطر الموصل ويروى أنه في الليلة التي غادر بها أيوب تكريت ولد له ولد ذكر سماه يوسف، واستقبل زنكي أيوب وأسرته بترحاب وأقطعهم إقطاعات كبيرة وانخرط أفراد الأسرة في خدمة زنكي، ويرزبعد أيوب أخوه شيركوه، وعندما ملك زنكي قلعة بعلبك سنة (٥٤٣هـ/١١٤٠م) عين أيوب والياً عليها وأقطعه ثلاثها، وظل أيوب في بعلبك حتى مقتل زنكي، وهنا في هذه المدينة الإستراتيجية ترعرع صلاح الدين في كنف أبيه وعمه، وقد تلقى ما كان يتلقاه أبناء طائفته من أهل عصره من تدريبات عسكرية وثقافة عربية إسلامية^(٢).

وعندما قتل عماد الدين زنكي وحاصر مجير الدين آبق صاحب دمشق بعلبك ضاق الأمر على نجم الدين ولم تأته نجدة من أولاد عماد الدين زنكي مما اضطره إلى تسليم آبق القلعة على إقطاع ذكره بعد ما حلف له، وانتقل إلى دمشق بأولاده وتسلم الإقطاع والمال وقدمه آبق وعمله من أكبر الأمراء^(٣).

(١) ناصر خسرو: سفرنامه ص ٥٦.

(٢) ابن الأثير: الكامل، ج ١١، ص ١٢٨، الباهر ص ١١٩ - ١٢٠، المجلس اليوسفية ص ٦٠، السلوك ج ١، ٤ - ٤٢، زبدة الحلب ج ٢، ص ٢٥٥ - الروضتين ج ١ - ص ٨٥ - ٨٨.

(٣) البديسي: شرفانة: ج ١ ص ٥٧.

وفي سنة (٥٤٧هـ/١١٥٢م) وكان صلاح الدين في الرابعة عشرة من عمره غادر بصحبة عمه شيركوه بعلبك إلى حلب، حيث دخل في خدمة صاحبها نور الدين وسريعاً غدا شيركوه من أبرز أمراء جيش نور الدين، وقد حاز على إقطاعات خاصة، وتجمعت حوله قوة عسكرية خاصة عرفت فيما بعد باسم الأسيدي، لأن شيركوه كان يلقب بأسد الدين، ومن المرجح أن صلاح الدين نال من عمه رعاية خاصة، وقد رافقه بشكل دائم حتى حلّ منه محل النائب كما أن صلاح الدين قد تأثر عظيم الأثر بخلق نور الدين^(١).

وفي سنة (٥٤٩هـ/١١٥٤م) دخل نور الدين مدينة دمشق فعين شيركوه حاكماً عسكرياً (شحنة) وفي سنة (٥٥١هـ/١١٥٦م) تسلم صلاح الدين منصب نائب شحنة لمدة قصيرة، حيث ترك عمله هذا والتحق بجيوش نور الدين وشارك في أعمالها الحربية ضد الفرنجة، ولازم نور الدين ملازمة شديدة حتى صار من رجاله المقربين. كما أسند نور الدين إلى أسد الدين شيركوه منصب قيادة الجيش مع توليته على حمص.^(٢)

(١) الموسوعة الشامية ج ٣ ص ٢٩٦. محمد زغلول سلام: الأدب العربي في العصر الأيوبي ص ٢٦.

(٢) أبو شامة: الروضتين: ج ١ ص ١٠٠.

قائمة بأسماء السلاطين و الأمراء الأيوبيون الذين حكموا في البلاد العربية الإسلامية

في مصر

- الناصر صلاح الدين يوسف : ١١٧١/٥٦٧
العزیز عثمان بن صلاح الدين : ١١٩٣/٥٨٩
المنصور محمد : ١١٩٨/٥٩٥
العادل سيف الدين، أخو صلاح الدين : ١٢٠٠/٥٩٧
الکامل محمد : ١٢١٨/٦١٥
العادل الثاني بن الكامل : ١٢٣٨/٦٣٦
الصالح أيوب بن الكامل : ١٢٤٠/٦٣٨
المعظم توران شاه بن الصالح أيوب : ١٢٤٩/٦٤٧
الأشرف موسى: مظفر الدين، حفيد الكامل: ٦٤٨-٦٥٠/١٢٥٠-١٢٥٢

في دمشق

- الناصر صلاح الدين الأيوبي: ١١٧٥/٥٧٠
الأفضل علي بن صلاح الدين: ١١٨٦/٥٨٢
العادل سيف الدين نائب العزيز عثمان: ١١٩٦/٥٩٢
المعظم عيسى : ١٢١٨/٦١٥
الناصر صلاح الدين داوود : ١٢٢٧/٦٢٤
الأشرف موسى صاحب إقليم الجزيرة: ١٢٢٨/٦٢٥

- ١٢٣٧/٦٣٥ : الصالح اسماعيل بن العادل :
١٢٣٨/٦٣٦ : الكامل محمد (سلطان مصر) :
١٢٣٨/٦٣٦ : العادل الثاني (سلطان مصر) :
١٢٣٩/٦٣٧ : الصالح اسماعيل بن العادل • للمرة الثانية :
١٢٤٥/٦٤٣ : الصالح أيوب (سلطان مصر) :
١٢٤٩/٦٤٧ : المعظم توران شاه (سلطان مصر) :
الناصر صلاح الدين يوسف الصغير صاحب حلب : ١٢٥٠-١٢٦٠

في حلب

- ١١٨٦/٥٨٢ : الظاهر غازي بن صلاح الدين :
١٢١٦/٦١٣ : العزيز محمد :
الناصر صلاح الدين يوسف الصغير : ١٢٣٤-١٢٣٦/٦٥٨-١٢٦٠

في الجزيرة

- ١٢٠٠/٥٩٧ : الأوحـد أيوب بن العادل :
١٢١٠/٦٠٧ : الأشرف موسى بن العادل :
المظفر غازي بن العادل : ١٢٢٨-١٢٣٠/٦٤٣-١٢٤٥

في حماه

- المظفر تقي الدين عمر (ابن شاهنشاه أخو صلاح الدين) : ١١٧٨/٥٧٤
المنصور بن محمد : ١١٩١/٥٨٧
الناصر قلعج أرسلان : ١٢٢٠/٦١٧
المظفر الثاني محمود أخو الناصر قلعج أرسلان : ١٢٢٩/٦٢٧
المنصور الثاني محمد : ١٢٤٤/٦٤٢
المظفر الثالث محمود : ١٢٩٨-١٢٨٤/٦٩٨-٦٨٣

في حمص

- القاهر محمد ابن شيركوه : ١١٧٨/٥٧٤
المغيث شيركوه الثاني بن القاهر : ١١٨٥/٥٨١
المنصور ابراهيم بن شيركوه الثاني : ١٢٣٩/٦٣٧
معز الدين اسماعيل بن طغتكين : ١١٩٦/٥٩٢
الناصر أيوب بن طغتكين : ١٢٠١/٥٩٨
المظفر سليمان بن سعد الدين شاهنشاه الثاني : ١٢١٤/٦١١
المسعود صلاح الدين يوسف بن الكامل : ١٢٢٨-١٢١٥/٦٢٥-٦١٢

في بعلبك

- المعظم شمس الدين توران شاه (الأول) بن أيوب : ١١٧٢/٥٦٨
عز الدين فروخ شاه داود شاهنشاه الأول بن أيوب : ١١٧٩/٥٧٥
الأمجد مجد الدين بهرام شاه بن داود : ١١٨٢/٥٧٨
الأشرف الأول بن مظفر الدين موسى (صاحب دمشق) : ١٢٢٩/٦٢٧

- ١٢٣٨/٦٣٦ : الصالح اسماعيل (أخو الأشرف) :
 ١٢٤٥/٦٤٣ : الصالح أيوب (دمشق) :
 ١٢٤٩/٣٤٧ : توران شاه الرابع (دمشق) :
 ١٢٥٠/٦٤٨ : الناصر يوسف (دمشق) :

في الكرك

- ١١٨٨/٥٨٤ : العادل (أخو صلاح الدين) :
 ١١٩٥/٥٩١ : المعظم شرف الدين عيسى بن أبي بكر :
 ١٢٢٦/٦٢٣ : الناصر صلاح الدين داوود بن عيسى (صاحب دمشق) :
 ١٢٣٩/٦٣٧ : المغيـث فخر الدين عمر بن العادل (الثاني) بن الكامل :

في حصن كيفا و آمد

- ١٢٣١/٦٢٩ : الصالح نجم الدين أيوب :
 ١٣٣٨/٦٣٦ : المعظم توران شاه (الرابع) بن أيوب بن الكامل :
 ١٢٤٩/٦٤٧ : الموحد تقي الدين عبد الله بن توران شاه :
 ١٢٦٢-١٢٤٥/٦٦١-٦٤٣ : الأشرف موسى الثاني بن إبراهيم :

في اليمن

- ١١٧٣/٥٦٩ : المعظم توران شاه أخو صلاح الدين :

٢- الأيوبيون أصلهم ونسبهم ووصولهم إلى السلطة

ينتسب الأيوبيون إلى أيوب بن شادي^(١) من بلدة دوين^(٢) الواقعة عند آخر حدود أذربيجان بالقرب من تفليس في أرمينية، قال ابن خلكان "قال لي رجل فقيه عارف بما يقول وهو من أهل "دوين" إن على باب دوين قرية يقال لها: "أجد أنقان" بفتح الهمزة وسكون الجيم وفتح الدال بعدها ألف ونون مفتوحة وقاف ثم ألف ونون، وجميع أهلها أكراد روادية وقد ولد أيوب والد صلاح الدين بهذه القرية.

وجميع أهل ذلك البلد من الأكراد الروادية أحد بطون الهذبانية، وهذا القبيل من أشرف الأكراد ولم يجر على أحد منهم رق^(٣).

غير أن بعض الأيوبيين حاولوا أن يبتعدوا عن الأصل الكردي والإلتصاق بالدم العربي عامة، ونسل بني أمية خاصة، وأنكروا نسبهم إلى الأكراد، وقالوا: "إنما نحن عرب نزلنا عند الأكراد وتزوجنا منهم"^(٤).

ويبدو أن هذا الانتساب إلى الأصل العربي، نشأ يعد قيام الدولة الأيوبية، ففي رواية لابن أبي طيء أن المعز بن سيف الإسلام "أبا الفدا إسماعيل بن طفتكين بن أيوب، ملك اليمن" (٥٩٣- ٥٩٨ هـ / ١١٩٧- ١٢٠٢) ادعى أنه من

(١) ابن خلكان وفيات الأعيان ج ١ ص ١٥٢ - من تاريخ ابن أبي الهيثم، الموسوعة الشامية ج ٤٣ ص ٣٨١.

(٢) دوين: بلدة من نواحي أران في آخر حدود أذربيجان بالقرب من تفليس منها ملوك الشام بنو أيوب، ودوين أيضاً: إحدى قرى استوا من أعمال نيسابور في بلاد فارس، الحموي: معجم البلدان ج ٢ ص ٤٩١.

(٣) ابن الأثير: التاريخ الباهر في الدولة الأتابيكية في الموصل ص ١١٩ - الكامل: ج ١١ ص ١٢٩ - ابن خلكان: وفيات الأعيان ج ٧ ص ١٣٩ - المقرئ: السلوك ج ١ ص ١٤٨.

(٤) ابن واصل: مفرج الكروب في أخبار بني أيوب ج ١ ص ٥ - ٦ - ابن الأثير: الكامل ج ١١ ص ١٢٩ - أبو شامة: الروضتين ج ١ ص ١٢٩ - المقرئ: السلوك ج ١ ص ٤ - المسعودي: التنبيه والإشراف ص ٨٩.

بني أمية وعزم على إعادة الخلافة إلى بني أمية فاتخذ لنفسه لقب خليفة، وذلك بهدف إضفاء الشرعية على حكمه.^(١)

لكن صلاح الدين أنكر هذا النسب العربي، وقال: "ليس لهذا الأصل أصلاً"^(٢). ولم يكن العادل الأيوبي أقل إنكاراً من أخيه صلاح الدين لهذا الادعاء، وساء فعله، وجد أن يكون لبني أيوب نسب يتصل ببني أمية^(٣). ويرى بعض المؤرخين بأن لهذه الأسرة الأيوبية، صلة بالجماعات الإيرانية، أو القوقازية، وأن والد صلاح الدين وعمه، عندما قدما إلى العراق وبلاد الشام لم يكونا من الرعاة، وحملتا معهما خبرة في الشؤون السياسية والإدارية، اكتسبها من خلال العمل السياسي والإداري في بلاد متحضرة^(٤).

ويذكر ابن تفردي^(٥): "أن أصل نجم الدين أيوب، وأخيه أسد الدين شيركوه من دوين، وهي بلدة صغيرة في بلاد العجم" ثم يستدرك فيقول: «وقيل من الأكراد الروادية وهو الأصح»، ولعل وجود بلديتين باسم دوين، واحدة في أرمينية، وأخرى في "استوا" من أعمال نيسابور في بلاد فارس، هو الذي أدى إلى هذا التضارب، وحسم المقرئ هذا الموضوع عندما علق على محاولة بعض الأيوبيين الإنعتاق من الأصل الكردي، والالتصاق بالعرب بقوله: "وهذه أقوال الفقهاء لهم ممن أراد الحظوة لديهم لما صار الملك إليهم"^(٦).

(١) الزبيدي: ترويح القلوب في ذكر الملوك بني أيوب ص ٢٧ - أبي شامة: الروضتين ج ٢ ص ٢٥٠ -

٢٥١ - ابن واصل: مفرج الكرب ص ٤ - ٥.

(٢) ابن خلكان: ج ٧ ص ١٤١.

(٣) ابن واصل: ج ٣ ص ١٤٧ - المقرئ: السلوك ج ١ ص ١٤٨ - ١٤٩.

(4) Minors ky- v.studies in caucasian History P 199

(٥) ابن تفردي: النجوم الزاهرة ج ٦ ص ٤

(٦) المقرئ: الخطوط ج ٣ ص ٤٠٤ - ٤٠٥.

ومما ورد في نسب الأيوبيين للملك الأمجد الأيوبي^(١) قال: وقد اختلف في نسبهم على ثلاثة أقوال، القول الأول: قال عز الدين أبو الحسن علي بن الأثير المؤرخ، نجم الدين أيوب من بلد دوين من أذربيجان، وأصله من الأكراد الروادية، وهذا القبيل هم أشرف الأكراد.

قلت: وهذا شيء يجري على ألسنة كثير من الناس، ولم أرَ أحداً ممن أدركته من مشايخ بيتنا يعترف بهذا النسب، لكنهم لا ينكرون أن نجم الدين كان بدوين.^(٢)

وسألت المولى الملك الأمجد تقي الدين أبا الفضل عباس بن السلطان الملك العادل هل سمع من والده أو أحد إخوانه الأكابر اعترافاً بهذا النسب، فقال: "ما سمعت أحداً منهم ينتمي إلى الأكراد".

قلت: "والمشهور عند بيتنا أن جدنا نزل على الأكراد وتزوج منهم، فصارت بيننا وبينهم خؤولة لا غير، كما بيننا وبين الأتراك، فإن أمهات من أسلافنا تركيات.

ويدل على صحة هذا القول بأن السلطان الملك الناصر صلاح الدين لما ملك البلاد تقدم في دولته جماعة من الأكراد، فلم يبق أحد منهم إلا جاءه بنو عمه وأقاربه حتى صار في عصبه من أهله، والسلطان رحمه الله لم يأت إليه من يمت بقرابة إلا من جهة النساء فقط، مثل شهاب الدين محمود، وأخيه خالي السلطان، ومثل عز الدين موسك، وجمال الدين فرح، ولو كان من الروادية لكان جميع القبيلة أولاد عمه، وإن لم يكن له ابن عم قريب فيكون له، ابن عم بعيد قطعاً، لأن القبيلة كلّها أولاد رجل واحد.^(٣)

(١) نسب الأيوبيين للملك الأمجد الأيوبي: نشرها وقدم لها صلاح الدين المنجد دار الكتاب الجديد بيروت ١٩٧٨ - ص ٤٣ - ٤٤.

(٢) النويري: نهاية الأرب في فنون العرب ج ٢٨ ص ٣٥٢.

(٣) نسب الأيوبيين للملك الأمجد الأيوبي ص ٤٥.

ولا شك في أن الدواعي تتوفر على الانتماء إلى الملك ما لا يتوفر على الانتماء إلى الأمراء، ولما لم ينتسب إليه أحد إلا من جهة النساء، علمنا أنه ليس بيننا وبين الأكراد إلا خؤولة.

ولعل معترضاً يقول: "إنما لم ينتموا إليه لأنهم هابوه، أو لأنه ترفع عليهم فلم يعترف بهم. والجواب أن الذي كان بينه وبينهم قرابة من جهة النساء، لم يهابوه بل انتسبوا إليه، ولم يترفع السلطان عليهم بل اعترف بهم، وقريهم، وأحسن إليهم، فأقاربه من جهة العصبية أولى بذلك، وقد تواتر ما كان عليه من صلة الرحم والدين والتواضع، فكيف يظن به الترفع على الاعتراف بأقاربه.

ومما يؤكد أننا لسنا بأكراد، أن القاضي بهاء الدين بن شداد، وعماد الدين الكاتب الأصفهاني - رحمهما الله - كانا من المختصين بالسلطان الملك الناصر، وكان لعماد الدين تقدم معرفة بنجم الدين أيوب، من حيث كان والياً بتكريت، وقد صنف المذكوران واعتنيا بالسيرة الصلاحية ولم يتعرضا إلى إلحاقه بالأكراد، ولو كان نجم الدين منتمياً إليهم لم يخف ذلك عليهما.^(١) القول الثاني: أنهم من بني أمية من أولاد مروان بن محمد آخر خلفائهم، وهذا شيء ادعاه الملك المعز فتح الدين أبو الفدا إسماعيل بن الملك العزيز ظهير الدين أبي الفوارس سيف الإسلام طغتكين بن أيوب باليمن لما ملكه بعد أبيه، وتلقب بالإمام الهادي بنور الله المعز لدين الله أمير المؤمنين.^(٢)

قال يحيى بن حميدة بن أبي طيء قد نقبت عن ذلك فاجتمع الجماعة من بني أيوب على أنهم لا يعرفون جداً فوق شاذي قال: وكذلك أخبرني الملك الظاهر غياث الدين غازي بن السلطان الملك الناصر صلاح الدين يوسف رحمه الله.^(٣)

(١) نسب الأيوبيين: الأمد الأيوبي ص ٤٥ - ٤٦.

(٢) انظر فيما سبق.

(٣) أبو شامة: الروضتين ج ٢ ص ٥٣٤.

القول الثالث: ما ذكره حسن بن غريب بن عمران الحرشي، فإنه جاء إلى جدي الملك المعظم، وعمل شجرة لنسب بني أيوب، فوصله بعلي بن أحمد المري ممدوح أبي الطيب المتبني الذي يقول فيه:

شرف الجو بالغبار إذا ســــا ر علي بن أحمد القمقام
ولم ينكر جدي عليه ذلك، بل قبله منه وسمعه عليه هو ووالدي (رحمهما الله)، ولم يتفق لي سماعه من والدي، بل لي منه إجازة، وقد سمعته من أخي الظاهر غياث الدين أبي أيوب بن شاذي لحق سماعه من الحرشي المذكور مع والده في سلخ شهر الله الأصب رجب سنة تسع عشرة وستمائة، وإنما أميل إلى هذا النسب لأن جدي يرحمه الله قبله مع علمه وإطلاعه ومعرفته بالفقه والعربية، وأيام الناس، وقد صحب والده دهرأ، وأدرك جماعة ممن لهم تقدم واختصاص بجده، فهو أعلم بحالهم الأول^(١).

وهذا سرد النسب: وهو أيوب بن شاذي بن مروان بن أبي علي، قلت: ويحتمل أن يكون أبو علي هذا هو محمد المقدم ذكره، وأبو علي كنية له، ابن عنتره بن الحسن بن علي بن أحمد بن أبي علي بن عبد العزيز بن هدبه بن الحصين بن الحارث بن سنان بن عمرة بن مرة بن عوف بن أسامة ابن بيهس بن الحارث بن عوف بن أبي حارثة بن مرة بن نشبة بن غيظ بن مرة بن عوف بن لؤي بن غالب بن قهر - وهو قرشي عند الأكثرين - بن مالك بن النضر - وهو قرشي عند بعضهم ابن كنانة بن خزيمة بن مدركة بن الياس بن مضر^(٢).

نستخلص مما تقدم، بأن الأيوبيين سواء كانوا عرباً بالدم أو بالجنس أو بالأصل، أو عرباً باللغة والمشاعر وإن كنت أميل إلى أنهم عرب بالدين والثقافة والاجتماع، فقد ساهموا في صنع أحداث التاريخ الإسلامي على مدى

(١) نسب الأيوبيين للملك الأمجد الأيوبي ص ٤٧ - ٤٨ - ٤٩.

(٢) نسب الأيوبيين للملك الأمجد الأيوبي ص ٤٩ - ٥٠.

أكثر من ثلاثة أرباع القرن وهذه الفترة تعد من أهم مراحل تاريخ الحروب الصليبية.

الناصر صلاح الدين الأيوبي- مولده، ونشأته:

بعد الحديث عن الأسرة الأيوبية، أصلها ونسبها، لا بد من التطرق إلى حياة البطل صلاح الدين، من مولده حتى تسلمه زمام الأمور في مصر، لكي نتعرف على مسيرة هذا البطل القائد، الذي استطاع أن يوحد صفوف العرب والمسلمين ليكونوا صفاً واحداً ضد الغزاة الصليبيين.

ولد صلاح الدين في قلعة تكريت عام (٥٣٢هـ / ١١٣٧م)، ويؤيد المؤرخ الإنكليزي /لين بول/ هذا القول، وإن كان يذهب بعض المؤرخين الآخرين إلى أنه ولد في الليلة نفسها التي أمر فيها مجاهد الدين بهروز والده نجم الدين أيوب وأسرته بالخروج من تكريت^(١).

وذكر ابن خلكان في كتابه "وفيات الأعيان" (أخبرني بعض أهل بيتهم، يعني بيت بني أيوب وقد سألته: "هل تعرف متى خرجوا من تكريت؟ فقال: سمعت جماعة من أهلنا يقولون: إنهم خرجوا في الليلة التي ولد فيها صلاح الدين، فتشاءموا به، وتطبروا منه، فقال بعضهم: لعل منه الخيرة، وما تعلمون فكان كما قال).^(٢)

وربط أبو شامة في كتابه: "الروضتين في أخبار الدولتين" حكاية هذا التشاؤم الذي لحق مولد صلاح الدين بقصة أخرى فحواها: "أنه اجتمع مرة السلطان صلاح الدين، ووالده نجم الدين، في دار الوزارة بمصر، وقد قعدا على طراحة واحدة، والمجلس غاصاً بأرياب الدولة، يوم أراد نور الدين محمود بن زنكي أن تقطع خطبة الفاطميين، وتقام دعوة بني العباس، وعند الناس من

(١) ابن شداد: سيرة صلاح الدين الأيوبي تحقيق ومراجعة سعد كريم الفقي - دار ابن خلدون - اسكندرية ص ٦

(٢) ابن خلكان: وفيات الأعيان ج ٦ ص ١٤٥.

الفرح والسرور ما أذهل العقول، فبينما الناس كذلك، إذ تقدم كاتب نصراني كان في خدمة الأمير نجم الدين، وقال: "يا مولاي هذا تأويل مقالتي لك بالأمس حين ولد هذا السلطان فضحك نجم الدين وقال: "صدقت والله".

ثم أخذ في حمد الله، وشكره، والثناء عليه، ثم التفت إلى الجماعة الذين حوله، والقضاة والأمراء، وقال: كلام هذا النصراني حكاية عجيبة، وذلك أنني ليلة رزقت بهذا الولد (يعني الناصر صلاح الدين) أمرني صاحب قلعة تكريت بالرحلة عنها، بسبب الفعلة التي كانت من أخي شيركوه رحمه الله، وقتله النصراني، وكنت قد ألفت القلعة، وصارت لي كالوطن، فثقل علي الخروج منها، والتحول عنها إلى غيرها، واغتممت لذلك وفي ذلك الوقت جاءني البشير بولادته، فتشأمت به وتطيرت لما جرى عليّ، ولم أفرح به، ولم استبشر وخرجنا من القلعة، وأنا على طيرتي به، ولا أكاد أذكره ولا أسميه، وكان هذا النصراني معي كاتباً فلما رأى ما نزل بي من كراهية الطفل، والتشاؤم به، استأذن مني أن أذن له في الكلام، فأذنت له، فقال لي: يا مولاي قد رأيت ما حدث عندك من الطيرة بهذا الصبي، وأي شيء له من الذنب وبم استحق ذلك منك؟ وهو لا ينفع ولا يضر، ولا يفني شيئاً، وهذا الذي جرى عليك قضاء من الله سبحانه وتعالى، ثم ما يدريك أن هذا الطفل يكون ملكاً عظيم الصيت، جليل المقدار، فعطفتي كلامه عليه وها هو ذا قد أوقفني على ما كان قاله. فتعجبت الجماعة من هذا الاتفاق، وحمد السلطان صلاح الدين ووالده نجم الدين الله سبحانه وتعالى وشكراه.^(١)

أقام صلاح الدين مع أبيه في الموصل، وشملته مع والده عناية عماد الدين زنكي، ونشأ في نعمة والده تحت عين وبصر السلطان عماد الدين الذي أحب نجم الدين وقربه، وأسند إليه مناصب عديدة، ولم يزل صلاح الدين في كنف

(١) أبو شامة: الروضتين في أخبار الدولتين ج ١ ص ٥٢٨

والده يتعلم علوم عصره، ويدرج على ما درج عليه أبوه قبله من حُبِّ الفروسية واللعب بالسيف، ومجالدة الأقران حتى اشتد ساعده وقوي عوده.^(١)

وكان صلاح الدين يختلف إلى الكتاب يحفظ القرآن الكريم كما يفعل الناس مع آبائهم، ويقرأ الحديث الشريف، ويتلقى مبادئ الخط والنحو والحساب واللغة، ويحفظ ما يوجد من الشعر ويروق من النثر حسب المنهج الذي كان يتلقاه المتعلمون في تلك الأيام، ولم يكتف أبوه بذلك بل أحضر له المؤدبين الذين تعهدوه كما كانوا يتعهدون أبناء ذوي الشأن وأولي الأمر من صنوف التأديب والترفيه والتلقين، ولقد أتاحوا له فرصة التعلم على طريقة أبناء الطبقة الراقية في تلك الحقبة.^(٢)

ويذكر بعض المؤرخين أنه كان من شيوخه الذين تلقى العلم على أيديهم عالم دمشق قطب الدين مسعود بن محمد النيسابوري الشافعي، وكان يدرس في مدرستي الغزالية والجاروخية في دمشق، وقد توفى النيسابوري سنة (٥٧٨هـ/١١٨٢م)^(٣) ومن شيوخه أيضاً أبو محمد عبدالله بن بري بن عبد الجبار المصري إمام النحو في وقته وقد توفى سنة (٥٨٢هـ/١١٨٦م).^(٤)

وقد استمع إلى العلماء الذين كانوا يفتنون إلى دمشق أيام نور الدين من الشرق والغرب، ومن سمرقند ومن قرطبة ليعلموا ويتعلموا في مساجدها ومدارسها، ومن المؤكد أنّ صلاح الدين قد استمع إلى أكثرهم ولاسيما عندما كان يجلس في الجامع الأموي عبد الله بن أبي عصرون يلقى محاضراته هناك

(١) أبو شامة: الروضتين في أخبار الدولتين ج ١ ص ٤٠٩ - ابن شداد: سيرة صلاح الدين ص ٤ - ٥.

حمزة النشرتي. الناصر صلاح الدين الأيوبي ص ٨٢.

(٢) ابن شداد: المصدر السالف ص ٥ - ٦ - ٢٤ - ٢٥ - ٢٦ - ٣٠. عبد اللطيف حمزة: صلاح الدين بطل حطين ص ١٦.

(٣) الذهبي: دول الإسلام ج ٢ ص ٨٩. الرمادي: صلاح الدين الأيوبي ص ٦٣.

(٤) الذهبي: دول الإسلام ج ٢ ص ٩٠.

وعبد الله بن أبي عصرون هذا هو الذي استقدمه نور الدين وأبتى له المدارس في دمشق، وأمّهات مدن الشام ليدرّس فيها وينشر العلم في طول البلاد وعرضها.^(١) وفي أثناء وجوده في مصر انتهز صلاح الدين الفرصة، فسمع الحديث على الحافظ أبي طاهر السلفي الأصفهاني المتوفى بالإسكندرية سنة (٥٧٦هـ/١١٨٠م)^(٢) وذكره صاحب كتاب طبقات الشافعية وقال عنه: كان صلاح الدين فقيهاً فقد حفظ كتاب التبيه في الفقه الشافعي^(٣) كما حفظ القرآن الكريم، وكان قد حفظ كتاب الحماسة في الشعر.

ولم يكن نصيب صلاح الدين من الصيد والرياضة والقنص، ومنازلة الحيوانات الكاسرة وامتطاء الخيول، وتربية الطيور، والغوص في الصحراء، وتحمل الصعاب والأهوال ضئيلاً، بل كان كثيراً وكثيراً.^(٤)

وقد أشار إلى ذلك العماد الأصفهاني^(٥) حين عثر فرس صلاح الدين في الميدان فكتب قصيدة يسجل هذا الحادث ويهنئ صلاح الدين بالنجاة ويعتذر له عن هذه السقطة. فيقول:

لا تتكرن لسايح عثرت به	قدم وقد حمل الخضم الزاخرا
فاعذر سقوط البرق عند مسيره	بالبرق يسقط حين يخطف سائرا
وتوقّ من عين الحسود وشرّها	لا كان ناظرها بسوء ناظرا
واسلم لنور الدين سلطان الورى	في الحادثات معاضداً ومؤازرا
وإذا صلاح الدين دام لأهله	لم يحذروا للدهر صرفاً ضائرا

(١) النعمي: المدارس ج ١ ص ٣٠٣ حمزة النشراتي: الناصر صلاح الدين الأيوبي ص ٨٤، عبد الله ناصح علوان، صلاح الدين بطل حطين ومحرر القدس من الصليبيين ص ٢٤.

(٢) الذهبي: دول الإسلام ج ٢ ص ٨٩.

(٣) الرمادي: صلاح الدين الأيوبي ص ١٣.

(٤) النشراتي: الناصر صلاح الدين الأيوبي ص ٨٥ - ٨٧ - ٨٨ - ٨٩.

(٥) الأصفهاني: ديوان العماد الأصفهاني ص ١٥٨ - ١٥٩.

قال ابن خلكان: "وكانت مخايل السعادة عليه لأئحة، والنجابة تقدمه من حالة إلى حالة، ونور الدين يرى له ويؤثره، ومنه تعلم صلاح الدين طرائق الخير، وفعل المعروف، والاجتهاد في أمور الجهاد، حتى صار كفاءاً لما يسند إليه من مهام خطيرة..."^(١)

لقد تنقل صلاح الدين في صغره بين أماكن كثيرة، فبينما هو يولد في تكريت، إذا به ينتقل إلى الموصل وهو ابن أيام قلائل، ثم انتقل مع أبيه إلى بعلبك، حيث تنفس أنسامها الرقيقة، ونعم بأجوائها الطيبة وطبيعتها الجميلة، ومنها انتقل مع أبيه إلى دمشق الفيحاء، حيث قضى طفولة ناعمة سعيدة في ظل أبيه حاكم دمشق^(٢)، ويشير ابن الأثير: "أن نجم الدين أخذ له من صاحب دمشق إقطاعاً، ومالاً، وملّكه عدة قرى من بلدة دمشق، وانتقل أيوب إلى دمشق فسكنها وأقام بها."^(٣)

ويضيف ابن الأثير: "فلما أراد نور الدين ملك دمشق أمر (شيركوه) فراسل أخاه أيوب، وهو بها وطلب منه المساعدة على فتحها، فأجاب إلى ما يراد منه على إقطاع ذكره "نور الدين له ولأخيه وقرى يتملكها فأعطاهما ما طلبا وفتح دمشق".^(٤)

بعد فتح دمشق بقي صلاح الدين يتردد بين دمشق وحلب، وكان نور الدين قد استقر في دمشق وجعل ولاية أمورها لنجم الدين أيوب، فيما كان أسد الدين شيركوه نائبه في حلب سنة (٥٤٩هـ/١١٥٤م) ويبدو أن نور الدين جعل من صلاح الدين حلقة الوصل بينه وبين نائبه، فكان يرسله إلى عمه شيركوه لاستشارته في أمور الدولة وفي أمر المكوس، والضمانات، وإبقائها، أو إلغائها، لأن نور الدين كان لا يفعل شيئاً إلا بمشورته، ويبدو أن صلاح الدين كان أكثر

(١) ابن خلكان: وفيات الأعيان ج ٣ ص ٤٧٤

(٢) ابن شداد: سيرة صلاح الدين الأيوبي ص ٤ - ٥

(٣) ابن الأثير: الكامل ج ١١ ص ١١٨

(٤) ابن الأثير الكامل ج ١١ ص ٣٤٢.

التصاقاً بعمه منه بأبيه، فقد ذكر ابن مخرمة: "لأنه كان يتردد على بلاط نور الدين في دمشق".^(١)

وفي سنة (٥٥١هـ/١١٥٦م) خلف صلاح الدين أخاه الأكبر توران شاه كقائد لعمه "شيركوه" في ديوان الجيش بدمشق، لكنه تخلى عن المنصب بعد زمن قصير احتجاجاً على تصرفات المحتسب في المدينة.^(٢)

هذه هي مسيرة الشاب صلاح الدين، وما إن أكمل تدريباته العسكرية حتى أصبح أحد أفراد جيش عمه - أسد الدين - في الحملة التي توجهت إلى مصر عام (٥٥٩هـ/١١٦٩م) لنجدها من الغزاة الصليبيين.^(٣)

الزكيون في مصر:

في رمضان سنة (٥٥٦هـ/١١٦٦م) قتل الوزير طلائع بن رزيق بدسياسة صهره زوج ابنته عند الخليفة العاضد، الذي زالت الخلافة في أيامه، وانقضى هذا الوزير، وقد كان لمقتله ضجة في القاهرة.

ويتحتم علينا أن نأتي بما ذكره عمارة اليميني، وكان شاهد عيان لما حدث في مصر في أيام الخليفين الأخيرين من الخلفاء الفاطميين.

لقد نصح ابن رزيق، وهو على فراش الموت ابنه أبا شجاع العادل أن يحذر شاور، ويتجنب خلعه من منصبه، وقد دلت الأيام على أن تلك النصيحة كان فيها الخير لابنه.

كان شاور عربي الأصل، اتصل بابن رزيق ونال حظوة لديه فولاه الصعيد، وغداً مركزه من الخطر بحيث لم يجرؤ ابن رزيق على عزله من منصبه، فلما توفي ابن رزيق خلفه ابنه العادل في الوزارة، غير أنه لم يكفد يأتي عليه عام في

(١) ابن مخرمة: قلادة النحر في وفيات أعيان الدهرج ٢٢/٧٧٢

(٢) شاكور مصطفى: صلاح الدين الفارس المجاهد والملك الزاهد المقترى عليه ص ٤١

(٣) العيني: عقد الجمان في تاريخ الزمان مكتبة بيازيد رقم ٢٣١٧ تحقيق دسهيل زكار ص ١٢٠،

أحمد عبد الجواد: صلاح الدين الأيوبي ص ٤٣ - ٤٤.

الوزارة حتى خلعه شاور، وقتله ابنه طيء (ابن شاور) في محرم (٥٥٨هـ/١٦٣م) وصار شاور بفعلته غير محبوب من الناس، مما سهل لأنصار سلفه الاجتماع على الكيد له وخلعه من الوزارة.

وكان من مظاهر خرق شاور في سياسته أن أطلق لابنه طيء عنان التدخل في شؤون الدولة، ولم تقتصر أعماله السيئة على بني رزيك بل تناول أذاها الأهلين عامة، فاستثار شاور بعض الناس^(١) ويقول أبو شامة في عرض كلامه على مقتل العادل بن رزيك، أن طيء بن شاور هو الذي فعل تلك الفعلة دون رضى أبيه، ويقول ابن أبي طيء الذي نقل عنه أبو شامة ذلك: "أشار بعض أقارب العادل بن رزيك بالتخلص من شاور بعزله، فأبى الوزير ذلك بادئ الأمر، ولكنه عزله أخيراً.

فثار عليه وعضده قوم من الأعراب وأهل الصعيد، فتمكن من دخول القاهرة، ثم غادر العادل بن رزيك المدينة، واختفى، ولكنه لم يلبث أن قبض عليه جماعة من الأعراب وحملوه إلى شاور".

وهرب بعد ذلك سائر أسرة ابن رزيك خارج البلاد، وبذلك انفرد شاور بالسلطة المطلقة.

بيد أن أفاعيل أولاده مع الأهلين جعلته مكروهاً عندهم، حتى أن ضرغام أمين الباب، وأخاه ملهماً، وهما من خواص طلائع بن رزيك، تفاوضا مع العادل الذي كان محبوباً، في أن يثورا ثورة عليهما يتمكن بها من إعادته للوزارة. ولما اتصل ذلك بطيء بن شاور، حذر أباه عواقب تلك المؤامرة، ونصح له بأن يقتل ابن رزيك، غير أن شاور تذكر ما ناله من عطف طلائع بن رزيك، فلم يذعن لرأي ابنه.

(١) عمارة اليميني (أبو الحسن نجم الدين اليميني) النكت العصرية في أخبار الوزارة المصرية ط هارتوج

دير بنورج باريس سنة ١٨٩٧م ص ٨٨

ذهب طيء بن شاور بعد ذلك إلى السجن، وقتل العادل بن رزيك، فجلب نفسه بذلك سخط أبيه ولما علم ضرغام أمين الباب بهذا الحادث، أشعل الثورة، وهزم جند شاور ففر شاور إلى دمشق، وبهذا انتهت وزارة شاور الأولى وحل محله فيها ضرغام، وذلك في رمضان سنة (٥٥٨هـ/١١٦٨م)^(١).

وصل شاور إلى دمشق واجتمع مع نور الدين "وأطمعه بالديار المصرية، وفي هذا الوقت كان عموري الأول ملك القدس قد سار بجيشه لغزو مصر، فوصل إلى بلبيس وحاصرها، لكن ضرغام أرغمه على الانسحاب"^(٢). لقد كان غزو مصر من قبل عموري قد أفزع نور الدين لأن هذه الغزوة قد كشفت عن نيات الصليبيين في امتلاك وادي النيل، لذلك رأى نور الدين أن يسرع بإرسال جيوشه إلى مصر لحمايتها من السقوط في أيدي الصليبيين".

أرسل نور الدين حملته الأولى إلى مصر سنة (٥٥٩هـ/١١٦٤م) بقيادة أسد الدين شيركوه وبصحبه شاور وصلاح الدين - ابن أخي شيركوه - وكان في السابعة والعشرين من عمره، وهنا استتجد ضرغام بالصليبيين، وتعمد لعموري الأول - مقابل مساعدته أن يعقد معه معاهدة تصبح مصر بمقتضاها تابعة للصليبيين، لكن مهارة شيركوه وسرعته في قطع الصحراء جعله يسبق الصليبيين في الوصول إلى الدلتا، فانتصر على جيش أرسله ضرغام ونجح في الوصول إلى القاهرة في بداية أيار - سنة (٥٥٩هـ/١١٦٤م)^(٣).

ولم يلبث أن تخلى عن ضرغام جميع الأعوان والناس والجيش والخليفة، فقتل أثناء محاولته الفرار وتولى شاور الوزارة،^(٤) على أن شاور لم يرعِ العهود

(١) أبو شامة: الروضتين في أخبار الدولتين ج ٤ ص ١٦٥ - ابن الأثير: الكامل ج ١١ ص ١١٧.

(٢) أبو شامة: الروضتين ج ٢ ص ١٠٧ - ١٠٨. ابن شداد سيرة صلاح الدين ص ٤٠٣، ابن الأثير: الكامل ج ١١ ص ١٢٠. ابن خلكان: وفيات الأعيان: ج ٢ ص ٣٧٨.

(٣) عمارة: النكت المصرية ص ٦٨ - ٦٩ - ٧٠ - ابن الأثير: الكامل ج ١١ ص ١٢٠ - ١٢١ الموسوعة الشامية ج ٣ ص ٢٩٩ أبو شامة: الروضتين ج ١ ص ١٢٩.

(٤) عمارة: النكت المصرية ص ٧٣.

التي قطعها على نفسه لنور الدين، فلم يكذب يتولى الوزارة حتى تنكر لأسد الدين شيركوه، وطلب منه الخروج من مصر، وقد ردّ شيركوه على تصرفات شاور باحتلال بلبيس والشرقية، مما دفع شاور إلى الاستجداء بالصليبيين، ووعد عموري بإعطائه مبلغاً كبيراً من المال مقابل مساعدته، وسرعان ما حضر عموري على رأس جيش صليبي إلى الدلتا، وعندئذ أخذ شيركوه يقوي مركزه في بلبيس بعد أن تلقى مساعداتٍ من عرب كنانة بالشرقية. وعندما أخذت جيوش عموري وشاور تحاصر شيركوه في بلبيس، تم الاتفاق على أن يغادر شيركوه وعموري الأول مصر، وتم ذلك فعلاً في أواخر سنة (٥٥٩هـ/١١٦٤م) وربما كان عموري الأول أكثر تلهفاً على العودة إلى الشام، بعد أن عمل نور الدين محمود على تشديد هجماته على الصليبيين في الشام لتخفيف وطأة الحصار على شيركوه في مصر، لقد كانت عودة شيركوه إلى دمشق عودة بالإكراه لذلك ما فتئ يذكر مصر عقب عودته إلى دمشق، ويرجو أن يعود إليها مرة ثانية، لكن نور الدين محمود كان حريصاً دائماً على عدم تشتيت قواته، في الوقت الذي كثرت فيه الاشتباكات بينه وبين الصليبيين بالشام.^(١)

أتاحت الفرصة مرة أخرى، لنور الدين محمود عندما أرسل إليه الخليفة العاضد يشكو من استبداد شاور وظلمه، ولم يكن نور الدين في حاجة إلى مزيد من التحريض ضد شاور، إذ كان في قلبه منه حزازة لكونه غدر بأسد الدين شيركوه، واستجد عليه بالصليبيين^(٢) لذلك بادر نور الدين بإرسال حملة شيركوه الثانية على مصر سنة (٥٦٢هـ/١١٦٧م) وكان بصحبة شيركوه أيضاً ابن أخيه صلاح الدين، ويبدو أن شيركوه عمل حساباً لاستجد شاور بالصليبيين، فلم يشأ أن يغامر بقواته في القيام بهجوم على القاهرة، واختار أن

(١) أبو المحاسن: النجوم الزاهرة ج ٥ ص ٢٤٨ - الموسوعة الشامية ج ٣ ص ٢٩٩ - ٣٠٠ - شاعر مصطفى: صلاح الدين الفارس المجاهد ص ٦٦ النوادر السلطانية ص ٣٩ - سنا البرق الشامي ص ٦٠ - ٦١ الباهر ص ١٢٢ - الروضتين ج ١ ص ٢٩ - ٣٢ - شفاء القلوب ص ٢٥ - ٢٦.

(٢) أبو المحاسن: النجوم ج ٥ ص ٣٤٨

يعبر النيل إلى الجيزة، حيث عسكر في مواجهة الفسطاط على الضفة الغربية للنيل، وقد صح ما توقعه شيركوه، إذ استتجد شاور بعموري الأول الذي أسرع في نهاية سنة (٥٦٢هـ/١١٦٧م) بإرسال جيش إلى مصر للمرة الثانية لصد هجوم أسد الدين وعندما علم شاور بوصول حلفائه خرج لاستقبالهم عند بلبيس، واتجه معهم حيث عسكروا على الضفة الشرقية للنيل، بينما كان شيركوه لا يزال معسكراً على الضفة الغربية.

توثق الصليبيون من شاور، وعقدوا معه معاهدة، تعهد لهم شاور بدفع أربعمئة ألف دينار في حال بقائهم حتى طرد شيركوه من مصر، على أن يدفع نصف هذا المبلغ مقدماً.^(١)

عبرت قوات عموري وشاور النيل، ونزلت إلى جزيرة الروضة، وأدرك شيركوه حرج موقفه، فاتجه إلى الصعيد حيث لحق به عموري الأول وشاور، ودارت بين الطرفين معركة قرب الأشمونين في المينا، وهي معركة البابين سنة (٥٦٢هـ/١١٦٧م) واشترك فيها صلاح الدين وانتهت بانتصار شيركوه، وارتداد عموري، حيث عسكر ثانية على الضفة الشرقية للنيل قرب الفسطاط.^(٢)

توجه شيركوه بعد ذلك باتجاه الإسكندرية التي "تلقاه أهلها طائعين ورحبوا به معبرين عن استيائهم من تحالف شاور مع الصليبيين".^(٣)

ويبدو أن شيركوه خاف أن يحصره الصليبيون ومعه جميع قواته داخل الإسكندرية، فترك صلاح الدين فيها ترافقه قوة صغيرة في حين اتجه بنفسه إلى الصعيد، وسيطر عليه، وقد حدث ما توقعه شيركوه إذا خرج عموري لحصار صلاح الدين بالاسكندرية. وقد امتد الحصار ثلاثة أشهر ذاق فيها صلاح الدين الأمرين، وقلّ على من بها الطعام وضاق الأنفس، وهو صابر

(1) Schlumberger Campagnes du roi Amourg I.P.116.

(2) ابن الأثير: تاريخ الدولة الأتابكية ص ٢٣١ - ٢٣٩. ابن كثير: البداية والنهاية ج ١٢ ص ٢٥٢.

(3) أبو شامة: الروضتين: ص ٤٥. أبو المحاسن: النجوم ج ٥ ص ٢٤٩. ابن كثير: المصدر نفسه ج ١٢

يقاتل مع جماعته، وصبر معه الأهلون، وقاتلوا وبذلوا أموالهم وأنفسهم. وعرف أسد الدين بشدة ابن أخيه فعاد من «قوص» بعد أن حصل أموالاً عظيمة من الصعيد، ومعه جموع من العريان وأهل البلاد، لكن أهل الاسكندرية كانوا قد أنهكوا، وقتل منهم ومن جند صلاح الدين جماعة عظيمة، وعرف شاور أنه لن يبلغ ما يريد مع وجود الفريقين في مصر، بعد أن ضجر جنود الفرنجة من الملاحقة والحرب، واستعصت عليه الاسكندرية، وجاء أسد الدين بالعريان والجموع، ففاوضه شاور على أن يدفع له جميع ما غرمه في الحرب، وأن يعطي ملك الفرنج الذي قام بالوساطة بينهما ثلاثين ألف دينار، وينسحب كل منهما إلى بلاده، ووافق أسد الدين ورأى صلاح الدين في ذلك فرجاً له، ولأهل الاسكندرية فوافق وطلب من ملك الفرنج مراكب يحمل فيها الضعفاء من أصحابه، فأنفذ له عدة مراكب، لكن ركبها اعتقلوا في عكا حتى وصل ملك الفرنج عموري فأطلقهم إلى دمشق^(١).

أما صلاح الدين فلم يخرج من الإسكندرية إلا بعد أن أخذ المواثيق على شاور بالأبتعرض لأهلها بسوء، وخاف شيركوه أن يطمع ملك الفرنج في مصر إن خرج بأصحابه، فطلب منهم اليمين على عدم معاودتها، وبعد تردد حلف هو وأصحابه، واشتروا عليه ألا يقيم في البلاد، ولا يملك قرية واحدة، فأجاب إلى ذلك، وخرج شيركوه يريد الشام لكن الفرنج لم يخرجوا حتى استقر بينهم وبين شاور أن يكون لهم في القاهرة شحنة (شرطة)، وتكون أبوابها بيد فرسانهم، ليمتتع على نور الدين إنفاذ عسكر إليهم، ويكون لهم من دخل مصر كل سنة مئة ألف دينار، وكان ذلك بالرغم عن الخليفة العاضد^(٢).

(١) ابن الأثير: تاريخ الدولة الأتابكية ص ٢٤١- ٢٤٦ - ابن كثير: البداية والنهاية ج ١٢ ص ٢٥٢.

(٢) ابن كثير: البداية والنهاية ج ١٢ ص ٢٥٥، شاکر مصطفى: المرجع السالف ص ٦٩ - ٧٠.

وخرج الفرنج بعد أن تركوا فيها جماعة من مشاهير فرسانهم^(١)، أما شيركوه فوصل دمشق «وفي قلبه الداء الدوي منها (مصر) لأنه شاهدها، وشاهد غلاتها فوجدها أمراً عظيماً، فأخذ نور الدين في تهوين أمر مصر عليه، وأقطعه حمص وأعمالها»^(٢) واستقر صلاح الدين فيما بعد قائداً في جملة جيش نور الدين وكان يسافر معه.

وفي سنة (٥٦٤هـ / ١١٦٨م) وصلت إلى نور الدين هدايا، وكتاب شكر من شاور ليضمن حياته، كما وصل عرض جديد من (شجاع بن شاور)، وبعض الأمراء يعلنون فيه الولاء والطاعة، ويبدلون له مالا جزيلاً كل سنة، لأن الفرنج في القاهرة ركبهم بالأذى العظيم، وحكموهم الحكم الجائر وليس في البلاد من يردهم^(٣).

وأرسل الفرنج المقيمون في مصر إلى الملك العموري يعلمونه خلو مصر من أي مدافع، وهونوا أمرها عليه، وسار الملك العموري بجيشه نحو مصر، وتقدم نحو بلبيس، ويقال أنه طلب من شاور المقرر له كل عام، وأنكر شاور قائلاً: إنني قررت لك حين أحتاج إليك فأجاب الملك الفرنجي: لا بد من حضوري وأخذ المقرر.

وكان على شاور أن يحشد الجيش الفاطمي عند بلبيس، وقام عموري بضرب حصار على بلبيس ودخلها بالسيف، وقتل من أهلها خلقاً عظيماً، وأحرق دورها، وأخرج الأسرى إلى ظاهرها، ودخل بينهم برمحه، فأعطى قسماً من الأسرى للجندي يبيعونه، وأبقى قسماً آخر أسرهم عنده، فبقوا في الأسر أربعين سنة هلك خلالها أكثرهم، ولهذا أوقف صلاح الدين حين ولي مصر غلات بلبيس على فكك الأسرى منهم، وسامح أهلها بالخراج إلى آخر أيامه^(٤)

(١) ابن الأثير: الكامل ج ١١ ص ٢٢٦.

(٢) أبو شامة: الروضتين ج ٢ ص ٤٢٨.

(٣) ابن الأثير: الكامل ج ١١ ص ٣٣٦.

(٤) ابن الأثير: الكامل ج ١١ ص ٣٣٦ - وليام الصوري: تاريخ الحروب الصليبية ج ٢ ص ٩٢٨ - ٩٣٦.

وكتب الخليفة العاضد سراً إلى نور الدين، يستدعيه لتخليص مصر من الصليبيين، ويقال أن الخليفة حين استتجد بنور الدين أرسل مع الكتاب شعور نسائه ليثير فيه الحمية.^(١)

ولم يكن سلطان الشام بحاجة إلى من يثيرها فيه، بعد أن علم بنزول الفرنج على مصر، وكانت أركان حملته جاهزة للإسراع، فإن شيركوه كان يشتهي الرجوع، أما صلاح الدين وحسب ما ذكره ابن شداد^(٢) فقال: "كنت أكره الناس للخروج في هذه الدفعة، وما خرجت مع عمي باختياري".

أسرع شيركوه في المسير، وحين شارف مصر طلب شاور من الفرنج أن يسامحوه بنصف المال المقرر، فأدرك ملك الفرنج عموري أن شيئاً ما حدث، فقالوا: "إن أسد الدين وصل، فارض بما أخذت، فذلك أوفق لنا ولك وسنرضي القادمين ببعض المال وينتهي الأمر، وقبل عموري الانسحاب، وطلبوا منه جميع الأسرى ففعل، وطلبوا منه ألا يأخذ من بلييس شيئاً فوافق، وكان يعلم أن الحرب مع جيش نور الدين ستكون طويلة ومنهكة، ففضل إبقاء التحالف مع مصر قائماً ريثما ينصرف هذا الجيش، وكان الإسطول الفرنجي قد احتل (تيس) فأعطى الأمر بالانسحاب"^(٣).

وكان شاور قد عمل على إحراق القسطنطينية في نوفمبر سنة (٥٦٤هـ/١١٦٨م) بأمر من الخليفة، وخوفاً من أن يملكها الفرنج، وبدأ يعد العدة للدفاع عن القاهرة.^(٤)

وبعد الاتفاق الذي تم بين شاور وعموري توجه عموري بجيشه إلى جهة "سريا قوس" حيث سمعوا باقتراب جيوش نور الدين محمود بقيادة شيركوه، وكانت خطة عموري تتجه إلى مباغته جيوش شيركوه عند "فاقوس"، وهي متعبة قبل أن

(١) وليام الصوري: المصدر نفسه ج ٢ ص ٩٣١.

(٢) ابن شداد: النوادر السلطانية ص ٣٩.

(٣) ابن كثير، البداية والنهاية ج ١٢ ص ٢٥٥- ٢٥٦. شاکر مصطفى: المرجع السابق ص ٥٧

(٤) أبو شامة: الروضتين ج ٢ ص ٤٢٣

تتمكن هذه الجيوش من الإتحاد مع القوات المصرية. ولكن هذه الخطة إنهارت من أساسها، عندما علم عموري أن شيركوه اخترق الصحراء إلى القاهرة، حيث رحب به الأهالي والتفوا حوله لحمايتهم من الصليبيين.

وهكذا لم يجد عموري في تلك المرة حليفاً يعتمد عليه في مصر، إذ اتحد المسلمون جميعاً ضده، فلم يبق أمامه سوى أن ينسحب فوراً عائداً إلى فلسطين في كانون الثاني سنة (٥٦٤هـ/١١٦٩م)، ومعه رجاله "خائبين مما أملوه".^(١) وأراد شاور بعد أن تخلص من الفرنج، أن يتخلص من شيركوه بأسلوب المماطلة نفسه لكن في تودد كبير، فكان يخرج بموكبه الحافل إلى أسد الدين، ويذكر المؤرخون خبر مؤامرتين متقابلتين.

فابن الأثير يقول: إن شاور^(٢) "عزم على أن يعمل دعوة، يدعو إليها أسد الدين والأمراء الذين معه، ويقبض عليهم ويستخدم من معهم من الجند فيمنع بهم البلاد من الفرنج، فنهاء ابنه الكامل وقال له: "والله لئن عزمت على هذا لأعرفن شيركوه"، فقال له أبوه: "والله لئن لم نفعل هذا لنقتلن جميعاً"، فقال الابن: "صدقت ولئن نُقتل ونحن مسلمون والبلاد إسلامية، خير من أن نقتل وقد ملكها الفرنج، وليس بينك وبينهم سوى أن يسمعوا أنك قبضت على شيركوه... فترك ما كان عزم عليه".

وأبو شامة يذكر أن الخليفة العاضد^(٣) "خرج إلى شيركوه متكرراً واجتمع به في خيمته، وأفضى إليه بأمور كثيرة، ومنها قتل شاور، ثم عاد إلى قصره". ويقول ابن الأثير: "إن الأمراء اجتمعوا دون أسد الدين، وقرروا قتل شاور، ولما أبلغوه نهاهم عن ذلك، ولكنهم تأكدوا أنه لا يتم لهم قرار في مصر وشاور باقٍ فيها، فقرروا قتله".^(٤)

(١) ابن الأثير: الكامل حوادث سنة ٥٦٤هـ. تاريخ الدولة الأتابيكية ص ٢٥٠

(٢) ابن الأثير: الكامل ج ١١ ص ٣٣٩.

(٣) أبو شامة: الروضتين ج ٢ ص ٤٢٥.

(٤) ابن الأثير: الكامل ج ١١ ص ٣٣٩

وذاث يوم فيما كان شاور في موكبه بالطبل والبوق، هابهُ الأمراء، ومع أنهم كانوا يترصدونه «وأحجموا عنه ...»، وكان يوماً عظيماً الضباب، فتقدم صلاح الدين فسلم عليه، ودخل في موكبه، ثم سايره ثم مد يده إلى تلايبيه، وصاح عليه فرجله، ولما رأى ذلك عسكر الشام قويت عزائمهم، ووقعوا في عسكر شاور، فتهبوا ما كان مع رجاله، وقتلوا منهم جماعة، وحمل "صلاح الدين" شاور راجلاً إلى خيمة لطيفة (صغيرة)، وأراد قتله فلم يمكنه قتله دون مشاورة أسد الدين، وفي الحال ورد على أسد الدين توقيع من العاضد على يد خادم يأمره بقتل شاور، فأنفذ التوقيع إلى صلاح الدين، فقتله في الحال وأنفذ رأسه إلى القصر".^(١)

وقصد شيركوه بعد ذلك قصر الخلافة في القاهرة "فراى من اجتماع الخلق - وهم جند وغلما، فقال لهم: أمير المؤمنين يأمركم بنهب دار شاور، فتفرقوا عنه إليها فتهبوا، وقصد هو قصر العاضد فخلع عليه الوزارة، ولقب بالملك المنصور، وخرج المنشور بذلك، فقرئ على رؤوس الأشهاد، وفرح أسد الدين غاية الفرح، وأعيدت قرائته عليه عدة دفعات استحساناً لمعاينته".^(٢)

لم يتمتع شيركوه بالوزارة طويلاً فلم يمض شهران وخمسة أيام حتى توفى في ٢٢ جمادي الآخرة سنة (٥٦٤هـ / ٢٣ آذار سنة ١١٦٩م).

وزارة صلاح الدين للعاضد الفاطمي ونائباً لنور الدين:

كان جيش شيركوه في مصر يضم جماعة من أكابر الأمراء النورية الذين تطلعوا جميعاً إلى منصب الوزارة عقب وفاة شيركوه، ومالت الأسدية إلى صلاح الدين، وفي تلك الساعة أنفذ العاضد وسأل عمن يصلح للوزارة، فأرشد من جماعة من الأمراء إلى شهاب الدين الحارمي خال صلاح الدين، فأنفذ إليه

(١) أبو شامة: الروضتين ج ٢ ص ٤٣٦ - ابن الأثير: الكامل ج ١١ ص ٣٤٠ - الموسوعة الشامية ج ٣ ص

٣٠٦ شرفنامه ص ٧

(٢) أبو شامة: الروضتين ج ٢ ص ٣٣٦ - ٣٣٧.

وأحضره، وخاطبه فامتتع من ذلك وأشار بولاية (صلاح الدين)، وكان الحارمي أولاً قد رغب بالوزارة وتحدث فيها، فلما رأى مزاحمة الأمراء له خاف أن يشتغل بطلبها فتفوته، وربما فاتت صلاح الدين، فأشار به، لأنها إذا كانت في ابن أخته كانت في بيته.^(١)

كما أن صلاح الدين كان قد وقع من العاضد بموقع، وأعجبه عقله وسداد رأيه وشجاعته، وإقدامه على شاور في موكبه، وأنه قتله حين جاءه أمره ولم يترث ولم يتوقف. وما خرج الحارمي من حضرة العاضد إلا وخلع الوزارة قد سبقته إلى الملك الناصر صلاح الدين في ٢٥ جمادى الآخرة سنة (٥٦٤هـ/١١٦٩م) بعد ثلاثة أيام من موت شيركوه وقرئ المنشور بين يدي صلاح الدين يوم جلوسه في الوزارة، وحضر جميع أرباب الدولتين المصرية والشامية، وكان يوماً عظيماً.^(٢)

وهكذا استقام الأمر لصلاح الدين وزيراً للخليفة الفاطمي، ونائباً في الوقت نفسه عن نور الدين وقائداً لعسكر الشام.

وعلى الرغم من أن الخلفاء الفاطميين كانوا نادراً ما يكتبون، فإن منشور صلاح الدين كتب بخط يد العاضد، وورد فيه: "هذا عهد لا عهد لوزير بمثله"، ووصف صلاح الدين بأنه "منجد الأمة" وكلفه القيام بخدمة أمير المؤمنين.^(٣)

لم يكن تسليم صلاح الدين للوزارة في مصر حدثاً عابراً في التاريخ، بل كان من الأحداث الكبرى التي لم تغير مصيره الشخصي فحسب، ولكن غيرت مصير مصر والمشرق العربي، وبالتالي غيرت اتجاه التاريخ الإسلامي كله. شعر صلاح الدين أن الوزارة بمصر ألقت عليه حملين ثقيلين، هما: تسيق جبهتي مصر والشام في خط متماسك واحد، والجهاد في سبيل الله لتحرير

(١) أبو شامة: الروضتين ج ٢ ص ٤٣٢.

(٢) أبو شامة المصدر نفسه ج ٢ ص ٤٣٩.

(٣) انظر المنشور كاملاً لدى ابن الفرات: تاريخ ابن الفرات (المجلد الأول - نشر حسن الشماخ ١٩٦٧

بغداد)

القدس...، قال لصديقه وصفيه ابن شداد: "لما يسر الله لي الديار المصرية، علمت أنه أراد فتح الساحل (الشامي)، لأنه أوقع في نفسي ذلك"، ويبدو أنه عدّ هذا الأمر بعد الوزارة رسالة سماوية عليه أن يقوم بها، كان عليه أولاً أن يعمل على استقرار الأمور في البلاد، وبذل في ذلك المال الكثير، وحسن المعاملة للناس، لذلك كان الناس يهرعون إليه من كل صوب، ويفدون عليه من كل جانب، وهو لا يخيب قاصداً ولا يعدم وافداً حتى سنة (٥٦٥هـ/١١٧٠م)^(١).

لهذا جعل همه في السنة الأولى من حكمه الاحتفاظ بعلاقات حسنة مع جميع مراكز القوى في مصر. ويقول ابن أبي طيء فيما رواه أبو شامة عنه: "حدثني بعض الأمراء قال: أقبل العاضد على السلطان الملك الناصر وأحبه محبة عظيمة...، وبلغ في محبته له أنه كان يدخل إليه إلى القصر راكباً...، فإذا حصل عنده أقام معه في قصره اليوم، والعشرة، لا يعلم أين مقره." وحين كانت هجمة الفرنج على دمياط، قال صلاح الدين: "ما رأيت أكرم من العاضد... أرسل إلي مدة مقام الفرنج على دمياط ألف ألف دينار مصرية سوى الثياب وغيرها."^(٢)

وأرضى صلاح الدين كبار الرجال في الجيش المصري، ووجوه البلد وأرباب دولة العاضد، وعمّ الناس جميعاً بالبهات والصلوات.^(٣)
بعث صلاح الدين إلى سيده نور الدين يرجوه بإرسال أبيه وأهله إليه، فأرسلهم.

يقول أبو شامة^(٤): نقلاً عن العماد الأصفهاني: "استأذن الأمير نجم الدين أيوب نور الدين في قصد ولده صلاح الدين، والخروج من دمشق إلى مصر بأهله وجماعته، وخيم بظاهر البلد... وشرع في تفريق أملاكه...، وما استصحب شيئاً

(١) ابن شداد: النوادر السلطانية ٤١

(٢) أبو شامة: الروضتين ج ٢ ص ٤٥٧.

(٣) ابن واصل: مفرج الكروب ج ١ ص ١٧٤

(٤) أبو شامة الروضتين ج ٢ ص ٤٦٤ - ٤٦٥.

من موجوده، وجعله نهبه لجوده...، وخرج نور الدين فقام بتوذيعة، وبحق تشييعه، وسير معه عسكرياً فاجتمع معه من التجار ومن كان له مع صلاح الدين أنس ومودة مالا يعد، فخاف نور الدين عليهم، فسار إلى الكرك...، فنزل عليه وحاصره...، وسار نجم الدين ومن معه سالمين.."

ووصل نجم الدين إلى مصر، وعرض عليه صلاح الدين أن يلبسه الأمر كله، وأن يضعه موضعه فأبى أن يلبسه وقال: "يا ولدي ما اختارك الله لهذا الأمر إلا وأنت كفؤ له، فما ينبغي أن تغير موقع السعادة، فحكمه في الخزائن كلها... وكان رحمه الله كريماً يطلق ولا يرد...".

لقد كان وصول والد صلاح الدين وأهله إلى مصر قد شد من عضده وطمأنه إلى مركزه من نور الدين، كما طمأنه إلى مركزه من الخليفة الفاطمي، حيث خرج لتلقي أيوب إلى ظاهر باب الفتوح، ولم يجر بذلك عادة لهم. "وأظهر صلاح الدين من بره وتعظيم أمره ما أحرز به الشكر والأجر، وأفرد له داراً إلى جانب داره، وأقطعه الإسكندرية ودمياط والبحيرة، وأقطع إقليم الفيوم لبعض أفراد أسرته، وفي السنة نفسها (٥٦٥هـ/١١٧٠م) رزق السلطان ولده الأفضل علياً، وفرح به فرحاً عظيماً، وخلع وأعطى وتصدق بما بهر العقول^(١)

كذلك استطاع صلاح الدين إخضاع ممالك شيركوه، وسيطر سيطرة تامة على الجند في الوقت الذي أمده نور الدين محمود بقوة جديدة من العسكر فيها شمس الدولة توران شاه أخو صلاح الدين، وبفضل ذلك كله تمكن صلاح الدين من القضاء على قوة الجند السودان الذين كانوا آخر سلاح اعتمد عليه الخليفة العاضد الفاطمي.^(٢)

(١) ابن الأثير: الكامل في التاريخ ج ١١ ص ٣٤٤ - أبو شامة: الروضتين ج ٢ ص ٤٦٦

(٢) ابن واصل: مفرج الكرب ج ١ ص ١٧٤.

عمل بعض رجال البلاط الفاطمي للتخلص من صلاح الدين، وجيشه، ومنهم رئيس بلاط قصر الخليفة العاضد وكان خصياً نوبياً اسمه مؤتمن الخلافة، وعمل على الاستعانة بالأعداء، وحاول أن يتصل بعموري الأول لكن رسالته وقعت في يد صلاح الدين، الذي رأى أن يستأصل الشر من جذوره، ويقضي على أي محاولة للعودة إلى سياسة ضرغام وشاور، فقتل مؤتمن الخلافة فوراً في ٢٠ آب أغسطس سنة (٥٦٤هـ / ١١٦٩م)^(١)

كما عمد صلاح الدين إلى إبعاد جميع الخدم السودان عن قصر الخلافة، وتمكن من القضاء على ثورتهم، عندما أرسل أخاه توران شاه في طائفة من العسكر، "فأبادهم بالسيف"^(٢) كذلك تخلص صلاح الدين من حرس الخليفة الأرمن، إذ أشعل النار في ثكناتهم وقبض عليهم، حتى لا يعطيهم فرصة للقيام بما قام به السودان، وهكذا قضى صلاح الدين على عناصر الخيانة، ولم يبق أمامه إلا كبار الإقطاعيين، وملأ الأراضى، الذين دفعهم الحرص على ممتلكاتهم وضياعهم الواسعة إلى مساندة الأوضاع القائمة، فتخلص صلاح الدين من هؤلاء أيضاً، وأحلّ مكانهم في أقطاعاتهم جماعة من رجاله من أهل الشام.^(٣)

تعرضت مصر لغزو صليبي بيزنطي مشترك على أتراتفاق عموري الأول ملك القدس مع إمبراطور بيزنطية مانويل كومينس، وكان ذلك سنة (٥٦٥هـ / أكتوبر ١١٦٩م)^(٤) واستطاع صلاح الدين التصدي لهذه الحملة، بعد أن طلب من سيده نور الدين النجدة العاجلة "فسيّر نور الدين العساكر إليه إرسالاً يتلو بعضها بعضاً"^(٥).

(١) ابن الأثير: الكامل ج ١٠ ص ٢٤٥- ٢٤٦.

(٢) ابن واصل: مفرج الكروب ج ١ ص ١٧٦- ١٧٧.

(٣) عاشور: المرجع السالف ص ٢٣

(٤) ابن واصل: مفرج الكروب ج ١ ص ١٨٠.

(٥) ابن الأثير: الكامل ج ١١ ص ٤٥٢

وكذلك وقف أهالي مصر إلى جانبه، وخاصة أهل دمياط، الذين استغلوا جريان تيار النيل من الجنوب إلى الشمال، وأطلقوا على سطح الماء أواني فخارية بها مواد مشتعلة، أنزلت أبلغ الضرر بالأسطول البيزنطي، فاضطر إلى الإبتعاد عن لسان النيل والمدينة^(١).

ولم يلبث أن نفذ تموين الأسطول واشتد القلق بعموري نتيجة للأخبار التي بلغته عن ازدياد هجمات نور الدين على الصليبيين بالشام. لذلك رفع عموري الحصار عن دمياط وعاد مع جيوشه إلى عسقلان في أواخر كانون أول سنة (١١٦٩م/٥٦٥هـ)، ترافقه خيبة الأمل.^(٢)

كان من نتائج إخفاق الحملة الصليبية البيزنطية تدعيم موقف صلاح الدين في مصر، وجعل الخلافة الفاطمية تتقدم آخر أمل تبقى لها في التخلص من قبضته صلاح الدين القوية على الرغم من محاولة الحليفة العاضد الفاطمي مراسلة نور الدين من أجل سحب قواته في القاهرة، بحجة أنهم بثوا الرعب في قلوب أهلها، لكنّ نور الدين أرسل إليه يعتذر عن عدم إجابته إلى طلبه، ويوضح له أن بقاء أولئك الجند أمر ضروري، لحماية مصر من خطر الصليبيين^(٣)

لم يعد أمام صلاح الدين من أجل استكمال الوحدة الإسلامية سوى القضاء على الخلافة الفاطمية في مصر، وكان هذا هدفه منذ البداية، لكنّ تخوفه من نوايا سيده نور الدين تجاهه، وإحساسه بتغير شعور سيده نحوه، بأنه بات يحسده على مكانته في مصر.

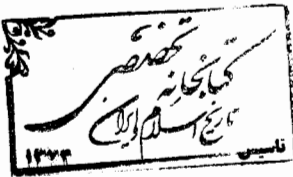
رأى صلاح الدين أن يبقى على الخلافة الفاطمية في صورتها الشكلية، ليستطيع أن يستقلها عند الحاجة، إذ تآزم المقف بينه وبين نور الدين.

لكن نور الدين لم يعد يحتمل المماطلة، فأرسل إنذاراً نهائياً في صيف (٥٦٦هـ/١١٧١م) إلى صلاح الدين يأمره بإحلال اسم الخليفة العباسي المستضيء

(1) Goilaumdety- CRec. Hist. Cr II p 968.

(٢) وليام الصوري: تاريخ الحروب الصليبية ص ٩٤٣.

(٣) أبو شامة: الروضتين ج ٢ ص ٤٦٠.



محل اسم الخليفة الفاطمي العاضد في خطبة الجمعة "والزمه ذلك إلزاماً لا فسحة فيه"^(١)

وهكذا اضطر صلاح الدين إلى اتخاذ تلك الخطوة الخطيرة، فتم الدعاء في أول جمعة من عام (٥٦٧هـ/أيلول ١١٧١م) للخليفة العباسي المستضيء أمير المؤمنين، وحدث انقلاب في هدوء، دون أن ينتطح فيه عنزان" حسب قول ابن الأثير، ويقال أن الخليفة العاضد توفي بعد ذلك الانقلاب بثلاثة أيام، دون أن يسمع بزوال دولته، وسقوط خلافته، لأن صلاح الدين أمر بإخفاء الخبر عنه، عندما علم يمرضه^(٢) ولم تلبث الوحشة أن دبت من جديد بين صلاح الدين وسيده نور الدين، عقب سقوط الخلافة الفاطمية سنة (٥٦٧هـ/١١٧١م) بسبب تحديد علاقة الطرفين بعضهما ببعض، فحتى سقوط الخلافة الفاطمية كان صلاح الدين يباشر سلطانه الفعلي في مصر بوصفه وزيراً شرعياً للخليفة الفاطمي، فضلاً عن أنه كان ينفذ تعليمات نور الدين بوصفه نائباً عنه، وقائداً لقواته في مصر، وسقوط الخلافة الفاطمية صار يخطب باسمه على المنابر بعد الخليفة العباسي، والملك العادل نور الدين محمود^(٣)

ويروي ابن الأثير مثلاً واضحاً لتخوف صلاح الدين من نوايا نور الدين في ذلك الدور "وكان سببه أن صلاح الدين... سافر عن مصر في هذه السنة (٥٦٧هـ/١١٧١م) إلى بلاد الفرنج غازياً، ونازل حصن الشويك وبينه وبين الكرك يوم، وحصره وضيق على من به، وطلبوا الأمان واستمهلوه عشرة أيام، فأجابهم إلى ذلك، فلما سمع نور الدين بما فعله صلاح الدين سار عن دمشق قاصداً بلاد الفرنج أيضاً، ليدخل إليها من جهة أخرى^(٤)

(١) ابن واصل: مفرج الكروب ج ١ ص ٢٠٠.

(٢) ابن الأثير: الكامل ج ١١ ص ٣٦٨- ٣٦٩.

(٣) أبو المحاسن: النجوم الزاهرة ج ٥ ص ٣٥٧.

(٤) ابن الأثير: الكامل ج ١١ ص ٣٧١- ٣٧٢.

إن ما ذكره ابن الأثير لا يدل على تخوف صلاح الدين من نور الدين وإنما يدل على التعاون بين الإثنين، كما أن وليام الصوري يبين لنا مناعة موقع حصن الشويك، وعلاوة على ذلك كان الحصن مزوداً بشكل جيد بالأسلحة والمؤن وبحامية كافية من الجنود للدفاع، وكان ملك الفرنج قد خرج بجنده يراود ما بين الداروم (دير البلج) وعسقلان، وخشي صلاح الدين قطع طريق العودة عليه إلى مصر، وذلك طبيعى لو استمر الحصار، فرفعه وعاد بسرعة إلى الأراضي المصرية^(١)، لكن ابن الأثير انتهز ذلك ليقول أن صلاح الدين هرب من نور الدين ولقائه وجعل ذلك وحده مسوغاً لتركه حصار الشويك، وانفرد ابن الأثير بروايته حول عزم نور الدين على قصد مصر "... وظهر ذلك فسمع صلاح الدين الخبر فجمع أهله، وفيهم أبوه نجم الدين وخاله الحارمي ومعهم سائر الأمراء، وأعلمهم ما بلغه من عزم نور الدين وحركته إليه، واستشارهم فلم يجبه أحد بكلمة واحدة، فقام تقي الدين عمر ابن أخ صلاح الدين فقال " إذا جاء قاتلنا ومنعنا عن البلاد" وواقفه غيره من أهلهم فشتهم نجم الدين أيوب، وأنكر ذلك واستعظمه وشم تقي الدين وأقعده، وقال لصلاح الدين: "أنا أبوك وهذا خالك، ونحن أكثر محبة لك من جميع من ترى، والله لو رأيت أنا وخالك هذا نور الدين لم يمكننا إلا أن نقبل الأرض بين يديه، ولو أمرنا أن نضرب عنقك بالسيف ل فعلنا، فإذا كنا نحن هكذا فما ظنك بغيرنا؟ وكل من تراه عندك من الأمراء لو رأوا نور الدين وحده لم يتجاسروا على الثبات على سروجهم، وهذه البلاد له ونحن مماليكه ونوابه فيها، فإن أراد عزلك سمعنا وأطمنا، والرأي أن تكتب كتاباً مع نجاب، تقول فيه: بلغني أنك تريد الحركة لأجل البلاد، فأني حاجة إلى هذا؟ يرسل المولى نجاباً يضع في رقبتى منديلاً ويأخذني إليك، وما ها هنا من يمنع عنك.."^(٢)، وتفرق الأمراء على هذا، والواقع الذي جرى ذكره صلاح الدين بنفسه لصديقه ابن شداد الذي قال: " ولقد حكى لي السلطان قال:

(١) وليام الصوري: تاريخ الحروب الصليبية ج ٢ ص ٩٦٤.

(٢) ابن الأثير: الكامل ج ١١ ص ٣٧٢ - ٣٧٣.

" كان بلغنا عن نور الدين أنه ربما قصدنا بالديار المصرية وكانت جماعة أصحابنا يشيرون بأن يكاشف ويخالف ويشق عصاه ويلقى عساكره بمصاب يرده، إذا تحقق قصده، وكنت وحدي أخالفهم وأقول " لا يجوز أن يقال شيء من ذلك، ولم يزل النزاع بيننا حتى وصل الخبر بوفاته^(١).

و يتضح من هذا أن الرجلين كانا على علاقة من الثقة وطيدة وأن أصحاب نور الدين كانوا يوسوسون إليه، وهو يعلم بطوية صلاح الدين، فيسكت، وكان أصحاب صلاح الدين يجيبون فيما بينهم على شائعات التحدي، فتنتقل والسلطان بدوره صامت لعلمه بمنزلته لدى نور الدين، وما كان لهذا الرجل الذي بذل ما بذل من المال والجند والجهد لمعونة صلاح الدين، وإلى ما يريد من ملك مصر، ثم يكون من الحمافة بحيث يهدم بيده ما بنى وأقام، في حرب تمزق الجبهة الإسلامية.

لقد كان موقف صلاح الدين من سيده نور الدين دائماً موقفاً القائد الحريص على سمعة سيده، ويؤكد هذا ما دار من حديث بين صلاح الدين والخليفة العاضد، بعد أن حقق صلاح الدين النصر على الصليبيين في دمياط سنة (٥٦٥ هـ / ١١٦٩م)^(٢).

يذكر الرواة (أنه في يوم جاءه صلاح الدين وجلس إليه، وأخذا يتذكران في أخبار الموقعة فأخذ صلاح الدين يثني على نور الدين ثناءً شديداً، ويذكر من أخبار وقائعه مع الصليبيين ما يدل على صبره وشجاعته وجهاده، ورغبته في نصرة الإسلام.

فأراد الخليفة العاضد أن يعرف المزيد عن أخبار هذا السلطان، فقال له صلاح الدين: ماذا أقول لك يا أمير المؤمنين أكثر من أن هذا الرجل لا يشغله أي شيء عن تحقيق أمله في إخراج الصليبيين من بلاد المسلمين، ورفع راية الإسلام

(١) سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان ج ٨ قسم ١ ص ٢٩٢.

(٢) ابن الأثير: الكامل ج ١١ ص ٣٥١ - ٣٥٢.

فوق كل حصن يحتله هؤلاء الملاحين...، إنه يا أمير المؤمنين لا لذة له في الحياة، إلا الحث على الجهاد، وتدريب الجنود على القتال والاستعداد للحرب وتعريفهم معنى البطولة والاستشهاد في سبيل الله^(١).

الواقع أن الخلاف بين وجهتي نظر نور الدين وصلاح الدين، يتصل بالأموال التي كان صلاح الدين ينفقها في مصر من وارداتها لضمان ولاء الناس له، في حين كان نور الدين يحتاجها للإنفاق على جنده ومعاركه مع الفرنج في الشام، وقد عرف صلاح الدين ذلك فعاد يتحرك ضد الفرنج في الجنوب لو كانت الوحشة بالشدّة التي يصفونها بين الرجلين، لما اتفقا على "قصد بلاد الفرنج من جهتين كل واحد منهما من جهة بعسكره"^(٢). وفي شوال سنة (٥٦٨هـ/١١٦٩م). "رحل صلاح الدين من مصر بعساكره جميعها مسرعاً يريد حصن الكرك على الفور لأن طريقه أصعب وأبعد وأشق"^(٣) ووصل قرب الحصن بعد أن اتفق مع نور الدين على موعد معلوم للقائه فوصله خبر بمرض أبيه مرضاً شديداً فعاد إلى مصر، فوجد أباه قد مات فعلاً، وكان وصوله إلى مصر بعد غياب ثلاثة أشهر بين ذهاب إلى الكرك وعودة منها^(٤)

ومهما يكن من أمر، فإن وفاة نور الدين المفاجئة بالخوانيق في دمشق (١٥ شوال سنة ٥٦٩هـ/١١٧٠) ترك شائعة الوحشة في الهواء، وترك للمؤرخين قبولها أو رفضها لأنه لم ينجم عنها أي تصرف فعلي بين الرجلين مادام قد غاب أحدهما.

لقد حافظ صلاح الدين حتى اللحظة الأخيرة على علاقته الطيبة مع نور الدين، بدليل الوثائق، على الرغم من أن الكثير من الظنون كانت تعطي

(١) حمزة النشري: الناصر صلاح الدين الأيوبي ص ١٢٧ - صلاح الدين بطل حطين ٤١ - ٤٢.

(٢) ابن الأثير: الكامل ج ١١ ص ٣٩٢.

(٣) ابن الأثير: الكامل ج ١١ ص ٣٩٣.

(٤) ابن الأثير: الكامل ج ١٢ ص ٣٩٣ - أبو شامة: الروضتين ج ٢ ص ٥٣٣ - ٥٣٤.

(٥) ابن الأثير: الكامل ج ١١ ص ٤٠٢ - ٤٠٣.

حاسديه ومنافسيه لدى نور الدين كثيراً من المجالات للدسّ عليه، وكان من الطبيعي جداً أن يصدق نور الدين بعضها، فالأمراء الذين رأوا صلاح الدين وأهله، يستأثرون بإقطاع يزيد في السعة وفي المواد على مملكة نور الدين كلها، وهم أمراء صغار حول نور الدين، وعند أذنه يمكنهم إطلاق أي تهمة عليه وهو بعيد.^(١)

وأبرزها أنه يبدد الأموال، وهي تهمة تجد صدى لدى نور الدين، الذي كان محتاجاً لهذا المال من أجل الجهاد وقد شهد بذلك العماد الأصفهاني بقوله: "كان نور الدين منذ ملكت مصر، وتوجه له فيها النصر يؤثر أن يقر له مال للحمل، يستعين به على كلف الجهاد، وتخفيف ماله من الثقل، والأيام تماطله والأعوام تطاوله، وهو ينتظر أن صلاح الدين يبتدئ من نفسه بما يريده، ولا يستدعي منه ولايزيده".^(٢) ولم يكن نور الدين يقدر أن ثبات أقدام دولته في مصر الواسعة، يحتاج بدوره إلى المال الكثير، ولا يقل شأناً عن الجهاد في الشام.

هذه بعض المواقف التي وقفها صلاح الدين من سيده نور الدين، وإن لم نأت عليها بأكملها وإن ما أوردناه آنفاً في هذه الدراسة، وما أوردته كتب التاريخ، يدفعنا إلى الاعتقاد بأن صلاح الدين ظلّ وفيّاً لنور الدين طول حياته، ولم يحاول أن يحدث منه ما يعكر الصفو بينهما.

(١) ابن واصل: مفرج الكروب ج ٢ ص ٢

(٢) البنداري: سنا البرق الشامي ج ١ ص ١٢٢ - ١٢٤.

الباب الأول

الأوضاع السياسية والإدارية

من الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب

إلى الناصر صلاح الدين يوسف بن العزيز

الفصل الأول

من الناصر صلاح الدين إلى العادل

أ . الناصر صلاح الدين الأيوبي: ربيع الأول (٥٧٠-٥٨٩هـ/

١١٧٤-١١٩٣م):

إن مجمل الأحداث التي مرّت بصلاح الدين منذ وفاة عمّه، حتى تاريخ إلغائه للخلافة الفاطمية فيه ما يبرهن على عبقريته، وما يشير إلى أنّه ملك من الإمكانيات الإدارية والعسكرية والاقتصادية ما ساعده على النجاح. ولقد واجه صلاح الدين حادث وفاة نور الدين في دمشق بقضية مماثلة من حيث الجوهر لتلك التي واجهته إثر وفاة عمه شيركوه، إنما وإن وجد الشبه في جوهر القضيتين فإن الفوارق بينهما كانت شاسعة تفوق المسافة ما بين دمشق والقاهرة، فبلاد الشام سياسياً ليست مثل مصر، ليس بسبب وجود الاحتلال الصليبي فيها، لكن لبيئتها الجغرافية والسياسية والاجتماعية وحتى الدينية^(١). في سنة (٥٦٩هـ/١١٧٣م) توفي الملك العادل نور الدين بمدينة دمشق في شهر شوال بعد أن عهد بالسلطة إلى ولده الصالح إسماعيل، وبوفاة نور الدين كانت الفرصة سانحة لصلاح الدين لكي يبسط سلطانه على البلاد الإسلامية في الشرق، إلا أنه بقي على احترامه للملك الصالح إسماعيل بن نور الدين وظل يضرب النقود باسمه، ويخطب له على المنابر^(٢).

لقد خلف نور الدين صبياً صغيراً عرف باسم الصالح إسماعيل، وبسرعة كبيرة أعلن ابن نور الدين خليفة له في دمشق، لم يكن هذا التحرك السريع

(١) الموسوعة الشامية ج ٢ ص ٢١٤.

(٢) ابن شداد: النوادر السلطانية ص ٢٦. أبو شامة: الروضتين ج ٢ ص ٢٢١. ابن كثير: البداية والنهاية ج ١٢ ص ٢٨٧. ٢٨٨. عاشور: مصر والشام ص ٣٢. محمد فريد: صلاح الدين الأيوبي وعصره ص ٩٩.

دليل مؤشر على الوفاق والانسجام بين أركان دولة نور الدين في دمشق، بل العكس هو الصحيح، فقد شهدت دمشق في تلك الآونة الصعبة صراعاً عنيفاً حول الوصاية على الصالح إسماعيل. واشتد الصراع في دمشق حول التحكم بوريث نور الدين، وعطل هذا، الأعمال القتالية ضد الصليبيين، وفي القاهرة كان صلاح الدين يرقب باهتمام ما يجري في الشام، وقد حاول التدخل بواسطة الرسل والمراسلة أكثر من مرة، وأخيراً قرر الذهاب إلى دمشق، وخاصة عندما وصلت رسالته من دمشق تستجد به وتطلبه بإلحاح. لقد كان قرار صلاح الدين في الذهاب إلى دمشق، ووراثته مملكة نور الدين ينبع من خوف صلاح الدين من بعثرة أراضي هذه المملكة، وهدر طاقتها التي عبثت لأجل مرحلة التحرير من الصليبيين، الذين يحتلون أجزاءً من بلاد الشام، وكم كانت فرحة صلاح الدين بهذه الدعوة التي وجهت إليه من دمشق^(١).

لقد أحاط بالملك إسماعيل حزبان من الأمراء، حزب الحلبيين الذي يميل إلى بقاء إسماعيل في حلب كما كان فيها نور الدين من قبل، وحزب الدمشقيين الذي أراد نقل العاصمة إلى دمشق لإرجاعها إلى مجدها القديم، وتاريخها العبق، ومنزلتها التي كانت لها قبل اتخاذ نور الدين حلب عاصمة لدولته. وتنازع الحزبان تنازعاً كبيراً، أدى إلى استتجاد الحلبيين بالصليبيين لحل هذه المشكلة، واستتجد الدمشقيون بصلاح الدين كي ينصرهم في قضيتهم^(٢).

ولم يكن هناك خيار أمام صلاح الدين كما ذكرنا، حيث أوجب هذا النزاع التدخل لحل هذه المشكلة، وتأخره عن التدخل يعني استفحال الخطر وعدم التمكن من إيقافه عند حده.

(١) الموسوعة الشامية: ج ٣ ص ٣١٥.

(٢) ابن شداد: سيرة صلاح الدين الأيوبي ص ٣٨. من تاريخ أبي الهيجا: (الموسوعة الشامية ج ٣ ص ٤٠٥).

توجه صلاح الدين مسرعاً إلى دمشق، ولم يبالٍ بالعقبات التي في طريقه من قبل البارونيات، والحصون الصليبية، لقد اخترق الصحراء، وهو على تمام الثقة بالله من أنه سوف يعينه وينصره ويخذل أعداءه. ووصل إلى بصرى، واستقبله أميرها بالترحاب، ثم زحف إلى دمشق، فوصلها في شهر ربيع الأول سنة (٥٧٠هـ/١١٧٤م) وبمجرد وصوله إليها ذهب إلى بيت والده فيها وأقام فيه، واسترجع ذكرياته القديمة وملعب صباه هناك، إلى أن أقبل عليه رسول يدعوه إلى القلعة، فمضى إليها وأخذ ما فيها من الأموال والكنوز ففرقها على الأهالي، فاستبشر الناس بهذه المبادرة الكريمة، ومدحه الشعراء بالقصائد الفراء، وكان ما يفتأ يؤكد في كل مناسبة، وكل مجلس، بأنه في طاعة الملك الصالح، وأنه إنما قدم لرعايته وحفظ وحدة البلاد وحمائتها من الفرنجة، فعزز ذلك من مكانته وجمع حوله القلوب المتفرقة^(١).

لقد كان قدوم صلاح الدين إلى دمشق بدعوة من أهلها مؤيداً من الخليفة العباسي، قوياً بجيشه وخبرته وبعد نظره، تتقدمه شهرة بازخة واسم مقترن في الأذهان بالباس والنبل والمروءة^(٢).

لقد صرح صلاح الدين أثناء مقامه في دمشق قائلاً: «لو استمرت ولاية هؤلاء القوم يعني الأمراء المتنازعين، تفرقت الكلمة وطمع الكفار في البلاد»، وقال أيضاً: «إنا لا نؤثر للإسلام وأهله. إلا ما يجمع شملهم ويوحد كلمتهم»^(٣).

وأكد صلاح الدين على أن مجيئه إلى الشام، ما هو إلا لحماية الصالح من أخطار الصليبيين، ولاسترداد أملاكه التي استولى عليها أتاك الموصل في الجزيرة، وأخذ صلاح الدين ينفذ سياسته في إعادة الجبهة الإسلامية إلى سالف

(١) ابن الأثير: الكامل ج ١١ ص ٤١٥ - ٤١٦ - ٤١٧. ابن شداد: سيرة صلاح الدين ص ٣٨ - ابن خلكان: ترجمة صلاح الدين. الأصفهاني: الفتح القسي في الفتح القدسي ص ٢١٤ - النويري: نهاية الأدب ج ٢٨ ص ٣٧٤ - ٣٧٥. قدرى قلعجي: صلاح الدين الأيوبي ص ٥٩ - ٦٠.

(٢) ابن الأثير: الكامل ج ١١ ص ٤١٥.

(٣) ابن واصل: مفرج الكرب ج ٢ ص ١٨.

عهدھا التي كانت عليه في عهد السلطان نور الدين، حيث كان يبسط نفوذه من شمال العراق إلى الشام فمصر، وبذلك كان يستطيع أن يجابه الصليبيين في قوة وعزم^(١).

وانتهز فرصة وجوده في دمشق فأبطل ما جدّ بعد موت نور الدين مما كان قد أُلغاه في حياته، من ضرائب ومكوس، وغير ذلك من المنكرات، لقد أعاد صلاح الدين السيرة النورية كما كانت، فلهج الناس بالثناء عليه^(٢). وعين صلاح الدين أخاه إسماعيل سيف الإسلام طففتكين بن أيوب حاكماً على دمشق باسم الصالح إسماعيل^(٣)، وقد سجل الشعراء هذه الخطوة المباركة التي قام بها صلاح الدين في دمشق، فقال أبو الوحش سبع بن خلف بن محمد الأسدي يمدح صلاح الدين في قصيدة منها:

قد جاءك النصر والتوفيق فاصطحبا	فكن لأضعاف هذا النصر مرتقبا
لله أنت صلاح الدين من أسد	أدنى فريسته الأيام إن وثبا
رأيت جلق ثغراً لا نظير له	فجئتها عامراً منها الذي خربا
نادتك بالذل لما قل ناصرها	وأزمع الخلق من أوطانها هربا
أحييتها مثلما أحييته مصر، فقد	أعدت من عدّ لها ما كان قد ذهباً
هذا الذي نصر الإسلام فاتضحت	سبيله، وأهان الكفر والصلبا ^(٤)

ثم اتجه بعد ذلك لتوحيد بلاد الشام، حيث وصل في الثالث من جمادى الأولى سنة (٥٧٠هـ/٣٠ كانون الأول سنة ١١٧٤م)، إلى حلب وفيها الملك الصالح ووزيره (كمشتكين)، فحاصرها مدة من الزمن، بعد أن بين أنه أتى لإنقاذ

(١) ابن الأثير: الكامل ج ١١ ص ٤١٧ - ٤١٨ . سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان ج ١/٨ ص ٣٢٧ . النشرتي:

الناصر صلاح الدين ص ١٨٦ . عاشور: مصر والشام في عصر الأيوبيين والمماليك ص ٣٨ .

(٢) ابن شداد: النوادر السلطانية ص ٧٢ . أبو شامة: الذيل على الروضتين ج ٢ ص ٦٠٥ - ٦٠٦ . النشرتي: الناصر صلاح الدين ص ١٨٦ .

(٣) من تاريخ أبي الهيجاء: الموسوعة الشامية ج ٤٣ - ص ٤٠٦ .

(٤) العماد الأصفهاني: الخريدة قسم شعراء الشام ج ١ ص ٢٤٢ .

سيده الملك الصالح من الأمراء المستبدين وعلى رأسهم كمشتكين، وكان ضغط الهجوم وأثر الحصار يشندان على المدينة يومياً، حتى أدرك كمشتكين أنه لا يستطيع الصمود طويلاً، فاتفق مع رئيس الطائفة الإسماعيلية الموجودة في مصياف ليرسل من يفتك بصلاح الدين، وضمن له على ذلك أموالاً جمّة، واستتجد أيضاً بأمير طرابلس (ريموند الثالث)، ووعده بثمن مفر إذا هو نجح في تخليص حلب من حصار صلاح الدين، أما الإسماعيلية فقد باءت محاولتهم في اغتيال صلاح الدين بالإخفاق، بعد أن كشف أمر جنودهم الذين أرسلوا ليقتلوا صلاح الدين، وتم قتل أفراد هذه المجموعة، وكانت هذه المحاولة الأولى لاغتيال صلاح الدين من قبلهم^(١).

أما ريموند الثالث فقد وجدت دعوة كمشتكين له في نجدته كل ترخيص، لأنه كان يدرك أهمية التحالف مع حلب، وأسرع لتلبية الدعوة، وأراد أن يعزز موقفه لتظل حلب مستقلة مفصولة عن بقية الشام، حتى تقطع الطريق على وحدة الدولة الإسلامية، التي تراود خيال صلاح الدين، حاول ريموند أن يستولي على حمص في غفلة من صلاح الدين، لكن الملك الناصر صلاح الدين ما كاد يعلم بذلك حتى فك حصار حلب وهرع إلى ملاقاته الفرنجة، فإذا بهم يعودون من حيث أتوا تجنباً لمنازلته فتابع صلاح الدين سيره إلى دمشق، واستولى وهو في طريقه إليها على قلعة حمص، ومدينة بعلبك التي قضى فيها سنين طفولته الأولى^(٢).

حاول صلاح الدين مراراً تجنب سفك دماء المسلمين، عندما طلب من كمشتكين وسيف الدين غازي صاحب الموصل أن يسلمهم جميع المدن التي استولى عليها في بلاد الشام على أن يبقى نائباً للملك الصالح في دمشق، وهذا

(١) من تاريخ أبي الهيجاء: الموسوعة الشامية ج ٤٣ ص ٤٠٦ - ابن واصل: مفرج الكروب ج ٢ ص ٢٤ - ابن الأثير: الكامل ج ١١ ص ٤١٧ - ٤١٨ - ابن شداد: سيرة صلاح الدين ص ٣٨ - ٣٩ - قلمجي: صلاح الدين الأيوبي ص ٦١ - النشرتي: الناصر صلاح الدين ص ١٨٧ - ١٩٠.

(٢) ابن الأثير: الكامل في التاريخ ج ١١ ص ٤١٨ - ٤١٩ - ٤٢٠ - النشرتي: الناصر صلاح الدين ص ١٩٠.

يدل على صدق صلاح الدين بأنه كان لا يريد الخروج على الصالح إسماعيل، وإنما كان هدفه أن يكون في موقع متقدم لكي يستطيع مجابهة الصليبيين، وعندما علم صلاح الدين برفضهم لعرضه، لم يجد بداً من حريهم، وقامت معركة عند حماة كان النصر فيها حليفاً لصلاح الدين، وذلك في التاسع عشر من رمضان سنة (٥٧٠هـ/١٣ نيسان ١١٧٥م)^(١). وبعد هذه المعركة واصل صلاح الدين سيره الظاهر إلى شمال حلب وضم إليه بزاعا ومنبج وعزاز^(٢). وبينما كان صلاح الدين محاصراً لقلعة عزاز سنة (٥٧١هـ/١٣٦م) تعرض لمحاولة اغتيال ثانية من قبل أربعة أفراد من الفداوية كانوا قد اندسوا بين جنوده، وتزيوا بزيمهم، وحاربوا في صفوفهم وأبدوا بسالة عظيمة وقد أقدم أحدهم على الدخول إلى خباء صلاح الدين فضرب رأسه بسكين فأصابت الزردية التي كان يرتديها دائماً فلم تؤثر فيها، وأحس الحشيشي بصفائح الحديد على رأسه، فمد يده بالسكين إلى خده يريد أن يطعنه بها، فلم يصبه إلا بخدش صغير، لأن صلاح الدين أسرع فقبض على رأس الحشيشي، وجذبه فألقى به على الأرض ثم جاء أعوانه فقتلوه، وقتلوا باقي أفراد المجموعة^(٣)، وبعد هذه المحاولة عمل صلاح الدين على حصار حلب ثانية، وشد الحصار عليها. مما دفع بالملك الصالح - خشية منه أن يفقد هذا الملجأ الأخير الذي يلوذ به إلى عقد صلح مع صلاح الدين أقره فيه على ما بيده من البلاد التي استولى عليها، فأصبح صلاح الدين سيداً على دمشق وحمص وحماه والمدن الصغيرة المنتشرة في ضواحيها وضواحي

(١) ابن الأثير: الكامل ج ١١ ص ٤٢١ - ابن شداد: سيرة صلاح الدين ص ٢٥٤ - الموسوعة الشامية ج ٢١ ص ٥٠٨.

(٢) ابن الأثير: الكامل ج ١١ ص ٤٢١ - ٤٢٢.

(٣) الموسوعة الشامية ج ٤٣ ص ٤٠٩ - ابن واصل: مفرج الكروب ج ٢ ص ٤٤ - عقد الجمان: مخطوط السلطانية أحداث سنة ٥٧١هـ - التاريخ المنصوري: أحداث ٥٧١هـ - تاريخ صلاح الدين الأيوبي وعصره ص ٩٧.

حلب^(١). وبعد أن استقر الصلح بين الملك الصالح وصلاح الدين، خرجت إلى صلاح الدين أخت الملك الصالح إسماعيل تطلب منه أن يتنازل لها عن قلعة أعزاز وكانت تحت يده، فتنازل عنها بما فيها من مال وسلاح، بل ووهب إليها كثيراً من التحف والجواهر إكراماً لوالدها الملك العادل نور الدين، وكان ذلك سنة (٥٧٢هـ/١٧٧٦م) ثم أطلق صلاح الدين بعد ذلك سراح الأسرى الذين وقعوا في يده^(٢).

عاد صلاح الدين إلى دمشق فوصلها في شهر شوال من تلك السنة، وما كاد يستقر فيها حتى وصلت إليه خلع الخليفة (المستضيء بالله)، وأمر بتوليته على مصر والشام، وهكذا اعترف به الخليفة العباسي سلطاناً على البلاد الشامية والمصرية، فخطب له على المنابر بدلاً من الملك الصالح، وضربت النقود في القاهرة باسمه «الملك الناصر يوسف بن أيوب علا جاهه»^(٣).

وفي مدة مقامه هذه في دمشق لا بدّ من الإشارة إلى حدث مهم في حياة صلاح الدين، ألا وهو زواجه من أرملة نور الدين محمود الخاتون عصمة الدين ابنة معين الدين أنر، الذي كان حاكماً على دمشق قبل أن يستولي عليها صلاح الدين، حيث أن هذا الحدث وإن دل على شيء فإنما يدلّ على أبعاد سياسية تظهر صلاح الدين بأنه الوريث الحقيقي لنور الدين، وأنه كان يعمل على تقوية الرابطة بين صلاح الدين والبيت النوري، مما يدعم مركزه، ويمكنه من تحقيق مشروعاته المستقبلية، ألا وهي تحرير البلاد من الصليبيين^(٤).

(١) الحنبلي: شذرات الذهب في أخبار من ذهب مجلد ٤ ص ٢٥٨.

(٢) ابن الأثير: الكامل ج ١١ ص ٤٣١ - ابن شداد: سيرة صلاح الدين الأيوبي ٢٥٦. الفشرتي: الناصر صلاح الدين ص ١٩٢. قلمجي: صلاح الدين الأيوبي ص ٦٤.

(٣) الحنبلي: المصدر السابق مجلد ٢ ص ٢٥٨. قلمجي: صلاح الدين الأيوبي ص ٦٤.

(٤) ابن شداد: سيرة صلاح الدين الأيوبي ص ٢٥٦. ابن الأثير: الكامل ج ١١ ص ٤٦٣. ابن كثير: البداية والنهاية ج ١٢ ص ٢٦٥.

توجه صلاح الدين إلى مصر يوم الجمعة خامس عشر من ربيع الأول سنة (٥٧٢هـ/١١٧٦م) بعد أن أناب عنه في دمشق أخاه توران شاه، وأثناء غيابه عن دمشق تعرضت دمشق لمحن كثيرة، ومنها خروج الفرنجة من بلادهم إلى أعمال دمشق، فعلم توران شاه بهم، فسار إليهم ولقيهم بجمع من أصحابه، وانهمز توران شاه بعد أن أسر عدد من جنده، ومنهم سيف الدين أبو بكر بن السلار وكان من أعيان الجند^(١).

كذلك تعرضت حماة سنة (٥٧٣هـ/١١٧٣م) لحصار من قبل الفرنجة، ولم يكن بدمشق سوى توران شاه ينوب عن أخيه صلاح الدين، وليس عنده كثيراً من العسكر، إضافة إلى أن توران شاه كان كثير الانهماك في اللذات مائلاً إلى الراحة، ولما حوصرت حماة كان بها صاحبها شهاب الدين الحارمي خال السلطان وهو مريض، واشتد حصار الفرنجة للمدينة، وكادوا يملكون البلد قهراً، ثم جد المسلمون في القتال وأخرجوا الإفرنج إلى ظاهر السور ثم رحلوا عنها إلى حارم بعد أربعة أيام، وعقب رحيلهم عنها مات صاحبها شهاب الدين الحارمي، وعندما علم السلطان بنزول الإفرنج على حارم، خرج من مصر قاصداً دمشق ودخلها رابع عشر شوال عام (٥٧٣هـ/١١٧٧م)^(٢).

وفي سنة (٥٧٤هـ/١١٧٤م) طلب توران شاه نائب دمشق من أخيه صلاح الدين مدينة بعلبك وكان السلطان قد أعطاها لشمس الدين محمد بن عبد الملك المعروف بابن المقدم، لما سلم دمشق إلى صلاح الدين، ولم يمكن صلاح الدين منع أخيه من ذلك، فأرسل إلى ابن المقدم ليسلم بعلبك فعصى بها ولم يسلمها، فأرسل السلطان جيشاً وحصر بعلبك وطال حصارها فأجاب ابن المقدم إلى تسليمها على أن يعرض عنها فعرض عنها، وتسلمها السلطان وأقطعها أخاه توران

(١) ابن شداد: المصدر نفسه ص ٢٥٦ - ابن الأثير: المصدر نفسه ج ١١ ص ٤٣٦ - ابن كثير: البداية والنهاية ج ١٢ ص ٢٩٦.

(٢) ابن شداد: سيرة صلاح الدين ص ٢٥٨ - ابن كثير: البداية والنهاية ج ١٢ ص ٢٩٨.

شاه وفي هذه السنة سيّر السلطان ابن أخيه تقي الدين عمر إلى حماه، عوضاً عن خاله المتوفى شهاب الدين، وأرسل ابن عمه محمد بن شيركوه إلى حمص، وأمرهما بحفظ البلاد فاستقر كل منهما ببلده^(١).

كان ما قام به صلاح الدين في هذه التعمينات التي أجراها لنوابه على تلك مناطق المذكورة ينسجم مع نظام الإقطاع العسكري، الذي سلكه صلاح الدين في إدارة دولته، هذا النظام الذي ترتب عليه نتائج عسكرية وإدارية وسياسية وهذا ما سنلاحظه فيما بعد. وفي هذه السنة جهز الناصر صلاح الدين ابن أخيه عز الدين فرخشاه بن شاهنشاه بين يديه لقتال الفرنجة الذين عاثوا فساداً في نواحي دمشق، فتهبوا ما حولها، وأمره أن يداريهم حتى يتوسطوا البلاد ولا يقاتلهم حتى يقدم عليه، فلما رأوا عاجلوه بالقتال فكسروهم وقتل من مقدميهم صاحب الناصرة (همفري) وكان من أكابر نبلائهم وشجعانهم، ثم ركب الناصر في إثر ابن أخيه فما وصل إلى الكسوة حتى تلقته الرؤوس على الرماح، والغنائم والأسرى^(٢).

أصبحت مجاهدة الصليبيين الشغل الشاغل لصلاح الدين، فقد شعر أنهم لا أمان لهم، وقد تجلت عبقريته الاستراتيجية في تلك الأعمال التي أتبعها لرصد العدو وتحركاته، ووضع الخطط للتمكن من هذا العدو، ومن هذه الأعمال إقامة معسكر قوي قريب من تل القاضي غربي «بانياس» ووكل إلى ابن أخيه تقي الدين عمر مراقبة العدو عند حماه تحسباً لاعتداء أمير أنطاكية «بوهيموند» الثالث، وكلف ابن عمه ناصر الدين أسد بن شيركوه مهمة الدفاع عن حمص وما والاها ضد هجمات الصليبيين المتوقعة بقيادة أمير طرابلس «ريموند» الثالث، وجعل سيف الدين علي بن أحمد المشطوب مسؤولاً عن مراقبة

(١) ابن الأثير: الكامل ج ١١ - ص ٤٥٠ - ابن شداد: سيرة صلاح الدين ص ٢٥٨ - ابن كثير: البداية والنهاية ج ١٢ ص ٢٩٩.

(٢) ابن كثير: البداية والنهاية ج ١٢ ص ٣٠٠ - النشرتي: الناصر صلاح الدين ص ٢١٠ - ٢١١، ابن الأثير: الكامل ج ١١ ص ٤٥٢ - ٤٥٣.

تحركات العدو في سهل البقاع وما حوله، وفي الوقت نفسه أرسل إلى أخيه الملك أبي بكر العادل نائبه على مصر أن يمدّه بالجيوش، فأرسل إليه ألفاً وخمسمائة فارس، وفي الوقت نفسه كان صلاح الدين يتابع الأمر في يقظة وحذر، وكان كل يوم يركب بحجة الخروج للصيد والقنص، ولكنه في أثناء ذلك يجرد العساكر وقبائل العرب إلى «صيدا» و«بيروت» ليحصدوا غلات العدو ويجمعوا محصولاته^(١).

وأدت هذه الحملة ثمارها فعلاً فقد اهتاج غيظ «بلدوين» الرابع وقرر أن يضع حداً لهذه الاعتداءات المتكررة فعبأ جيشه، وجمع قواته، وخرج ليجابه جيوش صلاح الدين في مكان معروف بتل القاضي في سهل واسع اسمه «مرج عيون» ببانياس ودارت معركة عنيفة بين الجيشين في مستهل سنة (٥٧٥هـ/١١٧٩م)، وكان النصر حليف صلاح الدين حيث قتل الكثير من جيش «بلدوين» وأسر عدداً كبيراً منه أيضاً، ذكر ابن كثير أن عدد الأسرى من أهل القدس فقط ثلاثمائة أسير، وأخذ السلطان يستعرض الأسرى في قيودهم إلى مطلع الفجر، حتى صلى الصبح بوضوء العشاء^(٢). ثم أرسلهم صلاح الدين إلى قلعة دمشق ليعتقلوا فيها حتى يقدوا أنفسهم. وقد فرّ يومئذ ملك القدس «بلدوين» الرابع بنفسه بعد معاناة شديدة، وكان في وسع صلاح الدين أن يتبعه ويحاصره، فاكتفى في هذه الجولة بالتوجه إلى قلعة الأحزان أو بيت الأحزان وحاصره، حتى تمكن من فتحه، ثم سواه بالأرض وغنم منه غنيمة هائلة.

وذكر المقرئ في كتابه السلوك «أنه أخذ منه مئة ألف قطعة حديد من أنواع الأسلحة، وشيئاً لا يكاد يحصى من الأقوات وغيرها، وأسر منه سبعمئة أسير، ثم أضرم فيه النار حتى كانت ألسنتها تشاهد من طبرية»^(٣).

(١) ابن واصل: مفرج الكرب ج ٢ ص ٧٤.

(٢) ابن كثير: البداية والنهاية ج ١٢ ص ٣٠٢.

(٣) المقرئ: السلوك ص ٦٧.

وفي الوقت الذي انتصر فيه صلاح الدين في موقعة «مرج عيون»، كانت هناك موقعة أخرى يرقب صلاح الدين نتائجها، ويحكي لنا ابن الأثير أخبار هذه الموقعة فيقول: «كان الملك المظفر تقي الدين عمر غائباً عن هذه الموقعة «موقعة مرج عيون»، وتقي الدين هو ابن أخي صلاح الدين وكان نائباً على حماه، كان مشتغلاً بموقعة أخرى أهم من تلك، ذلك أن ملك سلاجقة الروم «قلج أرسلان» كان قد أرسل يطلب حصن «رعنان» وهو حصن حصين، كان نور الدين قد استولى عليه، وزعم هذا الملك أن نور الدين اغتصبه منه وجمع جموعه ليستولي على هذا الحصن عنوة، وكان قد أرسل عشرين ألف مقاتل يحاصرونه، ولكن صلاح الدين أرسل تقي الدين في ألف فارس فقط^(١). منهم سيف الدين بن علي المشطوب، وأنزل الله النصر على هذه الفئة القليلة، فهزمت الفئة الكثيرة بإذن الله، واستقرت يد صلاح الدين على هذا الحصن الذي أراد الفرنجة استرداده.

وقد كان هذا الحصن مما عوض به صلاح الدين ابن المقدم عن بعلبك، وأصبح تقي الدين يباهي أنه قهر عشرين ألفاً، لقد تزامنت هزيمة سلاجقة الروم عند حصن «رعنان» في اليوم الذي هُزِمَ فيه الفرنجة في «مرج عيون»^(٢). وساءت حال الصليبيين جداً، وتفاقت الخلافات بينهم، ورجبوا في مدة من السلم ينعمون فيها بالراحة والأمن بعد سنوات طوال من الحروب، وقد استجاب صلاح الدين إلى طلب «بلدوين» الرابع ملك بيت المقدس حين رغب أن يهادنه، فوافق على ذلك سنة (٥٧٦هـ/ ١١٨٠م) ثم استجاب لطلب «ريموند» الثالث حين رغب أن يهادنه فهادنه، كان الصليبيون يريدون من خلال هذه الهدنة أن يلتقطوا أنفاسهم ويدعموا مراكزهم، ولم يكن صلاح الدين أقل حاجة منهم إلى هذه

(١) ابن الأثير: الكامل في التاريخ ج ١١ - ص ٤٥٨.

(٢) تاريخ ابن أبي الهيثم: (الموسوعة الشامية ج ٤) ص ٤١٢ - ابن كثير: البداية والنهاية ج ١٢ - ص ٣٠٢-٣٠٣.

الهدنة، لقد انتهزها ليدعم فيها الجبهة الداخلية ويقوي حصونه في مختلف الأماكن الإسلامية، ثم لم يلبث أن أبرم صلاح الدين معاهدة أخرى للصلح بينه وبين امبراطور «بيزنطة» «الكسيوس» الثاني، وكان الإمبراطور هو الذي طلب ذلك، فقد أرسل سفيراً من قبله إلى صلاح الدين، ووافق صلاح الدين على الصلح، وأطلق البيزنطيون بمقتضاه مائة وثمانين أسيراً من المسلمين، وتعهدوا بالأمدّ يد المساعدة للصليبيين في الشام في حال الحرب بينهم وبين المسلمين، وقد تمت هذه المعاهدة في خريف سنة (٥٧٦هـ / ١١٨١م)^(١).

سار السلطان بعد ذلك إلى بلاد السلاجقة الروم، وفيها «قلج أرسلان» فأصلح بينه وبين نور الدين محمد بن قرا أرسلان بن داود، صاحب حصن كيفا وغيره من ديار بكر، كذلك قصد بلاد ابن ليون الأرمني بعد فراغه من أمر قلج أرسلان، وسبب ذلك هو غدر ابن ليون بجماعة من التركمان بعد أن بذل لهم الأمان، فقام وسبى حريمهم، وأخذ أموالهم، وأسر رجالهم وعندما علم ابن ليون بمسير صلاح الدين إليه، أرسل إليه يبذل إطلاق من عنده من الأسرى والسبى وإعادة أموالهم على أن يعودوا عن بلاده، فأجاب صلاح الدين إلى ذلك واستقر الحال^(٢).

عاد صلاح إلى دمشق في جمادى الآخرة، ولم يستقر بها طويلاً حيث وصلته الأنباء بوفاة أخيه الأكبر توران شاه بن أيوب بالإسكندرية. وكان قد أخذها من أخيه إقطاعاً بدلاً عن بعلبك، فأقام بها حتى توفي، سار صلاح الدين إلى

(١) ابن الأثير: الكامل ج ١١ ص ٤٦٤ - ابن كثير: البداية والنهاية ج ١٢ ص ٢٠٥. النشرتي: الناصر صلاح الدين ص ٢١٥-٢١٦.

(٢) ابن الأثير: الكامل ج ١١ ص ٤٦٥ - ٤٦٦. ابن شداد: سيرة صلاح الدين ص ٢٦٠ ابن كثير: البداية والنهاية ج ١٢ ص ٣٠٥.

مصر فدخلها في شهر شعبان في السنة نفسها (٥٧٦هـ/١٨١م) واستخلف بالشام عز الدين فرخشاہ ابن أخيه شاهنشاه^(١).

وقام صلاح الدين ببعض الأعمال في مصر، ومنها مراقبة ما كان قد أمر به من تحصين سور الإسكندرية وعمارة أبراجها وقصورها، كذلك أرسل إلى اليمن عسكرياً استولى عليه بسبب الخلاف الذي وقع بين نواب توران شاه فيه بعد وفاته. وأثناء إقامته بمصر، ورد خبر وفاة الملك الصالح إسماعيل صاحب حلب، وذلك في رجب سنة (٥٧٧هـ/١٨٢م)^(٢).

وكان الملك الصالح قد أوصى بتخليك حلب إلى ابن عمه عز الدين مسعود صاحب الموصل فلما مات سار مسعود ومجاهد الدين قيمان من الموصل إلى حلب واستقرا في ملكها، ولما استقر مسعود في ملك حلب كاتبه أخوه عماد الدين زنكي بن مودود صاحب سنجار في أن يعطيه حلب ويأخذ منه سنجار فأشار قيمان بذلك فلم يمكن مسعود إلا موافقته فأجاب إلى ذلك فسار عماد الدين إلى حلب، وتسلمها وسلم سنجار إلى مسعود الذي عاد بعد ذلك إلى الموصل^(٣).

وصلت أنباء هذه الأحداث إلى صلاح الدين وهو بمصر، كما وصله خطاب من ابن أخيه تقي الدين عمر نائب حماة يفهم منه أن أمراء حلب يفاوضون الصليبيين ويراسلون الحشيشية للقيام بتحالف ضد صلاح الدين، كما بلغه أيضاً أن المواصلة كاتبوا الفرنج ورغبوهم في قصد الثغور الإسلامية ليشغلوا السلطان صلاح الدين عن قصدهم^(٤).

(١) ابن الأثير: الكامل ج ١١ ص ٤٦٨ - ٤٦٩. ابن شداد: سيرة صلاح الدين ص ٢٦٠.

ابن كثير: البداية والنهاية ج ١٢ ص ٣٠٦.

(٢) ابن الأثير: الكامل ج ١١ ص ٤٧٢ - ٤٧٣. ابن شداد: سيرة صلاح الدين ص ٢٦١.

(٣) ابن كثير: البداية والنهاية ج ١٢ ص ٣٠٩. ابن شداد: سيرة صلاح الدين ص ٢٦١.

ابن الأثير: الكامل ج ١١ ص ٤٧٣.

(٤) مفرج الكروب: ج ٢ ص ١١٠.

أصبح من الضروري إذاً أمام صلاح الدين أن يتوجه إلى الشام لمواجهة هذه الأحداث الجديدة وخرج صلاح الدين من القاهرة في شهر صفر سنة (٥٧٨هـ/١١٨٢م)، وكان ذلك آخر عهده بها فقد بقي في دمشق الشام في حروبه وجهاده إلى أن مات سنة (٥٨٩هـ/١١٩٣م)، وقد حدث أثناء وداعه حادث اتفق صدقه، فإنه كان في مجلس وداع ينتظر اجتماع الجيش ليسير وكان بين الحاضرين معلم لبعض أولاده فأخرج رأسه من الحاضرين كأنه يودع السلطان وقال البيت المشهور:

تمتع من شميم عرار نجد فما بعد العشية من عرار
فتطير صلاح الدين بعد ذلك منه وتتكد المجلس وقد صدق الفأل فلم يعد
صلاح الدين بعد ذلك إلى القاهرة^(١).

وعندما سار السلطان إلى الشام اجتمعت الفرنجة قرب الكرك ليكونوا على طريقه فانتهاز فرخشاہ نائب السلطان بدمشق الفرصة، وسار إلى الشقيف بعساكر الشام وفتحها وأغار على ما يجاوره من بلاد الإفرنج (طبرية - وعكا - ودبورية) وولى الفرنج منهزمين، وقتل منهم وأسروا، وسار إلى بصرى فالتقى السلطان بها، ودخلا دمشق معاً^(٢).

وفي شهر ربيع الأول من هذه السنة سار السلطان من دمشق ونزل قريب طبرية، وشن الغارات على بلاد الفرنج مثل بانياس وجنين والغور، فغنم وقتل وعاد إلى دمشق، ثم سار عنها إلى بيروت وحصرها وأغار على بلادها ثم عاد إلى دمشق^(٣).

ثم سار من دمشق إلى البلاد الجزرية، وعبر الفرات برفقة مظفر الدين بن زين الدين، وكان حينئذ صاحب حران، وكان السلطان يريد أخذ حلب أولاً،

(١) ابن الأثير: الكامل ج ١١ ص ٤٧٨ - الحنبلي: شذرات الذهب مجلد ٢ ص ٢٩٨ - ابن شداد: سيرة صلاح الدين ص ٢٦٢.

(٢) ابن شداد: سيرة صلاح الدين ص ٢٦٢ - من تاريخ ابن أبي الهيجاء: الموسوعة الشامية ج ٤٣ ص ٤١٥.

(٣) ابن شداد: سيرة صلاح الدين ص ٢٦٢ - الحنبلي: شذرات الذهب مجلد ٢ ص ٢٩٨.

فنصححه مظفر الدين بأن لا يتعرض لحلب فإنها في يده، فاستصوب رأيه وعبر الفرات، ونزل البيرة، وكاتب ملوك الشرق بالوفود إليه فجاءه قطب الدين إيلغازي صاحب ماردين، ثم وصل بدر الدين بن قرا أرسلان صاحب حصن كيفا، ثم سار من البيرة بعد أن أخذها، فأقطعها لشهاب الدين محمود الأرتقي ونزل على الرها، وبها فخر الدين مسعود بن الزعفراني، فتسلمها بالأمان فأعطاهما لمظفر الدين بن زين الدين مضافة إلى ما كان بيده، وهو: حران وأعمالها، ثم سار إلى الرقة وبها «قطب الدين ينال» فأمنه، واستولى على الخابور ونصيبين، وولاهما أبا الهيجاء السمين، وولى الخابور جمال الدين خشتريين الأركمسي، وسار إلى الموصل ونازلها ونزل السلطان على باب العمادي، وتاج الملوك بوري أخو صلاح الدين على باب الجسر، وتقي الدين عمر من باب الشرق، وتولى مجاهد الدين قيماز حفظ البلد، فأحسن التدبير في حفظه، وبعث عز الدين مسعود إلى الخليفة يطلب الشفاعة، فبعث الخليفة شيخ الشيوخ صدر الدين عبد الرحيم يأمر السلطان بالرحيل عن الموصل، على أن يدخل عز الدين مسعود في خدمة السلطان ويعينه في قتال الفرنج، وأقام السلطان على الموصل أربعين يوماً، فرآه بلداً عظيماً وفيه العساكر، وأنه لا يحصل منه بالحصار غرض، فرحل ومعه رسول الخليفة، ونزل على سنجار، وكان عليها شرف الدين بن قطب الدين فضربها بالمنجنيق فانهدم من السور ثلثة، فطلب الأمان، فأمنه وخرج بأهله وأمواله إلى الموصل، فأعطى السلطان سنجار لتقي الدين ابن أخيه ثم رحل إلى حران^(١).

وفي خضم هذه الانتصارات، وردت الأخبار إلى السلطان صلاح الدين وهو في البلاد الجزرية بوفاة عز الدين فرخشاه بن أيوب نائب السلطان بدمشق، وكانت

(١) ابن الأثير: الكامل ج ١١ ص ٤٨٦ - ابن أبي الهيجاء: الموسوعة الشامية ج ٤٢ ص ٤١٧ - ج ٢١ ص ٥١٥ - ابن شداد: سيرة صلاح الدين ص ٢٦٢ - الحنبلي: شذرات الذهب مجلد ٢ ص ٢٥٩ - جب (هاملتون): صلاح الدين الأيوبي ص ١٣٦.

وفاته بدمشق في جمادى الأولى (٥٧٨هـ/١١٨٢م)، وكان ثقته من بين أهله، وكان فرخشاہ شجاعاً كريماً فاضلاً وله شعر جيد، فأرسل السلطان إلى دمشق شمس الدين بن محمد بن عبد الملك المقدم ليكون بها نائباً عن السلطان المذكور، وأقر بعلبك على بهرام شاه بن فرخشاہ المذكور^(١).

وفي سنة (٥٧٩هـ/١١٨٣م) ملك السلطان حصن آمد بعد حصار وقتال وذلك في الرابع عشر من محرم، وجلس السلطان في دار الإمارة بها، ثم سلمها وأعمالها إلى نور الدين محمد بن قرا أرسلان صاحب حصن كيفا، ثم سار إلى الشام وقصد تل خالد من أعمال حلب وملكها، ثم سار إلى عينتاب وحصرها، وبها ناصر الدين محمد أخو الشيخ إسماعيل الذي كان قد تسلمها من عهد نور الدين زنكي، فحصرها السلطان وملكها بتسليم صاحبها إليه، فأقره السلطان عليها وبقي في خدمة السلطان، ثم سار السلطان إلى حلب فنزلها في السادس والعشرين من محرم، وبها صاحبها عماد الدين زنكي، وياشر السلطان القتال بكرة وعشية، وزحف أخوه تاج الملوك بوري فجاءه سهم في عينه فحمل ومات في الثالث والعشرين من صفر، وطال الحصار على عماد الدين، وكثرت اقتراحات أمراء حلب عليه فضجر من ذلك وكره حلب، فأجاب السلطان إلى تسليم حلب على أن يعوض عنها سنجار، ونصيبين، والخابور، والرقعة، وسروج، واتفقوا على ذلك وسلم حلب إلى السلطان في صفر في هذه السنة، واشترط السلطان على عماد الدين الحضور إلى خدمته بنفسه وعسكره إذا استدعاه، ولا يحتج على ذلك، ثم جلس السلطان للعزاء على أخيه، وكان يبكي ويقول: ما وقت حلب بشعره من أخي، ومن الاتفاقات العجيبة أن محي الدين ابن الزكي قاضي دمشق مدح وقتها السلطان بقصيدة منها:

وفتحكم حلب الشهباء في صفر مبشراً بفتوح القدس في رجب

(١) من تاريخ ابن أبي الهيجاء: الموسوعة الشامية ج ٤٢ ص ٤١٨ - ابن شداد: سيرة صلاح الدين ص ٢٦٤ - ابن كثير: البداية والنهاية ج ١٣ ص ٣١١.

فوافق فتح القدس في رجب سنة (٥٨٣هـ/١١٨٧م)، وعلى الرغم مما أبداه من حزن على أخيه وقعت قلعة حلب من السلطان موقعاً عظيماً، ومما قاله في ذلك: ما سررت بفتح قلعة أعظم سروراً من فتح مدينة حلب، وأمر السلطان بإسقاط المكوس والضرائب عنها، وعن سائر بلاد الجزيرة^(١).

بعد ذلك توجه السلطان إلى حارم، وهي من أعمال حلب، وكان واليها سرخك، ولأه عليها عماد الدين زنكي بعد مودود بن زنكي، فامتتع سرخك بتسليمها إلى صلاح الدين، فراسله صلاح الدين في التسليم، وقال له: «اطلب من الإقطاع ما أردت، ووعده الإحسان فاشتط في الطلب وترددت الرسل بينهما، فراسل الفرنج ليحتمي بهم، فسمع من معه من الأجناد أنه يرأسل الفرنج، فخافوا أن يسلمها إليهم، فوثبوا عليه وقبضوه، وحبسوه، وراسلوا صلاح الدين يطلبون منه الأمان فأجابهم، وسلموا إليه الحصن فرتب عليه دز داراً، أما باقي قلاع حلب فإن صلاح الدين أعطى تل باشر، وتل خالد لبدر الدين دلدرد بن بهاء الدين ياروق وأعطى قلعة عزاز لعلم الدين سليمان بن حيدر، وأقام صلاح الدين بحلب إلى أن فرغ من تقرير قواعدها وأحوالها وديوانها، واستخلف على حلب ولده الظاهر غازي»^(٢).

رحل صلاح الدين عن حلب ثاني عشرين ربيع الآخر، ودخل دمشق ثالث جمادى الأولى وهكذا عادت دمشق من جديد لتتربع الصدارة في الدولة الإسلامية وتكون مقراً للجهاد ضد الطامعين في المنطقة العربية، وأصبحت مقراً لصلاح الدين في شن هجماته على الأعداء الصليبيين، بعد أن اتحدت كل من مصر والشام والموصل، وديار الجزيرة واليمن، وجزء من بلاد المغرب الأدنى، ووضعت ما تملكه من الإمكانيات ليحقق بها صلاح الدين ما كان يرنو

(١) ابن الأثير: الكامل ج ١١ ص ٤٩٦ - ٤٩٧. ابن كثير: البداية والنهاية ج ١٢ ص ٢١٢. عاشور: الحركة الصليبية ص ٦١.

(٢) ابن الأثير: الكامل ج ١١ ص ٤٩٨ - ٤٩٩. من تاريخ ابن أبي الهيجاء: الموسوعة الشامية ج ٤٣ ص ٣١٩.

المسلمون إلى تحقيقه المسلمون يومئذ من تحرير القدس، وما جاورها من أيدي مفتحيها (الفرنجة)^(١).

ولهذا اعتمد صلاح الدين في خطته العسكرية بعد توحيد البلاد على إحكام قبضته على الحصون والقلاع الداخلية وعزل بيت المقدس، ومن ثم حصاره واستعادته من يد الغزاة، وهي الخطة ذاتها التي اختطها نور الدين محمود، ومن الطبيعي أن يكون صلاح الدين على اطلاع تام على ما خطه نور الدين للقضاء على العدو، لأنه كان قائداً في جيش نور الدين.

لقد كانت ملامح خطة صلاح الدين تبدأ بمهاجمة الحصون والقلاع المعلّية، التي تقف عائقاً في طريق تحرير بيت المقدس لذلك قام في سنة (٥٨٠هـ/١١٩٤م) بمحاصرة الكرك، وهاجم نابلس وأعمالها. ودمر جنين وسيطية، وأنقذ ما فيها من أسرى المسلمين^(٢). واستمر صلاح الدين بمهاجمة القلاع والحصون المعادية، ففي سنة (٥٨٣هـ/١١٨٧م) جمع صلاح الدين العسكر في جميع البلاد، وبعد عدة معارك جانبية قامت بها عساكر صلاح الدين حاصر طبرية وفتحها باستثناء قلعتها، وبعد ذلك انتصر على الصليبيين في معركة حطين الشهيرة، وأسر فيها ملكهم وعدداً من أمرائهم وقادتهم، ومهد هذا النصر العظيم الطريق لفتح بيت المقدس^(٣). ثم سار صلاح الدين إلى عكا وبعد فتحها قصد بيت المقدس سنة (٥٨٣هـ/١١٨٣م)، وكان هذا الحدث الجلل من أعظم إنجازات صلاح الدين العسكرية، اهتز له المشرق والمغرب، وأظن

(١) انحنيلي شذرات الذهب في أخبار من ذهب ص ٢٦٨. بدوي: صلاح الدين الأيوبي بين شعراء عصره وكتابه ص ١٣ - ١٤.

(٢) ابن الأثير: الكامل في التاريخ ج ١١ ص ٥٠٦ - ٥٠٧. ابن شداد: النوادر السلطانية ص ٤٣ - ٤٤. أبو شامة: الروضتين: ج ٢ ص ٥٥ - ٥٦. ابن واصل: مفرج الكروب ج ٢ ص ١٥٧ - ١٥٩. ابن كثير: البداية والنهاية ج ١٢ ص ٣١٥. المقرئ، السلوك ج ١ ق ١ ص ٨٣ - ٨٤.

(٣) الأصفهاني: الفتح القسي ص ٢٣ - ٣٦. ابن الأثير: الكامل ج ١١ ص ٥٣٠ - ٥٤٦. ابن شداد: النوادر السلطانية ص ٥٢ - ٥٣. أبو شامة: الروضتين: ج ٢ ص ٨٥ - ٩٢. المقرئ: السلوك ج ١ ق ١ ص ٩٤ - ٩٦. زكار: حطين مسيرة التحرير ص ١٩٢ - ٢٢٠.

العلماء في الحديث عنه، وأخذت بعد ذلك تتساقط الحصون والقلاع التي بيد الصليبيين أمام هجمات صلاح الدين، ولم يبق بيدهم سوى صور وأنطاكية والقصير من حصونها وطرابلس^(١). وعاش صلاح الدين بعد تحريره لبيت المقدس عدة سنوات (ت ٥٨٩هـ/١١٩٣م)، لقي خلال هذه الحقبة مشاكل صعبة للغاية حتى على الصعيد العسكري، لكن هذه المشاكل لم يكن لها تأثيراً انتكاسياً من الناحية العسكرية، فلقد حكم نصر حطين على الوجود الصليبي في المشرق بالزوال، وما كان لقوة تستطيع إنهاء هذا الوجود لولا مثابرة صلاح الدين، وإن كان هناك تأخير في حركة التنفيذ^(٢).

لقد كانت وفاة صلاح الدين خسارة كبرى للمسلمين، لأن مشكلة تقسيم دولته الواسعة بين أبنائه هدّدت الوحدة الإسلامية، التي جهد كل من نور الدين وصلاح الدين في بنائها، لقد كانت دولة صلاح الدين تدار حسب أنظمة الإقطاع العسكري، فأقرّ ولده الملك العزيز عماد الدين عثمان بن يوسف بن أيوب نائباً في الديار المصرية، ودمشق مركز عملياته العسكرية التي كانت تتطوّر منها جيوش التحرير ضد الصليبيين لولده الأفضل نور الدين علي، وحلب المقابلة لأنطاكية لولده الظاهر غياث الدين غازي، وحماة والمعرة ومنبج ومن ثم أضاف إليها ميفارقين وحمص المقابلة لطرابلس، وقلعة الحصن إلى ناصر الدين محمد المنصور بن تقي الدين عمر بن شاهنشاه ابن أخي صلاح الدين، وجعل لأخيه

(١) الأصفهاني: الفتح القسي ١٢٧ - ١٤٧. ابن الأثير: الكامل في التاريخ ج ١٢ - ص ٢٣ - ٢٧ - ٢٨. ابن شداد: النوادر السلطانية ص ٥٥ - ٧٤. أبو شامة: الروضتين ج ٢ ص ١٢٤ - ١٤٤. ابن واصل: مفرج الكروب ج ٢ ص ٢٤٥ - ٢٤٧ - ٢٥٢ - ٢٨٤.

(٢) الأصفهاني: الفتح القسي ص ٢٣٨ - ٢٨٩. ابن شداد: النوادر السلطانية ص ١١٦ - ١٣٤. الروضتين: ج ٢ ص ١٨٥ - ١٩٠. ابن واصل، مفرج الكروب ج ٢ ص ٣٤٧ - ٣٧٥ - ٣٨٥ - ٤١٨. تاريخ ابن القرات م ج ٢ ص ٩١ - ٩٢. زكار: الحروب الصليبية ج ١ ص ٨٦. دار حسان للطباعة والنشر دمشق طبعة ١، ١٩٨٤.

العادل البلاد الشرقية: الرها، وحران، إضافة إلى الكرك والشوبك والصلت، والبلقاء، وإقطاعات كثيرة بمصر وجعله أتاكاً للملك العزيز^(١).

ولم يكن الأمر مقتصرأ على أبناء البيت الأيوبي، بل تحفز أبناء البيوت القديمة الحاكمة في الجزيرة مثل البيت الزنكي، والبيت الأرتقي ومنهم بني سكرمان في خلاط، لنيل نصيبهم من تركة صلاح الدين، وهكذا نشبت حرب الوراثة بين أبناء البيت الأيوبي وسواهم.

صحيح أن صلاح الدين حافظ على وحدة دولته ظاهريأ منذ نشوئها في مصر واستكمال بنائها بدمشق، لكن الواقع غير ذلك، فنظام الإقطاع العسكري الذي أخذ به شكل أهم عوامل تمزيق دولته، ولقد أدرك صلاح الدين مساوئ هذا النظام، وحاول جاهداً تداركه وإصلاحه لكنه لم يفلح في ذلك، لأن ذلك كان يتطلب منه القيام بإلغاء هذا النظام وكان هذا بدوره يحتاج إلى أعمال عسكرية ضد أصحاب الإقطاع، ليتمكن من الإصلاح إضافة إلى المواقف العسكرية الحرجة التي كانت تواجهه ضد الصليبيين أمام أسوار عكا، وبخاصة أن صلاح الدين أصبح الآن كهلاً وغير صلاح الدين الشاب^(٢).

(١) الأصفهاني: الفتح القسي ص ٣٢٨ - ٣٣٢. ابن الأثير: الكامل في التاريخ: ج ١٢ ص ٩٧ - ٩٩. ابن شداد: النوادر السلطانية ص ٢٥١ - أبو شامة: الروضتين ج ٢ ص ٢٢٤ - ٢٢٦. ابن وأصل: مقرج الكروب ج ٢ ص ٤٥ - ٥٩. ٦٣. تاريخ ابن الفرات ٤٢ ج ٢ ص ٤٥ - ٥٩. ٦٣. حسنين: النظم المالية في مصر ص ٢٩ - ٣٠.

(٢) ابن الأثير: الكامل ج ١٢ ص ٩٧ - ٩٨ - ٩٩ - ١٠٢ - ١٠٣. زكار: حطين ومسيرة التحرير من دمشق إلى القدس ص ١٧٠ - ١٧٤. دار حسان للطباعة والنشر ط ١ سنة ١٩٨٤.

أولاد السلطان الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب

- الملك الأفضل نور الدين أبو الحسن علي، ولد بمصر ليلة عيد الفطر عند العصر، سنة ٥٦٥ هـ.
- العزيز أبو الفتح عثمان، عماد الدين، ولد بمصر، ثامن جمادى الأولى سنة ٥٦٧ هـ.
- الظاهر أبو العباس خضر مظفر الدين، ولد بمصر في خامس شعبان سنة ٥٦٨ هـ (أخو الأفضل لأبويه).
- الظاهر أبو منصور غازي غياث الدين، ولد بمصر منتصف رمضان سنة ٥٦٨ هـ.
- المعز أبو يعقوب اسحاق فتح الدين، ولد بمصر في ربيع الأول سنة ٥٧٠ هـ.
- المؤيد أبو الفتح سعود نجم الدين، ولد بدمشق في ربيع الأول سنة ٥٧١ هـ (أخو العزيز لأبويه).
- الأعز أبو يوسف يعقوب شرف الدين، ولد بمصر في ربيع الآخر سنة ٥٧٢ هـ (أخو العزيز لأمه).
- الزاهر أبو سليمان داوود مجير الدين، ولد بمصر في ذي القعدة سنة ٥٧٣ هـ (أخو الظاهر لأمه).
- المفضل أبو موسى قطب الدين، ثم نعت بالمظفر، ولد بمصر سنة ٥٧٣ هـ (أخو الأفضل لأمه).
- الأشرف أبو عبد الله محمد عزيز الدين، ولد بالشام سنة ٥٧٥ هـ.
- المحسن أبو العباس أحمد ظهير الدين، ولد بمصر في ربيع الأول سنة ٥٧٧ هـ (أخو الأشرف لأمه).

- المعظم أبو منصور تورانشاه فخر الدين، ولد بمصر في ربيع الأول سنة ٥٧٨ هـ.
- الجيراد أبو سعيد أيوب ركن الدين، ولد في ربيع الأول سنة ٥٧٨ هـ (أخو المعز لأمه)..
- الغناب أبو الفتح ملكشاه نصير الدين، ولد بالشام في رجب سنة ٥٥٨ هـ (أخو المعظم لأمه).
- المنصور أبو بكر، وهو أيضاً أخو المعظم لأبويه، ولد بخران بعد وفاة صلاح الدين
- ومن أولاده الذين لم يذكرهم العماد:
- عماد الدين شادي.
- نصيرة الدين مروان.
- الأثير حسن الذي رثاه عرقلة الكلبي.
- مؤنسة خاتون تزوجها الملك الكامل محمد، وهو ابن عمها (الملك العادل أبي بكر بن أيوب)
- و للسلمة بن غير هؤلاء الأولاد ممن درج في حياته، كالمملك المنصور حسن.

٢ - الملك الأفضل نور الدين:

بعد وفاة صلاح الدين أصبحت الدولة في وضع جديد، وقد نجم عن هذا الوضع الجديد مرحلة جديدة، تمثلت في الصراع بين أفراد البيت الأيوبي من أجل السلطة وكانت رحي هذا الصراع تدور في مركزين هامين من مراكز الدولة، وهما دمشق والقاهرة، حيث شغل أمراء الدولة ورجال الإدارة وغيرهم دوراً بارزاً بتوسيع شقة الخلاف بين الأخوين الملك الأفضل نور الدين علي صاحب دمشق، والملك العزيز عثمان صاحب مصر، وكما هو معروف كان الأفضل أكبر أولاد السلطان وهو المعهود إليه بالسلطة، وعنده بدمشق جماعة كبيرة من أمراء الدولة من أصحاب والده، وعند الملك العزيز بمصر جمهور العساكر الصلاحية، والأسدية، والأكراد فهو أقوى من الأفضل لما تملكه مصر من طاقات بشرية واقتصادية عظيمة، وأساء الأفضل السيرة فهجره كبار أصحاب والده، وعدد من قاداته وذهبوا إلى مصر^(١).

بعد سنة من ولايته وقعت بينه وبين أخيه الملك العزيز عثمان صاحب مصر وحشة أدت إلى قيام العزيز بتجهيز الجيوش، والسير بها إلى الشام، وذلك في التاسع عشر من ربيع الآخر سنة تسعين وخمسمائة، وقام بمحاصرة دمشق، مما اضطر الأفضل إلى الاستجداء بعمه العادل الذي حضر إلى دمشق ومعه معظم أمراء البيت الأيوبي، وعندما علم العزيز بذلك كتب إلى عمه يعلمه أن قدومه كان لاستقاذ جليل من الفرنج، وأن الأفضل قد حالفهم واستتصر بهم ووعدهم أن يعيد البلاد إليهم، وفي الوقت نفسه كاتب أخاه الظاهر صاحب حلب وبقية الأمراء، وتقررت الحال بعد ذلك أن يكون للملك العزيز بيت المقدس، وما جاوره من أعمال فلسطين وأن تكون دمشق وطبرية وأعمال الغور للملك

(١) أبو شامة: الروضتين ج ٢ ص ٢٢٨ - ٢٢٩. ابن واصل: مفرج الكروب ج ٣ ص ٤ - ١٢. النويري: نهاية الأرب ج ٢٨ ص ٤٤٠. الحريري: الأخبار السنوية ص ٢٩٩ - ٣٠٠. النويري: من نهاية الأرب ج ٢٨ - ٣٩٢.

الأفضل، وأن يعطي الأفضل لأخيه الملك الظاهر جيلة واللاذقية، وأن يكون للملك العادل بالديار المصرية إقطاعه الأول، وأن يخطب للملك العزيز ببلاده، وتنقش السكة باسمه، وأن الملك العزيز يمدّه بألف فارس إعانة له على فتح خلاط، واجتمع الملك العادل بالملك العزيز، وتزوج العزيز ابنته، وتقررت قواعد الصلح^(١).

ولما استقرت الأحوال للملك الأفضل نكص على عقبيه وجاهر بشرب الخمر، وصرف أوقاته بالملاهي، وانهمك بالملذات، وأهمل نظامه، فبلغت أخباره عمه الملك العادل فسأته، فأرسل يوبخه، ويقرعه، فانصاع، وتاب، وأقلع، وأناب، وعكف على العبادات صارفاً نظره عن تدبير المملكة، مفوضاً شؤونها إلى وزيره ضياء الدين بن الأثير الجرزي، وكان غير متضلع ولا معنك، فلم يحسن القيام بأعباء الوزارة، ولم يقدر على تصريف سياستها^(٢) وفي سنة (٥٩١هـ/١١٩٥م) حمل العزيز ثانية على دمشق ليأخذها من يد أخيه الأفضل، وكان ذلك بعد توبة الأفضل، لكن الذي دفعه للقيام بهذا العمل هو إساءة الوزير ضياء الدين ابن الأثير، الذي قصد الأمراء بالأذى، مما اضطر بعضهم إلى مفارقة الأفضل واتباعهم العزيز في مصر، وقالوا له: إن الأفضل مسلوب الاختيار وحرضوه على قصد دمشق^(٣).

فلما وصل خبر خروج العزيز من مصر قاصداً دمشق إلى الأفضل، توجه الأفضل إلى عمه الملك العادل، وهو بقلعة جعبر واستجد به، وسار إلى أخيه الملك الظاهر بحلب واستجد به أيضاً، فركب العادل وجدّ في السير إلى دمشق خوفاً أن يسبقه العزيز إليها، وكاتب الملك العادل الأمراء الذين بصحبة العزيز، واستمالهم وحذرهم من العزيز فمالوا إليه، وفارقوا العزيز، وقصدوا دمشق،

(١) النويري: المصدر نفسه ج ٢٨ ص ٣٩٦ - الحصني: منتخبات التواريخ لدمشق ص ١٦٤.

(٢) النويري: المصدر نفسه ج ٢٨ ص ٣٩٧ - ابن كثير: البداية والنهاية ج ١٣ ص ٩.

(٣) النويري: من نهاية الأرب ج ٢٨ ص ٤٤٦ - ابن الأثير: الكامل ج ١٢ ص ١١٨.

فلما وصلوا إلى دمشق اتفق العادل والأفضل، وتحالفا على قصد العزيز وانتزاع الديار المصرية منه على أن يكون ثلث الديار المصرية للملك العادل إقطاعاً والثلاثان للملك الأفضل، وسارا في طلب العزيز الذي رجع إلى الديار المصرية بعد أن كان على بعد مرحلتين من دمشق وجدّه في السّير ودخل القاهرة^(١).

ومما يذكر أنه الملك العادل قصد مصر خشية على الملك العزيز من إقدام الأمراء على قتله والاستيلاء على الديار المصرية، لذلك أرسل العادل إلى العزيز يثبته وأقبل على الأفضل يثبته، وأقام على بلبيس أياماً حتى خرج إليهما القاضي الفاضل عبد الرحيم من جهة العزيز، واجتمع مع العادل، فوقع الصلح على أن يعيد العزيز القدس وأعمالها للأفضل ويستقر العادل مقيماً بمصر على إقطاعه القديم، فأقام العادل بها طمعاً فيها ورجع الأفضل بعدما خرج العزيز لتوديعه^(٢).

لقد بلغ سوء تصرف ضياء الدين بن الأثير في دمشق منتهاه، وسار بدمشق إلى الخراب والدمار، وتواردت الأخبار بذلك إلى الملك العادل، فاتفق مع العزيز على أخذ دمشق من يد الأفضل، على أن تكون الولاية عليها للعم والخطبة والسكة باسم العزيز بصفته وارثاً لملك أبيه، فأجمعا أمرهما وسارا قاصدين دمشق سنة (٥٩٢هـ/١١٩٦م)، وكان الأفضل قد تحصن بها لما بلغه الخبر، وذلك بناء على نصيحة وزيره ضياء الدين بن الأثير الجزري، علماً بأنه قد استشار شيوخ دولته فأشاروا عليه أن يستقبل أخاه وعمه ويسلم لهما الأمر. لذلك قام شيوخ الدولة وأكابرها بمراسلة العزيز، والملك العادل في انتهاز الفرصة، حيث ركبا عساكرهما وتآهبا في يوم الأربعاء السادس والعشرين من

(١) أبو شامة: الذيل على الروضتين ج ٢ ص ٨ الموسوعة الشامية - النويري: المصدر نفسه ج ٢٨ ص ٤٤٧.

(٢) أبو شامة: الذيل على الروضتين ص ١٠ الموسوعة الشامية ج ٢٠. ابن كثير: البداية والنهاية ج ١٣ ص ١١ - الحصني: منتخبات التواريخ لدمشق ص ١٦٦.

شهر رجب ودخل العادل دمشق من باب توما بمساعدة الأهالي، ودخل العزيز من باب الفرج، وملكا المدينة ودانت لهما بالطاعة^(١).

ويذكر أن العزيز عندما ملك دمشق ندم على ما كان قرر من إقامته بالشام، وتمكين عمه الملك العادل من الديار المصرية، واعتذر إلى أخيه الملك الأفضل في السر، فأظهر الأفضل سره لمن معه فظنوا أن هذه خديعة، فأرسل إلى العادل وأعلمه بمراسلة العزيز فعاتبه العادل، فأنكر الحال، وخرج الأفضل إلى صرخد، وقرر له في كل سنة مئتي ألف درهم من صرخد وغيرها، وهو كاره لذلك، وسأل أن يكون بمكة وينقطع إلى الله تعالى، وينزل عن الملك، فلم يجبه العزيز، وكان خروج الأفضل من دمشق إلى صرخد يوم الاثنين ثاني شعبان سنة (٥٩٢هـ/١١٩٧م)، فكانت مدة ملكه لدمشق، منذ وفاة والده إلى أن ملكها العزيز ثلاث سنين وخمسة أشهر^(٢).

٣ - ولاية العزيز على دمشق:

لما ملك السلطان الملك العزيز دمشق جلس في دار العدل، فكشف المظالم وأبطل المكوس، فظن الناس أنه يقيم بدمشق ويستوطنها، فلم يشعروا به إلا وقد أزمع الرحيل، فبرز إلى مسجد القدم، ثم إلى الكسوة، وقرر عمه الملك العادل سيف الدين أبي بكر بن أيوب في دمشق وبلادها. وسلمها إليه، فملكها السلطان الملك العادل وأحسن القيام فيها، وكان أحق بها وبأهلها، لما كان مختصاً به من حسن السياسة وصواب التدبير، ثم سافر السلطان الملك العزيز متوجهاً إلى الديار المصرية، وودعه عمه السلطان، الملك العادل وذلك لأربع عشرة ليلة مضت من شعبان، وكانت مدة ملكه لدمشق عشرين يوماً^(٣).

(١) النويري: المصدر السالف ج ٢٨ - ص ٤٤٩ - ٤٥٠ - ابن كثير: المصدر السالف ج ١٣ - ص ١٢ - أبو الفداء: تاريخ أبو الفداء ص ٥١ سنة ٥٩٢هـ - الحصني: منتخبات التواريخ لدمشق ص ١٦٦ - ابن القرات: تاريخ ابن القرات المجلد الرابع ج ٢ ص ١٣٠ - ١٣١.

(٢) النويري: المصدر السابق ج ٢٨ - ص ٤٥٠ - ابن واصل الحموي: التاريخ الصالحي ص ٥٠ - أبو شامة: المصدر السالف ص ١٠.

(٣) ابن واصل: التاريخ الصالحي - ص ٥١ - ابن كثير: البداية والنهاية ج ١٣ ص ١٢ - أبو شامة: الذيل على الروضتين ص ١٠.

الفصل الثاني

دمشق من العادل

إلى الناصر صلاح الدين بن عزيز

١ - العادل الأول: سيف الدين أبو بكر أخو صلاح الدين (٥٩٢هـ/١١٩٧م)، بوفاة الملك العزيز صاحب دمشق والقاهرة يمكن القول: إن الأوضاع السياسية في دمشق كانت تشبه إلى حد ما ما وصلت إليه الحال فيها بعد وفاة نور الدين، وتولى ابنه الملك الصالح إسماعيل أمور الولاية، حيث أن السلطان الملك العادل بعد أن رجع إلى دمشق وبعد وداعه لابن أخيه السلطان العزيز قرأ منشوره على رؤوس الأشهاد، وأبقى الخطبة والسكة للملك العزيز، وأظهر أنه نائبه وانتهج الملك العادل منهج أخيه في غزو الفرنجة، ففزاهم مرات ثم سار إلى ماردين لمحاربة من فيها من خصومه وللإستيلاء عليها، وفي تلك الأثناء مات بمصر العزيز وذلك سنة (٥٩٥هـ/١١٩٨م) وبويع بعده ابنه الملك المنصور محمد، ويادر الأفضل إلى مصر بعد اتفاق الأمراء على إحضار واحد من بني أيوب ليقوم بالملك، وعملوا مشورة بحضور القاضي الفاضل. ووصل الأفضل إلى مصر على أنه أتاك الملك المنصور محمد بن الملك العزيز، وكان مسير الملك الأفضل إلى مصر متكرراً خوفاً من أصحاب عمه العادل، وخرج الملك المنصور بن العزيز للقاء عمه، فترجل له عمه الملك الأفضل، ودخل بين يديه إلى دار الوزارة، حيث كانت مقر السلطة لكن أمراء أخيه لم يكونوا جميعاً صادقي النية تجاهه، حيث خرج بعضهم مع بعض العساكر متوجهين إلى الشام وكاتبوا الملك العادل. وثانية عاد الصراع من جديد بين دمشق والقاهرة وفي كلا

الصراعين نلاحظ اهتمام المتصارعين بتملك دمشق، لما تمتاز به من موقع استراتيجي في هذه المنطقة.

وفي هذه الأثناء أرسل الملك الظاهر صاحب حلب إلى أخيه الملك الأفضل يشير عليه بقصد دمشق وأخذها من عمه العادل، وأن ينتهز الفرصة لاشتغال العادل بحصار ماردين فبرز الملك الأفضل من مصر وسار إلى دمشق وبلغ الملك العادل مسيره إلى دمشق فترك على حصار ماردين ولده الملك الكامل، وسار العادل وسبق الأفضل ودخل دمشق قبل نزول الأفضل عليها بيومين، ونزل الأفضل في دمشق ثالث عشر شعبان من هذه السنة^(١).

وفي يوم الرابع عشر من شعبان زحف الأفضل إلى دمشق، وكانت الغلبة له أولاً، وكاد أن يملك البلد، وفتح له باب السلامة، فدخل جماعة من أصحابه إلى المدينة، ثم خرجوا من باب الفراديس ولم يحصل غرضهم، وفي شعبان وصل الملك الظاهر من حلب واتفق مع أخيه الملك الأفضل على حصار دمشق ثم وصل الملك المجاهد صاحب حمص وعسكره من عند الملك المنصور صاحب حماة نجدة للملك الأفضل، ونازل الملك المنصور في شهر رمضان حصن بارين وصاحبه الأمير عز الدين إبراهيم بن شمس الدين بن المقدم وكان في خدمة الملك العادل، وحاصره بقية شهر رمضان وشوال وذى القعدة ثم استولى عليه في بقية ذي القعدة. وبقي الظاهر والأفضل محاصرين دمشق وبهما عمهما السلطان الملك العادل، ولما كان اليوم العاشر من شهر ربيع الأول سنة (٥٩٦هـ/١١٩٩م) وصل السلطان الملك الكامل ناصر الدين محمد بن السلطان العادل بمن معه من العساكر إلى دمشق، فاستظهر أبوه به، وضعف بذلك قلب الملك الأفضل والملك

(١) ابن الفرات: تاريخ ابن الفرات ص ٥٤. ابن كثير: البداية والنهاية ج ١٢ ص ١٦. ١٨. النويري: نهاية الأرب ج ٢٨ ص ٤٠٧. ٤٠٨. ٤٠٩. الحصني: منتخبات التواريخ لدمشق ص ١٦٦.

الظاهر، ثم تأخراً عن دمشق مرحلة، ثم رحل الملك الظاهر إلى حلب، وذلك ثلاث عشر ليلة مضت من شهر ربيع الأول، وذلك لخلاف وقع بينه وبين أخيه^(١). ولما رحل الملك الظاهر، رتب السلطان الملك العادل ولده الملك المعظم شرف الدين عيسى نائباً بها (دمشق)، وأعاد ولده الكامل في عساكره إلى حران، هذا وقد كانت الأمراء الناصرية قد تعقبوا الأفضل ليمنعوه عن الدخول إلى القاهرة، وكاتبوا العادل أن يسرع السير إليهم، فنهض إليهم سريعاً، وكان الأفضل قد دخل مصر وتحصن بقلعة الجبل وقد اعتراه الضعف والفشل، ثم تفرقت عنه عساكره، فأدركه عمه العادل، فخرج الأفضل إليه، فانكسر الأفضل وانهزم إلى القاهرة، ونازل العادل القاهرة ثمانية أيام، فأجاب الأفضل إلى تسليمها على أن يعوض عنها ميفارقين وسمسياط، فأجاب العادل إلى ذلك ولم يفؤ له به^(٢)، ثم سافر الأفضل إلى صرخد وأقام العادل بمصر على أنه أتاك الملك المنصور محمد بن العزيز، ثم أزال الملك المنصور محمد وأستقل العادل في السلطنة، ولما استقرت الملكة للعادل أرسل إليه الملك المنصور صاحب حماة يعتذر إليه مما وقع منه بسبب أخذه بعيرين من ابن المقدم فقبل الملك العادل عذره وأمره برد بعيرين إلى ابن المقدم فاعتذر الملك المنصور عنها لقربها من حماة ونزل عن منبج وقلعة نجم لابن المقدم عوضاً عنها، فرضي ابن المقدم بذلك لأنهما خير من بعيرين بكثير.

وكذلك كاتب الملك الظاهر صاحب حلب عمه الملك العادل، وصالحه وخطب له بحلب وبلادها وضرب السكة باسمه، واشترط الملك العادل على صاحب حلب أن يكون خمسمئة فارس من خيار عسكر حلب في خدمة الملك العادل كلما خرج إلى الحرب^(٣).

(١) ابن الفرات: تاريخ ابن الفرات ص ٥٦ - ٥٧. التاريخ الصالحى: ص ٥٢. ابن كثير: البداية والنهاية ج ١٣ ص ٢٢.

(٢) ابن الفرات: تاريخ ابن الفرات ص ٥٦ - ٥٧. التاريخ الصالحى ص ٧٣.

(٣) التاريخ الصالحى: ص ٥٥ - ابن الفرات: ص ٥٧ - ٥٨. ابن كثير: البداية والنهاية ج ١٣ ص ٢٢.

لم يكن الاتفاق الذي وقع بين أبناء صلاح الدين الظاهر صاحب حلب، والأفضل المقيم بصرخد اتفاقاً متيناً، بل كان اتفاقاً هشاً، حيث أن أبناء صلاح الدين كانوا ما زالوا يحنون إلى دمشق، تلك المدينة التي احتضنتهم، وعرفوا ما لها من أهمية بالنسبة لبلاد الشام ومصر بآن واحد، ويدخل سنة (٥٩٧هـ/١٢٠٠م) كان الأفضل عند أخيه الملك الظاهر صاحب حلب يعدّون العدة لمنازلة دمشق، يدعمهم ثمانية الأمراء الصلاحية الذين عز عليهم تسلم العادل زمام الأمور في القاهرة، ودمشق وإبعاد أبناء صلاح الدين نهائياً عنهما، لذلك قاموا بمراسلة الملك الأفضل، وقد رسم الظاهر والأفضل الاتفاق بينهما قبل مسيرهما باتجاه دمشق بحيث يجتمعا على حصار دمشق وينتزعانها من المعظم بن العادل، وتكون للأفضل ثم يسيرا إلى مصر فيأخذها من العادل، وابنه الكامل اللذان نقضا العهد وأبطلا خطبة المنصور، فإذا أخذنا مصر كانت للأفضل، وتصير دمشق مضافة إلى الظاهر مع حلب، فلما بلغ العادل ما اتفقا عليه أرسل جيشاً مدداً لابنه المعظم عيسى إلى دمشق^(١). ولما وصل الملك الظاهر وأخوه الملك الأفضل إلى ظاهر دمشق كانا قد نزلا عند مسجد القدم، وكان وصولهما بعد وصول المدد الذي أرسل إلى المعظم عيسى من قبل أبيه الملك العادل. ثم أقام الظاهر وأخوه الحصار على دمشق وضيقوا عليها ولما قاربت السقوط نشبت بينهما فتنة التحاسد والتنافس فقال الظاهر: «لا أقنع بدمشق وحدها ولا بد لي من ممالك الشام كلها». ونازعه الأفضل واحتدم الخلاف بينهما، وتفرقت الأمراء عنهما، وكوتب العادل في الصلح فأرسل يجيب إلى ما سأل إليه وزاد في إقطاعها شيئاً من بلاد الجزيرة، وتفرقت العساكر عن دمشق في محرم سنة (٥٩٨هـ/١٢٠١م) وسار كلٌّ منهما إلى ما تسلم من البلاد التي أقطعها^(٢).

(١) ابن كثير: البداية والنهاية ج ١٣ ص ٢٧.

(٢) ابن الأثير: الكامل ج ١٢ ص ١٦٢ - ١٦٣. ابن كثير: البداية والنهاية ج ١٣ ص ٢٧. ابن واصل:

التاريخ الصالح ص ٥٤ - ٥٥.

وهكذا استطاع العادل ثانية بحنكته السياسية ودهائه أن يستبقي دمشق والقاهرة متحدتين وينهي الخطر الداخلي، ليتمكن من صد الخطر الخارجي المحقق بالبلاد.

لقد استطاع الملك العادل أن ينتزع الاعتراف من أبناء أخيه بشكل تام بكونه السلطان على دمشق والسواحل وأعمال بيت المقدس والديار المصرية وما بيده في سنة (٥٩٩هـ/١٢٠٢م) بعد أن وقع الصلح مع ابن أخيه الظاهر وتحالفاً، وأن يكون بيد أولاد أخيه بلاد الشرق. وأن يكون للملك الظاهر مدينة حلب وأعمالها، وللملك المنصور حماة والمعرة وسلمية، وبارين، وللملك المجاهد أسد الدين حمص، والرحبة، وتدمر، وللملك الأجد بعلبك وأعمالها، ولما وقع الاتفاق على ذلك عاد السلطان الملك العادل إلى حمص، وقام بتوزيع أبنائه على أعمال بلاد الشام والساحل ومصر واحتفظ لنفسه بالإشراف والإقامة بدمشق^(١) وفوض أمورها من جهة النيابة عنه لولده الملك المعظم عيسى، وأبقى لنفسه وظيفة الجهاد، والمصابرة، والإشراف على الأولاد، ومراقبة أحوالهم على سيرهم السياسية، وكان شجاعاً، حازماً، عزيز العقل، سديد الرأي، كثير الحيلة، والمكر شديداً على أولاده في حملهم على الأخلاق الملوكية، لا يسكت لأحدهم عن زلة، ولا يتجاوز له عن هفوة خصوصاً فيما يتعلق بالملك وسياسة الرعية، وكان يتردد بين القاهرة ودمشق، ومعظم إقامته في بلاد الشام^(٢). وفي سنة (٦١٤هـ/١٢١٧م) أتاه رسول الخليفة بخلعة سلطانية وقلده جميع الممالك التي تحت يده ملقباً بالملك العادل شاهنشاه ملك الملوك، وكان مقيماً في القاهرة^(٣). ثم عاد بعدها إلى دمشق، وقام بحشد الجيوش لقتال الفرنج، وبينما كان العادل مقيماً بمرج الصفر، كان جموع الفرنج بمرج عكا، ثم ساروا منها نحو

(١) ابن واصل: التاريخ الصالحى ص ٥٥ - ٥٦. ابن الفرات ص ٥٨. ابن كثير: المصدر نفسه ص ٢٧. منتخبات التواريخ لدمشق ص ١٦٧.

(٢) ابن الأثير: الكامل ج ١٢ ص ١٨٣ - ١٨٤ - ١٩٤.

(٣) ابن الفرات: تاريخ ابن الفرات ص ٦٤. منتخبات التواريخ لدمشق ص ١٦٨.

الديار المصرية، واستمر الحال كذلك أربعة أشهر، وأرسل الملك العادل العساكر التي عنده إلى ابنه الملك الكامل في القاهرة، فوصلت إليه أولاً فأولاً، ولما اجتمعت العساكر عند الملك الكامل أخذ في قتال الفرنج ودفعهم عن دمياط^(١).

وبعدها وصل الملك العادل من مرج الصفر إلى عالقين^(٢) وهي بالقرب من عقبة أفيق، فنزل بها ومرض واشتد مرضه ثم توفي هناك في سنة (٦١٥هـ/١٢١٨م)، وكان عمره خمساً وسبعين سنة وكانت مدة ملكه لدمشق ثلاثاً وعشرين سنة، وكانت مدة ملكه لمصر نحو تسع عشر سنة، وقد أخفي نبأ وفاته حتى أدخل في محفة إلى قلعة دمشق، ودفن فيها، ثم أظهر موته، وجلس ولده الملك المعظم للعزاء^(٣).

(١) ابن الفرات: تاريخ ابن الفرات ص ٧٦.

(٢) عالقين: وام سيلي في هضبة حوران ناحية غباغب منطقة الصنمين - المعجم الجغرافي مجلد ٤ مركز الدراسات العسكرية ط١ سنة ١٩٩٢ ص ٨٨.

(٣) ابن الأثير: الكامل ج ١٢ ص ٣٥٠ - ٣٥١. ابن الفرات ص ٧٧. التاريخ الصالح ص ٦١.

أولاد الملك العادل سيف الدين أبو بكر بن أيوب

- ١ - الملك المعز مجير الدين يعقوب بن أبي بكر ت ٦٥٤ هـ.
- ٢ - الملك المفضل قطب الدين أحمد بن أبي بكر ت ٦١٩ هـ.
- ٣ - الملك المغيث فتح الدين عمر بن أبي بكر ت ٦٠٦ هـ.
- ٤ - الملك الحافظ أرسلان شاه بن أبي بكر ت ٦٤٠ هـ.
- ٥ - الملك الأوحى أيوب بن أبي بكر ت ٦٠٩ هـ.
- ٦ - الملك الأمد تقي الدين عباس بن أبي بكر ت ٦٦٩ هـ.
- ٧ - الملك الأمد حسن بن أبي بكر ت ٦٠٥ هـ.
- ٨ - الملك الصالح عماد الدين اسماعيل بن أبي بكر ت ٦٤٨ هـ.
- ٩ - الملك الفائز سابق الدين ابراهيم بن أبي بكر ت ٦١٧ هـ.
- ١٠ - الملك المغيث محمود بن أبي بكر.
- ١١ - الملك المظفر شهاب الدين غازي بن أبي بكر ت ٦٤٥ هـ.
- ١٢ - الملك العزيز عثمان بن أبي بكر ت ٦٣٠ هـ.
- ١٣ - الملك القاهر اسحاق بن أبي بكر ت ٦٢٨ هـ.
- ١٤ - الأمير مظفر الدين مودود بن أبي بكر توفي في حياة أبيه.
- ١٥ - الملك الأشرف مظفر الدين موسى بن أبي بكر ت ٦٣٥ هـ.
- ١٦ - الملك المعظم مشرف الدين عيسى بن أبي بكر ت ٦٢٤ هـ.
- ١٧ - الملك الكامل ناصر الدين أبو الفتح محمد بن أبي بكر ت ٦٣٥ هـ.
- ١٨ - الملك خليل أصغر أبناء العادل أبي بكر.
- ١٩ - مؤنسة بنت أبي بكر ت ٦٩٣ هـ.

٢ - دمشق في عهد المعظم شرف الدين عيسى بن العادل

الأول (٦١٥ - ٦٢٤هـ/١٢١٨ - ١٢٢٧م):

بعد وفاة السلطان الملك العادل آلت أمور دمشق وأعمالها لابنه السلطان المعظم شرف الدين عيسى^(١) الذي عمل على نجدة أخيه الكامل في مصر عندما طمعت الفرنج بها بعد وفاة العادل، وقد تمكن أبناء العادل من دحر الفرنج واستعادة دمياط، وحصن الكرك والشوبك^(٢)، وبعد ذلك عاد المعظم إلى دمشق ثم قصد حماة فأغلق صاحبها الملك الناصر أبوابها وحفظ أسوار بلده بالمقاتلة، فنازله المعظم وتعسر عليه الاستيلاء على البلد فتركها واستولى على أطرافها مثل المعرة وسلمية، ومكث فيها نائماً الرجوع إلى حماة ثانية، ولما بلغ صنيعه هذا أخويه الملك الأشرف، صاحب بلاد الشرق والملك الكامل أمراه بالرحيل والرجوع إلى دمشق، فأطاعهما ورجع مضمراً الانتقام منهما^(٣).

وعلى أثر الاتفاق بين الملك الكامل صاحب مصر، وأخيه الملك الأشرف صاحب بلاد الجزيرة وخراسان، وميافيارقين على أخيهما الملك المعظم صاحب دمشق وبيت المقدس وطبرية^(٤)، ازدادت هوة الخلاف بين الأخوة الثلاث، ولما علم المعظم بذلك الاتفاق أخذ يسعى إلى الحصول على حليف يقف إلى جانبه ضد أخويه، وواتته الفرصة عندما ظهر السلطان جلال الدين منكبرتي على المسرح السياسي فشرع في التقرب منه وأرسل إليه في سنة (٦١٩هـ/١٢٢٢م) الصدر البكري محتسب دمشق ومعه جماعة من الصوفية، ولكي لا يثير المعظم شكوك أخويه بتقريبه إلى السلطان جلال الدين تظاهر أن مهمة الرسل هي جلب

(١) التاريخ الصالح: ص ٦١ - الموسوعة الشامية ج ٢١ - ص ٥٦٧ - تاريخ ابن الفرات ص ٧٨.

(٢) التاريخ الصالح: ص ٦٢ - الموسوعة ج ٢١ ص ٥٧١ - تاريخ ابن الفرات ص ٨١ - ٨٢ - ٨٥ - ابن الأثير:

الكامل ج ١٢ ص ٣٢٦ - ٣٣٠.

(٣) ابن الفرات: تاريخ ابن الفرات ص ٨٧ - التاريخ الصالح: ص ٦٣.

(٤) طليعات (عبد القادر): مظفر الدين كوكبري - أمير أربيل ص ١٢٨ - ١٢٩.

طائر السممر الذي يأكل الجراد، وهذا الطائر موجود في بلاد العجم، حيث أنه صادف في هذه السنة ظهور جراد كثير في الشام لم يعهد مثله^(١) لكن الحقيقة هو الاتفاق ضد أخويه، وقد اجتمع الصدر البكري بجلال الدين وقرر معه الأمور وجعله سنداً له، والجدير بالذكر أن بداية العلاقات بين الأيوبيين والخوارزميين، كانت سنة (٦١٥هـ/١٢١٨م)، قبيل وفاة العادل، حيث أنه وصل في هذه السنة رسول خوارزم علاء الدين محمد إلى الملك العادل وهو بمرج الصفر^(٢)، هذا وقد سعى المعظم إلى توثيق علاقته مع جلال الدين، فعندما استولى السلطان جلال الدين على أذربيجان سنة (٦٢٢هـ/١٢٢٥م)^(٣). بعث المعظم رجلاً صوفياً من خانقاه السميساطي يقال له (الملق) في رسالة يعرض عليه فيها اتفاق المعظم ومظفر الدين بن زين الدين صاحب أربيل معه على أخيه الملك الأشرف^(٤). فأجابه جلال الدين إلى طلبه، ولكي يضمن المعظم استمرار تحالفه مع جلال الدين عمد إلى مصاهرته، فزوجه ابنته الكبرى المسماة (دار مرشد)^(٥) ومن ناحية أخرى فقد كان السلطان جلال الدين راغباً في إقامة علاقة ودية بينه وبين الأمراء الأيوبيين، فأنفذ من جانبه في سنة (٦٢٢هـ/١٢٢٥م) رسوله مجد الدين قاضي الماليك الحنفي إلى الأمراء الأيوبيين الثلاثة (الكامل - المعظم - الأشرف)، وعند وصوله إلى الملك الأشرف والملك المعظم أحسنا في عطائه وحرمته غاية الإحسان^(٦).

(١) أبو شامة: ذيل الروضتين ص ١٢١.

(٢) أبو شامة: المصدر نفسه ص ١٠٩ - ١١٠.

(٣) ابن الأثير: الكامل ج ١٢ ص ٤٣٢ - العبود (نافع توفيق): الدولة الخوارزمية ص ١٥٣ - مطبعة الجامعة بغداد ١٩٧٨.

(٤) أبو شامة: المصدر نفسه ص ١٤٢.

(٥) سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان ق ٢ ج ٨ ص ٦٦٩.

(٦) الحموي: التاريخ المنصوري ص ٣١١.

ومن المحتمل أن تكون مهمة رسول السلطان جلال الدين تهدف إلى إحلال التفاهم والوثام بين الأشقاء الأيوبيين، غير أن المعظم رغب في إبقاء تحالفه مع السلطان جلال الدين، وبنفس الوقت كان جلال الدين يرغب في استمالة المعظم إليه وتكوين حلف ضد الخليفة العباسي الناصر لدين الله، لكن المعظم امتنع عن إجابة طلبه في معاداة الخليفة فكتب إليه يقول: «أنا معك على كل أحد، إلا الخليفة فإنه إمام المسلمين»^(١) ومع ذلك ظلت العلاقات ودية بين الجانبين، وآثر المعظم استمرار تحالفه مع السلطان جلال الدين ليكون له عوناً على أخويه رغم قيام الخليفة العباسي الظاهر بأمر الله بثني المعظم عن مخالفة جلال الدين، حيث بعث إليه رسالة جاء فيها: «المصلحة رجوعك عن هذا الخارجي - يقصد جلال الدين - وتصلح بينك وبين إخوتك»^(٢) كذلك رغب السلطان جلال الدين في الإبقاء على هذا التحالف، فأرسل إلى المعظم في سنة (٦٢٣هـ/١٢٢٦م) رسولاً كبيراً، وعند وصوله إلى المعظم خلع عليه، وأعطاه سنجقاً وخزنتين وسيف، وسار المعظم يركب بسنجق الخليفة وسنجق خوارزم شاه، بحضور رسل الخليفة^(٣) وكان السلطان جلال الدين يرعى منزلة المعظم عنده ويجيبه إلى طلباته، فعندما قدم الأشرف إلى دمشق سنة (٦٢٣هـ/١٢٢٦م) وأطاع المعظم طلباً للصالح، وقطعاً للفتن رجاء أن يسأل الخوارزمي في الرحيل عن خلاط، فبعث المعظم إلى جلال الدين، يطلب إليه ذلك، فرحل عنها بعد حصار دام أربعين يوماً^(٤) لقد أثار المعظم بتحالفه مع السلطان الخوارزمي، مخاوف أخيه الكامل «كما أن الأشرف رجع عن جميع ما تقرر بينه وبين أخيه المعظم وتآول في أيامه التي حلفها أنه مكره»^(٥).

(١) سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان ٢ ج ٢ ص ٦٣٤.

(٢) أبو شامة: ذيل الروضتين ص ١٤٧.

(٣) الحموي: تاريخ المنصور ص ٣١٤ - ٣١٥.

(٤) أبو شامة: ذيل الروضتين ص ١٤٢.

(٥) كرد علي (محمد): خطط الشام ج ٢ ص ٩١ المطبعة الحديثة دمشق ١٩٢٥م.

وقد التجأ الكامل إلى مصالحة الصليبيين فأرسل إلى ملك الفرنج أحد أمرائه وهو الأمير فخر الدين يوسف ابن شيخ الشيوخ صدر الدين بن حموية، ووعد ملك الفرنج بإعطائه عكا وبعض ما يبيد المسلمين من بلاد الساحل، وعندما تجهز ملك الفرنج لقصده الساحل وبلغ ذلك إلى المعظم، هاله الأمر، فراسل أخاه الكامل يستعطفه ليتصل من الاتفاق المشؤوم مع الفرنجة، لأنه لم يعمل عملاً يرفع من شأنه، وفي نفس الوقت كتب إلى السلطان جلال الدين يسأله النجدة على أخيه الكامل، ووعدته أن يخطب له ويضرب السكة باسمه، فسير إليه جلال الدين خلعة لبسها وشق بها دمشق وقطع الخطبة للكامل^(١)، ولما بلغ الكامل خبر ما فعله أخوه المعظم، عزم على السير إليه فخرج من القاهرة بعساكره في رمضان سنة (٦٢٤هـ/١٢٢٧م)، ولما أحس المعظم بذلك سعى لإيقاف زحف أخيه الكامل، فاستمال عدداً من أمرائه الذين ساءهم مصالحة الكامل للصليبيين فانضموا إلى المعظم وقد اضطرت أمور الكامل بسبب تفرق أمرائه عنه، فاضطر إلى العودة إلى قلعة الجبل وقبض على عدد من أمراء ومماليك أبيه العادل بسبب مكاتبتهم لأخيه المعظم^(٢).

ولم يكذب يجري شيء بعد ذلك حتى مات الملك المعظم في قلعة دمشق (٦٢٤هـ/١٢٢٧م).

٣- دمشق في عهد السلطان الناصر داود بن عيسى بن أبي

بكر بن أيوب: (٦٢٤هـ/١٢٢٧م - ٦٢٦هـ/١٢٢٨م)

بعد وفاة الملك المعظم قام بأمر دمشق ولده الملك الناصر داود، وقام بتدبير مملكته مملوك والده، وأستاذ داره الأمير عز الدين أيبك المعظمي، وكان لأيبك المذكور صرخد، وفي هذه الآونة ظهرت تحولات جديدة نوعاً ما على

(١) المقرئزي: السلوك ق ١ ج ١ ص ٢٢١ - ٢٢٢. ابن الأثير: الكامل ج ١٢ ص ٤٢١ - ٤٢٢ - ٤٧١.

التاريخ الصالح: ص ٦٣ - ٦٤.

(٢) المقرئزي: السلوك ق ١ ج ١ ص ٢٢٣.

الموقف في دمشق حيث تم الاتفاق بين الناصر داود وعمه الأشرف، إلا أن هذا الأخير اتفق مع أخيه الكامل للاستيلاء على دمشق، حيث أرسل الملك الكامل سنة (٦٢٥هـ/١٢٢٧م) صاحب مصر يطلب من ابن أخيه الملك الناصر أن يسلمه حصن الشوبك، فلم يعطه الملك الناصر ذلك، ولم يجبه إليه، فجهز الملك الكامل الجيوش واستولى على القدس ونابلس وغيرها، وهم بانتزاع مملكة ابن أخيه كلها منه، وأوجس الملك الناصر خيفة من عمه فراسل عمه الأشرف، وطلب معونته على عمه الكامل فأتاه إلى دمشق في رمضان في السنة نفسها، وأحضرا جيوشهما، وسارا إلى جهة الكامل فاسترجعا منه نابلس فأقام بها الناصر، وتوجه عمه الأشرف إلى غزة لمواجهة أخيه الكامل والاتفاق معه على رأي، فيما يتعلق بمصلحة ولد أخيهما، ولما اجتمع معه استقر رأيهما على أن تكون نابلس والكرك والشوبك وهوران والقدس وما يتبعهما تابعة لمصر في يد الملك الكامل، وأن تكون دمشق للملك الأشرف ويكون له إلى عقبه أفيق ويخرجان ولد أخيهما منها ويعوضانه عنها بحرّان والرّها، والرقة، من بلاد الملك الأشرف^(١).

وفي سنة (٦٢٥هـ/١٢٢٧م) نزل العزيز عثمان بن أبي بكر بن أيوب على بعلبك ليأخذها، وفيها ابن عمه الأجد بهرامشاه بن فرخشاه بن شاهنشاه بن أيوب، فأعان الناصر داود الأجد على العزيز، وأمره بالرحيل عنها، فرحل واشتد حنقه على الناصر.

وكتب العزيز الكامل وحثه على الإتيان إلى دمشق ليتسلمها، وأوهمه أنها في يده، فجاء الكامل وانضاف إليه العزيز وانضم إليهم صاحب حمص المجاهد أسد الدين شيركوه بن محمد ابن شيركوه بن شادي^(٢).

(١) الموسوعة الشامية: ج٢٠ الذيل على الروضتين ص ٢٩٥ - ٢٩٦. ابن الأثير: الكامل ج ١٢ ص ٤٧٩ - ٤٨٠. عقد الجمان ج ١ قسم ١ ص ٧٢. التاريخ الصالح: ص ٦٦. أبو الفداء ص ٩٤ - ٩٥. ابن كثير: البداية والنهاية ج ١١ ص ١٢٢.

(٢) أبو شامة: الذيل على الروضتين ص ٢٩٥. الموسوعة الشامية ج٢٠.

واستجد الناصر بعمه الأشرف أبي الفتح موسى بن أبي بكر فجاءه وأكرمه غاية الإكرام ثم دخل الأشرف إلى الكامل واجتمع به بالقدس فاتفقا على أخذ البلاد من الناصر داود بن عيسى، وأن دمشق تكون للأشرف، وانضم إليهما من عسكر الناصر عمه الصالح إسماعيل بن أبي بكر، وابن عمه شهاب الدين محمود بن المغيث عمر بن أبي بكر بن أيوب، وجماعة من الأمراء، وكان الناصر قد خرج لأجل عمه الكامل وخدمته، وظن أن الأشرف قد أصلح أمره^(١).

وبعد عودة الأشرف من عند أخيه الكامل، اجتمع هو وصاحب دمشق قبل أن يصل الناصر داود إلى الكامل، ولم يكن الأشرف في كثرة من العسكر فبينما هما جالسان في خيمة لهما، دخل عليهما عز الدين أيك مدبر مملكة السلطان الناصر، فقال لصاحبه داود، قم أخرج وإلا قبضت الساعة، فأخرجه ولم يكن الأشرف منعه لأن أيك كان قد أركب العسكر الذي لهم جميعه، وكانوا أكثر من الذين مع الأشرف فخرج داود، وسار هو وعسكره إلى دمشق وكان تصرف أيك هذا لعلمه أن الأشرف يريد القبض على ابن أخيه وأخذ دمشق منه، وقام الملك الناصر بتحضير دمشق^(٢).

استطاع الملك الناصر أن يوظف ما قام به الملك الكامل لصالحه، ويستميل قلوب أهل دمشق إليه حيث أن الكامل كان قد عمل على إخلاء بيت المقدس من المسلمين وسلمه إلى الفرنجة وصالحهم على ذلك وعلى تسلم جملة من القرى فتسلموه، ودخلوه مع ملكهم الإمبراطور فردريك الثاني، وكانت هذه من المصائب التي حلت بالمسلمين^(٣).

(١) أبو شامة: المصدر نفسه ص ٢٩٦.

(٢) أبو شامة: الذيل على الروضتين ص ٢٩٩، سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان ق ٢ ج ٨ ص ٦٥٣ - ٦٥٤.

(٣) أبو شامة: الذيل على الروضتين ص ٢٩٩، سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان ق ٢ ج ٨ ص ٦٥٤ - ٦٥٣.

وفي شهر ربيع الآخر في سنة (٦٢٦هـ/١٢٢٨م) تقدمت جيوش الكامل مع إخوته (الأشرف والمظفر والعزیز، والصالح وابني أخيه الجواد بن محمد. وداود بن المفيث، ومعهم صاحب حمص وعسكر حلب وحماة فنزلوا عند الجسور وراء مسجد القدم، وقطعوا عن دمشق أنهارها، بانياس والقنوت، ثم يزيد، وتورا، ونهبت البساتين، واحرقت الجواسق، وخرت رباغ وبادت الأشجار بانقطاع الماء، وقتل خلق كثير. وجرت محاولات عديدة لإبرام الصلح بين الطرفين لكنها لم تجد نفعاً في البداية، ووصل الكامل إلى دمشق ونزل بالقرب من مسجد القدم، وأمر بإجراء نهري يزيد وتورا لأجل سقاية الأراضي، وتجددت الرسل بين الطرفين ثانية من أجل المصالحة لكنها لم تثمر، وعاد القتال من جديد، ونهبت ناحية باب توما وأحرقت طاحونة الأحد عشرية والخرشنية، ونهبت الدور وخرت قرى منها جوير وجديا، وزملكا، ثم خربت سقبا^(١)، وكان يرافق كل هذه الأعمال ارتفاع في الأسعار. وبقيت الأحوال على ذلك إلى أن انتظم الصلح في بداية شعبان من السنة نفسها، وخرج الملك الناصر من دمشق متوجهاً إلى ما بقي بيده من بلاد وهي بلاد الكرك وبلدة نابلس وقرى باقي الغور والبلقاء^(٢) كما أنه اشترط على عمه أن يبقى على أيك قلعة صرخد وأعمالها وتسلم الكامل دمشق، ودخلها مع الأشرف، ثم توجه مع عساكره صوب حماة وتسلم الأشرف دمشق بعد أن أعطي الكامل عوضها جملة من بلاد الشرق منها حران والرها، ورأس العين والرقعة^(٣).

(١) أبو شامة: الذيل على الروضتين ص ٣٠٠ - ٣٠١ - ٣٠٢ - ٣٠٣. ابن الأثير: الكامل جزء ١٢ ص ٤٨٤. ابن كثير: البداية والنهاية ج ١٣ ص ١٢٤. أبو الفداء: ص ٩٧، سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان ج ٢ ص ٨٦٤.

(٢) أبو شامة: المصدر نفسه ص ٣٠٢. سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان ج ٢ ص ٨٦٧.

(٣) أبو شامة: الذيل على الروضتين ص ٣٠٢. الموسوعة الشامية ج ٢٠. أبو الفداء ص ٩٧. ابن الأثير: الكامل ج ١٢ ص ٤٨٤. ابن كثير: البداية والنهاية ج ١٣ ص ١٢٤.

٤ - دمشق في عهد السلطان الملك الأشرف موسى بن العادل

(٦٢٦ - ١٢٢٨م/٣٦٥ - ١٢٣٧م):

بعد أن استقر الملك الأشرف في دمشق، غادرها السلطان الملك الكامل متوجهاً نحو البلاد الشرقية وعمل الأشرف على وحدة الأيوبيين وإيجاد تحالف مع سلاجقة الروم بقيادة علاء الدين كيقباز بن كخسرو، ضد السلطان جلال الدين سلطان الخوارزميين الذين كانوا قد استولوا على مدينة خلاط سنة (٦٢٧هـ/١٢٣٠م) وأعملوا السيف في أهلها، وأباحوا لجنودهم تخريبها^(١) حيث وصفهم ابن تغري بردي بقوله: «وكانوا شراً من التتار لا يعفون عن قتل ولا سبي ولا في قلوبهم رحمة»^(٢) وكان أن تم اجتماع قوات الأيوبيين تحت زعامة الملك الأشرف بقوات السلاجقة تحت قيادة كيقباز في مدينة «سيواس» وسارا نحو خلاط ودارت المعركة بين الطرفين قرب «أرزنجان»^(٣)، وحلت الهزيمة بالخوارزميين وفرّ سلطانهم جلال الدين إلى أذربيجان. واسترد الأشرف خلاط ثم أن الأشرف مال بعد هذا إلى مصالحة السلطان جلال الدين على أن يقنع كل منهما بالسيطرة على البلاد التي في حوزته^(٤). وأخذت الرسل تتردد بين الطرفين، حتى تم الصلح فأطلق السلطان جلال الدين من عنده من الأسرى الذين أسره في خلاط، وكان من بينهم مجير الدين وتقي الدين ابني الملك العادل^(٥) ثم عاد الأشرف إلى دمشق وبقي ملازماً بها، وأقام بها آثاراً عظيمة من قصور وقلاع وأبنية مختلفة^(٦) وفي آخر أيامه فسُد ما بينه وبين أخيه الكامل ودبت بينهما سوء النيات وكان ذلك في (٦٣٥هـ/١٢٣٧م)، حيث اتفق الأشرف

(١) ابن الأثير: الكامل ج١٢ ص ٤٨٨.

(٢) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة ج٦ ص ٣٢١.

(٣) أرزنجان: بلدة في أرمينية بين بلاد الروم، وخلاط معجم البلدان ج١ ص ٢٠٥.

(٤) ابن الأثير: الكامل ج١٢ ص ٤٩١.

(٥) سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان ج٢ ص ٨٦٢.

(٦) أبو شامة: ذيل الروضتين ص ٣٠١-٣٠٢-٣٠٣ (الموسوعة الشامية) ج٢٠ - ابن الأثير: الكامل ج١٢ -

سوء النيات وكان ذلك في (٦٣٥هـ/١٢٣٧م)، حيث اتفق الأشرف مع صاحبة حلب^(١) صفية خاتون أخت الملك الكامل ومع باقي الملوك، على خلاف الملك الكامل، فخشي الأشرف من انحياز ولد أخيه الناصر إلى أخيه الكامل، فطلب من ابن أخيه الملك الناصر أن يكون من جهته، ومن أنصاره، ووعدته بولاية العهد بعده على دمشق وجميع ممالكه، حيث لم يكن له ولد ذكر، ووعدته بزواجه من ابنته إن وافقه، فأبى الناصر ذلك أنفةً وكيداً لعمه الأشرف، ومجازاة له على فعلته الأولى، وكان هذا من سوء حظه، وتوجه الملك الناصر إلى الديار المصرية إلى خدمة عمه الملك الكامل، وصار معه على ملوك الشام فسربه الملك الكامل وجدّد عقده على ابنته عاشوراء التي طلقها منه، وأركب الناصر داود بسناجق السلطنة ووعدته أن ينتزع دمشق من الملك الأشرف أخيه ويعطيه إياها، ثم استحكمت الوحشة بين الأخوين الأشرف والكامل، ومرض الأشرف مرضاً شديداً، وضعف بسببه، وعهد بالملك إلى أخيه الملك الصالح إسماعيل بن الملك العادل، وفي هذه السنة (٦٣٥هـ/١٢٣٧م) توفي الملك الأشرف مظفر الدين موسى بن الملك العادل بن بكر بن أيوب في شهر محرم، وتملك دمشق أخوه الصالح إسماعيل بعهد منه، وكانت مدة ملكه بدمشق ثمان سنين وشهوراً وعمره نحو ستين سنة^(٢).

٥ - الملك الصالح إسماعيل (٦٣٥هـ/١٢٣٧م):

هو الصالح عماد الدين إسماعيل بن العادل تملك دمشق بعد أن كان الأشرف قد استخلف أهل دمشق لأخيه الملك الصالح عماد الدين بشعار السلطنة، واستولى على دمشق وبعلبك، وأعمال دمشق إلى عقبة أفيق، وما كاد الصالح يستقر على كرسي دمشق حتى بعث إلى إخوته ملوك المماليك وغيرهم،

(١) المقرئزي: السلوك ق ١ ج ١ ص ٢٥٤.

(٢) التاريخ الصالح: ص ٦٨ - ٧٢ - ٧٣ - أبو الفداء: ص ١٠٩ - ١١٠ - ١١١. عقد الجمان ج ١ ق ١ ص ١٨٠ - ١٨٨ - ١٩٠.

من أمراء البيت الأيوبي وإلى كيخسرو صاحب أرض سلاجقة الأناضول، وهو من أعقاب الدولة السلجوقية يدعوهم لمساعدته على محاربه أخيه الملك الكامل واستخلاص مصر من يده^(١).

ولم يخرج عن رأيه إلا الملك المظفر صاحب حماة، وأرسل المظفر رسولاً إلى الملك الكامل يعرفه انتماؤه إليه، وأنه إنما وافق الملك لصالح إسماعيل خوفاً منه فقبل الملك الكامل عذره بعد أن تحقق صدق ولاءه، وعمل الملك الكامل على أخذ الحيطة وعاجلهم قبل أن يعاجلوه، وسار بجيوشه قاصداً دمشق فوصلها في جمادى الأولى من السنة المذكورة، وقام بحصار المدينة وكان هذا الحصار أكثر خراباً في ظاهر البلد وحريقاً ومصادرة وأقل غلاء، ولم تطل مدته، وكان الملك الصالح إسماعيل قد استعد للحصار. ووصلته نجدات الحلبين وصاحب حمص، ثم أخرج الملك الصالح إسماعيل النفاطين. فأحرق العقبية جمعيتها وما بها من خانات وأسواق، وفي مدة الحصار وصل من عند صاحب حمص رجاله يزيدون على خمسين راجلاً نجدة للصالح إسماعيل، وظفر بهم الملك الكامل فشنقهم بين البساتين عن آخرهم، وعندما علم الصالح إسماعيل أنه لا قدرة له على الثبات اتفق مع أخيه الكامل على تسليمه دمشق على أن يعوضه عنها بعلبك والبقاع ويقره على بصرى وحروران. ولما تمت دمشق للكامل سكن بقلعتها على عادة أسلافه، ولم يلبث بها إلا أياماً حتى مرض ومات بها في السنة نفسها وكان بينه وبين موت أخيه الملك الأشرف ستة أشهر وسبعة عشر يوماً^(٢).

(١) أبو شامة: الذيل على الروضتين ص ٣٢٤ (الموسوعة الشامية ج ٢٠). أبو الفداء: المختصر حوادث سنة ٦٢٥هـ.

(٢) أبو شامة: ذيل الروضتين ص ٣٢٤ - ٣٢٥. (الموسوعة الشامية ج ٢٠) العيني: عقد الجمان ق ١ ج ١ ص ١٩٤ - ١٩٥ - ١٩٦. أبو الفداء: تاريخ أبو الفداء ص ١٦٠ - ١٦١. الحصيني: منتخبات التواريخ لدمشق ص ١٧٢.

٦ - العادل الثاني سيف الدين أبو بكر بن الملك الكامل

(١٢٣٨/هـ - ١٢٣٨م):

عندما توفي السلطان الملك الكامل بدمشق، كان معه بها الملك الناصر داود صاحب الكرك فاتفقت آراء الأمراء على تحليف العسكر للملك العادل الثاني أبي بكر بن الملك الكامل وهو حينئذ نائب أبيه بمصر. فحلف له جميع العسكر، وأقاموا في دمشق الملك الجواد يونس بن مودود بن الملك العادل أبو بكر بن أيوب نائباً عن الملك العادل الثاني أبي بكر بن الملك الكامل، وتقدمت الأمراء إلى الملك الناصر داود بالرحيل عن دمشق، وهدّوه إن أقام، فرحل الملك الناصر داود إلى الكرك، وتفرقت العساكر فصار أكثرهم إلى مصر وتأخر مع الجواد يونس بعض العسكر^(١).

وفي سنة (٦٣٦هـ / ١٢٣٩م) جرى اتفاق بين أحد أولاد الملك الكامل، وهو الملك الصالح نجم الدين أيوب بن الكامل وبين ابن أخيه الملك الجواد يونس، ومقتضى هذا الاتفاق أن يسلم الملك الجواد دمشق إلى الملك الصالح نجم الدين أيوب بن الكامل وملحقاتها على أن يعوضه عمه عنها مدينة سنجار وما يتبعها^(٢). أما الدافع الذي أدى إلى قيام الملك الجواد يونس بتوقيع هذا الاتفاق، هو أن الملك العادل الثاني كان قد أرسل إليه الأمير عماد الدين بن الشيخ من مصر رسوياً يحمل رسالة مضمونها فيما شاع على الألسنة طلب تسليم دمشق إلى نواب الملك العادل على أن يعوض الملك الجواد خبزاً بمصر، وأن يخرج الملك المجاهد صاحب حمص من دمشق وكان بها، وأن يطالب بحمل ما كان بذله للسلطان الملك الكامل، فلم تقع الإجابة، وكاتب الملك الجواد عمه السلطان الملك الصالح أيوب وسأله سرعة القدوم، فصار إلى دمشق، والتقاء الملك المظفر صاحب حماة

(١) أبو الفداء: تاريخ أبو الفداء ص ١٦١.

(٢) أبو الفداء: تاريخ أبو الفداء ص ١٦٢ - ١٦٣. منتخبات التواريخ لدمشق ص ١٧٣. أبو شامة ذيل الروضتين ص ٢٢٩ (الموسوعة ج ٢).

في عسكره، وسار في خدمته إلى دمشق، وذلك في العشر الأخير من جمادى الأولى سنة (٦٣٦هـ/١٢٣٩م)^(١).

٧- الصالح نجم الدين أيوب بن الكامل محمد (٦٣٦هـ/١٢٤٠م):

ولما استقر الملك الصالح أيوب في ملك دمشق، وسار الملك الجواد إلى البلاد الشرقية المذكورة فتسلمها. وردت الكتب إلى الملك الصالح أيوب من قبل المصريين يستدعونه إلى مصر ليملكها، وعلى أثر ذلك قام الملك الصالح بتجهيز الجيوش، وسار لمحاربة أخيه العادل بمصر وترك نائباً عنه بدمشق ولده الملك المغيث فتح الدين عمر، وشرع الملك الصالح يكاتب عمه الصالح إسماعيل صاحب بعلبك ويستدعيه إليه، وعمه إسماعيل المذكور يتحجج ويعتذر عن الحضور إليه ويظهر له أن معه وهو يعمل في الباطن على ملك دمشق وأخذها من الصالح أيوب، وفي السنة (٦٣٧هـ/١٢٤٠م) سار الملك الصالح إسماعيل صاحب بعلبك ومعه عساكر حمص وهجموا على دمشق وحاصروا القلعة فتسلمها الملك الصالح إسماعيل، وقبض على ولد ابن أخيه^(٢).

٨ - الملك الصالح إسماعيل (٦٣٧هـ/١٢٤٠م):

أما الملك الصالح أيوب فلما بلغه قَصْدُ عمه إسماعيل دمشق، رحل من نابلس إلى الغور فبلغه استيلاء عمه على قلعة دمشق واعتقال ولده المغيث عمر، ففسدت نيات عساكره عليه وشرع الأمراء ومن معه من الملوك يتحركون مفارقين الصالح أيوب إلى الصالح إسماعيل بدمشق، فلم يبقَ عند الصالح أيوب

(١) أبو شامة: ذيل الروضتين ص ٣٢٩ - ابن واصل الحموي: التاريخ الصالحي ص ٧٨ - أبو الفداء: تاريخ أبو الفداء ص ١٦٣.

(٢) ابن واصل الحموي: التاريخ الصالحي ص ٧٩ - البداية والنهاية ج ٣ ص ١٥٣ - أبو الفداء: تاريخ أبو الفداء ص ١٦٣ - ١٦٤ - الحصني: منتخبات التواريخ لدمشق ص ١٧٣.

بالغور غير مماليكه وأستاذ داره، ثم توجه الملك الصالح أيوب إلى نابلس، ونزل بها بمن بقي معه، وكان الملك الناصر داود قد وصل من مصر إلى الكرك فأمسك بالملك الصالح أيوب، واعتقله بالكرك وأمر بالقيام في خدمته بكل ما يختاره، ولما اعتقل الصالح تفرق عنه باقي أصحابه ومماليكه، ولم يبق منهم غير عدة يسيرة، ولما علم الملك العادل أبو بكر صاحب مصر بما جرى للصالح أيوب أرسل يطلبه من الملك الناصر داود، فلم يسلمه الناصر داود، مما دفع العادل إلى تهديد الملك الناصر داود بأخذ بلاده، فلم يلتفت إلى ذلك، وفي رمضان سنة (٦٣٨هـ/١٢٤١م) أفرج الملك الناصر داود عن ابن عمه الملك الصالح أيوب، واجتمعت عليه مماليكه. وتحالف الناصر داود والملك الصالح أيوب على أن تكون ديار مصر للصالح أيوب، ودمشق والبلاد الشرقية للناصر داود^(١). فلما بلغ العادل صاحب مصر ظهور أمر أخيه الصالح عظم عليه وعلى والدته ذلك، ونزل بعسكر مصر على بلبيس لقصد الناصر داود والصالح أخيه، وأرسل إلى عمه الصالح إسماعيل المستولي على دمشق أن يبرز ويقصدهما من جهة الشام فبينما الناصر داود والصالح أيوب في هذه الشدة، وهما بين عسكريين قد أحاطا بهما. إذا ركبت جماعة من المماليك الأشرفية، ومقدمهم أيك الأسمر وأحاطوا بدليلز الملك العادل أبي بكر ابن الملك الكامل، وقبضوا عليه وجعلوه في خيمة صغيرة، وعليه من يحفظه، وأرسلوا إلى الملك الصالح أيوب يستدعونه، فأتاه فرج لم يسمع بمثله، وسار الملك الصالح أيوب، والملك الناصر داود إلى مصر، ودخل قلعة الجبل ولما استقر الملك الصالح أيوب في ملك مصر وصحبته الناصر داود حصل عند كل واحد منهما استشعار من صاحبه، وخاف الناصر داود أن يقبض عليه فطلب دستوراً، وتوجه إلى بلاده الكرك^(٢)، وعندما

(١) أبو شامة: الذيل على الروضتين ص ٣٣٢ (الموسوعة الشامية ج٢٠).

(٢) أبو شامة: الذيل على الروضتين ص ٣٣٢ . (الموسوعة الشامية ج٢٠). ابن كثير: البداية والنهاية

ج١٣ ص ١٥٤ . أبو الفداء: تاريخ أبو الفداء ص ١٦٦.

علم صاحب دمشق الملك الصالح إسماعيل بما آل إليه أمر ابن أخيه الصالح أيوب من تملكه لمصر وأجس منه خيفة، وحمله الخوف والحسد على أن يستجير بالإفرنج، ويسلم لهم لقاء مساعدتهم له صفد والشقيف، وذلك سنة (٦٣٨هـ/١٢٤١م)^(١) فوقع عمله هذا من جميع المسلمين موقع الاستياء، وثار عليه ثائرهم، وفارقه عدد كبير من علمائهم، والتجأوا إلى الصالح أيوب بمصر، حيث تلقاهم بالاحترام والإكرام، وبقي الأمر على ذلك إلى أن ترددت الرسل في سنة (٦٤١هـ/١٢٤٤م) بين الصالح أيوب صاحب مصر، وبين عمه الصالح إسماعيل صاحب دمشق على أن يرد إليه ولده المغيث عمر المعتقل في قلعة دمشق، وتستقر دمشق في يد الصالح إسماعيل فوقع على ذلك، وخطب للصالح أيوب بدمشق، لكن وزير الصالح إسماعيل لم يرق له هذا الاتفاق (أمين الدولة أبو الحسن غزال المسلماني) فخاف من غائلة هذا الأمر، فقال للصالح إسماعيل «لا ترد هذا الغلام لأبيه تخرج البلاد من يدك، هذا خاتم سليمان بيدك للبلاد» فعند ذلك أبطل ما كان وقع من الصلح ورد الغلام إلى القلعة، وقطعت الخطبة للصالح أيوب، ووقعت الوحشة بين الملكين^(٢).

وفي سنة (٦٤٢هـ/١٢٤٥م) استنفر الملك الصالح أيوب الناس لمحاربة عمه والإفرنج وبدأوا بمدينة غزة، وفيها وصلت الخوارزمية إلى غزة باستدعاء الملك الصالح أيوب لهم لتصرفته على عمه الصالح إسماعيل وحلفائه (الملك الناصر داود صاحب الكرك، والملك المنصور إبراهيم صاحب حمص)، واجتمع الفريقان في غزة، وكان على قيادة الجند المصري ركن الدين بيبرس، ونشب القتال بينهما فانصرفت قوات الملك الصالح أيوب على قوات الحلف الشامي والجيوش الصليبية، واستولوا على غزة والسواحل كلها، وكانت موقعة غزة موقعة رهيبة

(١) أبو شامة: الذيل على الروضتين ص ٢٣٤. الموسوعة الشامية ج ٢٠.

(٢) سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان ج ٢ ص ٨٤. المقريزي: السلوك ج ١ ص ٢١٦. ابن كثير:

البداية والنهاية ج ١٢ ص ١٥٥. ١٥٦. ١٦٢. أبو الفداء: تاريخ أبو الفداء ص ١٧٢.

حيث قدر عدد قتلى الصليبيين بأكثر من ثلاثين ألفاً، في حين سيق ثمانية من الأسرى إلى مصر^(١).

ويصف المقرئزي اشتراك أولئك الأيوبيين مع الصليبيين ويقول: «وقد رفع الفرنج الصليبان على عكسر دمشق، وفوق رأس المنصور صاحب حمص»^(٢). بعد ذلك زحفت قوات الصالح أيوب والخوارزميين إلى دمشق، وذلك سنة (٦٤٣هـ/١٢٤٥م) وحاصروها، ولما ضاق صاحب دمشق ذرعاً بحصار صاحب مصر له، سىّر الصالح إسماعيل وزيره أمين الدولة إلى العراق مستشفعاً بالخليفة ليصلح بينه وبين ابن أخيه، فلم يجب الخليفة إلى ذلك^(٣).

وجرت بعد ذلك مشاورات بين أمين الدولة وزير الصالح إسماعيل ومعين الدولة بن الشيخ صاحب الصالح أيوب، تم بموجبها الاتفاق على تسليم دمشق إلى الصالح أيوب، على أن يستقر الصالح إسماعيل في بعلبك وبصرى، وتبقى حمص وما هو مضاف إليها بيد صاحبها. وبعد خروج الصالح إسماعيل إلى بعلبك دخل عسكر الصالح أيوب إلى دمشق، يتقدمهم معين الدين حسين ابن شيخ الشيوخ صدر الدين بن الشيخ، وكان نائباً عن الملك الصالح أيوب، ونزل في دار سامة وهي الدار المعظمية الناصرية، واستبشر الناس بذلك خيراً^(٤).

(١) أبو شامة: ذيل الروضتين ص ١٧٤ - المقرئزي: السلوك ق١ ج١ ص ١٢٧ - كرد علي: خطط الشام ج٢ ص ١٠٤.

(٢) المقرئزي: السلوك ق٢ ج١ ص ١٢٧.

(٣) محمد كرد علي: خطط الشام ج٢ ص ١٠٥.

(٤) أبو شامة: ذيل الروضتين ص ٣٤٤ - ٢٤٥ - ابن كثير: البداية والنهاية ج١٣ ص ١٦٥ - أبو الفداء: تاريخ أبو الفداء ص ١٧٤.

٩ - الصالح نجم الدين أيوب بن الكامل محمد المرة الثانية،

(١٢٤٥هـ/١٢٤٥م):

ويعد أن جرى تسليم دمشق إلى أنصار الملك الصالح أيوب، مرض معين الدولة بن الشيخ فيها وتوفي، وكان قد دخل دمشق قبل وفاته من قبل الملك الصالح أيوب، حسام الدين بن أبي علي، على رأس العسكر المصري فبقي حسام الدين بن أبي علي نائباً بدمشق للملك الصالح أيوب^(١).

ولم تلبث أن ساءت العلاقة بين الصالح نجم الدين أيوب والخوارزميين، ذلك أن الخوارزميين كانوا يأملون من الصالح أيوب أن يكافئهم بعد أن أعانوه في الحرب ضد عمه الصالح إسماعيل صاحب دمشق، وظنوا أنه سيجزل لهم بالعطاء بعد أن ساعدوه في التغلب على خصومه، وفي تملك دمشق، ويسمح لهم بالاستقرار في مصر، غير أن الصالح أيوب خشي مما سيترتب على دخولهم مصر من إضرار بالبلاد فسمح لهم بالاستقرار في بلاد الشام على حساب الصليبيين، وبعد استيلائه على دمشق منعهم من دخولها وأقطعهم الساحل فتغيرت نياتهم عليه^(٢).

راسل الخوارزميون الملك الصالح إسماعيل وتحالفوا معه على الصالح أيوب وقاموا مجتمعين بمحاصرة دمشق، فأحاطوا بها، ونصبت على دمشق المجانيق، ورميت به من باب الجابية والصغير ونصب من داخل البلد منجنقات أيضاً، وترامى الفريقان، وأمر بتخريب حارة العقيبة خارج باب الفراديس وباب السلامة، وباب الفرع، وأحرق حكر السماق خارج باب النصر، واشتد الحصار

(١) ابن كثير: البداية والنهاية ج ١٣ ص ١٦٦ - أبو شامة: ذيل الروضتين ص ٣٤٨.

(٢) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة ج ٦ ص ٣٢٤ - المصري: السلوك ق ١ ج ١ ص ٣٢٢.

بدمشق وامتد شهوراً^(١). وفي هذا الحصار قام الخوارزميون بإحراق قصر حجاج^(٢) والشاغور ومساجد وخانات ودور عظيمة^(٣).

وضاقت الأحوال بالدمشقيين حيث بلغت غرارة القمح ستمائة درهم ناصرية وبيع الخبز كل رطل بثلاثة دراهم أو أربعة دراهم، وتمادى الناس في الطرقات، وكانوا يطلبون لقمة ثم صاروا يطلبون فلساً، يشترون به نخالة يبلونها ويأكلونها كما تطعم الدجاج، وقام حسام الدين بن أبي علي بحفظ المدينة^(٤). واشتد الحصار حتى بلغ الجهد من أهلها مبلغه، غير أن الصالح نجم الدين أيوب لم ييأس في ذلك الموقف بل لجأ إلى أعمال الحيلة والتدبير، فاستمال إليه المنصور إبراهيم صاحب حمص، كما اتفق مع الحلبيين على محاربة الخوارزميين، وبعد ذلك سار بنفسه بجيوش مصر إلى بلاد الشام، بينما سار المنصور إبراهيم صاحب حمص بعساكر حلب قاصداً دمشق، ومعه جمع من التركمان والأعراب، وعندما علم الخوارزمية بتوجه الملك الصالح أيوب من مصر والملك المنصور لاستنفاد دمشق من أيديهم ساروا عنها، ووقع قتال بينهم وبين الحلبيين بقيادة المنصور إبراهيم والمصريين بقيادة الصالح أيوب بين بعلبك وحمص، وأنزلت بهم هزيمة ساحقة فتبدد شملهم وسببت نساؤهم، ولم تقم لهم قائمة بعد تلك الهزيمة^(٥).

وضعف أمر الصالح إسماعيل مما اضطره إلى أن يستجير بالملك الناصر يوسف صاحب حلب، وأرسل الصالح أيوب يطلبه، فلم يسلمه الناصر يوسف

(١) ابن كثير: البداية والنهاية ج ١٣ ص ١٦٢ - الحصني: منتخبات التواريخ لدمشق ص ١٧٤.

(٢) قصر حجاج: محلة كبيرة في ظاهر باب الجابية من مدينة دمشق منسوب إلى حجاج بن عبد الملك بن مروان - ياقوت: معجم البلدان ج ٤ ص ١١٠.

(٣) أبو شامة: ذيل الروضتين ص ١٧٥ - ابن ثعري بردي: النجوم الزاهرة ج ٦ ص ٣٥٥ - المقرئ: السلوك ق ٢ ج ٢ ص ٣٢٢.

(٤) أبو شامة: ذيل الروضتين ص ٣٤٩ - ٣٥٠ - أبو الفداء: تاريخ أبو الفداء ص ١٧٤ - ابن كثير: البداية والنهاية ص ٣٤٩ - ٣٥٠، المقرئ: السلوك ق ٢ ج ١ ص ٣٢٢.

(٥) ابن تعري بردي: النجوم الزاهرة ج ٦ ص ٣٢٢ - ٣٢٥ - أبو شامة: ذيل الروضتين ص ١٧٨.

إليه ، ولما جرى ذلك رحل حسام الدين نائب الملك الصالح أيوب على دمشق بمن عنده من العسكر بدمشق، ونازل بعلبك وبها أولاد الصالح إسماعيل وحاصرها وتسلمها بالأمان، وحمل أولاد الصالح إسماعيل إلى الملك الصالح أيوب بديار مصر فاعتقلوا هناك، وكذلك بعث بأمين الدولة وزير الملك الصالح إسماعيل، فاعتقل بمصر أيضاً^(١).

وتابع عسكر الصالح أيوب بقيادة فخر الدين يوسف بن شيخ الشيوخ فلؤل الخوارزميين الذين خدموا عند الناصر داود صاحب الكرك، والتقى الجانبان في ناحية الصلت، وهزم الخوارزميون، وفر الناصر إلى الكرك مع جماعة من أتباعه، وقد استولى فخر الدين على سائر بلاد الناصر داوود، فضعف الناصر داوود وطلب الأمان لنفسه من الأمير فخر الدين، غير أنه لم يجبه إلى طلبه إلا بشرط أن يسلم إليه من عنده من الخوارزميين فسيرهم الناصر إليه، وسار عن الكرك وهم في خدمته^(٢).

وهكذا تم القضاء على نفوذ الخوارزميين في بلاد الشام وانتهت فعاليتهم فيها في سنة (٦٤٤هـ/١٢٤٦م) وفي سنة (٦٤٤هـ/١٢٤٥م)، دخل الملك الصالح نجم الدين أيوب بن محمد بن أبي بكر بن أيوب دمشق، وكان يوماً عظيماً بكثرة الخلق والزينة وفرق بدمشق نحو تسعين ألف درهم على الفقراء. وفي سنة (٦٤٥هـ/١٢٤٦م) عاد الملك الصالح أيوب إلى مصر بعد أن جعل الأمير جمال الدين بن مطروح نائباً عنه بدمشق، وفي سنة (٦٤٦هـ/١٢٤٧م)

(١) المقرئزي: السلوك ق٢ ج١ ص ٣٢٢. ٣٢٣. أبو المحاسن: النجوم الزاهرة: ج٦ ص ٢٢٤. ٢٢٥. أبو شامة: ذيل الروضتين ص ٣٢١ (الموسوعة الشامية ج٢٠).
(٢) المقرئزي: السلوك ق٢ ج١ ص ٣٢٥.

تمرضت دمشق لهجوم من قبل صاحب حلب وحمص حيث استولى عليها وأخرج منها عامل الصالح أيوب^(١).

وعندما علم الصالح أيوب ما حلّ بدمشق خرج بنفسه من مصر فوصل دمشق وهو مريض ووجه العساكر لاسترجاع حمص، وبينما هو على ذلك وردت إليه الأخبار بأن فرنج الحملة السابعة حاصروا دمياط فأصلح ما يحتاج إلى الإصلاح من أحوال دمشق، وعزل نائبه عنها جمال الدين بن مطروح واستتاب جمال الدين بن يغمور، وكان ذلك في سنة (٦٤٧هـ/١٢٤٨م) وتم عقد الصلح مع صاحب حلب ثم انكفأ الصالح أيوب راجعاً إلى مصر، وأرسل حسام الدين بن أبي علي أمامه إلى مصر لينوب عنه بها، وكان المرض قد اشتد على الملك الصالح نجم الدين، ووصل إلى مصر بتلك الحالة، وفي السنة نفسها توفى الملك الصالح نجم الدين أيوب في شهر شعبان وهو في حالة الجهاد والغزو ضد الحملة الصليبية الأولى للملك لويس التاسع، ولما مات خلفته أرملته شجر الدر لبعض الوقت ثم أقام رجال الحل والعقد لدولته ابنه الملك المعظم توران شاه الذي وافاه الخبر بذلك وهو مقيم بحصن كيفا أحد حصون الجزيرة نائباً عن أبيه^(٢).

١٠- الملك المعظم توران شاه بن الصالح أيوب (٦٤٧هـ/١٢٤٨م)

دخل توران شاه دمشق في التاسع والعشرين من رمضان فنزل بالقلعة وأقام بها وأحسن إلى أهلها ثم سافر إلى مصر بعد أن أقر الأمير جمال الدين موسى بن يغمور نائباً عليها^(٣)، وفي هذه السنة كان الفرنجة قد استولوا على دمياط

(١) أبو شامة: المصدر نفسه ص ٣٥٢. ٣٥٣. ٣٥٤. أبو الفداء: تاريخ أبو الفداء ص ١٧٥. ١٧٦. ١٧٧. ابن كثير: البداية والنهاية ج ١٣. ص ١٧١. ١٧٢. ١٧٣، الحصني: المرجع السابق ص ١٧٤. المقرئزي: السلوك ق ٢ ج ١ ص ٣٢٥.

(٢) أبو شامة: المصدر السالف: ص ٣٦٢. ابن كثير: البداية والنهاية ج ١٣ ص ١٧٤. أبو الفداء: تاريخ أبو الفداء ص ١٧٩. ١٨٠. الحصني: منتخبات التواريخ ص ١٧٥.

(٣) أبو شامة: المصدر نفسه ص ٣٦٢. أبو الفداء: تاريخ أبو الفداء ص ١٨٠. ١٨١. ابن العبري: تاريخ مختصر الدول ص ٢٥٨ - ٢٥٩. الحصني: المرجع نفسه ص ١٧٥.

وحاولوا الوصول إلى المنصورة، لكن المصريين استطاعوا أن يدبروا كيداً للفرنج الذين طمعوا بمصر، وتركوهم يعبرون الخليج من النيل، وهو بين البرّين، برّ دمياط، وبرّ المنصورة. فتوجهوا نحوهم والتقى العسكران واقتتل الفريقان قتالاً شديداً، وانجلى المعركة بهزيمة الفرنج حيث منعهم الخليج المذكور من أن يفوزوا وينجوا بأرواحهم وغرق منهم خلق كثير، وقتل آخرون، وأسر ملكهم، فرنسيس، ومعه جماعة من خواصه ولما أصبح ملك الفرنجة في قبضة الملك المعظم توران شاه، قام مماليك توران شاه بالعمل على المصالحة مع الملك فرنسيس لكي تستقر أمور البلاد بيده، وجرت المصالحة بين الطرفين، على تسليم دمياط بما فيها من الأموال والجواهر التي للملك إلى المصريين على أن يذهب ملك الفرنجة في حال سبيله، وكانت هذه المصالحة كما وردت برأي مماليك توران شاه دون الرجوع إلى رأي مماليك أبيه، فساءهم ذلك ودبروا مؤامرة للتخلص منه، حيث عمدوا إلى قتله يوم الاثنين من شهر محرم سنة (٦٤٨هـ/١٢٥٨م)، وكان أول من شهر السلاح عليه المملوك بيبرس، وهو الذي صار سلطاناً فيما بعد^(١). ويذكر أن السلطان توران شاه كان قد أرسل غفارة الملك فرنسيس المأسور إلى نائبه بدمشق (الأمير جمال الدين موسى بن يغمور)، فلبسها وحسب ما وصفها أبو شامة تتكون من (اشكير لاط أحمر تحته فرو سنجاب وفيها بكلة ذهب)^(٢).

١١ - الناصر صلاح الدين يوسف بن العزيز: (٦٤٨هـ/١٢٥٠م):

لم تكن دمشق بعيدة عن الأحداث التي تشهدها القاهرة حيث أنها كانت تشكل معها دولة واحدة يحكمها الصالح أيوب، ومن بعده ابنه توران شاه، وعلى أثر وفاة الصالح أيوب، وفي خضم الأحداث التي كانت تحصد الأيوبيين

(١) ابن كثير: البداية والنهاية ج١٣ ص ١٤٩ - أبو الفداء: تاريخ أبو الفداء ص ١٨٢ - ١٨٣ - ابن العبري: تاريخ مختصر الدول ٢٥٩ - ٢٦٠.

(٢) أبو شامة: ذيل الروضتين ص ٣٦٤.

بمصر، تملك الناصر يوسف بن العزيز محمد بن الظاهر صاحب حلب دمشق، وقد كان برفقته أثناء الزحف على دمشق، معظم ملوك بني أيوب ومنهم الصالح إسماعيل بن العادل، وكان أحق الموجودين بالملك، ومنهم الناصر داود بن المعظم بن العادل، والأشرف موسى بن المنصور إبراهيم بن أسد الدين شيركوه، الذي كان صاحب حمص وغيرهم، فجاؤوا إلى دمشق فحاصروها فملكوها سريعاً، ثم جلس الناصر يوسف في القلعة، وطيب قلوب الناس، وعندما رأى الدمشقيون وأمراؤهم تلاعب المصريين بمنصب السلطنة من تولية امرأة، إلى إقامة مملوك إلى تنصيب صبي، ساءهم ذلك، فأجمعوا أمرهم على محاربتهم، فجهز الملك الناصر يوسف جنوداً من دمشق، واستعان ببعض أمراء الأسرة الأيوبية^(١)، وسار من دمشق فكان اللقاء بالعساكر المصرية والقتال بالعباسية خارج القاهرة، وانكسر المصريون أولاً، ثم أعادوا الكرة، وانتصروا على الدمشقيين نصراً كبيراً، وهزموهم وتعقبوهم إلى غزة، حيث استولوا عليها، ثم وقع الصلح بينهم سنة (٦٥١هـ/١٢٥٣م) على أن يكون الحد الفاصل بين الإقليمين نهر الأردن، حيث أن شماليه يتبع للملك الناصر يوسف صاحب دمشق، وما على جنوبه للملك الأشرف وشريكه عز الدين أيبك، وفي سنة (٦٥٢هـ/١٢٥٤م) عزل عز الدين أيبك الملك الأشرف، واستقل بالمملكة المصرية^(٢) ثم نقض الصلح الموقع بينه وبين صاحب دمشق، وفي سنة (٦٥٣هـ/١٢٥٥م)، تجدد العهد على أن يكون الحد الفاصل بين الإقليمين العريش، واستمر العهد إلى (٦٥٦هـ/١٢٥٨م) حيث اصطدم جيش الناصر يوسف صاحب دمشق مع المماليك البحرية بعد هجومهم على صاحب الكرك فكسر جيش الناصر يوسف وكسرهم البحرية بزعامة ركن الدين بيبرس، وفي هذه

(١) أبو شامة: المصدر السالف ص ٣٦٦. ابن كثير: البداية والنهاية: ص ١٧٩. أبو الفداء: تاريخ أبو الفداء ص ١٨٢ - ١٨٣.

(٢) البداية والنهاية: ج ١٣ ص ١٧٩. أبو الفداء: تاريخ أبو الفداء: ص ١٨٤ - ١٨٥.

السنة كانت وفاة الملك الناصر داوود بن المعظم عيسى بن العادل، بقرية البويضة ظاهر دمشق فخرج الملك الناصر يوسف صاحب دمشق من المدينة إلى البويضة، وحمل جنازته ودفن بالصالحية بترية والده المعظم عيسى، والفرق بين داود ويوسف هذين، وإن كان كل منهما يلقب بالملك الناصر، أن الناصر داود من ذرية الملك العادل بن أيوب أخي صلاح الدين، وأن الناصر يوسف من ذرية صلاح الدين نفسه، وفي السنة التي مات فيها الناصر داوود دخل المغول بغداد وقضوا على الخلافة العباسية^(١).

وفي سنة (٦٥٧هـ/١٢٥٩م) كان سلطان دمشق وحلب الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن العزيز وقد أرسل إليه هولاءكو يستدعيه إليه، فأرسل إليه الناصر ولده العزيز وهو صغير ومعه هدايا كثيرة وتحف، فلم يحتفل به هولاءكو، بل غضب على أبيه لعدم إقدامه إليه وأخذ ابنه، وقال: أنا أسير إلى بلاده بنفسي، فأنزعج الناصر لذلك، وبعث بحريمه وأهله إلى الكرك ليحصنهم بها وخاف أهل دمشق خوفاً شديداً، وقد جفل كثير منهم إلى مصر في زمن الشتاء، وأقبل هولاءكو بقصد الشام بجنوده وعساكره، وقد امتنعت عليه ميافارقين مدة سنة ونصف السنة، فأرسل إليها ولده /أشموط/ فاستولى عليها قسراً وأنزل ملكها الكامل بن الشهاب غازي بن العادل فأرسله إلى أبيه هولاءكو، وهو محاصر حلب فقتله بين يديه، واستتاب عليها بعض مماليك الأشرف، وطيف برأس الكامل في البلاد، ودخلوا برأسه إلى دمشق، فنصب على باب الفراديس البراني، ثم دفن بمسجد الرأس داخل باب الفراديس^(٢).

وعلى إثر هذه الأحداث قام الناصر بإرسال وزيره كمال الدين عمر بن أبي جرادة المعروف بابن العديم إلى الديار المصرية رسولاً من قبله يستجد بالمصريين

(١) أبو شامة: المصدر السالف ص ٣٩٥ - ابن كثير: البداية والنهاية ج ١٣ - ص ٢٠٤ - أبو الفداء: تاريخ أبو الفداء ص ١٩٠ - ١٩١ - ١٩٣ - ١٩٥ - ١٩٨ - الحصني: منتخبات التواريخ لدمشق ص ١٧٦ - ١٧٧.
(٢) أبو شامة: المصدر السالف ص ٤٠١ - ٤٠٢ - ٤٠٦ - البداية والنهاية: ج ١٣ - ص ٢١٥ - أبو الفداء: ص ١٩٩.

على قتال المغول، وأنهم - أي المغول - قد اقترب قدومهم إلى الشام، وقد استولوا على بلاد الجزيرة وغيرها، وقد جاز أشموط بن هولكو الفرات، وقرب من حلب، فعند ذلك عقد المصريون مجلساً بين يدي المنصور بن المعز التركماني، وحضره قاضي مصر بدر الدين السنجاري، والشيخ عز الدين بن عبد السلام، وتفاوضوا الكلام فيما يتعلق بأخذ شيء من أموال العامة لمساعدة الجند، وكانت العهدة على ما يقوله ابن عبد السلام، وحاصل كلامه أنه قال: (إذا لم يبق في بيت المال شيء، ثم أنفقتم أموال الحوائض المذهبة من الفضة والزينة وتساويتم أنتم والعامة في الملابس سوى آلات الحرب، بحيث لم يبق للجندي سوى فرسه التي يركبها، ساع للحاكم حينئذ أخذ شيء من أموال الناس في دفع الأعداء، لأنه إذا دهم العدو البلاد، وجب على الناس كافة دفعهم بأموالهم وأنفسهم)^(١).

ولما بلغ الملك الناصر يوسف صاحب دمشق قصد المغول حلب، برز من دمشق إلى برزة في أواخر سنة (٦٥٧هـ/١٢٥٩م) وقصده صاحب حماة الملك المنصور، وكان مع الملك الناصر يوسف بيبرس البندقداري الذي التجأ إليه على إثر هربه من الكرك، فاجتمع مع الملك الناصر في برزة أمم عظيمة من العساكر، ولما دخلت سنة (٦٥٨هـ/١٢٦٠م)، علم الملك الناصر بمؤامرة تحاك ضده من قبل مماليكه، الفاية منها التخلص منه، فهرب من الدهليز إلى قلعة دمشق، ولما علم مماليكه بانكشاف خطتهم هربوا إلى جهة غزة، وأشاع المماليك الناصرية أنهم لم يقصدوا قتل الملك الناصر، وإنما كان قصدهم أن يقبضوا عليه، ويسلطوا أخاه الملك الظاهر غازي بن محمد بن الملك الظاهر غازي بن السلطان صلاح الدين لشهامته^(٢)، ولما جرى ذلك هرب الملك المذكور خوفاً من أخيه الملك الناصر يوسف، ووصل الملك الظاهر غازي إلى غزة، واجتمع عليه من بها من

(١) ابن كثير: البداية والنهاية ج ١٣ ص ٢١٥.

(٢) أبو الفداء: ص ٢٠٥.

العساكر وأقاموه سلطاناً، ولما جرى ذلك كاتب بيبرس البندقداري الملك المظفر قطز صاحب مصر، فبذل له الأمان، ووعدته الوعود الجميلة، ففارق بيبرس الشاميين، وسار إلى مصر في جماعة من أصحابه^(١). وفي خضم هذه الأحداث كان المغول قد وصلوا إلى حلب بعد قطعهم الفرات وحاصروها سبعة أيام ثم أخذوها بالأمان، ثم غدروا بأهلها، ولم سقطت حلب سار كبراء حماة بمفاتيحها إلى هولاكو في حلب، فاستتاب عليها رجلاً من العجم كان يدعى أنه من ذرية خالد بن الوليد، يقال له (خسروشاه) فخرب أسوارها كمدينة حلب، ولما بلغ الملك الناصر يوسف بدمشق أخذ حلب، رحل من دمشق بمن بقي معه من العسكر إلى جهة الديار المصرية وفي صحبته الملك المنصور صاحب حماة، وترك دمشق لمصيها المجهول، وعندما وصل إلى غزة انضم إليه مماليكه الذين كانوا قد أرادوا قتله من قبل، وكذلك اصطالح معه أخوه الملك الظاهر غازي، وانضم إليه ثم رحل الناصر من غزة إلى العريش، وسير القاضي برهان الدين بن الخضر رسولاً إلى المظفر قطز صاحب مصر يطلب منه المعاوضة، وعندما وصلوا إلى مشارف مصر، خاف الملك الناصر أن يدخل مصر فيقبض عليه، وتابع الملك المنصور صاحب حماة مع العساكر الرحيل إلى مصر، ثم اتجه الملك الناصر بمن بقي معه من الجند إلى صحراء سيناء^(٢). وبقي متحيراً إلى أين يتوجه، وعزم على التوجه إلى الحجاز، وكان له طبردار كردي، اسمه حسين فحسن له المضي إلى المغول، وقصد هولاكو فاغتر بقوله ونزل ببركة زيزاء^(٣). وسار حسين الكردي إلى كتبغا نائب هولاكو، وعرفه بموضع الملك الناصر فأرسل كتبغا إليه، وقبض عليه وأحضره إلى عجلون، وكانت ما تزال عاصية عليه، فأمرهم الملك الناصر بتسليمها فسلمت إليهم فهدموها، ثم أتوا بالسلطان الناصر يوسف إلى

(١) أبو الفداء: ص ٢٠٠ - البداية والنهاية ج ١٣ ص ٢٢٠.

(٢) أبو الفداء: تاريخ أبو الفداء ص ٢٠١ - ٢٠٢.

(٣) قرية من قرى البلقاء الكبيرة، والبلقاء كورة من أعمال دمشق يطرها الحاج ويقام بها لهم سوق وفيها بركة عظيمة (ياقوت: معجم البلدان ج ٢ ص ٩٦٦).

دمشق مع من قدم من الكرك من الدمشقيين الذين كانوا هربوا إليها، وبعد ذلك قام كتبغا بإرسال الملك الناصر يوسف إلى هولوكو، ومعه ابنه العزيز وسار كتبغا إلى دمشق، ثم إلى حماة، وبها الأشرف صاحب حمص فخرج إلى لقائه هو وخسروشاه، النائب بحماة، ثم سار إلى حلب فلما عاينها الملك الناصر، وما قد حلّ بها وبأهلها، تضاعف ألمه وأنشد:

يعز علينا أن نرى ربكم يبلى وكانت به آيات حسنكم تتلى
ثم سار إلى هولوكو، وبقي معه في ذلّ وهوان. ثم قتلوه ببلادهم سنة (٦٥٩هـ/١٢٦١م)^(١) وكان هولوكو وهو مقيم في حلب قد أرسل قائده (كتبغا نوبن) على رأس جيش إلى دمشق، فوصلها في آخر صفر سنة (٦٥٨هـ/١٢٦٠م) وأخذها سريعاً من غير ممانعة ولا مدافع، وقد كتب هولوكو أماناً لأهل البلد فقرئ بالميدان الأخضر، ونودي به في البلد، «هذا والقلعة مستورة وفي أعاليها المجانيق منصوبة، والحال شديدة فأحضرت المغول مجانيق تحمل على عجل، والخيول تجرها، وهم راكبون على الخيل، وأسلحتهم على أبقار كثيرة، فنصبت المجانيق على القلعة من غربيها، وخرّبوا حيطاناً كثيرة، وأخذوا حجارتها، ورموا بها القلعة رمياً متواتراً كالطر المتدارك فهدموا كثيراً من أعاليها وشرفاتها، وتداعت للسقوط، فأجابهم متوليها في آخر النهار للمصالحة فاستولوا عليها، وذلك في نصف جمادى الأولى من هذه السنة» (٦٥٨هـ/١٢٦٠م)، وقتل فيها المغول بدر الدين بن قراجا، ونقيبها جمال الدين بن الصيرفي، وسلّموا البلد والقلعة إلى أمير منهم يقال له أيل سبان^(٢). وهكذا انتهى حكم الأيوبيين في دمشق على يد المغول، وذلك بسبب الفرقة التي أصابتهم، وعدم اتحاد الكلمة فيما بينهم، وخاصة عندما شعروا بخطر المغول. وبقيت

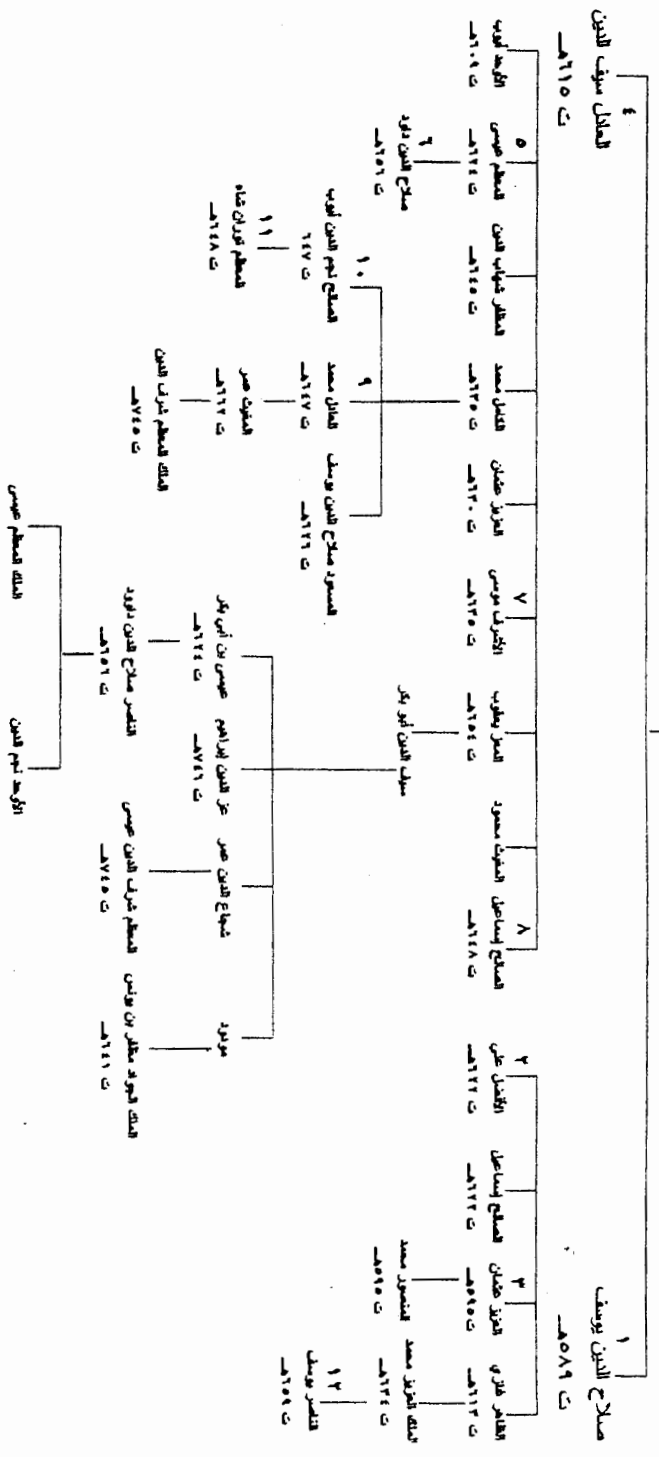
(١) أبو شامة: ذيل الروضتين ص ٤٠٥ - ٤٠٦ - ٤٠٨. أبو الفداء: تاريخ أبو الفداء ص ٢٠٤.

(٢) أبو شامة: المصدر السالف ص ٤٠٥ - ابن كثير: البداية والنهاية: ج ١٣ ص ٢١٨ - ٢١٩. أبو الفداء:

تاريخ أبو الفداء: ص ٢٠٤ - ٢٠٥.

دمشق تواجه مصيرها لوحدها بعد أن تخلى عنها حكامها، وسقط الحكم القائم عليها، لكن دمشق بقيت صامدة تواجه المحتل بكل الطرق المتاحة لديها، ولم تخضع لحكم المغول لفترة طويلة وذلك بسبب اتحاد كلمة المسلمين في مصر والشام، وتحقيق النصر في معركة عين جالوت في شهر رمضان (٦٥٨هـ/١٢٦٠م) وكان خروج المغول منها في شهر رمضان في السنة المذكورة، وعادت دمشق ثانية تخضع لحكام مصر الجدد المماليك، وولّوا عليها الأمير علم الدين سنجر الحلبي الكبير.

تسلسل نسب حكام الأيوبيين في دمشق
 نجم الدين أيوب



الأرقام لسلاطين الأيوبيين الذين كانت لهم السلطة بدمشق مسجلة بحسب ترتيبهم في الحكم

الفصل الثالث

نظم الحكم والإدارة

١ - الإقطاع العسكري ودوره الإداري

كان نظام حكم الأيوبيين في دمشق مستمداً من نظام حكمهم في مصر، والذي كان بالوقت نفسه امتداداً لنظام حكم الزنكيين، ومن قبلهم السلاجقة في بلاد الشام، مع إدخال بعض التعديلات حسبما تقتضيه مصلحة دولتهم حيث كان السلطان الأيوبي هو رأس الحكم في السلطة ويعين نواباً وولاً في الأقاليم.^(١)

وفي العصر الأيوبي كانت علاقة السلطان بالملوك والولاء في الأقاليم علاقة إقطاعية، وهي على نوعين.

النوع الأول: الإقطاع الإداري، المتمثل بقيام السلطان بإقطاع أفراد عائلته، وكبار الأمراء والموظفين وقادة جيشه، مقاطعات السلطنة ليعيشوا منها، ويحافظوا عليها، ويكونوا مسؤولين عنها مقابل تقديمهم عدد من الجند وما يصرف عليهم عندما تستدعي أمور الدولة ذلك، دون أن يدفع لهم رواتب نقدية، وهذا يسمى الإقطاع الإداري، واتفقت هذه الإقطاعات عادة مع وحدة إقليمية إدارية، أما الإقطاع الثاني فهو الإقطاع الحربي، ولم يختلف هذا في أصوله وقواعده ومظاهره عن الإقطاعات السلجوقية، إذا اقترن بما يؤديه المقطع من خدمات حربية وأخضع لسيطرة الحكومة المركزية، ولم يكن وراثياً ومن النادر أن يكون مدى الحياة.

(١) الأصفهاني تاريخ دولة آل سلجوق ص ٥٠٥ - عاشور نظم الحكم والإدارة في عصر الأيوبيين ص

١٠ - حسنين محمد ربيع: النظم المالية في مصر زمن الأيوبيين ص ٢٦

ومن هنا نستطيع القول: إذا أردنا أن نرسم صورة واقعية واضحة لنظم الحكم والإدارة في عصر الأيوبيين، فإن المدخل الطبيعي لهذه الصورة يتمثل في نظام الإقطاع العسكري، الذي طبق على نطاق واسع في ذلك العصر، والذي شكل الإطار الرئيس الذي تطورت داخله الصورة الحقيقية لنظم الحكم والإدارة عندئذ.^(١)

وعندما يتفحص المرء دولة صلاح الدين في أواخر أيامه، يجدها قد أصبحت أشبه بإمبراطورية تضم عدداً من الدول، يربطها بالسلطان نظام الإقطاع العسكري، هذا النظام الذي تطور كما أسلفنا أيام السلاجقة، وأدخلت عليه تعديلات كبيرة، وقد ورث صلاح الدين هذا النظام.^(٢)

ذلك أن الخطأ الكبير الذي يقع فيه كثيرون هو أنهم يظنون أن نظام الإقطاع العسكري بخصائصه المعروفة المرتبطة أساساً بالأرض، ليس إلا ظاهرة اقتصادية لا أكثر، في الوقت الذي أثبتت الدراسة الواعية الجادة أن نظام الإقطاع العسكري، كما عرفته وطبقته العصور الإسلامية، يمثل ظاهرة سياسية اقتصادية حربية اجتماعية إدارية.^(٣)

والإقطاع الذي نقصده في دراستنا والذي عرفته الدولة الإسلامية، وانتقل بأركانه من السلاجقة إلى الأيوبيين فيعني نظاماً محدد الأركان، يقوم في جوهره على أساس فكرة الاستفادة من الأرض مقابل الالتزام بواجبات معينة، وبعبارة أخرى: فإن النظام الإقطاعي الذي نقصده، يعطي فرداً معيناً حق الاستفادة من مساحة محدودة من الأرض داخل إطار مجموعة من الحقوق والواجبات المتبادلة بين المقطع والمقطع.^(٤)

(١) العريني: الإقطاع في الشرق الأوسط - حويلات كلية الآداب بجامعة عين شمس ١٩٥٧ ص ١٤٣ -

عاشور: المرجع نفسه ص ٧

(٢) سهيل زكار: التاريخ العباسي والأندلسي السياسي والحضاري، دمشق ١٩٨١ - ص ٢٠٥

(٣) القلقشندي، صبح الأعشى ج ١١ ص ٢٢ - ٣٤ عاشور: المرجع السالف ص ٨

(٤) العماد: الفتح القسي في الفتح القدسي ص ٣٥١ - ٣٥٢ - عاشور المرجع نفسه ص ٧.

وعندما نتكلم عن نظم الحكم والإدارة في دمشق زمن الأيوبيين، فإن علينا أن ندرك أن هذه البلاد عريقة في تاريخها وحضارتها، وأن لها تراثاً إدارياً وتنظيماً يتفق وأصولها الحضارية.

وكان من المتمذر على دولة جديدة تقوم على أرض دمشق مثل الدولة الأيوبية، ومن بعدها دولة المماليك أن تتكرر لهذا التراث الذي هو ثمرة خبرة الأيام وحصيلة تجارب الدهور، وإنما كانت مضطرة إلى الإبقاء على عناصر أساسية منه وتعديل عناصر أخرى.^(١)

وهكذا يمكن القول: أن ما فعله صلاح الدين الأيوبي، هو أنه طور النظام الإقطاعي الذي وجده في دمشق منطلق من القواعد التي عهدا، ونشأ في ظلها وفي كنف الدولة النورية قبل حضوره ثانية إلى دمشق، قادما من مصر بعد أن ثبت هذا النظام فيها. ومن المتواتر في كتب التاريخ أن نجم الدين أيوب والد صلاح الدين حصل على إقطاع كبير من سيده نور الدين ببلد دمشق، وأن أخاه أسد الدين شيركوه كان إقطاعه في حمص والرحبة وأعمالهما، ومثلهما صلاح الدين على بعض جهات حلب، وكفر طاب، وكل ذلك مقابل الخدمات العسكرية في الدولة النورية، وذلك قبل خروجهم من دمشق إلى مصر.^(٢) وقد لمس هؤلاء ما كان عليه نور الدين محمود من اهتمام بأمر الإقطاع، حرصا على بناء جيشه، فكان كل من يتمتع بإقطاع من الأمراء يلتزم - بما هو مقرر عليه من العدد - أي عدد الجند الذي يتفق وارتضاع إقطاعه، والذين يتعهد بإحضارهم تحت إمرته. إذا دعا داعي الحرب، ويقال أن نور الدين محمود كان يردد: "نحن كل وقت بصدد النفير، فإذا لم يكن أجناد كافة الأمراء كاملي العدد والعدد دخل الوهن في الإسلام."^(٣)

(١) عاشور: المرجع السالف ص ١١.

(٢) الحنبلي: شفاء القلوب في مناقب بني أيوب ورقة ٦ب - ١٧ ابن الأثير: التاريخ الباهر ص ١٢٠ - أبو

شامة: الروضتين في أخبار الدولتين ص ١٢٩ - ١٣٠ - عاشور المرجع نفسه ص ١٢

(٣) أبو شامة: المصدر السالف ج ٢ ص ٦٢، سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان ج ٨ ص ٧٦٦.

ولكي يحبب نور الدين أمراءه في نظام الإقطاع الحربي، لجأ أحيانا إلى توريث الإقطاع إلى أبناء المقطعين وان كان هذا الإجراء لم يمثل القاعدة السائدة بقدر ما عد خروجها عليها.

وهكذا تجمعت كافة العوامل التي جعلت صلاح الدين يتمسك بالنظام الإقطاعي الحربي، ليتخذ دعامة لجيشه من ناحية، ولإدارة دولته الجديدة من ناحية أخرى، وقد أعاد صلاح الدين توزيع الإقطاعيات أكثر من مرة وكذلك فعل خلفاؤه، سواء من الأيوبيين أو من سلاطين المماليك الذين خلفوا بني أيوب في حكم البلاد.^(١)

وفي جميع الحالات ظلت القاعدة العامة الغالبة هي أن يكون الإقطاع شخصيا بحتا، لا دخل لحقوق الملكية أو لأحكام الوراثة فيه، وإنما يستقله المقطع بدل السلطان، ثم يزول كله إلى السلطان بمجرد انتهاء مدة الإقطاع المتفق عليها، أو بسبب وفاة المقطع أو عزله أو إخلاله بشروط العقد القائم.

واقترنت الإقطاعيات على نوعين، الأول: أن يكون للمقطع الحق المطلق في استغلاله، والثاني: أن يكون المقطع مقيدا بشروط يلتزمها أثناء تمتعه باستغلال الإقطاع، وعندما يتسلم المقطع ما انعم عليه من الإقطاع، كتب عليه بالموقعين محضر التسليم بما في ذلك الإقطاع من المال، والخراج، والمساحة والتقاوي، وعدة الفلاحين وحدود الأراضي، والقطع والجسور، فلا يقدر ذلك المقطع أن يتعدى طوره، ولا يأخذ من إقطاعه إلا ما جرت به العادة.^(٢)

وكل ما يعنينا في هذا التعريف بالإقطاع هو تأكيد الصفة الإدارية للإقطاع، إذ كان على المقطع أو صاحب الإقطاع، أن يعمل على حماية القرى الداخلة ضمن إقطاعه من غارات البدو العريان وتوطيد الأمن بين ربوعها

(١) ابن كثير: البداية والنهاية ج ١٣ - ص ٦ - ربيع: النظم المالية في مصر زمن الأيوبيين ص ٣٠ - عاشور: المرجع السالف ص ١٢.

(٢) الاسدي: (محمد بن محمد بن خليل): التيسير والاعتبار والتحرير والاختيار فيما يجب من حسن التدبير والتصرف والاختيار ص ٧٤ - دار الفكر العربي ١٩٦٧.

والضرب على أيدي العابثين والمفسدين، ورعاية الجسور والترع، والقنوات الداخلة في دائرة الإقطاع. وإقرار العدالة بين الفلاحين وإنصاف المظلومين. وجمع الأموال المستحقة وخاصة الخراج، وأموال الزكاة ونحوها، فضلا عن المكوس والضرائب المتنوعة.^(١)

وكانت الدولة أيام هونها ونفاذ كلمتها تحول دون بطش الأمراء الإقطاعيين بالفلاحين وسوء استغلالهم وتجبرهم على الالتزام بالقواعد والأصول المنصوص عليها في المناشير والتوقعيات التي تصدر عن الديوان المختص والتي كانت تشتمل على وصف للإقطاع، وبيان حدوده، وأبعاده من ناحية، ثم تقديم النصح للمقطع بالعناية بعمارة الإقطاع، ومعاملة أهله بالعدل، وتوفير الأمن لهم من ناحية أخرى.^(٢)

وقد توخى السلطان صلاح الدين الأيوبي من إقامة نظام الإقطاع العسكري إقامة العدل، وإزاحة العسف، والجور، ولضمان ذلك قرر شروطا قاسية، ألزم بها نفسه أولا والتزم بها خلفاؤه من بعده، لذلك تشدد الأيوبيون في الإشراف على المقطعين وسعوا إلى الحد من ظلم الفلاحين، ورفع العسف عنهم، وعد ذلك أفضل ما يتقرب به المرء إلى الله بحسب ما جاء في رسالة القاضي الفاضل إلى صلاح الدين، لما عزم على أداء فريضة الحج وأراد صرفه عن ذلك لكثرة المظالم في وادي بردى، وأوضح له فيها أن رفع الحيف والظلم عن الناس خير من التقرب إلى الله. ونورد هنا نص الرسالة لأهمية ما جاء فيها:

”مولانا: مظالم الخلق كشفها أهم من كل ما يتقرب به إلى الله، وما هي بواحد من أعمال دمشق من المظالم من الفلاحين، وما يستغرب معه وقوع القطر، ومن تسلط المقطعين على المقطعين ما لا ينادي وليده في وادي بردى

(١) القلقشندي: صبح الأعشى ج ١١ ص ٢٣ - ٢٤ عاشور: المرجع السابق ص ١٢ - طرخان: النظم الإقطاعية في الشرق الأوسط في العصور الوسطى القاهرة (١٣٨٨ - ١٩٦٨م) ص ٤٤.

(٢) عاشور: المرجع السابق ص ١٢. Poliak: the Ayyubid Feudalism , P430

والزيداني من الفتنة القائمة، والسيف يقطر دما ما لا زاجر له وللمسلمين ثغور
تريد التحصين والذخيرة، ومن المهمات إقامة وجوه الدخل وتقدير الخراج
بحسبها، فمن المستحيل نفقته من غير حاصل، وفرع من غير اصل" (١)

ومع كل ذلك لم يكن الأمراء المقطعين مستقلين، أو شبه مستقلين عن
السلطة المركزية في العاصمة، وانهم كانوا أحرارا فيما يفعلون، وفيما لا
يفعلون، دون أن يخضعوا في تصرفاتهم لإشراف من حكومة البلاد، أو دون أن
تربطهم روابط واضحة بتلك الحكومة، ذلك إننا نلاحظ: أن النظام الإقطاعي
زمن الأيوبيين لم يحدث من الآثار في الجانب الإداري، مثلما أحدث في الغرب
الأوروبي في العصور نفسها. (٢)

ففي الغرب تطور الإقطاع إلى نظام التوريث، ومن ثم وجدت بيوت وأسر
اقتربت أسماؤها بالإقطاع الواحد مئات السنين، مما جعل لها كيانا ثابتا،
واستقلالا ذاتيا في الإدارة، حتى صار لكل إقطاع من الإقطاعيات الكبيرة
قوانينه الخاصة به، وعملته المتداولة داخله، ونظامه الضرائبي المطبق فيه، أما
في بلاد الشام ومصر زمن الأيوبيين، فإن الإقطاع لم يورث إلا في حالات نادرة
ومعدودة. (٣) ومن ثم ظل الإقطاع ينتقل من مقطع إلى آخر لا يمت له بصلة، مما
لم يتح الفرصة لبيت معين أن يرسخ أقدامه في منطقة بذاتها، ليستقل بإدارة
شؤونها، يضاف إلى ذلك أن السلطة المركزية في العاصمة حرصت على أن
تحقق إشرافها من كافة أنحاء البلاد عن طريق نظام إداري محكم يتمثل في
عدد من الأجهزة التي امتدت اختصاصاتها إلى مختلف أركان الدولة، وعدد من

(١) أبو شامة: الروضتين ج ٢ ص ٢٠٥

(٢) عاشور: المرجع السالف ص ١٤ - حسنين محمد ربيع: النظم المالية في مصر زمن الأيوبيين - جامعة
القاهرة ١٩٦٤ ص ٨٠

(٣) أبو شامة: الروضتين ج ١ ص ٨ - اشتور: التاريخ الاقتصادي والاجتماعي في العصور الوسطى ترجمة
عبد الهادي عبلة دار قتيبة للنشر ١٩٨٠ - ص ٣٠٢

الموظفين الذين انتشروا في كل زاوية من زواياها وفق نظام تسلسلي محكم بدأ بالعاصمة وانتهى بالقرية.^(١)

ولم تلبث بلاد الشام بعد وفاة السلطان صلاح الدين (سنة ٥٨٩هـ/١١٩٣م) أن مرت بمراحل عصيبة اضطربت فيها أحوال البلاد، وتصادمت مصالح أبناء البيت الأيوبي وكثرة حروبهم وتغيرت الأوضاع السياسية والجغرافية لممالكهم تغيراً سريعاً، ويعنيها من الناحية الإدارية. إن كل وحدة من الوحدات الكبرى التي انقسمت إليها بلاد الشام، أطلق عليها اسم مملكة وأطلق على صاحبها اسم ملك، فكان يقال لها مملكة حلب، مملكة حمص، مملكة حماة، وكان من المفترض أن ترتبط هذه الممالك بصورة أو أخرى بالسلطان الأيوبي، الذي يأتي على رأس الدولة، والذي كان من المفترض فيه أن يكون خليفة صلاح الدين في زعامتها. وعند وفاة صلاح الدين كانت السلطنة لابنه الأفضل صاحب دمشق، وكان من المفترض أن تكون له السلطة العليا في بقية أنحاء الدولة الأيوبية، ولكن الملاحظ في العصر الأيوبي: أن هذه السيادة لم تتحقق على كافة ممالك الدولة وأقاليمها لأي سلطان بعد وفاة صلاح الدين، لاعتقاد مختلف الملوك من بني أيوب في أن كلا منهم اكتسب حقه في الملك عن طريق الوراثة، وبحكم صلة القرى التي ربطته، وربطت آباءه بصلاح الدين، دون أن يكون للسلطان القائم فضل عليه فيما ينعم به من ملك، مما أوقعهم جميعاً في منازعات لم تنته إلا بنهاية دولة بني أيوب.^(٢)

٢ - أهم المناصب الإدارية زمن الأيوبيين في دمشق:

السلطان:

وجاء على رأس جهاز الحكم زمن الأيوبيين، ويلاحظ أن استخدام حكام مصر والشام لهذا اللقب جاء أمراً جديداً، استحدثه الأيوبيون لأول مرة، ومن وظائف السلطان تجنيد الجنود وإقامة فرض الجهاد، وإعلاء كلمة الله تعالى، ومن وظائفه أن ينظر في الاقطاعات، ويضعها موضعها وكذلك المحافظة على

(١) عاشور: المرجع السالف ص ١٤

(٢) أبو المحاسن: النجوم الزاهرة ج ٦ ص ١٢٢ وما بعد.

بيت مال المسلمين، ومن وظائفه النظر في الدين والصلوات^(١). ويمكن القول: أن صلاح الدين لم يخرج عن هذه الوظائف الجمعاء، وهذا يتضح لنا من خلال مسيرة حياته التي عاشها بين الاهتمام بأمور الدولة، ومتابعة شؤونها، وجهاده الطويل مع الصليبيين، ويبدو أن صلاح الدين الذي استطاع عقب وفاة سيده نور الدين (سنة ٥٦٩هـ/١١٧٤م) أن يقيم دولة جديدة حلت محل الدولة الفاطمية، واتخذ رأسها لقب السلطان، وهو لقب جديد استحضره الأيوبيون معهم من الشرق من جملة ما استحضروه من نظم عرفها السلاجقة، وطبقوها^(٢).

على أنه يلاحظ:

إن صلاح الدين مؤسس الدولة الأيوبية لم يتخذ لقب سلطان، ولا يوجد دليل يشير إلى أنه اتخذ هذا اللقب ونعت به نفسه، وإنما الغالب أن معاصريه من المؤرخين وغير المؤرخين هم الذين لقبوه بلقب سلطان تعظيماً له، واعترافاً بمكانته، وتقديراً لدوره الخالد في الجهاد، وبعد ذلك تمسك خلفاء صلاح الدين بلقب سلطان حتى غدا اللقب الرسمي للحاكم الأعلى طول عصر الدولة الأيوبية^(٣).

نائب السلطان:

كان أول من استحدث هذه الوظيفة صلاح الدين، لأن انشغاله بأمر الجهاد جعله كثير التغيب عن دمشق، وكان لزاماً عليه أن يترك شخصاً يعتد عليه في حكم البلاد، وإدارة شؤونها أثناء غيابه، لذلك استحدث صلاح الدين - لأول مرة - وظيفة نائب السلطان عندما غادر مصر متجهاً إلى بلاد الشام، وهي الوظيفة التي ظلت قائمة بعد ذلك طوال عصري الأيوبيين والمماليك، ومن الواضح أن الاختصاص الأول لنائب السلطنة - وفق الهدف الأساسي من إنشاء

(١) السبكي: (تاج الدين عبد الوهاب السبكي): معيد النعم ومبيد النقم، الإصلاح السياسي والإداري في الدولة العربية الإسلامية ص ١٨ - ١٩ - ٢٠.

(٢) أبو الفداء: المختصر في أخبار البشر ص ٢١٨ - ٢١٩ - ٢٢٠ - ٢٢١ - ٢٢٩ - ٢٣٠.

(٣) عاشور: المرجع السالف ص ١٤ - ١٥.

هذه الوظيفة على أيام صلاح الدين - هو أن ينوب هذا الموظف الكبير عن السلطان أثناء غيابه^(١). وكان للسلطان نواب في سائر أنحاء السلطنة يتقدم هؤلاء النواب نائب دمشق، ويطلق عليه نائب الشام^(٢). وكان منصب نائب السلطان منصباً حساساً للغاية حتى انه كان ينوب عن السلطان في أمور عظام، وممن تسلم هذا المنصب في دمشق زمن الأيوبيين على سبيل المثال لا الحصر، سيف الإسلام طفتكين، أخو صلاح الدين حيث أن السلطان صلاح الدين استخلفه على دمشق، عندما عزم على توحيد كافة مناطق بلاد الشام، كذلك استخلف صلاح الدين على دمشق الشام سنة (٥٧٦هـ / ١١٨٠ م) ابن أخيه عز الدين فرخشاه، كذلك تولى نيابة دمشق بعد وفاة عز الدين سنة (٥٧٨هـ / ١١٨٢ م) شمس الدين ابن المقدم فرخشاه بن شاهنشاه، وفي سنة (٥٨٢هـ / ١١٨٦ م) تولى نيابة السلطنة عن السلطان صلاح الدين ولده الأفضل، كذلك تولى نيابة السلطنة للسلطان صلاح الدين الأمير الصفي بن الفاضل، وكان من أكابر أصحاب السلطان صلاح الدين قبل الملك استنابه على دمشق حتى وفاته سنة (٥٨٧هـ / ١١٩١ م)^(٣).

كذلك تولى النيابة بدمشق عن السلطان صلاح الدين في سنة (٥٨٧ / ١١٩١ م) بدر الدين مودود الذي جهز الجيوش والتحق بجيوش المسلمين، بقيادة صلاح الدين أمام أسوار عكا^(٤).

(١) السبكي، المصدر السالف ص ٢١ - العمري: التعريف بالمصطلح الشريف ص ٩٤ - عاشور نظم الحكم والإدارة في عصر الأيوبيين والمماليك ص ١٥.

(٢) العمري: التعريف ص ٦٥ - ٦٦ القلقشندي: صبح الأعشى ج ٤ ص ١٦ - ١٧.

(٣) ابن واصل: مفرج الكروب في أخبار بني أيوب ج ٢ ص ١٠١ - ج ١٢ - ص ١٧٣ - أبي الفداء: المختصر في أخبار البشر ١٢٩ - ٢١٩. - ابن الأثير: الكامل في التاريخ ج ١٣ - ص ١٥ - تقي الدين الحصيني: منتخبات التواريخ دمشق ص ١٧٧ - ٢٦٤.

(٤) ابن واصل: المصدر نفسه ج ٢ ص ٢٥٤.

وعندما استقر السلطان الملك العادل بدمشق، فوض أمورها على جهة النيابة عنه لولده الملك المعظم عيسى وذلك سنة (٥٩٨ هـ / ١٢٠١ م) وفي سنة (٦٤٣ هـ / ١٢٤٥ م) صدر مرسوم بتولية نيابة السلطنة بدمشق لشهاب الدين رشيد، بعد وفاة نائبها معين الدين الحسن بن شيخ الشيوخ الذي كانت ولايته على دمشق أربعة أشهر ونصف، وكثيراً ما كان يتم تغيير نائب السلطان خلال السنة الواحدة ليحل بدلا عنه شخص آخر، حيث يذكر انه في سنة (٦٤٤ هـ / ١٢٤٦ م) تم استدعاء حسام الدين بن أبي علي الهدباني نائب دمشق من جهة السلطان الصالح أيوب صاحب مصر والشام إلى مصر وارسل بدلا عنه نائباً بدمشق الأمير جمال الدين بن مطروح، وفي سنة (٦٤٦ هـ / ١٢٤٨ م) عُزل جمال الدين بن مطروح من قبل السلطان الملك الصالح أيوب، وعين عوضاً عنه نائباً بدمشق جمال الدين موسى بن يغمور^(١).

وفي سنة (٦٤٧ هـ / ١٢٤٩ م) أمر السلطان نائبه جمال الدين بتخريب دار سامية المنسوبة الى الملك الناصر داود، فخرّب القصر، وقلع الأشجار في بستانه الذي بالقابون.^(٢)

وعندما دخل الملك الناصر يوسف بن الملك العزيز بن الظاهر غازي بن صلاح الدين سنة (٦٤٨ هـ / ١٢٥٠) دمشق كان بن يغمور نائبها من جهة الملك الصالح أيوب، فاحسن إليه الناصر، حيث أن الأمراء القيمرية الموجودين في دمشق كانوا قد أرسلوا إليه من أجل تسليمه دمشق^(٣) كما تسلم نيابة الحكم بدمشق القاضي صدر الدين أحمد بن يحيى بن هبة الله بن سني الدولة مدة خمسة عشر سنة، وخلع عنها، عندما عين هولاءكو القاضي كمال الدين عمر بن بدار القفليسي سنة (٦٥٨ هـ / ١٢٦٠ م) وبعد هزيمة التتار في عين جالوت،

(١) الحصيني: منتخبات لتواريخ دمشق ص ١٤٤ - ابن العميد: أخبار الأيوبيين ص ٣٣ - ٣٤ - ٣٦ - عقد الجمان: ج ١٣ حوادث ٦٢٥ - ٦٥٦ ص ٢٨٤.

(٢) عقد الجمان: ج ١٨ حوادث ٦٣٥ - ٦٥٦ ص ٣١٩ - ابن كثير: البداية والنهاية ج ١٣ ص ١٧٧.

(٣) عقد الجمان: حوادث سنة ٦٣٥ - ٦٥١ ص ٣١٩ ج ١٨

وعودة دمشق إلى المسلمين، استتاب المظفر قطز على دمشق الأمير علم الدين سنجر الحلبي، والأمير مجير الدين بن الحسين بن اقشتمر.^(١)

الملك:

كان من تقاليد البيت الأيوبي أن يحوز لقب ملك كل من خرج منه ولد، كان طفلاً صغيراً وتوفي قبل أن يتولى شيئاً من الإمارات، وقد خرج من هذا البيت بعض الشعراء والفقهاء والمحدثين، ولم يتولوا شيئاً من شؤون الدولة، ومع ذلك فكانوا يحملون لقب (ملك) على أنه لا يجوز لأحد من أمراء هذه الدولة وقوادها أن يحوز هذا اللقب مهما ارتفعت مكانته وعظم شأنه، ولذلك نرى عدداً كبيراً من الملوك الأيوبيين في زمن واحد وفي قطر واحد، فلكل من مصر والكرك وبعلبك ودمشق وحمص وحماة وحب وحمص وحمص وحمص وحمص وحمص وحمص التي تحكمها شخص أيوبي ملك، وهذا ما جعل هؤلاء الملوك بعد وفاة صلاح الدين يوسف بن أيوب في تنافس مستمر، أثر تأثيراً غير قليل في حالة البلاد الداخلية، وكانت كل من دمشق وحب والقاهرة مركزاً لملك كبير من ملوك الأيوبيين، وبعبارة ثانية عاصمة لمملكة مستقلة تتألف من عدة مدن لها ملوك صغار، وكان ملوك دمشق وحب في الغالب خاضعين أديبا لمصر، أما الملوك الصغار منهم خاضعون لأحد ملوك المدن الثلاث، حب ودمشق ومصر خضوعاً سياسياً وعسكرياً ومالياً، فملك بعلبك أو حمص كان تابعاً لملك دمشق مثلاً، فعليه أن يؤدي مبلغاً معيناً كل عام لملك دمشق يقل هذا المبلغ ويكثر حسب الاتفاق، وقد تحصل به المسامحة في بعض الأحيان^(٢)

أما من الجهة السياسية والعسكرية، فقد تقع عداوة بين ملك دمشق وملك حب أو ملك مصر، فيجب حينئذ على ملك حمص وبعلبك التابعين لملك دمشق

(١) ابن كثير: البداية والنهاية ج ١٣ ص ٢٢١- ٢٢٢

(٢) سعيد عاشور: نظم الحكم والإدارة في عهد الأيوبيين والمماليك ص ١٥ - محمد احمد دهمان: في

رحاب دمشق ص ٢٥٧

مثلاً، أن يعلننا انقطاع علاقتهما مع الملك المعادي لملكهم، ومن هو تابع له من الملوك الصغار، ويجب عليهما أيضاً أن يقدمتا جيشهما أثناء إعلان الحرب بقيادة هذا الملك نفسه، وعندما يتعذر ذلك بمرض الملك، أو خوف من اضطراب داخلي، يرسل الجيش بقيادة أحد أهل بيته أو أكابر قواده ممن يثق بهم^(١). والملوك الصغار قد يكون ملكهم إرثياً متسلسلاً في بيتهم كملوك حماة المنحدرين من سلالة شاهنشاه بن أيوب (أخي صلاح الدين) وكمملوك حمص المنحدرين من سلالة أسد الدين شيركوه (أخي أيوب وعم صلاح الدين)، وهذان البيتان كانا موضع احترام من جميع الملوك الأيوبيين، لم يغير من تقاليدهما شيء إلى حين انقراضهما، بل بقيا يتمتعان بامتيازاتهما، واستقلالهما الداخلي بعد انقراض الدولة الأيوبية، وقد لا يكون للملوك الصغار امتياز وتسلسل في الملك كـبعض أولاد السلطان صلاح الدين وأولاد أخيه السلطان الملك العادل، فيحكم الصغير في مملكته الصغيرة حتى يموت أو تنزع منه ولا يتولاها بعده أحد من أولاده.^(٢)

ولا يمكن نزع البلدة التي يحكمها الملوك الأيوبيين إلا برضاهم، بأن يعوضوا عنها ببلدة أخرى، قد تكون خيراً من بلدتهم، وقد تكون أدنى منها أما في حالة تمنعهم من الخروج من مملكتهم فلا يمكن إخراجهم منها إلا بواسطة القوة، وحينئذ إذا أخرجهم ملك أعظم منهم بصورة القهر، فإما أن يعرضهم مملكة وهو الغالب، وإما أن لا يعرضهم شيئاً، وحينئذ ينضم ذلك الملك إلى أحد أعداء الملك المعتدي، أو يقيم في بلدة محايدة، وكثيراً ما كانوا يذهبون إلى بغداد فيعيشون في كنف الخليفة العباسي.

(١) حسنين محمد ربيع: المرجع السالف ص ٣٥

(٢) ابن الأثير: الكامل ج ١١ ص ٢١- ٢١١، ابن خلكان: الوفيات ج ٢ ص ٣٠٢، دهمان: المرجع السالف ص ٢٥٨- ٢٥٩، طرخان: المرجع السالف ص ٣٩.

وهكذا يكون للملك في منطقة حكمه كل صلاحيات السلطان الأيوبي من حيث منح الإقطاعات ومكافأة الأمراء والقواد، وله القيادة العليا للجيش، وتعيين كبار الموظفين في الدولة، وعزلهم وتأديبهم والنظر في المظالم أحيانا، ومقابلة بعض ذوي الحاجات من الأهالي، وتحديد سياسة المملكة بما لا يتعارض مع سياسة السلطنة^(١).

الوزارة:

كان لصاحب هذا المنصب شأن عظيم في العصر العباسي، حيث أن الوزارة في هذا العصر كانت على نوعين وزارة تفويض ووزارة تنفيذ.

هذا وقد سلك الأيوبيون هذا المسلك، لكن الوزارة في عصرهم لم تكن سوى وزارة تنفيذ، ويمكن القول أن نائب السلطنة استحوذ على ما كان للوزير من سلطان، يقول السبكي^(٢): «الوزير اليوم اسم لمن ينظر في المكوس وغيرها من الأموال التي ترفع إلى السلطان ويبيت المال، ومن حقه بذل النصيحة _ وما يأخذ من التجار) للملك، وكف أذاه عن أموال الرعية، وتخفيف الوطأة عنهم". وكان الوزير يلي نائب السلطان في المرتبة، ومن الواضح أن إنشاء وظيفة نائب السلطان اضعف من أهمية الوزراء في العصر الأيوبي، وباستحداث منصب نائب السلطان جعل الوزير في الدرجة الثالثة بالدولة، وأصبح نائب السلطان الرجل الثاني، مما ترك الوزير بلا نفوذ أو سلطان.^(٣) وقد اعتمد السلطان صلاح الدين على كاتبه القاضي الفاضل ووثق به، وعهد إليه بكثير من الأمور، كما اعتمد على الوزير صفى الدين بن الفاضل، الذي كان قد خدم السلطان لما كان شحنة دمشق وأمدته بالمال، فرأى له ذلك، فلما ملك دمشق استوزره،

(١) ابن خلدون: العبرج ٥ ص ٢٩٢ - ستانلي بول: الدول الإسلامية قسم ١ ص ١٦٤ - طرخان: المرجع

نفسه ص ٢٨

(٢) السبكي: المصدر السابق ص ٢٧

(٣) المقرئزي: المواعظ ج ٢ ص ٢٢٣ - ٢٢٤

وكان شجاعاً ثقة دينا أميناً، ولما نزل الفرنج داريا والسلطان في المشرق، جمع من أهل دمشق سواداً عظيماً، وخرج إلى ظاهر البلد فظنّوهم عسكراً فرحلوا، وكتب أملاكه لماليكه لأنه لم يكن له ولد، وبنى بالعقبة مسجداً ودفن فيه، ويعرف اليوم بمسجد الصفي^(١).

وقد خرج خلفاء صلاح الدين عن هذا النهج في تعيين الوزراء، حيث انهم استغفوا أحياناً عن هذه الوظيفة ومن ذلك أن السلطان العادل الأول استوزر صاحب صفي الدين ابن شكر سنة (٥٩٦هـ/١١٩٩م) ولكنه لم يلبث أن تغير عليه، فأقاله من الوزارة وترك المنصب خالياً دون أن يعين فيه وزيراً حتى مات^(٢). وعندما تسلم السلطان الملك العادل دمشق كلف ابن النخال الوزارة مدة قريبة ومات، ووزر بعده الصاحب، وكذلك فعل السلطان الكامل بن العادل، إذا أعاد ابن شكر إلى الوزارة، فلما بغى ابن شكر وأحدث حوادث كثيرة، وحصل مالأً جماً، عزله الكامل وأحاط بجميع موجوده، ولم يستوزر بعد ابن شكر أحداً.^(٣)

ويذكر أن الملك الأفضل صاحب السلطنة في دمشق، وضع كل ثقته في وزيره ضياء الدين بن الأثير، وكان غير متضلع ولا محنك، فلم يحسن القيام بأعباء الوزارة، ولم يقدر على تصريف سياستها فاختلت الأحوال واضطربت، مما اضعف البلاد.^(٤)

(١) السيوطي: حسن المحاضرة في أخبار ملوك مصر والقاهرة ص ٦٠ - ابن العميد: أخبار الأيوبيين ص ٢٤ - ابن كثير: البداية والنهاية ج١٢ ص ٣٤٧ - سعيد عاشور: المرجع السابق ص ٢٠ - أبو فداء: المختصر في أخبار البشر ص ٢٦٤.

(٢) ابن كثير: البداية والنهاية ج١١ ص ٢٢ - ١٠٩ - سعيد عاشور: المرجع السابق ص ٣٠ - المقرئ: المقفى الكبير ص ٥٩ - ٦٥.

(٣) ابن العميد: أخبار الأيوبيين ص ٩ - المقرئ: المواعظ والاعتبار ج ٣ - ٣٦٣.

(٤) عقد الجمان: حوادث ٦٤٨ - ٦٦٤ ص ١٣٠ - تقي الدين الحصيني: منتخبات التواريخ دمشق ١٦٤ - ابن الأثير: الجامع الكبير في صناعة المنظوم من الكلام والمنثور ص ١٠ - القلقشندي: صبح الاعشى في صناعة الانشا ج١٢ ص ٣٥.

وبعد وفاة السلطان العادل تولى السلطنة في دمشق ابنه المعظم عيسى، وقد تولى الوزارة له القاضي جمال الدين عبد الرحيم بن شيبث القرشي، ومما ذكر عنه أنه كان فاضلاً صاحب مروءة وكرم، وكان القاضي الفاضل يحتاج إليه في الرسائل.^(١)

وبعد وفاة الملك المعظم عيسى صاحب دمشق خلفه ابنه الناصر داوود، وقد وزر له شرف الدين بن الفخر بن الشيرجي الدمشقي المتوفي (سنة ٥٩٦هـ/١١٩٩م)^(٢) وبعد تسلم الملك الأشرف دمشق تسلم له الوزارة المجد البهنسي الذي توفي سنة (٦٢٨هـ/١٢٣١م) ثم تسلم الوزارة جمال الدين علي بن جرير الذي توفي سنة (٦٣٦هـ/١٢٣٩م).^(٣)

وعندما تسلم الملك الصالح إسماعيل أخو الأشرف على أثر وفاة الأشرف استمر في الوزارة الوزير جمال الدين علي بن جرير، وقد توفي سنة (٦٣٦هـ/١٢٣٩م) كما وزر له الوزير أمين الدولة أبو الحسن بن غزال المسلماني الذي حرض الصالح على ألا يرد ابن الصالح نجم الدين الذي كان معتقلاً في قلعة دمشق إلى أبيه، وعدّ خاتم سليمان في يده وفي سنة (٦٤٤هـ/١٢٤٤) بعث السلطان الملك الصالح صاحب مصر والشام جمال الدين يحيى بن مطروح إلى دمشق وزيراً أميراً وانعم عليه، وأمره أن يكون شريكاً لشهاب الدين رشيد الكبير نائب السلطان في تدبير مملكة الشام.^(٤)

كذلك وزر للملك الصالح نجم الدين أيوب صاحب مصر والشام، معين الدين بن الشيخ وقد فوض إليه الملك الصالح تدبير أمر المملكة، وقد توفي هذا الوزير سنة (٦٤٣هـ/١٢٤٠)^(٥) ثم تولى الوزارة من بعده الوزير جمال الدين بن

(١) تقي الدين الحصني: منتخبات التواريخ: دمشق ص ٤٩٨

(٢) عقد الجمان: قسم ١ ج ١ ص ١٣٩.

(٣) البداية والنهاية: ج ١٣ ص ١٢٠-١٥٣ - عقد الجمان: ج ١ حوادث سنة ٦٢١-٦٣٥ - ص ١٣٩

(٤) عقد الجمان: ج ١٨ حوادث ٦٣٥-٦٥٦ ص ٢٢٠-٢٥٦-٢٨٤

(٥) عقد الجمان: ج ١٨ ص ٢٨٠

مطروح أبو الحسن يحيى بن إبراهيم بن الحسين بن مطروح، وبقي فيها إلى أن مات سنة (٦٤٩هـ/١٢٥١م)^(١)

كما وزر للناصر بن العزيز صاحب دمشق الوزير كمال الدين عمر بن أبي جرادة المعروف بابن العديم، وقد بعثه الناصر رسولا إلى الديار المصرية (سنة ٦٥٧هـ/١٢٥٩) يستجد بالمصريين لقتال المغول.^(٢) وبالإضافة إلى وظيفة الوزارة، وجدت وظائف أخرى سامية في الدولة الأيوبية، وبعضها يختص بالبلاط والبعض الآخر يختص بالدواوين ضمن وظائف البلاط.

الداودار:

وهو الشخص الذي يقوم بإدخال الناس على السلطان، أي يعد صلة الوصل بين السلطان ومن يريد مقابلة السلطان، وهو الذي يتلقى الأوامر السلطانية الشفهية، ومن اختصاصه أيضا الاتصال بالسلطين والملوك^(٣)، ويقوم بإبلاغ الرسائل ورفع القصص إلى السلطان والحصول على توقيعه على المراسيم والمناشير السلطانية.^(٤)

الأستاذ دار:

وهو الشخص الذي ينظر في إدارة البيوت السلطانية كلها من المطبخ والشرانجاناه والفراشخاناه وغيرها، وممن تقلد هذا المنصب في عهد الملك العادل سيف الدين أبو بكر الأمير نور الدين علي بن الأمير فخر الدين عثمان، وفي

(١) عقد الجمان: حوادث ٦٤٨ - ٦٦٤ ص ٥٩ ابن العميد: أخبار الأيوبيين ص ٢٥

(٢) ابن كثير: البداية والنهاية ج ١٢ - ص ٢٣٦

(٣) السبكي: المصدر السالف ص ٢٥ - ابن العميد: أخبار الأيوبيين ص ٢٣ - ٢٢ - القلقشندي: صبح

الأعشى ج ٥ ص ٤٥٧ حسن أمين: تاريخ العراق في العصر السلجوقي ص ١٨٢

(٤) عاشور: المرجع السالف ص ٢٢

عهد الملك الصالح تقلد هذا المنصب الطواشي شهاب الدين رشيد الخادم،
وذكر القلقشندي أن من مهام الأستاذ دار هو متولي الأخذ وقبض المال^(١).

ناظر الخاص:

وهو الشخص المكلف برعاية شؤون السلطان المالية^(٢).

أمير جاندار:

وهو الذي يستأذن على دخول الأمراء للخدمة، ويدخل أمامهم إلى الديوان،
كما كان من اختصاصات هذا الأمير أن يدور بالزفة حول السلطان في سفره
صباحاً أو مساءً^(٣).

ومن المناصب الإدارية الأخرى المعروفة زمن الأيوبيين في دمشق:

المهندار:

وهو الذي يتلقى الرسل والعربان الواردين على السلطان، وينزلهم دار
الضيافة ويتحدث في القيام بأمورهم^(٤).

أمير سلاح:

وهو ما يعرف بمقدم السلاحدارية والمتولي لحمل سلاح السلطان^(٥).

الشرابدار:

وهو الشخص المكلف بالإشراف على شراب السلطان وتقديمه إليه^(٦).

(١) السبكي: المصدر نفسه ص ٢٦ - القلقشندي: المصدر نفسه ج ٥ ص ٤٥٧ - عاشور: المرجع نفسه
ص ١٢

(٢) ابن العميد: أخبار الأيوبيين ص ٣٢ - عاشور: المرجع السالف ص ٢٢.

(٣) ابن العميد: أخبار الأيوبيين ص ٣٢ - عاشور: نظم الحكم في عهد الأيوبيين والمماليك ص ٢٢.

(٤) القلقشندي: صبح الاعشى ج ٤ ص ٢٢ - العمري: مسالك الابصار ص ١٧

(٥) سعيد عاشور: المرجع السالف ص ٢٢

(٦) ابن العميد: أخبار الأيوبيين ص ٨

الشحنة:

وهو بمثابة قائد الشرطة^(١) وهو قائد الحامية العسكرية في المدينة، وله صلاحيات أمنية وإدارية واسعة^(٢) ويذكر أن أول من تسلم هذا المنصب زمن الأيوبيين كمال الدين بن الشهرزوري في دمشق، وقد جمع هذا المنصب مع منصب القضاء، وأيضا ممن عرف بتسلمه هذا المنصب في دمشق بدر الدين مودود أخا العادل لأمه، وكذلك المعتمد المبارك، كان شحنة دمشق ذكره المقرئي ضمن (٦٢٣هـ/١٢٦٢ م)، وسيف الدين بن صبرة الذي تولى شرطة دمشق، وقد ذكره ابن الأثير ضمن وفيات (٦٥٧هـ/١٢٥٩ م).^(٣)

كاتب السر:

وهو من المناصب الرفيعة في الدولة الأيوبية، حيث أن السلطان أو الملك كان يعتمد عليه في كثير من القضايا التي تتعلق بأمور الدولة، ويأتي في مقدمة أصحاب هذا المنصب العماد الكاتب محمد بن هبة الله الأصفهاني الدمشقي الوفاة، يكنى أبا عبد الله، وقيل أبو حامد، ويلقب بعماد الدين، ويعرف بالعماد الكاتب، شافعي المذهب جامعاً لفنون كثيرة من الفقه والخلاف والأدب وأخبار الناس وله نظم البديع الرائق، واليد البيضاء في النثر الفائق وكان كاتب صلاح الدين، وله البرق الشامي وخريدة القصر، والنصرة في أخبار الدولة السلجوقية، والفتح القسي في ذكر الفتح القدسي، ولم يزل يكتب في ديوان السلطان إلى حين وفاته، وكان من أعمال كاتب السر التحقق من شخصية الشخص الذي يريد مقابلة السلطان.^(٤)

(١) ابن جبير: الرحلة ص ٢٧١

(٢) حسن أمين: تاريخ العراق في العصر السلجوقي ص ٢٠٢

(٣) عقد الجمان ص ١٩٥ - ابن كثير: البداية والنهاية ج ١٣ ص ٢١٧ - ٢٢٨ - المقرئي: المقفى الكبير ص ١٢٩

(٤) السبكي: المصدر السالف ص ٣٠. عقد الجمان مجلد ٤ ج ٢ ص ٢٢٠ عاشور: المرجع السالف ص

قاضي العساكر:

وهو الشخص المسؤول عن القضاء في العسكر، وكان يكلف من قبل السلاطين والملوك بمهام عدة إضافة لمنصبه، وممن تولى هذا المنصب زمن صلاح الدين في دمشق ابن الفراش القاضي شمس الدين محمد بن محمد بن موسى المعروف: ابن الفراش، وكان قاضي العساكر بدمشق، ويرسله السلطان في الرسالات إلى ملوك الأفاق، توفى بملطية عائداً من عند ابن قليج ارسلان^(١)، واسند هذا المنصب أيضاً زمن صلاح الدين إلى ابن شداد القاضي بهاء الدين أبو المحاسن يوسف بن رافع الحلبي المتوفى سنة (٦٣٢هـ/١٢٣٤م) حيث رافق صلاح في القسم الأخير من حياته، وهو صاحب التاريخ المعروف "النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية"^(٢) وفي زمن الملك المعظم تقلد هذا المنصب القاضي نجم، وهو نجم الدين خليل بن علي بن الحسين قاضي العسكر الدمشقي الذي أرسل بمهمة إلى سلطان الروم من قبل الملك المعظم وعاد منها.^(٣)

أما الوظائف الإدارية الأخرى التي وجدت في دولة دمشق

الأيوبية فهي:

الوالي:

يعد الوالي الحاكم الفعلي في منطقة حكمه، وكان الولاة يختارون دائماً من بين الأمراء ليقوموا بوظيفة المحافظ اليوم في الأقسام الإدارية، ومن مهامه الإشراف على شؤون الولاية، وقمع السرقات، وإطفاء الحرائق ومكافحة شرب الخمر ومزارع الحشيش.^(٤)

(١) ابن كثير البداية والنهاية ج ١٢ ص ٣٥٣ - عاشور: المرجع نفسه ص ٢٤ - ٢٥.

(٢) ابن شداد: سيرة صلاح الدين المقدمة، شاكر مصطفى: التاريخ العربي والمؤرخون ج ١ ص ٣٧٠

(٣) المقرئزي: المقفى الكبير ص ١٢١ - ابن الجوزي: ج ٨ قسم ٢ ص ٧٤٣ - النجوم الزاهرة ص ٦ -

٣٤٨

(٤) السبكي: المصدر نفسه ص ٤٣ - عقد الجمان: قسم ١ ج ١ ص ٣٨ - عاشور: المرجع نفسه ص

٣١ - علي إبراهيم حسن: المالئك البحرية ص ١٦٢

وممن ولي دمشق زمن الأيوبيين البدر مودود أخو فروخشاه ابن شاهنشاه بن أيوب ولي دمشق أول ولاية صلاح الدين، وكان شحنة دمشق، فحمدت سيرته في ذلك ثم صار هو شحنة دمشق أربعين سنة ثم ولي دمشق المبارز مفاخر الدين إبراهيم، ولي دمشق نيابة عن بدر الدين مودود الشحنة، ثم استقل بالولاية إلى أن عزل في سنة (٦١٧هـ/ ١٢٢٠م).

قالوا: " ولم يؤخذ على المبارز شيء إلا أنه كان يحبس وينسى فعوقب بمثل ذلك إلى أن توفي سنة (٦٢٣هـ/ ١٢٢٦م). " وتولى الولاية من بعده من قبل المعظم العزيز خليل.^(١)

ومن ولي دمشق زمن صلاح الدين أيضا أبو الفتح نصر بن علي الدمشقي الملقب صفى الدين وكان وجيها عند السلطان صلاح الدين، وكان يخدمه، وهو أمير، فاحسن إليه لما تسلطن وولاه دمشق.^(٢)

كذلك ولي دمشق سنة (٦٤٣هـ/ ١٢٤٥م) حسام الدين بن أبي، وقد عزل عن الولاية من قبل الملك الصالح صاحب مصر والشام سنة (٦٤٤هـ / ١٢٤٦م).^(٣)

والي القلعة:

يعد والي القلعة من المناصب المهمة التي أسهمت بدور أساسي في الحياة السياسية والإدارية إلى جانب والي المدينة، وكان والي القلعة يقيم فيها، وفي كثير من المدد كان يجمع المنصبين، والي المدينة ووالي القلعة، شخص واحد، فيقيم حينها في القلعة مع حاشيته وكان يتم تعيين والي القلعة من قبل السلاطين الأيوبيين أما أعمال والي القلعة فكان منها الإشراف على فتح وإغلاق باب القلعة المخصص لدخول الجند وخروجهم،^(٤) وتفقد أسوارها ومنافذها، والعمل

(١) ابن القرات: المجلد ٤ ج ٢ ص ٢ - ابن كثير: البداية والنهاية ج ١٣ ص ٩٢ - ١١٠

(٢) ابن القرات: المصدر نفسه: المجلد ٤ ج ٢ ص ١٠٢

(٣) ابن العميد: أخبار الأيوبيين ص ٣٤ - ٣٥

(٤) القلقشندي: صبح الأعشى ج ٤ ص ٢٢ - ٢٣

على إصلاحها وصيانتها، ثم ما لبث أن أصبح من اختصاصه كذلك الفصل فيما يقع بين العامة من الخصومات.^(١)

كذلك كان لوالي القلعة دوراً مؤثراً في الأحداث السياسية، حين تتأزم الأمور في المدينة، وكانت القلعة معتقلاً للخصوم السياسيين ومعارض الحكم، حيث يذكر أنه كان فيها سجن يطلق عليه اسم سجن الحيات، ذكره ابن كثير.^(٢)

وكان دور والي القلعة محدوداً أثناء إقامة السلاطين في القلعة، وتوليهم شؤونها بأنفسهم، ولذا فإن المصادر لم تذكر أسماء من تولوا نيابة القلعة في العصر الأيوبي سوى البعض منهم، وممن عرفناه الأمير صارم الدين برغش، حيث ذكر أنه كان واليها في (سنة ٥٩٥ هـ / ١١٩٨ م) حيث ذكر ابن كثير حادثة مرت في عهده، هو أن رجلاً أعجمياً بدمشق ادعى أنه عيسى بن مريم، فأمر الأمير صارم بصلبه عند حمام العماد الكاتب - قد باد هذا الحمام قديماً -، خارج باب الفرج مقابل الطاحون التي بين البابين.^(٣) كذلك تولاه في سنة (٦١٥ هـ / ١٢١٨ م) الأمير كيقباز صارم الدين برغش العادلي بدل أخيه خسروشاه الذي توفى في هذه السنة.^(٤)

وممن تقلد هذا المنصب: "البدر الجعبري" ذكره أبو شامة فيمن توفى سنة (٦٢٣ هـ / ١٢٢٦ م) قال: البدر الجعبري والي قلعة دمشق "أقام واليها مدة في أيام المعظم، وتولاها من بعده شبل الدولة كافور الحسامي".^(٥)

(١) علي إبراهيم حسن: تاريخ الممالك البحرية ص ٢٣١

(٢) ابن العديم: زبدة الحلب ج ٢ ص ٤١٧، قلعة دمشق ص ٩٠ - ابن كثير: البداية والنهاية ج ١٣ - ١٤٨

(٣) ابن كثير: البداية والنهاية ج ١٣ - ص ١٩ - أبو شامة: ذيل الروضتين: ١٥١

(٤) ابن كثير: المصدر نفسه ج ١٣ ص ٦٣

(٥) المقفى الكبير: ص ١٢٨ - عقد الجمان ق ١ ج ١ ص ٣٩ - أبو شامة: ذيل الروضتين ص ١٥٠ - ابن الجوزي: ج ٨ قسم ٢ ص ٦٤٢ - الحنبلي: شذرات الذهب ج ٥ ص ١٠٩ - أبو المحاسن: النجوم الزاهرة ج ٦ ص ٢٤٤، النويري: نهاية الأرب ص ٢٧٥. ابن كثير: البداية والنهاية: ج ٣ ص ١١٦.

وكذلك ذكر أيضاً اسم إليها ونقيبها عند دخول التتار دمشق، وسقوط
القلعة بأيديهم خلال غزوة هولكو (سنة ٦٥٨/١٢٦٠) "قال: " وفي شعبان من
السنة المذكورة، ضربت وفيها والي القلعة بدر الدين بن قراجا ورتبة النقيب
جمال الدين بن الصيرفي الحلبي، حيث انه أبى أن يسلم القلعة إلى نواب التتار
فحاصره كتبنا " (١)

ونعتقد أن مهام والي القلعة وقتئذ كانت تقتصر على الإشراف على شؤونها
الإدارية، وما فيها من موظفين ومؤن، وكان يتم عمل والي القلعة شخص آخر
يدعى نقيب القلعة، وهو المسؤول عن النواحي العسكرية، فهو المسؤول عن
السلاح وقائد الحامية.

ولم تبين المصادر أسماء من تسلم هذا المنصب سوى بعضهم، ومنهم جمال
الدين الصيرفي الذي قتل مع والي القلعة على يد التتار بعد حصارهم لها وفتحها
عنوة (سنة ٦٥٨هـ/١٢٦٠م) (٢).

المحتسب:

وكان يكمل عمل الوالي وان كانت وظيفة الحسبة من الوظائف الدينية
المدنية التي كان يليها أرباب الأقلام فإن المحتسب كان أكثر ارتباطاً بالقاضي
منه بالوالي، حتى انه كثيراً ما كان يسند القضاء والحسبة إلى فرد واحد (٣).

(١) عقد الجمان: حوادث سنة ٦٤٨ - ٦٦٤، ص ٢٣٦، أبو شامة: ذيل الروضتين: ص ٢٠٤، ابن كثير:
البيداء والنهاية ج ١٢ ص ٢١٨ - ٢١٩.

(٢) عقد الجمان: حوادث ٦٤٨ - ٦٦٤ ص ٢٣٧ - قلعة دمشق ص ٩٢.

(٣) السبكي المصدر السالف ص ٦٥ - ٦٦ - الماوردي: الأحكام السلطانية ص ٦١ - ٧٢ - ابن
خلدون: المقدمة ص ١٩٦.

وفي ظل الدولة الأيوبية كان عمل المحتسب يشمل حتى مراقبة القضاة والولاية في مجال معين، وهذا ما نستخلصه من نص أوردة الشيزري في كتابة نهاية الرتبة في طلب الحسبة وهذا النص مسجل بولاية الحسبة في عصر الدولة الأيوبية دون ذكر اسم المحتسب وهو في إنشاء القاضي الفاضل وبه من الدقة والقدرة على التعبير ما جعله تلخيصاً وافياً بجميع واجبات الحسبة والشروط التي ينبغي أن تتوفر في المحتسب، وذلك من غير إطالة أو اختصار، ومما ورد في النص (من شكرت خلأقه، وتهذبت طرائقه، وأمنت فيما يتولاه بوائقه، ونيطت بعري الصواب علائقه، وخرجت بسداده مسالك الأشكال ومضايقه، واستحوى من الأمانة قريناً من التصرفات يرافقه ولا يفارقه، ونهض إلى الاستحقاق ولم تعقه دونه عوائقه ... الخ.

ولما كنت أيها الشيخ المشتمل على ما تقدم ذكره المستكمل من الوصف ما يجب شكره ... الخ تقدم فتى مولانا السيد الأجل باستخدامك على الحسبة بمدينة كذا فباشر أمرها مباشرة من يبذل في التقوى جهداً، فلا يرى غيرها على ظمأ ورداً، ولا يراه الله حيث نهاه، ولا يأمره أبداً وينهاه إلا نهاه، وأنته فيها إلى ما ينتهي إليه من بذل غاية وسعة ومن لا يرتد عن جرّركه من عموم نفعه، واجتهد فيها اجتهاد معتصم بحبل التقوى المتين وسببها المبرم، وأمنع أن يخلو رجل بامرأة ليست بذات محرم، واستوضح أحوال المطاعم والمشارب، وقدم كل من يخرج في شيء منها عن السنن الواجب وعير المكاييل والموازين، وحذر أن تحمل دابة ما لا تطيق، وأوعز بتنظيف الجوامع والمساجد، وخطر أن يحضر الطرقات ما يمنع السلوك أو يوعره، وافعل في هذا الأمر ما يردع العايب ويزجره^(١)

(١) الشيزري: نهاية الرتبة في طلب الحسبة ص ١٢٢ - ١٢٤ - القلقشندي صبح الأعشى ج ١٠ ص

لقد جسد لنا الكاتب في هذا النص بعض صفات صاحب الحسبة وبعض الأعمال الموكلة إليه أيضا في هذا الفترة وقد جاء في القلقشندي أن أرباب الوظائف الدينية صنفان: الأول منهما: من له مجلس بالحضرة السلطانية بدار العدل، وهو منحصر في خمس وظائف، ومنها الحسبة، والقائم بها يسمى المحتسب وهي وظيفة جليلة رفيعة القدر والشأن، وموضوعها التحدث في الأمر والنهي والتحدث على المعايير والصناعات، والأخذ على يد الخارج عن طريق الصلاح في معيشتة وصناعاته.^(١)

إن إشارات كتب التاريخ والأدب إلى وظيفة المحتسب أو أسماء شاغليها قليلة وهذا لا يرجع إلى ضعف أهمية هذه الوظيفة، بل إلى ما نقل إلينا من معلومات جاءت عن طريق المؤرخين الأولين الذين اهتموا بالجوانب السياسية والفقهية، فاهتموا بذكر الوزراء والولاة والقضاة دون غيرهم، فالمعلومات التي عن المحتسب ليست بأقل من المعلومات التي عن كتب الخراج والمالية، والبريد والرسائل وغيرها، ولا نعلم هل ذلك راجع إلى أن المتأخرين لم يهتموا بهذه الوظائف فأهملوا نقل ما تحدث عنه المؤرخون الأولون.

ومن هنا نستطيع القول إن كتاب الماوردي "الأحكام السلطانية" ذا أهمية عظيمة تتجلى في بحثه عن الحسبة حيث يظهر أهمية هذه الوظيفة وقد عاصر الماوردي كل من الخلافة الفاطمية في مصر التي حكمت أكثر من قرنين ازدهرت خلالها التجارة والصناعة، ثم تلاهم في حكم البلاد الأيوبيون الذين حلوا محل الفاطميين وواجهوا الحملات الصليبية في بلاد الشام، ويبدو أن هذا حمل الأيوبيين على زيادة الإشراف على الصناعة والتجارة والأعمال، وذلك أن الصناع كانوا فيما يبدو ميالين للفاطميين، كما أن النصارى من الصناع والتجار كان لابد من مراقبتهم خشية تعاملهم مع الصليبيين، وقد أدى ذلك إلى ازدياد أهمية المحتسب كما رافقه ظهور عدد من المؤلفات التي هي بمثابة

(١) القلقشندي صبح الأعشى ص ٣٤- ٣٧

المرشد أو الدليل للمحتسب في عمله، فهي تصف الصورة المثالية لكل حرفة وتشير إلى أعمال الغش والخداع التي قد يلجئون إليها.^(١)

ومما يؤكد اهتمام الأيوبيين بالنواحي الاقتصادية والاجتماعية، هو قيام الشيزري بوضع كتاب الحسبة بناء على طلب من السلطان صلاح الدين الأيوبي عن طريق غير مباشر، هذا ما يؤكده بعض المؤرخين وذلك لمساعدة الأيوبيين في مراقبة الحرف والصناع، ويتضح ذلك من تنوع المؤلفات المنسوبة للشيزري، ومن كثرة إشارته للشام وبلادها، انه قضى وقتا من حياته بتلك البلاد إن لم يكن شامي الأصل، وكيفما كان الأمر فقد مات الشيزري حوالي سنة (٥٨٩هـ - ١١٨٩م) وهي السنة التي توفي فيها صلاح الدين الأيوبي.^(٢)

وتتبع أهمية كتاب الشيزري في الحسبة لكونه أول كتاب بحث في موضوع الحسبة من الناحية العلمية في الشرق الإسلامي، إذ عاش في (القرن السادس الهجري - الثاني عشر الميلادي) هذا وتناول الموضوع من قبله الماوردي (المتوفى سنة ٤٥٠هـ/١٠٥٨م) صاحب كتاب الأحلام السلطانية، والغزالي المتوفى سنة ٥٠٥ - ١١١م) صاحب كتاب /إحياء علوم الدين/ حيث تغلب على الكتابين الصفة الفقهية البحتة، وثمة ميزة أخرى لهذا الكتاب تميزه في الواقع عن جميع الكتب التي وضعت في الحسبة، وهي الإسهاب في شرح غشوش العقاقير، ووصف فروع الطب المختلفة، ثم الاهتمام بمراقبة أهل الذمة وحركات الباطنية^(٣)

وقبل الحديث عن الحسبة بشكل عام في دمشق الأيوبية لا بد من التعرف على شروط الحسبة، ومستحباتها آخذين بعين التقدير انه بالإمكان العودة إلى

(١) ابن بسام: نهاية الرتبة في طلب الحسبة - مطبعة دار المعارف بغداد ١٩٦٨ - تحقيق حسام الدين

السامرائي ص ٦ - ٦

(٢) الشيزري: نهاية الرتبة في طلب الحسبة ص ١٤.

(٣) الشيزري: المصدر نفسه - المقدمة ص ١ ط

الكتب المتخصصة في هذا المجال للتعرف على الشروط الواجب توفرها في المحتسب واختصاصاته لمن يريد الإسهاب في ذلك.^(١)

يقول الشيزري: (ولما كانت الحسبة أمراً بالمعروف، ونهياً عن المنكر، وإصلاحاً بين الناس وجب أن يكون المحتسب فقيهاً، عارفاً بأحكام الشريعة، ليعلم ما يأمر به، ينهي عنه، وأول ما يجب على المحتسب أن يعمل بما يعلم، ولا يكون قوله مخالفاً لفعله، ويجب على المحتسب أن يقصد بقوله وفعله وجه الله تعالى وطلب مرضاته خالص النية، لا يثوبه في طويته رياء ولا مراء، ويجتنب في رياسته منافسة الخلق ومفاخرة أبناء الجنس).^(٢)

وكذلك يجب على المحتسب أن يكون من شيمته الرفق ولين القول، وطلاقه الوجه، وسهولة الأخلاق عند أمره للناس ونهيه، فإن ذلك ابلغ في استمالة القلوب وحصول المقصود، ومن صفاته أيضاً أن يكون متأنياً، غير مبادر إلى العقوبة، ولا يواخذ أحداً بأول ذنب يصدر منه، ولا يعاقب بأول زلة تبدو لأن العصمة في الخلق مفقودة فيما سوى الأنبياء.^(٣)

وإذا عثر بمن نقص المكيال، أو بخس الميزان، أو غش بضاعة أو صناعة، بما يأتي وصفه في أبوابه من أنواع الغشوش، استتابه عن معصيته، ووعظه وخوفه وأذره العقوبة والتعزير.^(٤)

فإن عاد إلى فعله عززه على حسب ما يليق به من التعزير بقدر الجنابة ولا يبلغ به الحد.

(١) الشيزري: نهاية الرتبة في طلب الحسبة الباب الأول - ابن الاخوة: معالم القرية في احكام الحسبة: الباب الأول - ابن بسام: نهاية الرتبة في طلب الحسبة: الباب الأول - ابن تيمية: الحسبة ومسؤولية الحكومة الإسلامية ص ١٣ - ١٤ - ١٥

(٢) الشيزري: نهاية الرتبة في طلب الحسبة ص ٦ - ٧

(٣) الشيزري: المصدر نفسه ص ٩ - ابن الاخوة: المصدر نفسه ص ٥١

(٤) انظر أنواع التعزير وتفصيلاته: ابن تيمية المصدر السابق ص ٥٣ وما بعدها - الماوردي: الأحكام السلطانية ص ٢٧ - ٢٣١ - ابن بسام: المصدر نفسه ص ١٠ - الاسدي: التيسير والاعتبار ص ١٣٧ -

ومن الشروط الواجب توفرها في المحتسب أيضا: أن يكون عفيفا عن أموال الناس، متورعا عن قبول الهدية من المتعيشين وأرباب الصناعات، فان ذلك رشوة، ويلزم المحتسب غلمانه وأعوانه بما ألزمه من هذه الشروط.^(١)

أما واجبات المحتسب فهي كثيرة ومتنوعة. ويذكر إن متولي الحسبة هيمن على أكثر من أربعين ناحية من نواحي الحياة اليومية بحيث شملت ولايته أن يتردد إلى مجلس القضاة، والحكام ويمنعهم من الجلوس في الجامع والمسجد للحكم بين الناس^(٢)، ومن مهام المحتسب أيضا الإشراف على الأسواق والموازين والمكاييل، والقيام بالمحافظة على الآداب العامة، وصيانة الحرمات، وتنظيم المرور، ومراعاة أحكام الشريعة ومعاربة الفس في البيوع، والقبض على المتهمين، ومعاربة المنكرات في العقود المحرمة كالربا والميسر، وكان للمحتسب مطلق الحق في تنفيذ ما يراه صالحا لصيانة الأمن العام^(٣).

ومع كل هذه الأهمية التي تحدثنا عنها عن الحسبة والمحتسب فان ما أوردته الكتب المتخصصة وغير المتخصصة لم تتحدث بإسهاب عن تقلد هذه الوظيفة، وممن وصلنا بتقليده عن هذا المنصب زمن الأيوبيين:

- القاضي كمال الدين محمد بن عبد الله الشهرزوري، إضافة لكونه قاضي الشام تولى الحسبة (توفي سنة ٥٧٦هـ/١١٨٠م)^(٤)

- صدر الدين أبو الحسن محمد بن أبي الفتح المعروف بالصدر الكشهنى محتسب دمشق أرسله المعظم سنة ٦١٩هـ/١٢٢٢م إلى جلال الدين بن خوارزم شاه يستعينه على أخويه الكامل والاشرف.^(٥)

(١) الشيزري: المصدر السالف ص ١٠

(٢) الشيزري: المصدر نفسه ص ١١٣ - ابن الأخوة: المصدر السابق ص ٢٨

(٣) ابن الأخوة: المصدر نفسه ص ٤

(٤) عقد الجمان: حوادث ٦٤٨ - ٦٦٢ هـ ص ١٧٦

(٥) ابن كثير: البداية والنهاية ج ١٣ ص ٩٨ - شفاء القلوب في مناقب بني أيوب ص ٢١٠

- الصدر التكريتي متولي حسبة دمشق ومشيخة الشيوخ عزل عنها
(سنة ٦٢٥هـ/ ١٢٢٨م)^(١)
- محمد بن عقيل كروس كمال الدين متولي حسبة دمشق توفي سنة
(٦٤١هـ/ ١٢٣٩م)^(٢)
- النجم الشريجي محتسب دمشق عزل عن الحسبة من قبل نائب دمشق
جمال بن يغمور سنة (٦٤٦هـ/ ١٢٤٨م)^(٣)
- فتح الدين بن العدل متولي حسبة دمشق بعد عزل النجم الشيرجي، وهو
محمد بن عبد الصمد بن عبد الله بن حيدرة توفي سنة (٦٥٦هـ/ ١٢٥٨م)، وتولى
الحسبة من بعده أخوه ناصر الدين.^(٤)

- القضاء:

قاضي القضاة:

عد هذا المنصب من المناصب الرفيعة والحساسة في الدولة، وكما هو معروف أن القضاء مرتبط بالعدالة فإن صلح شاعت العدالة وترعرعت، وأمن الناس على أرواحهم وأموالهم وأعراضهم، فصلح أمر الدولة والناس، وان فسد القضاء اختفت العدالة، وباختفائها تعم الفوضى، وينتشر الفساد، ولا يأمن الناس على أنفسهم، فتضيع هيبة الدولة ويتقلص سلطانها إنذارا لها بالزوال، ويذكر أن أول من طبق النظام القضائي على نطاق العالم الإسلامي فعين قضاة ينوبون عن الخلفية في الفصل بين الناس، وفض شاكلتهم هو الخليفة عمر بن

(١) ابن كثير: المصدر نفسه ج ١٣ ص ١٥٣

(٢) عقد الجمان: ج ١٨ ص ٢٦١

(٣) المصدر نفسه ج ١٨ ص ٢٩٦

(٤) المصدر نفسه ج ١٨ ص ١٩٠

الخطاب، لقد كان العدل بين الناس في نظر الخليفة عمر هو الدولة بكل شؤونها وشجونها، إذا شاع العدل أصبح كل شيء بعد ذلك يسيراً.^(١)

ولهذا فإن اختيار صاحب هذا المنصب ليس بالشيء السهل، ويجب عليه أن يتمتع بالكثير من المزايا التي قد لا تكون موجودة عند غيره.^(٢)

لم يكن القضاء في هذه الحقبة مختلف عن أي حقبة سبقتها، وقد حظي القضاء باهتمام كبير، كما قام بعض القضاة بأدوار مهمة إلى جانب الولاة والحكام، وكان القاضي يتسلم منصبه لمدة طويلة دون أن يتعرض للعزل والتكيل والمصادرة والقتل، كما كان يحدث للوزراء ورؤساء المدينة والشحنة، وكان القاضي يقوم بالخطابة إلى جانب القضاء عدا بعض الحالات التي أسندت الخطابة فيها لشخص آخر غير القاضي.^(٣)

في العصر العباسي وبزمن الخليفة هارون الرشيد تشعبت القضايا، وكثر عدد القضاة مما أوجب إيجاد منصب جديد في البلاد، وهو منصب قاضي القضاة، وهو يعادل وزير العدل في عصرنا الحاضر وأول من تسلم هذا المنصب هو أبو يوسف "يعقوب بن إبراهيم" سنة ١٧٤ هـ وهو تلميذ الإمام أبي حنيفة النعمان زمن الخليفة هارون الرشيد.^(٤)

وكان من مهام قاضي القضاة الشيء الكثير في اغلب الأحيان فبالإضافة إلى كونه يقوم بالمهام الرئيسية المتعلقة بمنصبه بالحكم بين الناس، ورد الخصومات، فكان إليه أمر المدارس، والأوقاف والحسبة، والأمور الدينية، والشرعية، وكان صاحب القلم والسيوف، وكانت السلاطين في عهد الدولة الأيوبية كثيراً ما يأخذون برأي قضائهم في أمور تخص الدولة، حيث أنه يذكر أن السلطان صلاح الدين كان لا يصدر شيء، إلا عن رأي القاضي الفاضل، ولا

(١) عقد الجمان ج ١ حوادث وانساب ص ١٧٦ - مصطفى الشكعة: معالم الحضارة الإسلامية ص ٧٢

(٢) ياقوت: معجم الادباء ج ٢٠ ص ١٨ - ١٩

(٣) ياقوت: معجم الادباء ج ٢٠ ص ١٨ - ١٩

(٤) الشكعة: معالم الحضارة الإسلامية ص ٧٧

يمضي في أمر من الأمور إلا بعد مراجعة القاضي الفاضل^(١)، وكذلك كان قاضي القضاة يقوم بدور رسول السلطان عند الحاجة كما حدث زمن السلطان الملك العادل عندما أرسل القاضي محي الدين بن محمد بن الزكي رسولا إلى الملك العزيز صاحب مصر يحثه على الجهاد وعلى قصد الفرنج. وممن ولي هذا المنصب زمن الأيوبيين في دمشق:

١ - القاضي كمال الدين الشهرزوري وهو محمد بن عبد الله بن القاسم بن المظفر بن علي كمال الدين أبو الفضل الشهرزوري، ثم الموصلية ثم الدمشقي (ت ٥٧٢ هـ / ١١٧٥ م) ولد سنة (٤٩١ هـ / ١٠٩٦ م) ولي القضاء لنور الدين في دمشق، ونظر الأوقاف وفي أموال السلطان أقره صلاح الدين على ما كان عليه.^(٢)

٢ - ضياء الدين بن تاج الدين الشهرزوري: وهو أبو الفضائل بن تاج الدين يحيى بن أخي قاضي الشام، كمال الدين الشهرزوري، ولد سنة (٥٣٤ هـ / ١١٤٠ م) ولي القضاء بالشام بعد عمه.^(٣)

٣ - القاضي شرف الدين بن أبي عصرون الحلبي، وهو قاضي القضاة شرف الدين أبو سعد عبد الله بن محمد بن هبة الله بن المطهر بن علي بن أبي عصرون التميمي الموصلية ولد سنة (٤٩٣ هـ / ١٠٩٩ م) قدم دمشق أيام صلاح الدين سنة (٥٧٣ هـ / ١١٧٧ م) وولي قضائها سنة (٥٧٧ هـ / ١١٨٤ م)^(٤)

(١) السبكي: المصدر السالف ص ٥٦ - ٥٧ - عقد الجمان: مجلد ٤ ج ٢ ص ٢٢٠ - محمد ماهر

حمادة / الوثائق السياسية الادارية ص ٧٠

(٢) شمس الدين بن طولون: قضاة دمشق (الثغر البسام في ذكر من ولي قضاء الشام ص ٤٧ - ٤٨ ابن كثير: البداية والنهاية ج ٢ ص ٢٩٥ / ٢٩٦ - ابن خلكان وفيات ج ١ ص ٤٧٢ - ابن العماد شذرات ج ٤ ص ٢٤٣ - ابن تفرج بردي: النجوم ج ٦ ص ٧٩

(٣) ابن كثير: البداية والنهاية ج ١٣ ص ٣٥ - ابن العماد شذرات ج ٤ ص ٣٤٢ ابن طولون: قضاة دمشق ص ٤٩

(٤) ابن كثير: البداية والنهاية ج ١٢ ص ٢٢٣ - ابن العماد شذرات ج ٤ ص ٢٨٣ - ابن طولون المصدر نفسه ص ٤٩ - ابن واصل: مفرج الكرب ج ٢ ص ٥٠

٤ - القاضي محي الدين بن أبي عصرون محمد بن عبد الله بن محمد بن أبي عصرون، القاضي محي الدين بن القاضي العلامة شرف الدين أبي سعد التميمي قاضي دمشق، وابن قاضيها توفيه سنة (٦٠١هـ/١٢٠٤م)، كان قد عزل عن القضاء سنة (٥٨٧هـ / ١١٩١م) عزله السلطان بسبب مداخلة الجند، واشتغاله باتخاذ الخيول والمماليك الترك، ومباشرة الحروب، ومعاملة الأمراء أو مدانيتهم، فتبرأ السلطان منه^(١).

٥ - وفي سنة (٥٨٧هـ/١١٩١م) تولى القضاء القاضي محي الدين بن محمد بن الزكي بدمشق، ولد سنة (٥٥٠هـ/١١٥٥م) تولى القضاء بعد وفاة ابن أبي عصرون، وعظمت رتبته عند صلاح الدين، وسار إلى مصر رسولا من الملك العادل إلى الملك العزيز يحثه على الجهاد، وعلى قصد الفرنج وولي نظر أوقاف الجامع، وعزل منها قبل وفاته بشهور.^(٢)

٦ - الطاهر بن محمد القرشي وفي سنة (٦١٢هـ/١٢١٥م) عزل القاضي ابن الزكي، الطاهر بن محي الدين محمد بن الزكي وفوض الحكم إلى القاضي جمال الدين الحرستاني، وله اثنتان وتسعون سنة فحكم بالعدل، وقضى بالحق.^(٣)

٧ - القاضي جمال الدين أبو القاسم عبد الصمد بن محمد بن أبي الفضل بن علي بن عبد الواحد الحرستاني الأنصاري، الخزرجي العبادي الدمشقي، ولد سنة (٥٢٠هـ/١١٢٥م) وكان أبوه من أهل حرستا، ناب في الحكم عن ابن أبي عصرون، ثم ترك ذلك ولزم بيته وصلاته بالجامع، ثم عزل القاضي ابن الزكي

(١) أبو شامة: ذيل الروضتين ص ٥٢ - المقرئ: المقضى الكبير ص ٥٦ - ٥٧

(٢) أبو شامة: ذيل الروضتين ص ٥٢ - المقرئ: المقضى الكبير ص ٥٦ - ٥٧

(٣) ابن كثير: البداية والنهاية ج ١٢ ص ٦٨ - ابن طولون: قضاة دمشق ص ٥٦ - ٥٧ - ٥٨ - ٥٩

الطاهر والزم القاضي جمال الدين الحرستاني هذا بولاية القضاء. وله اثنتان وتسعون سنة، توفي سنة (٦١٤هـ/١٢١٧م)، وله خمس وتسعون سنة.^(١)

٨ - وفي سنة (٦١٨هـ/١١٢٢م) ولي الملك المعظم قضاء دمشق، لجمال الدين المصري، الذي كان وكيل بيت المال، وهو جمال الدين أبو محمد يونس بن بدران بن فيروز بن صامد بن عسال بن محمد بن علي القرشي الشيبلي الحجازي، المشهور بالجمال المصري، ولد سنة (٥٥٥هـ/١١٥٧م) وبأشر وكالة بيت المال بعد عزل الزكي، وفي سنة (٦١٨هـ/١٢٢١م) ولاء المعظم قضاء دمشق سنة (٦٢٣هـ/١٢٢٦م).^(٢)

٩ - القاضي شمس الدين أحمد بن الخليل الخورثي تولى القضاء بعد الجمال المصري (٦٣٧هـ/١٢٣٩م) وهو قاضي القضاة شمس الدين أبو العباس أحمد بن الخليل بن سعادة بن جعفر بن عيسى بن محمد المهلبلي الخورثي ولد سنة (٥٨٣هـ/١١٨٧م) وفي سنة (٦٢٦هـ/١٢٢٦م) أضاف الناصر داود إلى قاضي القضاة شمس الدين بن الخورثي القاضي محي الدين أبي المعالي يحيى بن محمد بن علي بن الزكي توفي الخورثي سنة (٦٣٧هـ/١٢٣٩م).^(٣)

١٠ - قاضي القضاة عماد الدين أبو الفضائل عبد الكريم ابن قاضي القضاة جمال الدين الأنصاري الخزرجي الدمشقي الشهير بابن الحرستاني، ولد سنة (٥٧٧هـ/١١٨١م) ولي قضاة الشام مدة بعد وفاة أبيه، ثم عزل ودرس بالفرزالية، وخطب بدمشق.^(٤)

(١) أبو شامة: ذيل الروضتين ص ١٠٦ - ابن كثير: البداية والنهاية ج ١٣ - ص ٧٧ - ابن طولون: قضاة دمشق ص ٦٠ - ٦١ - ٦٢ - ٦٣.

(٢) ابن كثير: البداية والنهاية ج ١٣ ص ٥٩ أبو شامة ذيل الروضتين ص ١٤٨ - النعمي: تنبيه الطالب ج ١ ص ١٨٦

(٣) البداية والنهاية: ج ١٣ ص ١١٥ - ذيل الروضتين ص ١٤٨ - الواجع بالوفيات: ج ١ ص ٢٨٠

(٤) البداية والنهاية: ج ١٣ ص ١٣٢ - ٢٤٣ - أبو شامة: ذيل الروضتين ص ٢٢٩

١١ - قاضي القضاة شمس الدين بن سنى الدولة أبو البركات يحيى بن هبة الله بن سنى الدولة الحسن بن يحيى الدمشقي، ولد سنة (٥٥٢هـ / ١١٥٧م)، وتفقه على بن أبي عصرون، وكان الملك الأشرف يقول ما ولي دمشق مثله، ولي الحكم ببيت المقدس مدة، وناب يحيى القضاة، ثم استقل بقضاء الشام (سنة ٦٣٥هـ / ١٢٣٨م) ^(١).

١٢ - قاضي القضاة شمس الدين أبو نصر محمد بن الفقيه البارح الصالح الرئيس هبة الله بن محمد بن هبة الله بن يحيى بن بندار بن جميل الشيرازي الدمشقي، ولد سنة (٥٤٩هـ - ١١٥٤م)، وتفقه على بن أبي عصرون، درس بالشامية البرانية والعمادية، وتركها وناب في الحكم مدة (ت سنة ٦٣٥هـ / ١٢٣٨م). ^(٢)

١٣ - وفي سنة (٦٣٨هـ / ١٢٤٠م) قام الملك الصالح بتولية القضاء الرفيع الجليلي، وهو أبو حامد عبد العزيز بن عبد الواحد بن إسماعيل أحد القضاة الجور، كان متكلماً بارعاً في العقليات، الفلسفة رقيق الدين قبض عليه وأخر سنة (٦٤١هـ / ١٢٤٣م) ثم بعث مع من رماه في هوة بأرض البقاع. ^(٣)

١٤ - قاضي القضاة صدر الدين بن سنى الدولة أبو العباس أحمد بن يحيى بن عبد الله بن الحسن الدمشقي الشافعي، ولد سنة (٥٧٠هـ / ١١٧٥م)، وتفقه على أبيه قاضي القضاة شمس الدين، وناب عن أبيه، وولي بيت المال وولي القضاء مدة، رجع من عند هولاكو ممرضاً، وأدركه الموت ببعلبك (سنة ٦٥٨هـ / ١٢٦٠م) ^(٤).

(١) أبو شامة: ذيل الروضتين ص ١٦٦ - ابن كثير: البداية والنهاية ج ١٣ ص ١٥١
(٢) أبو شامة: ذيل الروضتين ص ١٦٦ - ابن كثير: البداية والنهاية ج ١٣ ص ١٥١ - الصفوي: الواجب ج ١ ص ٢٥٨ - ابن العماد: شذرات ج ٥ ص ١٧٤
(٣) ابن العماد: شذرات ج ٥ ص ٢١٤ - ذيل الروضتين ص ١٧٣ - ١٧٤ ابن كثير: البداية والنهاية ج ١٣ ص ١٦٢
(٤) ابن كثير: البداية والنهاية ج ١٣ ص ٢٢٤ - ابن العماد: شذرات ج ٥ ص ٢٩١

١٥ - قاضي القضاة كمال الدين التفليسي: أبو الفتح عمر بن بندار بن عمر الشافعي سنة (٦٧٢هـ / ١٢٧٤ م) ناب في الحكم بدمشق فلما غلب هولاكو على الشام، بعث له تقليدا بالقضاء، فحكم أياما وبالع في الدين والإحسان.^(١)

الدواوين:

من الطبيعي أن يعتمد هذا الجهاز الإداري الضخم الذي عرفته دولة الأيوبيين على مجموعة من الدواوين الكبيرة، وهي أشبه بالوزارات في عصرنا - الإدارة مرافق الدولة، وكان لكل ديوان ناظر أو رئيس، وميزانية خاصة، وعدد من الموظفين يتبعون الناظر، وينفذون أوامره.^(٢)

ومما أورده ابن مماتي بشأن متولي الديوان زمن الأيوبيين يقول: "ومتولي الديوان يجب عليه أن تكون أصول ما يجري في ديوانه من المعاملات مضبوطاً بخطه، فأما فروع ذلك فإنها مردودة إلى الكتاب لانشغاله بالتنفيذ عما يجب من خدمة الحساب، ولا يخلوا أمر توليته الديوان من ثلاثة أوجه، أما أن يكون وليه بالأمانة، أو ببذل، أو ضمان".^(٣)

كذلك بين لنا ابن مماتي مهام (المستوفي في الديوان، فقال " هذا كاتب يكون صاحب مجلس في الديوان يطالب معامليه بما يجب عليهم من حساب بعمل ومال يحمل وينبه متولي الديوان على ما ينبغي تنبيهه عليه في أوقاته في أمور خدمته ويقوم الجرائد ويخدمها، ويستوفي الحسابات، ويخرج ما يجب تخريبه فيها، ومن مساعدي المستوفي " المعين - الناسخ - المشارف - العامل -

(١) ابن كثير: المصدر نفسه ج ١٣ ص ٢٦٧ - ابن العماد: شذرات ج ٥ ص ٣٣٧

(٢) السبكي: المصدر السالف ص ٢٩ - عاشور: نظم الحكم والإدارة عند الأيوبيين والمماليك ص ٣٥

(٣) ابن مماتي: قوانين الدواوين ص ٧ - ٨

الكاتب - الجهيد - الشاهد - النائب - الأمين - الماسح الحائز - الدليل -
الخازن - الحاشر - الضامن" (١)

- ومن أهم هذه الدواوين:

١ - ديوان الخاص السلطاني: كانت أول مصروفاته النفقة على شؤون الدور السلطانية، والمعروف أن صلاح الدين وزع إيرادات هذا الديوان، بين شراء الخيول السلطانية، ونفقات الاصطبلات، والمطابخ السلطانية، والاسمطة السلطانية الكثيرة التي دأب الأيوبيون على إعدادها لولائم أعيان البلاد والوافدين.^(٢) ومن نفقات ديوان الخاص السلطاني، نفقات الخرجات السلطانية للصيد ولعب الكرة.^(٣)

ومن مصروفات هذا الديوان أيضا نفقات الهدايا، والمنح التي كان يرسلها السلطان إلى الخليفة العباسي، كذلك إرسال السلطان صلاح الدين هدايا إلى سيده نور الدين عندما كان صلاح الدين بمصر، أو ما أرسله السلطان إلى ملك المغرب يعقوب بن يوسف بن تاشفين، وهي عبارة عن مصحف كريم ثمين، وقلائد، وطلب منه المساعدة، وقطع إمدادات الصليبيين في البحر أثناء حصار محنة عكا.^(٤)

ومن مصروفات هذا الديوان أيضا نفقات الهبات والمنح، حيث شمل صلاح الدين الأمير الفارس المشهور سامة بن منقذ الشيزري بعطايا حتى مدحه سامة بما نصه: " فعطاياها تطرقتني وأنا راقد، وتسري إلي وأنا محتسب، فأنا من

(١) ابن مماتي: المصدر المتقدم ص ١٠

(٢) المقرئزي: المواعظ والاعتبار في ذكر الخطط والآثار ج ١ ص ٨٧ - السلوك لمعرفة دول الملوك ج ١ ص ٤٧ - ٢٨٩ - ٢٩٠، ابن مماتي: المصدر نفسه ص ٣٥٤.

(٣) المقرئزي: السلوك لمعرفة دول الملوك ج ١ ص ٢٩٤ - المقرئزي: المواعظ والاعتبار ج ٢ ص ١٩٨

(٤) ابو شامة: لروضتين في اخبار الدولتين ج ١ ص ٢١٩ - ج ٢ ص ١٣٩-١٧٠ - ١٧٤ المقرئزي: السلوك لمعرفة دول الملوك ج ١ ص ٥٤ - ٥٥ - ابن واصل مفرج الكرب في أخبار بني ايوب ج ٢ ص ٢٧٨ - ٢٧٩ - ٣٦٢.

إنعامه كل يوم في مزيد واکرام کتکرمة الأهل، وأنا اقل العبيد امنني جميل رأيه حادث الحادثات اخلف لي إنعامه ما سلبه الزمان بالنکبات المجحفات".^(١)

٢ - ديوان الجيش: تمتع ديوان الجيش بأهمية كبيرة في ذلك العصر الذي غلبت عليه روح الجهاد ضد الصليبيين، حيث استمدت الدولة الأيوبية وجودها، وبقاءها من فكرة الجهاد، والذود عن الوطن الإسلامي في الشرق الأدنى ضد الأخطار الكبرى التي هددته، وأشرف هذا الديوان على كل ما يتعلق بالجند بمختلف طوائفهم، فكانت تحفظ فيه الأوراق الخاصة بهم وكذلك صار من اختصاصات ديوان الجيش المسائل المتعلقة بالاقطاعات، ففيه سجل خاص لكل إقطاع يمنحه السلطان اسم المقطع ومساحة إقطاعه ونوعه.

أما ناظر هذا الديوان، فقد عرف باسم ناظر الجيش، ووظيفته من أهم الوظائف في الدولة، وكان يعاونه بعض كبار الموظفين مثل صاحب ديوان الجيش، وينوب عن الناظر في تصريف شؤون الديوان، ومستوفى الجيش بتحديد الرواتب التي تصرف للجند، وتسجيلها في كشوف خاصة بمساعدة مستوفي الإقطاعات ومستوفي الرزق، ويشرف على صرف مرتبات الأجناد، وأرزاقهم العينية واشترط في هؤلاء الموظفين جميعاً، الأمانة التامة، والكفاية المطلقة^(٢)، وحرص ديوان الجيش أيضاً على متابعة الأحوال الزراعية في الإقطاعات ومراقبتها، وإعادة النظر كل ثلاثة أعوام في الأحوال المفروضة على أصحابها، والإشراف على تدوين تلك المعلومات كلها.^(٣)

٣ - ديوان الإنشاء: عد هذا الديوان على جانب خطير من الأهمية في شؤون الحكم، والإدارة، ذلك أن مهمته كانت تبادل المكاتبات الرسمية الخاصة

(١) ابن منقذ: الاعتبار ص ١٦٤- ١٦٥

(٢) ابن الفرات: المصدر السابق مجلد ٤ ج ١ ص ١٤٧ - النويري: نهاية الأرب: ج ٨ ص ٢٠٠- ٢٠٣ - عاشور: المرجع السابق ص ٣٦ - الرمادي: صلاح الدين الأيوبي ص ٥٧ - حسنين محمد ربيع: المرجع السابق ص ٦٢- ٦٣

(3) poliak: feudalism in Egypt , Syria, Palestine and the Lebanon p 22.

بالدولة، وهي المكاتب التي كانت ترد إلى السلطان من خارج الدولة وداخلها، أي من حكام الدول الأخرى المجاورة وغير المجاورة، ومن النواب وكبار موظفي الدولة، وكان ديوان الإنشاء يطلع السلطان على هذه المكاتبات ويعد له الردود عليها.

وقد أفاض القلقشندي في مكانة صاحب ديوان الإنشاء عند السلاطين والملوك، (ولم يزل صاحب هذا الديوان معظما عند الملوك في كل زمن مقدما لديهم على من عداه، يلقون إليه أسرارهم، ويخصونه بخفايا أمورهم، ويطلعونه على ما لم يطلع عليه أخص خاصته من الأهل والولد والوزراء) وقد روعي في صاحب هذا المنصب أن يكون أمينا على السر (فصيح الألفاظ طلق اللسان، أصيلا في قومه، وقورا حليماً) على قول القلقشندي.^(١)

ولم يلبث أن اتسعت دائرة اختصاصات صاحب ديوان الإنشاء، إذ كان عليه أن يبلغ السلطان بما يصله من أخبار داخلية أولا فأول، ويحضر بحكم منصبه، اليمين التي يؤديها الولاة والحكام والأمراء عند تعيينهم في مناصبهم، ويكتب المراسيم الخاصة بتولي هذه المناصب ولم تكن هذه المهمة الأخيرة بالسهولة التي يتصورها البعض، وخاصة في عصر عرف برعاية الرسوم، والتمسك بهذه القواعد، ولكل مقام مقال، ولكل حاكم أو أمير أو موظف تقليد خاص يخاطب به حسب درجته ورتبته، بل أن الرسائل التي صدرت عن ديوان الإنشاء باسم السلطان اختلف في نوع الورق المدونة عليه، وحجم ذلك الورق، وطريقة الخط، كل ذلك باختلاف مكانة الشخص المرسل إليه، وهو ما افرد إليه القلقشندي أبوابا وفصولا في كتابه صبح الأعشى.^(٢)

(١) القلقشندي: صبح الأعشى ج ٣ ص ٤٩٠ - ٤٩١.

(٢) القلقشندي: المصدر نفسه ج ٣ انظر الفصل المتعلق بالمراسلات ونوع الورق.

وقد حفظ التاريخ أسماء مجموعة من أعلام الأدباء الذين ولوا ديوان الإنشاء في دمشق الأيوبية، ومن هؤلاء القاضي الفاضل أبو علي عبد الرحيم بن علي بن الحسن اللخمي، البيساني (ت ٥٩٦هـ/١١٩٩م)

ولد سنة تسع وعشرين وخمسمائة للهجرة بعسقلان، وكان والده قاضياً في بيسان، لذلك نسب إليها، وقرأ القاضي الفاضل كتاب "الحماسة" لأبي تمام، وآداب اللغة على يوسف بن محمد بن الحلال المصري (٥٦٦هـ - ١١٧٠م)^(١)، وسمع في الكهولة من أبي طاهر السلفي، وأبي القاسم علي بن عساكر، وعثمان بن فرج العبدي وغيرهم، وروى اليسير، وانتهت إليه براعة الترسل وبلاغة الإنشاء قال ابن خلكان "يقال أن مسودات رسائله ما يكثر عن مائة مجلد، وله النظم الكثير" قال الذهبي: "وله في ذلك الفن اليد البيضاء، والمعاني المبتكرة والباع الأطول، لا يدرك شأوه، ولا يشق غباره مع الكثرة" وعندما تملك صلاح الدين مصر اختصه لنفسه ووثق به كل الثقة وصار وزيره ومستشاره في كل صغيرة وكبيرة من أمور البلاد، فأحسن القاضي الفاضل النصيحة للسلطان صلاح الدين، وكان يشجعه على الصبر في الجهاد واحتمال الصعاب، وما لأمثال هؤلاء من فضيلة في الدنيا والآخرة، فكان يبعث الطمأنينة في نفس السلطان، ويجدد عزمه إلى الجهاد، فكان للقاضي الفاضل في ذلك أثر كبير، وهذا واضح كل الوضوح في رسائله للسلطان، ورسائل العماد الكاتب عن السلطان للقاضي الفاضل، وقد أورد أبو شامة، في كتابه "الروضتين" مقتطفات من تلك الرسائل التي دونت في مناسبات مختلفة، فكانت تلك الرسائل سجلاً حافلاً بأحداث العصر، وكان القاضي الفاضل مفرماً

(١) ابن الاثير: الكامل ج ١٠ ص ٣٦٦ - الذهبي: سير اعلام النبلاء ج ٢٠ ص ٥٠٥ - المبرج ٤ ص ١٩٤ - ابن كثير: البداية والنهاية ج ١٢ ص ٢٦٤ ابن العماد: شذرات الذهب ج ٤ ص ٢١٩.

بالكتب أيضا فقد حوت مكتبته على ما يزيد عن ألف كتاب^(١). ونلاحظ أن القاضي الفاضل اتبع في رسائله أسلوب التكلف اللفظي والسجع وغير ذلك من المحسنات اللفظية، لكنه في الوقت نفسه ابتعد عن التعقيد في أسلوبه إذا ما قيس بأسلوب العماد الكاتب.

هذا وقد حافظ القاضي الفاضل على مكانته في دمشق الأيوبية، حيث كتب بعد وفاة الناصر صلاح الدين لابنه العزيز، وأخيه العادل أبي بكر، ثم مات العادل والفاضل، وتولى الكامل عن العادل، فكتب له أمين الدين سليمان المعروف بكاتب الدرج إلى أن توفي، فكتب بعده للكامل الشيخ أمين الدين عبد المحسن الحلبي مدة طويلة، وكتب للصالح نجم الدين أيوب، وثم ولي ديوان الإنشاء للصالح بهاء الدين زهير ثم صرفه وولى بعده الصالح فخر الدين إبراهيم بن لقمان اللاسمردى بقي إلى انقراض الدولة الأيوبية.^(٢)

ومن إعلام الكتاب أيضا العماد الكاتب: أبو عبد الله محمد بن محمد بن حامد الاصبهاني (ت ٥٩٧هـ/١٢٠١م) والمعروف أيضا بابن أخي العزيز، ولد العماد بأصفهان سنة (٥١٩هـ/١١٢٥م) ونال بها ثقافته الأولى، وأتقن اللغتين العربية والفارسية، وخشي والده من شر السلاجقة، فارتحل بأسرته إلى بغداد سنة (٥٣٤هـ/١١٣٩م) ليعيش في حماية الخليفة العباسي المتقي، وكان العماد قد بلغ الخامسة عشرة في العمر، وهو فارسي الأصل، ومن أسرة عريقة، تسلم أبناؤها في أصفهان وسواها أكبر المناصب السياسية والعلمية، ودخل العماد المدرسة النظامية ببغداد وتفقه فيها على المذهب الشافعي، وقرأ علوم اللغة العربية، واشتغل في اقليوس، وقد ذكر العماد الكاتب هذه المرحلة من حياته

(١) العماد الكاتب: الجريدة (قسم شعراء مصر) ج ١ ص ٣٥ وما بعدها، ابن الأثير: الكامل ج ١٢ ص ١٥٩، ياقوت معجم البلدان ج ١ ص ٥٢٧، أبو شامة: الروضتين ج ٢ ص ١٣١ - ١٣٤ - ١٤٤ - ٢٤٤، الذيل على الروضتين ص ١٧، ابن خلكان: وفيات: ج ٣ ص ١٥٨، ابن العماد: الشذات ج ٤ ص ٣٢٤ - ٣٢٧.
(٢) مؤلف مجهول: المقصد الرفيع المنشأ: الهادي إلى صناع الإنشاء ص ٦٥ - ماشور: المرجع السالف: ص

فقال: "اجتمعنا في بغداد في المدرسة النظامية سنة ست وثلاثين وخمسمائة شريكين في الفقه موسومين بالإعزاز عند شيخنا ابن الرزاز"^(١) وهكذا قضى العماد أيام شبابه ببغداد مكباً على التحصيل، والدرس في أشهر مدارسها، منتقلاً بين حلقات العلماء سعياً وراء المعرفة والتعلم، وقال العماد في وصف جدّه ومثابرتة على الدراسة في المراحل الأولى، من حياته بقوله: "وكنت مع صغري كبير الهمة، كثير الاهتمام بإثبات أبيات تنشر، وتطلب ضالة فاضل تشد، أو ترى سماع ما يؤثر عنهم رواية، واختار كتب ما استحسنه حديثاً ونظماً وحكاية"^(٢).

لم ترق الأيام للعماد الكاتب العيش في بغداد بعد سنة (٥٥٧هـ/١١٦٢م)، فهجرها وتقل في عدة بلدان، ثم توجه إلى دمشق حيث دخلها سنة (٥٦٢هـ/ ١١٦٦م)، وتعرف بها على قاضي، ومدبر أمورها كمال الدين بن الشهرزوري، فانزله بالمدرسة النورية الشافعية عند باب الفرج^(٣)، وعرض القاضي كمال الدين على نور الدين أمر العماد، وبين فضائله، ومدح نور الدين بقصيدة شعرية، ثم ولاء كتابة الإنشاء في الديوان بدمشق عوضاً عن كاتبه أبي اليسير شاكر بن عبد الله المعري وذلك سنة (٥٦٣هـ/١١٦٧م)^(٤) وارتفع شأن العماد عند نور الدين فجعله مشرفاً عاماً على الديوان سنة (٥٦٨هـ/١١٧٢م)، وصار مدبر أمره، وفوض إليه التدريس في المدرسة النورية الشافعية سنة (٥٦٧هـ/١١٧١م)، وقد دعيت فيما بعد العمادية، لطول إقامته بها وتدريسه فيها، كما كانت له حلقة خاصة بجامع دمشق للمناظرة، وبعد وفاة نور الدين خلفه ولده الصالح إسماعيل، وكان حدثاً، وعبث به أوصياؤه، وجرّدوا العماد من وظائفه، ولم يبقوا له إلا الكتابة في الديوان، ويبدو أنهم أخذوا في مضايقته

(١) العماد الكاتب: الخريدة القسم الشامي م ج ٢ ص ٢٣٠

(٢) العماد الكاتب: الخريدة (القسم الشامي) ج ٢ ص ٤٧٣

(٣) النعمي: الدارس ج ١ ص ٢٠٨

(٤) ابن خلكان: وفيات الاعيان ج ٢ ص ٧٤

إلى أن أكره على التخلي عما بيده، فقرر السفر إلى بغداد على الرغم من مرضه، وتوقف في الموصل بسبب المرض، وعند ما بلغه قدوم صلاح الدين وتسلمه دمشق، عاد أدراجه وكان السلطان إذ ذلك على حصار حلب وأدرك السلطان بحمص، واجتمع معه ومدحه بقصيدة طويلة، واستكتبه صلاح الدين وصار في منزلة مرموقة لأنه أصبح الوزير الثاني بعد القاضي الفاضل، فكان القاضي الفاضل ينقطع بمصر لمهمات، فيسد العماد في الخدمة مسده، واستمر العماد على ذلك إلى وفاة صلاح الدين سنة (٥٨٩هـ / ١١٩٣م) فخدم من بعده ابنه الأفضل نور الدين علي بصناعة الإنشاء، وخلال هذه الفترة اقتصر عمله على الكتابة بسبب ما شاهده من كثرة الدسائس، والمؤامرات التي تكتنف البيت الأيوبي من أجل السلطة ولاسيما أن الأفضل اتخذ ضياء الدين بن الأثير وزيراً له، وانفرد هذا الوزير بأمور الدولة وابعد الأمراء واکابر الدولة عن أمور الملك، لذلك اضطر العماد إلى الارتحال إلى الملك العزيز بمصر وأقام بها إلى سنة (٥٩٢هـ / ١١٩٥م) حيث قدم مع الحملة التي قادها الملك العزيز مع عمه المالك العادل لعزل الملك الأفضل، وطرد وزيره ابن الأثير، واعتزل في هذه الفترة العمل الديواني، ولزم بيته وعكف على التصنيف والتأليف^(١)، فمن آثاره النثرية: " كتاب خريدة القصر وجريدة العصر " ويعد هذا الكتاب من المصادر الهامة لبحثنا، وهو من أهم مؤلفات العماد الأدبية، كتبها في عشرة مجلدات، وقسمها إلى أربعة أقسام، وذكر العماد أنه ترجم للشعراء الذين كانوا بعد المائة الخامسة إلى سنة (٥٩٢هـ / ١١٩٥م) من أهل العراق والشام، ومصر، والجزيرة، والمغرب، والأندلس، وصقلية، وخراسان.

(١) ياقوت: معجم الادباء ج٧ ص ٨١ - سبط بن الجوزي: مرآة الزمان ج٢ ص ٥٠٤ - ابو شامة: الذيل على الروضتين ص ٢٧ - ٢٨ ابن خلكان: وفيات الاعيان ج ٥ ص ١٤٧ - الذهبي: سير اعلام النبلاء ج ٢١ ص ٣٤٥ - ٣٥٠ - حاجي خليفة: كشف الظنون جزء ١ ص ٧٠١ ٧٦١ - ج٢ ص ٩٧٢ - ابن العماد: شذرات الذهب: ج٤ ص ٣٢٢-٣٢٣

لقد فاق العماد الكاتب في كتابته للرسائل الديوانية المتقدمين، وله رسائل كثيرة في مناسبات مختلفة أوردتها أبو شامة في كتابه "الروضتين" كما حوت مصنفاته التاريخية كثيراً منها ويبدو أن الرسائل الديوانية كانت ذات نمط موحد تقليدي، يتقيد به كتاب الدواوين، أما أسلوب العماد في النثر الأدبي، وفي مصنفاته التاريخية فقد لفت نظرنا شدة تصنعه فيهما وإيراده لأنواع السجع، والجناس، والطباق، بحيث يصعب على الباحث فهم ما أوردته من أحداث كما في كتابيه (البرق الشامي) و (الفتح القسي) ولعله أراد من خلال ذلك إظهار براعته الأدبية، حيث قال عنه أبو شامة (إلا أن العماد الكاتب في كتابيه طويل النفس في السجع والوصف يمل الناظر فيه، ويذهل طالب معرفة الوقائع عما سبق من القول وينسبه.^(١)

وكان منهم أيضا أبو الفتح ضياء الدين. نصر الدين، نصر الله بن محمد بن عبد الكريم بن عبد الواحد الشيباني الحراني ت (٦٣٧هـ/١٢٣٩م) عرف بابن الأثير وولد في جزيرة ابن عمر^(٢)، الواقعة أقصى الشمال الشرقي من بلاد الشام، وتحول منها مع أبيه وأخوته إلى الموصل، أكب على دراسة كتاب اشتمل على ثلاثة آلاف خبر من الأخبار النبوية التي تدخل في الاستعمال، وواظب على مطالعته مدة تزيد على عشر سنين إلى أن أتقن حفظه كما يقول هو عن نفسه.^(٣)

كما تلقى حظا وافرا من اللغة، والنحو، والبيان، والأخبار، وقال في أول كتابه (الواشي المرقوم في حل المنظوم): "حفظت من الأشعار ما لا أحصيه، ثم اقتصر على الدواوين لأبي تمام، والبحثري، والمتبي، فحفظتها".^(٤)

(١) أبو شامة: الروضتين ج ١ ص ٥٠٤

(٢) بلدة فوق الموصل . لها رستاق خصب واسع الخيرات . شبه الهلال . ثم عمل هناك خندقا . أجرى فيه الماء فأحاط بها الماء من جميع النواحي . انظر ياقوت: معجم البلدان .

(٣) ابن الأثير: المثل السائر في أدب الكتاب والشاعر ج ١ ص ١٢٨ طبع مطبعة البابي الحلبي بالقاهرة سنة (١٣٥٨هـ - ١٩٣٩م)

(٤) الذهبي: سير اعلام النبلاء ج ٢٣ ص ٧٢ - ٧٣

ويبدو أن ابن الأثير اختار دواوين، هؤلاء الشعراء، لا اعجابه بهم، فحفظ دواوينهم وهكذا أستكمل ابن الأثير ثقافته الأدبية بالموصل، فهو لم ترتحل عنها كما إننا لا نعرف عنه انه ولي عملا بها بعد بلوغه العشرين من عمره، ويبدو أن والده كان ميسوراً مما أتاح له إتمام تحصيله العلمي دون عناء، وقال الذهبي في كتابه سير الأعلام: (كان بينه وبين أخيه عز الدين مقاطعة ومجانبة شديدة) فرحل عن الموصل في شهر ربيع الأول سنة (٥٨٧هـ / ١١٩١م) وقصد السلطان صلاح الدين فقدمه ووصله القاضي الفاضل، فأقام عنده اشهراً ثم بعث به إلى ولده الملك الأفضل فاستوزره، وعندما تولى السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب (٥٨٩هـ / ١١٩٣م) تسلم الأفضل دمشق، واشتغل بلهوه، وترك زمام أمور البلد كلها بيد وزيره ضياء الدين، وصار الاعتماد عليه في تصريف شؤون المملكة فاستبد بالحكم بعد أن لزم مولاه الأفضل الزهد بعد اللهو فاختلفت أحوال البلد، وكثر شاكوه من المتظلمين، وبذلك أساء السيرة وساهم في ضياع ملك الأفضل بسبب سوء تديره للأمور السياسية، فحسن للأفضل استبدال كبار رجالات دولة والده، فنفروا منه وفارقوه، والتحقوا بخدمة أخيه العزيز ملك مصر فاحسن وفادتهم.

وعندما انتزع العزيز دمشق من أخيه الأفضل بالاتفاق مع عمه الملك العادل، وتم لهما ما أراداه وتركاه له صرخد، وفر وزيره متخفياً، وعندما تولى الملك العزيز استدعي الأفضل إلى مصر ليلي نيابة ابن أخيه الملك المنصور، فطلب وزيره ابن الأثير واستمر في خدمته إلى أن أخرج الملك العادل الملك الأفضل من مصر، وعوضه عنها بالديار المشرقية وذلك سنة (٥٩٦هـ / ١١٩٩م)، ولم يخرج ابن الأثير بصحبته، ويبدو أن حياته كانت في خطر، لذلك اضطر للخروج من مصر مستخفياً، ووصل ابن الأثير إلى الأفضل وهو بسمياط بعد مدة، لكن ابن الأثير فارق الأفضل سنة (٦٠٧هـ / ١٢١٢م) ويبدو أن هذا الفراق حصل بسبب اختلافه معه في بعض شأنه، واتصل ابن الأثير بالملك الظاهر غازي صاحب

حلب، لكنه لم يجد عنده ما يحقق طموحه، وأقام أخيراً بالموصل، وذلك سنة (٦١٨هـ/١٢٢١م) وكتب الإنشاء فيها لصاحبها ناصر الدين محمود بن مسعود بن ارسلان شاه، والاتابك يومئذ الأمير بدر الدين أبو الفضائل لؤلؤ، وقد ذكر ابن القوطي في كتابه الحوادث الجامعة، أن ابن الأثير ورد إلى بغداد مراراً في رسائل من بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل، وأشار إلى أنه ورد عام وفاته إليها رسولا من قبله فمرض ببغداد وفيها توفى في السنة المذكورة.^(١)

لقد أمضى ابن الأثير جل حياته بالسياسة بالإضافة إلى ما اعتري حياته من عدم الاستقرار في بعض الفترات، ومع ذلك فقد خلف تصانيف أدبية على جانب كبير من الأهمية وذكر ابن الأثير في كتابه: المثل السائر " أن رسائله ومكاتباته، قد بلغت عدة مجلدات، ومن مصنفاته الهامة كتابه: المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، " وهو مطبوع، وله كتاب " الوشي المرقوم في حل المنظوم " وله " ديوان الترسل " وهو في عدة مجلدات، وله أيضاً " الجامع الكبير في صناعة المنظوم والمنثور " وهو مطبوع وغيرها من المصنفات.^(٢)

ومما ذكر نجد أن دائرة اختصاصات صاحب ديوان الإنشاء كانت واسعة للغاية. مما تطلب وجود أعوان لصاحب هذا الديوان، ويأتي في مقدمتهم " نائب كاتب السر " الذي ينوب عن ناظر الديوان في الرد على المكاتبات الواردة في حال تغيب الناظر أو تخلفه لحضور مجالس السلطان، وكان يلي نائب كاتب السر في المرتبة " كاتب الدست الشريف " وهم كتاب ديوان الإنشاء، والذين أطلق عليهم اسم " الموقعين لأنهم كانوا يجلسون مع رئيسهم كاتب السر بمجلس السلطان بدار العدل. ويوقعون على الشكاوي والقصص المرفوعة إليه،

(١) الذهبي: سير اعلام النبلاء ج ٢٣ ص ٧٣

(٢) ياقوت: معجم البلدان ج ٢ ص ٧٩ - أبو شامة: الذيل على الروضتين ص ١٦٩ - ابن خلكان: وفيات الاعيان ج ٢ ص ١٦١ - الذهبي: سير اعلام النبلاء ج ٢٣ - ص ٧٢ - ٧٣ - والمبرج ٥ ص ١٥٦ - ابن تعزري بردي: النجوم الزاهرة ج ٦ ص ٣١٨ - السيوطي بغية الدعاة ج ٢ ص ٣٥١ - ابن العماد: شذرات الذهب ج ٥ ص ١٨٧ - ١٨٨

وتوزعت أعمال ديوان الإنشاء على كتاب الدست، فكان منهم من يقوم بصياغة الرسائل الموجهة إلى ملوك المسلمين وأمرائهم واشترط فيه الدراية بألقابهم، ومنهم من يقوم بصياغة المكاتبات الموجهة إلى ملوك الفرنجة أو ترجمة الرسائل الموجهة من هؤلاء الملوك إلى السلطان، ويشترط من هذا النوع من المكاتبات دراية باللغات الأجنبية، ومنهم من اشتهر بحسن الخط على أنواعه.^(١)

وارتبط بكتاب السر في عمله موظف كبير اسمه الداودار، وهو الذي كان يقوم بتبليغ الرسائل من السلطان واليه، ولما كان صاحب هذه الوظيفة يطلع على كل ما يصدر من ديوان الإنشاء وما يرد عليه من مكاتبات لأنه هو الذي يختتمها بخاتم الدولة، ويقيدها في سجلات خاصة فإن وظيفته كانت من الوظائف الخطيرة، كما روعي في اختياره دائماً أن يكون بين كبار الأمراء.^(٢)

٤ - ديوان المظالم: في بعض الأحيان كانت تنشأ مشاكل يصعب

البت فيها أمام القضاء العادي، والتعامل معها بمقتضى سلطان المحتسب أيضاً، كأن يكون الخصم صاحب مركزاً أو تكون الظلامة مرتبطة بالدولة في شكل والي أو عامل أو ديوان خراج أو بيت مال، حينئذ دعت الحاجة إلى إنشاء هيئة لها هيبتها، ورهبتها حتى تبت في الأمر المستعصي عن الحل، وتقضي في الخلاف الذي يحتاج إلى حزم وبت سلطة قوامها العدل، ودستورها الحسم والشدة، فكان لا بد من اختصاص أحد ذوي الهيئة بالنظر في المظالم حتى ولو اقتضى الأمر أن يكون الخليفة نفسه هو الذي يجلس للنظر فيها^(٣)، يقول الماوردي^(٤). كان أول من افرده للظلمات يوماً يتصفح فيه قصص المتظلمين من غير مباشرة للنظر عبد الملك بن مروان، فكان إذا وقف منها على مشكل أو احتاج فيها إلى حكم منفذ رده إلى قاضيه أبي إدريس الأزدي فنفذ فيه أحكامه

(١) عاشور: المرجع السالف ص ٢٨

(٢) عاشور المرجع السالف ص ٢٨-٣٩.

(٣) ابن الاثير: الكامل ج ٦ ص ١٢١ - د. مصطفى الشكعة: معالم الحضارة الإسلامية ص ٩٥

(٤) الماوردي: الأحكام السلطانية ص ٧٤.

لرهبنة التجارب من عبد الملك بن مروان في علمه بالحال، ووقوعه على السبب، فكان أبو إدريس هو المباشر، وعبد الملك هو الأمر، ثم زاد من جور الولاية، وظلم القضاة ما لم يكفهم عنه إلا أقوى الأيدي وانفذ الأوامر، فكان عمر بن عبد العزيز رحمه الله أول من ندب نفسه للنظر في المظالم فردها وراعى السنن العادلة وأعادها".

ولمجلس المظالم هيكل ثابت التكوين لا يتم انعقاده ولا يستكمل أسباب شرعيته إلا بحضور أعضائه، وهم خمسة أصناف، وهم الحماية، والأعوان، الذين يستطيعون جلب القوي - القضاة والحكام الذين يكونون بمثابة مستشارين لصاحب المظالم، الفقهاء يرجع إليهم صاحب المظالم فيما أشكل عليه، الكتاب الذين يثبتون ما يجري بين الخصوم ويدونون ما لهم من الحقوق وما عليهم، الشهود الذين يشهدهم صاحب المظالم ما أصدره من أحكام وما أوجبه من حق^(١)

٥ - ديوان الأحباس: وهو ما يشبه في يومنا هذا الأوقاف، ويقوم صاحبه برعاية شؤون المؤسسات الدينية، والخيرية من جوامع ومساجد وربط وزوايا وخانقاوات، والمدارس التي شيدها السلاطين الأيوبيون أنفسهم، وأوقفوا عليها أوقافاً ينظر عليها ديوان الاحباس من حيث الإيراد والصرف ويبدو أن كثيراً من الأموال خرجت من ديوان الاحباس بقصد اقتداء أسرى المسلمين^(٢). كما كان يشرف على الأراضي والعقارات المحبوسة عليها، وكانت شؤون الاحباس في العصر الأيوبي من اختصاص القاضي، ولم تقتصر الأوقاف في عصر الأيوبيين على الحوانيت والخانات والفنادق والأراضي الزراعية الواسعة مثلما كان الحال في العهود الماضية، وإنما اتسعت الأوقاف في ذلك العصر لتشمل كثيراً من

(١) مصطفى الشكعة / المرجع السالف ص ٩٩ - ١٠٠

(٢) القلقشندي: صبح الاعشى ج ٣ ص ٣٦٨ - القرظي: المواعظ والاعتبار ج ٢ ص ٧٨ - ٧٩ - ٤١٥ -

ابن جببر الرحلة ص ٢٠ - ٢١ ابو شامة: الروضتين ج ١ ص ١٩١ - ٢٤١ - ابن كثير الكامل ج ١٢ ص ٦٧.

الأعيان الموقوفة مثل معاصر الزيت، والقصب، والحمامات، والطواحين، والأفران، ومصانع النسيج، ومخازن الغلال^(١).

٦ - ديوان النظر (المال): اختص هذا الديوان بمراقبة حسابات الدولة، والإشراف على إيراداتها ومصروفاتها، وما يتبع ذلك من القيام بصرف مرتبات الموظفين، وكان جانب من هذه المرتبات أو الأرزاق يصرف نقداً، في حين صرف الجانب الآخر عينا، من غلات ولحوم، وتوابل، وسكر، وشمع عدا الكسوة، ومن الواضح أن أصنافا مثل الخبز واللحوم كانت توزع على الموظفين، والمستحقين يوميا، في حين أن السكر والزيت والشمع ونحوها توزع شهريا، أما الكسوة فكانت سنوية، ووصف المقرئزي ناظر هذا الديوان بأنه أكبر موظفي الدولة وأهمهم عملا وأعلامهم قدرا، إذ صار له " أمر ونهي وحال جليلة لكثرة الحمل الواردة، وخروج الأموال المعروفة في الرواتب لأهل الدولة وكانت أمرا عظيما، لذلك قام بمساعدته جملة من الموظفين أهمهم مستوفي الصحة، وهو بمثابة وكيل الديوان - وشهود بيت المال وصيرفي بيت المال، عدا الكتبة، وهم كثيرون^(٢).

وممن اشرف على هذا الديوان في عهد الملك العادل القاضي الأسعد بن مماتي^(٣).

٧ - ديوان الزكاة: وقد أوجده صلاح الدين بعد أن أبطله الفاطميون، وجعل الزكاة البديل عن المكوس، والرسوم غير الشرعية، واهتم بجمعها، وأقام لها ديوانا تسلمه (متولي الزكاة) وكانت حصيلتها زهيدة ففي عام (٥٨٦ - ٥٨٧هـ/ ١١٩٠ - ١١٩١م) كانت (١١٨٦١) ديناراً، وكان صلاح الدين في ضائقة مالية شديدة لسداد نفقاته الباهظة في حصار عكا، وتعهد له رجل

(١) ابن مماتي: قوانين الدواوين ص ١٤ - عاشور: المرجع السابق ص ٤١

(٢) المقرئزي: المواعظ والاعتبار ج ٢ ص ٨٠ - ٨١ - ٨٢ - عاشور: المرجع السالف ص ٤٢

(٣) ابن العميد: أخبار الأيوبيين ص ٩

يدعى ابن حمدان بجمع (٥٢) ألف ديناراً في سنة واحدة فتجمعت عن ذلك مظالم كثيرة، وكانت الزكاة تؤخذ على الذهب، والفضة، وعروض التجارة، والماشية، والمزروعات، ومع إعفاء المواد الغذائية كالسمسم، وبذور الكتان والزيتون، والخضار.^(١)

٨ - ديوان الطواحين: ومهمته الإشراف على طحن الغلال^(٢).

٩ - ديوان الاهراء: ويشرف على مخازن الغلال السلطانية^(٣).

١٠ - ديوان المرتجعات: وينظر في كل ما يتعلق بتركات الأمراء^(٤).

ويبدو أن لفظ (ديوان) صار مع مرور الزمن يطلق على الإدارات الصغيرة مثل الإسطبلات، ديوان العمائر، ديوان الموارث الشرعية، وكانت مهمته الإشراف على أموال من يموت وليس له وريث.^(٥)

إدارة البريد: وهي من الإدارات التي تمتعت بقسط كبير من الأهمية في عصر الأيوبيين كانت تتبع ديوان الإنشاء وقد تولت ربط مختلف أطراف الدولة بعضها ببعض، وكان البريد على نوعين، بري وجوي، فالبريد البري تم بواسطة الخيل، والبغال، والجمال، وله عدة طرق.^(٦)

وعلى امتداد هذه الطرق جميعاً أقيمت محطات متقاربة تزود البريديين ودوابهم بما يحتاجون إليه من طعام وعلف وماء ومأوى، وقبل أن يخرج البريدي حاملاً رسالة إلى جهة ما ينبغي أن يزود بخطاب اعتماد، ويكتب له ورقة طريق بالتوجه إلى جهة قصده ويترك اسمه وتاريخ سفره والجهة التي يتوجه إليها، والعمل الذي توجه بسببه، وذلك بدفتر الديوان، ومن الواضح أن مهمة هؤلاء

(١) ابن شداد: ص ١٤٨ - ١٥٣ - شاکر مصطفى: صلاح الدين الفارس المجاهد ص ٢٨٨

(٢) عاشور: المرجع السابق ص ٤٢

(٣) عاشور: المرجع السالف ص ٤٢

(٤) عاشور: المرجع السالف ص ٤٢

(٥) عاشور: المرجع السالف ص ٤٢

(٦) السبكي: المصدر السالف ص ٣٢ - ٣٣

البريديين كانت جسيمة، إذ صار عليهم توصيل التعليمات من السلطان إلى النواب والأمراء وحمل أخبار هؤلاء إلى السلاطين، وربما كانت هذه التعليمات شفوية ولذا روعي في البريدي: " أن يكون بصيرا بمخارج الكلام وأجوبته، مؤديا للألفاظ بمعانيها. صدوقا، بريئا من الطمع "

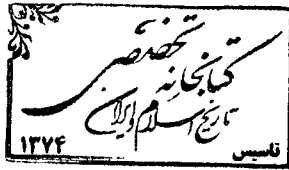
أما البريد الجوي فقد استخدمه صلاح الدين في إدارة شؤون دولته، فضلا عن حروبه ضد الصليبيين، وقد روعي في الرسائل التي يحملها الحمام الزاجل أن تكون من نوع خاص من الورق الخفيف وان تكون مختصرة تحوي ما قل ودل، حتى لا تعوق الحمامة عن الطيران السريع، وكانت الرسالة توضع تحت جناح الحمامة أو ذيلها بطريقة خاصة فإذا كانت الرسالة هامة وخطيرة كتبت في نسختين وأرسلت مع حمامتين حتى إذا ما ضلت إحداهما الطريق أو قتلت، أو افترستها الجوارح، أمكن الاعتماد على وصول الرسالة الأخرى، ومن الواضح أن الحمام الزاجل كان يخصص لنقل الرسائل العاجلة.^(١)

وقد شيدت للحمام الزاجل أبراج على امتداد طرق البريد لتكون بمثابة محطات ولهذه الأبراج موظفين مدربين، بحيث إذا وصلت حمامة من هذا النوع إلى البرج عنوا بأمرها، تسلموا منها الرسالة ليبعثوا بها إلى البرج التالي، في حين تستريح الحمامة الأولى قبل أن يسمح لها بالعودة إلى قاعدتها.

(١) القلقشندي: صبح الأعشى ج ١٤ - ص ٤٩ - ٤١٠ - ص ٤٣٨ - ٤٣٩ عاشور: المرجع السابق ص ٣٩ - ٤٠.

الباب الثاني

الجانب الاقتصادي والاجتماعي
والثقافي



الحالة الاقتصادية

مقدمة:

شهدت دمشق في عصر الأيوبيين مجداً وعزاً لم تشهد مثلها منذ عصر الأمويين، وبعد عصر الأيوبيين في دمشق عصر نهضة حقيقية عامة في جميع مرافق الحياة، ذلك أن دمشق أصبحت مركزاً ومقراً للأيوبيين بعد قدوم صلاح الدين إليها، واستقراره بها بشكل دائم سنة (٥٧٨هـ/١١٨٢م)^(١) لكن هذه المدينة سرعان ما تعرضت للخراب والدمار والحريق، نتيجة الحروب التي دارت بين أبناء صلاح الدين، وتمثل ذلك بالصراع القائم بينهم على السلطة، حيث سعى العزيز صاحب مصر لانتزاع دمشق من أخيه الأفضل بمساعدة عمه العادل، كذلك تعرضت دمشق ثانية للخراب والتفكيك عندما دبّ الصراع بين أبناء العادل، حيث حاول الكامل بن العادل استخلاص دمشق من الناصر داود بن عيسى، وقامت جيوش الكامل بنهب البساتين، وإحراق الجواسق، وأبيدت الأشجار، وقطعت الأنهار عن دمشق، وهدم الكثير من الرباع والخانات حول البلد، وكثر الحريق والنهب في البلد^(٢)، ورغم كل ذلك كانت دمشق تلملم جراحها، وتنهض إلى مجدها وعزتها وخاصة في أوقات الاستقرار التي تشهدها، فدمشق في هذا العصر ازدحمت بالأمراء والقواد والجنود على اختلاف أجناسهم من أتراك ومماليك، وكانت لهم موارد مالية كثيرة ينفقونها على حاجاتهم الذاتية، مما عاد بالرفاهية والرخاء على الشعب الدمشقي. هذا وقد وصف

(١) ابن واصل: مفرج الكرب ج ١ ص ٨٩. ٩١. ١٠١ - ١٠٢. ١٢٦. قساطلي: الروضة الفناء في دمشق الفيحاء ص ٥٠.

(٢) أبو شامة: الروضتين في أخبار الدولتين ج ٣ ص ٤٥٢. ٤٥٣ - ٤٥٤. الموسوعة الشامية ج ١٩. الذيل على الروضتين ص ٢٥. ٢٥. ٣٥. ١٧٨. ٣٠٠. ٣٢٤.

الإدريسي^(١) دمشق مبيناً لنا جمال هذه المدينة وعظمتها، ووفرة مياهها، وتقدم صناعاتها، فقال: «ومدينة دمشق من أجمل بلاد الشام وأحسنها مكاناً، وأعدلها هواءً، وأطيبها ثرى، وأغزرها ماءً، وأكثرها فاكهة، وأعملها خصباً، وأوفرها مالاً، وأكثرها جنداً، وأشمخها بناءً، ولها جبال ومزارع تعرف بالفوطة، ومدينة دمشق جامعة لصنوف من المحاسن، وضروب من الصناعات، وأنواع من الثياب الحرير، كالخز، والديباج النفيس العجيب الصنعة، العديم المثال الذي يحمل منها إلى كل بلد، ويتجهز منها لكل الأفاق، والأمصار المصاغبة لها، والمتباعدة منها، ومصانعها في كل ذلك عجيبة يضاهي ديباجها بديع ديباج الروم، ولدمشق في داخلها على أوديتها أرحاء كثيرة، والحنطة فيها كثيرة جداً وأنواع الفواكه».

وقد أوضحت حاصلات دمشق الزراعية كالشمش والبطيخ وغيرها، من الثمار والبقول تنتقل إلى بلاد الغرب مع منسوجاتها، كالأقمشة القطنية والدمقس والنحاس المكفت بالفضة، وكذلك السكر والزجاج، ويروى أنه مرّ في هذا العصر «سيمون سيمكولي» الإيطالي فأعجب بما رآه في أسواق دمشق من التحف، وأنواع المصنوعات الدمشقية، فقال: لو كنت خبأت دراهمك في عظم ساقك لما توقفت عن كسره لتشتري بها^(٢).

وقد وصف الرحالة ابن جبير دمشق أثناء إقامته بها، فقال: جنة المشرق ومطلع حسنه المؤنق، وهي خاتمة بلاد الشام التي استقريناها، وعروس المدن التي اجتليناها، وقد تحلت بأزاهير الرياحين وتجلت في حلل سندسية من السباتين، وحلّت من موضوع الحسن بالمكان المكين، وتزينت في منصتها أجمل تزيين، وتشرفت بأن أولى الله تعالى المسيح وأمه صلى الله عليهما، منها ربوة

(١) محمد بن محمد بن عبد الله بن إدريس الحموي المعروف بالشريف الإدريسي: نزهة المشتاق في اختراق الأفاق ج ١ ص ٣٦٦ - ٣٦٩.

(٢) صفوح الخير: مدينة دمشق دراسة في جغرافية المدن - منشورات وزارة الثقافة دمشق ١٩٦٩ - ص

ذات قرار معين، ظل ظليل وماء سلسبيل، ورياض يحيى النفوس نسيمها العليل، وامتدت بشرقيها غوطتها الخضراء امتداد البصر. فكل موضع لخطته بجهااتها الأربع نضرتة اليانعة قيد النظر، والله صدق القائلين: «إن كانت الجنة في الأرض، فدمشق لا شك فيها، وإن كانت في السماء فهي بحيث تسامتها وتحاذيها»^(١).

وقد كان لدمشق كذلك نصيب وافر من اهتمام الغربيين، فقد وصفها الرحالة الغربي «لودولف فون سوخم» مبيناً عظمة دمشق، واحتوائها على جميع أنواع البضائع، وصوّر لنا بسايتها الجميلة ومياهاها، حتى أنه أوضح من خلال وصفه أنواع الصناعات، والتجارة والحرف وعادات الأهالي فيها، كذلك أتى على وصف نهرها العظيم، نهر بردى، وحدائقها، ومما أورده هذا الجغراف في المورخ أن الإغريق لكثرة حبهم لدمشق واحترامهم لها يطلقون دوماً على أبنائهم اسم «بولي داماس Poly Damas»، أي مدينة دمشق^(٢).

وقد كانت دمشق عاصمة للزنكيين قبل أن تكون عاصمة للأيوبيين، فنهضت منذ عصر الزنكيين نهضة اقتصادية كبرى في مختلف الميادين من زراعية، وصناعية، وتجارية وغيرها، وازدادت هذه النهضة قوة في ظل الأمراء الأيوبيين، الذين راعوا اقتصاد مناطقهم، وأكدوا الصفة الوراثية للإقطاعات، مما جعل أصحابها يهتمون بأراضيهم وإنتاجهم، وأصبح القمح المورد الرئيس في دمشق التي انتشرت فيها أيضاً الفواكه والقصب والقطن، وحتى دودة القز، وشهدت دمشق في هذه الحقبة تقدماً هاماً في نسج القطن وصناعة الورق^(٣).

وكان من عوامل ازدهار الحياة الاقتصادية في دمشق، مجاورتها للإمارات الصليبية، التي انهارت على إثر معركة حطين، وخاصة المملكة التي كانت في

(١) ابن جبير: الرحلة ص ٢٣٤.

(٢) رحلة لودولف: الموسوعة الشامية ج ٢٧ ص ٢٨٢ - ٢٨٣.

(٣) EA - SHTDR: «Hitoiedes Prixet des salaies dans lo - riet medieval» paris S - E - V. P. E.N » 1969 PR 233 ET - Passim.

قدس فلسطين، والتي تأسست عقب الحملة الصليبية الأولى، حيث كانت لهذه المملكة صبغة تجارية إلى جانب عملها الحربي، وتوطدت العلاقة التجارية بين هذه المملكة، وعاصمة الأيوبيين، وخاصة أيام الهدنة والسلم، لأن دمشق امتازت بمركزها الاقتصادي في الشرق، لوقوعها على طريق القوافل الآتية من الهند والعراق، تحمل بضائع هذه الأقطار إلى الثغور الشامية، فاستفادت دمشق فائدة كبرى من هذه الحركة الاقتصادية النشيطة التي أوجدتها الحروب الصليبية^(١).

والملاحظ أن أغلبية المعارك التي خاضها صلاح الدين الأيوبي من أجل توحيد دولته، ومن ثم المعارك التي دارت بينه وبين الصليبيين، كانت تدور حول المراكز التجارية الهامة في (حلب - حماة - حمص - غزة - عسقلان)^(٢). وبقية دمشق الهدف الأول للنزاعات بين خلفاء صلاح الدين، لكونها المركز الرئيسي للتجارة في بلاد الشام.

وقد كان للصدام الشهير بين صلاح الدين و«أرناط» «رينودي شايون» بارون الكرك الذي كان يخطط لتأسيس مملكة أفرنجية في الجزيرة العربية، والتحكم في البحر الأحمر فائدة كبرى لدمشق من الناحية التجارية، بعد القضاء على أرناط والاستحواذ على حصن الكرك.

فحصن الكرك الذي كان يقطع الطريق على القوافل التجارية الذاهبة من الشمال إلى الجنوب، أو من الشرق إلى الغرب، كان يتحكم به أرناط، وبناء عليه فإن خرق أرناط لشروط الهدنة بين الفرنج والمسلمين بقيامه سنة (٥٨٢هـ/١١٧٧م)^(٣) بالاستيلاء على القافلة القادمة من مصر، التي كانت تريد

(١) عطية القوصي: تجارة دمشق عبر البحر الأحمر منذ فجر الإسلام حتى سقوط الخلافة العباسية ص ١٣٥.

(٢) البياز المريني: مصر في عصر الأيوبيين ص ٢٠٢.

(٣) أبو شامة: الروضتين: ج ٢ ص ١٨ - ابن جبير: الرحلة: ص ٢٧٦ - ٢٧٧ - عاشور: العصر المالكي في مصر والشام دار النهضة العربية ١٩٧٠ ص ١٦٩.

دمشق، وعند وصولها إلى الشوبك نزلت القافلة عند أرناط بالأمان، لكن أرناط وأتباعه غدروا بأصحاب القافلة، وقتلوهم بعد أن نشادوه الله، والصلح الذي بينه وبين المسلمين، فقال ما يتضمن الاستخفاف بالنبي ﷺ وقال: «قولوا لمحمدكم يخلصكم»، وبلغ ذلك السلطان، فحملة الدين والحمية على أنه نذر إن ظفر به قتله، فلما فتح عليه بالنصر والظفر، جلس في دهليز الخيمة فإنها لم تكن نصبت، والناس يتقربون إليه بالأسارى، ويمن وجدوه من المقدمين، ونصبت الخيمة، وجلس فرحاً مسروراً شاكراً لما أنعم الله به عليه، ثم استحضر الملك جفري وأخاه، والبرنس أرناط، وناول السلطان الملك جفري شربة من جلاب بثلج فشرب منها، وكان على أشد حال من العطش، ثم ناول بعضها البرنس أرناط، قال السلطان للترجمان: قل للملك أنت الذي سقيته وأما أنا فما سقيته، وكان على جميل عادة العرب، وكريم أخلاقهم، أن الأسير إذا أكل أو شرب من ماء من أسره أمن، فقصده بذلك الجري على مكارم الأخلاق، ثم أمر بمسيرهم إلى موضع عين لنزولهم، فمضوا وأكلوا ثم عادوا فاستحضرهم ولم يبق عنده أحد سوى بعض الخدم، فأقعد الملك في الدهليز واستحضر أرناط، وأوقفه على ما قال: وقال: «ها أنا ذا أنتصر لمحمد صلى الله عليه وسلم» ثم عرض عليه الإسلام فلم يفعل، ثم سلّ النمجة وضربه بها، فحل كتفه، وتمم عليه من حضر، وعجل الله بروحه إلى النار، فأخذ ورمى على باب الخيمة^(١).

ولم تكن حادثة أرناط أول ولا آخر خرق لشروط الهدنة مع المسلمين، حيث ذكر أن الملك ريتشارد الذي كان يقيم في يافا، قام بالاستيلاء على قافلة قادمة من مصر تريد الشام، وما أن وصلت القافلة إلى مكان قريب من إقامة الملك، حتى تسلح هو وفرسانه وباغت القافلة عند الفجر في موقع بالقرب من يافا يدعى «الصهريج الأحمر» وانقضوا على القافلة، وعلى من فيها من سلاح، ودافع رجال

(١) أبو شامة: الروضتين ج ٣ ص ١٩ - ٣٦. (الموسوعة الشامية ج ١٩). ابن شداد - سيرة صلاح الدين ص

القافلة عن أنفسهم، لكنهم لم ينجحوا، واستولى ريتشارد على القافلة، وعلى ما كان فهياً، وقتل من المسلمين لا يقل عن ألف ومائتي رجلاً لاقوا حتفهم، واقتاد الملك القافلة إلى يافا^(١).

وعلى هذا كان القضاء على الإمارات الصليبية التي كانت تعيق الحركة التجارية بين مصر وبلاد الشام، أدى إلى إيجاد حركة اقتصادية نشيطة، حيث خلصت القوافل التجارية من تهديد البارونيات الصليبية لها.

وقد أشار ابن جبير إلى الحركة التجارية بين المسلمين وتجار النصارى، وبين المسلمين والإفرنج، فقال: شاهدنا في هذا الوقت الذي هو شهر جمادى الأولى من ذلك خروج صلاح الدين لجميع عسكر المسلمين بمنازلة حصن الكرك، وهو من أعظم حصون النصارى، وهو المعترض في طريق الحجاز، والمانع لسبيل المسلمين على البربينه، وبين القدس مسيرة يوم، فنازله هذا السلطان وضيق عليه، وطال حصاره، واختلاف القوافل من مصر إلى دمشق، على بلاد الإفرنج، غير منقطع، واختلاف المسلمين من دمشق إلى عكا كذلك. وتجار النصارى أيضاً لا يمنع أحد منهم ولا يعترض، وللنصارى على المسلمين ضريبة يؤدونها في بلادهم، وهي من الأمانة على غاية، وتجار النصارى أيضاً يؤدون في بلاد المسلمين على سلمهم، والاتفاق بينهم والاعتدال في جميع الأحوال، وأهل الحرب مشتغلون بحريهم، والناس في عافية والدنيا لمن غلب، وفي الفتنة الواقعة بين أمراء المسلمين وملوكهم كذلك، ولا تعترض الرعايا ولا التجار، فالأمن لا يفارقهم في جميع الأحوال مسلماً أو حربياً^(٢).

وكذلك راجت التجارة بسبب التطور الزراعي والصناعي بدمشق، وكان للتجار الذين يرتادون دمشق قصور في الشام لسكناهم وكانت سفنهم تغدو

(١) وليم الصوري: تاريخ أرنول ونيول - تاريخ وليم الصوري - ذيل تاريخ وليم الصوري - تأليف وتحقيق د.

سهيل زكار ص ٤٢٧ - ٤٣٨ الموسوعة ج ٨ دمشق (١٤١٤هـ/١٩٩٤م).

(٢) ابن جبير: الرحلة - ص ٢٧٦ - ٢٧٧.

وتروح في البحر المتوسط بالتجارة الشامية، وعقد السلطان صلاح الدين مع جمهورية بيزا معاهدة، وذلك في ١٥ صفر سنة (٥٦٩هـ/١١٧٢م) منح فيها تجار بيزا عدة امتيازات كممارسة طقوسهم الدينية، واستعمال مكابيلهم وموازينهم، وأعفوا عن المكوس المفروضة على الذهب والفضة^(١).

وكان بمدينة دمشق رجلا من التجار ميسوري الحال وأغنيائهم المنغمسين في الثراء، قاما بدور كبير في إنعاش الحالة الاقتصادية في البلاد، أحدهما يعرف بنصر بن القوام، والثاني أبي الدرّ ياقوت مولى القطاني، وكانت تجارتها كلها بساحل المتوسط ولا ذكر فيه لسواهما، ولديهما الأمان من المقارضين، فالقوافل صادرة، وواردة ببضائعهما، وشأنهما في الغنى كبير، وقدرهما عند أمراء المسلمين عظيم^(٢).

(١) أحمد دراج: الوثائق العربية المحفوظة في دور الأرشيف الأوربية (مصر الإسلامية) الندوة الدولية

لتاريخ القاهرة ص ١٢٢-٣٠٩-٣٠٧ Wiet: opct pd

(٢) ابن جبير: الرحلة ص ٢٩٨. الرمادي: صلاح الدين الأيوبي ص ٧٦.

الفصل الأول

الزراعة في دمشق الأيوبية

اشتهرت بلاد الشام بكثرة حاصلاتها، وتنوع منتجاتها، وجودة أصنافها، حيث عدّها أكثر الجغرافيين من محاسن البلاد، وقال فيها شيخ الرّبوّة^(١): «قالوا سمي الشام شاماً لشامات في أرضه بيض وسود ولأنه من جهة الشمال من جزيرة العرب، أو لأن ساماً بن نوح نزل فيها، وإنما بدلت السين شيناً للتفاضل وحده» وقال: «ودمشق تسمى جلق الخضراء، والفوطة ذات العماد في عصرنا، وهي مدينة عادية أزلية سهلية جبلية من أنزه بلاد الأرض، وأطيبها، وأحسنها، وأبهجها» وقال: «وعدد بساتينها مئة ألف واحد وعشرون ألف بستان، تسقى بماء واحد، يأتي إليها من أرض الزيداني، ومن وادي بردى عين تتحدر من أول الوادي، ومن عين الفيحة، وينبعث نهراً واحداً يسمى بردى، ثم يتفرع سبع فرقات كل فرقة نهر يسمى باسم، نهر يزيد، فتحه يزيد بن معاوية، ونهر ثوره فتحه ملك من ملوك الروم اسمه ثوره، ونهر بانياس الحكيم اليوناني، ونهر القنوات، وكلاهما يجريان إلى داخل المدينة، ويتفرقان في المصارف والبرك، والقنا والحمامات، والطهارات، ونهر مراه منسوب إلى قرية تسمى مزه، وكان اسمه المنزه لما بها من صحة الهواء، وصفاء الماء ومن القصور وطيبة الثمار، وكثرة الزهور والورد، ونهر داريا سادس النهور، وهو أرفعها مجرى وأبعدها مقسماً، وسابع النهور، نهر بردى الجاري في قرارة الوادي، ولا يقبل إلا الارتفاع

(١) شيخ الرّبوّة: نخبة الدهر في عجائب البر والبحر منشورات وزارة الثقافة والإرشاد القومي ١٩٨٣ ص ١٨٦ - ١٨٧ - ١٩١.

من مجراه منه تقسمت الأنهار المذكورة ثم ينقسم من هذه الأنهار فرق وجداول، وتتفرق متشعبة بأراضي الغوطة، حتى لا يبقى منها بقعة يمكن وصول الماء إليها إلا ويصل».

ويضيف الشريف الإدريسي في وصف مدينة دمشق فيقول: «ومن باب دمشق الغربي وادي البنفسج، وكله مغروس بأجناس الثمار تشقه خمسة أنهار، والغوطة أيضاً هي أشجار وأنهار، ومياهاها مخترفة تشق البساتين والديارات، وبها من أنواع الفواكه ما لا يحيط به تحصيل، ولا يأتي به تمثيل كثرة وخصباً، وطيباً، ودمشق أنزه بلاد الله»^(١).

وقال ابن سعيد المغربي^(٢) عن غوطة دمشق: «إنها من جنات الأرض الأربع، وهي مفضلة على الثلاثة الأخرى، سمرقند، شعب بوان، والأيلة».

وعدها البدري^(٣) من محاسن البلاد، ولا تقع تحت حصر أو عدّ، وقد ذكر القلقشندي بعض مزروعات الشام ورياحينه قال: «أما زروعه فغالبيتها على المطر، ومنها ما هو سقي الأنهار، وفيها من الحبوب. من البر والشعير والذرة، والباقلاء (الفول) والبسلة (البازيلاء) والجلبان والحلبة، والسّمسم والقرطم (العصفر) وبها من أنواع البطيخ والقثاء ما يطاب ويستحسن، وكذلك غيرها من المزروعات كالقلقاس والملوخيا، والباذنجان، والجزر، والهليون، والقنبيط، والرجلة (البقلة الحمقاء - يؤكل ورقها مطبوخاً ونيئاً)^(٤)» والبقلة اليمانية وغير ذلك من أنواع الخضراوات المأكولة. أما الفواكه ففيه التين والعنب، والرمان والمشمش، (وكان يدعى أحياناً بخوخ دمشق) والخوخ (وهو المسمى بالدراق) والتوت ويكثر

(١) الشريف الإدريسي (أبي عبد الله محمد بن محمد بن عبد الله بن إدريس الحموي الحسني) نزهة المشتاق في اختراق الآفاق - المجلد الأول ص ٣٦٦ مكتبة الثقافة الدينية.

(٢) ابن سعيد المغربي (أبي الحسن علي بن موسى): كتاب الجغرافية ص ١٥٢ - حققه وعلق عليه إسماعيل العربي ط١ بيروت ١٩٧٠.

(٣) البدري: (عبد الله محمد البدري المصري الدمشقي): نزهة الأنام في محاسن الشام ص ٢٥٧ - ٢٥٨.

(٤) القلقشندي: صبح الأعشى ج٤ ص ٨٦ - ٨٧ - ٨٨ - ٨٩ - ١٢٣.

التفاح والكمثرى، والسفرجل والجوز والبندق، والإجاص والعنب، والزعرور،
والزيتون فيه الغاية في الكثرة، وأنواع الحمضيات كالأترج والليمون والكباد
والنارنج.

أما رباحينه: ففيه ما لا يعد لكثرتة وتنوعه والمشهور منها: الأس - والورد -
والنرجس والبنفسج والياسمين والنسرین^(١).

وسنقوم بدراسة هذه المحاصيل بالتفصيل على ضوء ما توفر من المصادر
والمراجع المختصة.

- الحبوب والبقول:

وتأتي على رأس الحاصلات الزراعية لأهميتها الغذائية للإنسان والحيوان،
وهي من الزراعات القديمة، رافقت حياة الإنسان على الأرض، وتشمل القمح
والشعير والأرز، والجلبان والكرسنة ويمارس الفلاح زراعتها في السهول ذات
التربة الخصبة، والمناخ المعتدل^(٢).

ومنها ما يعتمد على ماء السماء، ومنها يزرع سقياً بواسطة مياه العيون،
والينابيع والأنهار، ونظراً لوفرة الإنتاج يعتمد الفلاحون إلى تخزينه من الموسم إلى
الموسم، يقتاتون به ويقدمونه علفاً لحيواناتهم، وتزرع الحبوب في أطراف دمشق،
ومنطقة حوران^(٣).

أما البقول فتأتي أهميتها بالدرجة الثانية بعد الحبوب، لاعتماد الإنسان
عليها في حياته اليومية، ومن البقول ما هو صيفي، ومنها الشتوي، وقد أورد ابن

(١) ابن حوقل: صورة الأرض ص ١٧٣ - ١٨٢.

. الاصلطخري: المسالك والممالك ص ٤٤ - ٤٧ أمينة بيطار: الحياة السياسية مظاهر الحضارة الإسلامية
في بلاد الشام ص ٣٣١

(٢) كلود كاهن: مجلد أول ص ١٧٤.

(٣) ياقوت: معجم البلدان ج ٢ ص ٤٦٣ - أمينة بيطار: المرجع السابق ص ٣٣١.

مماتي^(١) منها الفول والحمص والجلبان والعدس، وتعدّ غوطة دمشق من أشهر المناطق في زراعة البقول^(٢). وغالباً تسقى هذه المزروعات رياً.

- الخضار: ولها من الأهمية ما لغيرها من المواد الغذائية التي يتناولها الإنسان، حيث يعتمد عليها في حياته اليومية باستمرار، ومنها البصل والثوم، والترمس واللفت والفجل والخس والكرنب، وتنتشر زراعتها بغوطة دمشق أيضاً^(٣).

- الأشجار المثمرة: تعد دمشق من المناطق الشهيرة بكثرة أشجارها، وفواكهها المتنوعة وجودة ثمارها، ووفرة إنتاجها. وقد جهد الفلاح في زراعتها، واعتنى بها عناية فائقة، وحسّن أنواعها بالتطعيم، فكثرت أصنافها، حتى غدت بعض المناطق مضرب المثل ومنها غوطة دمشق التي اشتملت على العديد من البساتين^(٤)، ومما يدل على اهتمام الأيوبيين بزراعة الأشجار المثمرة قيام الملك المعظم بجلب الأغراس إلى الشوبك حتى يضاهاى بها دمشق^(٥).

ومن أهم الأشجار المثمرة:

١ - المشمش: وكان يدعى (خوخ دمشق) لكثرة أشجاره، وتعدد أصنافه، حيث عدّد البدرى^(٦). منها /٢١/ صنفاً، أشهرها الحموي، والسندياني، والعرييلي، واللوزي، وتعتبر غوطة دمشق من أهم مناطق زراعته^(٧) كما أن زراعته كانت منتشرة في معظم مدن بلاد الشام في تلك الأونة، ويصف نشوء

(١) ابن مماتي: قوانين الدواوين ص ٢٥٨ - ٢٧٠.

(٢) النويري: نهاية الأرب ج ١ ص ٧٨. الأمير علي الحسيني: تاريخ سورية الاقتصادي: دمشق ١٩٢٤ ص ٣٠. ٤٣.

(٣) البدرى: نزهة الأنام ص ٢٥٧ - ٢٥٨. حتي: تاريخ سورية ج ١ ص ١٢٧ ج ٢ ص ٣٠٢.

(٤) محمد كرد علي: غوطة دمشق ص ١٦.

(٥) حتي: تاريخ سورية وفلسطين ص ٢٥٥.

(٦) البدرى: نزهة الأنام ص ١٨٧ - ١٨٨.

(٧) كرد علي: خطط الشام ج ٤ ص ١٨٢ - ١٨٣.

الدولة أحمد بن نفاذة^(١) أحد شعراء العهد الأيوبي موسم المشمش في دمشق بقصيدة أرسلها إلى العماد الذي كان خارج دمشق يحثه إلى العودة إليها، وذلك في الخامس من جمادى الأولى سنة (٥٨٦هـ/١١٩١م) وقد دخل أوان موسم المشمش المعهود، وهو موسم دمشق المشهود يقول فيها:

دعا الناس للذات شمش جَلَّق فقد أسرعوا من كل غرب ومشرق
فقم يا عماد الدين تحظ بأكله ولا تثن عنه عزيمة السير تسبق
ويذكر ابن شداد^(٢) وصول شمس دمشق إلى صلاح الدين، وهو مقيم على حرب الإفرنج في يافا، ضمن فاكهة دمشق الكثيرة التي أرسلت إليه، وقد أطعم أمراء جيشه منها، وكان برفقته ابنه الملك الظاهر، وكان مشمش دمشق رخيص الثمن، وذلك لكثرتة، والرطل منه بربع درهم، ويستفاد منه في صناعة القمر دين - المربيات - النقوع (المشمش المجفف)^(٣).

٢ . التفاح: وتعدّ زراعة التفاح من المزروعات القديمة، وكان تفاح الشام مضرب المثل لكثرة أنواعه، وجودته، وحسنه، ويصدر قسم منه إلى الديار المصرية والعراق، وقد روى الثعالبي^(٤) أنه كان يحمل منه إلى الخلفاء كل سنة ثلاثون ألف تفاحة من خراج أجناد الشام.

وكان يزرع في دمشق، وهو أصناف كثيرة ذكرها البدري^(٥). وعدّ منها ثلاثة وعشرين نوعاً: أشهرها المسكي، والشتوي، والبلدي، والصيفي، والقاسمي، والفاطمي، والحرستاني، واللبناني، والعلواني.

(١) أبو شامة: الروضتين في أخبار الدولتين ج ٣ ص ٢٩٩ (الموسوعة الشامية ج ١٩).

(٢) ابن شداد: سيرة صلاح الدين ص ٢٤.

(٣) البدري: نزهة الأنام ص ١٨٨ - ١٨٩.

(٤) الثعالبي: لطائف المعارف - القاهرة، ١٩٦٠ ص ٩٥ - ١٥٦. أحمد أمين: ظهر الإسلام ج ٢ ط ٢

القاهرة ١٩٦٢ ص ٢٤٦. آدم متز: الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري ج ٢ ص ٣٠٩.

(٥) البدري: نزهة الأنام ص ١ - ٢.

ومعظم زراعته تعتمد على مياه الأمطار، ومنها ما يعتمد على السقاية بالأنهار، ويوجد التفاح في المناطق المعتدلة الباردة، لذلك تكثر زراعته في الأماكن المرتفعة كقرية الزيداني^(١).

٣ - الدراق والكمثرى والسفرجل والبرقوق: وتزرع هذه الأنواع في مناطق زراعة التفاح، أي المناطق المعتدلة الباردة، لأن الحر الشديد يؤثر عليها، كما يؤثر البرد والصقيع، وهي تحب المياه، ولذلك أكثر ما تزرع في الغوطات، كغوطة دمشق يقول البدري^(٢): أنها أصناف بدمشق، فمن أنواع الدراق: خواصكي، رصاصي - حمصي - نيرياني - لوزي، ولا يعمّر الدراق أكثر من عشر سنين.

وأما الإجاص ويسميه أهل الشام بالخوخ، وهو أصناف أيضاً، صيفي - زجاجي - قبرصي - أسود - عين البقر^(٣).

وكل هذه الأصناف والألوان بالمزة، واللوان من أرض الشام. ويوجد السفرجل والخوخ في معظم المناطق^(٤).

٤ - التوت: يزرع في مناطق متعددة من بلاد الشام وبخاصة في غوطة دمشق، فقد ذكر البدري^(٥): أن من محاسن الشام أرض بضار وبهران وهما معدن التوت وأصل حسنه المنعوت. وهو أصناف محسني - بندقي - عجمي - شامي - (وهو الأسود) كما نسب إلى الشام التوت الأحمر^(٦).

(١) البدري. المصدر نفسه ص ٢٠٦ - ٢١٠.

(٢) البدري: المصدر نفسه ص ٢٠٦ - ٢١٥.

(٣) الدباغ: مصطفى مراد الدباغ: بلادنا فلسطين، ج ٢ ص ٥٩٤ طبعة بيروت ١٩٧٠.

(٤) ابن جبير: الرحلة ص ٢١٨.. البدري: نزهة الأنام ٢٤٩.

(٥) البدري: المصدر السابق ص ٣١٨ - ٣١٩.

(٦) القلقشندي: صبح الأعشى ج ٤ ص ١٢٧.

- ٥ . اللوز: ويزرع في مناطق متعددة في بلاد الشام، وزرع في دمشق، وهو أصناف منه الجبلي والقسطاسي - والعربيلي والعقابي والبندقي والشحمي^(١).
- ٦ . الكرمة: تشتهر بلاد الشام بزراعة الكرمة، ولا تكاد تخلو منطقة من بلاد الشام من هذه الزراعة عذياً ومروياً^(٢) وأماكن زراعته في غوطة دمشق وخاصة في قرى يلدا وداريا ودوما^(٣) حيث زرعت داريا أنواعاً من العنب، منه الزيني، والداراني واشتهرت دوما بعنبها الأحمر^(٤) شديد الحلاوة، هذا ويعد البدري^(٥) أكثر من خمسين صنفاً من صنوف الأعناب، وذكر أنه يعمل منه الزبيب والدبس والملبن، ويبدو إن إقبال الناس على زراعة العنب لفوائده الجمة، حيث يؤكل طازجاً ويصنع منه الدبس والزبيب والخمور والخل. وقد ساعد تنوع التربة والمناخ على الإكثار من زراعة الكرمة.
- ٧ . التين: أيضاً من المزروعات المنتشرة في معظم مناطق بلاد الشام. وتتركز زراعته في دمشق في قرية برزة حيث ينسب إليها التين البرزاوي، والمزى نسبة إلى قرية المزة^(٦) وللتين فوائد كثيرة غذائية ودوائية طبية. يؤكل نيئاً ويصنع منه المري، ويجفف ويحفظ لأيام الشتاء. كما أنه يقطع العطش، ويسكن الحرارة، ويلين المعدة، ويوافق الحلق وقصبة الرئة والمثانة والكلى، ويؤمن من السموم، وهو يقطع البواسير وينفع من النقرس^(٧).

(١) البدري: المصدر السالف ص ٢٤٥.
(٢) الاصلطخي: المسالك والممالك ص ٥٨ - ابن حوقل: صورة الأرض: ص ١١٣ - المقدسي: أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم ص ١٦٠ - ١٨٠ - كرد علي: خطط الشام ج ٤ ص ١٤٩.
(٣) المقدسي: المصدر نفسه ص ١٦٠ - ١٨٠.
(٤) ابن حوقل: صورة الأرض ص ١٦٩.
(٥) البدري: المصدر السابق ٢٢٣ - ٢٣٤ - ٢٣٥.
(٦) البدري: المصدر السابق ص ٢٦١.
(٧) محمد زيود: حالة بلاد الشام منذ العصر الطولوني حتى نهاية الدولة الفاطمية ١٩٨٧ - ص ٢٠٩.

٨ . الرّمان: وأماكن زراعته متعددة في بلاد الشام ومنها دمشق حيث يزرع في غوطة دمشق، ومنه أصناف عديدة منها الشويكي^(١) وذكر البدري^(٢) أكثر من عشرين صنفاً.

٩ . الزيتون: أشجار الزيتون ذات أهمية غذائية واقتصادية، وهي من الأشجار المباركة كما وصفتها الكتب السماوية، وتنتشر زراعة أشجار الزيتون في كافة مناطق بلاد الشام، وهي من المزروعات القديمة في المنطقة، ويدل على ذلك انتشار أشجار الزيتون المعمرة، ولشجرة الزيتون فوائد دوائية أيضاً، وقد جاء في الأحاديث الشريفة أنه يشفي من سبعين داء منها الجذام^(٣). ويزرع الزيتون في غوطة دمشق^(٤) وقلمًا تخلو مدينة أو قرية من أشجار الزيتون ويزيد إنتاج الزيتون والزيت عن حاجة الاستهلاك المحلي فيدخل في عدد الصادرات الشامية، وقد ضرب المثل بالزيت الشامي في الجودة والنظافة^(٥).

١٠ . الجوز: وزرع في غوطة دمشق، وفي منين التي ينسب إليها الجوز المنيني لرقّة قشرته، وبياض قلبه، وهو صنوف مغاربي، وفرك ومنيني وجبلي وبستاني، والصباغون يستعملون قشره في الصباغة^(٦).

١١ . الفستق: ويوجد في دمشق منه الشيء اليسير جداً، ومنها يصدر يابسه إلى الديار المصرية، وسائر المملكة، ويباع بأوفى ثمن^(٧).

(١) ابن حوقل: صورة الأرض ص ١٧٨، ١٨١ المقدسي: أحسن التقاسيم ص ١٦٦ البدري: المصدر السابق ص ٢١٤.

(٢) البدري: المصدر السابق ص ٢١٤.

(٣) جميل معلا وعبد الحنان حلوة: زراعة الزيتون في سورية دمشق ١٩٥٥، زيود: المرجع السابق ص ٢٠١.

(٤) البدري: المصدر السابق ص ٢١٣.

(٥) الثعالبي: لطائف المعارف ص ١٥٧.

(٦) البدري: نزهة الأنام ص ٣٤٥.

(٧) ابن حوقل: صورة الأرض ص ١٦٤.

١٢ . البطيخ: وهو نوعان: البطيخ الأصفر، والبطيخ الأخضر، وهذا التقسيم تابع للون القشرة.

فالبطيخ الأصفر: وهو أنواع: السمرقندي، والكمالي، وقد زرع بذر السمرقندي ببعض قرى دمشق (الضمير) فجاء طيباً للغاية^(١) ومن أصنافه أيضاً السلطاني والشمام^(٢).

وهو مخطط بالأصفر أما البطيخ الأخضر فقد اختصت به حلب، ويسميه أهل حلب «الذبش» وهو شديد الحلاوة رقيق القشرة^(٣). كما زرع البطيخ في دمشق، وهو أقل شأناً من بطيخ حلب، وزرع في بلدة داريا، وإليها ينسب البطيخ الداراني على ما ذكره البديري^(٤). بالإضافة إلى أصناف أخرى، المرجي (نسبة إلى المرج) ودومي (نسبة إلى دوما) وحبشي، وقبلي، وعواميدي، ولمعرفة حلاوة البطيخ روى البديري^(٥) ما قاله أبو مسهر عن أبيه: «كان أبي إذا بعثني أشتري البطيخ قال: «يا بني اعدد لخطوط التي فيها فإنك تك فرداً فخليق بها أن تكون حلوة».

كما زرع في دمشق أنواع من الحمضيات منها:

١٣ . الأترج: نقل إلى بلاد الشام من الهند في القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي وزرع في عمان والبصرة ودمشق وطرطوس^(٦).

١٤ . القنب: وكان يزرع في مناطق متعددة في بلاد الشام: منها غوطة دمشق، وسهول حلب، ويستخدم في صناعة الحبال والخيوط والأكياس^(٧).

(١) ابن الشحنة: الدر المنتخب في تاريخ مملكة حلب دمشق ١٩٨٤ ص ٢٥٣.

(٢) البديري: نزهة الأنام ص ٢٥٦.

(٣) ابن الشحنة: المصدر السابق ص ٢٥٣.

(٤) البديري: المصدر نفسه ٢٢٣.

(٥) البديري: المصدر نفسه ص ٢٢٣.

(٦) حسن إبراهيم حسن: تاريخ الإسلام ج ٤ ص ٢٨٧. آدم متز: الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري، دار الكتاب العربي ج ٢ ص ٣٠٦.

(٧) البديري: المصدر السابق ص ٦١. ابن الشحنة: المصدر السابق ص ١٤٨.

١٥ - الورود: يقول البدرى^(١) عن الورود: «هو جنس تحته ستة أنواع خلا الأسود، جيدة الجوري، وقرية الزيداني هي قلعة الورد يستخرجون بها ما ورد القاهرة المحروسة، ومكة المشرفة كما يزرع في دمشق، وبخاصة في المزة التي كان يصنع فيها ماء الورد»^(٢).

النرجس: وهو طيب الرائحة وتحته أنواع منها اليعقوري - البري والمضعف^(٣).
الزعفران: وكانت مزارع الزعفران في أرض الرينة^(٤). كما يوجد في البلقاء، ويستخدم في الصباغة، وصدّر منه إلى الغرب الأوربي لحاجتهم إلى استخدامه كدواء أيضاً، والزعفران العربي كان يسمى الورد، وهو نبات يشبه السمسّم وزرع لقيّمته في كثير من بلاد الشام^(٥).

البنفسج: ينبت في المواضع الظليلة طيب الرائحة جداً^(٦). ومن النباتات العطرية الأخرى التي احتوتها بلاد الشام الياسمين والمنثور والزنبق والقرنفل. ولذا كانت دمشق مختصة بالروائح العطرية، وماء الورد^(٧).

ومما ذكرته المصادر: أن وادياً بدمشق من الجانب الغربي كان يدعى وادي البنفسج، وقال عنه الإدريسي: «وادي البنفسج من باب دمشق الغربي، وطوله اثنا عشر ميلاً وعرضه ثلاثة أميال وكله مغروس بأجناس الثمار ويسقيه خمسة أنهار»^(٨).

(١) البدرى: نزهة الأنام ص ١٠٤.

(٢) محمد كرد علي: خطط الشام ج٤ ص ١٤٨.

(٣) البدرى: المصدر السابق ص ١٢١.

(٤) كرد علي: غوطة دمشق ٢٦٧.

(٥) المقدسي: أحسن التقاسيم ص ١٨٠ - ١٨١.

(٦) البدرى: المصدر السابق ص ١٢٣.

(٧) حتي: تاريخ سورية ولبنان وفلسطين ٢٥٤.

(٨) الإدريسي: نزهة المشتاق ص ٣٦٨ - ابن عبد الهادي: غدق الأفكار في ذكر الأنهار ص ٤.

- الثروة الحراجية: كانت بلاد الشام من أغنى البلاد الإسلامية بغاباتها، وأحراجها، وكثرة أشجارها، ونباتاتها الطبيعية، التي تضيف على البلاد جمالاً، وتلطّف المناخ، وهي بحد ذاتها مصدراً هاماً من مصادر الصناعات الخشبية والوقود، ومن هذه الأشجار التي وجدت في بلاد الشام، الحور والسرو، وكما هو معروف يحتاج الحور إلى ري دائم، لهذا كانت زراعته على طول مجاري الأنهار، كبردى والعاصي، كما غرس في غوطة دمشق والقلمون^(١). وقد ذكر: أنه كان في غوطة دمشق الكثير من أشجار السرو. ذكر المهلبى بأن وادي بردى كله مكتظاً بأشجار السرو^(٢).

ويبدو أن قسوة الإنسان، وحاجاته المتزايدة في التوسع، أفقدت الغابات كثافتها وأشجارها، فلم يبق منها إلا القليل، إضافة إلى تخريب الغابات أثناء الحروب.

- المراعي: تمتلك بلاد الشام مساحات شاسعة من الأراضي الصالحة لرعي المواشي، كما تعددت المروج واتسعت في السهوب، وعلى ضفاف الأنهار، وسفوح الجبال، وتخوم البادية. ومن هذه المروج منطقة عذراء في شرقي دمشق، كما اشتهرت الجولان بمراعيها الواسعة، حيث احتلت المرتبة الثانية بعد منطقة البادية من حيث سعة المراعي^(٣).

- ملكية الأراضي: لم تشر المصادر العربية ولا الأجنبية إلى ملكية الأراضي في العصر الأيوبي سوى بعض الإشارات المبعثرة، ومما ذكره المقرئزي^(٤). لوأما منذ كانت أيام صلاح الدين يوسف بن أيوب هذا، فإن أراضي مصر كلها صارت تقطع للسلطان وأمرائه وأجناده. وعندما يشير المقرئزي إلى وضع ملكية

(١) البدرى: نزهة الأنام ص ١٨٢-١٨٣. عبد الحنان حلوة: زراعة الحور في سورية، دمشق ١٩٥٥ ص ٢٠.

٢١.

(٢) المهلبى: قطعة دمشق مجلة معهد المخطوطات المجلد الرابع ج ١ ص ٦٤.

(٣) كرد عل: خطط الشام ج ٤ ص ١٣١-١٣٢. زيود: المرجع السابق ص ٢٢٩.

(٤) الخطط: دار التحرير ١٩٦٧ ج ١ ص ١٧٩.

الأرض في مصر زمن الأيوبيين، فإنه من البديهي أن يكون وضع أراضي دمشق مشابه تماماً لوضع أراضي مصر، أي أن ملكيتها كانت إقطاعية، لأن كلا المنطقتين تقع في ظل حكم واحد وهو الحكم الأيوبي. أما النوع الثاني من الملكية فهو الوقف.

- ملكية الإقطاع: وهو نوعان، مدني وعسكري .

فالإقطاع المدني: هو أن يقطع السلطان أرضاً لشخص ما فتعد رقبتها له^(١). أي أن الأراضي تصبح ملكاً لصاحب الإقطاع، أو بتعبير آخر هو تقسيم الأراضي الزراعية أقساماً أو إقطاعات يختص السلطان نفسه بنسبة خاصة، ويمنح البقية لأمرائه، والمقطع يستغله لفائدته^(٢). ويكون إقطاع إقليم بكامله نظير ضريبة تدفع، أو إقطاع جزء من الأرض لقاء العشر أو الخراج، أو توزيع دخل قطعة من الأرض كأجر أو معاش^(٣). وقد أفرد الماوردي^(٤) في كتابه الأحكام السلطانية فصلاً خاصاً للإقطاع، وأصنافه من حيث ما يصيبها من الحقوق، فجعلها في صنفين، وعرف الإقطاع المدني بقوله: «أن تكون لصاحبه ملكية تامة، وقد تكون وراثية أيضاً، وعلى صاحبه دفع العشر ويعطى من الأرض الموات لإحيائها، أو من أرض توفى صاحبها دون وارث».

الإقطاع العسكري: أما الإقطاع العسكري فهو مصدر دخل سنوي للأمير أو الجندي بما يعادل رتبته العسكرية، وحسن بلائه في الحرب^(٥) ولذلك فإن الخدمة في الجيش هي الأساس الأول في الحصول على الإقطاع^(٦)، ويدخل في

(١) الخوارزمي: مفاتيح العلوم، ليدن ١٨٩٠ م ص ٣٩.

(٢) الدباغ: المرجع السابق ج ٥ قسم ٢ ص ٧١.

(٣) دائرة المعارف الإسلامية: المجلد ٢ الثاني ص ٤٧٦ (مادة إقطاع).

(٤) الماوردي: الأحكام السلطانية طبعة أنجربونا ١٨٥٣ ص ٣٣٠ - ٣٤٣.

(٥) السيد الباز المريني: الممالك طبعة بيروت ١٩٦٧ ص ١٧١.

(٦) إبراهيم طرخان: النظم الإقطاعية في الشرق الأوسط في المصور الوسطى. القاهرة، ١٩٦٨، ص ١٩٤.

نطاقها حفظ الأمن في الداخل والخارج، ويحصل على الإقطاع من السلطان وديوان الجيش^(١).

ويمكن القول: إن صلاح الدين سلك المنهج الذي سلكه نور الدين في الإقطاع العسكري، وإن كان قد أدخل بعض التعديلات.

حيث يذكر أن السلطان نور الدين أبقى في سنة (٥٥٨هـ/١١٦٣م) لأولاد الجندي المتوفى على إقطاع أبيهم، فإذا لم يكن له ولد جعله لبعض أهله للمحافظة على تعداد العسكريين تاماً، وأصبح ذلك مبدأ، فإذا توفى أحد الجنود، وخلف ولداً ذكراً أقر السلطان إقطاعه عليه، فإن كان الولد كبيراً تولى إقطاعية وواجباته بنفسه، وإن كان صغيراً رتب السلطان معه رجلاً وصياً يتولى أمره حتى يكبر، وصار الأجناد منذ ذلك الوقت:

يقولون: «هذه أملاكنا يرثها الولد عن الوالد فتحن نقاتل عليها»^(٢).

وكان نور الدين يمنح الإقطاعات الشخصية لقاء خدمات حربية أو شبه حربية تتعلق بالأمن الخارجي، والداخلي، وأعمال القتال مثل التعبئة العامة، والتنظيم والتأمين واستمالة المحاربين، وتثبيط الأعداء، وخداعهم قبل المسير للحرب، ومن ذلك استمالة ملك الأرمن، صاحب الدروب المؤدية إلى الشام، منحه اقطاعاً على سبيل الإغراء حتى أجاب لطاعته، وخدمته ضد الفرنج^(٣) وهكذا فعل صلاح الدين عام (٥٨٥هـ/١١٨٩م) مع صاحب شقيف أرنون من الفرنج، فقد قبل دخوله في طاعته وخدمته على إقطاع يعطيه له^(٤).

ومن المعروف أن الدولة النورية كانت دولة عسكرية جهادية، أي أنها قامت على نظام إقطاعي حربي وقد شهد هذا النظام وتربى فيه، وعاش في مدارجه أبناء البيت الأيوبي جميعاً، ولما انفرد صلاح الدين بالحكم، عدل بعضاً منها،

(١) العريني: المرجع السالف ص ١٧١.

(٢) المقرئزي: الخطوط ج ٣ ص ٥٤. الباز العريني: المرجع السابق ص ١٦٦.

(٣) أبو شامة: الروضتين ج ١ ص ٨.

(٤) ابن شداد: سيرة صلاح الدين ص ١٢٣، ١٢٥.

وقد علم صلاح الدين أن أمور دولته لا تستقيم ولا يستقر حالها ما لم يثبت دعائمها الثلاث، الإدارية، والمالية، والإقطاعية، وقد أولاها عنايته واهتمامه. حتى جاءت متكاملة تتلاءم مع الظروف الحياتية التي تعيشها الدولة الأيوبية، وقلل صلاح الدين من النظام الإقطاعي الذي كان متفشياً زمن الفاطميين، وقلم أظفار الإقطاعيين الذين كانوا يملكون مساحات واسعة من الأرض يستخدمون فيها كثيراً من العبيد والأجراء، يستنزفون جهودهم^(١).

لقد كانت النواة الأولى للجيش الأيوبي هي تلك القوات التي كانت برفقة أسد الدين شيركوه أثناء حملته الثالثة على مصر سنة (٥٦٤هـ/١١٦٩م) وعدتها خمسمئة فارس من الأكراد والمماليك، وهم المعروفون باسم «الأسدية»، وستة آلاف فارس من القبائل التركمانية بإمرة عين الدولة الياروقي^(٢). فضلاً عن عدد غير معروف من الجند^(٣) وعندما تسلم صلاح الدين الوزارة في مصر انسحبت الأسدية، والتركمانيون من مصر، وعادت إلى الشام^(٤) لأن اختيار صلاح الدين للوزارة من دونهم ساءهم، وحرَّ في نفوسهم، فاضطر لإحاطة نفسه بطائفة من المماليك الخاصة بقيادة أبي الهيجاء السمين^(٥)، وأطلق عليها اسم الصلاحية، ومن الطبيعي أن يتخذ صلاح الدين من هاتين الطائفتين (الأسدية - والصلاحية) نواة جيشه وأن يخصصهم بأنعامه، فشرع بإلغاء إقطاعات الجند الفاطمي وتوزيعها عليهم^(٦).

(١) الرمادي: صلاح الدين الأيوبي ص ٧٣.

(٢) ابن الأثير: التاريخ الباهر طبعة القاهرة، ١٩٦٣، ص ٢٤٩. الرمادي: المرجع السابق ص ٧٣.

(٣) ابن الأثير: الكامل ج ١١ ص ٢٢٢ - ٢٢٣.

(٤) الباز العريني: الأيوبيون دار النهضة بيروت ١٩٦٧ ص ١٠٥.

(٥) ابن الأثير: الكامل ج ١١ ص ٢٢٧.

(٦) المقرئزي (تقي الدين أبي العباس أحمد بن علي المقرئزي): المواعظ والاعتبار لذكر الخطط والآثار المعروف بالخطط المقرئزية ص ٩٤ - ٩٥. هاملتون جب: التاريخ الإسلامي دمشق ص ١٠٧ - ١٠٨.

العريني: الأيوبيون ص ١٦٣.. آدم متر: الحضارة الإسلامية بيروت ١٩٦٤ ص ١١٣.

وعندما قام صلاح الدين بتوحيد بلاد الشام ومصر سنة (٥٧٠هـ/١١٧٥م) كان عدد فرسان صلاح الدين ستة آلاف بما فيهم عسكر دمشق، وخواصه من الصلاحية^(١). وقام صلاح الدين بتقسيم جيشه إلى قسمين، قسم أبقاه لحماية الديار المصرية، وقسم في بلاد الشام، وعند توجهه إلى حطين كان قوام جيشه حوالي العشرين ألف مقاتل بما فيهم عساكر دمشق، وحلب، والجزيرة، والموصل، وديار بكر^(٢).

ولسد نفقات الجيش جميعها كان لزاماً على صلاح الدين اتباع نظام الإقطاع العسكري الذي ورثه من الزنكيين، ومن قبلهم السلاجقة.

لم تتوقف إعطيات صلاح الدين وإقطاعاته على الجيش، بل تعدتها إلى البدو العرب، حيث ورد أن صلاح الدين عندما ضم بلاد الشام إلى مصر جاءت معه «قبائل ثعلبة وطائفة من جزم مصر، وبقية جزم مكانها، وقال المشهور من جزم: هذه قبائل جذيمة، ويقال: إن لهم نسباً من قریش، وكانت ديارهم من الشوبك إلى حسن تبوك إلى تيماء إلى برد ورؤاف إلى الحديداء وهي شرقي الحجز، وآخر أمرائهم كان شطي بن عقبة، وكان سلطاننا الملك الناصر قد أقبل عليه إقبالاً أصله فوق السماكين، وألحقه بأمرآء آل فضل وآل مرا، وأقطعه الإقطاعيات الجليلة، وألبسه التشريف الكبير وعمر له ولأهله البيت والخباء»^(٣).

وكذلك نزلت بأرض الغوطة عرب من زييد، ومنهم آل الرحال، وآل بدال، والدوس، والحريث، وهم جماعة نوقل الزييدي، وكانت ديارهم جميعاً، المرج والغوطة بدمشق، وليس لأحد إمرة عليهم من العرب، ولكن لهم شيوخ، وأمرهم

(١) أبو شامة: الروضتين ج ١ ص ٢١٧.

(٢) ابن الأثير: الكامل ج ١١ ص ٢٨٤ - العريضي: الأيوبيين ص ٢٦٣ - زكار: حطين مسيرة التحرير دمشق دار حسان ١٩٨٤ ص ١١٢ - ١١٣. جب: التاريخ الإسلامي ص ١٠٧ - ١٠٨.

(٣) العمري (شهاب الدين أبي العباس أحمد بن يحيى بن فضل الله العمري): مسالك الأبصار في ممالك الأمصار ص ١٠٧ - ١١١.

إلى نواب الشام مباشرة، وكان عليهم الدرك، وحفظ الأطراف، ومنهم بني ربيعة، ومن آل ربيعة مانع بن حديثة، كان أيام الملك الكامل^(١).

ولجأ الأيوبيون بالإضافة للأعطيات إلى منح رتبة الإمارة «ببوق وعلم»^(٢). حور إلى - أمير العرب - لبعض الشيوخ العرب الذين قدموا خدمات جلى في الصراع مع الصليبيين، وكان المهمندار ضابط الاتصال بين السلطة المركزية، وشيوخ العرب، وكان صاحب هذا المنصب يقتضي معرفة دقيقة بالقبائل وأنسابها، والعلاقات المتشابكة فيما بينها^(٣).

اتبع صلاح الدين نهج سيده نور الدين الذي كانت له فلسفته الخاصة في حيازة الإقطاع من قبل أمرائه ومقطعيه، يقول زنكي: «إذا كانت البلاد لنا فأي حاجة بكم إلى الأملاك؟ فإن الإقطاعات تفني عنها، وإن خرجت البلاد من أيدينا، فإن الأملاك تذهب معها، ومتى صارت الأملاك لأصحاب السلطان ظلموا الرعية، وتعدوا عليها، وغصبوها أملاكها، لذلك صار لا يملك الأرض، ولا يملكها إلا على سبيل الإقطاع لصاحبها حتى يموت أو يخلع»^(٤).

وذكرت المصادر أن صلاح الدين رفض طلب أخيه العادل بتخليكه نواحي حلب، وأن يكتب له بها كتاباً كأنه بيع أو شراء، وقال: «إنما تكون إقطاعاً، والبلاد لأهلها، والمرابطين فيها ونحن خزنة المسلمين دعاة الدين»^(٥).

وعندما عزم صلاح الدين على تقسيم أملاك دولته بين أبنائه، وأهل بيته جعل التقسيم على أسس إقطاعية^(٦)، كذلك حصر أبو بكر الملك العادل أخو

(١) العمري: المصدر نفسه ص ١٣٩.

(٢) منصب سلجوقي: أخذه الأيوبيون عن السلاجقة ومن الأيوبيين إلى المماليك. اتعاض الحنفاج ٣ ص ٢٢٧.

(٣) العمري: المصدر نفسه ص ١٦ - ١٧.

(٤) عبد العزيز سيد الأهل: أيام صلاح الدين ط ١٩٦١ ص ٤٥.

(٥) عبد العزيز سيد الأهل: المرجع السابق ص ٤٥.

(٦) ابن كثير: البداية والنهاية ج ١٣ ص ٦.

صلاح الدين الإقطاعات في أولاده، حيث يذكر أن صلاح الدين بعد أن استولى على دمشق، وزحف على حمص فضمها إليه، وأقطعها لابن عمه ناصر الدين محمد بن شيركوه، وكانت لأبيه من قبل، بالإضافة إلى إقطاع الرحبة الذي كان بيده^(١). وبعد ضم حماة أقطعها لخاله شهاب الدين محمود الحارمي، وبقي عليها حتى وفاته، فتسلمها من بعده الأمير ناصر الدين منكورس ابن الأمير خمارتكين، صاحب حصن أبي قبيس ومتولي عسكره^(٢). وفي سنة (٥٧٤هـ/١١٧٨م) أقطعت لتقي الدين عمر الذي جند العساكر، وأعد العدة لمواجهة أي خطر صليبي.

ولما حضر توران شاه أخو صلاح الدين من اليمن طلب من صلاح الدين أن يقطعه بعلبك فأمر صلاح صاحبها ابن المقدم أن ينزل عنها فأبى، فأرسل إليه قوة أرغمته على التنازل فاشتراط التعويض عنها، فأجابه صلاح الدين وتسلم تورانشاه بعلبك^(٣).

وفي سنة (٥٧٥هـ/١١٧٩م) كلف تورانشاه بالذهاب إلى الاسكندرية بمهمة، فحل محله عز الدين فروخشاه «ابن أخي صلاح الدين» ولبت في إقطاعه حتى وفاته سنة (٥٧٨هـ/١١٨٢م) فعين صلاح الدين ابنه الأجد بهرام شاه مكانه، واستمر حتى وفاته (٦٢٧هـ/١٢٣٠م)، أي قرابة خمسين سنة، وفي سنة (٥٨١هـ/١١٨٥م) وبعد وفاة ناصر الدين محمد بن شيركوه أمر صلاح الدين ابنه على جميع إقطاعات أبيه^(٤).

(١) أبو شامة: المصدر السالف ج ١ ص ٢٥٠. المقرئزي: الخطط ج ١ ص ١٧٩.

(٢) ابن خلدون: العبرج ٥ ص ٢٩٠. أحمد غسان سبانو: مملكة حماة الأيوبية دمشق ١٩٨٤ ص ٤٤. ٤٧.

(٣) ابن خلدون: العبرج ٥ ص ٢٩٣. ستانلي بول: الدول الإسلامية قسم ١ ص ٢٦٤.

(٤) ستانلي بول: الدول الإسلامية قسم ١ ص ١٦٤.

وفي سنة (٥٨٢هـ/١١٨٦م) أقطع صلاح الدين دمشق لابنه الأفضل علي^(١) وقد خطا الملك العادل خطوات أخيه صلاح الدين حين انفرد بالأمر في بلاد الشام ومصر، فأقطع أولاده دون غيرهم، فأعطى ابنه الأشرف بلاد ماردين في سنة (٦٠٢هـ/١٢٠٥م)، وخص ابنه الكامل بأعمال المقاطعات الشرقية التي كانت له أيام أخيه، وأقطع ابنه المعظم عيسى قلعة صرخد^(٢).

كذلك نهج أبناء العادل نهج أبيهم، فأقطعوا الإقطاعات لماليكهم وخواصهم. واعتمد السلاطين الأيوبيون على عدد من القادة العسكريين الذين أسهموا في توطيد الحكم الأيوبي، وأبلوا بلاء حسناً في قتال الصليبيين، فاستحقوا تقديرهم، وأغدقوا عليهم الأموال وأقطعوهم الأراضين، فأقدم صلاح الدين على تعيين شمس الدين بن المقدم أميراً على دمشق، ثم أقطعه بعرين، وكفر طاب، وحصن رعبان، كما أقطعه بعلبك، وأقطع صلاح الدين المقدم الكردي الأمير حسام الدين أبا الهيجاء السمين نصيبين بعد استرجاعها في سنة (٥٧٨هـ/١١٨٢م) وكذلك أقطع الأمير بدر الدين ولدروم بن بهاء الدين ياروق تل باشر، والأمير «سابق الدين عثمان ابن الداية» شيزر وأبا قبيس والأمير «سيف الدين بن المشطوب» مقدم الجيوش «علي بن أحمد» نابلس والأمير «عز الدين سامة» كوكب وعجلون^(٣).

وفي سنة (٥٨٠هـ/١١٨٥م) منح صلاح الدين ديار بكر إقطاعاً لمملوكه حسام الدين سنقر، وقد ظل هؤلاء الأمراء على إقطاعاتهم يمارسون حقوقهم، ويؤدون واجباتهم حتى وفاة صلاح الدين سنة (٥٨٩هـ/١١٩٣م)^(٤).

(١) المقرئزي: السلوك ج ٢ ص ٨٢ - أبو المحاسن: النجوم الزاهرة ج ٦ ص ١١٣.

(٢) المقرئزي: السلوك ج ١ ص ١٥٢.

(٣) إبراهيم طرخان: المرجع السالف ص ٤٠.

(٤) ابن كثير: البداية والنهاية ج ١٢ ص ٢١٥. الباز العريني: الأيوبيون ص ١٦٣. طرخان: المرجع نفسه

ص ٤٠.

كذلك أبقي الأفضل علي بن صلاح الدين أمراء جبل لبنان، على ما بأيديهم نظراً لحاجته إلى عونهم في صراعه ضد أخيه العزيز عثمان، لذلك عمل أولاد العادل على توزيع ما بأيديهم من إقطاعات على أمرائهم للإبقاء على رابطة الولاء والطاعة وحفظ الأمن داخل الإقطاع وخارجه، والنصرة في الحرب الأهلية الدائرة بين أفراد البيت الأيوبي، كما وزع بعضهم الإقطاعات في حياتهم، ومنهم «المعظم عيسى» الذي وزع البلاد الشامية على ممالكيه^(١)، أما بالنسبة للفلاحين فإن الضرائب المقررة عليهم زمن الأيوبيين اختلفت حسب طبيعة الأرض التي يملكونها، وقد أشار النويري إلى طبيعة وأنواع هذه الضرائب، وطريقة جمعها بقوله^(٢): «ثم يؤخذ من حاصل الفلاح بعد الرسوم عشر ما بقي له، وهذا غير مطرد في جميع البلاد، فإن من جهات الأوقاف والبر، وما يناسبها لا يؤخذ العشر إلا من النصاب الشرعي، وفي نواحي الخواص والإقطاعات، يؤخذ ما بقي للفلاح من كل عشرة أجزاء جزءاً مما قل أو كثر بحسابه، وفي بعض الأقاليم لا يؤخذ العشر من المزارعين الذميين، وأما النواحي الإقطاعية والأملاك التي أعشارها ديوانية، فمنها ما عليه ضريبة مقررة تؤخذ في كل سنة زاد المغل أو نقص، ومنها ما يندب له من يقف على النواحي، ويحزر ما بها من الغلال، ويقدر العشر عنها، ويكون هذا الحرز والزرع قائم أو حصيد قبل دراسة، ثم يستفاد بعد ذلك من الفلاحين ما لعله عليهم من التقاوى والقروض، ولتكون بمفردها مرصدة لتقاوى السنة الآتية ثم يعتبر ما يتحصل من الغلال على اختلاف أصنافها بالكيل المتعامل به في ذلك الإقليم، وتعمل بذلك مخازيم «دفاتر» على العادة مفصلة بالأسماء، وأصل المقاسمة والرسوم والعشر، وما لعله استعيد من التقاوى

(١) طرخان: المرجع السالف ص ٤٤.

(٢) النويري (شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب النويري) نهاية الأدب في فنون الأدب السفر الثامن ص ٢٥٩. ٢٦٠. نسخة مصورة عن مطبعة دار كتب مع استدراقات وفهارس جامعة - وزارة الثقافة والإرشاد القومي المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر.

والقروض، وعند تكامل قسم نواحي كل عمل ينضم على المخازيم عمل بالمتحصل».

وعلى الرغم مما ذكر عن نظام الإقطاع العسكري، فإنه للإنصاف جهدت الدولة الأيوبية من خلال تطبيقه على حماية الفلاح من سيده الإقطاعي، مادياً ومعنوياً من حمل الفلاحين على التمسك بالأرض^(١). وإن كان هناك خروقات من قبل بعض الولاة والمقطعين والجباة في التعدي على الفلاحين وظلمهم ومصادرتهم في بعض الأحيان^(٢)،

اتصفت الدولة الأيوبية بنوع من الازدواج في الإدارة مبعثها جهاز مركزي كبير في العاصمة، وأجهزة إقطاعية محلية صغيرة في مختلف الأقاليم في آن واحد^(٣). وحددت الإيجارات والجبايات والرسوم التي يدفعها الفلاح لسيده الإقطاعي، وإمعاناً في تعميم العدالة الاجتماعية، وضماناً لحقوق المقطعين والمقطعين على السواء، ارتأى صلاح الدين إعادة توزيع الإقطاعات، وتحديد مساحتها بما يتواءم مع الأوضاع الاقتصادية المستجدة^(٤).

ويستخلص مما ورد في المصادر أن المقطع كان مسؤولاً عن زراعة الأرض وسقيتها، واختيار الفلاحين الأكفاء، وإعدادهم، والإشراف على المحاصيل وجنيها، وصيانة الجسور، وكري القنوت، وجباية الخراج، وحفظ الأمن داخل إقطاعه، وجمع الجند الإقطاعي وتخصيص جزء من إقطاعه لكل واحد منهم سواء أكان الإقطاع كبيراً أم صغيراً^(٥).

(١) طرخان: المرجع السالف ص ٤٤.

(٢) ابن شداد: سيرة صلاح الدين ص ٢٢٩، أحمد صادق سعد، المرجع السابق ص ٤٥٧.

(٣) حسين محمد ربيع: النظم المالية في مصر زمن الأيوبيين القاهرة ١٩٦٤ ص ٨٠.

(٤) طرخان: المرجع نفسه ص ٩٥.

(٥) القلقشندي: صبح الأعشى ج ١١٢ ص ٣٣ - ٣٤.

الآثار الناتجة عن نظام الإقطاع العسكري على الزراعة:

الآثار الإيجابية: أتى نظام وراثته الإقطاع الذي وضعه الأيوبيون، أكله في بلاد الشام، إذ جعل أصحاب الإقطاعات يهتمون بأراضيهم، وإنتاجهم، وتشدد صلاح الدين بالإشراف على المقطعين، فلم يمنحهم أي حقوق إدارية أو سياسية على سكان الأراضي المقطعة، واحتفظ بهذا الحق بأيدي الدولة المركزية^(١). وحماية الفلاحين من عسف وجور ساداتهم، منعهم من ترك أراضيهم، وأولوها عنايتهم^(٢).

واستمرار الحماية، واندفاع الناس للدفاع عن بلادهم لم يقف حائلاً دون ممارسة أعمال الزراعة التي هي إحدى دعائم القوات العسكرية، فقد عمد بعض الحكام الأيوبيين إلى إرسال بعض الجند للقيام بأعمال الزراعة، بينما عمل القسم الآخر في مواجهة العدو، كما عمل الأيوبيون على تحسين الإنتاج، ورفع مستواه بكافة الأساليب والطرق، فقد اعتنوا بنظام الري عناية فائقة، وأراحوا الأرض وجددوا خصوبتها باستعمال الأسمدة، واستخدموا الأدوات المناسبة.

الآثار السلبية: إن جاز لنا أن نتحدث عن بعض الآثار السلبية لهذا النظام، حسبما تم رصده في بعض المصادر ينحصر في نقطتين، النقطة الأولى: تكمن أثناء قيام الحروب الأهلية بين أفراد البيت الأيوبي من جهة، والثانية من سوء تصرف الجباة من جهة ثانية، كل ذلك كان في بعض السنوات يؤدي إلى نقص الإنتاج وأعراض المواطنين عن الزراعة، وكان من أهم مساوئ نظام الإقطاع الذي اتبع زمن صلاح الدين أنه كان يحول بين المقاتلين، وبين بقائهم تحت

(١) أحمد صادق سعد: في ضوء النمط الآسيوي تاريخ مصر الاجتماعي والاقتصادي ط ١ بيروت ١٩٧٩ ص ٤٥٧.

(٢) أشتور: التاريخ الاقتصادي والاجتماعي في الشرق الأوسط في العصور الوسطى ١٩٨٥ - ص ٢٢٣.

السلاح زمنياً طويلاً وبخاصة في مواسم فلاحه الأرض، وجني المحاصيل الزراعية^(١).

ملكية الأوقاف: وهو نوع آخر من أنواع ملكية الأراضي زمن الأيوبيين، وقد ذكرت كتب الرحالة عن هذه الأوقاف في بلاد الشام عامة، ومدينة دمشق بخاصة حيث أن الأراضي، كانت توقف لأغراض إنسانية أو لأغراض دينية، ومن هذه الأوقاف ما كان مخصصاً للمساجد، والبيمارستانات، والمدارس، والجسور والقنوت، والينابيع، والخانات، ومنه ما كان مخصصاً لافتداء الأسرى، وتحرير العبيد، ومنها ما كان مخصصاً للمجاهدين، وذلك لصيانة حدود الإسلام، أو للفقراء، والمعوزين، واليتامى، أو الخدمات العامة الأخرى^(٢).
ومما أورده ابن جبير بخصوص هذه الأوقاف: «فمنها أوقاف على العاجزين عن الحج ذلك بأن يقوم أحد الناس بالحج عنه حجة بدل، فيعطى الرجل كفايته، ومنها تجهيز البنات إلى أزواجهن، وهن اللواتي لا قدرة لأهلهن على تجهيزهن، ومنها أوقاف لفكاك الأسرى. ومنها أوقاف لأبناء السبيل يعطون منها ما يأكلون ويلبسون، ويتزودون لبلادهم، ومنها أوقاف على تعديل الطرق وتسويتها، ورصفها، لأن أزقة دمشق لكل واحد رصيفان في جنبه يمر عليهما المشاة، ويمر الراكبان بين ذلك، ومنها لأفعال الخير، وهذه من المفخر المخلدة...»^(٣).

ويروي ابن جبر قصة واقعية رآها عياناً قال: «مررت ببعض أزقة دمشق، فرأيت به مملوكاً صغيراً قد سقطت من يده محفة من الفخار الصيني، وهم يسمونها أي الدماشقة - الصحن فتكسرت، واجتمع عليه الناس، فقال بعضهم

(١) أبو شامة: الروضتين ج ٢ ص ٢٢٨ - ٢٢٩. ابن واصل: مفرج الكروب ص ٢٤٥ - ٢٤٦. ابن الأثير: الكامل ج ١١ ص ٥٣٤ - ٥٣٦.

(٢) ابن جبير: الرحلة ص ١٩٣. ابن بطوطة: تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار ص ٧٣.

(٣) ابن جبير: المصدر السالف ص ٧٣ - ١٩٣.

اجمع شققها، واحملها لصاحب أوقاف الأواني، فجمعها، وذهب الرجل إليه، فأراه إياها فدفن له ما اشترى به ذلك الصحن»^(١).

وهذه من الأعمال الحسنة لأن سيد الغلام كان لا بد له أن يضربه على كسر الصحن أو ينهره. وأسهب ابن جبير في حديثه عن كثرة الأوقاف في بلاد الشام، حيث قال: «لكل مشهد أوقاف معينة من بساتين، وأرض، وضياع، ورباع، حتى أن البلد - دمشق - تكاد الأوقاف تستفرق جميع ما فيها، وكل مسجد يستحدث بناؤه أو مدرسة أو خانقاه، يعين لها السلطان أوقافاً تقوم بها وبساكنيها والملتزمين بها»^(٢).

ويشير ابن عساكر لوجود الكثير من الأوقاف. أوقفها أصحابها من أجل مؤسسات دينية. وأما الأوقاف الأمور الإنسانية، فأشهرها السقايات (السبل)، وكانت توقف في سبيل الله، وقد عدّ ابن عساكر منها إحدى وعشرين داخل سور دمشق وسبعاً خارجه^(٣)، ولم يكن الوقف مقتصراً على الرجال بل شمل النساء، حيث أشار المؤرخون إلى ذلك ومما قيل: «ومن النساء الخواتم ذوات الأقدار من تأمر ببناء مسجد أو رباط أو مدرسة، وتتفق الأموال الواسعة، وتعين لها من مالها الأوقاف»^(٤).

ومما ذكر نستنتج أن الدوافع وراء كثرة الوقوف في العصر الأيوبي بدمشق، كانت منها دوافع دينية، ودوافع سياسية، ودوافع اجتماعية، فالدوافع الدينية واضحة من خلال تقرب الموقفين من الله سبحانه وتعالى عن طريق أعمال الخير، والدوافع السياسية تتمثل بجذب السكان، وتماطفهم مع السلطة القائمة، أما الدوافع الاجتماعية، فتتمثل بكثرة الأحوال مع أصحاب الوقوف.

(١) ابن جبير: المصدر نفسه ص ٧٣.

(٢) ابن جبير: المصدر نفسه ص ١٩٣.

(٣) عبد القادر بدران: تهذيب دمشق الكبير. ابن عساكر ج ١ ص ٢٤٨ - ٢٤٩.

(٤) العلموني: مختصر تنبيه الطالب ص ١٤٠ - ١٤٣. طلس: التربية والتعليم في الإسلام ص ١٢٩.

النعيمي: الدارس ج ١ ص ٢٣٦ - ابن شداد: الأعلام ج ٢ ص ٢٦٢.

وكانت الملكية الوقفية تلقى عناية خاصة في عصر الأيوبيين حيث أنها كانت تحت إشراف القضاة، والديوان، الذي يتولى إصلاح ما فسد منها، فكان يتأكد من أن واردها يجمع كاملاً بصورة صحيحة، وأنه يصرف على الأوجه المخصصة لها، وكان يطلق على هذا الديوان اسم ديوان الأحباس^(١).

-المعوقات التي عانت منها الزراعة زمن الأيوبيين:

لا بد من الإشارة قبل الحديث عن المعوقات الزراعية أن نبين أنه كان يوجد نوعان من المعوقات هما: معوقات بشرية، ومعوقات طبيعية، وقد أودت هذه المعوقات بحياة الكثير من الناس، كما انتشرت الأوبئة، وتعطلت الزراعة، وانخفض الإنتاج، وسنتحدث عن كل منها بالتفصيل:

١. المعوقات البشرية:

الحروب: وهي على نوعين: حروب مع الصليبيين، وحروب أهلية. الحروب الصليبية: وقد شغلت كل أيام دولة بني أيوب، حيث تعرضت الأراضي للخراب والدمار من قبل الجيوش، وكان الضرر الأكبر من هذه الحروب يصيب الفلاحين الذين كانوا على الحدود بين الأراضي التي اغتصبها الصليبيون، وبين الأراضي الباقية في أيدي العرب المسلمين، حيث اضطر أكثرهم إلى مغادرة أراضيهم، والالتجاء إلى المدن^(٢).

وعلى الرغم من ذلك فإن بني أيوب كانوا يصرفون قسماً من الجند أوقات السلم للمساهمة في جني المحاصيل^(٣)، كما عمل القرنج على نهب الغلال والدواب، حيث ذكرت المصادر بعض هذه الأعمال الوحشية التي كانت وصمة عار في تاريخ أوربة الصليبية، حيث أشار ابن كثير في أحداث سنة

(١) كلود كاهن: المرجع السالف مجلد ١ ص ١٧٩ - ١٨٠.

(٢) ابن الأثير: الكامل ج ١٢ ص ٣٢١. علي الحسني: المرجع السالف ص ١٠٥.

(٣) عبد العزيز سيد الأهل أيام صلاح الدين ط ١٩٦١ - ص ١١٢ - محمد زغلول سلام: الأدب في العصر الأيوبي - دار المعارف بمصر ١٩٦٨ ص ٥٩.

(٦١٤هـ/١٢١٨م) إلى ما كان يرتكبه الصليبيون. فقال: «أما الفرنج فإنهم قدموا بيسان ونهبوا ما فيها من الغلال، والدواب، وقتلوا، وسبوا ثم عاثوا في الأرض فساداً يقتلون، ويأسرون وينهبون ما بين بيسان إلى بانياس، وخرّبوا أرض الجولان إلى نوى وغيرها»^(١). وقد دفعت هذه الحروب الفريقين «العرب المسلمين والصليبيين» إلى إحراق القرى، ومصادرة المواشي لأسباب استراتيجية تقتضيها الحروب القائمة بينهم، فقلّ بذلك الإنتاج، وحصلت بعض المجاعات في أزمنة معينة.

الحروب الأهلية: أدى اندلاع الحروب الأهلية والصراعات الداخلية بين أبناء البيت الأيوبي على أرض دمشق، وما جاورها إلى الإضرار بها اقتصادياً، فكانت المدن تحاصر والأشجار تقطع، والدلائل على ذلك كثيرة. منها ما حدث سنة (٥٩٠هـ/١١٩٤م) عندما قدم العزيز بن صلاح الدين صاحب مصر إلى دمشق، ليأخذها من أخيه الأفضل علي فخيم على الكسوة في ٦ جمادى الأولى من نفس السنة، وحاصر البلد - دمشق - فمانعه أخوه، ودافعه عنها، فقطع الأنهار عن البلد ونهب الثمار، واشتد الحال، ولم يزل الأمر كذلك حتى قدم عمهما العادل أبو بكر فأصلح بينهما^(٢). وللمرة الثانية تتعرض دمشق للحصار سنة (٥٩١هـ/١١٩٥م) من قبل العزيز، وفي سنة (٥٩٢هـ/١١٩٦م) قدم العزيز إلى الشام مرة ثالثة أخذ دمشق من أخيه الأفضل إلى أن استقر الحال خروج الأفضل منها إلى صرخد، وتسلم دمشق العادل حيث أسقط مكوسها، وخطب باسم العزيز^(٣).

(١) ابن كثير: المصدر نفسه ج ١٣ ص ٧٦.

(٢) أبو شامة: الذيل على الروضتين ص ٥ - (الموسوعة الشامية ج ٢٠). ابن واصل: مفرج الكرب ج ٣ ص ٤ - ١٢. ابن الأثير: الكامل ج ١٢ ص ٥٩١.

(٣) أبو شامة: الذيل على الروضتين ص ٨ - ١٠. الموسوعة الشامية ج ٢٠. ابن كثير: الكامل ج ١٢ ص ١٢١ - ١٢٢ - ١٢٩.

وفي سنة (٥٩٥هـ/١١٩٩م) تسلم الأفضل مصر بعد وفاة أخيه العزيز، وأقبل بجيش كثيف من المصريين، ويريد دمشق ليستردها من عمه العادل الذي كان غائباً عنها، وهو على حصار ميفارقين، وذلك بإشارة من أخيه الظاهر غازي صاحب حلب، فلما انتهى إليها كان عمه العادل قد سبقه إليها عندما علم بالحال، أقام الأفضل الحصار على دمشق، وأحرق جميع ما هو خارج باب الجابية من الفنادق، وأحرق النيرب، وأبواب الطواحين، وقطع الأنهار، وانحرفت غلة «حريستا» في بيادرها^(١).

وعاد ثانية العادل، وتسلم مصر من الأفضل، بعد أن تم الصلح بتعويضه عنها ميفارقين، وحاني، وجبل جور، ورحل الأفضل عن مصر متوجهاً على صرخد، وأرسل من يتسلم له ميفارقين، وحاني، وجبل جور، فامتنع نجم الدين أيوب بن العادل عن تسليمها^(٢).

وفي سنة (٥٩٧هـ/١٢٠١م) حاول بعض أبناء صلاح الدين يتقدمهم الأفضل، والملك الظاهر صاحب حلب انتزاع دمشق من عمهما العادل في بغته منه، وكان بها المعظم بن العادل فكان بمصر، حيث زحف الأفضل، والظاهر بجيشهم باتجاه دمشق، فوصلوا إلى باب الفراديس، وأحرقوا فندق تقي الدين، فقاتلهم المعظم، وحفظ البلد، ووقع الخلاف بين الظاهر، والأفضل، واستقر الأمر على تجديد الصلح مع العادل، حيث يكون للأفضل سميساط وسروج، ورأس عين فقصد الأفضل حمص، وأقام بها إلى أن تسلم سميساط وباقي ما استقر له.

وخلال حكم العادل بقيت الأوضاع في دمشق هادئة، واستقرت الأمور إلى أن مات سنة (٦١٥هـ/١٢١٨م) وارتكب العادل نفس الخطأ الذي ارتكبه أخوه صلاح الدين، إذ عمل على تقسيم البلاد في حياته بين أبنائه، وأفراد البيت الأيوبي، فأمكن هذا التقسيم سبباً في استمرار الصراع على السلطة بين أبنائه،

(١) أبو شامة: الذيل على الروضتين ص ٢٥ - الموسوعة الشامية ج ٢٠ - ابن كثير: الكامل ج ١٢ ص

١٤٣ - ابن خلدون: العبرج ص ٥ ص ٣٣١.

(٢) أبو شامة: الذيل على الروضتين ص ٣٥ - ابن كثير: الكامل ج ١٢ ص ١٦٦-١٦٢-١٦٣.

فقد حوصرت دمشق سنة (٦٢٦هـ/١٢٢٩م) من قبل الملك الكامل صاحب مصر، والملك الأشرف صاحب البلاد الجزرية وضيق على أهل دمشق، حيث قطعت الأنهار، ونهبت الحواصل والبساتين، وأحرق الجواسق، وأبادوا الأشجار، وهدم الكثير من الرباع والخانات حول البلد، وكثر الحريق والنهب، من ناحية باب توما، وأحرقت طاحونة الإحدى عشرية، والخرشنية، والتي في مرج الشيخ، وطاحونة الأشنان، وحرق بعضها، ونهبت الدور، وحرقت عدة قرى من القوطة، ومنها جوهر، وجديا، وزملكا، وسقبا، وغيرها، وغلت الأسعار، ولم يزل الجنود حولها حتى أخرج ابن أخيه الملك الناصر، داود بن المعظم، وعوضه عنها الكرك والغور، وبيسان ونابلس، ويكون للأمير عز الدين أيك أستاذ دار المعظم على صرخد وأعمالها^(١).

العوامل الطبيعية:

انحباس المطر: من المعروف كما هو وارد في كتب التاريخ أن جلّ اعتماد زارعة بلاد الشام على ماء المطر، وكان انحباس الأمطار أو تأخر هطولها في بعض السنين يؤدي إلى تدني الإنتاج، وحصول ضائقة اقتصادية، وتشير المصادر أن بلاد الشام تعرضت لسنتين عجاف بسبب انقطاع المطر أحيانا أو تأخره حيناً آخر فاضر ذلك بالزراعة، وقد أورد ابن كثير في أحداث (٥٧٤هـ/١١٧٩م) حدث انحباس المطر، وحصل غلاء شديد بسبب انحباس المطر وقتله، وكذلك في سنة (٥٧٥هـ/١١٨٠م)، ولم تكن هذه السنة فقط هي التي حدث فيها انحباس المطر، وإنما حبس المطر في سنة (٦٢٨هـ/١٢٣١م) حسب ما ذكره ابن كثير، حيث قال: «وفيها كان غلاء شديد بديار مصر وبلاد الشام، وحلب، والجزيرة بسبب قلة المياه - السماوية والأرضية»^(٢).

(١) أبو شامة: الذيل على الروضتين ص ٢٩٩ - ٣٠٠ - ٣٠١ - ٣٠٢ - ابن الأثير: الكامل ج ١٣ ص ٤٨٢ - ٤٨٣ - ٤٨٤ - سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان ج ٢ ص ٥٩٤ - ٥٩٨ - ابن خلكان: وفيات الأعيان ج ٥ ص ٧٤ - ٧٩ - ابن واصل: مفرج الكرب ج ٤ ص ١٢٦ - ١٢٧ - المقرئ: السلوك ج ١ ق ١ ص ٢٢٥ - ٢٢٤ - (٢) ابن كثير: المصدر السالف ج ١٢ ص ٢٩٩ - ج ١٣، ص ١٢٨ - أبو شامة: الروضتين ج ٢ ص ٢٧٧.

ولم يكن انحباس المطر في إحدى السنوات أو تأخره في سنة أخرى أكثر ضرراً من غزارته كذلك، فإن أثر الصقيع والبرد والثلوج والصواعق، وبخاصة في فصل الربيع حين تتفتح الأزهار كبير^(١).

ويتضح أثر الصقيع والبرد على المزروعات من أن وزن البردة الواحدة من جهة الغوطة والمرج في بعض السنوات كانت ثمانية دراهم، فيما قال آخرون: إن وزنها بلغ سبعة عشر درهماً، وقتلت كثيراً من الطيور، وأتلفت الزروع في بلاد الشام^(٢).

الجراد والفئران: تعرضت بلاد الشام أيضاً في عصر الأيوبيين إلى خطر الجراد التي أتت على الزروع والأشجار، ومما ذكره ابن كثير من حوادث سنة (٦١٩هـ/١٢٢٢م) وصفاً لإحدى هذه الأخطار فيقول: «ثم دخلت سنة تسع عشرة وفيها كان بالشام جراد كثير أكل الزرع والثمار والأشجار»^(٣).

ويروي صاحب كتاب إمارة الكرك الأيوبية طريقة غريبة في مكافحة الجراد وهي أن طائر السممر يأكل الجراد. تقول الرواية: «أتصل الملك المعظم بجلال الدين خوارزمشاه، وقام بإرسال الصدر البكري محتسب دمشق رسولاً إليه مدعياً أنه راحل إلى عين ببلاد العجم ليأخذ منها ماء، فيحمله على رؤوس الرماح، فيتبعه طائر السممر يأكل الجراد الذي انتشر بالشام سنة (٦١٩هـ/١٢٢٢م)^(٤)».

(١) ابن أبيك الداودي: المصدر السابق ج ٧ ص ١٢٢ - كامل حسين غزي: نهر الذهب ج ٣ ص ٥٩ -

محمد سليم الجندي: تاريخ معرفة النعمان ج ١ ص ١٦٣.

(٢) ابن القلانسي: ذيل تاريخ مدينة دمشق ص ٣٤٣ - زيود: المرجع السابق ص ١١١.

(٣) ابن كثير: البداية والنهاية ج ١٣ ص ٩٨.

(٤) ابن كثير: المصدر السابق ج ١٣ ص ٩٨ - يوسف غواتمة: إمارة الكرك الأيوبية ص ١٩١.

- انظر المقدمة: الجانب السياسي - الصراع الأيوبي الأيوبي ودرؤ الخوارزمية في هذا الصراع.

ويبدو أن خبرة المزارعين الطويلة في أعمال الزراعة، والحفاظ على محاصيلهم دعتهم إلى مكافحة الجراد بكل الأساليب الناجعة، من جمعه وطمره في حفرة أو حرقه بمواد حارقة.

ولم يكن خطر الفئران وسطوه على المحاصيل بأقل خطورة من الجراد، حيث ذكر الداوداري في أحداث سنة (٦٥٩هـ/١٢٦٠م) ما نصه: «وفيها أي سنة (٦٥٩هـ/١٢٦٠م) قد خرج على الفلال، فأر عظيم جداً بأرض حوران والجولان وأعمالهما، حتى قذروا ما أكله، فكان مقدار ثلاثمائة ألف غرارة قمح وغير الشعير»^(١).

- الزلازل: تعرضت بلاد الشام في المدة الواقعة بين سنتي (٥٥٢/٦٠٠هـ/ ١١٥٧ - ١٢٠٤م) لموجة من الزلازل أدت إلى الإضرار بالبلاد، وإتلاف المزروعات، وأزهقت أنفساً لا تحصى أعدادها، وكانت نتائجها سيئة، حيث نقصت الأيدي العاملة، والخبرة الفنية، وتعطل الاقتصاد، ونقص الإنتاج، وارتفعت الأسعار، وحدثت المجاعات، مما جعل الناس يحيوا حياة قلق دائم خلال هذه الفترة.

ومن هذه الزلازل ما حدث في سنة (٥٥٢هـ/١١٥٧م) وأشارت إليه المصادر، حيث ضربت حماة وشيرز وكفر طاب ومعرة النعمان وحمص وحصن شميميس عند سلمية، وتهدمت أسوار هذه المدن^(٢).

وفي سنة (٥٩٧هـ/١٢٠١م)، حدثت زلزلة شديدة في بلاد الشام كانت نتائجها وخيمة فقد انخسفت دور وقرى ومدن، وهذا ما أشار إليه ابن الأثير بقوله: «في هذه السنة وفي شعبان منها تزلزلت الأرض بالموصل وديار الجزيرة كلها، والشام ومصر وغيرها، فآثرت في الشام آثاراً قبيحة وخربت كثيراً من

(١) ابن أبيك الداوداري: كنز الدرر وجامع الفرج ج ٨ ص ٨٥.

(٢) ابن القلانسي: ذيل تاريخ مدينة دمشق ٣٤٣ - ابن العديم: زبدة الحلب ج ٢ ص ٣٠٦ - محمد زيود: المرجع السالف ص ١١١.

الدور بدمشق وحمص وحماء، وانخسفت قرية بصرى وأثرت في الساحل الشامي تأثيراً كبيراً، فاستولى الخراب على طرابلس وصور وعكا ونابلس وغيرها من القلاع»^(١).

وفي سنة (٥٩٨هـ/٢٠١م) يوم الثلاثاء السابع والعشرين من شعبان عند صلاة الظهر حدثت زلزلة استوى في علمها اليقظان والنائم، وتزعزع لها القاعد والقيام، ثم حدث في هذا اليوم أيضاً وقت صلاة العصر، ووصل الخبر من دمشق بأن الزلزلة أفسدت منارة الجامع الشرقية، وأكثر الشرفات والبيمارستان جميعه، وعشرة مساكن تساقطت على أهلها وهلكوا^(٢).

وأما الكتاب الوارد من دمشق فيوضح الزلزلة، وتأثيراتها في الشام: «المملوك ينهي حدوث زلزلة ليلة الاثنين ٢٦ شعبان وقت انفجار الفجر، وأقامت مدة قال بعض الأصحاب إنها مقدار ما قرأ سورة الكهف، وذكر بعض المشايخ بدمشق أنه لم يشاهد مثلها فيما تقدم، ومما أثرت في البلد سقوط ست عشرة شرفة من الجامع، وإحدى المآذن، وتشقق أخرى، وقبة النسرة، وانخساف الكلاسة، ومات فيها رجلان، ورجل آخر من باب جيرون، وتشقق بالجامع مواضع كثيرة، وسقط بالبلد عدة دور».

- انتشار الأوبئة والأمراض:

تذكر المصادر أن بلاد الشام، وفي ظل حكم الأيوبيين تعرضت لأوبئة فتاكة لا تبقي ولا تذر، وكثرت الأمراض، ومات الناس بالآلاف، وخلت البلاد من فلاحيتها.

(١) ابن الأثير: الكامل ج ١٠ ص ١٧٠ - ابن نطيف: المصدر السالف ص ٢٥ - ابن الأزرقي الفارقي: تاريخ الفارقي ص ٣٩ - ٤٠.

(٢) عبد اللطيف بغدادى: وصف مصر ١٢٠٠م ص ٧٢ - ٧٣.

حيث ذكر أنه في سنة (٦٢٢هـ/١٢٢٥م) خيم على البلاد ثالث أسود «الوباء والمرض والفلاء»^(١).

«فإذا أصيب الإنسان بالمرض لم يمهل أكثر من أسبوع حتى يوافيه أجله، ولم يكن ذلك مقتصرًا على البشر، بل ذهبت أكثر المواشي، وعمّ البلاء والفلاء»^(٢).

وفي سنة (٦٣١هـ/١٢٣٤م) انتشرت الأمراض الكثيرة، وعمت بلاد الشام، وازدادت الوفيات في أعمال دمشق ومنها (جيرود وقارا) وسنجان ودمشق. وكان بحمص من الوباء والأمراض ما لا يعبر عنه ولا سمع بمثله^(٣).

لقد كان لهذه الأوبئة والأمراض آثار سلبية بعيدة المدى، فقد حدثت المجاعات، ونقصت الأيدي العاملة لكافة بلاد الشام بسبب الوفيات الزائدة، وغلت الأسعار.

الثروة الحيوانية: وهي على نوعين /البري والمؤهل/

تعدّ هذه الحيوانات الوسيلة الأساسية للنقل، كما استخدمت في الأعمال الزراعية ومنها ما كان يربى للحوم، والنقل بأن واحد كالجمل والأبقار، ومنها ما كان يربى للحم ومنتجاته من الألبان، الماعز والغنم. ومنها أيضاً ما كان يربى للنقل كالجمل والخيول والحمير والبغال، بالإضافة إلى الطيور المتنوعة، وأهم هذه الحيوانات:

- الخيول: وتأتي في مقدمتها الخيول العربية ذات الشهرة العالمية، وقد وصفها أحد الرحالة المستشرقين بقوله: «هي عصبية، رشيقة، مثال الأناقة في

(١) ابن نطيف: المصدر السابق ص ١١٤.

(٢) ابن نطيف: المصدر السابق ص ١١٤.

(٣) ابن نطيف: المصدر السابق ص ٢٥٦ - ٢٥٧.

شكلها، وهي برؤوسها الصغيرة وأحداقها الوهاجة، وجوانبها المثلثة القصيرة، وذيلها المتموجة، وقوائهما الدقيقة المتينة عنوان الجمال..^(١)

وإذا أمعنا النظر في كثرة الحروب التي خاضها الأيوبيون في بلاد الشام، وكثرة الفرسان في هذه الحروب، يتضح لنا مدى الاهتمام بتربية الخيول، وكان لهذه الخيول العربية دور هام في الحروب ضد الأعداء، حيث كانت تلقي الرعب والخوف في قلوب المحاربين^(٢).

ويذكر أن صلاح الدين عندما كان مرابطاً على عكا في رجب سنة (٥٨٥هـ/١١٨٩م) أطلق اثني عشر ألف رأس من الخيل العرب، والأكاديش الجياد للحاضرين معه في الجهاد، والقادمين عليه من البلاد غير ما أطلقه من الأموال في أثمان الخيل المصابة في القتال^(٣).

- الجمال: وكانت تربي في البادية المحيطة بأطراف دمشق^(٤). وكذلك كان يؤتى بها من مصر، حيث ذكر أبو المظفر^(٥) «أن القافلة القادمة من مصر، والتي استولى عليها الإفرنج سنة (٥٨٢هـ/١١٨٦م) كان بحوزتها ثلاثة آلاف جمل، وألف وخمسمائة فرس، ومن البغال مثلها». وهذا يدل على أهمية الجمل عند الأيوبيين، وخاصة أثناء صراعهم مع الفرنج.

- الأبقار: كانت تربي في معظم مناطق بلاد الشام، وغوطة دمشق، وقد ربيت للاستفادة من لبنها ولحمها، بالإضافة لاستخدامها في الحراثة.

- الأغنام: كانت قطعانها تعيش في المراعي الواسعة المنتشرة في بلاد الشام، وخاصة البوادي وربيت الأغنام للاستفادة من لحمها، وألبانها، وصوفها.

(١) أنور الرفاعي: النظم الإسلامية ص ٢٤٧.

(٢) زيود: المرجع السابق ص ٢٣٣.

(٣) سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان ق ١ ج ٨ ص ٣٣٦.

(٤) زيود: المرجع السابق ص ٢٣٣.

(٥) سبط ابن الجوزي: المصدر نفسه ق ١ ج ٨ ص ٤١٦.

- البغال والحمير: وجلّ استخدامها للنقل، والركوب، وإدارة دواليب المياه، ويذكر للحمير ثلاثة عروق: الآسيوي، والقبرصي أو الأوري، والمصري، والآسيوي هو الأشهر^(١).

- الطيور: اهتم الأيوبيون بتربية الأوز، والدجاج والحمام، حتى أنه وضع رسم على الدجاج سمي رسم الفراريج^(٢).

(١) زيود: المرجع نفسه ص ٢٣٣.

(٢) القلقشندي: صبح الأعشى ج ٤ ص ٨٨.

الفصل الثاني

الصناعة والثروة المعدنية

في دمشق الأيوبية

ليس هناك معلومات متخصصة تتحدث لنا عن التطور الصناعي الذي شهدته بلاد الشام بشكل كامل، ودمشق بشكل خاص خلال العصر الأيوبي إلا إشارات متفرقة في كتب المؤرخين والرحالة، يمكن من خلالها رصد بعض الصناعات التي كانت البلاد بحاجة إليها حسب الظروف التي تعيشها في ذلك العصر، أي أن هذه الصناعات كانت متناسبة مع حاجة البلاد والأوضاع العامة. وقد ساعد على نمو وتطور بعض الصناعات وخاصة الصناعات العسكرية (الأسلحة)، ظروف الحرب التي كانت تشهدها البلاد مع الصليبيين، ومما نقله الرحالة أمثال ابن جبير، وابن بطوطة وغيرهما، من الرحالة العرب والأجانب والمؤرخين، دلائل واضحة على أن الصناعة كانت متقدمة.

فهذا الإدريسي يتحدث عن الصناعة في دمشق، ومما قاله: «دمشق جامعة لأنواع من الصناعات، وأنواع من الثياب الحريرية... والذي يحمل إلى كل بلد ويضاهي ديباجها ديباج الروم البديع»^(١).

كذلك وصف الرحالة (لودوف فون سوخم) دمشق وقد قدم الشرق ١٢٣٦م فقال: «وتقوم صناعاتها كل في حي خاص. وكل صانع يجعل أمام بيته مكاناً يعرض فيه مصنوعاته عرضاً يلفت النظر، ويفري بالشراء، وكذلك يفعل التجار

(١) الإدريسي: نزهة المشتاق في اختراق الأفاق المجلد الأول ص ٣٦٩.

في سلعمهم وكل ما يصنع فيها متقن»^(١). وحدثنا المقرئ في حوادث سنة (٦٣٨هـ/١٢٤٠م) قال: «أذن للفرنج في دخول دمشق، وشراء السلاح، فأكثرُوا من ابتياع الأسلحة، وآلات الحرب من أهل دمشق، فأنكر المسلمون ذلك، ومشى أهل الدين منهم إلى العلماء واستفتوهم، فأفتوا بتحريم بيع السلاح للإفرنج»^(٢).

ويعدُّ لنا الجويري^(٣): بعض الصناعات الموجودة في دمشق، وبين ماهية هذه الصناعات وقد أفرد فصولاً متفرقة عنها، ومنها فصل يتعلق بصناعة العطاراة، وفصلاً عن الصنائع مجملاً ومنها صناعة الكيمياء. ومما قاله الإدريسي في صناعات دمشق: «ودمشق جامعة لصنوف من المحاسن وضروب من الصناعات، وأنواع الثياب الحرير، كالخز، والديباج النفيس الثمين العجيب الصنعة، العديم المثال الذي يحمل منها إلى كل بلد، ويتجهز منها إلى كل الآفاق والأمصار المصابقة له، والمتباعدة منها، ومصانعها في كل ذلك عجيبة، يضاهي ديباجها بديع ديباج الروم، ويقارن ثياب تستز، وينافس أعمال أصبهان، ويشق على أعمال طرز نيسابور من جليل الثياب الحرير المصممة، وبدائع ثياب كنيس، وقد احتوت طرزها - مصانعها - على أفانين من أعمال الثياب النفسية»^(٤).

كما تعرض البدري لذكر صناعات دمشق فيقول: «ومن محاسن الشام، ما يصنع فيها من القماش والنسيج على تعداد نقوشه، وضروبه ورسومه، ومنها عمل القماش الأطلس بكل أجناسه وأنواعه، ومنها عمل القماش الهرمزي على اختلاف أشكاله وتباين أوصاله، ومنها عمل القماش الأبيض القطني المصور لأحياء القصور، وأموات القبور، وبها أيضاً عمل القماش السابوري بجميع ألوانه، وحسن لمعانه، وفيها تعمل صناعة الذهب المسبوك، والمضروب والمجرور، والمرفوع، والممدود، والمرصوع. وفيها تعمل صناعة القرطاس بحسن صقاله،

(١) انظر الموسوعة الشامية ج ٣٧ - رحلة لودولف فون سوخم ص ٢٨٣.

(٢) المقرئ: الخطط ج ١ ص ٣١٨ - أبو المحاسن: النجوم الزاهرة ج ٢ ص ٥٠.

(٣) الجويري: المختار في كشف الأسرار ص ٧٤ - ٧٥ - ١٣٩ - ١٤٠.

(٤) الشريف الإدريسي: نزهة المشتاق في اختراق الآفاق - المجلد الأول ص ٢٦٩.

ونقي أوصاله، وفيها تعمل صناعة القرضية، ودباغتها المرضية. وفيها تعمل صناعة الزموط، والأقباغ، وتحمل لسائر البلاد والضياغ، وفيها صناعة الحرير بالفتل، والدواليب والسرير، وفيها تعمل صناعة السلاح، بما فيها من الأعاجيب والاقتراح، وفيها تعمل صناعة الموشى، والمدهون بما تحتار فيه النواظر والعيون، وفيها تعمل صناعة النحاس من الضرب، والتفصيل، والنقوش التي تشرح صدر الناس، وفيها صناعة ألواح الصقال، ودهن ألواح صغار الكتاب وتفصيل القبقاب»^(١).

- أشهر الصناعات في دمشق الأيوبية:

أ - الصناعات النسيجية: عرفت دمشق صناعة النسيج منذ القدم وتقنن الصناع في عملهم، وحلق اسم دمشق في الآفاق، وجرى على لسان كل تاجر وصانع ومستهلك وعرف دامسكو دمشق في أوربا رمز الصناعة الدمشقية المتقنة، وصناعة النسيج هي عبارة عن مجموعة أعمال متكاملة، تبدأ بتحضير المادة الأولية من الحرير أو الصوف أو القطن، ومن ثم تحول إلى غزول، وكبابة، وفتالة، وصبغة، وكانت عملية الغزل تتم بالفتل، أو بوساطة دواليب^(٢). ثم يأتي دور الحايك، ثم يتسلمها الدقاق^(٣). وبعدها يتسلمها القصار^(٤) ثم يحول النسيج إلى المكبس، ثم يحضر للعرض والتجارة. وتشتمل صناعة النسيج على صناعة الحرير، والصوف، والقطن، والكتان.

(١) البدرى: نزهة الأنام ص ٣٦٣.

(٢) منير كيال: فنون وصناعات دمشقية ط ١ ص ٩٣.

(٣) الدقاق: هو الذي يدق الثياب بعد نسجها ليزيل عنها ما علق فيها من شعر أو خيط، ويكسب الثوب نعومة ولمعاناً ويكون الدق لكافة المنسوجات القطنية - محمد سميد القاسمي: قاموس الصناعات الشامية تحقيق ظافر القاسمي ص ٨٦.

(٤) القصار: يأخذ الثياب بعد دقها ويتولى قصرها، فتكون ناصعة البياض، والقصر لا يكون إلا للثياب البيضاء.

- ابن عبدا لهادي (جمال الدين يوسف بن حسن بن عبد الهادي): رسائل دمشقية حققها وقدم لها صلاح محمد دمشق ١٩٨٨ - ص ٧٩.

- القاسمي: قاموس الصناعات الشامية ص ٣٥٣ - ٣٥٤.

١ - صناعة الحرير: اهتم سكان بلاد الشام كثيراً بتربية دودة الحرير، وبرعوا في صناعة الحرير، وبخاصة أهل دمشق وحلب وصيدا وأحدثوا لها المصانع، فكانت الأقمشة الحريرية على اختلاف أنواعها، وبخاصة الديباج المطرز بخيوط ذهبية تصنع بدمشق بإتقان شديد، لم يجد ما يفوقه إلا في أصفهان ونيسابور، ولم يستطع اليونانيون أن يبلغوا مستواه، ولذلك كان هذا الحرير مطلوباً في بلاد بعيدة^(١). وازداد الإنتاج وصدرت المنسوجات الحريرية إلى معظم بلدان العالم في ذلك الوقت^(٢).

وقد وصف الإدريسي: «دمشق بأنها جامعة لأنواع من الصناعات، وأنواع الثياب الحريرية، كالخز والديباج النفيس العجيب الصنعة، العديم المثال الذي يحمل منها إلى كل بلد. ويضاهي هذا الديباج. ديباج الروم البديع. وينافس أعمال أصفهان، ويقارب ثياب تستر، ويشف على أعمال طرز نيسابور من جليل ثياب الحرير المصمتة، وبدائع ثياب تنيس، وقد احتوت طرزها على أفانين من أعمال الثياب النفيسة، ومحاسن جمى، فلا يعد لها جنس ولا يقاربها مثال»^(٣). وكان جُلّ اعتماد هذه الصناعة على الحرير الطبيعي، وعلى أنواع يدوية يختلف عدد دوساتها بحسب الألوان الموجودة في القماش^(٤). وفي بعض الأحيان تزين، وتطرز برسوم مختلفة باليد والإبرة^(٥). وكان حرير دمشق معروفاً جداً، ويقدر عالياً في أوربة^(٦) وقد وجد في متحف المتروبوليان قطعة من منسوجات

(١) هايد: تاريخ التجارة في الشرق الأدنى في العصور الوسطى ج ١ ص ١٨٨ - صفوح الخير: مدينة دمشق: دراسة في جغرافية المدن ص ٣٤٨ - ٣٤٩.

(٢) أشتور: التاريخ الاقتصادي والاجتماعي ص ١١٤.

(٣) الإدريسي: نزهة المشتاق في اختراق الآفاق ص ٣٦٨.

(٤) منير كيال: المرجع السابق ص ١٠٩ - ١١٠.

(٥) كيال: المرجع السابق ص ١٠٩.

(٦) فيصل السامر: الأصول التاريخية للحضارة العربية الإسلامية في الشرق الأقصى - وزارة الإعلام العراقية ١٩٧٧ ص ٢٤٨.

الحرير الدمشقي التي حيكت في العصر الأيوبي، وهي تدلّ على تقدم هذه الصناعة في هذا العصر^(١).

ومن أنواع الأقمشة الحريرية التي صنعت في دمشق، في هذا العصر: (البروكار والدامسكو، وأنواعه عديدة: «الأطلس»^(٢)، «السابري»^(٣)، «المفوف»^(٤)، «المسهم»^(٥)، «المعجر»^(٦)، «المهلل»^(٧)، «المطير»^(٨) و«المخيل، والهرمزي، والمسير»^(٩)).

صناعة الصوف: تعد بلاد الشام من أكثر المناطق التي توفرت فيها الأصواف وذلك لكثرة ما يربى فيها من قطعان الماشية عند البدو والحضر على حد سواء، وقد اهتمت بلاد الشام بصناعة المنسوجات الصوفية، وشارك في عملية النسيج الرجال والنساء، فالرجال غنيهم وفقيرهم يقومون بعملية الغزل، والنساء ينسجن في البيوت^(١٠).

(١) سعيد محمود خليفة: تاريخ المنسوجات القاهرة ١٩٦١ ص ٩٥.

(٢) الأطلس: الثوب الخلق، انظر معجم الملابس في لسان العرب د. أحمد مطلوب مكتبة لبنان ط١ ١٩٩٥ ص ٣٣.

(٣) السابري: السابري من الثياب، الرقاق، وهو من أجود الثياب. معجم الملابس في لسان العرب ص ٦٨.

(٤) المفوف: وهو الثوب الرفيق. معجم الملابس في لسان العرب ص ١١٩.

(٥) المسهم: البُرْد المخطط بصور على شكل سهام ص ١١٤.

(٦) المعجر: ثوب تمتجر به المرأة أصفر من الرداء وأكبر من المقنعة، وهو ما ينسج من الليف كالجوالق. معجم الملابس في لسان العرب ص ١١٧.

(٧) المهلل: ثوب رقيق سخيّف النسيج. معجم الملابس في لسان العرب ص ١٢٣.

(٨) المطير: المشقق المكسر. معجم الملابس في لسان العرب ص ١١٧.

(٩) منير كيال: المرجع السابق ص ١٠٠. نعمان قساطلي: الروضة الفناء في دمشق الفيحاء ص ١٢١.

١٢٢. سرور: الحضارة الإسلامية ص ١٣٧. كرد علي: خطط الشام ج ٤ ص ٢٠١. أمينة بيطار: أهم

مظاهر الحضارة في بلاد الشام ص ٣٣٥. د. أحمد مطلوب: معجم الملابس في لسان العرب. ص ١١٤.

١١٩. ١١٧. ١٢٣.

(١٠) محمد كرد علي: خطط الشام ج ٤ ص ٢٠٣. ابن شاهين: زبدة كشف الممالك، باريس ١٨٩٢

ص ١٩.

وقد اختصت دمشق والبلقاء بغزل الصوف ونسجه على أنوال يدوية، وكانت المنسوجات الصوفية تحمل إلى البلدان المجاورة لجودتها، وإتقان صنعتها. ومن أهم المصنوعات الصوفية: الأكسية الصوفية - العباءات - المشدات (الكمار) البسط، صناعة الخيام (الخباء) وقد اعتمد الأيوبيون على الخيام في معسكرات قواتهم. وأشهرها: الخيام السلطانية فهي عظيمة الشأن، مختلفة المقادير والصنعة^(١).

صناعات القطن: وكانت من الصناعات النسيجية الراقية في بلاد الشام، وقبل القيام بأعمال النسيج القطني، كان لا بد من ندف القطن ندفاً متكرراً حتى تطير منه القشرة السوداء، والحب المكسور، ثم يحول القطن المندوف للغزل، ثم للحياكة، وقد خضعت عملية الندف لإشراف المحتسب الذي كان يفرض على القطنيين ألا يخلطوا جديد القطن بقديمه ولا أحمره بأبيضه، وألا يضعوا القطن المندوف في المواضع الندية^(٢) ولعل ذلك للمحافظة على نظافته، ونقاء لونه، وصحة وزنه، وإتقان صنعته وافتخرت الشام بصنع الشقق الحريرية، والقطنية وهي تحاك على الطراز العربي، وصناعتها غاية في المتانة والجمال، وكانت تصدر إلى مناطق متعددة كالأناضول ومصر والحجاز والعراق^(٣). كما شاعت الألبسة القطنية والمنسوجات القطنية، وتعددت حسب أنواعها واستعمالاتها^(٤) وكذلك صنعت الخيام السلطانية من القطن الشامي الملون الأبيض والأحمر والأزرق وغيرها^(٥).

(١) ياقوت: معجم البلدان ج١ ص٢٢٢. القلقشندي: صبح الأعشى ج٤ ص٩ - كرد علي: خطط الشام ج٤ ص٢٠٠ - ٢٠٣.

(٢) الشيرازي: نهاية الرتبة في طلب الحسبة القاهرة ١٩٤٦ ص ٦٩.

(٣) زيود: المرجع السابق ص ٢٦٣.

(٤) كرد علي: خطط الشام ج٤ ص ٢٠٣.

(٥) القلقشندي: صبح الأعشى ج٤ ص ٩.

المنسوجات الكتانية: كان الكتان يستورد من مصر، ويخضع لرسوم مرور من قبل ملك بيت المقدس، ويصنع في دمشق وبعض مدن الشام الأخرى، وكانت الملابس النابلسية لها سمعة عالمية^(١).

الصبغة: تعدّ صناعة الصبغة من متمات الصناعات النسيجية، ومما يذكر أن أهالي دمشق برعوا في صناعة الصباغ الأرجواني، وغيره من الأصبغة التي ما تزال لها بقية حتى الآن^(٢). وأكثر صباغي الحرير الأحمر وغيره من الغزل والثياب يصبغون في حوانيتهم بالحناء عوضاً عن الفوه «الطيب»^(٣)، وألزم للحراريون ألا يصبغوا القز قبل تبييضه لئلا يتغير بعد ذلك^(٤).

وكان من أهم أصباغهم الأصفران، الزعفران والورس، والبرفير «الأرجوان» أحمر وأزرق، كما استعمل النيل في صبغ لباس الفلاحين والعمال. وكان الصباغ ثابت الألوان، لطيف اللمعان^(٥).

الصناعات المعدنية: وهي من الصناعات الجيدة في العصر الأيوبي في دمشق، لوفرة المواد الأولية اللازمة لها في بلاد الشام، وتشتمل هذه الصناعات على صناعة الحديد والفولاذ، صناعة النحاس، صياغة الذهب والفضة.

١ - الصناعات الحديدية والفولاذية: وقد تركزت هذه الصناعة في كل من دمشق وحلب، وهي من الصناعات المهمة في هذا العصر، وذلك بسبب حاجة البلاد للأسلحة والصناعات الحديدية الأخرى، وكانت مسابك الحديد بدمشق وحلب^(٦).

(١) هايد: المرجع السابق ج ١ ص ١٨٤.

(٢) الجويري: كشف الأسرار ص ١١٤ - ١١٦.

- بيطار: المرجع السابق ص ٣٣٥.

(٣) الفوه: عروق يصبغ بها، انظر محمد بن أبي بكر بن عبد القادر الرازي مختار الصحاح مادة فوه ص ٥١٦.

(٤) الشيرزي: المصدر السابق ص ٧١.

(٥) محمد كرد علي: خطط الشام ج ٤ ص ٢٢١.

(٦) المقدسي: أحسن التقاسيم ص ١٧٤ - ١٨٤ - ابن شداد: الأعلاق الخطيرة ص ١٥٢ - ١٥٣.

وكانت دمشق تعتمد على ما يأتيها من خامات الحديد من مناجم لبنان، بينما تعتمد حلب على ما هو متوفر من خامات الحديد من جهاتها^(١).

كان في مقدمة الصناعات المعدنية، صناعة الأسلحة وأدوات القتال، حيث كان الجنود يعتمدون في قتالهم على الأقواس والسيوف والرماح والتروس^(٢)، والقوس هو من الآلات العجيبة التركيب القوية، تستخدم لمفاجأة الأعداء، والتشنيع عليهم والترهيب^(٣). ومن أسماء القوس (الفلق والشريح، والقضيب، والفجاد، والمرتهشة، والرهبش، والزوراء، والبائنة، والعتل)^(٤).

وقد ذكر المنصوري في تاريخه في حوادث سنة (٦١٣هـ/١٢١٦م) وفيها: «توجه من دمشق قاضي الممالك إلى صاحبه الخوارزمي، وقد أكرمه المعظم صاحب دمشق غاية الإكرام، حتى أنه سيرمه لمخدومه ثلاثة آلاف قوس عمل دمشق»^(٥). وهذا قاضي الممالك الذي كان أرسله الخوارزمي إلى ملوك الشام، ومن الأسباب التي أدت إلى تطور هذه الصناعة، الحروب المستمرة بين الأيوبيين، والصليبيين ومن هذه الأسلحة السيوف، حيث فاخرت دمشق بما تصنعه من السيوف المحلاة، كما اقتصت به من الصفاء والاخضرار، وما يكتب عليها من آيات قرآنية وأشعار بماء الذهب، ولا تزال السيوف المصقولة تنسب إلى دمشق حتى الوقت الحاضر^(٦).

ومما يدل على شهرة السيوف الدمشقية وجودتها، أنها كانت ترسل ضمن الهدايا المعدة إلى ملوك الأطراف حيث ورد أن الهدية التي أرسلت من قبل صلاح

(١) الإدريسي: المصدر السابق ص ١٢٨.

(٢) المقرئزي: الخطط ج ١ ص ٢١٨ - أبو المحاسن: النجوم الزاهرة ج ٢ ص ٥٠ - الطرسوسي: موسوعة الأسلحة ص ١٣٤.

(٣) الطرسوسي: موسوعة الأسلحة القديمة ص ٧.

(٤) الطرسوسي: المصدر نفسه ص ٧٤ - ٧٥.

(٥) تاريخ المنصوري: ص ١٤٧.

(٦) هايد: المرجع السابق ج ١ ص ١٨٢ - صفوح الخير: مدينة دمشق ص ٣٤٩.

الدين إلى المنصور الموحي كان من جملتها «ختمة كريمة في ربة مخشية، مسك ثلاثمائة مثقال، عبر عشر قلائد عددها ستمائة حبة، عود في عشرة أماء. دهان بلسان مائة درهم، قسي بأوتارها مائة قوس، وقوسان، سروج، نصول سيوف هندية عشرون، نشاب ناسج خاص مريش كبير ومتوسط ضمن صندوقي خشب مجلدة سبعمائة سهم»^(١).

وكان أهل دمشق يصنعون سيوفاً قاطعة، حيث يؤخذ فولاذ هندي أو دمشقي، فيعمل منه سيف قوي الوسط، رقيق الجوانب، متساوياً، لا يكون فيه موضع أقوى من موضع، ثم يسقى من ماء أعد من أجل السقاية^(٢).

وقد ذكر لنا الجوبري هذه الطريقة عندما قال: «إنهم يأخذون ورق الدفلة والبادروج، أجزاء متساوية يدقونهم، ويجعلونهم في الماء، ثم يجعل منه شحم الحنظل، ثم يغلي عليه حتى يذهب ربه، ثم يحمي الحديد من أي نوع كان، من آلة الحرب سقياً أو دهناً، فإنه يفري جميع ما يمر عليه، ويعظم ضربه، ولا يبرأ جرحه أبداً»^(٣).

وذكر الأقسراني^(٤) في كتابه نهاية السؤال والأمنية طرقاً عديدة لسقاية السيوف، ومنها: «يؤخذ شحم الحنظل الرطب مقدار ما يغمره من الماء، وإن كان يابساً نقع بما يغمره من الماء ثلاث مرات في قدر، ويوضع في الشمس ثلاثة أيام، ثم يمرس جيداً حتى تخرج قوته، ثم خذ النشادر المحلول وصيره في إناء، واحم السيف واغمسه في النشادر ثاني مرة، ثم احمه، وخذ قطنه وأغمسها في نفل أبيض، وامسحها على سقيته من الوجهين جميعاً، فإنه يكون قاطعاً..» وللسيوف أسماء عديدة، ومنها (العضب) وهو القاطع الماضي في الضريبة

(١) أبو شامة: الروضتين ج ٣ ص ٢٩٧ (الموسوعة الشامية ج ١٩).

(٢) الجوبري: كشف الأسرار ص ٦١ - الطرسوسي: موسوعة الأسلحة ص ٥٢.

(٣) الجوبري: المصدر نفسه ص ٦٠.

(٤) الأقسراني: (محمد بن عيسى بن إسماعيل بن خسرو شاه الأقسراني الحنفي الرومي): نهاية السؤال والأمنية في تعليم الفروسية ص ٢٢٨ - ٢٢٩ - ٢٣٠ - ٢٣١ - ٢٣٢ (الموسوعة الشامية ج ٦٥).

(الموضع التي تقع فيها الضربة في جسد المضروب، و (المعضد)، وهو سيف قصير يمتد في أغصان الشجر^(١)، و (السريجي) و (القصرة) أصل العنق، و (القلعية) منسوبة إلى قلعة في شرق بلاد الهند و (الصفيحة) وهو العريض، و (القضيب) وهو اللطيف، و (الغضون) وهو الرفيق و (المشطب)، وهو الذي فيه طرائق، ربما كانت مرتفعة، وربما كانت منحدرية^(٢)، كذلك استعملت جيوش صلاح الدين في حروبه مع الصليبيين آلة جديدة اسمها (القوس) الزيار، ترمي أعداداً من السهام الثقيلة دفعة واحدة^(٣). كما صنعت الدروع المتخذة من الزرد المانع، والتروس، والفؤوس، والخناجر، والمغافر، وقمصان الزرد، والدسوق، وأبواب الخانات، والقياسر، ويشير المؤرخون إلى أن الدمشقيين، صنعوا من الحديد كل احتياجاتهم من الأدوات التي تطرق في كير الحدادين، وسنداناتهم، وتضرب بمطارقهم، وكانت هذه الصناعات وافية بالفرض كما ونوعاً^(٤).

الصناعات النحاسية: بدأت معالم هذه الصناعة تظهر في حيز الوجود في دمشق وحلب زمن الأيوبيين في السادس الهجري / الثاني عشر الميلادي، حيث هاجر كثير من صناع التحف المعدنية من الموصل إلى دمشق وحلب، فنقلوا معهم أساليبهم الفنية ثم ما لبثت هذه الأساليب أن تطورت وامتزجت بأذواق أبناء البلاد الشامية، وأفكارهم وإدراكاتهم وقيمهم فنتج عن ذلك أسلوب جديد، وهكذا نما فن استخدام النحاس^(٥).

(١) الطرسوسي: موسوعة الأسلحة القديمة ص ٤٧.

(٢) الطرسوسي: المصدر نفسه انظر ص ٤٩ - ٥٠ - ٥١ - ٥٢.

(٣) الأصفهاني: الفتح القسي ص ١٤٤ - أنور الرفاعي المرجع السالف ص ٤٨ موسوعة الأسلحة ص ٧٥.

(٤) المقدسي: أحسن التقاسيم ص ١٨٠ - الجويري: المصدر نفسه ص ٦١ - كرد علي: خطط الشام ج ٤ ص ٢١٤ - موسوعة الأسلحة ص ١٥١ - ١٥٤.

(٥) كلور كاهن: المرجع السالف م ص ١٩٨.

ولا تزال الأدوات المصنوعة من النحاس في بلاد الشام مشهورة، ومنها: الأباريق، والشمعدانات، والأحواض، والقماقم، والجفان، والكؤوس، والكوسات^(١) وأشغال النحاس متنوعة منها: الدق، والحفر، والتزليل، والمخرم، والمفرغ^(٢) وهناك عدد من الأواني ذات الموضوعات الزخرفية تحمل أسماء سلاطين دمشق الأيوبيين منها: طست، محفوظ في بروكسل عليه اسم صلاح الدين الأيوبي صاحب مصر والشام^(٣)، هذا وقد اقتنت أشهر متاحف أوروبا وأمريكا عدداً كبيراً من منتجات الصناعات النحاسية الدمشقية، وذلك لأن دمشق والمدن الشامية الأخرى أولت هذه الصناعة عنايتها^(٤).

أنتجت كميات من الأوعية النحاسية، والأعمال المعدنية الأخرى، التي فاضت عن الاستهلاك المحلي، فصدر قسم من هذا الإنتاج إلى الدول الأوربية^(٥) ولا يزال بعضها في متاحف هذه الدول. وأشهرها: إبريق من النحاس الأصفر مكفت بالفضة، صنعه أحمد بن عمر النقاش، للملك العادل الأيوبي، يزين سطح الإبريق زخارف جميلة من الرسوم، وأشكال هندسية وكتابات عربية محفوظة في متحف المتروبوليتان، كتب عليه: أحمد الذكي النقاش الموصلية سنة عشرين وستمائة، ومنها طست مكفت تكفيتاً بالفضة صنعه أحمد بن عمر النقاش سنة (٦٣٧هـ/١٢٣٩م) للملك العادل أبي بكر الأيوبي.

وهو في متحف اللوفر، ووجد إبريق من النحاس نقشه، ثم كفته النقاش حسين بن محمد الموصلية، وفيه زخارف داخل أشرطة منها صور حيوانات، وأخرى نباتية، وفيه شريط كتب عليه اسم الملك الذي صنع له، وتاريخ صناعته

(١) آلة موسيقية تسمى الصنوجات تشبه الترس الصغير يدق بإحداها على الآخر بإيقاع مخصوص .

انظر القلقشندي: صبح الأعشى ج ٤ ص ٩.

(٢) كيال: فنون وصناعات دمشقية ص ٥٤.

(٣) كيال: المرجع نفسه ص ٥٥.

(٤) غواتمة: إمارة الكرك الأيوبية ص ٩٢.

(٥) المقدسي: أحسن التقاسيم ص ١٨١.

واسمه: «عزل لمولانا السلطان الملك الناصر العالم العادل المجاهد صلاح الدنيا والدين أبي المظفر يوسف بن الملك العزيز غازي، نقش حسين بن محمد الموصلني بدمشق المحروسة سنة (٦٥٧هـ/١٢٥٨م)»^(١).

وإضافة لما أوردناه، فقد نشطت حركة الاختراعات والابتكارات زمن الأيوبيين ومن دواعي ذلك الحروب، وكافاً عليها صلاح الدين ومنهم من كان يرفض هذه المكافأة ومن هؤلاء شاب دمشقي يدعى علياً، قام بصنع خليطة من المواد الكيماوية والنحاسية، وكان خبيراً بالكيمياء والنحاس، ويعمل في سوق النحاسين بدمشق.

استطاع أن يحرق بخليطته التي أعدها أبراجاً ضخمة مخيفة للفرنج عند عكا، وكانوا جاؤوا بها لأول مرة، فأرعبت الناس، وأبى الشاب أن يأخذ شيئاً لقاء عمله لأنه في سبيل الله^(٢).

كما اخترعوا بعض الأدوات الطبية التي كان يستعملها أطباء الأسنان والحجامين وغيرهم، ممن مارسوا مهنة الطب من هذه الأدوات (المحجمة): وهي إناء من النحاس أو الخزف الصيني اسطواناني الشكل، ويستدق في نهايته، وكان يستخدم في قطع نزيف الدم في المواضع اللحمية مثل عضل الساق، والفخذ، والذراع، واليدين، والبطن^(٣). وهناك صناعات عديدة متفرقة وجدت في بلاد الشام، ويأتي في مقدمتها:

صناعة الورق: تعدّ هذه الصناعة من الصناعات القديمة في بلاد الشام، حيث أنه اختلف في تحديد الزمن الذي ظهرت فيه الوراقة في دمشق، ومن الثابت أن دمشق وطبرية، وطرابلس، وحمّة، ومنبج، أخذت في صنع الورق منذ بداية القرن الرابع الهجري - العاشر الميلادي^(٤). واستمر إلى ما بعد العصر الأيوبي،

(١) سعيد الديوجي: أعلام الصناع الموصل ١٩٧٠ ص ٨٨ - ٨٩ - ٩٣.

(٢) عبد العزيز سيد الأهل: المرجع السالف ص ١٦٩ - ١٧٢.

(٣) ابن بسام: نهاية الرتبة في طلب الحسبة ص ١١٦ الشيزري: نهاية الرتبة ص ٩٥.

(٤) المقدسي: أحسن التقاسيم. ص ١٨٠ - ١٨١.

وقال البدرى عن الورق المصنوع في دمشق: «وهيها تعمل صناعة القرطاس بحسن مقاله ونقى أوصاله»^(١).

أما ألوان الورق فبالإضافة إلى الورق العادي الأبيض، والأصفر، استعمل الورق الشامي الأحمر، وينقل القلقشندي^(٢). أن نائب الكرك، ونائب دمشق، وغيرهما من نواب الشام، كانوا يكتبون معاملاتهم على الورق الأحمر، قال: «الورق الشامي الأحمر من الامتيازات التي اختصت بها نيابة الكرك، وأن نائبها كان لا يكتب معاملاته إلا على الورق الأحمر، وهي ميزة اختص بها نائب الكرك، ونائب الشام (دمشق) وغيرهما من نواب دمشق»^(٣).

ومما تقدم نستنتج أن: صناعة الورق كانت قائمة في العديد من نيبات بلاد الشام، وفي مقدمتها دمشق.

- صناعة الزجاج: عرفت هذه الصناعة في بلاد الشام منذ أقدم العصور، وبلغت درجة عالية من التقدم والشهرة ما بين القرنين الرابع الهجري / العاشر الميلادي، والسادس الهجري / الثاني عشر الميلادي^(٤).

وقد وصف زجاج الشام من قبل الكثير من المؤرخين والرحالة، وضرب به المثل في الرقة والصفاء حتى قيل: (أرق من زجاج الشام، وأصفى من زجاج الشام)^(٥). وقد امتاز أهل الشام في زخرفة الزجاج بالذهب، وتلوينه بألوان أخرى زاهية وبلغوا في ذلك درجة كبيرة من الإتقان^(٦)، وكان الزجاج الملون والمطلي بالميना يصدر إلى كثير من جهات العالم^(٧).

(١) البدرى: نزهة الأنام ص ٣٦٣.

(٢) القلقشندي: المصدر السابق ج ٦ ص ١٩٢ - ج ٨ ص ٥٤.

(٣) القلقشندي: المصدر السابق ج ٨ ص ٥٤.

(٤) الثعالبي: لطائف المعارف ص ١٥٧ - كيال: المرجع السابق ص ١٢٤.

(٥) الثعالبي: المصدر نفسه ص ١٥٧.

(٦) أمينة بيطار: الحياة السياسية ومظاهر الحضارة في بلاد الشام ص ٣٣٥.

(٧) الثعالبي: المصدر نفسه ص ١٥٧ - حسن إبراهيم حسن: التاريخ السياسي ج ٤ ص ٣٩٦ - ٣٩٧.

وقد تركزت صناعة الزجاج في المدن الكبرى من بلاد الشام، ويأتي في مقدمتها دمشق التي اشتهرت بصفاء زجاجها، ورقته، ومتانته، وكانت مصانعه ضخمة. ونقل البنادقة سر هذه الصناعة إلى إمارتهم^(١) كذلك اشتهرت كل من حلب وطرابلس وصيدا وصور بصناعة الأواني الزجاجية التي كانت تصدر إلى آسية الوسطى^(٢) وقد شاع استخدام الموضوعات الأدبية والحيوانية والزخارف النباتية على المصنوعات الزجاجية، وقد أعجب الحجاج الصليبيون، والرحالة بالأواني الزجاجية، وزخرفتها، وألوانها، فحملوا الكثير منها إلى بلادهم^(٣). وكانت طريقة صناعة الزجاج المطلي تعتمد على الذوق الفني المرفه السليم، حيث أن الصناع كانوا يأتون بالقطعة الزجاجية بعد شيها، ويرسمون عليها، ثم يصنعون عليها المينا الملونة من الأحمر والأصفر والأزرق، ومن ثم تشوى ثانية فتكتسب الرونق والجمال^(٤).

وينسب إلى العصر الأيوبي عدد من الأكواب ذات الخيوط الزرقاء ومجموعة من الأواني ذات لون أخضر أو رمادي وعليها خيوط بيضاء، ومصاييح المساجد المطلية بالميناء من قناديل، ومشكاوات بالإضافة إلى الشمسيات والقوارين ومختلف الأواني^(٥).

وفي المتحف العربي بالقاهرة زجاجة عليها اسم الناصر صلاح الدين سلطان دمشق وحلب (٦٤٠ هـ / ٦٥٨ هـ - ١٢٥٠ م / ١٢٦٠ م) وهي من أقدم عينات الزجاج

(١) صفوح الخير: مدينة دمشق ص ٢٥٠.

(٢) آشتور: المرجع السابق ص ٣٠٨ - بشير زهدي: الزجاج القديم وروائعه مجلة الحوليات الأثرية مجلد ١٠ عام ١٩٦٠ ص ١٢٤.

(٣) كيال: المرجع السابق ص ١٣٥.

(٤) كيال: المرجع السابق ص ١٣٥.

(٥) سعاد ماهر: أثر الفنون التشكيلية الوطنية القديمة على فن القاهرة، أبحاث الندوة الدولية لتاريخ القاهرة ١٩٧١ ص ٥٨٩.

المطلي بالمينا^(١) ومما يؤثر عن صلاح الدين أنه كان يأمر برعاية عمال الزجاج، ومساعدتهم في فتح مصانعهم، وكان يصدق الأموال عليهم بالرغم من انشغاله في الحروب الصليبية.

وقد تتنافس ابناه العزيز عماد الدين أمير مصر، والأفضل أمير دمشق في زيادة إنتاج الزجاج^(٢).

- صناعة الخزف والفخار والقاشاني: تعدّ هذه الصناعة من أقدم الصناعات التي عرفتها البشرية على مر العصور، وكانت مزدهرة في جميع الأمصار، ومنها بلاد الشام، وذلك لتوفر المادة الأولية، ورخصها، وسهولة استعمالها، وصنعها، وقد وصلت صناعة الخزف في القرن السادس الهجري/ الثاني عشر الميلادي إلى أرقى درجات التقدم في بلاد الشام، فتتوعدت فيه الأشكال والحجوم وأساليب الصناعة، وقد امتازت الصناعات الخزفية والفخارية في عصر الأيوبيين بزخارفها الزرقاء والسوداء، كذلك تمتاز بالنقاوة والشدة والصلابة، ووجد الخزف الشامي طريقة مع التجار الإيطاليين إلى أوربة^(٣). ومما يشهد على رقي هذه الصناعة كثرة الأواني التي تمثل في معظمها، دوارق للماء، وأطباق للطعام أو جرار كبيرة لخرن النبيذ والزيتون «ووجود عدة أنواع من الخزف ذي البريق المعدني والزخارف والرسوم، وتشتمل على مزهريات وأباريق وسلاطين وكاسات مختلفة الحجوم والألوان، والتي تزين برسوم حيوانات وطيور وموضوعات نباتية، وزخرفات خطية هندسية مختلفة الأشكال وغيرها»^(٤).

(١) فيليب حتي: تاريخ سورية ولبنان وفلسطين ص ٢٨٩ - أبو الفرج العشي: الزجاج السوري مجلة الحوليات مجلد ١٦ ح ١ عام ١٩١٦ ص ٤٣.

(٢) رؤوف النحاس: صناعة الزجاج ص ٥٠.

(٣) الجويري: المصدر السابق ص ١٢١ - رنسيان: تاريخ الحروب الصليبية بيروت ١٩٦٩ - ج ٢ ص ٢٣ - زكي محمد حسن: فنون الإسلام ص ٣٢١.

(٤) حمود القاسم: الرقة وبلديتها خلال سنين الثورة ١٩٦٩. ص ٢٨ - ٢٩ - ٣٠.

وكان لدمشق الأيوبية شهرتها الواسعة في الصناعات الخزفية والفخارية المطلية بالمينا، البديعة الحسن، الزاهية الألوان، ويوجد في دمشق حي خاص لهذه الصناعة يقع إلى الغرب من حي الصالحية، وكان فيه إلى مدة ليست بالبعيدة حوالي عشرين فاخورة^(١). (مصنع للفخار) وهناك نماذج جميلة من القدور الخزفية والقلل والخوابي والدوارق والأصاصي والزهريات وغيرها مما صنع في معامل الفخار في كل من دمشق وحلب وطرابلس وصيدا وبيروت وغزة^(٢).

كما أن كفر طاب كانت تستعمل مياه الدباغة في طين الفخار الذي تصنعه، ويحمل منها إلى البلاد التي حولها^(٣).

أما صناعة القاشاني فكانت من الصناعات الراقية في دمشق وحلب أيضاً، وكان يصنع من الرمل الأبيض والجبس يجبلان معاً، ويفرغان في قوالب على هيئة الشكل المطلوب، وتكتب على سطوحها آيات وأحاديث أو أشعاراً، أو ترسم عليها نقوش مختلفة بمواد ثابتة، ويذر عليها مسحوق الزجاج، أو تطلّى به ممدداً بسائل غريب، وتشوى في تنور معدّ لذلك، فيسيل الزجاج ويكسوها قشرة رفيقة تقيها من المؤثرات الخارجية زمناً طويلاً، وتظهر الكتابات والنقوش بألوانها الطبيعية^(٤).

وانتشر استعمال القاشاني في قصور دمشق ومدارسها وجوامعها انتشاراً عظيماً، وكان له في دمشق سوق خاص يعمل به^(٥)، ويتبع صناعة الخزف صناعة الجص حيث تصنع منه القمارى ومفردها قمرية. وهي نافذة من الجص المفرغ، مسدودة الفتحات بزجاج ملون، محاطة بزخارف عربية، مؤلفة من نقوش

(١) محمد زيود: المرجع السابق ص ٢٢٢.

(٢) كرد علي: خطط الشام ج ٤ ص ٢٢٠.

(٣) أبو الفداء: تقويم البلدان ٢٦٢ - ٢٦٣.

(٤) كرد علي: خطط الشام ج ٤ ص ٢٢٠ - ٢٢١. حتى: تاريخ سورية ج ١ ص ٢١ - ٢٢ ج ٢ ص ٢٥٦ - ٢٧٨.

(٥) كبال: المرجع السابق ص ٦٤.

أو رسوم، أو بآيات قرآنية أو كتابات، فإذا سطعت الشمس على الزجاج انكسرت حدتها وصارت لها أشكال بديعة، ومن أنواعها ما هو موجود الآن بجامع الحنابلة على سفح جبل قاسيون^(١).

وقد عم استخدام النقش على الجص لزخرفة الجدران طيلة العصر الأيوبي^(٢).

- الصناعات الخشبية: كانت بلاد الشام تمتلك ثروة خشبية كبيرة، تفوق بها جميع الأمصار الأخرى، حيث تغطي الغابات جبالها، وخاصة في المناطق الشمالية، والجنوبية الغربية، كذلك تغطي الأشجار المناطق الداخلية، حيث كانت هذه الأشجار على أطراف الأنهار والبساتين، وأهم أصناف الأشجار الموجودة في دمشق، الجوز والهور، والزيتون، والعرعور، والدردار، والصندل، والصنوبر، والسرو، وكانت كلها تستعمل في الصناعات الخشبية المختلفة^(٣)، وكان صناع هذه الصناعة يستعملون الأخشاب في صناعة الأبواب، وأثاث المنازل، وأدوات الطعام، والشراب، كما استخدمت الأخشاب في سقوف المنازل، والمساجد، والكنائس، والقصور، والقباب، وفي صناعة السفن في المناطق الساحلية. وقد اشتهرت دمشق وحلب وبيروت بهذه الصناعات، وكان قسم من أخشاب الشام يصدر إلى الديار المصرية من أجل صناعة السفن، بالإضافة إلى الأخشاب الأوربية المستوردة.

ويتصف النجار الدمشقي بإلمامه بالهندسة، والمساحة، والحسابات، والمقاييس، وهو قبل كل ذلك متقن لعمله^(٤). لهذا كان النجارون في الشام من أشهر نجاري العالم لاعتنائهم بصناعاتهم. وتمتاز الصناعة الخشبية الأيوبية بدقة

(١) الريحاوي: مدينة دمشق ص ١١٩.

(٢) الريحاوي: المرجع نفسه ص ١١٩.

(٣) المقدسي: أحسن التقاسيم ص ١٨٧. كرد علي: خطط الشام ج ٤ ص ١٥٢. حتي: تاريخ سورية ج ٢ ص ٢٧٨.

(٤) كيال: المرجع السابق ص ٦٤.

الصنعة والإتقان، والبعد عن تصوير الأحياء، بل كانت في معظمها أشكالا نباتية، ولاسيما ورق العنب، وقد يستعمل معه الصدف في المخرم حيث تملأ أرضية الفراغ به^(١). ومما يؤيد شهرة نجاري بلاد الشام وإتقانهم لهذه الصنعة أن المنبر الذي وضع في بيت المقدس بعد تحريره من قبل صلاح الدين الأيوبي، والذي صنع منذ أيام الملك العادل نور الدين محمود زنكي صنع من قبل نجار بحلب يعرف بالأفتريني نسبة إلى ضيعة تعرف (بافترين) من ضياع حلب، وكان هذا المنبر من أبداع الصناعات، وهو شبيه بمنبر جامع حلب، وقد تعاون النجارون، والصناع، والمهندسون فيه سنين، وأبدعوا في تركيبه^(٢).

واشتهرت دمشق الأيوبية أيضاً بصناعة الصناديق من خشب الجوز ذات النقوش المحفورة عليها، التي تدل على فن وذوق جميل سليم، كما صنعت الرماح. يقول محمد كرد علي: «إن عتبة مران مشرفة على غوطة دمشق ينبت فيها شجر باسق تتخذ منه القنا والرماح وهو المران. ولعل دير مران كان بها وهو في سطح قاسيون المطل على دمشق من جهة الغرب»^(٣).

- الصناعات الجلدية ودباغة الجلود: تعدّ هذه الصناعة من الصناعة ذات الأهمية العظمى لاحتياج الناس للأشياء المصنوعة من الجلود. كالأحذية والسروج، والمطارج والقرب، والروايا، والكنائن، والمحافظ، والأحزمة والألبسة هذا من جهة ولوفرة المادة الأولية التي تحتاجها الصناعات من جهة أخرى، وتعد هذه الصناعة من الصناعات المتقدمة في هذا العصر، ومما يثبت ذلك وجود الأسواق المتعددة لهذه الحرفة كسوق الحدائين وأصحاب هذه السوق مختصون بصناعة الأحذية الجديدة، ويحرم على الحداء إصلاح حذاء قديم.

(١) ريحاوي: المرجع السابق ص ١١٩.

(٢) أبو شامة: الروضتين ج ٣ ص ١٢١ - ١٢٢ (الموسوعة الشامية ج ١٩).

(٣) كرد علي: غوطة دمشق ص ٢٦٧.

وسوق الإسكافيين مهمتهم إصلاح الأحذية القديمة، كما يحرم عليهم صناعة أحذية جديدة^(١).

وكانت هذه الصناعة شائعة في كافة المدن الشامية، ويأتي في مقدمتهما دمشق ثم حلب وحماة وحمص وطرابلس وبيروت والخليل وغيرها. وهناك صناعة السروج ولها سوق خاص يدعى السروجيين. وفيه صناع السروج وتوابعها، مما يحتاجه الفرسان. ويلحق بهذه الصناعة دباغة الجلود التي كان لها شأن كبير، وقامت صناعتها على ضفاف الأنهار، وحيثما توفر الماء لها وتعددت الدباغات بدمشق وحلب وحماة وعكا وطرابلس التي ذاعت شهرتها مع بيروت بدباغة جلود الثعالب، وبنات آوى التي تصلح للفراء^(٢).

- صناعة الصابون: تركز هذه الصناعة على مخلفات معاصر الزيوت (الجفت) وهو التفل المتبقي في قيعان أحواض الترسيب بعد استخراج الزيت النقي من الزيتون^(٣).

ولا تقل أهمية هذه الصناعة عن صناعة الزيوت، للحاجة الماسة إلى الصابون في الاستهلاك اليومي، وكان لسكان بلاد الشام عامة وللدمشقيين خاصة شهرة واسعة في استهلاك الصابون بأنواعه في الاستحمام والغسيل. والمعروف عن دمشق في التاريخ أنها اشتهرت بصناعة الصابون الممتاز^(٤).

وإن كثرة الحمامات دليل على تطور هذه الصناعة في دمشق، بالإضافة إلى التفنن في صناعة الصابون بألوانه وأطايبه.

- صناعة العطور: وهي من الصناعات القديمة في دمشق، وقد انتشرت هذه الصناعة انتشاراً واسعاً في بلاد الشام، حيث الزهور والورود تغطي مساحات واسعة من أراضيها، فأينما تنقلت تتفحك روائحها الزكية، وعبقها

(١) سعيد عاشور: أضواء جديدة على ابن عساكر المجتمع الدمشقي في عصره ص ٢٣١ - ٢٣٢.

(٢) كرد علي: خطط الشام ج ٤ ص ٢٠٦.

(٣) كرد علي: المرجع نفسه ج ٤ ص ١٥٧.

(٤) سعيد عاشور: المرجع السابق ص ٢٢٧.

الفواح، وتبهرك بألوانها الزاهية، ومن هذه الأزهار ما هو طبيعي، ومنه ما هو مزروع، وقد أورد الجوبيري في كتابه «كشف الأسرار» فصلاً خاصاً يكشف من خلاله بعض أسرار صناعة العطور ومما جاء فيه، صناعة العطارين وهي متعددة، فمنها ما هو معمول معلوم وفيها ما هو معمول مجهول فمن المعلوم «الفلفل والهليج، والزنجبيل، ودم الأخوين، والمصطكي، والنيل والمسك والعنبر، والماء ورد، والكافور وغيرهم»^(١).

وقد تقنن الشعراء بغوطة دمشق، وأجاد بوصفها الوصافون حتى قيل عنها إحدى جنات الدنيا الأربع^(٢). وقد وصفت بلاد الشام أنها بلد الرياحين، والأزهار، والطيوب، والعطور، ولتقطير الزهور شأن عظيم منذ الأزمان الغابرة، وقد أشار شيخ الریوة إلى كثرة الورود والأزهار في دمشق وضواحيها، وإلى استخراج ماء الزهر، وبخاصة في قرية المزة إحدى ضواحي دمشق قال: «إن العطر وغيره كان يستخرج في المزة من نواحي دمشق من زهورها ووردها، حتى أن أكثر مخلفاته تلقى في الطرقات، وفي دروبها وأزقتها، كالمزابيل، فلا يكون لرائحته نظير، ويكون ألد من المسك إلى مدة انقضاء الورد»^(٣).

ومن المعروف عن دمشق في التاريخ أنها اشتهرت بصناعة العطور الطيبة^(٤). ومن أهم أنواع الورود والأزهار التي كان يستخرج منها ماء الورد والعطور «الورد ولسان الثور، وبزهر النيلوفر أو البان، أو زهر النارنج، والشقشقيق «شقائق النعمان»، والهندباء، أبو بورق القرنفل». وحمل ماء الورد المستخرج بالمزة إلى سائر البلاد الجنوبية، كالحجاز وما وراء ذلك^(٥).

(١) الجوبيري: المصدر السابق ص ٧٤. الموسوعة الشامية: ج ٣٧ رحلة لود ولف ص ٢٨٢.

(٢) أبو القداء: تقويم البلدان ص ٢٥٢ - ٢٥٣.

(٣) شيخ الریوة: نخبة الدهر ص ١٩٥.

(٤) سعيد عاشور: المرجع السابق ص ٢٢٧.

(٥) ابن طولون تاريخ المزة ص ٣٥. شيخ الریوة: المصدر نفسه ص ١٩٥-١٩٦. كرد علي: غوطة دمشق ص ٤٦.

لذلك كانت دمشق مختصة بالروائح العطرية، وماء الورد^(١) كذلك تعدّ قرية الزيداني من ضواحي دمشق قلعة الورد. حيث يستخرج منها ماء الورد المصدر إلى القاهرة ومكة المشرفة^(٢) ومن أنواع العطور المشهورة الغالية الثمن، المسك، والعنبر المعجونان بالبان^(٣) وهي من العطور الموروثة.

- صناعة الأدوية والعقاقير الطبية: وقد اقتصت بهذه الصناعة العطارون، وكانت لهذه الصناعة شأن عظيم في دمشق، وكذلك هناك فئة عملت في هذا المجال ذكر لنا الجوبيري بعضاً من أسرارها عندما وصفهم بأنهم من أكثر الناس كذباً على الناس حيث قال: «صناعة طب الطريق وهي على طوائف عديدة، منهم من يتكلم عن العقاقير، وهم أكثر كذباً على الناس، ومنهم من يتكلم عن دواء الدود، ومنهم من يتكلم عن الأدهان، ومنهم من يتكلم عن المعجون، ومنهم من يتكلم عن المسفوفات، ومنهم من يتكلم عن أدوية الشعر، ومنهم من يتكلم عن مرارة الطبع، ومنهم من يتكلم عن بيض السلحفاة، ومنهم من يتكلم عن حشيشة السلحفاة، وأنه ينفع في المحبة، والعطف، وجلب القلوب»^(٤).

يقول الجوبيري^(٥): «وقد كشفت عن هذه الحشيشة فوجدت لها فعلاً عظيماً في هذا المعنى إلا أن هذه الحشيشة لا يقدر عليها إلا من رصد فعل السلحفاة حين هيجانه، فإنه إذا هاج طلب الأنثى، فإذا جاء إليها تمتع منه وتدافعه فإذا يئس منها ذهب إلى هذه الحشيشة وقطعها، ثم أتى فوضعها على ظهرها، فإذا وضعها طاعت له ثم يرمي الحشيشة، فإذا أخذها الذي قد رصدها، فإنها

(١) حتى: تاريخ سورية ولبنان وفلسطين ص ٢٥٤.

(٢) البدرى: نزهة الأنام ص ١٠٤.

(٣) الشيزري: نهاية الرتبة ص ٥٣.

(٤) الجوبيري: كشف الأسرار ص ١٠٢.

(٥) الجوبيري: المصدر نفسه ص ١٠٥ - ١٠٦.

نافعة، وأعلم أنه لا يؤخذ من الحشيشة إلا فرد ورقة، وهي التي يأخذها الفحل وما سواها فلا يساوي شيئاً بل هؤلاء الغريباء يهدرون عليها ويلبسونها».

- الصناعات الغذائية:

تعدّ الصناعات الغذائية من الصناعات الأساسية في حياة الإنسان، لأنها تسدّ حاجته الضرورية للحياة، وحيث أن بلاد الشام من البلاد التي كانت تتوفر فيها المادة الخام للصناعات الغذائية، سواء الزراعية منها أو المنتجات الحيوانية.

أشهر المصنوعات الغذائية:

١ - صناعة طحن الحبوب: وهي من الصناعات الرائجة في دمشق، حيث انتشرت الأرحاء (مفردها رحى) في جميع أودية الأنهار، ويذكر أنه كان بدمشق العديد منها مركبة على أوديتها^(١) وحدد ابن عساكر ثلاثاً داخل السور، وتسعاً في خارج المدينة^(٢).

وقد اهتم الأيوبيون بمراقبة هذه الصناعة حيث أسند المحتسب مهمة مراقبة العاملين بها من الحبوبيين والدقّاقين، حيث ذكرت التعليمات الخاصة بهذه الصناعة، ومنها إلزامهم بتنظيف الحبوب، وغربلتها من التراب، وتنظيفها من الشوائب قبل طحنها^(٣).

صناعة الخبز: حرص الأيوبيون على العناية بقوت الشعب اليومي، فوضعت التعليمات الخاصة بهذه الصناعة، وألزمت النخالين بنخل الدقيق بالمناخل الدقيقة مراراً، وأن تنظف أوعية الماء، وتغطيتها وغسل المعاجن ونظافتها، وما

(١) الإدريسي: المصدر السابق ص ٢٢٩.

(٢) بدران: تهذيب تاريخ دمشق ج ١ ص ٢٤٥ وما بعد.

(٣) الشيرازي: نهاية الرتبة في طلب الحسبة ص ٢١.. ابن الأخوة: معالم القرية في أحكام الحسبة ص

يفطى به العجين وما يحمل عليه، وعلى العجان ألا يعجن بقدميه، ولا بركبتيه ولا بمرفقيه لأن ذلك مهانة للطعام^(١).

وأما طريقة الخبز، فيلزم الخباز إذا ما فرغ من إحماء التنور، مسح داخله بقماش نظيف، ثم يشرع في الخبز، ولا يجوز إخراج الخبز من التنور قبل النضج، ومن غير احتراق، وعلى المحتسب مراقبة كل ذلك، وهناك أنواع عديدة من الخبز، وكانت تباع بالوزن^(٢).

ومن الصناعات الغذائية التي كانت منتشرة في دمشق الأيوبية، صناعة الألبان التي تتركز على الحليب المستخرج من الثروة الحيوانية (أغنام - أبقار - ماعز) وكان يستخلص منها السمن والقشدة والقريشء والعسل. وقد عمد بعض الناس إلى استخدام أساليب الغش في تصنيع العسل.

يقول الجوبري: «إنهم إذا أرادوا أن يعملوا عسلاً جيداً يأخذون في التين المعري الجيد، ويجعلونه في شيء يلقون عليه من الماء العذب ما يغمره، ويتركونه حتى يعود مثل الحلاوة، ثم يغلون عليه ويرفعونه عن النار، ويتركونه حتى يبرد، ثم يمرسونه بأيديهم مرساً جيداً، ويصفونه، ثم يأخذون التفل يلقون عليه ماءً فاتراً، ويمرسونه حتى لا يبقى فيه شيء من الحلاوة، ثم يصفونه على الأول، ويرفعون الجميع على النار اللينة حتى يأخذ له قوام ثم يلقون عليه الصمغ العربي، وقليلاً من الكثيرة الشقرا، وشمع خام، ويغلون عليه، ثم يرفعونه في أوعية فخار جديدة، ويتركونه سبعة أيام فإنه يعود عسلاً جيداً»^(٣).

وهناك أيضاً صناعة الأشربة، وقد شاعت في العصر الأيوبي، وخاصة لوجود الثلج لتبريد الأشربة، ففي دمشق مثلاً كانوا يجمعون الثلج من الجبال، ويضعونه في أماكن مخصصة بعد كبسه بطريقة خاصة، ويبقى حتى أيام

(١) الشيزري: المصدر نفسه ص ٢٢ - ٢٣ - ٢٤.

(٢) الموسوعة الشامية: ج ٣٧. رحلة لود ولف ص ٣٨٤. أنور الرفاعي: النظم الإسلامية ص ١٢٥.

(٣) الجوبري: كشف الأسرار ص ١٢٠ - ١٢١. ابن بطوطة: رحلة ابن بطوطة ص ٩٤. كرد علي: خطط الشام ج ٤. ص ١٥٧ - ١٩٠.

الصيف، حيث يستعملونه في الأشربة المبردة، وكان الثلج لا ينقطع لا صيفاً ولا شتاءً^(١).

ومن الأشربة التي كانت رائجة في دمشق شراب الجلاب المبرد، وهو الشراب الذي سقاه صلاح الدين للملك جفري بعد تحرير بيت المقدس، حيث كان هذا الملك من جملة الذين وقعوا في الأسر^(٢)، وأيضاً اشتهرت دمشق بشراب الفقاع، حيث كان أهالي دمشق يتناولون هذا الشراب، وهو عبارة عن منقوع الشعير المخمر «يشبه البيرة»، ومما يدل على كثرة تناوله من قبل الأهالي كونه يباع في المحلات^(٣).

ومن الصناعات التي اشتهرت بها دمشق: صناعة المرببات^(٤)، وصناعة الزيوت، وكانت شائعة في بلاد الشام في العصر الأيوبي، وذلك لكثرة أشجار الزيتون، وتعدّد مناطق زراعته، وقد ملكت دمشق عدداً من معاصر الزيتون حيث أشار ابن عساكر^(٥) إلى وجود معصرتين للزيت فيها، ويذكر البدري بأن معصرة للزيت وجدت في كفرسوسة تعود لزمان عيسى عليه السلام^(٦). وكانت بلاد الشام تنتج كميات كبيرة من الزيوت، وتمون فيه البلاد الإسلامية، ويعرف زيتها بالركابي لأنه كان يحمل على الإبل من الشام^(٧).

(١) القاسمي: قاموس الصناعات الشامية ج ١ ص ٧٢ - غواتمة: المرجع السابق ص ٤٩.

(٢) أبو شامة: الروضتين ج ٣ ص ٣٦ «الموسوعة الشامية ج ١٩».

(٣) الوهراني: كتاب جليس كل ظريف ص ١٧٦ «الموسوعة الشامية».

(٤) هايد: المرجع السابق ج ١ ص ١٨٢.

(٥) تاريخ دمشق: مجلد ٢ ج ١ ص ٦٦.

(٦) البدري: نزهة الأنام ص ٢١٢ - ٢١٣.

(٧) الثعالبي: لطائف المعارف ص ١٥٧ - همار القلوب ص ٤٢٢.

الفصل الثالث

التجارة

- أهمية التجارة: تلعب التجارة دوراً هاماً كمصدر من مصادر الاقتصاد لدى الشعوب، حيث أنها الوسيلة الوحيدة لتصريف الإنتاج الزراعي والصناعي، وهي عمليات البيع والشراء، وتخضع لأحكام المعاملات العامة بين المواطنين داخلياً، أما التجارة الخارجية فلها أحكامها الخاصة.

وبين الدمشقي في كتابه (الإشارة إلى محاسن التجارة) ماهية التجارة عندما قال: «وأصل التجارة في البيع والشراء أن يشتري من زاهد أو مضطر إلى أخذ الثمن ويبيع من راغب أو محتاج إلى الشراء»^(١). وهذا يبين أن موضوع التجارة يتوقف على العرض والطلب، وصفة المشتري منه، والمشتري.

كما بين لنا أيضاً الصفات التي يجب أن يتحلى بها التاجر، عندما قال: «ويجب على التاجر أن يعتمد المسامحة في البيع، فإنها أحد أبواب المعيشة، ومجربة للرزق، وذلك بأن يقرر التاجر في نفسه أنه إذا ربح ديناراً واحداً مثلاً، كان نصفه موقوفاً على المسامحة، إما في وزن أو نقد أو هبة لواسطة أو حطيطة أن سأل المشتري فيها فإن المشتري إنما باله وذهنه مصروف إلى ذلك، ويجب على التاجر معرفة غشوش الكياليين، والوزانين والمساح والعدادين، ويجب ألا يصدق أحد من السماسرة قولاً، ولا يقبل لهم نصحاً، ويجب أن يحترس أيضاً من

(١) الدمشقي (أبي الفضل جعفر بن علي): الإشارة إلى محاسن التجارة ص ٤٥. مطبعة المويد سنة

التصديق بأحاديث كثير من التجار»^(١). وكانت التجارة مركزها الأسواق، شأنها شأن الزراعة والصناعة، وكانت كل طائفة من التجار يجلسون معاً في قسم واحد، وكان التجار ينزلون في فنادق مخصصة لهم، وهي أشبه بالأسواق الكبيرة يضعون بضائعهم في أسفلها، وينامون في أعلاها.

وقد أولى صلاح الدين التجارة اهتماماً خاصاً، وعناية فائقة، حيث أنه شجع التجاريتين الداخلية والخارجية البرية والبحرية، ومما يدل على ذلك المنشور الذي أصدره لتسهيل الأعمال التجارية وحماية التجار، وقد ورد فيه: «خرج أمرنا بكتابة هذا المنشور بمساحة أهل القاهرة ومصر، وجميع التجار المترددين إليها، وإلى الساحل المقسم والمنية بأبواب المكوس، صادرها وواردتها، فيرد التاجر ويسفر، ويفيب عن ماله ويحضر، ويقارض، ويتجر مركباً وظهراً، سراً وجهراً، لا يحل ما شدّه، ولا يحاول ما عنده، ولا يكشف ما ستره، ولا يسأل عما أورده، وأصدره، ولا يستوقف في طريقه، ولا يشرق بريقه ولا يؤخذ منه طعمه، ولا يستباح له حرقة، والذي اشتملت عليه المساحة في السنة من العين مائة ألف دينار مساحة لا يشوبها تأويل، ولا يتخونها تحويل، ولا يعترها زوال انتقال، قائمة ما قام دين القيمة»^(٢).

ولقد حرص صلاح الدين على إزالة الظلم، فرد الحقوق إلى أصحابها، وإلغى الضرائب ومنع الرشوة، وضرب على أيدي اللصوص، ونظر بنفسه في شؤون الناس^(٣).

وقد امتازت دمشق بمركزها التجاري في الشرق، بوقوعها على طرق القوافل الآتية من الهند، وفارس والعراق تحمل بضائع هذه الأقطار إلى الثغور

(١) الدمشقي: المصدر نفسه ص ٤٣ - ٤٤ - ٤٦.

(٢) أبو شامة: الروضتين ج ١ ص ٢٠٥.

(٣) عماد الأصفهاني: الفتح القسي ص ٢١٥ - ٢١٦ - ٢١٧ - ٦١٩ - ٦٢٠. سلسلة الناجحون: تأليف فتة من رجال التربية وعلم النفس صلاح الدين بطل حطين ص ١١١.

الشامية التي غصت بالعديد من تجار الأوربيين^(١)، ووصف دمشق الرحالة ابن جبير، فقال: «دمشق جنة المشرق، ومطلع حسنة المونق المشرق، وهي خاتمة لبلاد الإسلام التي استقريناها، وعروس المدن التي اجتليناها، وقد تحلت بأزاهير الرياحين، وتجلت في حلل سندسية من البساتين، وحلت من موضوع الحسن بالمكان المكين، وتزينت في منصتها أجمل تزيين، وأسواق هذه البلدة من أحفل أسواق البلاد وأحسنها انتظاماً، وأبدعها وضعاً، ولاسيما قيسارياتها، وهي مرتفعات كأنها الفنادق، مثقفة كلها بأبواب حديد، كأنها أبواب القصور»^(٢). نشطت التجارة بين دمشق ومصر في ظل حكم الأيوبيين على الرغم من سيطرة الصليبيين على حصني الكرك والشوبك الواقعين على طريق القوافل، وقد ازداد حجم المبادلات التجارية بشكل خاص بعد استعادة صلاح الدين لهذين الحصنين، وفرض الأمن في المنطقة^(٣). ومما ساهم في نشاط الحركة التجارية في بلاد الشام تحول نشاط التجار الإيطاليين من مصر إلى موانئ الشام بعد قيام الإمارات الصليبية على أراضيها^(٤).

ويمكن القول أن دمشق الأيوبية تعاونت مع مصر في تبادل المحاصيل الاقتصادية، وتمويل الجيوش، ووقف الإقليمان في وجه الجيوش الفرنجية. كذلك غدت الإمارات الأيوبية في بلاد الشام سواءً الداخلية أو الساحلية محطات تجارية هامة، يؤمها التجار الذين استهوتهم منتجات الشام بكافة

(١) الجوبيري: كشف الأسرار ص ١٠٢ - ١١١. كلود كاهن: تجار القاهرة الأجانب في عهد الفاطميين والأيوبيين. الندوة الدولية لتاريخ القاهرة ص ٨٧١ - ٨٧٢. هايد: المرجع السابق ج ١ ص ٤٣.

(٢) ابن جبير: الرحلة ص ٢٤٨ - ٢٧٨.

(٣) ابن شداد: سيرة صلاح الدين ص ١٦١ - ١٦٢. أبو شامة: الروضتين ج ٢ ص ٤٠٧ (الموسوعة الشامية ج ١٨). الروضتين ج ٣ ص ٣٦ (الموسوعة الشامية ج ١٩). أمينة بيطار: تاريخ العصر الأيوبي ص ٢٢١ - هايد: تاريخ التجارة في الشرق الأدنى في العصور الوسطى ج ١ ص ١٨٤ ج ٢ ص ٢١.

(٤) القوسي (عطية) تجارة مصر عبر البحر الأحمر منذ فجر الإسلام حتى سقوط الخلافة العباسية ص ١٣٥.

أنواعها وأصنافها، كما غدت الموانئ الشامية أسواقاً هامة لمتاجر الشرق الأقصى من جهة، والمنتجات الشامية والمصرية من جهة أخرى^(١).

ومما يؤكد ترابط مدن بلاد الشام تجارياً، ما أورده هايد عندما قال: «كانت السوقان الإسلاميتان الكبيرتان، حلب ودمشق متصلتين إحداهما بالأخرى بطريق ترتاده القوافل كثيراً، يجتاز مدينة حماة وحمص، والاثنتان تهتمان كثيراً بحركة مرور البضائع»^(٢).

-عوامل ازدهار التجارة: نشطت الحركة التجارية في دمشق الأيوبية

لأمور عديدة توفرت لهذه المدينة، وهي انتشار الأمن، وسهولة الانتقال منها إلى أي مكان آخر دون أي عائق، ومن ثم توفر الحماية للتجار وأموالهم من المصادر وغيرها، وتوفر الأسواق^(٣)، كما ساعد على ازدهار ورقي التجارة فيها توافر الصناعات المتقدمة والعديدة فيها^(٤). ويأتي على رأس كل ذلك في عوامل ازدهار التجارة في دمشق، كونها مركز السلطة في بلاد الشام.

ومن الواضح للعيان أنه لا يمكن لنا الفصل بين مناطق بلاد الشام خلال بحثنا عن التجارة، حيث أن دمشق كان يحمل إليها إيرادات ضرائب الواردات والصادرات التي كانت تؤخذ في بيروت عن مراكز طوائف الإفرنج^(٥).

ومما ذكره محمد كرد علي في هذا السياق، وتكاثر حضور مراكز طوائف الإفرنج، وكانت ضرائب الواردات والصادرات تؤخذ في بيروت، وهي تبلغ جملة مستكثرة، وكان على باب الميناء دواوين وعامل وناظر، ومشارف، وشاد يوليهم نائب دمشق، والمتوفر من المرتبات يحمل إلى دمشق^(٦).

(١) عادل زيتون: المرجع السابق ص ١٨٨.

(٢) هايد: تاريخ التجارة في الشرق الأدنى في العصور الوسطى ج ١ ص ١٨١.

(٣) ابن عبد الهادي: رسائل دمشقية (نزهة الرفاق في شرح حالة الأسواق) ص ٧٣ ما بعد.

(٤) انظر فصل الصناعات في موضوع البحث.

(٥) ابن جبير: الرحلة ص ٢٧٧.

(٦) كرد علي: خطط الشام ج ٤ ص ٢٤٥.

هذا وقد حرص الأيوبيون على تأمين طرق التجارة، والضرب على أيدي اللصوص، وقطاع الطرق ولم تأخذهم في ذلك رحمة ولا شفقة. ومما يؤيد ذلك ما أورده الرحالة لودولف عند زيارته لدمشق، معبراً عن دهشته لما رآه من أمان في أسواق دمشق حيث قال: «ومع أن المدينة مكتظة بالسكان، وكذلك مع أن البضائع تترك تقريباً بلا حراسة، فإنه لا يوجد إنسان متقدم السن كثيراً، يتذكر أن أي إنسان قد قتل هناك ونادراً جداً أن جرت سرقة أية بضائع معروضة للبيع هناك»^(١).

وكذلك أكثر الأيوبيون من عقد المعاهدات التجارية والاتفاقات الحربية، وإطلاق سياسة التسامح للتجارة الفرنج الصليبيين وعدم القصاص منهم بسبب اشتراك حكوماتهم في الحرب^(٢).

كما كان للاتفاقات والمعاهدات الحربية أهمية فائقة في تأمين سلامة القوافل التجارية، وأمن الطرق التجارية، ومن المعروف أن سلاطين الأيوبيون لم يتوانوا في عقد مثل هذه الاتفاقيات إذا ما طلب منهم ذلك، لا خوفاً من الصليبيين، وإنما حقن للدماء، وتأمين للموارد الاقتصادية وحماية للتجار. ولهذا نرى أن صلاح الدين استجاب لطلب أرناط الذي طلب بنفسه مهادنة صلاح الدين بعد إخفاقه في حملته على اليمن والحجاز^(٣) وأخذت القوافل تسير آمنة ما بين بلاد الشام ومصر والحجاز مروراً بإمارة الكرك، الواقعة تحت سيطرة الصليبيين.

لأن بنود المعاهدة نصت صراحة على ضمان حرية التنقل والتجارة بين مصر وبلاد الشام، ولكن هذه الاتفاقية كانت بين مد وجزر، لم تدم طويلاً لأن

(١) الموسوعة الشامية: ج ٣٧ رحلة لودولف ص ٢٨٣.

(٢) الباز المريني: الأيوبيون ص ٢٠٦. رنسيان: تاريخ الحروب الصليبية ج ٣ ص ٩. عفاف صبرة: العلاقات بين الشرق والغرب ص ٩١. A shor. Op, oit, p210.

(٣) ابن الأثير: الكامل ج ١١ ص ٥٢٧. أبو شامة: الروضتين ج ٢ ص ٥٧. ابن واصل: المصدر السابق ج ٢ ص ١٨٥.

أرناط، كما وصفته المصادر العربية كأن بحق من شياطين الفرنج وأشدهم عداوة للعرب المسلمين^(١).

حيث راعته رؤية القوافل العربية الإسلامية الفنية تسير بجانب إقطاعه «الكرك» محملة بأنواع البضائع، وتجوب بلاد العرب من أقصى الجنوب إلى أقصى الشمال دفعه حقه إلى نقض المعاهدة في سنة (٥٧٧ هـ / ١١٨١ م) مستغلاً عودة صلاح الدين إلى القاهرة^(٢)، فما أن مرت قافلة تجارية كانت متجهة من دمشق إلى مكة، حتى اندفع أناط وراءها، وتمكن من الظفر بها عند تيماء ونهبها وأسر من تمكن أسره^(٣) وكذلك فعل في نهاية سنة (٥٨٢ هـ / ١١٨٧ م) حيث انقض على قافلة حافلة بأنواع السلع الثمينة، قادمة من مصر في طريقها إلى الشام، وأسر رجالها، ونهب أموالها ومتاعها، وكان رد صلاح الدين عليه رداً يليق به، فقد قتله لما ظفر به وفاء لقسم كان قد أقسمه^(٤) وكان هذا درساً لكل من تسول له نفسه الاعتداء على حرمان العرب والمسلمين.

وبعد وفاة صلاح الدين وقع عبء حماية القوافل، وتأمين سلامتها على عاتق السلاطين والملوك الذين تولوا فيما بعد الكرك والشويك، فبنى المعظم قلعة الصلت، المشرفة على غور الأردن لتأمين المسالك المؤدية إلى الشام، ومصر، كما قضى على نشاط اللصوص وقطاع الطرق، وكان من عادة المعظم التنقل بين أجزاء مملكته من دمشق إلى القدس والمببت ليلة واحدة في الطريق^(٥). وفي

(١) ابن شداد: سيرة صلاح الدين ص ٦١. أبو شامة: الروضتين ج ٣ ص ١٨١. ١٣٦. الموسوعة الشامية ج ١٩.

. ابن الأثير: المصدر السابق ج ١ ص ٤٧. ٥٢٧. عاشور: الحركة الصليبية ج ٢ ص ٧٩٧.

(٢) ابن الأثير: الكامل ج ١٠ ص ٤٧٠. غواتمة: المرجع السابق ص ١٢٣.

(٣) ابن كثير: البداية والنهاية ج ١٢ ص ٣٠٩. ٣١٠. سهيل زكار: مائة أوائل ص ١٢٨. ١٣٩. غواتمة: المرجع السابق ص ١٥١. ١٥٢.

(٤) ابن واصل: المصدر السابق ج ٢ ص ١٩٤. عاشور: مصر والشام في عصر الأيوبيين والمماليك ص ٥٣.

(٥) غواتمة: المرجع السابق ص ١٨٢. ١٨٣.

إحدى جولاته، وصل المعظم إلى بيسان صباحاً، ومكث هناك مستريحاً، وتناول الغذاء ثم واصل سيره إلى القدس، وبعد خروجه منها اعترضه رجل يدعى «قنديل»، ورجاله وكان المعظم على علم بأن أحد قطاع الطرق اسمه قنديل، ولم يكن مع المعظم سوى عشرة من خياله، ويروي على لسان المعظم قوله: «فوقفت وصحت فيه وبلك أنت قنديل؟ قال: نعم... وبيده قوس لو ضرب بسهمه الجبل لنفذ منه». فأمر المعظم بعض مماليكه بالنزول، وطلب منهم أن يكتفوه بوتر قوسه فكتفوه، وهرب أصحاب قنديل، ولما وصل المعظم إلى القدس، أحضر قنديل أمامه، فأمر بشنقه، وكان شاباً مليحاً شجاعاً. ولكن قنديلاً طلب من الملك المعظم أن يستبقيه، وقال له: «أتركني أحمي بلادك وأجاهد الكفار بين يديك» فرق قلبه إليه، وخلع عليه وأطلقه. وعاد إلى الغور، فأقام هذه المرة حارساً للأمن بعد أن كان قاطعاً للطريق، فأمنت الطرق، وحفظت الأموال، وعم السلام ربوع الأغوار، وظل قنديل يقوم بهذه المهمة، حتى استشهد أثناء دفاعه عن الحصن الذي بناه المعظم على جبل الطور، ومحاربته للصليبيين^(١).

وعلى هذا فقد منح السلاطين والملوك الأيوبيون الامتيازات للتجار الأجانب، وشجعوا التجارة بين مصر والشام من جهة، وأوربة من جهة ثانية، وكانت دمشق المحطة الأولى للتجارة بين جنوب الجزيرة العربية براً، ومنها إلى عكا وصور وبيروت^(٢).

وزاد النشاط التجاري في الشام عامة وفلسطين خاصة بعد صلح الرملة عام (٥٨٨ هـ / ١١٩٢ م)، الذي جاء مؤكداً على حرية التجارة، وتقلل حواقل التجارة بين عرب المسلمين والإفرنج، فأقبل الحجاج على بيت المقدس آمنين، ومعهم متاجراتهم أحياناً، وأخذ النشاط يدب في طرق التجارة، ووصل خلق كثير إلى

(١) المقرئزي: الخطوط ج ١ ص ٣٦٧. الذهبي: دول الإسلام ج ٢ ص ١١٣.

(٢) ابن جبيرة: المصدر السابق ص ٢٩٢.

القدس للحج، وفتح لهم السلطان الباب، وأنفذ معهم الغفراء يحفظونهم حتى يصلوا إلى يافا^(١).

وقد تحدث سعيد عاشور عن طبيعة العلاقات الاقتصادية في السلم والحرب بين العرب المسلمين في الشام ومصر وبين الصليبيين. فقال: «إن كثيراً من الناس يظنون أن الحرب كانت مستمرة، وأن العداء ظل مستحكماً بين العرب المسلمين والصليبيين في الشام طوال عصر الحروب الصليبية. ولكن الحقيقة أن الحروب كانت تشتعل أحياناً، وتخمد نارها أحياناً أخرى، وفي الفترات التي يتوقف فيها القتال، تقوم اتصالات حضارية ومعاملات اقتصادية على جانب خطير من الأهمية بين المسلمين والصليبيين»^(٢).

كذلك أكد الرحالة ابن جبير نشاط الحركة التجارية بين العرب والإفرنج، عندما كان يرافق إحدى القوافل التجارية التي غادرت دمشق متجهة إلى مدينة عكا التي كان يسيطر عليها الصليبيون، قال: «فلما وصلت القافلة الإسلامية إلى عكا، وهي قاعدة مدن الفرنج بالشام نزلت في خان معد خصيصاً لنزول القوافل الإسلامية»^(٣).

وهذا برهان حقيقي على حرية الانتقال للتجار بين الممالك الأيوبية، والمدن المحتلة من قبل الصليبيين للقيام بالعمل التجاري، وقد شغل تجار دمشق دوراً هاماً في ازدهار التجارة، حيث ذكر أنه كان بمدينة دمشق رجالان من مياسر التجار وأغنيائهم المنغمسين في الثراء، قاما بنصيب كبير من إنعاش الحالة الاقتصادية في البلاد، وإحدهما يعرف بنصر بن قوام والثاني بأبي الدر ياقوت مولى القطاني، وكانت تجارتهما كلها بساحل البحر الأبيض المتوسط، ولا ذكر فيه لسواهما ولديهما الأمان من المقارضين. «فالقوافل صادرة وواردة

(١) أبو شامة: الروضتين ج ١ ص ٢٩٤ - عاشور: الحركة الصليبية ج ٢ ص ٩٠٠.

(٢) عاشور: مصر والشام ص ١٢٠.

(٣) ابن جبير: المصدر السابق ص ٢٧١ - ٢٧٦.

ببضائعهما وشأنهما في الفنى كبير، وقد رهما عند أمراء المسلمين والإفرنج كبير»^(١).

كذلك شغلت الصناعات الراقية دوراً هاماً في ازدهار التجارة وتقدمها، حيث أن معظم الصناعات بقيت موضع اهتمام الحكام الأيوبيين، وتقدمت عما كانت عليه فيما مضى، وأكبر مثال على ذلك صناعة الزجاج، والأواني الملونة المصقولة والصناعات النسيجية والخشبية والمعدنية، كل ذلك كان له أثر كبير في تقدم النشاط التجاري، كذلك شغلت الأسواق دوراً بارزاً أيضاً في تقدم الصناعة والتجارة، حيث أن أسواق دمشق كانت تعج بالبضائع التي تحمل إلى مدن الشام، مثل طرابلس وبيروت وصيدا وعكا^(٢) كما أن دمشق كانت ملتقى القوافل التجارية وقوافل الحجاج، حيث يجتمعون فيها ويسيرونها إلى مكة المكرمة، ومنها يتفرقون بعد أداء الفريضة^(٣)، وقد أدت هذه الحركة المستمرة إلى انتشار السلع في أسواق دمشق، وقد وصف سوفاجية أسواق دمشق، بقوله: «بأنها شوارع متوازية تفصل بأبواب في مداخلها ويختص كل منها بأرباب مهنة واحدة»^(٤).

وكانت هذه الأسواق موضع اهتمام المؤرخين والرحالة لتتنوع سلعها، وإتقان صنعتهما، وذبوع صيتها في الآفاق. فالمقدسي وصف هذه الأسواق بقوله: «دمشق هي مصر الشام أكثر أسواقها مغطاة، ولهم سوق عمل، على طول البلد مكشوف حسن»^(٥).

(١) الرمادي: صلاح الدين الأيوبي ص ٧٦.

(٢) ابن جببير: الرحلة ص ٢٤٨ - ٢٧٨ - ٢٩٣. حسن إبراهيم حسن تاريخ الإسلام ج ٢ ص ٢١٣.

(٣) هايد: تاريخ التجارة في الشرق الأدنى في العصور الوسطى ج ١ ص ٥٩.

(٤) سوفاجية: دمشق الشام لمحة تاريخية منذ العصور القديمة حتى الوقت الحاضر ترجمة فؤاد أفرام البستاني بيروت ١٩٣٦ ص ٣٠.

(٥) المقدسي: أحسن التقاسيم ص ١٥٦.

ولم يغفل ابن جبير الحديث عن أسواق دمشق أثناء إقامته فيها، حيث تركت أثراً جميلاً في نفسه من حيث تنظيمها وحمايتها وكثرة بضائعها، حيث قال: «وأسواق هذه البلدة من أحفل أسواق البلاد، وأحسنها انتظاماً، وأبدعها وصفاً، ولاسيما قيساريته، وهي مترفعة كالفنادق مثقفة كلها بأبواب حديد، ولها سوق يعرف بالسوق الكبير يتصل من باب الجابية إلى باب شرقي»^(١).

ويبدو أن الإدريسي تطرق إلى وصف هذه الأسواق بطريقته الخاصة، والتي من خلالها بين الحركة التجارية من وإلى الأسواق، حيث قال عنها: «وشوارعها تحتوي على صناعات مختلفة، وتجار يبيعون كل أنواع الحرير والبر، وكاد المنوع ذي الصفة الرائعة، وهو يحمل إلى كل المدن، وينقل بالسفن إلى كل الأصقاع والعواصم البعيدة، والأماكن القريبة، ولسكانها وسائل عديدة لكسب العيش، وكل شيء يريدونه، وصناعات المدينة ذوو شهرة عظيمة، وبضائعها تطلب من كل أسواق الأرض»^(٢).

ويبدو أن ازدياد السكان في دمشق أدى إلى اتساع أسواقها، وزيادة عددها كما كانت حركة التجارة في نشاط مستمر يومياً، حيث وصفها ابن عبد الهادي أجمل وصف، وقال فيها: «أما المدينة نفسها فقد اتسعت أسواقها فتجاوزت منطقة الشارع القديمة متجهة إلى الجامع الكبير. جامع بني أمية -، وهي نقطة مركزية يجتمع فيها أكثر السكان أسبوعياً، إن لم نقل يومياً فيسهلون المعاملات التجارية، وكثرة الأسواق حتى بلغت مائة وتسعاً وثلاثين سوقاً»^(٣).

هذا وقد اشتملت هذه الأسواق على كل حاجات المجتمع من مأكولات وملبوسات وغيرها من المنتجات، كما كانت معظم هذه الأسواق متخصصة في

(١) ابن جبير: المصدر السابق ص ٢٠٢.

(٢) الإدريسي: المصدر السابق ص ١٢.

(٣) ابن عبد الهادي: نزهة الرهاق في شرح حالة الأسواق ج ٣ ص ١٩.

نوع معين من السلع، وكان على المتسوق أن يجوب الأسواق كلها لتأمين حاجاته^(١). فلا يمل، لأن الأسواق تغري المتسوق بالشراء، بالإضافة إلى أن كثرة الناس من كافة الأقطار تذهب السأم والملل، يتبادلون متاجرهم، وسلعهم، ويحمل هؤلاء معهم المصنوعات الدمشقية المتنوعة^(٢). ومن هذه الأسواق سوق القماحين (البزورية اليوم) وسوق العطارين، وسوق الإسكافيين، وسوق السراجين، وسوق الخيل، وسوق القطنين، وسوق الجزارين، وسوق السقاطين (رديء المتاع)^(٣).

ولم تقتصر الحركة التجارية على داخل المدينة بل تعدتها، حيث كانت لدمشق علاقات تجارية مع الأرياف المحيطة بها، حيث أقيمت الأسواق على أبواب المدينة، وما برحت الفوطة تأخذ من دمشق وتعطيها^(٤). ولم تتوقف العلاقات التجارية على غوطة دمشق فقط، بل تعدتها إلى طرابلس، واللاذقية وصور وعكا، حيث كان تجار هذه المدن يحملون معهم السلع الدمشقية ومصنوعات أخرى، حتى زمن الحروب الصليبية رغم المخاطر التي فرضها الصليبيون في المنطقة^(٥).

لقد كان للأوضاع السياسية داخل بلاد الشام، والخلاف على السلطة في دمشق، دوراً هاماً في إظهار عوامل الضعف والتراجع للناحية الاقتصادية، وخاصة عندما اشتد الخلاف بين أبناء البيت الأيوبي عامة، وأبناء الملك العادل خاصة^(٦).

(١) عاشور: أضواء جديدة على ابن عساكر والمجتمع الدمشقي في عصره ص ٣٣٢.

(٢) نقولا زيادة: دمشق في عصر المعاليك بيروت ١٩٦٦ ص ١٠٨.

(٣) ابن عبد الهادي: نزهة الرفاق في شرح حالة الأسواق ص ٧٨ - ٧٩ - ٨٠ - ٨١.

- قتيبة الشهابي: أسواق دمشق القديمة دمشق ١٩٩٩ - ص ٢٢٠ - ٢٢١.

(٤) ابن جبير: المصدر السابق ص ٢٠٢.

(٥) ابن بطوطة: المصدر السابق ص ٤٨ - ابن العديم: زبدة الحلب ج ١ ص ٢٢٢.

- حتي: تاريخ سورية ج ٢ ص ٢٧٨ - جمال الدين سرور: المرجع السابق ص ١٤٤.

(٦) عاشور: مصر والشام ص ١٠٥ - ١٠٦ - انظر الباب الأول - الفصل الثاني دمشق زمن العادل وأولاده.

- مراقبة الأسواق: جهد الأيوبيون في إقامة العدل بين أفراد المجتمع، وحمايتهم من ظلم الباعة والصناع، وجشعهم سواءً في التفالي بالأسعار أو احتكار أقوات الناس أو سوء الكيل ويخس الميزان والتدليس في المبيعات والأشياء، مما دفع الأيوبيون إلى فرض مراقبة على الصناع والباعة، مع مراعاة الأحكام الشرعية التي تقتضي عدم إلحاق الضرر بالآخرين، لذلك نهج الأيوبيون سبيل الدول الإسلامية في إتباع نظام الحسبة الذي كان معروفاً عندهم، وإن اختلف في تحديد منشأ هذا النظام^(١).

شملت أعمال المحتسب نواحي كثيرة ومتعددة، كما كانت سلطاته واسعة طالبت في بعض الأحيان القضاء، وكانت من أولى مهامه: الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، ومراقبة الأسواق، والباعة والصناع^(٢).

لذلك قام المحتسب بمعاينة كل من يعبث بالشرعية، أو يرفع الأسعار، وإجبار المحتكرين على بيع السلع بالأسعار المقررة، لأن الاحتكار حرام، والمنع من فعل الحرام واجب^(٣)، وعلى المحتسب أيضاً الإشراف على السلع المعروضة في الأسواق فيشرف على بائعي الفراء، وصانعي الحلوى، وشوائي اللحم والرواسين، وقلاتي الأسماك، والشرابين، والبزازين، والحاكة، والخياطين، والدباغين، والدلالين، والمنادين، وعلى الصاغة والسيارفة، والحمامات، والمشرفين عليها^(٤).

وكان المحتسب يأمر أهل الأسواق، بكنسها وتنظيفها من الأوساخ، والطين المجتمع، وكل ما يضر الناس^(٥). ولما لم تدخل الإحاطة بأفعال السوق تحت

(١) أنور الرفاعي: المرجع السابق ص ١٢٣.

(٢) الشيزري: المصدر السابق ص ٨ - ١٠ - القلقشندي: صبح الأعشى ج ٢ ص ٤٧١.

(٣) الشيزري: المصدر نفسه ص ١٢.

(٤) الشيزري: المصدر نفسه ص ١٢ - ١٣ - حسن إبراهيم حسن: تاريخ الدولة الفاطمية ط ٣ عام ١٩٥٨ ص ٣٢٢ - ٣٢٥.

(٥) الشيزري: المصدر نفسه ص ١٤.

صلاحية المحتسب، جاز له أن يجعل لأهل كل صنعة عريفاً من صالح أهلها، خبيراً بصناعتهم، بصيراً بغشوشهم وتدليساتهم، مشهوراً بالثقة والأمانة ليكون مشرفاً على أحوالهم، وليطلع على أخبارهم، وما يجلب إلى سوقهم من السلع والبضائع، وما تستقر عليه الأسعار، وعلى المحتسب أن يكون عارفاً بالموازن والمكاييل والأرطال والمثاقيل والدراهم، وتحقيق كميتها حتى يتمكن من إجراء معاملات الناس، ومراقبتها دون أن يلحق بهم الغبن أو التطفيف^(١).

وقد منح المحتسب من السلطات ما ساعده على تحقيق العدل، ورفع الضرر، فعليه مثلاً إتلاف البضائع الفاسدة، وإراقة الخمر، ومنع التاجر الفشاش من العمل، وإعلان اسمه ليتجنبه الناس، وأما الضرب والحبس والتصنيف والتعزيز فكانت أموراً مألوفة أيضاً.

وكان يتبع المحتسب طائفة من الموظفين لتنفيذ العقوبات على المستحقين لها يسمونهم الأعموان، وكان ينوب عن المحتسب على الحدود والموانئ، وفي الأماكن التي ترد إليها الغلال نواب، ليعلموه بما يرد من الغلال، وما يخرج منها، ليكون على إطلاع واسع على أحوال البلاد الاقتصادية^(٢).

- أنواع التجارة: التجارة في مختلف العصور والبلدان هي نوعان، ولم يتغير هذا النظام في العصر الأيوبي، حيث أن التجارة كانت عبارة عن داخلية، وتجارة خارجية، فالتجارة الداخلية: كانت تتم ضمن نطاق دمشق الأيوبية، أما التجارة الخارجية، فكانت تتم بين دمشق الأيوبية، وسائر الممالك الأيوبية الأخرى، في بلاد الشام، ومصر. والبلاد العربية الإسلامية، وبين دمشق الأيوبية، والبلدان الأوروبية (إيطاليا والإفرنج) وبينها وبين بيزنطة وأرمينية، وبينها وبين بلدان الشرق الأقصى.

(١) الشيزري: المصدر نفسه ص ١٢٩. ابن بسام: المصدر نفسه ص ١٤١٣. ابن الأخوة: المصدر نفسه ص ١٤.

(٢) الشيزري: المصدر نفسه ص ١٠-١٢. أنور الرفاعي: المرجع نفسه ص ١٢٨.

- التجارة الداخلية: ازدهرت التجارة الداخلية في دمشق الأيوبية نتيجة أسباب عديدة منها: استتباب الأمن داخل البلاد، وتوفير المنتجات المحلية، وتنوعها، وحماية التجار، واستخدام النقد الموحد، وتوج ذلك تشجيع الأيوبيين للتجارة، بإسقاط الضرائب، والمكوس عن كثير من السلع والمنتجات المحلية^(١). كذلك انتشار الأسواق الواسعة في مختلف المناطق.

. التجارة الخارجية: كانت هذه التجارة تتم بين دمشق الأيوبية، والممالك الأيوبية الأخرى في كل من بلاد الشام ومصر والبلاد العربية والإسلامية، والبلاد الأوروبية، وبلاد الشرق الأقصى، والبلدان المجاورة كبيزنطة، وأرمينية وقبرص، وبلغ النشاط التجاري شأناً كبيراً يكاد يصعب تصديقه على الرغم من الحروب الصليبية المستمرة، والمخاطر البحرية، والأسفار في البحار شاقة، يضاف إلى ذلك ضعف النقل البري والبحري وبساطة وسائلهما. وكانت صادرات دمشق إلى هذه البلدان (الزيوت - العطور - الأقمشة - الصناعات الحديدية، وخاصة السيوف والنحاس الخام والمصنع، والقذور الدمشقية - بعض المنتجات الزراعية، والزجاج والصابون)^(٢). كذلك كان من صادرات بلاد الشام فراء النمر والخيول العربية.

الواردات: استوردت بلاد الشام من مصر المنسوجات المصرية الفاخرة المصنوعة في تينس والإسكندرية، وكذلك المصنوعات الجلدية والكتانية^(٣).

(١) البنداري: سنا البرق الشامي - بيروت ١٩٧١ ج ٥ ص ١١٦ تحقيق رمضان ششن.

(٢) ناصر خسرو: المصدر السابق ص ١٥ - ١٠٤، البديري: المصدر السابق ص ٣٦٤، المقدسي: المصدر السابق ص ١٨٠ - ١٨١ - أبو الفداء: تقويم البلدان ص ٢٧٩، الجاحظ: التبصر بالتجارة ص ٧٦ - ٧٧.

(٣) ابن حوقل: المسالك ص ١٠٥، المقدسي المصدر السابق ص ١٠٣ - المقرئ: الخطط ج ١ ص ٣٦٧ - حسن إبراهيم حسن: تاريخ الإسلام ج ٤ ص ٣٩٨.

أما من العراق فقد تم استيراد بعض التحف الفاخرة والتمور^(١)، واستوردت من عمان أنواع العنبر واللبان والبخور^(٢).

وكان يصل إلى بلاد الشام من الأسواق الأوربية، النيلة والحديد، والنحاس، والزيت والفراء، والأجواخ، والمصنوعات الحديدية والفضية والبلورية^(٣).

كذلك جلب التجار الإيطاليون أنواعاً من الأقمشة والمنسوجات من الغرب الأوربي، مثل المنسوجات الكتانية والصوفية، وبخاصة الجوخ البندقي الذائع الصيت^(٤) وكان يصل إلى الأسواق في دمشق وسائر ممالك بلاد الشام من أسواق الهند والصين والبلاد الشرقية التوابل، وبخاصة الفلفل والبخور والياقوت، والصندل، والعود، وخشب الأبنوس، وجوز الهند، والكافور، والقرنفل، والعاج، وأنواع العقاقير، والبهار، والحرير الخام، والخزف الصيني، والورق، والحبر، والسروج، والذهب، واللبان، والفضة، والسجاد^(٥).

أما ما استوردته دمشق الأيوبية، وممالك بلاد الشام الأخرى من بيزنطة وأرمينية، وقبرص، فهو عبارة عن الذهب، والفضة، والأحجار الكريمة، والمجوهرات، واللآلئ، والحرير الطبيعي، الديباج الرومي، الكتان الموشى، والسلك، والملح، والزرنيخ، والبغال^(٦).

(١) عبد العزيز الدوري: تاريخ العراق الاقتصادي ص ١٣٣.

(٢) الدمشقي: الإشارة إلى محاسن التجارة - القاهرة ١٣١٨ - ص ١٩ - ٢٢.

(٣) حسن عثمان: البحر الأحمر كطريق تجاري ص ٧١ - زيتون: المرجع السابق ص ٢٣٤.

(٤) القلقشندي: صبح الأعشى ج ٥ ص ٤٠٥.

(٥) ابن خرداذبة: المسالك والممالك ص ١٥٣ - المقدسي: أحسن التقاسيم ص ٣٤ - شيخ الرية: نخبة الدهر ص ١٥٣ - حتي: تاريخ سورية ولبنان ج ١ ص ٣٣٠ ج ٢ ص ٢٧٨، فيصل السامر: المرجع السابق ص ٢٠ - هايد: المرجع السابق ج ١ ص ١٨٢.

(٦) ابن الأثير: الكامل ج ٩ ص ٤٩٣ - ابن حوقل: المصدر السابق ص ١٧٤ - ١٨٤ - ٢٨٥ - ٢٨٦.

- النقود الأيوبية: إن النشاط التجاري الذي عمّ المنطقة في هذا العصر، والذي تمثل في الحركة التجارية بين بلاد الشام ومصر وبخاصة، والبلاد الإسلامية المجاورة لبلاد الشام عامة، والجمهوريات الإيطالية التي تربعت على عرش ذلك النشاط التجاري الأوربي مع دول البحر المتوسط، أدى كل ذلك إلى شد نشاط التجارة بشكل واسع، وهذا دعا بالضرورة الحاجة إلى النقد، ولذلك لجأت الدولة الأيوبية إلى إصدار نقد خاص بها.

كما كان لكل إمارة صليبية عملتها الفضية الخاصة، للتعامل بها داخلياً، لكنها اضطرت إلى اتخاذ نوع من العملات الذهبية للتعامل الخارجي تعرف بـ «البيزانت»، وكان تقليداً للدنانير الإسلامية^(١).

هذا وقد شغل الصليبيون دوراً هاماً وحساساً إزاء الوضع الاقتصادي في دمشق الأيوبية، حيث حاولوا زعزعة الاقتصاد، وذلك عن طريق صكهم لنقود مفسوشة، مما أدى إلى غلاء عظيم في دمشق حيث يذكر أن الناس ابتلوا بغلاء شديد في سائر الأشياء، من المأكول والملبوس وغيرهما، فبلغ الرطل من الخبز إلى درهمين، والرطل من اللحم إلى خمسة عشر درهماً، والأوقية من القنبريس إلى درهم، والأوقية من الجبن إلى درهم ونصف، والأوقية من الثوم إلى درهم، والرطل من العنب إلى درهمين، وكان السبب في ارتفاع هذه الأسعار هو قيام الفرنج بضرب الدراهم المعروفة باليانية، وكانت كثيرة الغش.

قال أبو شامة: «بلغني أنه كان في المائة منها خمسة عشر درهماً فضة، والباقي نحاس، وكثرت في البلد كثرة عظيمة، وتحدث في إبطالها مراراً، فأصبح كل من يملك منها شيئاً حريصاً على إخراجه خوفاً من إبطالها، فتزايدت الأسعار، فصارت تباع كل أربعة منها بدرهم ناصري مفسوش أيضاً،

(١) المقدسي: المصدر السابق ص ١٤٨. آدم متز: المرجع السابق ج ٢ ص ٤٣٦.

وكان ذلك في سنة (٦٥٨ هـ / ١٢٦٠م)^(١). كما استعمل الدينار السوري، وهو دينار إسلامي، استخدم للتداول بين المسلمين الصليبيين^(٢).

- أنواع الدنانير: ومن أنواع الدنانير التي استعملت في العصر الأيوبي بشكل عام الدينار المصري، ضرب بمصر زمن صلاح الدين الأيوبي، وهو من الذهب، وكان يحمل اسمه، واسم الخليفة العباسي^(٣).

- الدينار السوري؛ وكان ضربه بمدينة صور بالشام، ولذلك نسب إليها لاشتهار هذه المدينة بتقليد الدنانير الإسلامية، على الرغم من أن هذه الدنانير ضربت في مدن كثيرة غير صور مثل عكا، وطرابلس وغيرها^(٤) وقد استعمل الصليبيون هذا الدينار لمدة طويلة، وكان أقل قيمة من الدينار المصري^(٥). وهناك أيضاً الدينار الجيشي، وكان يستعمله أهل ديوان الجيش في تحديد دخل الاقطاعات^(٦) وهناك أيضاً الدينار الافرنطي ويساوي ١٧ درهماً/ وهو من دنانير تجار بلاد الإفرنج والروم^(٧).

(١) عقد الجمان: حوادث سنة ٦٤٨ - ٦٦٤ هـ ص ٢٧٢.

(٢) عبد العزيز سالم: طرابلس الشام في التاريخ الإسلامي ص ٢٠٥ - ٢٠٦.

(٣) ابن بعرة: الأسرار العلمية بدار الضرب المصرية تحقيق الدكتور عبد الرحمن فهمي القاهرة ١٩٦٦ ص ١٢٦.

المناعي: محمد عبد الرؤوف تاج العارفين بن علي المناوي: التقود والمكايل والموازن - تحقيق الدكتور رجاء محمود السامراني - العراق ١٩٨١ ص ١٠١.

(٤) رأفت البزاوي: المسكوكات الصليبية في مصر والشام - جامعة القاهرة كلية الآثار عام ١٩٧٠ ص ١١١.٥٦.

(٥) الشيزري: المصدر السابق ص ٤٧. القلقشندي: صبح الأعشى ج ٣ ص ٢٤١ - ابن شداد سيرة صلاح الدين ص ٨٢.

(٦) القلقشندي: صبح الأعشى ج ٣ ص ٤٤٣.

(٧) الكرملني: المرجع السابق ص ١١٢ - القلقشندي: صبح الأعشى ج ٣ ص ٤٣٧.

كذلك استخدمت الدراهم كوسيلة من وسائل التعامل التجاري إلى جانب الدينار، ومن أشهر الدراهم التي استخدمت في زمن الأيوبيين الدرهم النقرة^(١). - الدراهم السوداء - وهذه الدراهم من الفضة والنحاس^(٢).

كذلك استخدمت الفلوس في العمليات التجارية البسيطة، وبخاصة في المبيعات الصغيرة التي تبلغ قيمتها درهماً أو جزءاً من الدرهم. إلا أن كمياتها كانت ضئيلة وليس لها منزلة النقد الثمين^(٣).

هذا ولا بد من الإشارة إلى أن الدينار والدراهم كانت تباع وتشتري، إما من دار الصرف، أو لدى الصيارفة، حيث وجد في كل مدينة من مدن بلاد الشام سوق للصرافين. أو خان للصرافين على الأقل، نذكر منها على سبيل الاستدلال سوق الصرافين الذي ذكره لنا أحد المؤرخين المعاصرين من أبناء مدينة القدس، وهو مجير الدين الحنبلي، وهذا السوق تم تخصيصه للصيارفة^(٤). ومما تجدر الإشارة إليه أن النقود الأيوبية كانت منتشرة ومتداولة في جميع بلاد الشام، ومعترف بها في جميع إمارات الصليبيين بالشام وقت ذلك.

بالإضافة إلى أن النقود الصليبية المقلدة للنقود الفاطمية كانت معترفاً بها في الشرق ومما تقدم يتبين لنا أن النقود كانت واحدة في كل من بلاد الشام، ومصر، وهذا ساعد على تقدم الأعمال التجارية، وسهل الإجراءات والمعاملات، في عمليات البيع والشراء.

(١) الكرملي: المرجع السابق ص ١١٢.

(٢) المقرئزي: السلوك ج ١ ق ١ ص ٦، عطية القوصي: المرجع السابق ص ٢٣٠.

(٣) المقرئزي: إغاثة الأمة، المقدمة ص (ن)، ابن بكرة: المرجع السابق ص ١٦.

- النبراوي: السكة الإسلامية في مصر ص ١٥٧ - السيوطي: حسن المحاضرة ج ٢ ص ٣٠٧.

(٤) ناصر خسرو: سفرنامه ص ١٢٨.

الأوزان والمكاييل والمقاييس:

لم يكن هناك نظام موحد للأوزان في بلاد الشام، فكل مدينة اختصت برطل ينسب إليها، وظلت بلاد الشام تعتمد في عمليات البيع والشراء الموازين البيزنطية والرطل والأوقية^(١).

ومما تناولته المصادر أن الرطل الدمشقي يعادل (٦٠٠) درهم هو اثنتا عشرة أوقية وأن أوقيته تعادل (٥٠) درهماً^(٢).

ومن الأوزان التي كانت شائعة في العصر الأيوبي هو القنطار الشامي ويعادل (١٠٠) رطل^(٣)، والمثقال: هو أقدم وحدة عند العرب، وقد جعل المثقال ستين حبة، ووزن كل واحدة منها مائة من حبوب الخردل البري المعتدل^(٤).

ومن الأوزان المستعملة في الشام أيضاً القيراط، الذي يدخل في أوزان الذهب والفضة وهو نصف الدانق، وهو خمس وثمانون حبة، ويختلف باختلاف البلاد، ومن الأوزان أيضاً المن ويساوي $\frac{1}{7}$ ٢٥٧ درهم^(٥).

كما استخدم الفدان كوحدة لقياس المساحة في العصر الأيوبي، وبلغت مساحة الفدان الجيشي (الإقطاعي) زمن الأيوبيين (٥٩٢٩) متراً مربعاً^(٦). وكذلك الجريب وهو من الواحدات الأساسية في المساحات في بلاد الشام

(١) إبراهيم العددي: الإمبراطورية البيزنطية والدولة العربية ط٢ القاهرة ١٩٥٨ ص ١٢٣.

الفيروز آبادي: القاموس المحيط. فصل الرءاء، باب اللام ج٣ ص ٣٨٥ - المناوي: المصدر السابق ص ٣٥.
(٢) المقرئزي: النقود الإسلامية ص ٩٣، إغالة الأمة ص ٤٧، القلقشندي: صبح الأعشى ج ٤ ص ١٨١ - طرخان: المرجع السابق ص ٥١٨.

(٣) ابن شداد: السيرة اليوسفية ص ١٤٢، ابن الفرات: المصدر السابق ج ٤٢ ق ١ ص ٢٢٣.

(٤) الشيزري: المصدر السابق ص ١٥، المقرئزي: شذور العقود ص ٩٠ - ٩١ - ١١٣.

(٥) الشيزري: المصدر السابق ص ١٦ - ١٧ - الكرملي: المرجع السابق ص ٢٨ حاشية ١ - المناوي: المصدر السابق ص ١٨.

(٦) ابن ممتي: قوانين الدواوين ص ٣٣٨.

وغيرها، وقيست به القطائع التي كان الأمراء يمنحونها لأتباعهم ويساوي ١٠ قصبات مربعة^(١). حيث أن القصبه تساوي (٨) أذرع بذراع اليد^(٢).

- العمائر التجارية: (الفنادق - القياسر - الخانات - الوكالات المتاجر):

أ - الفنادق:

وهي عبارة عن بناء ضخم مربع الشكل يشبه الحصن، تحيط به الحدائق المغروسة بالأشجار، ويتألف عادة من طوابق، ففي الدور الأرضي، المخازن والحوانيت التي تطل على فناء داخلي فسيح، يساعد على الحركة في تعبئة البضائع وتفريغها، ويلحق به اصطبلات الدواب^(٣).

وخصصت الأدوار العليا للنوم والراحة، وكان المبنى يوصد بباب حديدي، ويقفل بأقفال خاصة، قيل: إنها أقفال رومية^(٤).

وقد ذكر ابن عساكر^(٥): أنه كان يوجد في داخل دمشق تسعة فنادق وخارجها ثلاثة، وهذه الفنادق هي: فندق سوق البزوريين، ثم فندق ابن دحية في سوق القمح، وفندق أبي موسى، وفندق البيع، وفنادق الخشب في سوق النبل، وفندق آخر قرب دار الحرير في منتصف الشارع الكبير، ثم فندق أبي طاهر بن عفيف الفارقي، وفندق ابن العنازة بالقرب من الباب الصغير، وفندق بني عبد المطلب عند سوق الدواب.

وكانت هذه الفنادق مكتملة المرافق المعيشية، ويجتمع التاجر بمن يهمله الاجتماع به من إخوانه التجار، ويجد فيها ما يتوق إليه من طعام وماء للاستحمام، ومكان لإيداع أمواله وغيرها^(٦).

(١) المقرئزي: النقود الإسلامية ص ١٠٠. إغاثة الأمة بكشف الغمة ص ٥١.

(٢) القلقشندي: صبح الأعشى ج ٣ ص ٤٢.

(٣) سامي سعد: أسس العلاقات الاقتصادية بين الشرق الأدنى والجمهوريات الإيطالية القاهرة ١٩٥٨ ص ١١٢.

(٤) آدم متر: المرجع السابق ج ٢ ص ٣٨١. أمينه بيطار: تاريخ العصر الأيوبي ص ٢٣٦. ٢٣٧.

(٥) بدران: تهذيب تاريخ مدينة دمشق ج ١ ص ٢١٨. ٢١٩. ٢٢٥. ٢٣٠.

(٦) عادل زيتون: المرجع السابق ص ٢٤٤.

وكان التاجر يدفع لقاء إقامته في الفندق درهم ونصف الدرهم عن كل ليلة يبيتها في الفندق، وفي نهاية السادس الهجري - الثاني عشر الميلادي، كان أجر عامل الفندق درهمين في اليوم^(١).

وكانت إدارة الجمارك بالموانئ « الديوان » هي الهيئة التي تشرف على هذه الفنادق، وتكلف بالسهر على سلامتها، ودفع إيجارها وإصلاحها^(٢).

ويظهر أن الفنادق خصصت لنزول التجار، وبخاصة التاجر الركاض^(٣)، وهو الذي ينتقل من بلد إلى آخر، وينقل البضائع من موقع لآخر. وحرصاً من السلاطين الأيوبيين على راحة هؤلاء النزلاء أن يتعرضوا لأية اعتداءات من قبل المسلمين، بسبب تباين العادات والتقاليد بين الشرق والغرب الأوربي، فقد طالبوا هؤلاء النزلاء بضرورة احترام عادات وتقاليد البلاد، وإغلاق الفنادق عن الخارج ليلاً خوفاً من حوادث السطو، ومنعهم من التجول في الشوارع في أوقات صلاة الجمع والأعياد، وأمروهم بإغلاق أبواب الفنادق لمدة ساعة أو ساعتين^(٤).

ب - القياسر:

ظهرت القياسر في بلاد الشام قبل مصر، وهي أبنية تقوم بمهمة الأسواق وهي سابقة في ظهورها للفنادق^(٥). وورد ذكرها في العصر الأموي^(٦).

وقد وصف ابن جبير القيسرية فقال: « كأنها الخان العظيم تغلق عليها أبواب حديد وتطيف بها دكاكين وبيوت بعضها فوق بعض، وكان في بعض القياسر مساجد لتجار المسلمين، وهذا يؤكد أن القياسر كانت مخصصة

(١) عطية القوصي: المرجع السابق ص ١٨٩.

(٢) عطية القوصي: المرجع نفسه ص ١٨٨ - ١٨٩.

(٣) الدمشقي: الإشارة إلى محاسن التجارة ص ٥١ - ٥٢، الدوري: تاريخ العراق الاقتصادي ص ١١٩. عاشور: المجتمع الدمشقي في عهد ابن عساكر ص ٢٣٠ - ٢٣١.

(٤) هايد: المرجع السابق ج ٢ ص ٤١١.

(٥) المقرئزي: الخطوط ج ٢ ص ١٤٤ ت دائرة المعارف الإسلامية ج ١١ ص ٧٠٠.

إبراهيم طرخان: المرجع السابق ص ٣٦٨ - أمينة بيطار: العصر الأموي ص ٢٣٨.

(٦) عبد القادر ربحاوي: المرجع السابق ص ٥٦ - ٥٧.

للتجار المسلمين، ويعلوها رباح ذات مساكن خصصت للصناع، والتجار مقابل أجر معين^(١). وكانت تعرف باسم منشئها أو باسم ما يباع فيها: كقيسارية العصفر، وقيسارية العنبر، وقيسارية الحرير، وقيسارية الفرش، وقيسارية القواسين، وقيسارية الفخرية، وقيسارية سوق القناديل^(٢). فالقيسارية إذاً: كانت تتكون من مجموعة من المباني العامة، فيها حوانيت ومصانع ومخازن وأحياناً مساكن، وفيها أروقة، أنشأها التجار وكبار الدولة^(٣).

ج - الخانات:

وهي عبارة عن مبنى ضخم يحتوي على مجموعة من الحوانيت الكبيرة والصغيرة، ومستودعات للبضائع، ويتوسط الخان فناء كبير على هيئة رواق، حيث يحفظ التجار بضائعهم، وفي الخان يجد التجار المأوى لهم ولدوابهم خلال رحلاتهم، والخانات من المنشآت العامة التي واكبت حركة التجارة في العصر الأيوبي في بلاد الشام ومصر^(٤).

وقد ازدادت حركة إنشاء الخانات على طول الطرق التجارية بين بلاد الشام ومصر. وكانت هذه الخانات بالطرق التي لا أمن فيها، متينة الأسوار، والأبواب محفوظة من النهب زمن الحرب والسلم، مع انتشار العساكر، حتى كأنها حصون يتحصن بداخلها، ولولا ذلك لما أمن الناس على تجارتهم^(٥). ولم يكن بناء الخانات وقفاً على السلاطين والأمراء، وإنما تولى بناءها بعض التجار والأثرياء، وكانوا يوقفون عليها الأوقاف الكثيرة للإنفاق عليها،

(١) ابن جبير: المصدر السابق ص ١٤٧.

(٢) خالد معاذ: دمشق في أيام ابن عساكر ص ١٤١ - ١٤٢. عطية القوسي: المرجع السابق ص ١٨٢.

(٣) أمينة بيطار: العصر الأيوبي ص ٢٣٨.

(٤) صفوح الخير: مدينة دمشق ص ١٩٢.

(٥) الأمير علي الحسيني: المرجع السالف ص ١١٤ - ١١٥.

كما أن بعضها كان يوزع الخبز والطعام مجاناً، ووجد في بعضها من يتولى إصلاح نعال المشاة والنزلاء^(١).

كما كان يتوفر فيها الماء الجاري الذي يتسرب إلى سقاية في وسط الخان، كأنه صهريج ولها منافذ ينسكب الماء منها في سقاية صغيرة مستديرة حول الصهريج^(٢).

وقام صلاح الدين بتشيط حركة التجارة في بلاد الشام، فعمل على بناء الخانات الكبيرة لنزول ركاب القوافل التجارية، ومن هذه الخانات، خان السلطان، بناه صلاح الدين، وهو في غاية الوثاقه والحسن بباب الحديد، ويقع بين النبك والقطيفة، ويسمى اليوم « بخان العروس »^(٣). وهناك خان قارة، وهو خان كبير، كأنه الحصن المشيد، في وسطه صهريج كبير مملوء بماء، يتسرب إليه من عين على البعد^(٤). وهناك خانات حماة، وخانات اللاذقية، وخان الصرف في بيت المقدس^(٥).

لقد كان الهدف من بناء الخانات هو تسهيل التجارة الداخلية بين الإمارات الأيوبية من ناحية، وبالتالي خدمة التجارة الخارجية من ناحية أخرى. وكان لها أيضاً مهمة بريدية إلى جانب مهمتها التجارية، وكانت تتم فيها العمليات والصفقات التجارية، ولذا فإنها عامل من عوامل تشيط التجارة في ذلك العصر^(٦).

(١) اليونيني: المصدر السالف ج ١ ص ٥٥٤.

(٢) ابن جبير: المصدر السالف ص ١٨٢.

(٣) ابن جبير: المصدر نفسه ص ٨٣.

(٤) ابن جبير: المصدر نفسه ص ١٨٢ - ١٨٣.

(٥) الحنبلي: (مجير الدين): الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل القاهرة ١٢٨٣ هـ ج ١ ص ٤٠٣.

(٦) سعيد عاشور: بعض أضواء جديدة على مدينة القدس في عصر سلاطين المماليك (مقال) جامعة

الكويت ص ١٠٨.

د . الوكالات:

وهي منشآت تجارية تشبه الفنادق بنظامها ووظائفها، ولكنها اختلفت عنها
بأميرين اثنين:

أولهما: أنها كانت مقتصرة على نزول التجار القادمين من بلاد الشرق
الإسلامي^(١)، بينما كانت الفنادق مخصصة للتجار الأجانب الإيطاليين خاصة
والأوروبيون عامة، والأمر الثاني: كانت ملكيتها تنقل من أصحابها لأبنائهم بعد
وفياتهم، وكانت تدعى في بلاد الشام بدار الطعم^(٢).

وقد وصفها المقرئزي فقال عنها: « إن الوكالة كانت تملؤها رباغ تشتمل
على بيوت كثيرة، وأعداد كبيرة من الناس »^(٣).

وقد اهتمت الحكومة ببناء الوكالات العامة والخاصة، واشترطت على بانيتها
إن كان من الأفراد أن يكون من كبار التجار، ومحل ثقة الحكام، كما
كانت تسمى بأسماء مؤسسيها، وكان المشرف عليها يسمى شيخ التجار، أو
وكيل، ويختار من قبل التجار بإجماع عام. وقد أسهمت شخصيته بدوراً هاماً في
تجارة الشرق، فهو يشرف على التجارة في داخل البلاد وخارجها، وكان له نفوذ
كبير على التجار، ويقوم بأعمال المصرفية، وتغيير العملة، فكان التجار
يودعون لديه أموالهم وودائعهم، وكانت لديه قائمة بأسعار التجارات، ويقوم
أيضاً بدور القاضي بفصل المنازعات بين التجار، هذا ويفرض عليه أن يكون
متفقهاً بالدين عالماً بالمسائل الشرعية والقضائية^(٤).

وكان تاجر الشرق في حاجة دائمة لوكيل التجار بسبب كثرة تغيبه عن
البلاد، حيث ينوب عنه في تصريف أموره، وتسهيل إجراءات نقل بضائعه

(١) محمد جمال الدين سرور: المرجع نفسه ص ١٥٦ - عطية القوصي: المرجع نفسه ص ١٩٢.

(٢) القلقشندي: صبح الأعشى ج ٤ ص ١٨٧.

(٣) المقرئزي: الخطط ج ٢ ص ٩٢.

(٤) عطية القوصي: المرجع نفسه ص ١٩٣.

وتخزينها لحين عودته ، وكانت الوكالات تقوم بعمل مكتب البريد ، وتستقبل رسائل التجار ، وترسلها إلى أصحابها ، كما كانت فيها الأعمال المصرفية^(١) . فهي تشبه إذاً بدورها الدور الذي يقوم به الفندق.

هـ - المتاجر:

وهي منشآت تجارية مخصصة للحكومة ، حيث أن الحكومات كانت تشتري بعض السلع ، ثم تبيعها ، وتجنّي الأرباح الطائلة من فروق ثمن الشراء و ثمن البيع^(٢) .

وقد ظهرت هذه الأبنية زمن الفاطميين ، واستمر وجودها طيلة عصر الأيوبيين حيث أطلق على البناء الواحد منها اسم « المتجر السلطاني » حيث كان يتم شراء مختلف البضائع اللازمة للدولة الأيوبية ، والجيش الأيوبي من أخشاب وأدوات حديدية ، وأجواخ وأقمشة صوفية ، مما يجلبه التجار الأجانب معهم ، وتخزينها في هذه المتاجر^(٣) . وفي بعض الأحيان كانت الحكومة تبيع بعض السلع إلى التجار بأسعار مرتفعة فتحصل على الربح.

الواردات والنفقات:

لم يكن غريباً ألا يوجد في خزانة صلاح الدين بعد وفاته سوى ٤٦ / درهماً فضة وديناراً ذهبياً واحداً^(٤) .

لقد كانت واردات دولته ضخمة ، كما كانت نفقاته الحربية ضخمة أيضاً ، وكلما كانت البلاد التي تقع في يده تزداد ، كلما كانت وارداته منها ونفقاته من أجلها تزداد بصورة مطردة ، وكانت قاعدته التي سار عليها هي:

(١) عطية القوسي: المرجع نفسه ص ١٩٢ .

(٢) ابن مماتي: قوانين الدواوين ص ٢٢٧ .

(٣) حسنين محمد ربيع: النظم المالية ص ٥١ .

(٤) ابن الأثير: الكامل ج ١٢ - ص ٩٦ .

إلغاء المكوس والضرائب غير الشرعية في جميع البلاد التي فتحها، والاكتفاء بالموارد الشرعية من زكاة وجزية، وخراج ومكس الخمس والتجارة^(١).

هذا وقد ألقى صلاح الدين الضرائب، والمكوس غير الشرعية التي كانت مفروضة على أهالي دمشق حين استولى عليها^(٢).

والذي سامح به من المكوس لعدة سنين آخرها سنة (٥٦٤ هـ/١١٧٨م) مبلغه عن نيف ألف ألف دينار وألفي إردب، وسامح بذلك وأبطله من الدواوين، وأسقطه من المعاملين، لقد حرص صلاح الدين كل الحرص على إزالة الظلم، ورد الحقوق إلى أصحابها، حيث يحكى أن رجلاً من أهالي دمشق ادعى على تقي الدين عمر بن محمدا بن أخي السلطان، فأحضر صلاح الدين ابن أخيه هذا، وأخذ ما طلبه الدمشقي.

ومع كثرة احتياج الدولة للمال زمن صلاح الدين، كانت الجباية إلى الرفق في الجملة، فأسقط صلاح الدين فريضة الأتبان المقسطة على أعمال دمشق، وضياع الفوطة، والمرج، وجبل سنبر، وقصر حجاج، والشاغور، والعقبة، ومزارعها^(٣).

وكذلك فعل أخوه أبو بكر بن أيوب، فإنه أبطل كثيراً من المظالم والمكوس، وطهر بلاده من الفواحش والخمور والقمار، وكان الحاصل من ذلك بدمشق خصوصاً مائة ألف دينار، ويذكر عن العادل أنه دخلت بعض المغاني عليه في عرس، فقال لها: أين كنت؟ فقالت: تأخرت أن أجيء حتى وفيت ما علي من الضمان فقامت قيامته، وتوعد على ذلك أشد توعيد^(٤).

(١) مرآة الزمان: ج ٨ ص ٥٩٥. محمد كرد علي: خطط الشام ج ٥ ص ٦٣. شاكِر مصطفى: صلاح الدين الفارس المجاهد ص ٣٨٧.

(٢) شاكِر مصطفى: المرجع السابق ص ٣٨٧. صلاح الدين الأيوبي بطل حطين ص ١١١.

(٣) مرآة الزمان: ج ٨ ص ٥٩٥. صلاح الدين الأيوبي بين شعراء عصره وكتابه ص ٧٣ محمد كرد علي: خطط الشام ج ٥ ص ٦٢.

(٤) مرآة الزمان: ج ٨ ص ٥٩٥. صلاح الدين بين شعراء عصره وكتابه ص ٧٣. محمد كرد علي: خطط الشام ج ٥ ص ٦٣.

وتظهر سياسة صلاح الدين المالية بشكل واضح من خلال المنشور الذي نشره عند إسقاط مكوس الرقة «إن أشقى الأمراء من سمن كيسه وأهزل الخلق، وأبعدهم عن الحق من أخذ الباطل من الناس وسماه الحق، ومن ترك لله شيئاً عوضه، ومن أقرض الله قرضاً حسناً وفاه، وكما انتهى أمرنا إلى فتح الرقة، أشرفنا على سمن يأكل، وظلم مما أمر الله به أن يقطع، فأوجبنا على أنفسنا وعلى كافة الولاة من قبلنا أن يضعوا هذه الرسوم بأسرها، وقد أمرنا أن تسد هذه الأبواب وتبطل، ويعفى خبر هذه الضرائب من الدواوين، ويسامح بها جميع الأغنياء والمساكين مسامحة مستمرة الأيام...». وهكذا كان إسقاط الضرائب التي كان يحصلها الصليبيون من الصلت، والبلقاء، وجبل عون، والسواد، والجولان، وكان الفرنج يأخذون نصف حاصلها، وقد أعاد صلاح الدين فريضة الزكاة التي كان الفاطميون قد ألغوها وجعلها البديل عن المكوس والرسوم غير الشرعية، واهتم بجمعها، وأقام لها ديواناً تسلمه «متولي الزكاة» وكانت حصيلتها زهيدة ففي عام (٥٨٦ - ٥٨٧ هـ / ١١٩٠ - ١١٩١ م) كانت فقط /١١٨٦١/ ديناراً، وكان صلاح الدين في ضائقة مالية شديدة لسداد نفقاته الباهظة في حصار عكا، وتعهد له رجل يدعى ابن حمدان بجمع /٥٢/ ألف دينار في سنة واحدة فنجمت عن ذلك مظالم^(١).

ومما تقدم نستنتج أن الامكانيات الاقتصادية التي تمتعت بها دمشق الأيوبية أدت إلى زيادة مواردها المالية التي اعتمدت على المكوس والضرائب المفروضة على الزراعة والتجارة والصناعة وخاصة خلال حالة الاستقرار وتوفير الأمن^(٢). وعلى الرغم من أن الضرائب كانت تشكل المورد الأساسي للخزانة في دمشق زمن الأيوبيين، لكن المصادر لم تتطرق بالتفصيل إلى مقدار هذه

(١) ابن شداد: ص ١٤٨ - ١٥٣.

شاطر مصطفى: المرجع السابق ص ٣٨٨.

(٢) زكار: المدخل إلى تاريخ الحروب الصليبية ص ٢١٣.

الضرائب، إلا أنه يمكن قياسها بما كان مفروضاً قبل الأيوبيين وبعدهم، ومن خلال ما ورد في المصادر، فإنه يمكن الإشارة إلى بعض هذه الإيرادات:

- الموارد المالية:

أ - الزكاة: وقد اقتصر على زكاة المواشي والزرع^(١)، وكذلك كانت تؤخذ على الذهب والفضة، وعروض التجارة، مع إعفاء المواد الغذائية كالسمسم، وبذور الكتان، والخضار، والزيتون^(٢).

ب - الخراج: وهو ما يوضع من الضرائب على الأرض ومحصولاتها، وهو من أقدم أنواع الضرائب^(٣).

وكانت ضريبة الخراج تؤخذ على مساحة الأرض بالفدان، وضريبة القمح والشعير أردبين ونصف للفدان الواحد، ويجمع المنتفعون الضريبة، ثم يسددونها لديوان السلطان، وكان على الفول والحمص مثل ذلك، وثم ضرائب نقدية على بعض الحاصلات مثل الكروم وثمار الشجر، وتتراوح بين دينار وخمسة على الفدان، وفي السنة الثانية لاتزيد على ثلاثة دنانير^(٤).

ج - الجزية: ضريبة شخصية فرضت على رعايا الدولة غير المسلمين، وهي تسقط باعتراف الإسلام^(٥) وكان يعفى منها الصبية والنساء والرهبان، وتسمى ضريبة الجوالي (ج - جالية) وكانت تختلف حسب أحوال الشخص من دينار واحد إلى أربعة دنانير ونصف، إضافة إلى درهمين ونصف الدرهم على الجميع كل سنة^(٦).

(١) الماوردي: الأحكام السلطانية ص ١٠٩.

(٢) شاكر مصطفى: صلاح الدين الفارس المجاهد ص ٢٨٩.

(٣) جرجي زيدان: التمدن الإسلامي ج ١ ص ٢٢١.

(٤) شاكر مصطفى: المرجع السابق ص ٢٩٠.

(٥) أبو يوسف يعقوب بن إبراهيم: الخراج ط ٤ ص ٢.

(٦) شاكر مصطفى: المرجع نفسه ص ٢٩٠.

د - ضريبة المعادن: وكانت الدولة تقطع المعادن لمن يستخرجها، وللدولة خمس ما يخرج منها^(١).

ويذكر أن صلاح الدين شدد على احتكار الدولة لها وللخشب، لأنها كانت تدخل في صناعة الأسلحة^(٢).

هـ - ضريبة دار الضرب أو السكة: وتؤخذ لقاء سك الذهب. ومقدارها ٣٣/ ديناراً عن كل ألف دينار ذهبي ورسم الفضة ١٤/، ٥/ درهم عن كل ألف^(٣).

و- ضريبة أعشار التجارة: وتختلف باختلاف جنسية التجار وأديانهم، فالأجانب يؤخذ منهم (١٠٪) وأهل الذمة (٥٪) وعلى تجارات المسلمين (٢، ٥٪) وكان يرد إلى الخزينة منها مبالغ كبيرة بسبب توسع الحركة التجارية وازدهارها^(٤).

ز - المكوس: وهي تقابل الرسوم الجمركية في أيامنا، وتعاضم دخلها مع توسع الحركة التجارية أيضاً في دمشق، وقد وصف ابن جبير طريقة التمكس في رحلته أثناء ذكره مدينة بانياس وهو متجه نحو عكا، وحيث قال: «هذه المدينة ثغر لبلاد المسلمين، وهي صغيرة، ولها قلعة يستدير بها تحت السور نهر، ولها محرث واسع، يشرف عليها حصن للإفرنج يسمى هوتين، بينه وبين بانياس مقدار ثلاثة فراسخ، وعمالة تلك البطحاء بين الإفرنج والمسلمين، لهم في ذلك حد يعرف بحد المقاسمة، فهم يتشاطرون الغلة على استواء، واجتزنا في طريقنا بين هونين وتبنين بواد ملتف الشجر، وانتهينا إلى حصن كبير من حصون الأفرنج يعرف بتبنين، وهو موضع تمكيس القوافل مبتتياً أسفل ذلك الحصن،

(١) الماوردي: المصدر السابق ص ١٠٥ - ١٠٦.

(٢) شاكر مصطفى: المرجع السابق ص ٢٩٠.

(٣) شاكر مصطفى: المرجع نفسه ص ٢٨٩.

(٤) عاشور: مصر الشام في عصر الأيوبيين والمماليك ص ١٥٠ - ١٥١.

ومكس الناس تمكيساً غير مستقصى، والضربية فيه دينار وقيراط من الدنانير الصورية. على الرأس، ولا اعتراض على التجار فيه، لأنهم يقصدون موضع الملك، وهو محل التعشير، والضربية فيه قيراط من الدينار، والدينار أربعة وعشرون قيراطاً، وأكثر المعترضين من هذا المكس المغاربة، ولا اعتراض على غيرهم في جميع بلاد المسلمين».

يقول ابن جبير: «وصلنا إلى الديوان وهو خان معد لنزول القافلة، وأمام بابه مصاطب مفروشة، فيها كتاب الديوان من النصارى بمحابر الأبنوس، المذهبة الحلي، وهم يكتبون بالعربية ويتكلمون بها، ورئيسهم صاحب الديوان، والضامن له يعرف بالصاحب، لقب ومع عليه، فمكانه من الخطة وهم يعرفون به كل محتشم متعين عندهم من غير الجند وكل ما يجبي عندهم راجع إلى الضامن، وضمان هذا الديوان بمال عظيم، فأنزل التجار رحالهم به، ونزلوا في أعلاه وطلب رجل من لا سلعة له لثلا يحتوي على سلعه، فخبؤوه فيه وأطلق سبيله، فنزل حيث شاء، وكان ذلك برفق وتؤده دون تعنيف»^(١).

ج . ضريبة الأسواق والحوانيت والطواحين: ^(٢) وكانت تفرض على البائعين، والذين تزجرهم الدولة بعض المحلات مقابل استخدام الأماكن المخصصة لهم، والتي بناها الناس على أرض حكومية، وتسمى أحياناً ضريبة العرصات والمستغلات^(٣).

ط . ضرائب أخرى: ومنها الغرامات التي تأخذها الشرطة من الجناة، ومرتكبي الجرائم^(٤). وإلى جانب الضرائب، كان هناك نوع آخر من الموارد المالية، كثيراً ما لجأ إليه الحكام للحصول على الأموال في سبيل صرفها على

(١) ابن جبير: الرحلة ص ٢٧٣ - ٢٧٤ - ٢٧٥ - ٢٧٦.

(٢) اليعقوبي: البلدان ص ٢٤٣

(٣) ابن حوقل: المصدر السابق ص ٢١٧ - تاريخ الفلاحين ج ٢ ص ٢٩٣.

(٤) التوخي: جامع التواريخ ج ١ ص ٧٥

الجند، وهي المصادرات التي كانت تتم في أغلب الأحيان عندما تكون البلاد بحاجة إليها، وخاصة أوقات الحرب.

ي - ضريبة الوارد: وهي الضريبة التي كانت تؤخذ على البضائع التي تباع فعلاً، وكان يتولى تحصيلها الديوان، أما التي لم تجد لها سوقاً في البلاد، فلا يدفع عنها أربابها ضريبة، ويسمح لهم بإعادة تصديرها دون دفع رسوم على ألا تكون السلعة حديداً أو خشباً، يتحتم عندها بيعها للحكومة بسعر السوق^(١).

ك - الإقطاع المدني والعسكري: الإقطاع بنوعيه من مرتكزات خزينة الدولة زمن الأيوبيين، وقد أفرد الماوردي في كتابه الأحكام السلطانية فصلاً خاصاً للإقطاع وأصنافه من حيث ما يصيبها من الحقوق، فجعلها في صنفين، وعرف الإقطاع المدني بقوله: «أن تكون لصاحبه ملكية تامة، وقد تكون وراثية أيضاً، وعلى صاحبه دفع العشر ويعطى من الأرض الموات لإحيائها، أو من أرض توفى صاحبها دون وارث»^(٢).

أما الإقطاع العسكري: فهو مصدر دخل سنوي للأمير أو الجندي بما يعادل رتبته العسكرية وحسن بلائه في الحرب^(٣). ولذلك عدت الخدمة العسكرية هي الأساس الأول في الحصول على الإقطاع^(٤). وكان يدخل في نطاقها حفظ الأمن في الداخل والخارج^(٥).

ويحصل على الإقطاع من السلطان وديوان الجيش^(٦).

ومنذ أن استولى صلاح الدين على دمشق سنة ٥٧٠هـ/١١٧٤م ثم زحف على حمص فضمها إليه، وأقطعها لأبن عمه ناصر الدين محمد بن شيركوه،

(١) ابن ممتي: المصدر السابق ص ٣٠٦

(٢) الماوردي: الأحكام السلطانية طبعة أنجربونا ١٨٥٣ ص ٣٣٠ - ٣٤٣.

(٣) السيد البياز المريني: الممالك بيروت ١٩٦٧ ص ١٧١

(٤) إبراهيم طرخان: المرجع السابق ص ١٩٤.

(٥) طرخان: المرجع نفسه ص ١٩٧.

(٦) المريني: المرجع السابق ص ١٧١.

بالإضافة إلى إقطاع الرحبة الذي كان بيده^(١)، وبعد استيلائه على حماة أقطعها لخاله شهاب الدين محمود الحارمي^(٢)، وبقي عليها حتى وفاته، فتسلمها من بعده الأمير ناصر الدين منكورس ابن الأمير خمارتكين، صاحب حصن أبي قبيس ومتولي عسكره^(٣) وفي السنة (٥٧٤هـ/١٧٨م) أقطعت لتقي الدين عمر الذي جند العساكر، وأعد العدة لمواجهة أي خطر صليبي.

وفي سنة (٥٨٢هـ/١١٨٦م) أقطع صلاح الدين دمشق لابنه الأفضل علي^(٤) وكذلك نهج الملك العادل نهج صلاح الدين الذي أقطع لأولاده دون غيرهم، كذلك قام أبناؤه من بعده باتباع منهج أبيهم، فأقطعوا الإقطاعات لماليكهم وخواصهم، ولم تكن الإقطاعات وقفاً على أبناء الأسرة الحاكمة بل قام الأيوبيون بإقطاع الأراضي والضياع للقادة العسكريين الذين أسهموا في توطيد الحكم الأيوبي وأبلو بلاءً حسناً في قتال الصليبيين، حيث أقدم صلاح الدين على تعيين شمس الدين بن المقدم أميراً على دمشق، ثم أقطعه بعمرين وكفر طاب، وحصن رعبان، كما أقطعه بعلبك، والأمير (عز الدين سامة) كوكب وعجلون، والأمير عز الدين إبراهيم بن شمس الدين بن المقدم. بفراس، وكفر طاب وقامية^(٥)، كذلك منح العزيز بن صلاح الدين الإقطاعات الكثيرة لقادة الجند والأمراء الذين تقاتلوا في نصرته^(٦).

ولسنا هنا في صدد ذكر كافة الإقطاعات التي أقطعت زمن الأيوبيين^(٧)، وإنما في سبيل تبيان ما كان للإقطاع من أثر مادي يرفد موارد

(١) أبو شامة: المصدر السابق ج ١ ص ٢٥٠

(٢) ابن خلدون: العبرج ص ٢٩٠.

(٣) سيانو: مملكة حماة الأيوبية ص ٤٧

(٤) المقرئ: السلوك ج ٢ ص ٨٢ - أبو المحاسن: النجوم الزاهرة ج ٦ ص ١١٢.

(٥) إبراهيم طرخان: المرجع السابق ص ٤٠.

(٦) إبراهيم طرخان: المرجع نفسه ص ٤٢.

(٧) انظر المقدمة: بحث الإقطاع

الدولة، ويخفف عن ميزانية الدولة عبء كبير تمثل في تجهيز الجيوش، وإقامة الأمن داخل ربوع ذلك الإقطاع، ويتمثل هذا في إقطاع قبائل زبيد، ومنهم آل الرحال، وآل بدال، والدوس، والحريث، الإقطاعات في الغوطة والمرج مقابل قيامهم بتجهيز الدرك، وحفظ الأمن في مناطق إقامتهم، وهذا بحد ذاته كان يخفف من أعباء الدولة المادية^(١).

وخلاصة القول: أن الإقطاع الأيوبي كان مورد من موارد الدولة، إذا جرت العادة أن يدفع المقطع جزءاً من دخله نقداً^(٢) أو غلة بما يتناسب مع واردات الإقطاع، وكان يطلق على هذا الدخل «عبرة» وهي مقدار ما يغله الإقطاع في السنة^(٣).

وقدر متوسط خراج الفدان من (٣ - ٢) أرداب^(٤) وربما زاد أو نقص بحسب الظروف ويحصل عن كل إردب (٢ - ٣) دراهم.

ويلزم الفلاحون إلى جانب هذا المقر بتأدية ضرائب أخرى للانفاق على الإقطاع أو بعض الوظائف^(٥):

ومن الرسوم: رسم الأوقاف (الأحباس) ورسم الجراري (ما ينفق على إصلاح الجسور) ورسم الأجران^(٦). الحراسة، والكيالة، والمراعي، والأتبان،

(١) العمري: مالک الأبصار ص ١٣٩.

(٢) **(Astor Asocia Land E cohomic History of the Near East In The Mddle Ag.e s (london 1976 pp236 – 237)**

(٣) حسنين محمد ربيع: المرجع السابق ص ٣٢.

(٤) طرخان: المرجع السابق ص ١٩٩. الإردب: مكيال ضخمة في مصر يساوي ٢٤ صاعاً. والإردب اليوم يساوي ١٩٨ لیترشذ ور العقود للمقریزی. مطبعة النجف ١٩٦٧. ص ١٠٨

(٥) النويري: نهاية الأرب في فنون الأدب السطر الثامن ص ٢٥٩ - ٢٦٠ الباز العريني: الأيوبيون ص ١٩٧.

(٦) الأجران: البيادر - المواضع التي يدرس فيها البرونحوه، وتجفف فيه الثمار (محمد خير أبو حرب) المعجم الدوسي ١٩٨٥ ص ١٩٢ (مادة جرن).

والدجاج، ولا يحق للمقطع أن يتصرف بكل إيرادات إقطاعه من خراج إلا إذا نص التوقيع على ذلك صراحة^(١).

نفقات الدولة: لقد كان حصيلة واردات الدولة بأكملها تنفق من نواح عدة حتى أنه في بعض الأحيان كانت الخزينة فيها فارغة من الأموال.

وكانت معظم الواردات تصب في النواحي الحربية^(٢).

ويمكن لنا أن نستدرج نفقات الدولة على الشكل التالي:

١ - رواتب ومخصصات للجند المستأجر، أو نفقات للجند أو الملوك، وتعويض الخيل النافقة.

٢ - نفقات لأبنية التحصين من قلاع وأسوار في مختلف المدن ولبناء الأساطيل^(٣).

٣ - رواتب العاملين في الدولة في الجباية والمال، وفي الكتابة وفي القضاء، وفي خدمة المواضع الدينية، وفي العطايا، وفي الصدقات والخدم والشعراء.

ومنها ما قدمه صلاح الدين عندما وقع الصلح بينه وبين الصالح بن نور الدين في حلب، حيث قدم الجواهر والتحف والمال الكثير إلى ابنة نور الدين عندما سألته أن يعطيها أعزاز^(٤).

ويقول سبط ابن التعاويذي في وصف كرم صلاح الدين، وإغداقه الأموال على الشعراء:

فلا يضجرك ازدهام الوفو
فإنك في زمن ليس في—
د عليك وكثرة ماتبذل
ه جواد سواك ولافضل^(٥)

(١) الباز المريني: الأيوبيون ص ١٥٧.

(٢) انظر فيما سبق الواردات.

(٣) شاكر مصطفى: المرجع السابق ص ٢٩١.

(٤) أبو شامة: الروضتين ج ٢ ص ٢٨٣ (الموسوعة ج ١٨).

(٥) صلاح الدين الأيوبي بين شعراء عصره وأدبائه ص ١١٣.

والجدير بالذكر أنه عندما مرض السلطان مرضه الأخير أكثر من الصدقات، وكتب بذلك إلى الشام والديار المصرية، فلم يبق في سائر ممالكه من الفقراء والمساكين إلا من وصل إليه نصيب، ويذكر العماد الكاتب: «أمرني أن أكتب إلى نائبه بدمشق، صفي الدين بن القابض بأن يتصدق بخمسة آلاف دينار سورية، فقال: ما عندي غير دنانير مصرية.»^(١) وكان صلاح الدين مثقوب اليد لا تكاد تستقر الأموال في خزائنه، حتى ينفقها في سخاء يشبه الإسراف.

وإذا قالوا: أنه أنفق أموال مصر في الشام وأموال الشام في الجزيرة، وأموال الجميع في فتح الساحل، كما قال القاضي الفاضل^(٢).

«فلأنه ما كثر يوماً بالمال» ومما ذكر أن صلاح الدين وجد نفسه وهو على حصار عكا في ضائقة مالية لم يحسب حسابها فافترض من أخيه، وتشدد في جمع الزكاة، ولم يستطع الإيتان بشيء هام يسد الضائقة أو يحفظها، فتكاليف الأسلحة والمؤن، والعلف، والمعدات، وعطاء الجند الإضافي، والنشاب، والنفط، والسيوف كانت تأتي على كل موارده، ولم يستطع أن يخفف الضائقة أيضاً على أمرائه الإقطاعيين الذين ركبتهم الديون، وأرغمتهم الحاجة إلى إكراه فلاحهم لاستخراج ما بأيديهم مما يفسر إلى حد كبير تراخي هؤلاء الأمراء في الحرب، ومللهم منها وفرحهم بالهدنة بعدها.

ولم يكن كرم صلاح الدين الواسع دون هدف أو معنى، ولكنه كان يرى في المال وسيلة لجمع القلوب حول أحلامه في طرد الفرنج، حتى أن الأموال التي كان يمكنه أن يمنعها، لم يكن يأبه لذهابها وقد ذكر أبو شامة أن نواب دمشق كتبوا له أن الأموال تضيع في أغنياء يأخذون الصدقات ولا يستحقونها،

(١) ابن واصل: مفرج الكرب في أخبار بني أيوب ص ١٧٣.

(٢) أبو شامة: الروضتين ج ٢ ص ٤.

وكانت تبلغ أحد عشر ألف دينار، فأمرهم بإبقائها على أهلها وقال: «لا تكدر علي ذوى الأموال موارد العطاء»^(١).

وقد وصل الأمر بالقائمين على خزائنه، أنهم كانوا يكتمون بعض المال عنه لئلا يطلبه فجأة منهم فلا يجدون ما يطلب، وحسبنا القول: «أنه لم تكن لصلاح الدين سياسة مالية منظمة» وكان كجميع الأمراء في عهده ينفق ما يأتيه دون ميزانية، وإدارته المالية تتكون من الديوان السلطاني وديوان الجيش وهو أهمها، حيث كان يتطلع معظم الواردات، وكانت مصروفات هذا الديوان سنة (٥٧٧هـ/١١٨١م) تبلغ ثلاثة ملايين وخمسمائة وسبعين ألف دينار^(٢) بالإضافة إلى مليون آخر للعربان والقضاة والفقهاء والصوفية، ومصروفاته اليومية تزيد على أربعين ألف دينار^(٣).

ولم يكن العمل الحربي مستهلك الميزانية، وإنما أيضاً كان هناك العمل الديني الدعائي المتمثل بالعلماء والشيوخ كانوا عدته في الدعاء من جهة والدعاية من جهة أخرى^(٤).

كذلك عمل بنو أيوب في دمشق على إغداق الأموال على طلبة العلم، فصلاح الدين ينفق الأموال على طلبة العلم، ويخصص لهم جرايات شهرية (رواتب)^(٥)، كذلك قام الملك المعظم بتشجيع طلبة العلم، حيث قيل: أنه شرط لكل من يحفظ المفصل للزمخشري ثلاثين ديناراً، خلعة فحفظه لهذا السبب جماعة من أهل دمشق^(٦). كذلك ذكر سبط ابن الجوزي أن الملك المعظم كان يحب

(١) أبو شامة: المصدر نفسه ص ٥.

(٢) المقرئزي: السلوك قسم ١ ج ١ ص ٧٥.

(٣) ابن الجوزي: مرآة الزمان قسم ١ ج ٨ ص ٤١.

(٤) شاکر مصطفى: المرجع السابق ص ٢٩٢.

(٥) ابن شداد: سيرة صلاح الدين ص ٢٥ - ابن عنين: الديوان ص ١٣ شميساني: مدارس دمشق في العصر الأيوبي ص ٤٤-٤٥.

(٦) التاريخ المنصوري: ص ١٤ - ابن خلکان: وفيات الأعيان ج ١ ص ٥٠١.

الفقهاء، ويحرضهم على الاشتغال بالعلم فيقول: «من حفظ نص الجامع للكرماني أعطيته مائة ديناراً، ومن حفظ الإيضاح لأبي علي الفاسي في النحو أعطيته مائتي دينار» فحفظ الكتابين جماعة، ووفى لهم بما شرطه^(١). ولم يتوانى الأيوبيون عن مساعدة الفقراء، والاهتمام بهم، بل قدموا لهم المساعدات وأكرمهم، وخاصة في المناسبات الدينية والأعياد، حيث ذكر أن الملك الأشرف كان «حسن الظن بالفقراء، يحسن إليهم ويزورهم، ويتفقدهم بالمال والأطعمة، وكان طول ليالي شهر رمضان لا يفلق باب القلعة وجفان الحلاوة خارجة إلى الجوامع والزوايا والربط، وبيت الآبار والمزة»^(٢).

كذلك قام الملك الجواد بإنفاق مال الخزائن على الأمراء بعد أن تولى الملك العادل، وكان فيها تسعمائة ألف دينار، وذلك من أجل تسلمه الولاية من بعد العادل^(٣).

- أعمال البناء:

وكما بذل الأيوبيون وفي مقدمتهم صلاح الدين المال في مدافعة الفرنجة، وتحرير القدس والأراضي الإسلامية، فقد بذلوا المال والجهد أيضاً لبناء المدارس والأربطة والزوايا للعلماء والفقهاء، والصوفية، وطلاب العلم. وكانت هذه المنشآت قد شاعت منذ أواخر القرن الخامس الهجري، وصارت مثابة لتخريج المتعلمين من أهل السنة للوظائف المختلفة الدينية والمدنية في المشرق، وقد امتد أثرها إلى المغرب، وأضحت الأوقاف عليها من وسائل التقرب لله عز وجل، وعمل الأيوبيون في دمشق أيضاً على بناء الخانات في سبيل تأمين الراحة للمسافرين^(٤).

(١) سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان ج ١ ص ٤٢٧ - الحنبلي: شفاء القلوب ص ٢٧٧.

(٢) سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان ق ٢ ج ٨ ص ٧١٤.

(٣) الحنبلي: المصدر السالف ص ٣٨٩.

(٤) أبو شامة: ذيل الروضتين ص ١٦٩.

هذا وقد جهد صلاح الدين إلى عدم تسخير أموال الدولة لأغراض دنيوية خاصة به، وكان يعاقب عماله الذين يسعون إلى هدر الأموال في هذا الشأن. ويذكر أن السلطان عندما دخل دمشق سنة (٥٨٤هـ/١١٨٨م)، وكان واليها بدر الدين مودود المعروف بالشحنة، وهو أخو عز الدين فرخشاه لأمه، وفوض إليه في هذه الأيام ولاية الديوان، وكان مع الصفي بن القابض، فبقيت معه الخزانة وحدها، وكان الصفي قد بنى للسلطان داراً مطلة على الشرفين بالقلعة، وأنفق عليها أموالاً كثيرة، وبالغ في تجبيرها وتحسينها، وظن أنها تقع من السلطان بمكان، فما أعارها طرفاً ولا استحسناها، وكانت من جملة ذنوبه عند السلطان التي أوجبت عزله عن الديوان، وقال السلطان: «ما يصنع بالدار من يتوقع الموت، وما خلقنا إلا للعبادة، والسعي للسعادة، ما جئنا دمشق للنعيم، وما نروم أن نريم»^(١).

هذا وقد أنفق الأيوبيون الأموال الطائلة على بناء المدارس، حيث يذكر أن صلاح الدين قام ببناء عدة مدارس في دمشق، ومنها المدرسة الصلاحية قرب البيمارستان النوري^(٢)، ومدرسة للمالكية أيضاً بدمشق^(٣) وكان من جملة نفقات الدولة الأموال التي كانت تسخر لأعمال الترميم، حيث قام الأيوبيون بترميم المساجد والقلاع، وأبواب دمشق، عندما كانت تتعرض للأضرار نتيجة الكوارث الطبيعية (الزلازل) أو الحروب، ومن هذه الأعمال تجديد أبواب جامع دمشق الغربية من جهة باب البريد بالنحاس الأصفر وركبت، وكذلك إصلاح الفوارة بجيرن، وعمل الشاذروان والبركة بساحتها وذلك في سنة (٦٠٧هـ/١٢١٠م)^(٤).

(١) أبو شامة: الروضتين ج ٢ ص ١٦٠ (الموسوعة الشامية ج ١٩).

(٢) التعميم: الدارس في تاريخ المدارس ص ٢٣١.

(٣) ابن خلكان: وفيات الأعيان ج ٢ ص ٤٠٣.

(٤) أبو شامة: المصدر نفسه ص ١٤٩.

وفي سنة (٦٣٢هـ/١٢١٦م) تم تجديد بناء الجامع بدمشق، حيث أحضرت الأوتاء الخشبية لأجل قبة النسرة في الجامع بدمشق، وعدتها أربعة طول كل واحد منها اثنان وثلاثون ذراعاً بذراع النجارين، حيث كانت قطعت من الفوطه^(١).

وقام المعظم ببناء مدرسة بقاسيون، وبنى سور دمشق، والطارقة التي على باب الحديد^(٢)، وبنى الخان على باب الجابية، وأيضاً عمل الأشرف موسى بن أبي بكر في سنة (٦٣٠هـ/١٢٣٢م) على بناء دار الحديث الجديدة في دمشق^(٣)، وقام أيضاً ببناء مسجد أبي الدرداء بقلعة دمشق، والمسجد الذي عند باب النصر، ومسجد خارج القصب بالعقيبة^(٤)، وفي سنة (٦٤٧هـ/١٢٤٩م) أمر الصالح أيوب ببناء المنارة الشرقية بالجامع، وهي التي تعرضت للحريق^(٥).

وبنى الأيوبيون العديد من الخوانق (للسوفية) والخانات (للمسافرين على الطريق)، وعني صلاح الدين بالصوفية، لأنه كان في تقواه أشبه الناس بهم، وقد بنى في دمشق الخانقاه الناصرية خلف قيسارية الصوف، وكانت في الأصل داراً له، وقلدته أخته ست الشام، فبنت الخانقاه الحسامية على اسم ابنها حسام الدين في دمشق أيضاً^(٦). وأنشأ صلاح الدين الخانات محطات للتجار والمسافرين، حيث عمر الخانات على طريق حمص، ومنها خان السلطان قرب النبك، وهو في نهاية الوثيقة والحسن، وفي هذا الخان ماء جار يتسرب السقاية في وسط الخان، كأنها صهريج، ولها منافس ينصب منها الماء في سقاية صغيرة

(١) أبو شامة: ذيل الروضتين ص ١٧٨.

(٢) الحنبلي: شفاء القلوب في مناقب بني أيوب ص ٢٨٤.

(٣) أبو شامة: المصدر نفسه ص ٣١٥.

(٤) سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان ق ٢ ج ٨ ص ٧١٤ - ٧٧٣. أبو شامة: المصدر نفسه ص ٣٦١. الحنبلي: المصدر نفسه ص ٢٩٥.

(٥) أبو شامة: المصدر نفسه ص ٣٦١.

(٦) شاكر مصطفى: المرجع السابق ص ٣٩٤.

مستديرة حول الصهريج، ثم يفوص في سرب من الأرض، وكذلك بنى الخان المعروف عند موضع يقال له: القصير قريب من دمشق، وهو خان كبير والنهر جار أمامه^(١). كذلك قام الملك المعظم ببناء الفندق الكبير المنسوب إليه بأرض عاتكة قبلي القنوات سنة (٦١١هـ/١٢١٤م)^(٢).

- بناء قلعة دمشق:

كما كان اهتمام الأيوبيين ببناء قلعة دمشق، وخاصة زمن العادل الأيوبي، حيث أن الملك العادل عندما استقرت له الأمور بدمشق أواخر القرن السادس الهجري العاشر الميلادي، رأى أن القلعة القديمة لم تعد تلبي الحاجات المطلوبة منها، ولم تعد تتفق مع التطور الذي حدث في فني العمارة والتحصين العسكري. هذا إضافة إلى ما أصابها من تهديم خلال زلازل عامي (٥٩٧هـ/١٢٠٠م - ٥٩٨هـ/١٢٠١م)^(٣).

حيث ذكر أن العادل قرر هدم القلعة القديمة، وإشادة قلعة حديثة مكانها، تبنى وفق مخطط جديد، وفن معماري متطور، فجاءت مختلفة عن الأولى كل الاختلاف من حيث القوة وضخامة الأبراج والمساحة وطراز البناء، لم يقم العادل بهدم كل شيء في القلعة القديمة، بل احتفظ ببعض المباني، ودور السكن والدواوين التي كانت داخلها، وشرع بتشبيد أسوار وأبراج القلعة الجديدة، ثم أخذ في حفر الخنادق، وإكمال المخطط المرسوم شيئاً فشيئاً، هذا وقد شاركه في مهمة البناء والإعمار أولاده وكبار الأمراء الأيوبيين، واختص كل منهم ببناء جانب من سور القلعة، أو برج من أبراجها، كما أسهم أهل

(١) ابن جبير: الرحلة ص ٢٢٣ - ٢٢٤.

(٢) أبو شامة: ذيل الروضتين ص ١٦٩ - الحنبلي: المصدر السالف ص ٢٨٤.

(٣) أبو شامة: المصدر نفسه ص ٦١١. (الموسوعة الشامية ج٢).

دمشق على اختلاف طبقاتهم وأحيائهم في أعمال البناء هذه، وأيضاً الفقهاء والصوفية^(١).

ويحدثنا ابن شداد عن موضوع بناء القلعة في عهد العادل، فيقول: «ولما ملك العادل دمشق، هدم قلعتها، ووزع بناءها على أمراءه، وجعلها اثني عشر برجاً، كل برج منها في قدر القلعة، وحفر لها خندقاً، وأجرى إليه الماء، فعمرت أحسن عمارة من أموال من وزعت عليهم من الأمراء»^(٢).
ويحدد أبو شامة، من خلال ما أورده التاريخ الذي بدئ فيه ببناء القلعة فيقول:

«ثم دخلت سنة (٥٩٩هـ/١٢٠٢م) وفيها شرع بممارة سور قلعة دمشق، وابتدئ ببرج الزاوية الغربي القبلي المجاور لباب النصر»^(٣).
كذلك شرع في سنة (٦٠٤/١٢٠٧م) ببناء برج الزاوية الجنوبية، وقد ذكر أبو شامة أنه يقع قبالة المدرسة القيمازية^(٤) التي يفصلها عنه الخندق والطريق فقط ويجاورها من جهة الشرق دار الأمير صارم الدين قايماز النجمي، التي حولها الملك الأشرف إلى مدرسة عرفت بدار الحديث الأشرفية.
وفي عام (٦٠٥هـ/١٢٠٨م) تم بناء البرج الذي يلي برج الزاوية الجنوبية الشرقية المتقدم ذكره في السور الجنوبي، وذلك استناداً إلى الكتابة التي تزرخه، المنقوشة على واجهة البرج الجنوبية^(٥) كما عمل أيضاً على بناء برج

(١) أبو شامة: ذيل الروضتين ص ٩٢.

(٢) - ابن شداد: الأعلام الخطيرة ص ٢٩.

(٣) أبو شامة: ذيل الروضتين ص ٣٢.

(٤) أبو شامة: المصدر السالف ص ٦٤.

(٥) ربحاوي (عبد القادر): قلعة دمشق تاريخ القلعة وآثارها وفنونها المعمارية دمشق ١٩٧٩ مطبوعات هيئة تدريب القوات المسلحة في الجيش العربي السوري ص ٦٧.

الزاوية الشمالية الشرقية في سنة (٦٠٦هـ/١٢٠٩م)، وقد أشرف على بنائه نائب دمشق إبراهيم بن موسى^(١).

وفي السنة نفسها تم بناء البرج الأوسط في الواجهة الجنوبية، وقام بينائها الملك المنصور محمد بن عمر ملك حماة المتوفى سنة (٦١٧هـ/١٢٢٠م)، كذلك تم بناء برج الباب الشرقي سنة (٦١٠هـ/١٢١٣م) استناداً إلى الكتابة المنقوشة على الجدار الشرقي للبرج وفي سنة (٦١١هـ/١٢١٤م) جرى توسيع الخندق القديم، بما يتناسب مع ضخامة بنيان القلعة الجديد، وذلك من جهة الشرق، كما روى أبو شامة، قال: وفيها هدمت الدور والحوانيت المجاورة للقلعة لتوسيع الخندق، ومن جملة ما هدم حمام قايماز، وحوانيت تقابل المار من جهة دار الحديث إلى القلعة ...^(٢) كذلك جرى توسيع الخندق الغربي سنة (٦١٣هـ/١٢١٦م) قال أبو شامة: «شرع في تحرير خندق باب السر (الخندق الغربي) وهو المقابل لدار الطعم العتيقة المجاورة لنهر بانياس، وكان المعظم وعسكره ينقلون التراب نحو الميدان الأخضر، وكان أخوه الصالح اسماعيل مع من انضم إليه من العسكر ينقلون يوماً والمعظم يوماً. وعمل فيه الفقهاء، والصوفية، ولم يبق أحد من أهل البلد، كل يوم تعمل فيه طائفة»^(٣).

هذا وقد استمرت أعمال البناء بعد وفاة العادل لكن معظمها كان ذات صفة مدنية وأشهر هذه المنشآت هي: الطارقة، الدور والقصور، مسجد أبي الدرداء، والبحرة وتجديد دار المعصرة.

وكل هذه الأبنية شيدت بين عامي (٦١٨هـ/١٢٢١م - ٦٣٦هـ/١٢٣٨م)^(٤).

(١) والي دمشق في أيام العادل، ويلقب بالمتعمد، ومبارز الدين، عزله المعظم سنة (٦١٧هـ/١٢٢٠م).

انظر أبو شامة: ذيل الروضتين ص ١٥٠.

(٢) أبو شامة: المصدر نفسه ص ٨٧.

(٣) أبو شامة: المصدر نفسه ص ٩٢.

(٤) أبو شامة: المصدر السابق ص ١٢٩ - ابن شداد: الأعلام الخطيرة ص ٢٩ - ابن كثير: البداية والنهاية: ج ١٢ ص ١٤٨، النعمي: الدارس ج ١ ص ٥٨٤.

وكان آخر أعمال البناء من قبل الأيوبيين هو بناء دار رضوان من قبل الناصر صلاح الدين يوسف آخر ملوك الأيوبيين بدمشق^(١).

هذا وقد كان للقلعة الأيوبية دوراً سياسياً واجتماعياً واضحاً، حتى أن وظيفتها العسكرية والحربية كقلعة حصينة، كانت أكثر بروزاً ووضوحاً، لما اكتسبته من القوة والمنعة إذا ما قيست بالقلعة السلجوقية، لقد لعبت القلعة الأيوبية دوراً خاصاً في المقاومة يختلف عن دور المدينة، وذلك لكونها مقراً لسلطين بني أيوب وأسرهم، حيث كانوا منها يسيرون دفعة الحكم في دولة كانت تتسع تارة لتشمل سائر أنحاء الدولة الأيوبية في مصر والشام والجزيرة، وأرمينية، لاسيما في أيام الملك العادل، وتارة تنقلص لتقتصر على ولاية دمشق، وبسبب إقامة السلطين والملوك فيها، فقد كانت تتوفر فيها كل حاجات الملوك اليومية وتمارس فسها نشاطات اجتماعية وإدارية وسياسية، كما كان ملوك بني أيوب أطباء موظفون في القلعة، وكانوا من مشاهير الأطباء في ذلك العصر^(٢). ومن النشاطات التي عرفتها القلعة والتي تخص الحياة السياسية والاجتماعية أيضاً، موكب وصول رسل دار الخلافة العباسية سنة (٦٠٤هـ/١٢٠٧م) ومعهم الخلع للملك العادل، وأولاده، وكبار رجال دولته، ودخولهم من منطقة القصير (قرية شرقي دمشق إلى القلعة من باب الحديد) ثم قرئ التقليد بديوان القلعة بمحضر من القضاة وسراة البلد^(٣).

كذلك كان الأيوبيون ينزلون ضيوفهم في قلعة دمشق، فحينما زار الأشرف موسى أخوه الكامل محمد صاحب مصر أنزله القلعة، وتحول هو إلى دار السعادة، وأنزل الجواد يونس حفيد الملك العادل الذي حكم دمشق بين عامي

(١) ابن شداد: المصدر نفسه ص ٢٩. أبو شامة: المصدر السابق ص ١٦٩، الحنبلي: المصدر السالف ص ٢٨٤.

(٢) ابن أبي أصيبعة: طبقات الأطباء ج ٢ ص ٢٤٨ - ٢٦٨.

(٣) أبو شامة المصدر نفسه ص ٦٢.

(٦٣٥هـ/١٢٣٧م - ٦٣٦هـ/١٢٣٨م) الشيخ جمال الدين الحصري عنده بالقلعة بدار المسرة^(١).

ومما تقدم يمكن القول أن الأيوبيين رغم كل الصراعات التي جرت بينهم والتي كانت أحداثها كما أشرنا سابقاً تحدث بالقرب من دمشق، فإنهم كانوا حريصين كل الحرص للحفاظ على قلعة دمشق وتقويتها، ويشاركهم في ذلك أهالي دمشق قاطبة رغم معاناتهم من تلك الصراعات، ولم يبخل الأيوبيون في سبيل تحقيق ذلك في صرف الأموال الباهظة لتحقيق الغاية المنشودة والتي تتمثل بالحفاظ على هذه القلعة والتي من خلالها يستطيعون أن يضمنوا سلامة حكمهم.

ولم تقتصر نفقات الأيوبيين على أعمال الجهاد، وتشديد الأبنية بمختلف أنواعها، وكذلك الإنفاق على طلبة العلم والفقراء، وجميع أنواع المرافق العامة، بل أولى الأيوبيون عناية فائقة بصحة أفراد المجتمع فقاموا ببناء البيمارستانات، وتجهيزها بكل ما تحتاج إليه في سبيل تأمين الخدمات الضرورية للمرضى، حيث جهدوا على تنشيط حركة البيمارستان النوري، وذلك من خلال إيقافهم الأوقاف الوفيرة عليها، التي تساعد في تأمين متطلباتها، كما اهتموا بالعملين فيها، فخصصوا الجامكيات «الرواتب» الوفيرة للعاملين بها من الأطباء والصيادلة والخدم، وعدت البيمارستانات مكاناً لعلاج الفقراء دون مقابل، وقد شاركهم الأغنياء في ذلك، وفي كثير من الحالات أعفي هؤلاء من دفع نفقات العلاج، قال الرحالة ابن جبیر الأندلسي عندما زار دمشق سنة (٥٨٠هـ/١١٨٤م)، وشاهد البيمارستان النوري الكبير بها «وجرايته في اليوم خمسة عشر ديناراً، وله موظفون مشرفون، ومهمم لوائح بأسماء المرضى بالنفقات التي يحتاجون إليها في الأدوية والأغذية، بالإضافة إلى الأطباء الذين يبكرون إليه كل يوم،

(١) - ابن كثير: البداية والنهاية ج١٣ ص١٥٣.

ويتفقون المرضى، ويأمرون بإعداد ما يصح لهم من الأدوية والأغذية، حسبما يليق بكل إنسان منهم»^(١).

ويؤكد أبو شامة أن هذا البيمارستان قد خصص لمعالجة المرضى من الفقراء، أما الأغنياء فكان يحق لهم العلاج فيما يعز وجوده من الأدوية العظيمة وسواها في الأسواق، وذكر أن نور الدين محمود بن زنكي عندما زار البيمارستان شرب من شرابه، قال أبو شامة: «وأن ذلك جاء موافقاً لما جاء في كتاب الوقف للبيمارستان من جاء إليه مستوصفاً لمرضه أعطي»^(٢).

وفي العهد الأيوبي تم إنشاء بيمارستان بالصالحية (البيمارستان القيمني)، وهو في وسط الصالحية، وقد ذكره ابن كثير في تاريخه في أحداث سنة (٦٥٤هـ/١٢٥٦م)، «وفيها واقف مارستان الصالحية الأمير الكبير سيف، أبو الحسن، يوسف بن أبي الفوارس بن موسك القيمني الكردي.. ومن أكبر حسناته وقفه المارستان الذي بسفح قاسيون، وكانت وفاته ودفنه بالسفح من القبة تجاه المارستان المذكور»^(٣)، وكان هذا المارستان يحتوي على قاعتين كبيرتين، وبه قاعتان لصيق القاعتين المذكورتين للمرضى المسهلين، إحداهما للرجال والأخرى للنساء، وللصيقها حاصلان معدان للشرابات والمعاجين، والأكحال والأشياق، والأدوية الخاصة بطب العيون، والأقراص وغير ذلك، في شرفيه مطبخ للزوارات (المرقة التي يتناولها المريض) وفي دهليز بابيه الشمالي بيت البواب، وبوسطه بركة معظمة يأتي إليها الماء بناعورة مركبة على نهر يزيد، وفيه خدم للرجال والنساء وكحال، وطبيب، وشرياتي (صيدلي) وعامل ومشارف. وقد وقف عليه سيف الدين أوقافاً كثيرة كالقري، والطواحين،

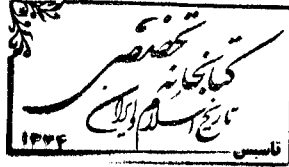
(١) ابن جبير: الرحلة ص ٢٧٢.

(٢) أبو شامة: المصدر السالف ج ١ ص ٩.

(٣) ابن كثير: البداية والنهاية ج ١٣ ص ١٩٥.

والحوانيت والخانات، وقد ذكر الوقف منحوتاً على واجهة البيمارستان،
وواجهة الباب من أجل الأبواب هندسة^(١).

ومن المفيد الإشارة إلى أن إنشاء البيمارستانات، والاهتمام بالعاملين فيها في
تلك الحقبة الزمنية، كانت تتبع من ضرورة معالجة المرضى، وتقديم الإسعافات
اللازمة للمصابين بسبب الكوارث التي حلت بالبلاد كالزلازل، أو المصابين
بأمراض معدية، وكذلك معالجة جرحى الحروب، لأن البلاد كانت في حالة
حرب دائمة مع الفرنجة، أو المصابين أثناء الحروب الأهلية.



(١) ابن طولون: تاريخ الصالحية ج ١ ص ٣٤٦ - ٣٤٨ - كرد علي: خطط الشام ج ٦ ص ١٥٨ - ١٥٩ -
أحمد عيسى: تاريخ البيمارستان في الإسلام ص ٢٢٨ - ٢٤٤.

الفصل الرابع

الحالة الاجتماعية في دمشق الأيوبية

تمهيد:

نادراً ما اهتم المؤرخون بفرد من أفراد الشعب العاديين، اللهم إذا نشأت لهذا الفرد علاقة بالسلطة، وفي العصر الحديث تبدلت النظرة إلى وقائع التاريخ، وبات عدد كبير من الكتاب يرى أن التاريخ هو تاريخ الشعوب لا تاريخ السلاطين والعظماء لأنه لولا الشعوب لما عرفت تواريخ الأمم الإنجازات الكبيرة، وعليه فإن واجب الباحث في العصر الحديث الكشف عن حياة الشعوب من جميع الجوانب لا سيما الجوانب الاجتماعية والاقتصادية، والثقافة الشعبية.

وغالباً ما امتزجت في الكتابات المعاصرة المفاهيم الاجتماعية بالاقتصادية بالثقافة الشعبية، لكن مع تطور علم التاريخ بات التمييز أمراً مطلوباً، وقد حدّد بعض الباحثين التاريخ الاجتماعي: (بأنه دراسة تطور العلاقات والنظم ومضمون المفاهيم والقيم الاجتماعية في مجتمع ما، وفي مدة اجتماعية محدودة)^(١) وجاء تعريف التاريخ الاقتصادي: بأنه (دراسة الوقائع الاقتصادية الماضية في المجتمع في مجال العلاقات الاقتصادية على مرفترات التاريخ المختلفة وأثرها في مجال العلاقات الاجتماعية الأخرى)^(٢).

(١) د. إبراهيم مدكور: معجم العلوم الاجتماعية ط١. القاهرة ١٩٧٥ ص ١١٠.

(٢) د. إبراهيم مدكور: المرجع نفسه ص ١١١.

وجاء تعريف التاريخ الثقافي بأنه: (رسم صورة متكاملة للوقائع الثقافية كما حدثت خلال العصور المختلفة في يوم تحول الإنسان من الإنسان الحيوان إلى الإنسان العاقل، حتى الآن يشمل تاريخ الإنسان في ميدان الأسرة مثلاً والصور التي تعاقب على نظام علاقة الرجل بالمرأة مثلاً).

ويخلط الكثيرون ما بين التاريخ الاجتماعي والتاريخ الثقافي، هذا ورأى بعض علماء التاريخ أن التاريخ الاجتماعي والتاريخ الاقتصادي والثقافي الشعبي في مجتمع ما هو رد فعل مباشر للتاريخ السياسي وعلى الخصوص تاريخ الحكومات والسياسيين الذين يتولون الحكم^(١).

لا شك أن هناك تداخلاً بين شعب التاريخ الثلاثة هذه، فالروابط بينهم قوية جداً والتداخل يكاد لا يمكن تمييزه، ومع ذلك في التاريخ أحداث اجتماعية محضة لها نتائج سياسية واقتصادية وثقافية وغير ذلك، كما أن في التاريخ أحداثاً اقتصادية أو ثقافية أو سياسية أو عسكرية أو طبيعية لها بين نتائجها منعكسات اجتماعية. وبناءً عليه يمكن للباحث أن يتناول بعض المظاهر بالدراسة وأن يتناول أحداث غير اجتماعية لها الانعكاسات الاجتماعية، إنما بصعوبة بالغة، وتزداد هذه الصعوبة لدى الباحث في التاريخ الإسلامي الذي انعدمت فيه تقريباً الوثائق والروايات الواصفة لأحوال المجتمع بشكل مباشر^(٢). إن البحث في التاريخ الاجتماعي لأي حقبة من حقبة التاريخ الإسلامي أمر بالغ الصعوبة وخاصة إذا كان لرقعة ما في منطقة واسعة كدمشق من بلاد الشام.

والذي يعيننا بالدرجة الأولى هو دراسة العصر الأيوبي في دمشق، حيث نجد أن الأبحاث التي اهتمت بأحوال المجتمع هي سياسية أو عسكرية بالدرجة الأولى أو اقتصادية اجتماعية سياسية مجتمعة.

(١) د. إبراهيم مدكور: المرجع نفسه ص ١١٠.

(٢) د. إبراهيم زعرور: الحياة الاجتماعية في بلاد الشام في العصرين الأيوبي والمملوكي ص ٩٤ - ٩٥.

- عناصر المجتمع: دخلت الكثير من العناصر غير العربية إلى دمشق الأيوبية بقصد الجهاد ضد الصليبيين، بحثاً عن حياة اقتصادية أرفع شأناً من المناطق التي نزحت منها، ومن الظواهر الهامة في المجتمع في هذه الحقبة، ازدياد أهمية العنصرين التركي والكردي، حيث اهتم السلاطين الأيوبيون كثيرهم بشراء الرقيق الأبيض، والاعتماد عليهم في تدعيم سلطانهم داخل البلاد، وحمايتهم من أخطار الدول المجاورة لهم، بحيث أصبحت كل مجموعة منهم تتسبب لمن اشتراها، وقام بتربيتها، وتدريبها للعمل في خدمته فمثلاً الأسدية نسبة إلى سيدهم أسد الدين شيركوه عم صلاح الدين، والصلاحية نسبة إلى سيدهم صلاح الدين يوسف، فصلاح الدين كي يتمكن من خوض معاركه ضد الصليبيين، اضطر لشراء اثني عشر ألف مملوك من الجراكسة والأتراك، قام بتدريبهم على مختلف فنون القتال، وألف منهم جنداً، لم يلبثوا أن صاروا أشد الجنود بأساً، وأقواهم بطشاً، والعادلية نسبة إلى العادل، والكاملية نسبة إلى الكامل بن العادل، والصلاحية نسبة إلى الصالح نجم الدين بن الكامل. وكل هؤلاء مع العنصر العربي الرئيسي، كانوا يمثلون القوة الضاربة للإسلام، وجنوده المدافعين عنه وعن أرضه ومصالحه^(١).

ورغم كون هذه العناصر مجتمعة كانت تعمل على إحياء المذهب السني لم يكن لها أي تطرف واضح اتجاه المذاهب الأخرى وخاصة الشيعة، حيث أن سلاطين دمشق الأيوبيين كانوا شديدي الحرص على المشاركة في الأعياد الدينية وخاصة عيد الفطر، وعيد الأضحى، وكذلك استقبال الحجاج. وذكرى المولد النبوي الشريف واحتفالات شهر رمضان على الرغم من أن غالبية

(١) أبو شامة: عيون الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية ج ١ ص ٤٨ - ٤٩. د. عصام محمد شبارو. السلاطين في المشرق العربي (معالم دورهم السياسي والحضاري). (السلاجقة الأيوبيون). دار النهضة العربية بيروت ١٩٩٤. ص ١٢٦. عاشور: المرجع السابق ص ٢١٧.

هذه الاحتفالات هي من البدع التي جاءت بها الخلافة الفاطمية بعد انتقالها إلى مصر^(١).

لقد اعتاد أهل دمشق على الاحتفال بعدد من المناسبات الدينية، ومنها الاحتفال بعيد المولد النبوي، وفي هذه المناسبة كان الناس يتجمعون فئات وجماعات في المساجد، والزوايا وبعض البيوت الكبيرة، حيث كان هناك عدد من المنشدين ورجال الدين وأتباع الطرق الصوفية، ويقوم منشدون بقراءة قصة مولد النبي ﷺ مع عدد من الأناشيد الدينية، والمدائح النبوية، وفي كثير من الأحيان كان هذا الاحتفال يختتم بحلقات للذكر ورقص الدراويش مع توزيع الحلوى.

كما أنهم احتفلوا بذكرى يوم عاشوراء، وبذكرى الإسراء والمعراج، وليلة النصف من شعبان وليلة القدر، وكانوا في هذه المناسبات يعدّون أنواعاً من الحلوى، وأطعمة خاصة حضرت وفق طرائق معينة، وفي جميع هذه المناسبات شغل رجال الدين مع أتباع الطرق الصوفية الدور الأعظم، واحتل شهر رمضان - ليلته ونهاره - مكانة خاصة عند المسلمين من أهالي دمشق حيث كانوا يعملون على زيادة إنارة المساجد، وكان المنشدون ينشطون في المآذن أو في داخل المساجد ومعهم قرآء القرآن، ومع اقتراب نهاية الشهر كان المنشدون يكثرون في ترديد الأناشيد الخاصة في وداع هذا الشهر المبارك، كما شارك سلاطين بني أيوب في هذه المناسبة، حيث ذكر أن المالك الأشرف كان طوال ليالي رمضان لا يفلق باب القلعة وجفان الحلاوة خارجة إلى الجوامع والزوايا والربيط^(٢). ومن المناسبات الدينية التي احتفل بها أيضاً عيد الفطر، وبإطلالته كان النشاط يزداد في الأسواق بشكل منقطع النظير، حيث كانت الحوانيت تفتح ليل نهار، ويعمد الناس إلى شراء اللحوم والحلوى والحبوب، لإعداد طعام العيد،

(١) شبّارو: المرجع السالف ص ١٢٦.

(٢) سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان ق ٢ ج ٨ ص ٧١٤.

وفي صبيحة العيد يلبس الناس أحسن ثيابهم وغالباً ما كانت جديدة، ويتوجهون إلى الجامع لأداء صلاة العيد، وبعد الفراغ من الصلاة يتوجهون إلى المقابر لزيارة أمواتهم، ومن ثم الشروع بزيارة الأهل، ويبدؤون بزيارة أكبر أفراد العائلة^(١). ومن مظاهر الاحتفالات الدينية التي كانت تشهدها دمشق هو الاحتفال بوداع الحجاج واستقبالهم، حيث لفت انتباه ابن جببر تعظيم الدمشقيين للحجاج، وخروج الناس لتلقي قوافل الحجيج من الكرم الكبير الذي اتسم به أهل دمشق في المدن والأرياف، فهم كانوا يكرمون الغرياء ويؤثرون الفقراء^(٢). ولم يتوقف الاحتفال بوداع واستقبال الحجاج على عامة الناس فقط، بل شاركهم في ذلك سلاطين دمشق وأمراؤها، حيث ورد عند أبي شامة^(٣) «أن السلطان صلاح الدين قام سنة (٥٨٩هـ/١١٩٣م) باستقبال الحجاج الشامي، وعمل على تنظيف طرقاتهم من المياه، لأن هذه السنة كانت كثيرة الأنداء والأمطار، وقد سالت المياه في الطرق كالأنهار..».

يقول القاضي ابن شداد^(٤): «أنه لم يجد عند السلطان صلاح الدين من النشاط، ما عهده منه، وكان يوماً عظيماً، قد اجتمع فيه للقاء الحاج والتفرج على السلطان معظم من في البلد».

- الوجود الصليبي وأثره على الحياة الاجتماعية

كانت الحياة الاجتماعية في عهد صلاح الدين تتسم بطابع الكفاح والجهاد في سبيل نصرة العرب على الفرنج، وكان أثر ذلك يبدو واضحاً في أزياء وملابس وأطعمة الأيوبيين، وهذا يؤكد الفرق الشاسع بين مظاهر الحياة

(١) زعرور: الحياة الاجتماعية في بلاد الشام في العصرين الأيوبي والمملوكي ص ١٦٨.

(٢) ابن جببر: الرحلة ص ٢٧٥.

(٣) أبو شامة: الروضتين ج ٣، ص ٤٠٥ - ٤٠٦ (الموسوعة الشامية ج ١٩).

(٤) ابن شداد: سيرة صلاح الدين ص ٢٣٠ - ٢٣١.

الاجتماعية في عصر الفاطميين والأيوبيين، إذ عرف الفاطميون البذخ بصورة زاهية براقه، وكانت الحياة كلها تتم عن الرفاهية والثراء والأبهة الشرقية. وقد امتازت حياة صلاح الدين الاجتماعية حسبما وصفها العماد الأصبهاني «لا يلبس إلا ما يحل لباسه كالكتان، والقطن، والصوف. وكان من جالسه لا يعلم أنه جالس سلطاناً لتواضعه».

والجدير بالذكر أن صلاح الدين لم يكن يملك من الفراغ ما يجعله يفكر في تلك المظاهر البراقة إذ شغل بالجهاد عن أي شيء آخر، وكان جل أموال دولته في سبيل التجهيز للحرب^(١).

وقد وصف لنا ابن شداد صلاح الدين الأيوبي وصفاً دقيقاً، وصور لنا اهتماماته في حياته، وكلها تشير إلى نوع الحياة التي كان يحيها، ومما قاله: «كان حبه للجهاد والشفغ به قد استولى على قلبه وسائر جوارحه استيلاءً عظيماً، بحيث ما كان له حديث إلا فيه، ولا نظر إلا في آتته ولا كان له اهتمام إلا برجاله، ولا ميل إلا إلى أن يذكره ويحث عليه، ولقد هجر في محبة الجهاد في سبيل الله أهله وأولاده ووطنه وسكنه وسائر ملاذه، وفتح في ظل خيمة تهب بها الرياح يمنة ويسرة»^(٢).

ولم يكن اهتمامه بمجاهدة الأعداء تتوقف عند هذا الحد، بل كان يهتم بأخبار من سبقه من المجاهدين ليجعلهم قدوة له، ويحب أن يعلم ما قيل في الجهاد قبله، فقد ألف ابن شداد كتاباً، جمع فيه آداب القتال وكل آية وردت فيه وكل حديث روى في فضله، وشرح له غريبها، وكان يطالعه دائماً حتى أخذه منه ولده الأفضل^(٣).

(١) عاشور: مصر والشام في عصر الأيوبيين والمماليك ص ١٣٢.

(٢) ابن شداد: سيرة صلاح الدين الأيوبي ص ٢١.

(٣) ابن شداد: المصدر نفسه ص ٢١.

وكان لا يبالي بركوب المخاطر من أجل دفع غائلة الفرنج، وقد وضع ذلك لابن شداد في يوم كان البحر فيه هائجاً هيجاناً شديداً، وموجه كالجبال يخيف عظماء الرجال، ويجعلهم يرفضون ركوبه مقابل ملك الدنيا بكاملها، قال صلاح الدين لابن شداد وهو ينظر إلى موج البحر «في نفسي أنه إذا ما يسر الله تعالى فتح بقية الساحل، قسمت البلاد وأوصيت، وودعت، وركبت هذا البحر إلى جزائرهم أتبعهم فيها حتى لا أبقى على وجه الأرض من يكفر بالله أو أموت»^(١).

وبذلك يمكن القول: أن حركة الجهاد كان لها تأثيراً كبيراً على الحياة الاجتماعية في العصرين الزنكي والأيوبي فقد دعت هذه الحركة إلى إسلام سلفي دون بدع ولا جدل وكان عقاب من يظهر شيئاً منها أليماً^(٢). وعلى ضوء هذا يتضح لنا السبب الذي جعل الأيوبيون يعارضون العلوم العقلية والفلسفية^(٣) حتى أن من كان يتعرض للفلسفة والمنطق وعلم الكلام، كان ينفي أو يعزل عن التدريس ومثالنا على ذلك أن سيف الدين الأمدي (٥٥٠ - ٦٣١هـ) مدرس المدرسة العزيزية، شيخ المتكلمين، عزله الأشرف موسى، وأعلن للملأ أن من يشتغل بعلم الكلام يعرض نفسه للنفي، وطلب من المدرسين أن يشتغلوا بعلم التفسير والفقه والحديث^(٤).

وقد فرض الوضع العام في المنطقة على الحكام والناس الاهتمام بأمر دينهم والتعمق فيه، يدل على ذلك كثرة المصلين والمتعبدين، وكثرة المؤسسات الدينية وعلى رأسها المساجد، حتى أن مدينة دمشق وحدها حفلت في تلك الآونة بمئتين

(١) ابن شداد: المصدر السابق ص ٢٢.

(٢) الروضتين في أخبار الدولتين ص ٢٤.

(٣) كحالة: دراسات اجتماعية في العصور الإسلامية ص ٩٣.

(٤) النعمي: المصدر السابق ج ١ ص ٣٩٣.

واثنين وأربعين مسجداً، إضافة إلى المدارس التي كانت الغاية من إنشائها دينية،
والخانقاوات والأربطة^(١).

- دور العلماء والأدباء في المجتمع:

نال العلماء والأدباء مكانة محترمة في العصر الأيوبي وشغلوا دور كبيراً في
أمور الدولة العامة، ووجهوا النقد للحكام في السياسة وفي المجالس العلمية^(٢).
وكان رأيهم مسموعاً. فقد زخر مجلس صلاح الدين بالعلماء والأدباء وكان على
رأس الحضور ابن عساكر صاحب تاريخ دمشق^(٣).

وقد اهتم خلفاء صلاح الدين من الأيوبيين بمجالس العلم، وحضور الدروس
العلمية في المدارس وهم سلاطين، فقد حضر السلطان المعظم عيسى بن العادل
سنة (٦١٩هـ، ١٢٢٢م) درس القاضي جمال الدين في المدرسة العادلية^(٤).

كما انتشرت في مدن الشام بيوت مؤدبي الصبيان حيث اعتاد الناس على
إرسال أولادهم إليها، ويبدو أن الناس امتنعوا عن إرسال بناتهم للتعليم، وكانت
بيوت المؤدبين مكان يجتمع فيه عدد كبير من الذكور من مختلف الأعمار،
لذلك كان هذا المكان أشبه ببؤرة حيث يمضي الأولاد فيه أوقاتهم باللعب،
بالكعب والبيض والترد، وكان بعض الأطفال يتعرض، لتعلم قبائح العادات،
لذلك أوصى المحتسب أن لا يسمح لمؤدب بالعمل إذا لم يكن متزوجاً، ولا يسمح
لعازب أن يفتح بيتاً للتعليم، إلا أن يكون شيخاً كبيراً قد اشتهر بالدين والخير،
ومع ذلك لا يؤذن للتعليم إلا بتزكية مرضية، وثبوت أهلية لذلك، بمعرفة
الحروف وضبطها بالشكل، وأول ما ينبغي للمؤدب أن يعلم به الصبي، القصار
من سور القرآن، وكذلك أصول الحساب، وما يستحسن من المراسلات

(١) عاشور: بعض أضواء جديدة على ابن عساكر والمجتمع الدمشقي في عصره ص ٢٢٢.

(٢) ياقوت الحموي: معجم الأدباء ترجمة ٥٤ ص ٤١٥، شبلي. تاريخ التربية الإسلامية ص ١٩٥ - ١٩٦.

(٣) أبو شامة: المصدر المتقدم ج ١ ص ١٠.

(٤) النعمي: المصدر المتقدم ج ١ ص ٢٨٨ - ٢٨٩. كرد علي: خطط الشام ج ٦ ص ١٦٤.

والأشعار، كما يأمر المؤدب الصبيان ببر الوالدين، والانقياد لأمرهما بالسمع والطاعة^(١).

- مجالس الوعظ:

اعتاد الناس على حضور مجالس الوعظ التي كانت تقام في المساجد من أجل إرشادهم، وخاصة أيام الجمع وفي بعض الأيام الأخرى أو في الأمسيات، وكان الواعظ يعتمد على الإثارة في موضع عظته، وكان الوعاظ يختارون ممن اشتهروا بالخير والدين والفضيلة وأن يكون عالماً بالعلوم الشرعية وعلم الآداب، ومثال على هذا أنه لما قدم صالح بن هبة الله بن محمد بن عفان أبو محمد البغدادي الواعظ (ت ٥٢٠ خ/١٢٢٦م) إلى دمشق عقد بها مجلس للوعظ في المسجد وكان لا بأس به في حفظ المواعظ وإيرادها^(٢). كذلك قام الوعاظ والخطباء بدور هام وكبير في خدمة جيوش الأيوبيين، إذ كان الخطباء يلهبون حماسة الجند بالخطب الفياضة. وكانت هذه الخطب تلقى إما في المساجد وإما في ساحات القتال، حتى إذا ما فرغ الخطيب من خطبته، فعلت الخطابة في نفوس الناس فعل السحر، ونفروا خفاهاً سراعاً في سبيل طرد الفرنج، وذكر ابن شداد أن صلاح الدين خطب في جمع كبير من الجند في معركة عكا، فقال: «بسم الله والحمد لله، والصلاة على رسول الله، اعلموا أن هذا عدو الله، وعدونا، قد نزل في بلدنا وقد وطأ أرض الإسلام، وقد لاحت لوائح النصر عليه، وإن شاء الله تعالى، وقد بقي في هذا الجمع اليسير ولا بد من الاهتمام بقلمه والله قد أوجب علينا، وأنتم تعلمون أن هذه عساكرنا ليس وراءنا نجدة ننتظرها سوى الملك العادل، وهو واصل، وهذا العدو أن بقي وطال أمره إلى أن يفتح

(١) الشيزري: المصدر المتقدم ص ١٠٣ - ١٠٥ ابن الأخوة: المصدر المتقدم ص ٢٦ - ٢١٦.

(٢) ابن عساكر: تاريخ دمشق ج ٢٣ ص ٤٠٣.

البحر، جاءه مدد عظيم، والرأي كل الرأي عندي مناجزتهم فلينجزنا كل منكم ما عنده في ذلك^(١)».

وهكذا كانت الخطابة وقوداً للمعركة، وكان صلاح الدين يقرب الخطباء، ويفدق عليهم المنح والعطاء والهبات، وخاصة للذين يستحثون الجند على المقاتلة وخوض المعارك^(٢).

وهناك طائفة من الوعاظ عملت على تصنيف تفاسير عن طرقهم الخاصة في الوعظ، ومن هؤلاء: جمال الإسلام، مفتي الشام أبو الحسن، علي بن المسلم بن محمد السلمي الشافعي الفرضي ت (٥٣٣هـ/١١٣٨م) لازم الفقيه نصر بن إبراهيم المقدسي، ولازم الغزالي مدة وجوده بالشام يقول ابن عساكر نقلاً عن الغزالي أنه قال: «خلفت بالشام شاباً إن عاش، كان له شأن، فكان كما تفرس فيه» وهذه شهادة من الحافظ ابن عساكر تجل على مكانة جمال الإسلام العلمية في زمنه ونحن نعلم أن الغزالي قد صنف كتاب (الأحياء) في التصوف وهو بدمشق، وأغلب الظن أن جمال الإسلام أبا الحسن قد اطلع على مضمون هذا الكتاب، وقد أثنى الغزالي على علمه وفهمه، يقول الذهبي: «وكان عالماً بالتفسير والأصول والفقه والتذكير والفرائض والحساب وتفسير المناجات».

وصنف أبو الحسن في الفقه والتفسير ودرس بالمدرسة الغزالية^(٣). والأمينية^(٤) بدمشق، وأغلب الظن أنه درس ما صنفه في الفقه وعلم التفسير لطلابه^(٥).

(١) ابن شداد: سيرة صلاح الدين الأيوبي ص ٩٣.

(٢) الرمادي: صلاح الدين الأيوبي ص ٨٦.

(٣) وهي من المدارس الشافعية بدمشق انظر النعمي: المدارس ج ١ ص ٤١٣ - ٤٢٠.

(٤) وهي من المدارس الشافعية بدمشق انظر النعمي: المدارس ج ١ ص ١٧٧ - ١٧٩.

(٥) ابن القلانسي: تاريخ دمشق ص ٤٢٤ - الذهبي: المعرج ٤ ص ٩٢ - سير أعلام النبلاء ج ٢ ص ٣١ -

٣٤ - السبكي: طبقات الشافعية ج ٧ ص ٢٣٥ - حاجي خليفة: كشف الظنون ج ١ ص ١٨ - ابن العماد:

شذارت الذهب ج ٤ ص ١٠٢.

وصنف أبو المظفر محمد بن أسعد بن محمد، الفقيه الحنفي الواعظ (ت ٥٦٦هـ/١١٧٠م) تفسيراً للقرآن، وكان بارعاً في الوعظ والتذكر، وأغلب الظن أنه ضمن كتابه في التفسير نتاج خبراته في هذا المجال، ودرس أبو المظفر بالمدرسة الطرخانية، والصادرية، والمعينية، بدمشق^(١).

وكان منهم الشيخ الواعظ، والخطيب، والفقيه، فخر الدين أبو عبد الله، محمد بن الخضر بن محمد بن تيمية الحراني الحنبلي (ت ٦٢٢هـ/١٢٢٥م) لازم ابن الجوزي وقرأ عليه كتاب (زاد المسير) في التفسير (قراءة بحث وفهم) وتفقه على جماعة، وبرع في المذهب الحنبلي، والتفسير والوعظ، وصار عالم حران ومدرسها في زمنه، وصنف كتاباً في التفسير، سماه (التفسير الكبير) وهو في أكثر من ثلاثين مجلداً، وكان ابن تيمية يستمد وعظه للناس في كتاب الله عز وجل، ومن أحاديث وسيرة رسوله محمد صلى الله عليه وسلم، وسيرة أصحابه، وغايته من ذلك تقوية الإيمان لدى الناس عن طريق الترهيب والترغيب وهي أساس الوعظ.

ومنهم الشيخ الواعظ، شمس الدين أبو المظفر يوسف بن قز أغلي الحنفي سبط الإمام أبي الفرج ابن الجوزي (ت ٦٥٤هـ/١٢٥٦م) سمع من جماعة ببغداد بالموصل ودمشق، وسمع من جده الشيء الكثير، وعلى الأرجح أنه سمع منه ما صنفه في الوعظ والتصوف، وبرع أبو المظفر في الوعظ، وقدم إلى دمشق في حدود سنة (٦٠٠هـ/١٢٠٢م) وسكن بها ووعظ فيها، وحصل له القبول، وتزهد في آخر أيامه، وركب الحمار، وكان وافر الحرمة، انتهت إليه رئاسة الوعظ وحسن التذكير، ومعرفة التاريخ، وكان له قبول زائد وسوق نافق بدمشق^(٢).

(١) الذهبي: العبرج ٤ ص ١٩٩ - ابن العماد: شذرات الذهب ج ٤ ص ٢١٨ - النعمي: الدارس ج ١ ص ٥٣٧ - ٥٣٩ - ٥٤٣ - ٥٨٨ - ٥٩٠.

(٢) أبو شامة: الذيل على الروضتين ص ١٩٥ - ابن خلكان: وفيات الأعيان ج ٣ ص ١٤٢ - اليونيني: ذيل مرآة الزمان ج ١ ص ٣٩ - ٤٣ - الذهبي: سير أعلام النبلاء ج ٢٣ ص ٢٩٦ - ابن العماد: شذرات الذهب ج ٥ ص ٢٦٦ - ٢٦٧.

وكانت مجالسه في جامع دمشق، ويذكر أن «مجالسه كانت من محاسن الدنيا ولذاتها، فكان الله قد جمع له حسن الصورة، وطيب الصوت، وظرافة الشمائل في الإيراد، والجوابات واللباس، وسائر الحركات، فكان يزدحم في مجلسه ما لا يحصى من الخلق رجالاً ونساءً، والنساء بمعزل عن الرجال في جامع دمشق، وجامع الجبل حضرت مجالسه في صغري وكبري في الموضوعين مراراً، وكان لا يفرق أحداً مجلسه إذا انفض إلا وشوقه مستمر إلى عودته في الأسبوع الآخر، فإنه كان يجلس كل سبت وتيسط السجادات والحصر في كل المواضع القريبة من المنبر ما بينه وبين القبة في يوم الجمعة، ويبيت الناس ليلة كل سبت حلقاً يقرؤون القرآن بالشموع، كل ذلك فرحاً بالمجلس، وعادة الدمشقيين التفرج في أيام السبت، ويبطلون عن انشغالهم بالمدينة وينقطعون في بساتينهم وكانوا لا يفوتون حضور المجلس»^(١).

يقول أبو المظفر أنه في السنة (٦٠٧ هـ / ١٢١٠ م) كان المعظم عيسى يفرز بنابلس «جلست بجامع دمشق، وكان الناس من باب المشهد الذي لزين العابدين إلى باب النطافين وإلى باب الساعات، وكان القيام في الصحن أكثر بحيث امتلأ جامع دمشق، وحضروا ثلاثين ألفاً، وكان يوماً لم يرب دمشق مثله، ولا غيرها، وكان قد اجتمع عندي شعور كثيرة فعملت من الشعور التي اجتمعت عندي شكلاً لخيال المجاهدين، وكرفسات ولما سعدت المنبر أمرت بإحضارها فحملت على أعناق الرجال، فكانت ثلاثمائة شكال، فلما رآها الناس صاحوا صيحة عظيمة، وقطعوا مثلها، وقامت القيامة، وكان المبارز المعتمد إبراهيم والي دمشق حاضراً، وجميع الأعيان، فلما نزلت من المنبر أخذ يطرق لي ويمشي بين يدي إلى باب النطافين، فتقدم إلى فرسي فأمسك بركابي وأركبني وخرجت من باب الفرج إلى المصلى وجميع من كان بالجامع بين يدي وسرنا من الغد إلى الكسوة، ومعنا خلق مثل التراب، وكان معنا من قرية واحدة يقال لها

(١) أبو شامة: الذيل على الروضتين ص ٩٤.

زملكا من قرى دمشق ثلاثمائة رجل، بالعدد والسلاح، ووصلت أخبارنا إلى عكا، وخرج المعظم فالتقانا وسرينا»^(١).

وعندما سلم الكامل القدس للفرنج سنة (٦٢٦ هـ / ١٢٢٨ م)، قامت القيامة في جميع بلاد الشام، واشتدت العظائم، بحيث أن أقيمت المآتم، وأشار الملك الناصر داوود على الواعظ سبط ابن الجوزي الجلوس بجامع دمشق وذكر ما جرى على بيت المقدس.

يقول أبو المظفر «فجلست بجامع دمشق، وحضر الناصر داوود على باب مشهد علي، وكان يوماً مشهوراً لم يتخلف من أهل دمشق أحد، وكان من جملة الكلام - انقطعت عن بيت المقدس وفود الزائرين يا وحشة المجاورين كم كان لهم في تلك الأماكن من ركعة، وكم جرت لهم على تلك الأماكن من دمة، تالله لو صارت عيونهم عيوناً لما وقت، ولو تقطعت قلوبهم أسفاً لما شفت، أحسن الله عزاء المؤمنين يا خجلة ملوك المسلمين لمثل هذه الحادثة تسكب العبرات لمثلها تنقطع القلوب من الزفرات، لمثلها تعظم الحسرات»^(٢). وبهذه الكلمات الوعظية استطاع الناصر داوود أن يستميل قلوب الناس ضد الملك الكامل الذي كان يطمع بدمشق، واستعان بالفرنجة في سبيل تحقيق أهدافه.

لم تحافظ مجالس الوعظ على مكانتها، فتراجعت مع الأيام حيث أصبحت هذه المجالس مجالس ملهاة، يقول ابن الأخوة «أما في زماننا، فإن الناس لا يجتمعون عند الواعظ لسماع موعظة ولا لفائدة، وإنما صار ذلك من نوع الفرح واللعب الاجتماع، ويجرى في المجلس أمور لا تليق في اجتماع الرجال والنساء، ورؤية بعضهم لبعض، وأشياء لا يليق ذكرها»^(٣).

(١) سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان ق ٢ ج ٨ ص ٥٤٥.

(٢) سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان ق ٢ ج ٨ ص ٦٥٤.

(٣) ابن الأخوة: المصدر المتقدم ص ٢٧١ - ٢٧٢.

مكانة المرأة ودورها الاجتماعي:

نالت المرأة حظاً وافراً في الحياة الاجتماعية، وشغلت دوراً كبيراً كام ومعلمة ومجاهدة، ولم تكن ذلك الإنسان المحتجب السلبي الذي لادورله في الحياة العامة، ولاعمل له إلا داخل جدران البيوت كما يخيل لبعضهم.

وللدلالة على ذلك نورد عبارة ابن عساكر^(١) التي يذكر فيها شيوخه فيقول بأن جملة شيوخه ألف وثلاثمائة شيخ ونيّف، وثمانون امرأة، بمعنى أن ربع شيوخه كانوا من النساء وهذه نسبة ممتازة بالنسبة إلى ذلك العصر وإذا أضفنا إلى ذلك أن كثيرات منهن نلن التقدير، أدركنا دور المرأة العلمي في هذا العصر ومن ذلك أن ابن عساكر لقب ملكة بنت داود بن محمد سعيد القرطكسي الصالحة الصوفية بالعاملة، وقد أجازت له جميع حديثها^(٢)

وكانت النساء العالمات اللواتي تصدرن للتدريس يلقين دروسهن، إما في المسجد الجامع، أو في البيوت، أو في أماكن مخصصة^(٣).

لقد كانت المرأة متفتحة وتصل إلى مرتبة العلماء في البيوت أو في المساجد فغالبية النساء اللاتي اشتهرن بالعلم والدين نشأن في بيوت علم ودين وكن يرتحلن في طلب العلم. ويحبسن الأوقاف على دور العلم، وبعضهن سابق الرجال في هذه المآثر^(٤).

ومنهن أم البهاء البغدادي فاطمة بنت محمد بن أحمد بن البغدادي وأم المجتبي العلوية وأم الحسين سيدة بنت عبدا لله بن حرحوم الماجدية، وأم الفتوح

(١) ابن عساكر: علي بن الحسن بن هبة الله: تهذيب تاريخ دمشق الكبير هذبه ورتبه الشيخ عبد القادر بدران المسيرة بيروت ١٩٧٩ ج ١ ص ٧

(٢) عاشور: المرجع نفسه ص ٢١٩

(٣) ابن عساكر: تاريخ مدينة دمشق دراسة وتحقيق علي شيري دار الفكر بيروت ج ٧٠ ص ١٢٧- ظاهر القاسمي: المرأة في تاريخ ابن عساكر ص ٦٢٥، عاشور المرجع نفسه ص ٢١٨.

(٤) ابن عساكر: المصدر نفسه: ج ٩ ص ٣٦٢- ٣٨٩ ج ٦ ص ١٨١- ١٨٠- ٢٢١- ج ٤٤ ص ٢٥٦- ج ٧ ص ٣٤ - القاسمي: المرجع نفسه ص ٦٢٧.

فاطمة بنت محمد بن عبد الله بن الحسن القيسية، وأم الكرام ضوء بنت حمد بن محمد الطويل. وفاطمة بنت علي بن أحمد بن منصور بن قيس الفساني سمعت إياها من الفقيه أبا الحسن المالكي، وسمع منها بعض أصحابنا، كانت امرأة متدينة حجت هي وأختها، ولم يتزوجا، ووقفا وقفاً على إمام محراب جامع دمشق، وعلى الفقهاء المالكية المشتغلين بالفقه في جامع دمشق، توفيت سنة (٥٦٧ هـ/١١٧٤ م) ودفنت بمقبرة باب الصغير.

ويقول سبط ابن الجوزي في كتابه «مرآة الزمان»^(١) أن عصمت الدين صاحبة الفضل في بناء مدرسة بدمشق معروفة باسمها، على نهر بانياس، وكان من النساء كثير من المتبحرات في العلم والدين، ومن هؤلاء شهيرة بنت أبي نصر أحمد بن الفرج بن عمر الأبي الدينوري، ويقال لها فخر النساء، إذا كانت عابدة صالحة، وكانت تحفظ كثيراً من الأحاديث حتى صارت حجة في الحديث كتبت الخط الحسن^(٢). ومن النساء العالمات (ست الكتبة) نعمة بنت علي بن يحيى بن محمد بن الطراح، حيث عدها سبط ابن الجوزي من مشايخه ويقول: سمعت عليها الحديث بدمشق سنة (٦٠٠ هـ، /١٢٠٢ م) وكانت صالحة عابدة زاهدة، روت شمائل النبي ﷺ للترمذي عن أبي شجاع عمر بن أبي الحسن البسطامي، وعن جدها أبي محمد يحيى بن محمد بن الطراح. وغيرهم ت (٦٠٤ هـ/١٢٠٧ م)^(٣).

ويذكر أن العاملة المعروفة بدهن اللوز، كانت شيخة العالمات بدمشق وكانت وفاتها سنة (٦١٤ هـ/١٢١٧ م)^(٤) وفي كتب التاريخ أسماء عدة لشخصيات نسائية، كان لها القدح المعلن في العلم والجهاد في هذه الحقبة الخصبة في تاريخ المشرق العربي.

(١) سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان ج ٨ قسم ١ ص ٢٨٥.

(٢) ابن عساكر: المصدر نفسه ج ٧ ص ٨٥. سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان ق ٢ ج ٨ ص ٢٣٩.

(٣) سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان ج ٨ ص ٢٨٥.

(٤) أبو شامة: ذيل الروضتين ص ٢٠٨ (الموسوعة الشامية ج ٢٠).

ويمكن القول أن عصر صلاح الدين قد أفسح للمرأة ميدان الكفاح وجعلها تشترك في غمار الحياة العامة، ومن ذلك أن السيدة عصمت الدين خاتون أرملة السلطان نور الدين وزوج صلاح الدين، كان لها الفضل في توجيهه وإرشاده، حتى أننا يمكن أن نقول: أنها هي التي عناها المثل القائل: «وراء كل عظيم امرأة» ويقول النويري^(١) في كتابه: «نهاية الأرب» أن ست الشام بنت أيوب وأخت صلاح الدين صنعت الأشرية والأدوية والمعاجين والعقاقير في كل سنة بألوف الدنانير وفرقتها على الجرحى والمرضى من المدنيين والعسكريين، كما أن المثل الأعلى الذي ضربه صلاح الدين في البطولة والتضحية، دفع النساء إلى الصبر والتجلد عند نزول البلاء.

ويقال أن عجوزاً من جواري الأمير أبي الحسن علي، جد أسامة بن منقذ، وتسمى «فنون» أخذت سيفاً وخرجت إلى القتال تضرب بالسيف^(٢). كما أن والدته أسامة بن منقذ قالت لأخت لها كبيرة السن: «أبس خفك وإزارك واخرجي إلى المعركة» فحملت السلاح وخرجت إلى القتال، فلما عاد أسامة يطلب سلاحه فلم يجد إلا جهازيات السيوف، وكسب الكذا غنديات وعندما سأل أمه عن سلاحه قالت له: «يا بني أعطيت السلاح لمن يقاتل عنا، وما ظننتك سالمًا. قال: «فأختي أي شيء تعمل هاهنا» قالت: «يا بني أجلستها على الروشن، وجلست برأ منها فأراها قد ماتت في الوادي ولا أراها مع الفلاحين والحلاجين مأسورة». فدهش سامة من بطولة الأم ونخوة الأخت التي هي أشد من نخوات الرجال^(٣). كما أن نساء دمشق قطعن شعورهن وأرسلهن إلى الواعظ سبط ابن الجوزي ليعمل منها شكالات لخيول المجاهدين الذين كانوا مع المعظم عندما كان يحارب الفرنجة في نابلس سنة (٦٠٧هـ / ١٢١٠م)^(٤)، وكانت هذه الشعور سبباً

(١) النويري: نهاية الأدب ج ٢٩ ص ٩٧ - مرآة الزمان: ج ٨ قسم ٢ ص ٦٠٦.

(٢) أسامة بن منقذ: الاعتبار ص ١٤٦ - ١٤٧.

(٣) ابن منقذ: المصدر السالف ص ١٤٥.

(٤) سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان ق ٢ ج ٨ ص ٥٤٥.

من الأسباب التي دفعت بالناس للخروج مع الواعظ سبط ابن الجوزي، بعد خطبته في جامع دمشق لمساندة المعظم في قتاله ضد الفرنجة.

ومما يروى عن شجاعة المرأة العربية، وعدم خوفها من ملاقات الرجال، أن امرأة من أهالي دمشق فقدت ابنها، وعندما عجز والي دمشق من انتزاع اعتراف قاتله بقتله، استطاعت هذه المرأة أن تنتزع منه الاعتراف بقتل الطفل، حيث أنها طلقت زوجها، وتزوجت من ذلك الرجل، وبعد مضي فترة من الزمن على زواجها منه اعترف بقتله للطفل، وطلبت منه أن يدلها على مكانه وعندما تأكدت من طفلها قامت بقتل ذلك الرجل، وسلمت نفسها للمعتد المبارز الذي قال لها: «أحسنت والله ينبغي لنا كلنا أن نشرب لك فتوة»^(١).

ومع كل هذا فإن المرأة لم تكن تخرج في الأسواق متبرجة، وكان خروجها على العموم لحاجة ما فقد وصف ابن جبير النساء بالتحشم، عندما زار دمشق^(٢). ولم تكن المرأة العربية تحرص في زواجها على قواعد ملزمة كتلك التي كانت تحرص عليها المرأة الفرنجية في العصور الوسطى، إذ فرض الإقطاع على المرأة نظاماً خاصاً، وكان الزواج عند الفرنج لضرورة حربية أو سياسية أكثر منها اجتماعية، فكان ابن أمير الإقطاع يتزوج من بنت أمير الإقطاع الآخر حتى تتضمن الأراضان، وتوسع الأملاك، وتمتد الحدود.

هذا وقد تفسى الطلاق بين الأسر الفرنجية بشكل ملموس في ذلك الوقت، على الرغم من أن الكنيسة تحرّم الطلاق.

وكانت المرأة العربية لا تجد غضاضة في الاكتساب بكدها، ويروى أن زمرد خاتون وهي إحدى الأميرات تزوجت أتابك زنكي، فلما قتل حجّت، وجاورت بالمدينة فدارت عليها الأيام، وأدركها الفقر والإملاق، فكانت تفربل

(١) سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان ق ٢ ج ٨ ص ٦٤٠.

(٢) ابن جبير: الرحلة ص ٤٠.

القمح والشعير وتطحن، وتتقوت بأجرتها، ومع هذا كانت كثيرة البر، والصدقة، والصلاة، والصوم^(١).

الأحداث ودورهم الاجتماعي:

في ظل الفراغ السياسي الذي ظهر في بلاد الشام وخاصة في دمشق قبل دخول الفاطميين إليها سنة ٣٥٨هـ/٩٦٩م، وصراعهم مع القرامطة على دمشق، وجدت قوة ثالثة داخلية أرادت أن يكون لها رأيها في مصيرها وكشرت عن قواها الذاتية الشعبية من سياسية وعسكرية لتحقيق ذلك الرأي^(٢). وزاد في إصرار دمشق على انتهاز الفرصة في تقرير مصيرها، ما لقيت منذ اللقاءات الأولى مع الجند الفاطمي من قسوة وسوء سيرة، وهكذا، «كان أهل دمشق يابون المغاربة (الفاطميين) لأن أهل دمشق أمويون، ولقبح سيرة الناظرين الذين كانوا منهم»^(٣).

في هذا الجو نمت وتكاثرت في العدد، واشتدت قوى محلية شعبية، هذه القوى التي سميت «بالأحداث» أرادت أن تعبر بشكل أو بآخر عن رفضها للقوى الخارجية الطامعة وعن إرادتها الذاتية في إقامة حكم محلي شعبي، بلغ أحياناً حد الحكم الطبقي البروليتاري مما دعا البرجوازية المحلية للانفصال عنها والتآمر عليها في الغالب مع القوى الخارجية نفسها وكانت الرئاسة في هذه الجماعات «الأحداث» كما هو الحال في كل تحرك شعبي، لأكثر المتطوعين فيها حماسة وشجاعة وسيطرة ديماغوجية على الآخرين، وقد أخذ هؤلاء لأنفسهم أو أعطاهم الناس ألقاب: رأس، رئيس، نقيب، مقدم، قائد، دون

(١) الرمادي: صلاح الدين الأيوبي ص ٨٩.

(٢) شاكر مصطفى: الحركات الشعبية وزعمائها في دمشق ص ١٧٥ - كلود كاهن: الحركات الشعبية والاستقلال الذاتي في المدن الإسلامية خلال العصور الوسطى ص ١١٧.

(٣) ابن القلانسي: ذيل تاريخ دمشق - طبعة أمد روز - بيروت ١٩٠٨ ص ١٦.

تحديد دقيق بالطبع لمحتوى هذه الكلمات عسكرياً، ودون أن تعنى أكثر من تقدير عدد الأتباع^(١).

لكن دور هذه القوى بآء بالفشل على أيدي الفاطميين الذين سيطروا على دمشق، وخلال فترة حكمهم استطاعت القوى البرجوازية المحلية أن تحتوى القوى الشعبية، وتجعلها تابعة لها وأداة من أدواتها. فإذا أهل العصر السلجوقي، بعد الفاطمي وجدنا «الأحداث» قوة محلية هامة في أسوار وأسواق دمشق. وكانت هذه القوى ملتحمة الرأي، وتابعة لبعض الأسر البرجوازية التي أخذت تتوارث رئاسة «الأحداث» التي توحدت بدورها مع لقب «رئاسة البلد» مثل آل الصوفي، وآل القلانسي في دمشق، ويظهر أن الحكم السلجوقي إنما أبقى عليها، لأن الطبقات البرجوازية في الشام قبلته وتحالفت معه، فصارت منظمة الأحداث في هذه المنطقة بعضاً من قوى السلاجقة^(٢).

وعلى أثر ذلك لم يبق «للأحداث» التابعون للبرجوازية أي دور سياسي خلال العهد السلجوقي، أي لم يعودوا يقومون بحركات «شعبية» ولكن قاموا بأدوار دفاعية ضد القوى المجاورة أو الغربية. وإذا شاركوا أو قاموا بحركات شعبية، فإنما كان ذلك تحت زعامة «الرؤساء» من البرجوازية الكبار، وضمن مخططات وفي إطار وأطماع ومصالح هؤلاء الكبار. وقد جاء عهد نور الدين ثم عهد صلاح الدين من بعده فاختلفت تلك المؤسسات الشعبية المسلحة لعدم الحاجة إليها، ولتطور المجتمع والقوى الإسلامية في المنطقة نحو أوضاع وظروف جديدة كل الجدة بدخول الفرنجة فيها، وغياب الفاطميين والعباسيين، وهكذا اختلفت منظمة الأحداث، واختلفت «الرئاسة» رئاسة البلد، وإن ظلت ذكريات هذا

(١) شاكر مصطفى: المرجع السالف ص ١٨٠ - كاهن: المرجع نفسه ص ١٢٢.

(٢) شاكر مصطفى: المرجع السالف ص ١٧٥ - كاهن: المرجع السالف ص ١١٩ - ١٢٠ - ١٥٥.

التنظيم الشعبي وبعض مصطلحاته وأفكاره وتقاليده قائمة في الضمير الشعبي الشامي وفي شباب «الأحياء»^(١).

ولدى دراسة نشاط «أحداث» دمشق يلاحظ أن منطقة باب الصغير كانت مركز نشاطهم الأعظم، وذلك خلال العصر الفاطمي^(٢).

ومنطقة باب الصغير كانت آنذاك تعدّ من أطراف دمشق وأحيائها النائية الوثيقة الصلة بالفوطة، وبالنسبة للذعر يلاحظ أن منطقة ميدان الحصى كانت مركز نشاطهم الأكبر وهذه امتداد لمنطقة باب الصغير نحو الجنوب، كما وأتت المصادر على الحديث عن زعر نشطوا في منطقة الشاغور وهي مرتبطة بمنطقة باب الصغير من الجهة المقابلة لميدان الحصى، ومحصلة هذا الكلام أن الزعر هم امتداد للأحداث بالاسم، وفي موقع النشاط، فالزعر نشطوا في أحياء دمشق النائية وهي المناطق الأكثر فقراً في المدينة والأشد صلة بالأرياف والأولى في استقبال المهاجرين القرويين إلى المدينة^(٣).

لقد تناول بعض الباحثين من العرب وغيرهم نشاط الزعر في أحداث الشام، وتمحورت دراساتهم حول زعر دمشق بسبب توفر المادة الإخبارية عنهم لدى المؤرخين الدمشقيين وعلى الأخص لدى ابن طولون الصالحي الذي لم يكتف بالحديث عن نشاط الزعر في كتبه التاريخية الكبيرة، بل ذكر أنه صنّف مصنفاً صغيراً عن الذعر^(٤). والحديث عن الزعر يمثل موقف سكان الأحياء من سواد الشعب من تجاوزات السلطة وأعوانها، وعلى الأخص في الجوانب المالية والاقتصادية والسلوكيات العامة، وأقدم الإشارات إلى الزعر تعود إلى القرن التاسع للهجرة الخامس عشر للميلاد، لكن يفترض أنهم وجدوا قبل ذلك بزمن

(١) شاكر مصطفى: المرجع السالف ص ١٧٦ - كاهن: المرجع السالف ص ١٢٢ - ١٣٠ - ١٣١.

(٢) د. سهيل زكار: مدخل إلى تاريخ الحروب الصليبية ص ٨٢ - ٨٩. شاكر مصطفى: المرجع السالف ص ١٩٢ - ١٩٤.

(٣) إبراهيم زعرور: المرجع السابق ص ١١٩.

(٤) ابن طولون: قضاة دمشق ص ١٨١ - ١٨٢.

طويل، والمعنى اللغوي لكلمة زعر حسبما جاء في لسان العرب «الزعران» هم «الأحداث» والأحداث كما أوردنا اسم حملته الميلشيات الشعبية لمدن الشام في عصور مبكرة من العصر العباسي، والمعنى اللغوي يقودنا إلى افتراض أنه مع العصر الأيوبي اضمحل شأن الأحداث على الأخص نتيجة لنشاط الخليفة الناصر لدين الله العباسي الذي بنى عقيدة الفتوة وسعى إلى نشرها، وراسل ملوك الإسلام طالباً منهم الانتساب إلى الفتوة والسعي للالتزام بمبادئها^(١).

لقد كان الزعر يتكونون من العناصر الشابة في كل حي من الأحياء لهم رأيهم الخاص حيث كانوا يلقون على أكتافهم رداءً أو ما يشبه ذلك كشعار مميز لهم كما كانوا يقصون شعور رؤوسهم بما عرف آنذاك باسم قرعاني، وحمل الزعر الخناجر، فالخناجر كانت سلاحهم الرئيسي لكنهم استخدموا السيوف في بعض الحالات^(٢).

لقد كان لكل حارة زعرها وتزعم هؤلاء الزعر، زعيم واحد أو أكثر في الحي نفسه، ويدعوه ابن طولون باسم أزعر^(٣).

هذا وقد جاء معظم زعماء الزعر من بين أوساط العامة وهذا ما توجي به أسماء الذين أتت على ذكرهم المصادر، فكبير زعر الشاغور كان اسمه ابن الطباخ، وكان كبير زعر الصالحية اسمه ابن الجاموس، وكان أحد زعماء الزعر اسمه محمد النجار، فهؤلاء وغيرهم انتموا إلى العامة^(٤).

لم يكن الزعر التنظيم الشعبي الوحيد في الأحياء، لقد عرفت الأحياء تنظيمات أخرى حمل اسم الحرافيش، والحرفشة في اللغة هي النهوض إلى الشر^(٥).

(١) ابن المعمار: المصدر السالف ص ١٤٨ - محمد فهمي عبد اللطيف: الفتوة الإسلامية - القاهرة ص ٢٥.

(٢) ابن طولون: مفاكحة الخلان ص ١٨٢ - ١٩٠.

(٣) ابن طولون: المصدر نفسه ص ١١٦ - ١٥٣ - ١٧٧ - ٢١٢ - ٢٢٠.

(٤) ابن طولون: المصدر السالف ج ١ ص ٢٧ - ١٨٠.

(٥) لسان العرب: مادة حرافشة. النجار (محمد رجب): حكاية الشطار والعيارين في التراث العربي سلسلة عالم المعرفة، العدد ٤٥ ط الكويت ١٩٨١ ص ١٨٨.

لقد اختلفت الزعر عن الحرافيش وتباينت أدوارهم، فالزعر كان واجبهم الأول الدفاع عن سواد الشعب ضد تجاوزات السلطة وصد المعتدين، لكن الحرافيش لم يقوموا بهذه المهمة مع أنهم استخدموا وسائل العنف واتخذوا أزياء خاصة بهم، ويرجح أن الحرافيش ارتبطوا بالتنظيمات الصوفية فقد سيطر التصوف على الحياة العامة في العصر الأيوبي، وباتت كل طريقة تمتلك زاوية أو خانقاه خاص بها، وهذه المراكز كانت ذات موارد مالية جيدة، وكانت موارد الزوايا تتفق على إطعام وإيواء المتصوفة. لقد امتاز العصر الأيوبي بعدم الاستقرار الداخلي واستمرار الحروب والاضطرابات، وحملات الجيوش الغازية، ومظالم رجال الإقطاع وهذا ما دفع أعداداً كبيرة جداً من سكان الأرياف على الهجرة إلى المدن، وغالباً ما كان المهاجرين من العناصر الشابة القوية البنية والشديدة المراس، وعندما جاء هؤلاء بشكل متواصل إلى المدن، شكلوا طبقة اجتماعية غير منضبطة، وياتوا عاطلين عن العمل، لذلك اضطروا في كل حي من الأحياء، تابعين للطريقة الصوفية المسيطرة ينفذون أوامر شيخ الزاوية الصوفية، ويلتزمون بما يفيد الطريقة، ويخدم مصالحها وعلى هذا فالحرافيش هم غوغاء الصوفية^(١). ويبدو أن الدفاع عن مصالح الصوفية قاد إلى تسليح الحرافيش، وأعار الصوفية مع الأيام الحرافيش الفكر التنظيمي حيث انتظم حرافيش كل حي من الأحياء على حده^(٢).

لقد كان ظهور هذه الجماعات الشعبية العسكرية في بادئ الأمر مؤقتاً، ثم أصبحت مستمرة فيما بعد وشكلت نوعاً من الحرس الشعبي المحلي على نطاق المدينة وربضها فقط، له مهمة مزدوجة في أيام الأزمات، وتأتي في مقدمة المهمات - ضمان الأمن الداخلي وحفظه كقوة إضافية مع الشرطة العادية، أو عند غياب

(١) ابن طولون: (مفاكهة) المصدر نفسه ج ١ ص ١٥ - ١١٥ - ٢٠٧ - ٢١١ - البدر العيني: المصدر السالف ص ٣٨٩ - النجار: المرجع السالف ص ١٨٣ - ١٨٧.

(٢) إبراهيم زعرور: المرجع السالف ص ١٢٤.

قوتها . الدفاع مع الجند الفاطمي، أو بدونه أحياناً، عن المدينة، وبجانب حاكمها الفعلي أو ضده، وإذا كنا لا نعرف في أي مدينة كان نشوء أول جماعة شعبية عسكرية من هذا النوع فإن من الطبيعي أن يكون تشابه المحن والآلام، قد جعل مدن الشام تسرع في تقليد بعضها بعضاً في تشكيل هذه الجماعة، ولعل المدن الشامية أرادت عامدة أن تميز جماعتها الشعبية العسكرية عن جماعة «الفتيان» سواءً بالمعنى التقليدي للكلمة التي تمنحها للشباب العابث، الفاتك، غير المسؤول أو بالمعنى العراقي الذي ربطها بالعبارة والتشرد وبالغوغاء السفلة. فاشتق اسم «الأحداث» من المعنى المقارن لمعنى الفتوة، وذلك كي يعني الأمرين معاً، حداثة العمر، وحداثة الخبرة بحمل السلاح واستعماله أيضاً^(١).

ولا بد من التمييز بين الفتوة التي تتصل بالعيارين والشطار التي تطورت إلى منظمة عسكرية دينية في القرن السادس، وكان على رأسها الخليفة الناصر كما لبس خرقها صلاح الدين الأيوبي، وبين الفتوة الأولى التي تروى عن بعض «الفتيان» اللاهين وتسمى أحوالها بالتفتي في القرنين الأول والثاني، وحتى الثالث الهجري، وهؤلاء هم أهل العبث واللهو والشراب في تلك الفترات^(٢)، وهكذا نرى أن موارث الأحداث التي ظهرت بدمشق قد خرجت بتجربة الفتوة المطورة في العراق التي ظهرت في عصر الخليفة الناصر، والتي كان بينهما، وبين التصوف صلة وثيقة تجلت بشكل واضح في خصال الخير التي امتازت بها الفتوة، وهذه الخصال جزء من طبيعة التصوف، فالتصوف قد احتوى الفتوة، واتخذها طريقاً من طرقه لكي يصل بها إلى غايته البعيدة، والفتوة الإسلامية طريقها طريق خير عميم، فتعنى شمائل كثيرة فهي أيضاً كالتصوف، تدعو إلى الشجاعة

(١) شاكر مصطفى: المرجع السالف ص ١٧٧ - ١٨٠.

(٢) شاكر مصطفى: المرجع نفسه ص ١٨٠. كاهن: المرجع السالف ص ١٢٢.

والوفاء والكرم والحلم، وحماية الضعيف، وإغاثة الملهوف والتواضع^(١). وتأثرت دمشق الأيوبية بتجربة الفتوة التي تطورت في عهد الخليفة الناصر، والذي عمل على نشرها في كافة المناطق التي تقع تحت السيادة العباسية، حيث قام الخليفة الناصر في سنة (٥٩٩هـ/١٢٠٢م)، بإرسال الخلع، وسراويلات الفتوة إلى السلطان العادل وأولاده، فلبسوها في شهر رمضان في نفس العام^(٢). وعلى هذا عمل الأفراد على تقليد سلاطينهم وعمت الفتوة الأوساط الشعبية بدمشق. من هنا يمكن القول: أن التوسع الاجتماعي الذي حصل لتجمعات الفتيان يعود إلى بعض الأفراد أو الأوساط الاجتماعية التي انجذبت إلى الفتوة، لأنهم وجدوا فيها عنصر إجابة على أسئلة خاصة ذاتية لا تتطابق بالضرورة مع اهتمامات كل الفتيان، كان من المحتم إجمالاً أن يحدث تلاقٍ بين حركة ارتقاء أخلاقي للفتوة ضمن النخبة من الفتيان من جهة، وبين حركة استيعاب للفتوة ضمن المثال الأسمى للأوساط الخارجية منذ البداية عن الفتيان من جهة ثانية، وأهم هذه الأوساط هو وسط الصوفيين أو بعض أوساط الصوفيين، حيث أن الصوفية الفردية أخذت تتحول إلى صوفية تجمعات أو على الأقل إلى صوفية حياة جماعية^(٣).

والاتصالات بين كثير من الصوفيين والطبقات الشعبية جعلتها مفتوحة على تجارب بعضها بعضاً وأصبح من المفهوم أن يستطيع صوفيون أن يجدوا في التضامن المادي والأدبي بين الفتيان مبدأ تنظيم، كما يجدوا بالوقت ذاته جماعة مثالية لطوائف الناشئة. وأن يمكن استخدام الفتوة كموضوع لتأمل المتصوفين من جهة أخرى في هذه الحقبة من الاضطراب الديني، شعر الفتيان

(١) إبراهيم محمد حسن الجمل: الفتوة في الإسلام ص ٢٦ - ٢٧.

(٢) أبو شامة: ذيل الروضتين ص ٦١ (الموسوعة الشامية ج ٢) سبط ابن الجوزي: المصدر السالف ج ٨ ص ٢٥٧

(٣) كاهن: المرجع السالف ص ١٧٤.

بالحاجة إلى دمج فتوتهم ذات النجاح الناقص على الصعيد الاجتماعي، ضمن سلوك مؤمن واع، وإلى حد ما من أجل التقرب إلى الله^(١).

ويمكن أن نستنتج وجود استمرارية لتنظيم الفتوة حتى في القرن السابع الهجري من خلال ما أورده ابن الجوزي حيث ذكر أنه في سنة ٦٢٣هـ كان في دمشق رجل فاتك وإلى جانب بيته قوم لهم ولد صغير في آذانه حلق من ذهب، فأغتاله الرجل يوماً فخنقه وأخذ الحلق من أذنه، وأخرجه في قفة ودفنه في باب الصغير. وفقدته أمه فاتهمت الرجل به فعذبه المبارز (رئيس شرطة دمشق) عذاباً أليماً، فلم يقر وأطلق، وفي قلب المرأة النار على ولدها، فطلقت زوجها وتزوجت الرجل القاتل وأقامت معه مدة، فقالت له يوماً وهي تداعبه: قد مضى الابن وأبوه كان منهما ما كان - وكان الزوج قد مات - أنت قتلت الصغير؟ فقال: نعم. وأخذته ودفنته في الباب الصغير، فقالت: قم فأرني قبره، فأخذها وخرج بها إلى المقابر، وحضر القبر فرأت ولدها، فلم تتمالك، وضربت القاتل بسكين أعدتها له فشقت بطنه، ودفنته فألقته في القبر، وجاءت إلى المبارز فحككت له الحكاية، فقام وخرج معها إلى القبر فكشفت له. فقال: أحسنت والله ينبغي لنا كلنا أن نشرب كل فتوة^(٢).

وأشار التركماني إلى فئة من الفتيان نشطت في بلاد الشام، وحملت اسم (المرازقة) وأعلنت هذه الفئة عن تمسكها بمذهب الإمام الشافعي، وأباحت لأفرادها الإقدام على استخدام العنف، وقيل: إنهم عرفوا باسم المرازقة نسبة إلى شيخ اسمه (مرزوق) وكانوا يتزينون بملابس خاصة ويبتعدون عن استخدام اللون

(١) كاهن: المرجع نفسه ص ١٧٥.

(٢) أبو شامة: الذيل على الروضتين ص ٢٨٩ - ٢٩٠ (الموسوعة الشامية: ج ٢٠). سبط ابن الجوزي: المصدر

السالف ج ٨ ص ٢٥٧.

سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان ص ٥٤٥.

الأزرق، وخاضوا بمسائل تعلقت بالكفر والإيمان والقضاء والقدر، لذلك كانت لهم تأثيراتهم في أوساط غير المسلمين من مسيحيين ويهود^(١).

كما أشار إلى فئة أخرى حملت اسم القرنديلية، وهي طائفة أقدم أفرادها على حلق ذقونهم وحواجبهم وثقبوا أحاليهم واتهمهم التركماني بالتشبه بالفرنجة، وهذه التهمة تثير مسألة التأثيرات المتبادلة بين التنظيمات شبه العسكرية لدى المسلمين، بالأخوانيات الرهبانية العسكرية لدى الفرنجة^(٢).

أوضاع الفلاحين والبدو ودورهم الاجتماعي:

لقد خضع الفلاحون لقوانين في التعامل الزراعي. منهم لم يكونوا ملاكاً للأرض ومنهم المقطعون، ومع هذا كانوا يديرون الأرض لحساب رجال الإقطاع والأوقاف والملاك، وقامت القوانين على عدة قواعد: هي قاعدة المقاسمة أو المثلثة أو المربعة أو المخامسة، أو السادسة أو السابعة، أو الثامنة، وغالباً ما اعتمدت قاعدة المقاسمة في الأراضي المروية، وسادت المربعة في غالبية الأراضي البعل التي كانت تزرع بالحبوب، واستخدمت قواعد المخامسة حتى الثامنة في الأراضي التي وقعت على الأطراف وكانت عرضة لأخطار العدو، والمعنى لهذا كاله أنه في قاعدة المقاسمة كان الإقطاعي يأخذ الثلث وفي المربعة الربع وهكذا^(٣).

ويوحى هذا أن الفلاح كان في وضع جيد، إنما هناك فارق بين القاعدة والتطبيق، وفي التطبيق للفلاح نصيب من مجمل الإنتاج لا يتجاوز العشرة بالمئة لا بل في كثير من الأحيان كان لا يحصل على شيء البتة، فبعدما يأخذ الإقطاعي حصته، كان وكلاء الديوان يقومون بأخذ كمية مقابل الضرائب

(١) التركماني (إدريس بن بيدكين): اللمع في الحوادث والبدع ط القاهرة ١٩٨٦ ج ١ ص ١٩١ - ١٩٢.
ابن طولون: قضاة دمشق ص ٢٤٤.

(٢) التركماني: المصدر السالف ج ١ ص ١٢٥ - ١٣٣.

زعرور: الحياة الاجتماعية في بلاد الشام في العصر الأيوبي والملوكي ص ١١٨.

(٣) النويري: المصدر السالف ج ٨ ص ٢٥٧.

المفروضة ، وبعد هذا يقتطع هذا من حصة الفلاح أيضاً ما عليه من ديون وأثمان البذار وثمان الحيوانات، وما ترتب عليه من فوائد ربوية شديدة، وفي آخر المطاف كان عليه أن يدفع عشر ما بقي له حسبما فرضته الشريعة لذلك كان الفلاح معرضاً لظلم شديد^(١).

لقد كان على الفلاح حراثة الأرض منذ مطلع الخريف خاصة بعد نزول بعض الأمطار الخفيفة، كما توجب عليه إعداد أو شراء أدوات الفلاحة من محراث وغيره، وحيوانات للفلاحة وكان هو الذي يقوم بالبذار وحماية الحقول والأراضي المزروعة حتى لا يتطرق إليها إنسان أو حيوان، وفي كثير من الأحيان دفع الفلاحون حياتهم مقابل حراسة حقولهم، فكان هذا الفلاح المسكين الأعزل يواجه غارات البداة وغارات الجيوش الغازية، وإذا كان يسكن في الأطراف يتحمل أعباء التدمير المتعمدة من قبل الصليبيين وغيرهم، كما أن الأراضي المزروعة غالباً ما كانت مسرحاً للعمليات الحربية وإن نجت من هذه العمليات لم تتج من حملات الصيد في مطلع الربيع وبداية الصيف، فإذا ما سلمت الأرض وسلم له الحقل يبدأ بالحصاد ثم (بالرجاد) أي نقل المحاصيل إلى البيادر، وكان يتولى الفلاح درسها في البيادر، ثم التدريية وأعمال التنظيف، لقد كان الفلاح يعمل هو وزوجه وأولاده صفاراً وكباراً في هذا العمل المضني، وكثيراً ما تعرض للابتزاز وسلب ما لديه من مؤن أو أمتعة، كما اقترفوا بحق أسرته المويقات^(٢) لهذه الأسباب التي ذكرت. كان الفلاح ينتهز فرصته للفرار من القرية والنزوح إلى المدينة أو إلى منطقة ما، وكانت أعمال النزوح تشتد لدى

(١) النويري: المصدر نفسه ج ٨ ص ٢٥٧ . ٢٦٠ . التاج السبكي: معيد ومبيد النقم ط بيروت دار الحداثة ص ١٢٧.

(٢) السبكي: المصدر السالف ص ٣٤.

احتباس الأمطار، وتدهور المواسم ويجد الفرصة مواتية للنزوح أيضاً أثناء اجتياح البلاد من قبل الجيوش الغازية^(١).

ولجأت السلطات إلى إرغام الفلاحين الفارين من أراضيهم للعودة إليها حيث ذكر السبكي: «وقد جرت عادة الشام بأن من نزح من دون ثلاث سنين يلزم ويعاد إلى القرية قهراً. ويلزم بشد الفلاحة، والحال في غير الشام أشد منه فيها، وكل ذلك لا يحل اعتماده والبلاد تعمر بدون ذلك بل إنما تخرب بذلك، لأنهم يضيقون على الناس فيضيق الله عليهم، ومن قبائح أصحاب ديوان الجيش أنهم إذا اعتمدوا شيئاً ما جرت بهم عوائدهم القبيحة، يقولون هذا شرع الديوان والديون لا شرع له، بل الشرع لله وللرسول صلى الله عليه وسلم، فهذا الكلام ينتهي إلى الكفر»^(٢).

لقد شهدت بلاد الشام نوعاً جديداً من أنواع استصلاح الأراضي من قبل الفلاحين، وهو أن يقوم بعض الفلاحين بزراعة قطعة من الأراضي يضمونها ضمناً مقابل مبلغ محدود، كما أن بعضها أدير بعد تحريرها من الصليبيين حسب قواعد الإقطاع الأوربي وهو الذي حمل عند العرب اسم «الفصل» والفصل تعريب لكلمة *vassl*، ومعنى الكلمة في النظام والإقطاع الأوربي التابع أو الفلاح المستعبد^(٣).

كانت الدولة في العصر الأيوبي بحاجة دائمة للمال وذلك بسبب الالتزامات العسكرية ولهذا لجأت إلى فرض أنواع كثيرة من الضرائب، وأبدعت نظاماً إدارياً على غاية من الدقة في سبيل تحصيل الضرائب لعدم إضافة أي مورد من الموارد، وكان الفلاح هو الدافع الأكبر للضرائب بشكل مباشر أو غير

(١) أبو شامة الذيل على الروضتين ص ٣٠٠. ٣٠١. ٣٢٢. ٣١٧، د. إبراهيم زعرور: المرجع السابق ص ٢٠٣.

(٢) التاج السبكي: المصدر السالف ص ٣٤.

(٣) النويري: المصدر نفسه ج ٨ ص ٢٦٠ - ٢٦١.

مباشر، وعلى جهود الفلاحين استطاع النظام الأيوبي من الاستمرار وتأمين الأعطيات ومختلف النفقات للجند^(١).

وعلى هذا نستطيع القول أن الفلاح في بلاد الشام كان يعاني كما رأينا إلى أبعد الحدود من رجال الإقطاع وأهل الديوان ومختلف رجالات السلطة وكذلك دفع ثمن المخاطر الخارجية التي نجمت عن الأعمال العسكرية الصليبية، فقد كان بإمكان الدولة تأمين الموارد لتغطية النفقات الحربية. أما الفلاح الذي أتلفت محاصيله، فكان في كثير من الأحيان تتلف نفسه، وأهله، فغالباً ما دمرت الأعمال العسكرية مناطق برمتها، وأرغمت الناجين من الفلاحين على النزوح فراراً بأرواحهم، لا يملكون من متاع الدنيا شيئاً، كما دفع الفلاحون ثمن الاضطرابات الداخلية والصراع على السلطة بين أفراد البيت الأيوبي.

- البدو: شغلت القبائل العربية دوراً عظيماً جداً في تاريخ بلاد الشام، كانت بلاد الشام منذ فجر التاريخ تتلقى موجات المهاجرين من القبائل العربية الصادرة عن شبه الجزيرة العربية، وتعددت مناحي الهجرة من شبه الجزيرة وتنوعت، فقد وصل المهاجرون إما من أطراف شبه الجزيرة إلى الأجزاء الجنوبية من بلاد الشام، أو هاجروا أولاً إلى حوض الفرات فاتجهوا شمالاً، ومن ثم انعطفوا غرباً نحو الأجزاء الشمالية من بلاد الشام، وكانت كلما وصلت إلى بلاد الشام موجة من المهاجرين تضغط على القبائل الموجودة في البلاد من قبل، وترغمها على الاندماج في الحياة الريفية. والريف بدوره كان يرسل المهاجرين إلى المدن، وهكذا انحدر سكان بلاد الشام بفالبيتهم المطلقة من القبائل العربية^(٢).

(١) التويري: المصدر نفسه ج ٨ ص ٢٥٣ - ٢٩٨.

(٢) ابن حوقل: صورة الأرض. ص ٢٠٩ - ٢١٢ - ٢٢٨.

- ابن القلانسي: المصدر السالف ص ٣٣٦ - ٣٦٩.

- د. إبراهيم زعرور: المرجع السالف ص ٢١٩.

لقد اتضح دور القبائل العربية في بلاد الشام، وعظم عن ذي قبل إثر قيام الفتوحات العربية في القرن السابع للميلاد، وفي العصر الأموي كانت كلمة القبائل العربية هي الفصل في معظم القضايا وكانت قبيلة كلب أبرز القبائل في الجنوب وكراب في الشمال، وظل الحال هكذا حتى انقضاء حقبة طويلة من العصر العباسي ففي القرن الثالث للهجرة، كان من بين نتائج نشاطات القرامطة في بلاد الشام، وشبه الجزيرة العربية قدوم موجة جديدة من المهاجرين حملت إلى فلسطين قبائل من طيء، وكذلك من هلال وسليم وفزارة، وحملت إلى الشمال قبائل من عامر بن صعصعة في صدارتها عُقيل، وئمير، وقشير، وكراب، ولقد عاصر ابن حوقل حركة هذه القبائل وشهد بعض ما أحدثته من تغيرات في هجرتها، وروى أنه قبل قدوم المهاجرين الجدد كان معظم بداية الشام والجزيرة شبه متحضرين، وكانوا يمتلكون قليلاً من الجمال وقد ارتبطوا بالحياة الريفية أكثر من ارتباطهم بحياة الترحال لدى البداية فكان من نتائج قدوم المهاجرين الجدد إرغام القبائل القديمة على الانصهار بالحياة الريفية المستقرة^(١).

بدأ ظهور قبائل ربيعية بزعامة آل فضل على مسرح أحداث المناطق الجنوبية من بلاد الشام ومنطقة دمشق مع بداية قيام الحروب الصليبية أي منذ مطلع القرن الثاني عشر للميلاد، ففي بداية حكم أتابكة دمشق نشأت علاقات بين طفتكين أتابك دمشق ومانع بن حديثة بن فضل بن ربيعة، وبعد طفتكين استمرت علاقاته بحكام دمشق، كما نشأت علاقات بينه وبين عماد الدين زنكي ومن بعده نور الدين محمود، وازداد شأن آل ربيعة ارتفاعاً في الدولة الأيوبية، ففي سلطة العادل أخو صلاح الدين منح هذا السلطان أمرة عرب الشام لحديثة بن مانع بن حديثة ابن فاضل بن ربيعة^(٢) وحين منح العادل أمرة العرب

(١) ابن حوقل: صورة الأرض. ص ٢٠٩ - ٢١٤ - ٢٢٨.

(٢) العمري: المصدر السالف ص ١١٥ - ١١٧ - القلقشندي. صبح الأعشى ج ٤ ص ٢٠٣ - ٢٠٤.

لمانع بن حديثة انتزعها من قبائل كلاب. لقد كان التنافس مستمراً بين قبائل ربيعة على الزعامة وغالباً ما استغلت السلطنة الأيوبية ذلك التنافس لصالح السلطنة، وكان بعض الامراء يتحالفون مع الحكم القائم، ويقوم آخرون من ذوي المطامح بالتحالف مع فئات المعارضة^(١).

لقد كان عدد قبائل ربيعة كبيراً جداً وكانوا يمتلكون ثروات واسعة واعتمد ثراؤهم على الأغنام، والجمال، والخيول، وعلى ما كانوا يحصلون عليه من مغانم الحروب وأعطيات السلاطين، فقد كان السلاطين يمنحون أمراء ربيعة الهبات والإقطاعات كما ملكوهم ممتلكات واسعة^(٢).

لقد اعتادت النساء البدويات على وضع برقع على وجوههن كنوع من أنواع الحجاب، وحظيت المرأة بين البداءة بمكانة تمتعت في ظلها بشطر كبير من حريتها، حيث ما كان بإمكان أحد حتى أبيها إرغامها على الزواج ممن لا تريد أن تتزوج منه^(٣).

وكان مهر العروس يساق من النوق في بعض الأحيان تجاوز العدد مائة ناقة من النوق الفاخرات وعداً بداية عصرنا افخر النوق الحمر منها^(٤).

وكانت نساء البدو يتولين نسج البيوت وإعداد أثاث البيت، ويقسم البيت إلى عدة أقسام قسم يتصدر مدخله يجلس فيه الرجال، وقسم مجاور يفصله عن هذا القسم هو خدر للنساء ثم هناك قسم لمؤن البيت والأثاث الزائد، وهناك قسم آخر كانت توضع فيه صغار المواشي.

وحوى كل بيت عدداً من قرب الماء المصنوعة من جلود الماعز أو غيرها، وكان البداءة وما زالوا يولون العمود الرئيسي في البيت مزيداً من الاهتمام فإلى

(١) العمري: المصدر نفسه ص ١١٦ - ١١٧. القلقشندي. صبح الأعشى ج ٤ ص ٢٠٥، زكار: المرجع السابق ص ٨٥ - ٨٦.

(٢) العمري: المصدر نفسه. ص ١٤٠ - ١٤٣.

(٣) ابن العديم: بغية الطلب في تاريخ حلب - دمشق ١٩٨٨. ص ١٩٣٦ - ١٩٣٧.

(٤) العمري: المصدر السالف. ص ١٤٠.

العمود كان يلجأ الملتجؤون من طلاب الجوار والأمن، فإذا ما دخل مستغيث أو حتى مقترف جناية إلى داخل البيت، وأمسك بالعمود الرئيسي عد آمناً له كل الحرمة وحقوق الجوار، ومعروف أن خيمة البدوي كانت تشد بحبال ربطت إلى أوتاد غرزت عميقاً في الأرض، وأطلق البداية على الحبل الممدود الطنب، وللطنب حرمة لدى البداية، فعندما ينزح بدوي عن ديار عشيرته إلى ديار عشيرة أخرى قريبة منه أو لعمل يقوم به بعد دخوله إلى معسكر القبيلة التي قرر الالتجاء إليها الإمساك بطنب خيمة أحد أفرادها، أو شيوخها، وهذا كان كافياً لمنحه الجوار له ولأفراد أسرته وإذا سمح له بالسكنى غالباً ما يقوم ببناء خيمته إلى جوار الطنب الذي التجأ إليه، وهذا يعطيه حق الولاء والحماية، وكان الاعتداء عليه اعتداء على العشيرة التي التجأ إليها^(١).

- التصوف وأثره في المجتمع:

في رصدنا لحركة التصوف الإسلامي وتطوره منذ نشأته إبان صدر الإسلام والقرن الأول للهجرة، وصولاً إلى انحساره حوالي القرن العاشر يمكن أن نميز خمسة أدوار:

الدور الأول: يمتد على مدى القرنين الأول والثاني الهجريين، حيث الزهد البسيط المستند إلى صفاء الإيمان ونقائه والتسامي عن الحياة المادية.

الدور الثاني: في القرن الثالث والرابع الهجريين، دور النضج والاكتمال وبداية التصوف الحقيقي.

الدور الثالث: في القرن الخامس الهجري، دور الكلام والتمرد.

الدور الرابع: في القرنين السادس والسابع الهجريين، دور تنظيم التصوف وادعاء الكرامات، وظهور الطرق الصوفية^(٢) أبرز خصائص هذا الدور هو

(١) العمري: المصدر السالف ص ١٢٥.. أحمد وصفي زكريا: عشائر الشام ط دمشق ١٩٨٣ ج ١ ص ١٨٧.

(٢) د. حسن عاصي: التصوف الإسلامي (مفهومه، تطوره، مكانته من الدين والحياة) ص ٦١.

الاصطلاحات الصوفية التي بدأت تظهر كاصطلاحات صوفية بحتة، وإذا كانت هذه الاصطلاحات قد ظهرت من قبل، فإنها ظهرت عرضاً في سياق الاصطلاحات الفلسفية والكلامية، في حين أنها صارت هنا قضايا أساسية تدور حولها الأبحاث، كحقيقة الله والعالم والمعرفة، ووحدة الوجود وما إلى ذلك^(١).

إن التصوف في مفهومه الفكري والممارسة العلمية والمسالك الروحية التي اعتنقها الصوفيون ليس وجهة نظر فلسفية أو علمية أو هوساً دينياً أو هروباً من مسؤوليات الحياة الاجتماعية والاقتصادية، بل هو إيمان راسخ في الحب الإلهي والغناء به نتيجة قمع النفس ومنعها من الانغماس في اللذات الجسمانية وجعلها طاهرة نقية لتحقيق مشاهدة أو لقاء الخالق عز وجل^(٢).

وعلى ضوء ذلك نقول: أن للصوفية جميعاً طريقاً يشتركون فيه، ولا يتخلى عنه واحد منهم، ومنهاجاً هو الأساس الذي بنوا عليه كل أعمالهم قبل أن يتفرغوا لما وصلوا إليه من علم واجتهادات، قد لا نصل إلى فهمها، ولا ندرك لها تعليلاً، إلا أنها قائمة على الفردية والانفراد، ونرجع إلى الخطوات الأولى فنقول: الأساس الأول للصوفي: هو تقوية الصلة بالله، والاعتصام بحبله المتين وإفراده بالمحبة والإخلاص الزائد، والتقرب إليه باتباع أوامره، وتنفيذ ما يطلب منه، وتقديم مصلحة الغير على المصلحة الشخصية، والتفاني في خدمة المجتمع، والشجاعة في القتال للجهاد، والكرم والفصاحة، والإسراع في الملمات والشدائد، ورائد كل هذا هو الزهد في الحياة الدنيا، فالإنسان إذا ما زهد فيها، هان في سبيل مطلبه كل شيء. وصرف نفسه إلى كل ما يأمره به ربه^(٣).

(١) حسن عاصي: المرجع نفسه ص ٧١.

(٢) سليمان علم الدين: التصوف الإسلامي ص ١٣.

(٣) إبراهيم محمد حسن الجمل: الفتوة في الإسلام ص ٢٦.

يقول المستشرق الفرنسي لويس ماسنيون: «إن التصوف هو ثورة على ما يصيب الإنسان من مظالم، وتقترن هذه الثورة برغبة من الكشف عن الله بأي وسيلة»^(١).

ويرد نيكسون المستشرق الإنكليزي على ماسنيون بقوله: «هذا القول لا يثبت عند التحليل العلمي، ليس لأنه لا يسلب التصوف إيجابيته الحيوية فحسب، ولكن يحول بينه وبين مصدره الأصيل وهو القرآن الكريم والسنة المطهرة، ذلك لأنه منذ ظهور الإسلام، والأنظار التي اختص بها متصوفة المسلمين نشأت في قلب الجماعة الإسلامية نفسها أثناء عكوف المسلمين على تلاوة القرآن والحديث وأقراءهما»^(٢).

تشعبت الأقوال عن الصوفية تشعباً ناشئاً عن الجهل بحقيقتهم، لكثرة المتلبسين بها، وفيما قيل فيهم: أنهم المعرضون عن الدنيا، المشتغلون في أغلب الأوقات بالعبادة، وقيل التصوف: استعمال كل خُلُق سوي، وترك كل خُلُق دنيّ، وقيل التصوف ضبط حواسك ومراعاة أنفاسك، والصوفي من إذا نطق أبان نطقه عن الحقائق، وإذا سكت نطقت عنه الجوارح بقطع العلائق، وقيل الصوفي: من لبس الصوف على الصفا، وأذاق الهوى طعم الجفا، ولزم طريق المصطفى، وكانت الدنيا منه على القفا، وهذه العبارات بحد ذاتها نجدُها متقاربة، والحاصل أنهم أهل الله وخاصته الذين ترتجى الرحمة بذكرهم، ويستتزل الغيث بدعائهم، ومن أوصافهم الرأفة، والرحمة، والعفو، والصفح، وعدم المؤاخذة^(٣). وعلى ضوء ما أوردناه نرى أن التصوف ليس كما ذكره شباور في كتابه: «هو هروب العربي المسلم من الواقع المستجد عليه منذ انحلال

(١) دائرة المعارف الإسلامية: مجلده ص ٢٦٩.

(٢) أحمد الشرياصي: الفزالي والتصوف الإسلامي ص ١٦٩.

(٣) السبكي: المرجع السالف ص ١٢٠.

الخلافة العباسية وسيطرة العناصر الإسلامية غير العربية على السلطتين السياسية والعسكرية»^(١).

هذا وقد ازدادت ظاهرة التصوف نشاطاً وانتشاراً في العصر الأيوبي، وكثر بناء منازل الصوفية التي عرفت باسم الخانقاه وجمعها خانقاوات ويقال بأن الخانقاه الصلاحية. التي عرفت أيضاً باسم خانقاه سعيد السعداء^(٢).

هي أول خانقاه عرفت بمصر. وقد أوقفها صلاح الدين على المتصوفة سنة (٥٦٩هـ/١١٧٣م) وولى عليها شيخاً عرف بشيخ الشيوخ. ووقف عليها الأوقاف على من فيها من الفقراء. ورتب للصوفية في كل يوم طعاماً ولحماً وخبزاً وبنى لهم حماماً بجوارهم^(٣). وقد شرط أن من مات من الصوفية وترك عشرين ديناراً فما دونها كانت للفقراء ولا يتعرض لها الديوان السلطاني. ومن أراد السفر منهم جرت إعانته على ذلك^(٤).

ولم يكن التصوف مجرد ظاهرة دينية بل ظاهرة اجتماعية، وكانت رعاية هذا العنصر والاهتمام به من أكبر دواعي قدوم كثير من الصوفية في هذا العصر من الأندلس والمغرب وغيرها من المناطق إلى مصر أحياناً والشام غالباً، فأشاعوا فيها حياة الزهد والتقشف^(٥).

وفي القرن السابع للهجرة، انطبع التصوف بطابع علم من العلوم الفلسفية بمدارس متشعبة، وباتت علوم العرفان الصوفي من العلوم الشرعية لها حظوة مثل حظوة علم التوحيد، وعلم الكلام وعاش في بلاد الشام في هذه الحقبة أعظم شخصيات التصوف مثل ابن عربي والسهورودي، وابن الفارض، والسهورودي هو أبو حفص عمر بن محمد ولد (سنة ٥٣٩هـ / وتوفي سنة ٦٣٢هـ) وخلف عدداً من

(١) شباور: المرجع السالف ص ١٢٧.

(٢) كانت داراً منذ أيام الفاطميين دار الوزارة، وسكنها الوزير شاور.

(٣) المقرئزي: الخطوط ج ٢ ص ٤١٥، عاشور: مصر والشام في عصر الأيوبيين والمماليك ص ١١٧.

(٤) الباز المريني: المرجع السالف ص ٢١٧.

(٥) د. أحمد بدر: الأندلسيون والمغاربة في دمشق ص ٣١٥ - ٣١٨.

الكتب أشهرها: «عوارف المعارف ورشف الفصائح» «أعلام الهدى» أما ابن الفارض^(١) المتوفى أيضاً سنة (٦٣٢هـ/٢٣٤م) فهو شاعر الحب الصوفي، له ديوان واسع التداول أشهر ما فيه قصيدته النائية التي حوت أكثر من سبعمائة وخمسين بيتاً، وتعد أروع أشعار الصوفية وأنضجها، ويبقى محي الدين بن عربي (محمد بن علي الطائفي الإشبيلي)^(٢) وهو أعظم رجالات التصوف في القرن السابع وغيره من القرون، ولد في الأندلس سنة ٥٦٠هـ وتوفي بدمشق سنة ٦٣٨هـ وفيها دفن وما برح قبره مزاراً لسكان بلاد الشام.

لقد كان للتصوف دوراً اجتماعياً واضحاً، وهو دور قد أبرزه ما سينيون في مقدمة كتابه «بحث في نشأة المصطلح الفني للتصوف الإسلامي» فقال: «إن منهج الاستيطان الذي يقوم عليه، وبه إحياء الإسلام وعلومه على حد تعبير الغزالي، يحيل الصوفية إلى أطباء نفسانيين يعملون على شفاء بلايا الآخرين. ذلك لأن الصوفية، كما يقول المحاسبي في كتابه «المحبة» وقد رنوا بأبصارهم بفضل ضياء الحكمة الإلهية إلى المناطق التي تنمو فيها الأدوية. وقد علمهم الله كيف يفعل الدواء، فبدؤوا بشفاء قلوبهم، وأمرهم حينذاك بأن يواسوا قلوب المحزونين والذين يتألمون». «فالتصوف ليس إذاً مجرد أسماء تسرد أو وصفات صيدلية، بل هو علاج بدأ الطبيب المعالج فجره على نفسه، ابتغاء أن يفيد به الآخرين»^(٣) وكما يقول الجنيد: «ما أخذنا التصوف عن القيل والقال لكن عن الجوع وترك الدنيا وقطع المألوفات والمستحسنات»^(٤).

(١) عمر بن علي بن الملتن: طبقات الأولياء ط القاهرة ١٩٥٣ ص ٤٦٣.

- يوسف بن إسماعيل النبهاني: جامع كرامات الأولياء ط بيروت دار صادر ج ٢ ص ٢١٩.

(٢) عمر بن علي الملتن: طبقات الأولياء، ص ٤٦٤ - النبهاني (يوسف بن إسماعيل): جامع كرامات الأولياء طبعة بيروت دار صادر ص ٢١٨ - ٢١٩. زكي مبارك: التصوف الإسلامي في الأدب والأخلاق ط القاهرة ١٩٤٥ ص ١٥٨ - ٢٣٠.

(٣) عبد الرحمن بدوي: تاريخ التصوف الإسلامي. ط الكويت ١٩٧٥ - ص ٢٣.

(٤) الرسالة القشيرية: القاهرة سنة ١٩٥٩ - ص ٢٠.

ومن هنا أتت الأهمية الاجتماعية للتصوف الإسلامي، إنها جاءت من قيمته
الطبية النفسية المفترضة.

لقد شهد القرن السادس والقرن السابع وما تلاها، نشاطاً كبيراً في بناء
الزوايا والخانقاهات، ونظم الصوفية أنفسهم، حيث امتلكوا رابطة خاصة بهم
رأسها شيخ شيوخ الصوفية^(١). الذي حظي بمنزلة اجتماعية وسياسية رفيعة جداً،
ولم يقل دوره في كثير من الأحيان عن دور القضاة وكبار العلماء، فالزاوية التي
كان دورها في الماضي لا يتعدى المأوى ومقر الاجتماع لبعض الشيوخ ومريديهم،
تطورت الآن تطوراً عظيماً وبلغت الأوج، بأن أصبحت مركزاً اجتماعياً هاماً،
لقد ملكت الزاوية إمكانات مالية واقتصادية كبيرة جداً، مكنها من
الاضطلاع بأدوارها الجديدة، فقد باتت الزاوية الآن مركزاً لتربية المريدين،
وإعداد المرشدين الدينيين الشعبيين، ومقراً لإقامة وإطعام أعداد هائلة من الناس
خاصة من الفقراء والمعوزين^(٢). يصف ابن جبير أحوال هذه الطائفة عندما زار
دمشق فيقول: «وهذه الطائفة الصوفية هم الملوك بهذه البلاد، لأنهم قد كفاهم
الله مؤن الدنيا وفضلها، وفرغ خواطرهم لعبادته من الفكرة من أسباب
المعاش، وأسكنهم في قصور تذكرهم قصور الجنان. فالسعداء الموفقون منهم
قد حصل لهم بفضل الله تعالى نعيم الدنيا والآخرة. وهم على طريقة شريفة،
وسنة في المعاشرة عجيبة، وسيرتهم في التزام رتب الخدمة غريبة، وعوائدهم في
الاجتماع للسمع المشوق جميلة، وربما فارق منهم الدنيا في تلك الحالات المنفعل
المتأبر رقة وتشوقاً، وبالجملة فأحوالهم كلها بديعة، وهم يرجون عيشاً طيباً
هنيئاً»^(٣). وقد ذكر ابن جبير أن الدار المنسوبة إلى عمر بن عبد العزيز، هي

(١) قاسم غني، تاريخ التصوف في الإسلام ط القاهرة ١٩٧٢ ص ١٠٧.

(٢) إبراهيم زعرور: الحياة الاجتماعية في بلاد الشام في العصر الأيوبي والملوكي ص ١٢٩ - غني:

تاريخ التصوف في الإسلام ط القاهرة ١٩٧٢ ص ١٠٧.

(٣) ابن جبير: رحلة ابن جبير ص ٢٥٦.

اليوم خانقة للصوفية، وهي في الدهليز الذي في الباب الشمالي المعروف بباب
الناطقين^(١).

ويذكر أن الذي أوقفها رجل من أهل سميساط يدعى السميساطي وهو من
بلاد العجم حيث بناها خانقاه للصوفية.

وابتاع لها الأوقاف ضياعاً ورباعاً وجعلها برسم الصوفية، وأوصى بأن يدفن
فيها وأن يختم القرآن على قبره كل جمعة، وعيّن لكل من يحضره رطل من
الخبز^(٢).

وكان صلاح الدين يكرم أهل التصوف، ويذكر أنه مر به رجل يجمع بين
العلم والتصوف وانصرف بعد لقاء الناصر صلاح الدين، ومضى على ذلك ليال
وسأل السلطان عنه فعلم أنه مسافر، فظهر على وجهه إمارات العتب، وقال:
«كيف يتركنا هذا الرجل وينصرف عنا من غير إحسان يمسه منا» وشدد
النكير على ذلك فكتب إليه كاتبه كتاباً يسأل عنه، وكان كاتبه على
معرفة به، فطلب منه الرجوع لمقابلة السلطان، فحضر الرجل واجتمع بالسلطان
الذي رحّب به، وسرّ معه في الحديث، وأبقاه في ضيافته أياماً، ثم خلع عليه
خلعة حسنة وأعطاه دابة يركبها، وثياباً كثيرة يحملها إلى أهل بيته، وجيرانه
وبعض المال، فانصرف الرجل عنه ولسانه يلهج بحمده^(٣).

(١) ابن جبير: المصدر السالف ص ٢٦٢.

(٢) ابن جبير: المصدر نفسه ص ٢٦٢ - ٢٦٣.

(٣) الرمادي: صلاح الدين الأيوبي ص ٩٦.

- المؤسسات الاجتماعية

شغلت المؤسسات الاجتماعية في بلاد الشام وخاصة في دمشق الأيوية دوراً اجتماعياً هاماً حيث غطت معظم مرافق الحياة الاجتماعية، ومن هذه المؤسسات.

١ - الأسرة: يقوم بناء المجتمع بشكل عام على الأسرة في كل مراحل التطور الإنساني، وتلتزم الأسرة بعبادات وتقاليد في الحياة الاجتماعية داخل البيت من مآكل وملبس وأثاث وفي أيام المناسبات من أفراح وأتراح، وكذلك في علاقات الأسرة بغيرها من الأسر خلال حقبة ما، ومنطقة ما، ومن هذه العادات فإن المرأة اعتادت متى علمت بالحمل أن تتحرز على نفسها وتعتني بصحتها وتتجنب حمل ما ثقل وزنه من الأشياء والركوب على الدواب وتتوقف عن تناول بعض الأدوية خاصة المسهلات منها، وتقوم باستحضار لوازم المولود التي عرف باسم «الديارة» من كسوة وقماط ولفائف، وكان لكل أسرة قابلة تعرف باسم الداية، وهي التي تتولى أعمال التوليد، وكانت المرأة الحامل تتردد إلى المزارات تباركاً وتفاؤلاً، حيث يذكر أنه كان في دمشق باب اسمه باب الفرج تتردد إليه المرأة الحامل في الشهر التاسع تفاؤلاً، وكان بعض أهلها يركز لها حرية^(١) وعند ضريح أحد الأولياء، وتجلب لها لتتوكأ عليها ساعة الوضع، وعندما يولد الطفل إن كان غلاماً صلت القابلة على النبي ﷺ، تعرف الناس أن المولود ذكراً، وإن كانت أنثى ترضت عن فاطمة الزهراء، ولدى الإعلان عن الولادة تبدأ النساء بالزغاريد وكان الطفل يحمل بعد لفة إلى أحد أقربائه ليؤذن في أذنيه، وبعد عدة أيام من الولادة كان يعق له. وكانت أسرة الزوجة تقدم طعام لطيف لها، ويأخذ الزوار بالقدوم للتهنئة، فيقدم لهم الحلوة خاصة اسمها «المغلي»

(١) كامل الغزي: نهر المذهب في تاريخ حلب المطبعة المارونية حلب ج ١ ص ٢٤٣ - ٢٤٤.

وقد يحضر بعض النساء القينات والمغنيات ويحمل المهنئون الهدايا ويقدمون للمغنيات «نقوطة» عبارة عن عدة دراهم^(١).

كان الطفل يدفع منذ بلوغه سن الثالثة أو بعيد ذلك إلى إحدى الكتاتيب المدارة من شيخه أو شيخ، ومتى أكمل الولد القراءة للقرآن كانت أسرته تحتفل بذلك احتفالاً مدوياً، يضرب الدفوف، وجمع زمرة من دراويش الصوفية، كان الولد المحتفل به يدعو زملاؤه، وقد يقوم الأولاد بمسيرة صغيرة في الاحتفال، ويقولون إنشاد بعض المدائح النبوية. وما إن يشتد عود الصبي حتى يأخذه والده بالصلاة والصيام، وكان الأهل يحتفلون بصوم ابنهم للمرة الأولى احتفالاً خاصاً وكثيراً ما أعدوا طبقاً كبيراً مليئاً لجميع أنواع الحلوى ليفطر عليه في يوم صيامه الأول^(٢).

وما أن يبلغ مبلغ الرجال حتى يشرع والده بتزويجه فقد مال الناس إلى الزواج المبكر، وكانت الأم هي التي تختار الزوجة لابنها، وهو لا يراها إلا ليلة زفافه، وعمليات الخطبة وعقد القران كانت عبارة عن احتفالات تأتي مقدمة للاحتفال الكبير يوم العرس^(٣).

٢ - الرياضات: عبارة عن بيوت للعبادة ينقطع فيها الزهاد لمباشرة حياتهم الخاصة وفق قواعد معينة. ولم يقتصر ذلك على الرجال وحدهم، بل كان هناك رياضات خاصة بالنساء التزمين فيها حياة الزهد. وواظبن فيها على العبادة مع الالتزام بشدة الضبط وغاية الاحترار، وقد استخدمت الرياضات النسائية لغايات أخرى منها أنها جعلت ملاجئ للنساء المطلقات والأرامل صيانة لهن حتى يتزوجن أو يرجعن إلى أزواجهن فكانت هذه الرياضات تقوم بوظيفة اجتماعية هامة جداً إلى جانب صفتها الدينية^(٤).

(١) د. إبراهيم زعرور: المرجع السالف ص ١٥٨.

(٢) الفزي: المرجع السالف ج ١ ص ٢٤٥ - ٢٤٩.

(٣) د. إبراهيم زعرور: المرجع السابق ص ١٥٩.

(٤) عاشور: المرجع السابق ص ٢٣٠ - ٢٣١.

٣ . الأوقاف: لقد كثرت الأوقاف بشكل واضح في هذه الآونة، وقد عبّر ابن جبير عن كثرة الأوقاف الموقوفة على المنشآت الدينية في دمشق بقوله: «ولكل مشهد من هذه المشاهد أوقاف معينة من بساتين وأرض بيضاء ورباع حتى أن البلدة تكاد الأوقاف تستغرق جميع ما فيها، وكل مسجد يستحدث بناؤه، أو مدرسة، أو خانقه، يعين له السلطان (صلاح الدين) أوقافاً تقوم بها وبساكنيها والملتزمين لها..»^(١).

وكانت الأوقاف تضمن مورداً ثابتاً للمنشآت يضمن لها البقاء والاستمرار في أداء رسالتها دون خشية العوز والإفلاس. وكان لهذه الأوقاف إدارة تشرف عليها، يرأسها متولي الأوقاف الذي يشرف على أوقاف المسلمين ويسهر على إنفاق أموالها في الجهات المخصصة لها^(٢).

٤ . السقايات: وهو موضع السقي أو ما يعرف باسم السبيل، وقد كثر هذا النوع من عمل الخير بوازع من شعور ديني عميق في كثير من المدن الإسلامية وخاصة المدن الدينية كمكة وبيت المقدس وفي الخانات والمحطات، والنزل الواقعة على طريق المسافرين والتجار^(٣).

وتتألف هذه السقايات من صهريج يوضع تحت الأرض يملأ بالماء عن طريق الأنهار والقنى المنتشرة في أنحاء المدينة، والتي وقفت عليها أوقاف معينة، ينفق منها على صيانتها وفوق هذا الصهريج غطاء من الرخام أو الحجر أطلق عليه اسم خرزه، وربما كانت السقاية فوق بئر ثم فوقها المزملة لتوزيع الماء على الراغبين في الشرب، ويقوم الساقي أو المزملاطي برفع الماء من الصهريج أو البئر فيجري الماء في نوافذ ربطت بقضبانها كيزان بوساطة سلاسل، ليتمكن بواسطتها طالب الماء من الحصول على حاجته، وقد وضعت لهذه السقايات

(١) ابن جبير: الرحلة ص ٢٤٨.

(٢) عاشور: المرجع السابق ص ٢٢٤.

(٣) عاشور: المرجع السالف ص ٢٢٥ - ٢٢٧.

أنظمة ثابتة تتضمن سلامة صحة الساقى ونظافة الكيزان المستخدمة في الشرب، وتحديد أوقات العمل فيها، وتزويد الخزانات المقامة عليها بالماء. وقد امتدت العناية بتوفير ماء الشرب لتشمل الدواب الذي كان اعتماد الناس عليها في الحل والترحال، فأنشئت لها أحواض لتشرب منها^(١).

٥ . الحمامات: تميز هذا العصر بكثرة الحمامات العامة، ذلك أن الحمامات الخاصة لم تكن موجودة إلا في قصور الحكام والعظماء، ويقول ابن جبير^(٢) أنه كان يوجد في دمشق وحدها مائة حمام حسب تقديراته، وكثرة الحمامات في هذه المدينة ظاهرة اجتماعية لها دلالتها. حيث أنه مع انعدام الساحات العامة والمسارح وأماكن اللقاء الميسرة للجميع، نجد أن الحمامات تولت شغل هذا الدور، فالحمام تجاوز دوره في النظافة والطهارة التي حرص الإسلام عليها من أجل الطهارة، ويمكن أن نضيف إلى مسألة الطهارة، أن طبيعة المناخ في بلاد الشام ساعدت على الإكثار من الاستخدام للحمام سواءً في الصيف أو في الشتاء، إضافة إلى ذلك فقد رأى عدد كبير من أطباء العصور الإسلامية في استخدام الحمام سبيلاً للتخلص من بعض الأمراض، وهذا مما زاد في مكانة الحمامات ورفع من أهمية دورها الاجتماعي.

وكان الحمام يتألف من ثلاث قاعات كبيرة، الأولى: حيث كان الناس يخلعون ثيابهم بها، والثانية: تسمى الوسطاني، وكانت فيه الحرارة متوسطة ما بين الحمام والخارج، والثالثة: تسمى الداخلي للاستحمام، وفي كثير من الأحيان حوت القاعة الداخلية عدة حجر صغيرة، وكان للحمام في العادة باب واحد. ويعمل في الحمام عدة عمال كل واحد منهم اختص بمهمة من المهام، فقد كان هناك من اختص بتقديم المآزر، وهي على أنواع والمآزر التي تستخدم أوقات الاستحمام غير تلك التي استخدمت قبل ارتداء الملابس. هذا وقد اعتاد كثير من

(١) عاشور: المرجع نفسه ص ٢٢٨.

(٢) ابن جبير: الرحلة ص ٢٦١.

الناس على حمل مآزرهم وثياب الاستحمام معهم من بيوتهم وحملوا معهم الصابون والطيب والبيلون (الفسول) وأدوات الحلاقة بشكل عام، وفي كثير من الأحيان كان في كل حمام مزين يتولى إزالة الشعر للمستحمين^(١).

ومما يلفت الانتباه في هذا المقام أن الصليبيين تعرفوا إلى الحمامات في بلاد الشام، وأعجبوا بها وبخدماتها وقد حكى أسامة بن منقذ^(٢). في كتابه الاعتبار، أكثر من حكاية حول هذا الموضوع وفيما بعد نقل الفرنجة تجربة الحمام معهم إلى بلادهم وطوّروها.

ومع المزين عمل في الحمام عدد من العمال توجب عليهم تنظيف الحمام وكنسها، وإشعال البخور بها وتعطيرها أكثر من مرة في اليوم، وكان على المحتسب أن يراقب الحمام أكثر من مرة يومياً، فيمنع الناس من الجلوس عراة فيها بدون مآزر، كما يمنع دخول المرضى وخاصة المجزومين والبرصان إلى الحمام، ويراقب الأخلاق والسلوك العام، ويمنع الغلمان والمرد من دخول الحمام، ويوصي المدلك والقيم بالحمام في ألا ينظر إلى عورة من يفسله أو يلمسها أثناء التدليك، كما أوصى الناطور بمهمة حفظ ثياب الناس فإن ضاع منها شيء لزمه ضمانه^(٣).

لقد كان العمل في الحمام مستمراً ليلاً نهاراً مقسماً بين الرجال والنساء، للرجال من طلوع الفجر حتى قبيل صلاة الظهر، وللنساء من العصر وحتى العشاء، وفي الحمام كان يلتقي أتباع كل شيخ من شيوخ الصوفية ومريدوه، كما اعتاد الناس على التحدث في الحمام في شؤون حياتهم ومشاكلهم العامة والخاصة، فالحمام كان مكان لقاء طبيعى لأكبر عدد من رجال كل حي من

(١) ابن الأخوة: معالم القرية ص ٢٤٠ - ٢٤٤. د. أمينة بيطار: تاريخ الأيوبيين والمماليك ص ٢٣٥ - ٢٣٦. د. إبراهيم زعور: الحياة الاجتماعية في بلاد الشام. ص ١٥٠.

(٢) ابن منقذ: الاعتبار ص ١٣٦ - ١٣٧.

(٣) الشيرزي: المصدر السالف ص ٨٧ - ٨٨. ابن الأخوة: المصدر السالف: ص ٢٤٠ - ٢٤٤. ابن بسام: المصدر السالف ص ٦٧ - ٧٤.

أحياء المدينة، فيه تزول الكلفة ويتحدث الناس ويتسامرون على سجيّتهم، كما أن الحمام شغل أدوراً اجتماعية أخرى فعندما كان يدخل المريض إلى الحمام كان ذلك إعلان عن شفائه، وكان العريس يدخل قبل ذهابه إلى حفل الزفاف^(١).

ولعل الحمامات شغلت دوراً اجتماعياً نسائياً أكبر مما أشرنا إليه الآن، لقد اعتادت نساء كل أسرة من الأسر أو زقاق أو حي من الأحياء أن يذهبن في موعد متفق عليه إلى الحمام وكن يحملن معهن الأطعمة والأشربة المعدة لهذه المناسبة خصيصاً، وفي كثير من الأحيان كن يحملن معهن بعض آلات الطرب والغناء، فقد كانت ساحة الحمام تتحول إلى حلبة للرقص وعرض الجمال لذلك اعتاد الرجال الذين رغبوا في الزواج على إرسال نساء تخصصن في أعمال الوصف والتعريف إلى الحمامات من أجل الخطبة، أضف إلى ما تقدم أن العروس كانت تتجهز قبل ليلة زفافها بالذهاب إلى الحمام، كما أن المرأة كانت تحتفل بعد ولادتها بأربعين يوماً بالذهاب إلى الحمام، وهكذا شغل الحمام في حياة سكان مدن الشام وبلدانها دوراً فريداً ومتميزاً، وكان المكان الذي شهد أعظم النشاطات الاجتماعية السارة، ولهذا أوصى المحتسب ليس فقط بتفقد نظافة الحمام فحسب، بل بالحيلولة دون عمل الدباغين والعاملين بالجلود منهم من العمل في الحمامات أو على مقربة منها^(٢).

- رعاية الأعراب والفقراء والأيتام:

اهتم الأيوبيون بالأعراب الذين كانوا يفتدون إلى البلاد وقد أفاض ابن جبير في الحديث عن الرعاية التي كان يلقاها هؤلاء، سواءً في بلاد الشام أو مصر.

(١) السبكي: المصدر السالف ص ١٣٤ ١٣٥. إبراهيم زعرور: المرجع السالف ص ١٥١. د. أمينة البيطار: المرجع السالف ص ٢٣٦.

(٢) الشيزري: المصدر السابق ص ٨٨، ابن الأخوة: المصدر السابق ص ٢٤٤. عاشور: المؤسسات الاجتماعية في الحضارة العربية بحث داخل موسوعة الحضارة العربية الإسلامية ط بيروت ج ٣ ص ١٢٧. ١٣١.

ونصح متفريفة المغرب بسكن دمشق^(١) حيث ذكر عناية صلاح الدين بالأغراب. ومنها أنه قد أمر بتعيين حمامات يستحمون فيها متى احتاجوا إلى ذلك، ونصب لهم مارستاناً لعلاج من مرض منهم. ووكل بهم أطباء يتفقون أحوالهم كذلك جعل لأبناء السبيل من المغاربة جرايات من الخبز وغيره أثناء مرورهم بمصر في طريقهم إلى الحج، كما نال الغرباء من الرعاية والعناية ووجدوا أعمالاً كثيرة تعينهم في دمشق^(٢).

كذلك لقي الفقراء اهتماماً كبيراً زمن الأيوبيون، فمن ذلك أن صلاح الدين تهذ أبناء الفقراء بتعليم القرآن الكريم، وأجرى عليهم جراية كافية^(٣). كما تحدث ابن بطوطة عن كرم الدمشقيين، ومروءتهم، وعنايتهم باليتامى، فقد اعتاد سكان المدينة على اختلاف أوضاعهم، وثوراتهم ألا يفطر أحد منهم في رمضان دون أن يكون لديه بعض الضيوف من الفقراء والضعفاء، والغرباء الذين جاءوا إلى المدينة لقضاء حاجة أو الزيارة، وكانوا يدفعون المال للمقطعين، ويزودهم بالزاد والراحلة^(٤).

كما تعرض ابن جببر لوصف أوضاع الأيتام من الصبيان في المجتمع الشامي، زمن الأيوبيين حيث قال: « إن الأيتام من الصبيان كانوا يأتون إلى الجامع، حيث يتعلمون، وينفق عليهم ما يقوم بأودهم مع نفقات كسوتهم، وموارد النفقة تأتي من وقف كبير خصص للأيتام وتعليمهم »^(٥).

البيمارستانات:

عمل الأيوبيون في دمشق على تنشيط حركة البيمارستان، وذلك من خلال إيقافهم الأوقاف الوفيرة عليها، التي تساعد في تأمين متطلباتها، كما اهتموا

(١) ابن جببر: الرحلة ص ٢٠.

(٢) ابن جببر: المصدر نفسه ص ٤٦ - ١٩٤ - ١٩٥.

(٣) ابن جببر: المصدر السالف ص ٥٢.

(٤) ابن بطوطة: المصدر السالف ص ٦٣ - ٦٤.

(٥) ابن جببر: المصدر نفسه ص ٢٦٠ - ٢٦١.

بالعاملين فيها، فخصصوا الجامكيات « الرواتب » الوفيرة للعاملين بها من الأطباء والصيادلة والخدم، وعدت البيمارستانات مكاناً لعلاج الفقراء دون مقابل، وقد شاركهم الأغنياء في ذلك وفي كثير من الحالات أعفي هؤلاء من دفع نفقات العلاج، قال الرحالة ابن جبير الأندلسي عندما زار دمشق سنة (٥٨٠ هـ / ١١٨٤ م) وشاهد البيمارستان النوري الكبير بها: «وجرايته في اليوم خمسة عشر ديناراً، وله موظفون مشرفون، ومعهم لوائح بأسماء المرضى، وبالنفقات التي يحتاجون إليها في الأدوية والأغذية بالإضافة إلى الأطباء الذين ييكررون إليه كل يوم، ويتفقدون المرضى، ويأمرون بإعداد ما يصح لهم من الأدوية والأغذية، حسبما يليق بكل إنسان منهم»^(١).

ويؤكد أبو شامة أن هذا البيمارستان، قد خصص لمعالجة المرضى من الفقراء، أما الأغنياء فكان يحق لهم العلاج فيما يعز وجوده من الأدوية العظيمة وسواها في الأسواق، وذكر أن نور الدين محمود بن زنكي عندما زار البيمارستان شرب من شرابه فيه، قال أبو شامة: « وأن ذلك جاء موافقاً لما جاء في كتاب الوقف للبيمارستان من جاء إليه مستوصفاً لمرضه أعطي.. »^(٢).

ومن المفيد الإشارة إلى أن إنشاء البيمارستانات، والاهتمام بالعاملين فيها في تلك الحقبة الزمنية، كانت تتبع من ضرورة معالجة المرضى، وتقديم الإسعافات اللازمة للمصابين بسبب الكوارث التي حلت بالبلاد كالزلازل، أو المصابين بأمراض معدية، وكذلك معالجة جرحى الحروب لأن البلاد كانت في حالة حرب دائمة مع الفرنجة أو المصابين أثناء الحروب الأهلية.

وكان البيمارستان يتألف من قسمين: خصص إحداهما لمعالجة المرضى من الرجال، وخصص الآخر للمرضى من النساء، وكان كل منهما مجهزاً بالأدوات الطبية اللازمة، والأطباء، والخدم، والفراشين، وقوام، ومشرفين من

(١) ابن جبير: المصدر نفسه ص ٢٧٢.

(٢) أبو شامة: الروضتين ج ١ ص ٩.

الرجال والنساء، كما كان كل قسم منها مقسم إلى قاعات مخصصة لنوع من الأمراض، كقاعة الأمراض الباطنية، والجراحة، والكحالة، والتجبير، وغير ذلك، بل كانت بعض هذه القاعات مقسمة إلى أقسام بحسب نوع المرض أيضاً، فقاعة الأمراض الباطنية كانت مقسمة إلى قسم المحمومين - المصابون بالحمى - وقسم المبرودين « المتخومين » وقسم لمن به إسهال، وسوى ذلك مما تدعو إليه الحاجة^(١).

وكانت هذه القاعات فسيحة حسنة البناء، وفيها الماء جارٍ، وكان في كل بيمارستان قاعتان إحداهما معدة لتרכيب وتخزين الأدوية المفردة والمركبة، وإعداد الشراب لمختلف الحالات المرضية، أما القاعة الثانية مخصصة لتوزيع الأدوية على المرضى الخارجين أو الموجودين في البيمارستان حسب ما وصف لهم الأطباء من العلاج، وكانت الأدوية توزع على الخارجين من البيمارستان كل يوم اثنين وخميس وفي كل يوم للمرضى به من الرجال والنساء، كما كان البيمارستان مجهزاً بقاعة لإعداد طعام المرضى وبيتاً للبوابة^(٢)، حتى أن البيمارستان كان يحتوي بما يسمى اليوم في عصرنا بالعيادات الخارجية، حيث ذكر ابن أبي أصيبعة: « أن شيخ الأطباء بالشام رضي الدين أبو الحجاج، يوسف بن حيدوة الرحبي، كان يجلس على دكة، ويكتب لمن يأتي إلى البيمارستان، ويستوصف منه للمرضى أوراهاً يعتمدون عليها، يأخذون بها من البيمارستان الأشرية والأدوية التي وصفها»^(٣).

(١) ابن أبي أصيبعة: طبقات الأطباء ج ٣ ص ٢٥٦ - ٣٩٦ - ابن طولون: تاريخ الصالحية ج ١ ص ٢٤٦ -

٣٤٨ - أحمد عيسى - تاريخ البيمارستانات في الإسلام ص ١٨ - ١٩.

(٢) أبو شامة: الروضتين ج ١ ص ٩ - ابن أبي أصيبعة: طبقات الأطباء ج ٣ ص ٣٩٦ - ابن طولون: تاريخ الصالحية ج ١ ص ٢٤٦ - ٣٤٨ - كرد علي: خطط الشام ج ٦ ص ١٥٨ - ١٥٩ - أحمد عيسى: تاريخ البيمارستانات ص ٢٠ - ٢١.

(٣) ابن أبي أصيبعة: طبقات الأطباء ج ٣ ص ٣١٦ - ٣٢١ - الذهبي: سير أعلام النبلاء ج ٢٢ ص ٣٧١ - ٣٧٢ - العبرج ٥ ص ١٢٧.

وعلى هذا كان الطبيب يتفحص المرضى القادمين إلى البيمارستان، فإذا رأى ما يستدعي دخول أحدهم بسبب مرض ما أدخله إلى البيمارستان، ليلقى العلاج به، وإلا اكتفى بكتابة وصفة طبية على أوراق خاصة كان يعتمدها المريض للحصول على الدواء من الصيدلية الخاصة بالبيمارستان.

كما اشتهرت دمشق الأيوبية بمارستانها الثاني والذي يقع بالصالحية، وهو البيمارستان القيمري والذي يقع وسط الصالحية، وقد ذكره ابن كثير في تاريخه، في أحداث سنة (٦٥٤ هـ / ١٢٥٦ م) وفيها توفي واقف مارستان الصالحية، الأمير الكبير سيف الدين، أبو الحسن، يوسف بن أبي الفوارس بن موسك القيمري الكردي.... ومن أكبر حسناته، وقفه المارستان الذي بسفح قاسيون، وكانت وفاته ودفنه بالسفح في القبة تجاه المارستان المذكور^(١). وقال ابن طولون نقلاً عن الشيخ جمال الدين بن عبد الهادي أنه قال: «وأما المارستان القيمري فهو من أحسن الدنيا، يقال: أنه ليس ثم في الدنيا بيمارستان أحسن منه ولا أشرح، فإن فيه هذا الإيوان المعظم، والقاعتان المعظمتان القبليتان بهذه الشبائيك المشرفة على الدنيا، وتحت الشبائيك هذا الحوض النارج لا سيما في أيام زهره تفوح منه هذه الرائحة الزكية، فتتعش النفوس، وتركي الأرواح».

وقال أيضاً: «وبه قاعتان لصيق القاعتان المذكورتين للمرضى المسهلين إحداهما للرجال والأخرى للنساء، ولصيقهما حاصلان، شرقي معد للشرابات والمعاجين والأكحال والأشياف، وهي الأدوية الخاصة بطب العيون، والأقراص وغير ذلك، وغربي معد لتفرقة ذلك في كل يوم اثنين وخميس للخارجين عنه، وفي شرقيه مطبخ للمزورات - المرققة التي يتناولها المريض - وهي كل ما يطبخ خالياً من الأدهان، والفراريج وغير ذلك وفي دهليز بابه الشمالي بيت البواب، وبوسطه بركة معظمة يأتي إليها الماء بناعورة مركبة على نهر يزيد، وفيه خدم

(١) ابن كثير: البداية والنهاية ج ١٢ - ١٩٥.

للرجال والنساء، وكحال وطبيب وشرياتي - صيدلي - وعامل ومشارف وغير ذلك من التراتيب الجيدة، وبه محفة - نقالة - لحمل الضعفاء- يحصل لهم في الصالحة نفع عظيم». وقد وقف عليه سيف الدين القيمري أوقافاً كثيرة كالقري والطواحين والحوانيت، والخانات، وقد ذكر الوقف منحوتاً على وجه البيمارستان القيمري، وواجهة الباب من أجمل الأبواب هندسة^(١). وهكذا لعب البيمارستان دوراً هاماً كمؤسسة اجتماعية، من خلال تقديمه الخدمات الصحية لأفراد المجتمع وخاصة الفقراء منهم والغرباء مما انعكس إيجابياً على وضع المجتمع.

- العادات والتقاليد:

إن الدارس للعادات والتقاليد في المجتمع الدمشقي يستطيع أن يستنتج مدى ارتباط هذه العادات والتقاليد بالأوضاع السياسية والاقتصادية، والاجتماعية، بأن واحد ومدى تأثير هذه العادات، والتقاليد على حالة المجتمع في كافة الجوانب.

- الطعام وعاداته:

اهتم أهل دمشق بطعامهم، وكان المطبخ الدمشقي ومازال غنياً بأنواعه وبطرق تحضير الطعام على الرغم من الظروف التي كان يعيشها أفراد المجتمع، كما اعتاد الدمشقيون على تناول أنواع متعددة من الحلويات، واهتموا أيضاً بموادهم الغذائية وحرصوا أن تكون نقية وكذلك كان حرصهم أشد على نظافة آنياتهم، وكان اللحم على اختلاف أنواعه مادة أساسية في تحضير أية

(١) ابن طولون: تاريخ الصالحة ج ١ ص ٣٤٦ . ٣٤٨ . كرددعلي: خطط الشام ج ٦ ص ١٥٨ . ١٥٩ . أحمد عيسى: تاريخ البيمارستان في الإسلام ص ٢٢٨ . ٢٤٤ .

وجبة من الأطعمة، لذلك اهتم المحتسب بمراقبة الجزارين ليمنعهم من الغش، وكذلك الإشراف على شؤون النظافة^(١).

وعلى مقربة من أسواق الجزارين انتشرت حوانيت الشوائين، وباعة الأطعمة والأشربة وكانت هذه الحوانيت موضع لقاء لمختلف الناس لتبادل الأحاديث، والحوار أيضاً وعقد الصفقات مع نيل قسط من الراحة، ذلك أن المدن الإسلامية لم يكن فيها ساحات أو أبنية للنشاطات العامة. لقد اعتمد أهل دمشق ومعظم مدن الشام في أطعمتهم مبدأ التغميس، وأكثروا من طبخ الثريد أو تحضير « الغمة » وهي طعام يحضر بالاعتماد على رأس الذبيحة وأمعائها ومعدتها، وكانت الأسرة أو الأكلة يلتفون حول خوان واحد يستخدمون أيديهم بدلاً من الملاعق وغيرها من أدوات الطعام، ومن أشهر أنواع الطعام المعروفة زمن الأيوبيين: الدميس؛ وهو ألوان الطعام المدمسة، والصحناء، ويتخذ من السمك، والصير، والبطارخ (يوجد داخل السمك) والنيرة (الحلاوة المصنوعة من القمح) ويبدو أن أهل دمشق لم يهتموا بأكل الأسماك، وكانوا يؤثرون بعد أنواع الحساء خاصة ما حمل اسم الهريسة^(٢). وأقبل الناس على صنع النقانق وابتاعها بسهولة طبخها ويسر استخدامها^(٣).

وفي ثانيا كتب الاحتساب ذكر الكثير من أنواع الحلويات مثل كعب الغزال - والخبائض الناعمة والرطوبة والصابونية. مما كان يصنع بالسميد والطحين، ويحتاج إلى السمن والعلس والسكر، ورواج صناعة الحلويات يفيد أن المجتمع الشامي لم يعان من قصور في الموارد، ذلك أن هذه الحلويات كانت

(١) الشيزري: المصدر السالف ص ٢٧ - ٢٩ - ابن الأخوة: المصدر السالف ص ١٥٨ - ١٧١ - ابن بسام: المصدر السالف ص ٣٤ - ٣٦.

(٢) الشيزري: المصدر نفسه ص ٣٦ - ٣٧ - الرمادي: صلاح الدين الأيوبي ص ٦٢.

(٣) الشيزري: المصدر السالف ص ٣٨ - ٣٩ - ابن بسام: المصدر السالف ص ٣٦، ابن الأخوة: المصدر السالف ص ١٥٨.

تصنع في الأسواق لتباع إلى كافة الناس، ولا علاقة هنا بينها وبين ما كان يحضر داخل قصور الحكام ورجال السلطة^(١).

- الاهتمام بالمظهر الخارجي للناس:

اهتم أهل الشام اهتماماً كبيراً بمظاهرهم الخارجية، واعتنوا إلى أبعد الحدود باللبستهم من حيث الخياطة والألوان، وكان رجال الدين ومازالوا يحرصون أشد الحرص على انعكاسات مظهرهم الخارجي على الناس، وكثيراً ما تحدثت كتب التراجم من علماء ملكوا المهابة والجلالة في المظهر، ولذلك أنفق الناس مبالغ كبيرة على شراء الألبسة والعطور المركبة الغالية من المسك والعنبر، واعتاد الناس ارتياد أسواق البزازين وباعة الأقمشة والخياطين وباعة الملابس المتنوعة.

هذا وقد وقف أهل الحسبة مطولاً مع العطارة والحشائش وصنع العقاقير والأشربة، وقد أغرم أهل الشام باستخدام الروائح الزكية، والأشربة المركبة، والبخور، وكانت دمشق تنتج كميات كبيرة من الورد التي يستخرج منها ماء الورد وكذلك شاع استخدام ماء الزهر بأنواعه في مجالات التعطر والأطعمة^(٢).

- اللباس في العصر الأيوبي:

تعد الملابس من حيث المظهر العام لها دلالاتها الاجتماعية العامة فالبنخ وجودة الأقمشة والأبهة تدل على مكانة المرتدي لمثل هذه الملابس، والعكس صحيح فبساطة الملابس قد تدل إما على الزهد أو على أن صاحب الملابس البسيط فقيراً، أو متوسط الحال وكلما ساء نوع الملابس كلما كانت له دلالاته على بساطة المرتدي له، كما أنّ صنع اللباس من حيث الطول والعرض والضيق والألوان.

(١) الشيزري: المصدر نفسه ص ٤٠ - ٤١ - ابن الأخوة: المصدر نفسه ص ١٨٠ - ١٨٤ - ابن بسام: المصدر نفسه ص ٤٧ - ٤٩.

(٢) الشيزري: المصدر نفسه ص ٤٨ - ٤٩ - ٥٠ - ٥١ - ٥٢ - ٥٣.

وتحتوي مختلف مصادر العصر الأيوبي، إشارات يمكن من خلالها استخلاص أوصاف ملابس رجالات هذا العصر (رجال السلطة من سلاطين وأمراء وقضاء ورجال دين، أما بالنسبة لعامة الناس فالمؤرخون لم يشيروا إلا عرضاً للعامة، ولم يتطرقوا كثيراً إلى ألبستهم).

ومما ذكره ابن جبير عن لباس أهل دمشق في هذا العصر قوله: «وكان أهل دمشق يهتمون بأزيائهم ويطيلون ثيابهم» المحتشم منهم من يسحب ذيله على الأرض شبراً^(١).

يعدّ لباس السلطان لباساً متميزاً به على سائر أفراد الرعية، كما تميز الجند بألبستهم عن المدنيين وكان السلطان شعاره عمامة سوداء، وجبة سوداء مع حزام مذهب يستخدم كحامل للسيف الذي كان بدوره قرابة مذهب وكذا مقبضه، وحتى أن الذهب صب في متنه، وكانت ملابس العلماء أيضاً، وخاصة القضاة منهم ثمينة جداً، وتباهى هؤلاء بأزيائهم، واعتمد كثيراً منهم على المظهر الخارجي كوسيلة من وسائل الهيبة وفرض الوقار، ونقل السيوطي وصفاً لملابس القضاة والعلماء في أيامه وقبلها، فقال: «أما القضاة والعلماء فخلعهم من الصوف بغير طراز فلهم الطرحة، وأصل الصوف أن يكون أبيض وتحتة أخضر وأما زي القضاة والعلماء فدلق متسع بغير تغريق فتحتة على كتفه وشاش كبير منه ذؤابة بين الكتفين، ويميلها إلى الكتف الأيسر ومنهم من يلبس الطيلسان، وأما قاضي القضاة الشافعي فرسمه الطرحة وبها يمتاز، أما لباس الخطباء فهو دلق مدور أسود وشاش أسود وطرحة سوداء...»^(٢).

أما بالنسبة للباس النساء، كانت المرأة تلبس قميصاً من قماش رقيق كشف ما تحته وفوق القميص رداء اسمه الفوقانية، وأولت نساء ذلك العصر

(١) ابن جبير: المصدر السالف ص ٢٨٦

(٢) السيوطي: حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة ١٢٢٧ هـ ج ٢ ص ١٧٠.

اهتماماً كبيراً في صنع الألبسة لذلك أسرفن في الأقمشة وتوسيع أكمام الثياب^(١).

وأيضاً اهتمت النساء في صنع السراويل من حيث اللون والطول والقصر وشكل التكة ونوعية الجواهر والحلي المستخدمة عناية كبيرة، كما كانت النساء يلبسن طواقي مرتفعة فوق رؤوسهن أما الأحذية فكانت متنوعة، منها ما صنع من الجلد الملون ليستخدم خارج البيت، ومنها أنواع صنعت لتستخدم داخل البيت، ويروى أن بنات الخطا من النساء كن يلبسن السراويل الحمر^(٢).

ووضعت بعض النساء أقتعة مختلفة الألوان والأحجام حول الوجه لكن هذا لم يمنع أن بعض النساء كن يظهرن سافرات الوجوه في الشوارع والأماكن العامة وأثناء الاحتفالات والأعياد والمناسبات المختلفة^(٣). لقد كانت أسواق الملابس تعج دوماً بالناس نساءً ورجالاً وشهدت هذه الأسواق نشاطاً اجتماعياً متميزاً من ذلك المنافسات بين منتجي الأقمشة والخياطين ومضاربات الأسعار، كما أن كثيراً من الناس كانوا يذهبون إلى هذه الأسواق لرصد بعض النساء أو المعاكسة أو للتعرف أو لإقامة علاقات وغير ذلك وعدداً كبيراً من قصص الحب أو سواها نشأت في أسواق الملابس والمنسوجات^(٤).

- عادات أهل دمشق في الجنائز:

ولأهل دمشق عادات معينة في جنائزهم ويشير ابن بطوطة واصفاً هذه الحالة قائلاً: [ولهم أيضاً في إتيان الجنائز رتبة عجيبة، وذلك أنهم يمشون أمام الجنائز والقراء يقرؤون القرآن بالأصوات الحسنة، والتلاحين المبكية التي تكاد النفوس تطير لها رقة، وهم يصلون على الجنائز بالمسجد الجامع قبالة المقصورة،

(١) ابن الفرات: تاريخ ابن الفرات ط بيروت ١٩٣٦ - ج ٩ ص ٢٦٧ - ٢٦٨.

(٢) المقرئزي: السلوك ج ١ ص ٨٠٢.

(٣) ماير: الملابس المملوكية - ترجمة عربية - القاهرة ١٩٧٢ - ص ١٢٣ - ١٢٢.

(٤) الشيرزي: المصدر السالف ص ٥٦ - ٦٨.

فإن كان الميت من أئمة الجامع أو مؤذنيه أو خدامه أدخلوه بالقراءة إلى موضع الصلاة عليه، وإن كان من سواهم قطعوا القراءة عند باب المسجد وأدخلوا الجنائز. وبعضهم يجتمع له بالبلاط الغربي من الصحن بمقربة من باب البريد فيجلسون وأمامهم ربعات القرآن، يقرؤون فيها، ويرفعون أصواتهم بالنداء لكل من يصل للعزاء من كبار البلدة وأعيانها، فإذا أتموا القراءة، قام المؤذنون فيقولون: « افكروا واعتبروا: صلاتكم على فلان الرجل الصالح العالم » ويصفونه بصفات من الخير، ثم يصلون عليه، ويذهبن به إلى مدفنه^(١).

- زيارة القبور:

أباح النبي ﷺ للمسلمين زيارة القبور، ويجب على الزائر أولاً أن يخلص النية، ويقصد بزيارته وجه الله فإذا ما دخل إلى مكان المزار قال: « السلام عليكم دار قوم مؤمنين، وإنا بكم إن شاء الله لآحقون ». ثم يتوجه بمخاطبة أرواح الأموات، وينبغي أن يأتي القبر من تلقاء وجه الميت. « فيقف مستدبر القبلة مستقبلاً وجه الميت، فإنه في زيارته ومخاطبته ميتاً كمخاطبته حياً، وأن يسلم على الميت كمن يسلم على من يزوره^(٢) ».

وتدل آداب الزيارة هذه على أن المسلمين ورثوا معتقدات قديمة تتعلق بفناء الأجسام وبقاء الأرواح التي تمتلك قدرات كبيرة جداً قادرة على الإلهام والشفاء. لا بل أكثر من هذا قادرة حتى على توجيه الضرر والأذى لمن أساء الأذى تجاهها وارتبطت بآداب الزيارة والتردد على القبور ظهور حكايا كثيرة روت أن بعض الناس كان قد رأى جماعات من الأموات تحدثوا عن قضايا كثيرة، منها كيفية حسابه وما يلاقونه من رب العالمين^(٣).

(١) ابن بطوطة: المصدر السالف. ص ١٢٤.

(٢) ابن الزيات: الكواكب السيارة في ترتيب الزيارة طبعة مصورة مكتبة المشي بغداد ص ١٤ - ١٦.

(٣) ابن الزيات: المصدر نفسه ص ١٧ - ١٨.

ولا شك أن زيارة القبور والحديث عن الأموات هي ظاهرة اجتماعية عبر فيها الناس عن مشاعرهم في أن الموت لم يقطع اتصالهم بذويهم وأصدقائهم لخلود الروح، والتخاطب بين الأرواح لا يمكن أن يتوقف أبداً، فالأرواح جنود مجندة^(١). لقد كانت بعض الزيارات تتم موسمياً إلى قبور محددة حيث كانت تعقد الأسواق وتتم بعض أنواع الاحتفالات حسب الطريقة الصوفية في الذكر، واستخدام رقصات الدراويش مع الموسيقى^(٢).

وغالباً ما استخدمت زيارة قبور الصالحين والأولياء كوسيلة من وسائل الاستشفاء من مرض مستعصي أو في سبيل الحصول على حل لأزمة أو معضلة من المعضلات فلقد كانت عقلية الناس تؤمن بالقيبيات إيماناً مطلقاً، ولذلك راجت حكايا الكرامات، وأعمال الإعجاز حتى أن المعجزات تعدت في تأثيرها الإنسان فشملت النبات والحيوان وغير ذلك^(٣).

لقد أبدى عامة الناس احتراماً كبيراً لموتاهم، وعدّوا المدافن أماكن لها حرمتها، وأنه لا يجوز تناول الذين ماتوا إلا بالخير، ومن هنا جاءت الحكايات التي تحدثت عن أموات اتصلوا بالأحياء في المنام، أو بوسيلة أخرى، وطلبوا منه سداد دين عليهم، أو القيام ببعض الخدمات من وصايا أو رسائل أو أخبار يترتب عليها حل بعض المعضلات والمشكلات الحياتية^(٤).

- الاحتفالات بالأعياد:

اعتاد أهل دمشق على الاحتفال بعدد من المناسبات، ومن هذه المناسبات: الاحتفال بيوم المولد النبوي، ففي هذه المناسبة كان الناس يتجمعون فئات وجماعات في المساجد والزوايا وبعض البيوت الكبيرة، حيث كان هناك عدد

(١) كنز العمال: ج ٩ ص ٢٤٦٦٠ - ٢٤٧٤٠ - ٢٤٧٤١.

(٢) ابن الزيات: المصدر نفسه ص ٨٧ - ٩٨.

(٣) ابن الزيات: المصدر السالف ص ١٠٥.

(٤) ابن الزيات: المصدر نفسه ص ١٩٥ - ٢٠٣.

من المنشدين ورجال الدين وأتباع الطرق الصوفية، ويقوم منشدون بقراءة قصة المولد النبوي الشريف مع عدد من الأناشيد الدينية، والمدائح النبوية، وفي كثير من الأحيان كان هذا الاحتفال يختتم بحلقات للذكر ورقص الدراويش مع توزيع الحلوى، واستخدام كبير لماء الزهر والبخور والمسك، والروائح الطيبة، وكل ما يدل على السرور بهذه المناسبة، كما احتفل أهل دمشق بيوم عاشوراء، وأعدوا لهذا اليوم أطعمة خاصة حضرت وفق طرائق خاصة، كما واحتفلوا بليلة الإسراء والمعراج، وليلة النصف من شعبان، حيث صنعوا أنواعاً خاصة من الحلوى الملونة، كما واحتفلوا بليلة القدر وبمناسبات دينية أخرى، وفي جميع هذه المناسبات شغل رجال الدين مع أتباع الطرق الصوفية الدور الأعظم.

هذا وقد احتل شهر رمضان بليله ونهاره مكانة خاصة لدى المسلمين في دمشق، حيث اعتادوا على زيادة إنارة المساجد وإحراق كميات أكبر من الشمع، وكان المنشدون ينشطون في المآذن في داخل المساجد ومعهم قراء القرآن ومع اقتراب نهاية شهر رمضان أكثروا من ترديد الأناشيد الدينية التي تحمل معاني الوداع لشهر رمضان والتأسف عليه.

هذا وقد شغل المسحر في رمضان دوراً كبيراً في تنقله في الأحياء قبل الفجر بساعات يحمل في يده طبلية صغيرة ويُعلق على كتفه كشكولاً كبيراً. كان يضع فيه صنوف الأطعمة والحلوى التي كان الناس يهدونها إليه لقيامه بمهمة إيقاظهم لتناول طعام السحور^(١).

ومع إطلالة العيد تفتح الحوانيت ليلاً ونهاراً ويشتري الناس اللحوم والحبوب والحلوى لإعداد طعام العيد وحلواه، وفي صباح العيد يلبس الناس أحسن ثيابهم وغالباً ما كانت جديدة أعدت لهذه المناسبة خصيصاً، فيتوجهون إلى المصلى لصلاة العيد وكان لكل مدينة مصلاها العام في أحد أطرافها وبعد الفراغ من

(١) إبراهيم زعور: المرجع السالف ص ١٦٧.

صلاة العيد يتوجهون إلى المقابر لزيارة موتاهم ومن ثم يعودون إلى بيوتهم لتناول طعام الإفطار والشروع بزيارات المعايدة المتبادلة بين الأهل والجيران والأصدقاء، وفي أيام العيد كان بعض من اختص بأعمال الغناء أو بأعمال تستهدف جميعها إدخال السرور على النفوس، فهناك من كان يلبس الثياب الفريية ويقدم الرقصات في إحدى الساحات أو في الأزقة والشوارع، وهناك من كان يقوم بإعداد بعض وسائل اللهو واللعب للأطفال، أو من كان يعرض ألعاب بعض الحيوانات من تيوس وقردة وديكة، كما عرضت بعض أعمال الفروسية وسباق الخيل^(١). وبعد مضي العيد بأيام قليلة كانت مدن الشام تشهد نشاطاً موسمياً يشارك فيه الشاميون وغيرهم من المسلمين الذين قدموا إلى بلادهم من البلدان المجاورة، ونعني بذلك الاستعدادات للذهاب إلى الحج، فهذه الاستعدادات كانت تستغرق أكثر من شهر من الزمان واحتفل أهل دمشق بتوديع قوافل الحجاج واستقبالها.

هذا وقد لفت انتباه ابن جبير تعظيم الدمشقيين للحجاج بمناسبة عيد الأضحى وخروج الناس لتلقي قوافل الحجيج مع الكرم الشديد الذي اتسم به أهل الشام للفرعاء^(٢).

ومن أطرف ما ذكرته المصادر في وصفها لبعض الاحتفالات، ما حدثا به ابن بطوطة فقال: « ومن عادة أهل دمشق وسائر تلك البلاد أنهم يخرجون بعد صلاة العصر في يوم عرفة فيقفون بصحون المساجد، كبيت المقدس، وجامع بني أمية وسواها، ويقف بهم أئمتهم كاشفي رؤوسهم، داعين خاضعين خاشعين متلمسين البركة، ويتوخون الساعة التي يقف فيها وفد الله تعالى وحجاج بيته بعرفات ولا يزالون في خضوع ودعاء وابتهاال وتوسل إلى الله تعالى بحجاج بيته إلى

(١) أحمد بن محمد الحموي: النفحات المسلكية في صناعة الفروسية ط بغداد ١٩٥٠ ص ٦١ - ٦٩.

(٢) ابن جبير: المصدر السالف ص ٢٧٥.

أن تغيب الشمس فينفرون كما ينفرون الحاج، باكين على ما حرموه من ذلك الموقف الشريف بعرفات^(١).

- وسائل الترفيه وأنواع الرياضة في المجتمع:

إن الوضع العام في البلاد والمتمثل بالجهاد ضد الصليبيين من أجل تحرير البلاد، كان له أثره الواضح في المجتمع حتى في أوقات الراحة والترفيه عن النفس والرياضة بشكل عام.

هذا وقد حوت دمشق الأيوبية على ميدانين كان يرتادهما السلاطين والأمراء بانتظام يلعبون فيهما بالكرة والصولجان، فيروضون خيولهم ويتمنون هم أيضاً منتظرين وقت الجهاد، وكان أحد الميدانين هو الميدان الأخضر، يمتد غربي المدينة على مرج فسيح أخضر قرب نهر بردى، يعرف سابقاً بمرج الزنبقة، يبلغ نحو ٥٠٠/ م في ١٥٠/ مترو في أطرافه معالم تشير إلى الأهداف وحوله إطار من الشجر، أما الميدان الثاني وهو أصغر من الأول، فكان يقع جنوبي المدينة ممتد على أرض حصباء، ولهذا دعي «بميدان الحصى» ولم يكن الميدانان مختصين بالألعاب فحسب، بل كانا بمثابة معسكرين لإنزال الجيوش فيهما عندما تضيق القلعة وتزدحم^(٢).

وكان صلاح الدين رياضياً يحب الفروسية ولعب الكرة، وكان يركب لمشاهدة مباريات الكرة والصولجان بعد صلاة الظهر ومعه رجاله، حتى إذا ما وصل إلى الميدان نزل ليشاهد اللعب، ويستمر المتبارون في لعبهم حتى أذان العصر، ويصلي العصر ويرجع بالهيئة التي غادر بها، وكان يشترك في هذه المباريات في بعض الأحيان مع خاصته وينطلق للعب مع رفاقه^(٣).

(١) ابن بطوطة: المصدر السالف ص ١٢٣ - ١٢٤.

(٢) ابن جبير: الرحلة ص ٢٧٧ - صفوح الخير: مدينة دمشق دراسة في جغرافية المدن ص ١٦٧.

- جان سوفاجيه: دمشق الشام لمحة تاريخية نقلها إلى العربية فواد أفرام البستاني ص ٢٥.

(٣) الرمادي: صلاح الدين الأيوبي ص ٦٠.

وكان الصيد من أحب الهوايات عند الناس في هذا الوقت، وكانوا ينطلقون زرافات ووحداناً لصيد الطيور والأسماك والإوز والعصافير والأرانب، وكان سلاطين بني أيوب يهتمون برياضة الصيد أوقات راحتهم^(١).

ومما قاله ابن شداد في هذا المجال: « أن السلطان صلاح الدين بعد عودته من تصفح أحوال القلاع الساحلية دخل دمشق سنة (٥٨٩ هـ / ١١٩٣ م) وفيها أولاده الملك الأفضل والظاهر والظافر وأولاده الصغار، وكان السلطان العادل قد توجه إلى دمشق من الكرك يريد البلاد الفراتية، خرج السلطان صلاح الدين لاستقباله، وأقام يتصيد حوالي عباب إلى الكسوة حتى لقي العادل، ثم دخلا دمشق، ثم أقام السلطان يتصيد هو وأخوه وأولاده، ويتفرجون في أرض دمشق، وموطن الأطباء»^(٢).

ومن الألعاب المشهورة في هذه الحقبة، اللعب بالجفانة « القيثارة »^(٣) كذلك اهتم الناس بالرياضة العقلية، وهي لعبة الشطرنج حيث أنهم كانوا يمارسونها أيضاً^(٤).

ومن الألعاب المألوفة والتي عرفها المجتمع الدمشقي لعبة « خيال الظل » منذ ما قبل العصر الأيوبي واستخدامها بشكل واسع في مختلف المناسبات خلال العصر الأيوبي حسبما رواه لنا ابن حجة الحموي^(٥).

(١) التاريخ المنصوري: ص ١٢٥. مفرج الكروب في أخبار بني أيوب ص ٣٦. الرمادي: المرجع السابق ص ٦١.

(٢) ابن شداد: سيرة صلاح الدين ص ٢٣٠ - ٢٨٨.

(٣) الحنبلي: شفاء القلوب في مناقب بني أيوب ص ٢٩٥.

(٤) الرمادي: المرجع السالف ص ٦١.

(٥) علي بن محمد بن حجة الحموي: ثمرات الأوراق في المحاضرات، طبع على هامش المستطرف القاهرة ١٣٦٨ هـ / ج ١ ص ٤٨.

- الفروسية:

يعدّ تراث الفروسية تراثاً غنياً في بلاد الشام، وقد أوصى النبي صلى الله عليه وسلم المسلمين بتعليم الفروسية والمناضلة والرمي^(١) لذلك كانت الجيوش الأيوبية كثيراً ما تختتم أعمالها التدريبية وسط مظاهر احتفالية في ميادين مخصصة داخل المدن أو في أطرافها، وحوت كل مدينة شامية قرب القلعة على ساحة كبيرة كانت تسمى ميدان، وهي عبارة عن ساحة تشبه الدائرة تجري فيها الاحتفالات والتدريبات العسكرية، وأعمال السباق والرمية، وكان يدعى إليها الجمهور ويتهجوا فيها كثيراً، وكانت بعض هذه الاحتفالات تعقد في نهاية كل أسبوع أو بشكل متواتر خلال تواريخ محددة^(٢) كانت أعمال السباق تتم بين الخيل وبين البغال والحمير والجمال، وكان الناس يتراهنون ويكسبون الأموال أو يخسرونها نتيجة لذلك، وهذا ما دفع بعض الفقهاء إلى مناقشة موضوع الحلال والحرام، وموقف الدين من قضايا المراهنات^(٣).

وكان الفرسان يقومون أثناء الاحتفالات باستعراضات ومبارزة متتالية بالسيوف والرمح وكان بعضهم يقوم بإظهار براعته ومهارته في ركوب فرسين أو في القفز من الأرض إلى ظهر الفرس وغير ذلك من أعمال بهلوانية تثير حماس الجمهور، وعبر بعض الفرسان عن إتقانهم لاستخدام السيوف بأن قاموا أثناء الاحتفالات برمي مناديل حريرية إلى الهواء، وقطعها بالسيوف أو قطع وسائل محشوة بالقطن، وكان بعض الفرسان والجند يظهر براعته باستخدام السكاكين والخناجر والمزاريق والفؤوس أو بالرمي بالنشاب، فقد كان الناس يتبارون برمي النشاب حيث توضع لهم دريئة يرمون عليها، وكانت الدريئة تسمى

(١) محمد بن أبي بكر الزرعي (ابن قيم الجوزية): الفروسية، طبعة مصورة دار الكتب العلمية بيروت ص ٥٠٢.

أحمد بن محمد الحموي: النفحات المسكية في صناعة الفروسية ط بغداد ١٩٥٠ ص ١٣ - ١٥.

(٢) د. إبراهيم زعرور: المرجع السالف ص ١٨٢.

(٣) ابن قيم الجوزية: المصدر نفسه ص ٢٠ - ٢٩، الحموي: المصدر نفسه ص ١٤ - ١٧ - ٣١ - ٣٧.

بالقرطاب، أو يوضع ما دعي باسم البرجاس للرمي عليه وهو أشبه بأسطوانة مجوفة كان على الرماة إظهار براعتهم بتمرير رماحهم ونشابهم من خلالها^(١). ولم تكن رياضة الفروسية حكراً على أهل المدن اختصوا بها، بل شارك في هذه النشاطات في المدن وخارجها سكان الأرياف والبدو، واعتنى البدو كما سكان الأرياف بالخيل العربية الأصيلة واهتموا بنقاء أنسابها، وهذا تقليد ما زالت بلاد الشام متميزة به.

- زيارة المنتزهات في دمشق وضواحيها:

امتلكت بلاد الشام طبيعة خلابة متميزة، وهذا ما لفت انتباه جميع الذين زاروا البلاد من الرحالة، وقد استغل الشاميون جمال طبيعة بلادهم أحسن استفلال، وتفاعلوا مع الجمال فاستعاروا منه رقة الطبع والدمائة والإحساس بالجمال ورقي الذوق، وحسن التخاطب مع الطبيعة والناس، ولقد شعر بهذا جميع من زار بلاد الشام وهو ما زال حياً يمكن أن يراه الإنسان في كل بقعة من بقاع دمشق، ودمشق هي المثل الشامي الأعلى. لقد اعتاد أهل دمشق في مختلف المناسبات، وخاصة في فصل الربيع ومطلع فصل الصيف الذهاب إلى مشاهدة الفوطة ومنتزهاتها، وكانوا يقصدون أحياناً بعض المواقع القريبة من دمشق مثل الزيداني وغيرها، كما حوت ضواحي مدينة دمشق عدة منتزهات عامة ملكت جميع الخدمات التي كان الناس يحتاجونها في ذلك العصر.

يقول أبو البقاء عبد الله بن محمد الدمشقي في كتابه نزهة الأنام في محاسن الشام: «ومن محاسن الشام (بين النهرين) وهو مبتدأ الوادي يشتمل على فرجة سماوية بها دور وقصور وسويقة بها حانوت طباخ وصاجاتي وقطفاني وفقاعي وحواضري وفاكهاني وشوا وقلاجين وسكرداني ونقلي، وقاعة لبن، وعدة للجلبية، ومما ذكره أيضاً في وصف هذا المنتزه، وجود مقصفان يرتادهما البطالين، وقبالهما زاوية للشباب التائب يقام بها السبت والثلاثاء من الأوقاف

(١) الحموي: المصدر السالف ص ٦١ - ٦٩.

بالوعاظ والدواخل ما يصير الحاضر غائباً، ويتوصل إلى زقاق فيه قاعات وأطباق وغرف وسم رواق، والجميع مشرف على بردى^(١).

وهناك منتزهات أخرى في دمشق أوقفت على جميع الناس منها منتزه الجبهة وهي أرض مربعة قدر فدانين، عليها سقائف تظلها من غير طين بين شجر الصفصاف والجوز والحوار وكل مفرش حصير تحيط به جداول الماء من أربع جهاته مع البرك والبحرات بالنواهر، وهي على جنب نهر بردى وبه النواعير وبها حوانيت للشرابية والجزارين والطباخين والحواضرية والإقسماوية والنكاهين وغير ذلك.

وبها مسجد ومدرستان ومربط الدواب ومقاصفيه واقفون في خدمة الناس وعندهم اللحف والأنطاع والعبي لمن ييات «^(٢)».

وهناك منتزه قطيه، وهو عبارة عن مقصف على نهر بردى وعليه النواعير متشعبة أراضيها بجداول الماء والبرك والبحرات، وبه قصبه ذات حوانيت يعلوها أربعة أطباق ومربط للدواب، وعند المقاصفي العبي واللحف والأنطاع حتى الأطباق والملاعق لمن يأكل، وهذا مما لا يوجد في بلد من البلاد^(٣).

أما ربوة دمشق فهي من المنتزهات العظيمة الشأن، والربوة كما وصفها البدرى، بأنها مغارة لطيفة بسفح الجبل الغربي وبه صفة محراب، يقال: أنه مهد عيسى عليه السلام يزار، وينذر له. وبها جامع وخطبة، ومدارس، وعدة مساجد، وبها قاعات، وأطباق وفيها عين ماء يقال لها «الملثم» ومرابط للدواب وبها سويتان قاطع بينهما نهر «بردى» وبها صيادوا السمك يصطادون والقلايون على جبل النهر يقلونه، ويذبح فيها كل يوم خمسة عشر رأساً من الغنم خلاف ما يجيئها من اللحم من المدينة، وبها عشرة شرايحية ليس لهم شغل

(١) البدرى: نزهة الأنام في محاسن الشام ط١ بيروت ١٩٨٠ ص٢٧.

(٢) البدرى: المصدر السالف ص٤٥.

(٣) البدرى: المصدر نفسه ص٤٦.

غير الطبخ والغرف في الزيادي والصحون، وكل ما تشتهي الأنفس فيها، وبها
فرنين وثلاثة حوانيت برسم عمل الخبز الشوري، وأما الفواكه فلا قيمة لها
لكثرتها من مشمش وتفتح، وبها حمام ليس على وجه الأرض نظيره لكثرة مائه
ونظافته، وله شبابيك تطل على النهر وهو مبني ما بين الأنهر من فوقه ومن
تحتة. وبها طارقة المسجد الديلمي الذي جدده نور الدين الشهيد، وله أوقاف على
قراء ووعاظ وقراءة البخاري وغير ذلك كالمؤذن والفراش والبواب والوقاد^(١).

وهذه القاعة التي بناها نور الدين الشهيد هي على شعب جبل جميعها متخنة
بالواح من خشب سقفها (نهر يزيد)، وأساسها من تحتها (نهر ثورا)، ومنظرها
من الغابات التي لا تدرك، وقبالها في الجبل الغربي ضريح العاشق والمعشوق،
وعليهما صومعتان مبيضتان، وبينهما سبعة مقاصف كل مقصف فيه من
الثريات والمصاييح والغطاء والوطاء مالا يحتاط به الوصف حتى أن بعض الناس
يطلع إليها ليتنزه فيها يوماً فيقيم بها شهراً، وجبالها متقابلان متلاقيان عليها
الجبل الغربي بذيله دف الزعفران والجبل الشرقي رأسه مثل الجنك، ويقال: أن
نور الدين بناها للفقراء لكي يتنزهون إليها^(٢).

(١) البدري: المصدر السالف ص ٤٨ - ٤٩.

(٢) البدري: المصدر نفسه ص ٤٩ - ٥٠.

الفصل الخامس

الحالة الثقافية في دمشق الأيوبية

العناية الأيوبية بالناحية الثقافية:

لم تنحصر شهرة الأيوبيين في الدفاع عن البلاد الإسلامية وتوحيدها وتحرير ما اغتصب منها فقط، بل كانت شهرتهم أكثر فأكثر باهتمامهم بالعلم والعلماء، وما قدموه في هذا الجانب الهام من حياة دولتهم، حيث غدت الروح السائدة فيها، روح الثقافة والعلم. لقد عمل الأيوبيون في دمشق على تنشيط العلم، وعززوا مكانته في البلاد قاطبة، حتى لم يكن يضاھيهم في عصرهم في هذه الناحية أحد، وقد بذلوا للعلماء ثمن علمهم بكرم وسخاء، وشيدوا لهم المدارس، والمعاهد، فوفد العلماء من كل قطر وناحية إلى هذه البلاد التي راجت فيها بضاعتهم^(١).

وترجع الروح العلمية ونشاطها وسيادتها في الدولة الأيوبية إلى أن الأيوبيين هم أنفسهم كانوا علماء، وان كثيرا منهم لهم مؤلفات متنوعة في العلوم والفنون، وقل من الأيوبيين من لم يكن شاعرا أو لم يقل الشعر^(٢) لقد عني صلاح الدين بأمر الثقافة، ونشرها في أرجاء بلاده، حيث انه كان كلما سمع بعالم ممتاز زين له المجيء إلى بلاده، وحقق له جميع رغباته، وكان يغدق على المدرسين، ويوسع الرزق على القائمين بشؤون الثقافة، حتى صارت

(١) السبكي: طبقات الشافعية الكبرى ج٤ ص٢٢٩، دهمان: في رحاب دمشق ص٢٦٠.

(٢) ابن خلكان: وفيات الاعيان ج١ ص٢١٥ - ابن كثير: الكامل ج١٢ ص١٨٢ - جرجي زيدان: تاريخ آداب اللغة العربية ج٣ ص١٠.

أرزاق أرباب العمائم إقطاعا وراتبا، تتجاوز مئتي ألف دينار وربما كانت ثلاثمائة ألف دينار^(١).

وقد وصف البغدادي الحياة العلمية في دمشق، وصورها أحسن تصوير حين جاء الى الشام، واجتمع بالسلطان صلاح الدين في القدس، قال: " كتب لي صلاح الدين بثلاثين دينارا في كل شهر على ديوان الجامع الأموي بدمشق، وأطلق لي أولاده رواتب، حتى تقرر لي في كل شهر مئة دينار، فرجعت إلى دمشق، وأكسبت على الاشتغال وإقراء الناس في الجامع."

ويقول عن نفسه: " لما دخلت دمشق وجدت فيها من أعيان بغداد، والبلاد ممن جمعهم الإحسان الصلاحي جمعا كثيرا، منهم جمال الدين عبد اللطيف، وابن طلحة الكاتب، وابن العطار، وابن هبيرة، والكندي البغدادي، وابن ناتلي الذي كان يدرس الكيمياء، وعلم الطبيعيات في الجامع الأموي"، ويضيف البغدادي عن نفسه انه صنف في دمشق تصانيف جمة، منها غريب الحديث الكبير، ومختصره المسمى بالمجرد، وكتاب الواضح في أعراب الفاتحة، وكتاب الألف واللام، وكتاب في الذات، والصفات الذاتية الجارية على أسنه المتكلمين وغيرهم^(٢).

كما تطرق العالم الأندلسي الشهير محمد بن جبير الأندلسي الغرناطي الذي زار دمشق سنة (٥٨٠هـ / ١١٨٤م) فاندعش بما رآه من أوقاف دمشق، التي أوقفت تعريزا للعلم والعلماء، واخذ يحث أهل الأندلس على الرحلة إلى دمشق للارتواء من مواردها العلمية، فيقول: " فمن شاء الفلاح من نشأة مغربنا فليرحل إلى هذه البلاد، ويتغرب في طلب العلم، فيجد الأمور المعنيات كثيرة، فأولها فراغ البال من أمر المعيشة وهو أكبر الأعوان وأهمها". كذلك وصف ابن

(١) ابن عنين: ديوان ابن عنين المقدمة ص ١٣ - ابن كثير: الكامل ج ١٢ ص ١٨٣.

(٢) البغدادي: وصف مصر ص ٧ - ٨ - ١٠ - دهمان: في رحاب دمشق ص ٢٦١

جبير^(١) الجامع الأموي وصفا حيا، وانه كان بمنزلة جامعة كبيرة تدرس فيه العلوم والفنون.

ويذكر انه كان فيه أيضاً تعليم ابتدائي للأطفال والأيتام، وانه كان ينفق عليهم من أوقاف الجامع جميع ما يحتاجون إليه من ثياب وطعام، وذكر أن مورد الجامع الأموي كان يزيد على خمسة عشر ألف درهم، وقد زادت واردات الجامع بعد ذلك زيادة عظيمة^(٢).

حيث بين القزويني^(٣) في كتابه (آثار البلاد وأخبار العباد). إن واردات الجامع الأموي في عصره، كانت تبلغ كل يوم ألفاً ومئتي دينار، ولا يخفى أن هذه الواردات كانت تتفق في سبيل العلم وتعزيز مكانته، لقد كان صلاح الدين يجمع حوله رجال العلم، ويحضر مجالسهم ليستمع إليهم، ويشاركهم في أبحاثهم، كما انه كان مولعاً بالأدب مشجعاً للأدباء^(٤).

فقد استخدم العماد الأصفهاني في الكتابة، وكان القاضي الفاضل قد قدمه إليه على الرغم من تمسك صلاح الدين بالقاضي الفاضل في بداية الأمر، حيث خاطبه قائلاً: "أنت كاتبني ووزيرني" كذلك كان ابنه العزيز عثمان من المهتمين بعلم الحديث، والفقه وعلم النحو، ويذكر انه سمع الحديث من الحافظ السلفي، والفقهاء أبي طاهر ابن عوف الزهري، وسمع بمصر من العلامة أبي محمد بن بري النحوي وغيرهم.

لم يكن صلاح الدين الوحيد في البيت الأيوبي ممن اشتهروا بحبهم للعلم، والعلماء، بل تعداه في ذلك ابن أخيه الملك المعظم بن العادل، حيث عد الملك المعظم صاحب دمشق عالم البيت الأيوبي من غير منازع، وحامل راية ثقافتهم

(١) ابن جبير: الرحلة ص ٢٦٠.

(٢) ابن جبير: الرحلة ص ٢٦٠.

(٣) القزويني: آثار البلاد وأخبار العباد ص ١٩١.

(٤) ابن واصل الحموي: التاريخ الصالح ص ٤٤ - السبكي: طبقات الشافعية الكبرى ج ٤ ص ٢٩٢

- ابن خلكان: وفيات الأعيان ج ١ ص ٣١٥.

وفخر دولتهم على مر الزمان، ويقول الأستاذ خليل مردم بك: " إن الملك المعظم من بني أيوب كالمأمون في بني العباس " (١).

ولد المعظم سنة (٥٧٨هـ/١١٨٢م) على رأي ابن خلكان (٢) أو سنة (٥٧٦هـ/١١٨٠م)، على رأي سبط بن الجوزي (٣) ونشأ كبقية السلاطين الأيوبيين، فتعلم الفروسية وإدارة البلدان وأصول الحرب وقيادة الجيوش، وملكت عليه الروح العلمية والأدبية مشاعره، فلم يكن له مطامع في التوسع والاستيلاء على أراضي غيره، بل قنع بمملكته التي كانت تمتد من حدود حمص إلى العريش، فتشمل دمشق ونواحيها، وبلدان السواحل الإسلامية، والغور وفلسطين والقدس والكرك، والشوبك وصلخد وجميع بلاد حوران. (٤) يقول ابن الأثير: " نفق العلم في سوقه، وقصده العلماء في الآفاق فأكرمهم، وأجرى عليهم الجرايات الوافرة وقربهم، وكان يجالسهم، ويستفيد منهم ويفيدهم، وكان يرجع إلى علم وصبر على سماع ما يكره، لم يسمع أحد ممن يصحبه منه كلمة سوء " (٥).

ويقول ابن خلكان عنه: " انه كان عالي الهمة حازما، شجاعا، مهيبا، فاضلا، جامعا شمل أرباب الفضائل، محبا لهم، كان يحب الأدب كثيرا، وله رغبة فيه " (٦).

ويقول أبو المظفر سبط بن الجوزي في مرآة الزمان: " الملك المعظم، العالم الفقيه، المجاهد في سبيل الله، النحوي، اللغوي " (٧) وأطلق عنان القلم في ذكر محاسنه، وترجمته في عدة أوراق وعلق ابن تغري بردي في ذلك بقوله: " قلت،

(١) ابن عنين: ديوان ابن عنين - طبع المجمع العلمي والأدبي ص ١٤.

(٢) ابن خلكان: وفيات الأعيان ج ١ ص ٥٠١.

(٣) سبط، ابن الجوزي: مرآة الزمان ج ٨ ص ٤٢٥.

(٤) ابن خلكان: المصدر نفسه ج ١ ص ٥٠١.

(٥) ابن الأثير: الكامل ج ١٢ ص ١٨٣.

(٦) ابن خلكان: وفيات الأعيان ج ١ ص ٥٠١.

(٧) سبط، ابن الجوزي: مرآة الزمان ج ٨ ص ٤٢٥.

ويحق له ذلك فإن المعظم كان في غاية ما يكون من الكمال في عدة علوم وفنون، وهو رجل بني أيوب وعالمهم ومحاسنه أشهر من أن تذكر^(١).
لقد كان المعظم سلطان الشام الجنوبي (دمشق - فلسطين - شرقي الأردن - حوران) ينزل من قصره في قلعة دمشق، يتخطى الطرقات إلى دار أستاذه تاج الدين الكندي في جيرون (حارة النوفرة شرقي الجامع الأموي) والكتاب تحت إبطه^(٢).

وربما كان الطلاب مستمرين في درسه، فيسكتون عند حضوره، فيقول الملك المعظم لأستاذه: " لا والله إنما القراءة بالنوبة فليتموا"^(٣)
ومن الكتب التي قرأها المعظم على أستاذه الكندي "المفصل" للزمخشري، وكان يحفظه غيباً، وكتاب سيبويه، وشرحه الكبير للسيرافي، وشرحه لابن درستويه، والإيضاح لأبي علي الفارسي، وكان يحفظه أيضاً، والحجة في القراءات له الحماسة وحفظها على فخر الدين المسعودي، وقرأ عليه الجامع الكبير في الفقه الحنفي، كما سمع مسند الإمام أحمد بن حنبل، وابن طبرزد، وسيرة ابن هشام علي بن المحلى.

وهذه الدراسة كأرقى ما يمكن دراسته للغة العربية، والثقافة الإسلامية، ولا نعلم أحدا اليوم يدرس مثل هذه الكتب.

كما انه انكب على تعلم علم النحو والاشتغال به، فكان يعلن أن كل من يحفظ المفصل للزمخشري له مئة دينار وخلعة، واجتمع القاضي ابن خلكان بجماعة كثيرة ممن كان يحفظه لهذا السبب^(٤).

(١) ابن ثوري بردي النجوم الزاهرة ج ٨ ص ٤٢٥.

(٢) أبي شامة: ذيل الروضتين ص ٩٨.

(٣) ابن خلكان: المصدر السالف ج ١ ص ٥٠١.

(٤) ابن خلكان: وفيات الأعيان ص ٥٠١ - التاريخ المنصوري ص ١٤ - جرجي زيدان: تاريخ آداب اللغة العربية ج ٣ ص ١٠

ويقول سبط بن الجوزي، كان المعظم يحب الفقهاء، ويحرضهم على الاشتغال بالعلم، فيقول: "من يحفظ نص الجامع الكبير للكرماني أعطيته مئة دينار، ومن حفظ الأيضاح لأبي علي الفارسي في النحو أعطيته مئتي دينار، فحفظ الكتابين جماعة ووفى لهم بما شرطه"^(١).

وأمر أن يجمع له في اللغة كتاب جامع كبير في كتاب الصحاح، ويضاف إليه ما فات الصحاح من التهذيب للأزهري، والجمهرة لابن دريد وغيرها^(٢).

وأمر بترتيب مسند الإمام أحمد على الأبواب، وأن يرد كل حديث إلى الباب الذي يقتضيه معناه^(٣)، وهذه فكرة لا تخرج إلا من دماغ عالم مفكر غيور على اللغة العربية، ولم يقف تفكيره عند تأليف معجم كبير جامع للغة العربية، بل اتجه نحو الترجمة أيضاً، فأمر الفتح بن علي البندري بترجمة (الشاهنامة) للفردوسي إلى اللغة العربية، فعرها البنداري فكانت هي الترجمة الوحيدة باللغة العربية^(٤) وأسند وزارة مملكته إلى أشهر شعراء عصره، وهو ابن عنين، فكان عمله هذا أكبر تكريم للأدب العربي والشعر العربي وعطف على العلماء والأدباء عطفاً جعل مملكته تزخر بهم، وشجع حركة التأليف والمؤلفين، فألفت عدة مؤلفات في فنون شتى، أهدي أكثرها إليه، فيقول الفتح بن علي بن محمد البنداري في مقدمة كتاب ألفه له: "خدمة الملك اجتمع فيه من الفضائل ما تفرق في جميع سلاطين الأمم، وصار نظاماً لمحاسن يتزين بأفرادها سائر ملوك العرب والمعجم. مولانا السلطان المعظم، أبي الفتح عيسى بن السلطان الملك العادل أبي بكر بن أيوب"^(٥).

(١) مرآة الزمان: ج ١ ص ٤٢٧ - الحنبلي: شفاء القلوب ص ٢٧٧.

(٢) الكامل لابن الأثير: ١٨٢/١٢ - طبع مصر سنة ١٣٠٣ - البداية والنهاية ج ١٣ - ص ١٢١.

(٣) ابن كثير: المصدر السابق ج ١٣ ص ١٢١.

(٤) مقدمه الشاهنامة: للدكتور عبد الله عزام.

(٥) البنداري: دولة آل سلجوق ص ٥.

ولما دخل سيف الدين الأموي دمشق سنة (٦١٧هـ/١٢٢٠م) انعم عليه الملك المعظم إنعاما شديدا واکرمه غاية الإکرام، وولاه التدريس^(١). وقد ألف الأمدي المذكور له كتاب: "الإحكام في أصول الأحكام" وهو يعد من أجل كتب أصول الفقه والفهم والتحليل والاستنتاج، فقال في مقدمته: "انه ألفه خدمة لمولانا السلطان الملك المعظم المكرم، سلطان الأجواد والأمجاد. أجل عالم، وأفضل من تمتد إليه أعناق الهمم والعزائم، ملك أرباب الفضائل، ناقد خلاص الأفاضل باعث أموات الخواطر، ناشر رفات العلوم الدوائر"^(٢).

لم يقتصر عمل السلطان الملك المعظم على ما أوردناه من حبه وتشجيعه للعلم والعلماء في كافة الاتجاهات العلمية، بل تعدى ذلك، حيث عمل بتأليف العديد من الكتب، منها: كتاب في علم العروض، وكتاب (شرح الجامع الكبير) في الفقه الحنفي، وكتاب (السهم المصيب) في الرد على الخطيب البغدادي^(٣) ولا يطالع الإنسان هذا الكتاب إلا وتأخذه هزة الطرب حينما يقع على الجمل الآتية التي يقول فيها سلطان دمشق: "أنبأنا شيخنا الإمام العلامة حجة العرب أبو اليمن زيد بن الحسن الكندي مشافهة"^(٤).

"وأخبرنا الشيخ الإمام الأوحى أحمد بن عمر بن محمد بن قدامة المقدسي بقرائتي عليه بالبيت المقدسي في صفر من سنة اثنين وعشرين وستمائة"^(٥). إذ يلاحظ أن الملك المعظم يسلك طريق المحدثين في رواية الأخبار بالأسانيد، ومثل ذلك يقال عن بقية سلاطين بني أيوب، حيث ورد أن السلطان الكامل

(١) عيون الانباء ٢/٢١٦.

(٢) الأمدي: الإحكام في أصول الأحكام ج ٣ طبعة المعارف ص ٩٩ - ١٠٠

(٣) النجوم الزاهرة ج ٦٤ ص ٢٦٧ - الحنبلي: شفاء القلوب ص ٢٦٧ مرآة الزمان ج ٨ ص ٤٢٥ - الكامل في التاريخ ج ١٢ ص ٤٧٢.

(٤) النجوم الزاهرة ج ٨ ص ١٧٦.

(٥) النجوم الزاهرة ج ٦ ص ١٧٨.

كان يحب العلم والعلماء، وعنده مسائل غريبة من فقه ونحو يمتحن بها، فمن أجاب عنها قدمه وحظي عنده، وكان يبیت عنده بالقلعة جماعة من أهل العلم، فينصب لهم أسرة ينامون عليها بجانب سريره ليسامروه^(١) لذلك لا عجب إذا اشتهر من بني أيوب أنفسهم أعلام في مختلف ضروب المعرفة، فمنهم المؤرخ الشهير أبو الفداء، وهو إسماعيل بن علي عماد الدين صاحب حماة، وهو صاحب كتاب "المختصر في أخبار البشر"، ومنهم بهرام شاه بن فرخشاه صاحب بعلبك، وكان شاعرا أديبا^(٢).

والملك المؤيد الأيوبي صاحب اليمن وكان من أهل العلم حيث يذكر أن خزائنه اشتملت على مئة مجلد^(٣).

وإذا كانت هذه هي رغبة سلاطين بني أيوب في العلم، فإننا لا نعجب لكثرة ما أسسوه من مدارس درست فيها العلوم الدينية وغير الدينية، وصارت مراكز لحياة علمية نشطة في ذلك العصر، وهكذا يمكن القول: إن التوسع في إنشاء المدارس في حد ذاته، جاء مظهرا قويا لرقى الحياة الفكرية في عصر الأيوبيين.

المؤسسات العلمية:

أ - المدارس:

تمهيد: إن أبرز سمات الحياة العلمية في العصر العباسي المتأخر هي ظاهرة انتشار المدارس خاصة بعد أن أسس نظام الملك، وزير السلطان ملكشاه السلجوقي، المدرسة السلجوقية في بغداد^(٤).

(١) المقرئزي: السلوك ج ١ ص ٢٥٨

(٢) جرجي زيدان: تاريخ آداب اللغة العربية ج ٣ ص ١٠.

(٣) جرجي زيدان: تاريخ آداب اللغة العربية ج ٣ ص ٢٠.

(٤) ابن خلكان: وفيات الأعيان ج ١ ص ٣٩٦.

ولم تلبث حركة العمران المدرسية أن انطلقت منذ عام (٤٥٩ هـ / ١٠٦٧ م)،
إذا صارت المدرسة مكانا للدرس والتحصيل.^(١)

وكان من الطبيعي أن يحاكي الاتابكة في العراق والشام ساداتهم سلاطين
السلاجقة في إنشاء المدارس، ومن ذلك على سبيل المثال " المدرسة الاتابكية "
التي أنشأها سيف الدين غازي بن عماد الدين زنكي بالموصل، (ومدرسة
الجامع النوري) التي أنشأها نور الدين محمود بن عماد الدين زنكي في جامع
بالموصل.^(٢)

وهكذا كان طبيعيا ان يحاكي صلاح الدين سيده نور الدين في إنشاء
المدارس، فانشأ كثيرا من المدارس، وهذا العمل بحد ذاته يدل على رقي الحياة
الفكرية في عصر الأيوبيين. ولم يتوقف الأمر على صلاح الدين بحد ذاته في
قيادة النهضة العلمية والفكرية، بل سار على خطاه أبنائه وأخوته حاملين مشعل
هذه الحركة. حيث كانت تهون عليهم وعلى صلاح الدين بالذات بيوت المال في
سبيل الفضل والعلم^(٣). فما من عين من أعيان بني أيوب إلا وكان له في دمشق
وأقاليمها، أو في مصر وارباضها اثر أبقث الأيام على بعض منه نموذجا حسن
الهندسة والإتقان، ومثالا ينم عن إرادة الخير والفضل، فدمشق هذه المدينة
العريقة بماضيها لم تسعد سعادة حقيقية مثل سعادتها على عهد الأيوبيين،
فمعظم ما نراه من بقايا عمرانية فيها الآن هو من وضع سلاطينهم، وأمرائهم،
ومن وضع خدامهم وعتقائهم. ولقد تمتعت هذه المدينة رغم الحروب الصليبية
آنذاك بأزهى حلقة من تاريخها. وتميزت بمجد عظيم على كل العواصم
الإسلامية، تمثل بأسبقيتها في تأسيس المدارس وإجراء الأرزاق والمعالم على
مدرسيها، وطلابها والقائمين عليها. فنظرة نلقيها في كتاب (الدارس في تاريخ

(١) حسين أمين: تاريخ العراق في العصر السلجوقي ص ٢٢٢

(٢) أبو شامة: الروضتين ج ١ ص ٦٥.

(٣) ابن جبير: رحلة ابن جبير ص ٥٢.

المدارس) للنعمي يتضح لنا انه كان في هذه المدينة خلال القرنين السادس والسابع الهجري، ما ينوف عن مئة وخمسين مدرسة على المذاهب الفقهية الأربعة، إلى جانب دور القرآن والحديث، والمساجد والربط والخوانق ومدارس الطب. وهذه المدارس كان قد درس فيها ما يزيد عن ألف من كبار العلماء المشاهير، الذين تركوا بعد وفاتهم أثرا يذكر، ومذهبا يعرف أو فضلا ينوه به. لقد أتى ابن جبير على ذكر مدارس دمشق ومساجدها، وما كان فيها من ربط وخوانق وأتسى على المعاملة التي كان يلقاها المدرسون والطلاب على السواء، وكان ذلك في الربيع الأخير من القرن السادس للهجرة، وكذلك خصص ابن شداد جزءا من كتابه المعروف باسم (الاعلاق الخطيرة) للتحديث عن مدينة دمشق، وما فيها من آثار ومدارس وخوانق وربط وزوايا مساجد كانت لا تزال قائمة حتى وفاته في سنة (٦٨٤هـ/١٢٨٦م)، وأتى من بعدهم ابن طولون، محمد الصالحي، صاحب كتاب "القلائد الجوهريّة في تاريخ الصالحيّة" حيث ذكر في كتابه هذا المدارس التي أنشئت في الصالحيّة، أكبر نواحي مدينة دمشق ووصفها وصفا مفصلا، كذلك فعل ابن تغري بردي (يوسف الاتاباكي) حيث المح في مؤلفاته إلى مدارس دمشق، وقال عن هذه المدينة "إنها أجمل مدن العالم، وأغنى مدينة بالمدارس"، هذا ما ذكر بشأن مدارس دمشق، وأما بما يختص بمدارس القاهرة أو بغداد، وغيرها من الحواضر الإسلامية الزاهرة آنذاك والتي كانت تتنافس بعضها بعضا في مجال العلم والحضارة، فقد ذكر المقرئ في خططه للقاهرة: "انه كان يوجد فيها في العهد الأيوبي ما يقرب من خمس وسبعين مدرسة فقط"، وذكر آخرون: انه لم يكن في مدينة بغداد من المدارس ما يقارن العدد الذي كان لدمشق والقاهرة. وعلى هذا يمكن القول إن مدينة دمشق تفردت عن الحاضرتين الشهيرتين، بغداد، والقاهرة بهذا المجد العلمي، الذي دام إلى أواسط القرن التاسع الهجري، وبعد ذلك اخذ هذا المجد بالأفول والتلاشي.

لقد كانت العلوم الدينية هي الشغل الشاغل لمدارس المسلمين، ويتقدم الزمن وتمشيا مع متطلبات التطور الحضاري، ازدهرت الحياة العلمية، وبلغ هذا الازدهار ذروته في أيام الدولة الأيوبية، وصارت العلوم الدنيوية تماشي العلوم

الدينية في مختلف معاهد العلم ومدارسه، وان كانت الأفضلية آنذاك تعطى لكل علم له صلة بالدين، واهم العلوم التي اشتغل بها المسلمون منذ الدعوة حتى أيام العهد الأيوبي هي:

١ - علوم القرآن، والحديث، والفقه، واللغة، والتاريخ، والجغرافية، وكانت تسمى العلوم والآداب الإسلامية.

٢ - علوم نقلت عن اللغات الأجنبية إلى العربية، أو اشتغل بها العرب أنفسهم كعلم الطب والرياضيات، والطبيعيات.

٣ - علوم كانت في الجاهلية وتطورت في الإسلام، كالخطابة والشعر^(١) وكان السبب الذي أعطيت الأفضلية لتدريس العلوم الدينية في العهد الأيوبي لاجله، هو ما اتصف به الأيوبيون من تدين وورع، فقد كانوا مجاهدين مدافعين عن الدين والدولة، وهذا ما أظهره صاحب سيرة صلاح الدين، ابن شداد حيث قال: "إن حبه للجهاد والشغف به قد استولى على قلبه وسائر جوارحه استيلاءً عظيماً بحيث ما كان له حديث إلا فيه، ولا كان له اهتمام إلا برجاله، لقد هجر في محبة الجهاد أهله وولده ووطنه، وفتح من الدنيا بالسكن في ظل خيمة تهب بها الرياح يمناً ويسرة"^(٢).

وعلى هذا يمكن القول أن المدارس في العصر الأيوبي كانت أشبه بجامعات، فهي معاهد للتعليم العالي، ولكل مدرسة مذهبها الذي تتبعه، وان كان بعضها يشمل أربع كليات للمذاهب الأربعة، وإذا كان المفروض في المدرسة أن تكون مركزاً للعلوم الدينية من فقه وحديث وتفسير وغيرها، فإن الوضع لم يلبث أن تطور حتى غدت المدارس مراكز لتدريس النحو والفلسفة والعلوم الطبيعية، فضلاً عن العلوم الدينية^(٣).

(١) أبو شامة: الروضتين ج ٢ ص ٢٤٧. - البيسومي (أحمد بن حسين): الحياة العلمية في العصرين الأتابكي والأيوبي ط دمشق ١٩٩١ ص ٣٩- ٧٤- ٢٠١- ٢٢٧- ٣٦٨. - زيدان: تاريخ التمدن الإسلامي ج ٣ ص ٤٢. - شلبي: تاريخ التربية الإسلامية ص ٢٨٥.

(٢) ابن شداد: النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية ص ٤٤.

(٣) السيوطي: حسن المحاضرة ص ١٥٧ - المقرئزي: المواظ ص ٢٧٤

وهذا سرد لبعض المدارس التي شيدت في دمشق زمن الأيوبيين:

- ١ - المدرسة الصلاحية: بالقرب من البيمارستان النوري بانيها نور الدين بن زكي الشهيد ونسبت إلى الملك الناصر صلاح الدين، ويقال لها الناصرية أيضاً، وكان موقعها موقع كنيسة على قبر حسنة أم مريم عليهما السلام^(١)
- ٢ - المدرسة العسرونية: داخل باب الفرج وباب النصر إلى الشرق من القلعة، أنشأها العلامة قاضي القضاة، فقيه الشام شرف الدين عبد الله بن عسرون^(٢)
- ٣ - المدرسة الاقبالية: داخل باب الفرج وباب الفراديس بينهما، شمالي الجامع والظاهرية الجوانية، وشرقي الجاروخية والاقبالية الحنفية، وغربي التقوية بشمال، أنشأها جمال الدين بن جمال الدولة إقبال عتيق ست الشام توفي سنة (٦٠٣هـ/١٢٠٦م).^(٣)
- ٤ - المدرسة التقوية: وهي من أجلّ مدارس دمشق داخل باب الفراديس، شمالي الجامع شرقي الظاهرية والاقبالتين، أنشأها الملك المظفر تقي الدين عمر بن شاهنشاه بن أيوب.^(٤)
- ٥ - المدرسة الخاتونية الجوانية: داخل مدينة دمشق، أنشأتها خاتون بنت معين الدين أنر، زوجة نور الدين محمود بن زكي، وأوقفها سعد الدين أخوها عليها، اكتمل بناؤها سنة (٥٧٣هـ/١١٧٧م).^(٥)

(١) الدارس في تاريخ المدارس: ص ٣٣١- ٣٣٢ شفاء القلوب: الحنبلي ص ١٩٠ - صلاح الدين بين شعراء عصره وكتابه ص ٣٢ - بدران: د. عبد القادر: منادمة الاطلاع ومسامرة الخلان دمشق ١٣٧٩ ص ١٢ - الشميساني: مدارس دمشق في العصر الأيوبي ص ٥٣.

(٢) ابن كثير: البداية والنهاية ج ١٢ - ص ٣٣٣ الشميساني المرجع نفسه ص ٦٠.

(٣) الدارس في تاريخ المدارس: ج ١ ص ١٥٨ - ١٥٩ - ابن كثير: البداية والنهاية ج ١٢ ص ٤٦ - بدران المصدر نفسه ص ٨١ الشميساني: المرجع نفسه ص ٦٨.

(٤) النعمي: المصدر السالف ج ١ ص ٢١٦ - بدران: المصدر السالف ص ٩ - الشميساني: المرجع السالف ص ٩٠.

(٥) الشميساني: المرجع السالف ص ٧٦.

- ٦ - المدرسة الإقبالية الحنفية: وهي غير الاقبالية الشافعية التي داخل باب الفرج، كانت بجوار المدرسة الجاروخية، أنشأها جمال الدين إقبال منشئ الاقبالية الشافعية، وذلك سنة (٥٧٣ هـ/١١٧٧ م).^(١)
- ٧ - المدرسة المقدامية - الجوانية: أنشأها شمس الدين محمد بن المقدم، أحد نواب دمشق لصلاح الدين الأيوبي بدمشق توفى سنة (٥٨٣ هـ/١١٨٧ م)، وقد درس فيها القاضي صدر الدين علي بن أبي القاسم التميمي الحاكم بدمشق^(٢)
- ٨ - المدرسة الفرخشاهية: كانت في زقاق الصخر، عند مدخل دمشق الغربي، واقتتها خاتون بنت إبراهيم بن عبد الله، والدة عز الدين فرخشاه^(٣)
- ٩ - المدرسة الاسدية: تقع بالشرف القبلي، ظاهر مدينة دمشق، مطلة على الميدان الأخضر، أنشأها أسد الدين شيركوه الكبير^(٤)
- ١٠ - المدرسة العزراوية: وهي بحارة الغرياء، داخل باب النصر أنشأتها الست عذراء بنت أخي صلاح الدين يوسف بن أيوب سنة (٥٨٠ هـ و١١٨٤ م)، وقد توفيت الست عذراء بنت شاهنشاه بن أيوب سنة (٥٩٣ هـ/١١٩٧ م).^(٥)

(١) الشميساني: المرجع السالف ص ٨٠

(٢) المدارس: ج ١ ص ٤٤٢ ٤٤١ - ابن شداد: الاعلاق الخطيرة ج ٢ ص ٢١١ - الشميساني: المرجع السالف ص ١٢.

(٣) الشميساني: المرجع نفسه ص ٨٥.

(٤) الشميساني: المرجع نفسه ص ٨٨.

(٥) المدارس في تاريخ المدارس ج ١ ص ٣٧٢ - ذيل الروضتين ص ١٢ - بدران: المرجع السالف ص ١٢٨. - الشميساني: المرجع السالف ص ٩١.

- ١١ - المدرسة العمرية: كانت بجبل قاسيون بالصالحية قرب دير الحنابلة، أنشأها وأوقفها الشيخ أبو عمر المقدسي.^(١)
- ١٢ - المدرسة الظاهرية البرانية: خارج باب النصر بمحلة المنيع، بين نهري القنوات وبانياس، بناها الملك الظاهر غازي بن الملك الناصر صلاح الدين بن أيوب.^(٢)
- ١٣ - المدرسة الأكزية: قبالة المدرسة الشبلية الحنفية، أنشأها الأمير أسد الدين أكر حاجب نور الدين محمود بن زنكي الشهيد^(٣)
- ١٤ - المدرسة العزيزية: بناها الملك العزيز عثمان بن صلاح الدين بن أيوب إلى جانب الكلاسة بالجامع، ويذكر أن العزيز أمر القاضي محي الدين بن الزكي أن يبنها له مدرسة، وكانت دار الأمير أسامة، وهي شرقي التربة الصلاحية، وغربي التربة الاشرفية، وشمالي الفاضلة بالكلاسة لصيق الجامع الأموي.^(٤)
- ١٥ - المدرسة الشامية البرانية: وهي بمحلة العونية، بانيها ست الشام بنت نجم الدين أيوب بن شادي بن مروان، أخت الملك الناصر صلاح الدين، وهي من اكبر المدارس واعظمها واكثرها أوقافا، وأول من درس فيها تقي الدين بن الصلاح.^(٥)

(١) ابن شداد: الاعلاق الخطيرة ج ٢ ص ٢٥٩.

(٢) النعمي: المصدر نفسه ج ١ - ٣٤٠ - بدران: المصدر السالف ص ١١٦ - الشميساني المرجع السالف ص ١٠٧

(٣) الشميساني: المرجع السالف ص ١١٢

(٤) الدارس في تاريخ المدارس: ج ١ ص ٣٨٢ - ٣٨٣ - بدران: المصدر السالف ص ١٢٩ - الشميساني: المرجع السالف ١١٤

(٥) الدارس: ج ١ ص ٢٧٧ - ذيل الروضتين ص ٢٢٩ - بدران: المصدر السابق ص ١٠٤ - ١٠٥ - الشميساني: المرجع السالف ص ١٠٩

١٦ - المدرسة القيمازية: داخل باب النصر، و باب الضرج، بناها الأمير صارم الدين قايماز النجمي المتوفي سنة (٥٩٦ هـ / ١١٩٩ م).^(١)

١٧ - المدرسة العادلية الكبرى: وهي داخل دمشق، شمالي الجامع تجاه باب الظاهرية، أول من أنشأها نور الدين محمود، توفي ولم تتم فاستمرت كذلك، ثم بنى بعضها الملك العادل سيف الدين، ثم توفي ولم تتم أيضاً.^(٢) فتممها ولده الملك المعظم، ويذكر ابن كثير أنه في سنة (٦١٢ هـ / ١٢١٥ م) شرع في بناء المدرسة العادلية الكبرى بدمشق،^(٣) ويصف لنا أبو شامة الاحتفال بافتتاح المدرسة، فيقول " حضر السلطان الملك المعظم عيسى بن العادل فجلس في إيوان المدرسة، وجلس على يمينه شيخ الحنفية جمال الدين الحصري، ثم فخر الدين بن عساكر، ثم القاضي محي الدين بن الشيرازي ثم القاضي محي الدين بن يحيى الزكي، وجلس عن يسار السلطان مدرس المدرسة قاضي القضاة جمال الدين المصري، ثم سيف الدين الأمدي، ثم شمس الدين بن سني الدولة، ثم القاضي نجم الدين خليل قاضي العسكر، وجلس مقابل السلطان تقي الدين بن صلاح ودارت حلقة صغيرة فيها أعيان المدرسين والفقهاء، والناس وراءهم متصلون ملء الإيوان، وكان مجلساً جليلاً واشترك السلطان مع الجماعة في الكلام العلمي"^(٤)

ومن ذلك الوقت أصبحت التقاليد ألي التدریس فيها إلا قاضي القضاة، وان تكون محكمة للقضاء الشافعي.^(٥)

ويتغيب بعد ذلك في مكاوي الكتب أسماء من تولاهها بعد ذلك، وفضلاً عن كون من تولى التدریس فيها فقهاء وقضاة فان بينهم أعلاماً في الأدب واللغة

(١) الاغلاق الخطيرة ج ٢ ص ٢١٢ - الشميساني: المرجع السالف ص ١٢٢.

(٢) الشميساني المرجع السالف ص ١١٥.

(٣) العبادي: تاريخ اللايوييون والماليك ص ٩٩ - ابن كثير: البداية والنهاية ج ١٢ ص ٦٨ - ٦٩.

(٤) أبو شامة: ذيل الروضتين ص ١٣٢.

(٥) أبو شامة: المصدر نفسه ص ١٤٨.

كابن خلكان صاحب وفيات الأعيان، وكجلال الدين القزويني الذي أصبح كتابه (التلخيص) في علوم المعاني والبديع والبيان كتابا مدرسيا لفترة طويلة من الزمن، وكتاج الدين السبكي الذي له كتب قيمة في الأدب والتاريخ كجمع الجوامع، وكتطبقات الشافعية، وقد ترجم لأكثرهم السيوطي في طبقات النحاة.^(١)

١٨ - المدرسة الصارمية: داخل باب النصر والجابية، قبلي العزراوية، بانيتها صارم الدين ازبك مملوك قايماز النجمي، وهو عتيق الست الكبيرة الجليية، عصمة الدين عذراء ابنة شاهنشاه وهو المعروف بالطواشي.^(٢)

١٩ - المدرسة الفلكية: داخل باب الفراديس وباب الفرخ، أنشأها فلک الدين سليمان أخو الملك العادل سيف الدين أبي بكر لأمه، وقد دخل دمشق سنة (٥٩٦هـ وتوفي سنة ٥٩٩هـ).^(٣)

٢٠ - المدرسة الدوئية: كانت بجيرون في الجهة القبليية من المدرسة البادرائية بغرب، أما اليوم فهي في الدخلة المشهورة بدخلة الداغستاني، أوقفها جمال الدين أبو عبد الله الدولي المتوفي سنة (٦٣٥ هـ/١٢٣٨م).^(٤)

٢١ - المدرسة الرواحية: شرقي مسجد ابن عروة بالجامع الأموي، ولصيقه، بانيتها زكي الدين أبو القاسم، التاجر المعروف بابن رواحة، وهو هبة الله بن حمد الأنصاري، وهو أحد التجار ذوي الثروة، بنيت سنة (٦٤٣ هـ/١٢٤٥م) وفوض التدريس فيها إلى الشيخ تقي الدين بن الصلاح الشهرزوري.^(٥)

(١) النعمي تبييه الطالب ص ٤٠

(٢) المدارس في تاريخ المدارس د ص ٢٣٦ - الشميساني: المرجع السالف ص ١٣٦.

(٣) المدارس في تاريخ المدارس ج ١ ص ٤٢١ - ٤٣٢ - الشميساني: المرجع السالف ص ١١٥

(٤) ابن شداد: الاعلاق الخطيرة ج ٢ ص ٢٣٤ - الشميساني: المرجع السالف ص ١٤٠.

(٥) النعمي: المصدر السالف: ج ١ ص ٢٦٦ - عقد الجمال ج ١٨ ص ٢٧٥. شذرات الذهب ج ٥ ص

١٠٤ - ١٠٥ - ابن كثير: البداية والنهاية ج ١٣ ص ١١٦ - بدران: المصدر السابق ص ١٠ الشميساني:

المرجع السالف ص ١٤٢.

- ٢٢ - المدرسة المسروورية: كانت بباب البريد واندثرت ولم يبق لها اثر أوقفها مسرور الخصي الطواشي شمس الدين، وهي منسوبة إلى الأمير فخر الدين السرور الملكي الناصري، أوقفها عليه شبل الدولة كافور الحسامي.^(١)
- ٢٣ - المدرسة الدماغية: شمالي المدرسة العمادية داخل باب النصر غربي الباب الثاني، الذي قبيل الطاحون، وهي الآن في المناخلية، أوقفها عائشة جدة فارس الدين بن الدماغ، زوجة شجاع الدين محمود بن الدماغ العادلي المتوفي سنة (٦٣٨ هـ/١٢٤١ م).^(٢)
- ٢٤ - المدرسة المعظمية: في سفح جبل قاسيون مجاورة للمدرسة العزيزية التي بناها عثمان بن الملك العادل سيف الدين، وهي الآن مدفن أنشأها الملك المعظم عيسى بن الملك العادل سيف الدين أبي بكر سنة (٦٢١ هـ/١٢٢٤ م).^(٣)
- ٢٥ - المدرسة المارداينية: كانت على نهر ثورا، ملاصقة للجسر الأبيض بالصالحية، وهي الآن جامع عامر بالصلوات فيه مدفن بني المؤيد، أنشأتها عزيزة الدين اخشا خاتون بنت الملك قطب الدين، صاحب ماردين وزوجة السلطان المعظم عيسى في سنة (٦١٠ هـ/١٢١٣ م).^(٤)
- ٢٦ - المدرسة الشبلية البرانية: كانت بسفح جبل قاسيون، بالقرب من جسر ثورا، وقيل هي بقاسيون عند جسر كحيل بطريق الصالحية، وقيل هي

(١) النعمي: المصدر نفسه ج ١ ص ٤٥٥ - الشميساني: المرجع السالف ص ١٤١.
(٢) النعمي: المصدر نفسه ج ١ ص ٢٣٦ - ابن شداد: الاعلاق الخطيرة ج ٢ ص ٢٦٢ - كرد علي: خطط الشام ج ٦ ص ٧٩ الشميساني: المرجع السالف: ص ١٤٨.
(٣) النعمي: المدارس ج ١ ص ٥٧٩ - ابن شداد: الاعلاق الخطيرة ج ٢ ص ٢٢٢ - كرد علي: خطط الشام ج ٦ ص ٩٦ الشميساني: المرجع السالف ص ١٥٥.
(٤) النعمي: المدارس ج ١ ص ٥٩٢ - ابن شداد: الاعلاق الخطيرة ج ٢ ص ٢٢٧ - كرد علي: خطط الشام ج ١ ص ٩٦.

فوق جسر ثورا من طريق عين الكرش أنشأها الطواشي شبل الدولة كافر
الحسامي في سنة (٦٢٦هـ / ١٢٢٨م).^(١)

٢٧ - المدرسة الشبلية الجوانية: كانت قبالة المدرسة الاكزية، داخل
باب الجابية أنشأها شبل الدولة كافر المعظمي.^(٢)

٢٨ - مدرسة دار الحديث الاشرفية: جوار باب القلعة الشرقي، غربي
العصرونية وشمالي القيمازية الحنفية وكانت داراً للأمير حسام الدين قايماز بن
عبد الله النجمي، واقف القيمازية وله بها حمام، فاشترى ذلك الملك الاشرف
مظفر الدين موسى بن الملك العادل، وبنها دار الحديث، واخرب الحمام، وبنها
سكنا للشيخ المدرس بها.^(٣)

٢٩ - مدرسة دار الحديث الاشرفية البرانية: بسفح جبل قاسيون على
حافة نهر يزيد، بناها الملك الأشرف مظفر الدين موسى بن العادل.^(٤) وأول من
درس بها القاضي شمس الدين بن أبي عمر.^(٥)

٣٠ - مدرسة دار الحديث الفاضلية: موقعها بالكلاسة، بناها القاضي
الفاضل عبد الرحيم بن علي بن الحسن بن الحسين بن احمد بن الفرغ بن احمد
القاضي محي الدين ولد سنة (٥٢٩هـ / ١١٤٣م).^(٦)

(١) ابو شامة: بذيل الروضتين ص ١٤٨ - ١٥٠ - الاعلاق الخطيرة ج ٢ ص ٢٢٧ - كرد علي: الخطوط ج ٦
ص ٩٣.

(٢) ابن شداد: الاعلاق الخطيرة ج ٢ ص ٢٠٨ - كرد علي: خطط الشام ج ٦ ص ٩٤.

(٣) المدارس: المصدر نفسه ج ١ ص ١٩ - مرآة الزمان ج ٨ قسم ٢ ص ٦٧٧ - ٧١٣ - الحنبلي شفاء
القلوب في مناقب بني ايوب: ص ٢٩٥ بدران المصدر السالف ص ٥٨ - ابن واصل الحموي: التاريخ
الصالح ص ٧٣.

(٤) التعميمي: المصدر نفسه ج ١ ص ٤٧ - بدران المصدر السالف ص ٣٢.

(٥) شذرات الذهب: ج ٥ ص ٣٧٦ - ٣٧٧.

(٦) التعميمي: المصدر نفسه ج ١ ص ٨٩ - ٩٠ - بدران المصدر السالف ص ٦١.

٣١ - مدرسة دار الحديث الناصرية: وهي بمحلة الفواخير بسفح قاسيون، وهي الناصرية البرانية، أنشأها الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن الملك العزيز محمد بن الملك الظاهر عزيز الدين غازي بن صلاح الدين يوسف بن أيوب بن شادي^(١) ولد سنة (٦٢٧ هـ / ١٢٢٩ م).

٣٢ - المدرسة البهنسية: وهي بجبل الصالحية أنشأها الوزير مجد الدين المعروف بأبي الأشبال الحارث بن مهلب، كان وزير الملك الأشرف مظفر الدين موسى بن الملك العادل سيف الدين أبي بكر بن أيوب^(٢).

٣٣ - المدرسة الجاروخية: قامت بإنشائها إحدى بنات ملوك بني أيوب، حيث يذكر أن المجير الواسطي البغدادي، وهو أحد العلماء الأذكياء، والمحربين في المذاهب، وهو أبو القاسم محمود بن المبارك بن علي بن المبارك المعروف بالمجير الواسطي ثم البغدادي الشافعي، قدم إلى دمشق فدرس بالمدرسة التي بنيت له، ونشر علم الطب، ويذكر أنه اتصل بامرأة من بنات الملوك، وبنيت له مدرسة جاروخ، وهي داخل بابي الفرج والفراديس لصق الاقبالية، شمالي الجامع الأموي والظاهرية الجوانية^(٣).

٣٤ - المدرسة الشامية الجوانية الحسامية: وهي قبلي البيمارستان النوري، وهي من إنشاء ست الشام بنت نجم الدين أيوب بن شادي بن مروان، وكانت هذه المدرسة داراً جعلتها بعدها مدرسة^(٤).

٣٥ - المدرسة العادلية الصغرى: داخل باب الفرج شرقي باب القلعة الشرقي، أنشأتها زهرة خاتون بنت الملك العادل سيف الدين أبي بكر بن أيوب،

(١) النعيمي المصدر السابق ج ١ ص ١١٥

(٢) النعيمي: المصدر نفسه ج ١ ص ٢١٥- بدران: المصدر نفسه ص ٨٩ - الشميساني: المرجع السالف ص ١٨٣

(٣) النعيمي: المصدر السالف ج ١ ص ٢٢٥- ٢٢٦ بدران: المصدر السابق ص ٩٢

(٤) النعيمي: المصدر نفسه ج ١ ص ٣٠١ - الزبيدي: ترويح القلوب في ذكر الملوك من بني أيوب ص ١٠٥ - بدران: المرجع السالف ص ١٠٦ - ١٠٧ - الشميساني: المرجع السالف ص ١٨٠.

وكانت دارا تعرف بابن موسك، ملكتها الخاتون عصمة الدين زهرة بنت الملك العادل أبي بكر محمد بن أيوب.^(١)

٣٦ - المدرسة الكروسية: أوقفها محمد بن عقيل بن كروس بن جمال الدين محتسب دمشق توفي سنة ٦٤١ هـ / ١٢٤٤ م) بدمشق.^(٢)

٣٧ - مدرسة الكلاسة: وهي لصيق الجامع الأموي من شمال، ولها باب إليه، عمرها نور الدين في سنة (٥٥٥ هـ / ١١٦٠ م)، وأحرقت هي ومئذنة العروس " المئذنة الشمالية " وعندما ملك صلاح الدين دمشق أمر بتجديد عمارة المدرسة في سنة (٥٧٥ هـ / ١١٧٩ م) على يد الحاجب أبي الفتح، الذي عرف بابن العميد.^(٣)

٣٨ - المدرسة الناصرية الجوانية: داخل باب الفراديس، شمالي الجامع الأموي، أنشأها الملك الناصر، يوسف بن صلاح الدين يوسف بن أيوب، وكانت تعرف بدار الزكي المعظم، وفرغ من عمارتها في أواخر سنة (٦٥٣ هـ / ١٢٥٥ م).^(٤)

٣٩ - المدرسة البدرية: بانيها الأمير بدر الدين حسن بن الداية، المعروف بلالا في سنة (٦١٥ هـ / ١٢١٨ م) وقد درس بها الشيخ شمس الدين سبط ابن الجوزي.^(٥)

(١) المدارس في تاريخ المدارس: ج ١ ص ٣٦٨ - بدران: المصدر السابق ص ١٢٧ - الشميساني: المرجع نفسه ص ٢٤١.

(٢) المدارس في تاريخ المدارس: ج ١ ص ٤٤٦ - بدران: المصدر نفسه ص ٥٧.

(٣) المدارس في تاريخ المدارس: ص ٤٤٨ - بدران: المصدر السالف ص ١٤١ - ١٤٥.

(٤) المدارس في تاريخ المدارس: ص ٤٥٩ - امرأة الزمان: القسم الثاني ج ٨ ص ٧٩٣ عقد الجمان ج ١٨ ص ١٢١ - ٣٦٦.

(٥) التميمي: المدارس في تاريخ المدارس ج ١ ص ٤٧٧ - ٤٧٨.

٤٠ - المدرسة التاجية: وهي بزاوية الجامع الأموي الشرقية في الأيام المعظمية، جددت المقصورة التاجية المعروفة بابن سنان قديما، والآن بالسلارية في سنة (٦٢٤هـ/١٢٢٧ م).^(١)

٤١ - المدرسة النصرية: في مدينة القدس بباب الرحمة عرفت بهذا الاسم نسبة للشيخ نصر المقدسي، ثم عرفت بالفزالية، نسبة لأبي حامد الفزالي، ثم أعاد أنشاءها المعظم، وجعلها زاوية لقراءة القرآن والاشتغال بالنحو، ووقف على كراسة منه بخط ابن الخشاب، وعلى ظهر الكراسة الوقف وهو مؤرخ في التاسع من ذي الحجة سنة (٦١٠هـ/١٢١٣ م)، وقد دمرت الزاوية المذكورة في عصرنا ولم يبق لها نظام وصارت من المهملات.^(٢)

٤٢ - المدرسة العزية البرانية: وهي من بناء الأمر عز الدين ابيك المعظمي استادار الملك المعظم بناها سنة (٦٥٤هـ/١٢٥٦ م) وكانت قديما تعرف بدور ابن منقذ.^(٣)

٤٣ - المدرسة القيمرية: واقفها الأمير الكبير ناصر الدين أبو المعالي، الحسين بن عبد العزيز ابن أبي الفوارس القيمري، كان من اعظم الأمراء مكانة عند الملوك، وهو الذي سلم الشام إلى الملك الناصر صاحب حلب حين قتل توران شاه بن الصالح أيوب بمصر، وهو واقف المدرسة القيمرية عند مئذنة فيروز، وأول من درس فيها القاضي شمس الدين الشهرزوري^(٤)

(١) التعميمي: المدارس في تاريخ المدارس ج ١ ص ٤٨٣

(٢) الأئس الجليل ج ٢ ص ١٨٢.

(٣) عقد التجمان: ج ١٨ ص ٣٧٢.

(٤) الشميساني: المرجع السالف ١٧١

جدول يبين أسماء المدارس ومنشئها ومدربسيها خلال العصر الأيوبي

المصدر المعتمد	المدرسون	واقفها	اسم المدرسة	الرقم
التعميمي: الدارس ص ٢٥ - ٢٥١ العلموني: مختصر تبيين الطالب ص ١١٩ الشميساني: مدارس دمشق في العصر الأيوبي ص ٥٩	شمس الدين الكردى - مجد الدين عبد الله الكردى	نور الدين محمود بن زنكي ونسبت إلى السلطان صلاح الدين	المدرسة الصلاحية	١
التعميمي: الدارس ص ٣٠٢ - ٣٠٣ ٣٠٤ - ٣٠٦ العلموني: مختصر تبيين الطالب ص ٦٢ بداران منادمة الأطلال ص ١٣١ - ١٣٢	نجم الدين بن شرف الدين بن أبي عصرون - ثم أخيه محي الدين بن شرف الدين بن أبي عصرون - ثم ابنه شهاب الدين فشراف الدين - كمال الحديث الجنيد - شرف الدين بن ناصر الدين بن أبي عصرون - فقطب الدين ولده - فمحي الدين ابن أبي عصرون	قاضي القضاة شرف الدين أبو سعيد عبد الله بن حمد بن هبة الله بن المطهر بن أبي عصرون	المدرسة العسرونية	٢
التعميمي: الدارس ص ١١٨ - ١١٩ العلموني: المصدر نفسه ص ٢٩ الشميساني: المرجع نفسه ص ٦٩ - ٨٠	صدر الدين بن سني الدولة - نجم الدين بن صدر الدين - بدر الدين بن خلكان - شمس الدين بن خلكان - النوروي - تاج الدين المراغي	جمال الدولة اقبال خادم صلاح الدين	المدرسة الاقبالية	٣

٤	المدرسة التقوية	المظفر تقى الدين عمر بن شاهنشاه بن أيوب	محي الدين محمد بن علي - محي الدين بن زكي الدين - فخر الدين ثم محي الدين بن كبي - عماد الدين ابن الحرستاني - المظفر بن عساكر - محي الدين بن الزكي	التعميمي: الدارس ص ١٦٢- ١٦٣ - ١٦٧- ١٦٦ العلموني: المصدر نفسه ص ٣٧ الشميساني: المرجع نفسه ص ٧٢- ٧٣
٥	المدرسة الخاتونية الجوانية	خاتون بنت معين الدين أنر زوجة نور الدين الشهيد ثم السلطان صلاح الدين	حجة الإسلام - فخر الدين الحواري - ثم ولده ثم نجم الدين خليل - ثم ولده شمس الدين - ثم عز الدين السنجاوي	التعميمي: الدارس ص ٣٨٨- ٣٨٩ - ٣٩٠ العلموني: المصدر نفسه ص ٣٧
٦	المدرسة الاقبالية	جمال الدين بن إقبال خادم صلاح الدين	بهاء الدين عباس - تاج الدين بن عبد العزيز بن سوار الحنفي - برهان الدين التركماني - فخر الدين أبو الوليد المغربي الأندلسي	التعميمي: الدارس ٣٦١- ٣٦٢ الموسوعة الشامية ج٢ (الذيل على الروضتين لأبي شامة المقدسي) ص ٤١٧
٧	المدرسة المقدامية الجوانية	الأمير شمس الدين محمد بن المقدم في الأيام الصلاحية	فخر الدين القاري - ثم ولده نجم الدين ثم أخوه عماد الدين - ثم صدر الدين سليمان - ثم رضي الدين الهندي	التعميمي: الدارس ٤٥٦- ٤٥٧ - ٤٥٨- ٤٥٩ العلموني: المصدر نفسه ص ١٠٨ -
٨	المدرسة الفرخشاهية	خصمى الخبير والدة عز الدين فرخشاه وهي زوجة شاهنشاه ابن أيوب أخي صلاح الدين	عماد الدين ابن الفخر - ثم أوحد الدين الكمعكي - ثم تاج الدين بن عبد العزيز كما الدين بن عبد اللطيف	التعميمي: الدارس ٤٣١- ٤٣٢ - ٦٣٣ العلموني: المصدر نفسه ص ٩٩- ١٠٠ الشميساني: المرجع نفسه ص ٨٥

<p>التعميمي: الدارس ص ١١٤- ١١٥ العلموني: المصدر نفسه ص ٥٩- ٦٠ الشميساني: المرجع نفسه ص ٩١ - ٩٢</p>	<p>العز المرش أبو الخطاب - الركن البجلي - صلاح الدين الملاي - شرف الدين الاذري - شرف الدين الومناوي</p>	<p>أسد الدين شيركوه</p>	<p>المدرسة الاسدية</p>	<p>٩</p>
<p>التعميمي: الدارس ص ٢٨٢- ٢٨٤ ٢٨٥ الشميساني: المرجع نفسه ص ٩١ - ٩٢ العلموني: المصدر نفسه ص ٥٩- ٦٠</p>	<p>الفخر بن عساكر - مجد الدين ابن الخوري - شمس الدين بن سني الدولة - نجم الدين الجيل - رفيع الدين الجيلي - عز الدين بن أبي عصرون</p>	<p>عزراء بنت السلطان شاهنشاه بن أيوب</p>	<p>المدرسة العزراوية</p>	<p>١٠</p>
<p>التعميمي: الدارس ج ٢ ص ١٠٤- ١١١ الشميساني: المرجع نفسه ص ١٠٣</p>	<p>تقي الدين المقدسي - شمس الدين الخطيب ثم ولده نجم الدين الخطيب - عز الدين المقدسي</p>	<p>الشيخ أبو عمر الجماعلي</p>	<p>المدرسة العمرية</p>	<p>١١</p>
<p>التعميمي: الدارس ص ٢٥٧- ٢٥٨ ٢٦٠- ٢٦١ ٢٥٩ العلموني: المصدر نفسه ص ٥٤- ٥٥</p>	<p>شمس الدين بن مهن - ثم عز الدين بن علواف - إمام الدين القزويني - جلال الدين القزويني - كمال الدين بن القلانسي</p>	<p>الملك الظاهر بن الملك الناصر صلاح الدين</p>	<p>المدرسة الظاهرية البرانية</p>	<p>١٢</p>

التعيمي: الدارس ص ٢٠٨- ٢٠٩ - ٢١٠- ٢١٢ العلموني: المصدر نفسه ص ٤٦- ٤٧ الشميساني: المرجع نفسه ص ١٩ ابن كثير: البداية والنهاية ج ١٣ ص ١٥٤	ابن الصلاح - شمس الدين المقدسي - شمس الدين بن الأعرج - شمس الدين المقدسي وقيل أول مدرسيها شرف الدين ابن عم الزكي - ثم شمس الدين بن سني الدولة - نجم الدين المعروف بابن الحنبلي - عز الدين بن أبي عصرون - محي الدين بن الزكي - رفيع الدين الجيلي - كمال الدين الزملكاني	ست الشام نجم الدين أيوب بن شادي والدة الملك الصالح إسماعيل	المدرسمة الشامية البرانية (الحسامية)	١٣
التعيمي: الدارس ص ١٢٤- ١٢٥ العلموني: مختصر تتيبه الطالب ص ٢٠ الشميساني: المرجع السالف ص ١١٢	شرف الدين الحاكي - تاج الدين بن جهل - المجد بن عبد الحميد - برهان الدين المراغي - مجد الدين محمود الشهرزوري - الكمال بن الحرستاني - البدر التابسي	اكز حاجب نور الدين محمود	المدرسمة الاكزية	١٤
التعيمي: الدارس ص ٤٢٢ العلموني: المصدر نفسه ص ٩٦	صدر الدين بن برهان الدين مسعود . ثم أخوه مجد الدين - ثم كمال الدين السنجاري	العزیز عثمان بن العادل	المدرسمة العزیزية	١٥
التعيمي: الدارس ص ٤٢٩- ٤٤٠ الشميساني: المرجع نفسه ص ١٢٥ العلموني: المصدر نفسه ص ١٠٤	حميد الدين السمرقندي - صدر الدين سليمان - ثم السمرقندي ثم ظهير الدين الاريلي - ثم ولده شمس الدين ثم شمس الدين الحريري	صارم الدين قیماز النجمي كان متوليا أعمال صلاح الدين	المدرسمة القیمازية	١٦

١٧	المدرسة العادلية الكبرى	أول من أنشأها نور الدين الشهيد ثم العادل سيف الدين ثم ولد المعظم	جمال الدين المصري - شمس الدين الخورمي ثم ولده - ثم رفيع الدين الجيلي - ثم شهاب الدين الخورمي - كمال الدين التقيسي - نجم الدين ابن سني الدولة - شمس الدين بن خلكان	التعيمي: الدارس ص ٢٧١ - ٢٧٤ - ٢٧٥ - ٢٧٦ العلموني: المصدر نفسه ص ٥٧ الشميساني: المرجع نفسه ص ١٣١
١٨	المدرسة الصارمية	صارم الدين مملوك قيمار النجمي	نجم الدين بن الحنبلي ثم ولده - ثم تاج الدين بن الفوكاح ثم أخوه المدعو شرف الدين - ثم نجم الدين بن أحمد الحنبلي - محي الدين بن الفارس - نجم الدين التتوخي - عماد الدين بن الأختائي	التعيمي: الدارس ص ٢٤٦ - ٢٤٧ - ٢٤٨ الشميساني: المرجع نفسه ص ١٣٧
١٩	المدرسة الفلكية	فلك الدين سليمان أخي العادل لأمه	شمس الدين بن سني الدولة - صدر الدين بن شمس الدين بن سني الدولة ثم ولده نجم الدين - شمس الدين بن خلكان - كمال الدين بن التجار - تقي الدين الرقي	التعيمي: الدارس ص ٣٢٧ - ٣٢٨ - العلموني: المصدر نفسه ٦٧ الشميساني: المرجع نفسه ص ١٣٩
٢٠	المدرسة الدولية	جمال الدين أبي عبد الله محمد بن يزيد التتلي الأرقمي الدولعي الدمشقي خطيب دمشق	جمال الدين أبو عبد الله محمد بن يزيد - شرف الدين أخو جمال الدين - كمال الدين بن بنت السلار - كمال الدين بن الزكي	التعيمي: الدارس ص ١٨٢ - ١٨٣ - ١٨٤ العلموني: المصدر نفسه ص ٤١ الشميساني: المرجع نفسه ص ١٤١

٢١	المدرسة الرواحية	زكي الدين التاجر المعروف بابن رواحة	ابن الصلاح تقي الدين - شرف الدين بن أبي بكر القرشي - شمس الدين المقدسي - ثم ولد ناصر الدين - شرف الدين بن نعمه النابلسي - ثم أخوه شهاب الدين - نجم الدين البياني - كمال الدين الزملكاني	التعمي: الدارس ص ١٩٩ - ٢٠٠ - ٢٠١ العلموني: المصدر نفسه ص ٤٣ - ٤٤ الشميساني: المرجع نفسه ص ١٤٣
٢٢	المدرسة المسروية	مسرور الطواشي أحد خدام الخلفاء المصريين وقيل مسرور الملكي الناصري العادلي	ناصر الدين ثم الصدر ركن الدين يونس - ثم جلال الدين القزويني كمال الدين الزملكاني - حسام الدين القوصي - جمال الدين الشريشي - تقي الدين الزملكاني	التعمي: الدارس ص ٣٤٧ - ٣٤٨ العلموني: المصدر نفسه ص ٧٢ - ٧٣
٢٣	المدرسة الدماخية	عائشة جدة فارس الدين بن الدماغ زوجة شجاع الدين بن الدماغ	شمس الدين الخوري - شهاب الدين بن شمس الدين الخورمي - كمال الدين التليسي - عماد الدين بن يونس الموصل - شهاب الدين بن شمس الدين الخورمي أيضاً - زكي الدين الفارجي	التعمي: الدارس ص ١٧٧ - ١٨٠ - ١٨١ العلموني: المصدر نفسه ص ٣٩ - ٤٠
٢٤	المدرسة العظمية	الملك المعظم عيسى بن العادل	مجد الدين قاضي الطور - صدر الدين بن مسعود - شرف الدين الحوراني - شمس الدين بن عطاء - سليمان بن الغز ثم ولده علاء الدين - ثم عز الدين بن عزيز	التعمي: الدارس ص ٤٤٥ - ٤٤٦ - ٤٤٧ العلموني: المصدر نفسه ص ١٠٥ الشميساني: المرجع نفسه ص ١٥٨

٤٥٥- ٤٥٤ - التعميمي: الدارس ص ١٠٧ العلموني: المصدر نفسه الشميساني: المرجع نفسه ص ١٥٩	الصدر الخلاطي - برهان الدين التركماني - شمس الدين قاضي بيسان	عزيزة الدين اخشاوراخاتون زوجة الملك المعظم	المدرسة المارداينية	٢٥
٥٣٠ - التعميمي: الدارس ج ١ ص ١٦٣ الشميساني: المرجع نفسه ص ١٦٣	الشيخ صفي الدين السنجاري - شمس الدين بن الجوزي - ثم وجبه الدين محمد - جمال الدين يوسف - نور الدين بن قاضي امد - أبو شامة شهاب الدين المقدسي - ثم تقي الدين بن أبي العز الحنفي	الطواوشي شبل الدولة كافور الحسامي بن عبد الله	المدرسة الشبلية البرانية	٢٦
٤١٣ - التعميمي: الدارس ص ٩٤ العلموني: المصدر نفسه ص ٩٤	تاج الدين بن النجائب - فخر الدين موسى - زكي الدين بن زكريا	شبل الدولة كافور المعظمي	المدرسة الشبلية الجوانية	٢٧
٢٧ - التعميمي: الدارس ص ١٥ - حتى ٢٧	تقي الدين بن الصلاح بن الحرستاني - أبو شامة - الإمام النووي زين الدين الفارقي - كمال الدين بن الشريشي - صدر الدين بن الوكيل - كمال الدين بن الزمكاني - كمال الدين بن الشريشي - الحافظ المزي - تقي الدين السبكي	الملك الاشرف موسى بن العادل	مدرسة دار الحديث الاشرفية	٢٨
٤٥ - التعميمي: الدارس ص ٣٧ - حتى ٤٥	شمس الدين عبد الرحمن بن أبي عمر محمد بن احمد بن قدامة - شمس الدين بن الكمال - حسن المقدسي شرف الدين الفايق النابلسي - تقي الدين المقدسي	الملك المظفر موسى بن العادل	مدرسة دار الحديث الاشرفية البرانية	٢٩

٢٠	مدرسة دار الحديث الفاضلية	القاضي الفاضل أبو علي عبد الرحيم الملقب مجير الدين وزير السلطان الملك الناصر صلاح الدين	التقي اليلداني - النجم أخو البدر - المحافظ الذهبي - التقي السلامي - شمس بن رضوان	التعميمي: الدارس ص ٦٧- ٦٩ - ٧٠- ٧١ العلموني: المصدر نفسه ص ١٦- ١٧
٢١	دار الحـــ الناصرية((الناصرية البرانية))	الملك الناصر صلاح الدين يوسف ابن الملك العزيز بن صلاح الدين قاتح بين المقدس	كمال الدين الشريشي - أبو بكر بن كمال الدين الشريشي - حسام الدين القرمي - شرف الدين الغزاري - نجم الدين بن قوام - نور الدين بن نجم الدين بن قوام	التعميمي: الدارس ص ٨٥- ٨٦ - ٨٧- ٨٨- ٨٩ العلموني: المصدر نفسه ص ٢١
٢٢	المدرسة البهسية	مجد الدين المعروف بابي الأشبال وزير الملك الأشرف مظفر الدين موسى	نجم الدين بن سني الدولة - شمس الدين بن خلكان	التعميمي: الدارس ص ١٦٢ العلموني: المصدر نفسه ص ٣٨
٢٣	المدرسة الجاروخية	جاروخ التركماني	أبو القاسم محمود بن المبارك المعروف بالمجير الواسطي البغدادي - نصر الدين المصيص - قطب الدين التيسابوري - الفخر بن عساكر - شهاب الدين المعروف بالأعرج - نجم الدين البارزي - تاج الدين الإسكندردي	التعميمي: الدارس ص ١٦٩- ١٧٠ - ١٧١- ١٧٢ العلموني: المصدر نفسه ص ٣٨
٢٤	المدرسة الشامية الجوانية الحامية	إنشاء ست الشام صاحبة المدرسة الشامية البرانية	ابن صلاح - شمس الدين المقدسي - تاج الدين بن أبي عصرون صدر الدين بن الوكيل - شهاب الدين بن جهيل - جلال الدين القزويني ثم ولده بدر الدين - أبو الفتح السبكي	التعميمي: الدارس ص ٢٢٧- ٢٢٨ - ٢٢٩ العلموني: المصدر نفسه ص ٤٨

٢٥	العادلية الصفري	زهرة خاتون بنت العادل أبي بكر بن أيوب	شرف الدين بن نعمة المقدسي - تقي الدين بن حياة - شرف الدين بن نعمة مرة ثانية - نجم الدين بن مصصري - كمال الدين بن الزملكاني - فخر الدين المصري - تاج الدين بن جلال الدين القزويني	التعميمي / المدارس ٢٧٨- ٢٧٩ - ٢٨٠ - ٢٨١ العلموني المصدر نفسه ص ٥٨
٢٦	المدرسة الكروسية	محمد بن كروس محتسب دمشق	محمد بن عمر بن أبي المليب	التعميمي المدارس ص ٣٢٩ - ٢٤٠ العلموني المصدر نفسه ص ٧٠
٢٧	مدرسة الكلاسة	نور الدين الشهيد جدها صلاح الدين الأيوبي على يد ابن العميد	الكمال الحرستاني - بهاء الدين بن الزكي - محمد ابن إبراهيم الصفدي - نمر الدين الأنصاري	التعميمي: المدارس ص ٢٤٠ - ٢٤١ - ٢٤٢ العلموني المصدر نفسه ص ٨
٢٨	المدرسة الناصرية الجوانية	الملك الناصر يوسف بن الملك العزيز بن صلاح الدين بن أيوب	صدر الدين بن سني الدولة - محي الدين بن يحيى بن الزكي - ثم ولده نجم الدين ثم شمس الدين بن خلكان - ثم رشيد الدين الغدقي	التعميمي: المدارس ص ٢٥٠ - ٢٥١ - ٢٥٢ - ٢٥٤ العلموني: المصدر نفسه ص ٧٤
٢٩	المدرسة البدرية	بدر الدين المعروف بلالا بن الداية كان من أمراء بن زنكي	زكي الدين بن عقبة - صفى الدين بن فرج - شمس الدين بن جهريل	التعميمي: المدارس ٣٦٥- ٣٦٦- ٣٦٧- العلموني: المصدر نفسه ص ٧٩
٤٠	المدرسة التاجية	جددت في أيام الملك المعظم وهي بزاية الجامع الأموي الشرقية وكانت تعرف قبل التاجية بأبن سنان ثم السلارية	تاج الدين الكندي أبو الهمن زيد بن الحسن البغدادي النحوي اللقوي المقريء - شعيان بن أبي بكر بن عمر الأربلي	التعميمي: المدارس ج ١ ص ٣٧٠ - ٣٧٢- ٣٧١

٤١	المدرسة الصدرية	صدر الدين أبي الفتح أسعد بن عثمان بن النجا التتوخي	درس فيها ولد أخت واقفها ويدعى صدر الدين كذلك ولده وجيه الدين	العلموني: المصدر نفسه ص ١٢٦
٤٢	المدرسة القيمرية	الأمير ناصر الدين القيمري وهو الذي سلم الشام للملك الناصر	شمس الدين الشهرزوري - ثم ولده صلاح الدين - ثم بدر الدين بن صلاح الدين - ثم بدر الدين بن جماعة - شمس الدين بن خلكان	التعيمي: المدارس ص ٣٢٥ - ٣٣٦ - العلموني: المصدر نفسه ص ٦٩ - ٧٠
٤٣	دار الحديث البهائية	بهاء الدين بن محمد القاسم بن الشيخ بدر الدين أبي غالب المظفر	الشهاب الأذري - الشيخ شمس الدين أبو المحاسن الحسيني الدمشقي	التعيمي: المدارس ص ٤٣ - ٤٤ العلموني: المصدر نفسه ص ١٣
٤٤	دار الحمصية (المروفة بحلقة صاحب حمص)	تعرف بحلقة صاحب حمص فقط	الحافظ المزي - الحافظ صلاح الدين الملائي - خليل بن كيكدي	التعيمي: المدارس ص ٤٥ - ٤٦ العلموني: المصدر نفسه ص ١٣
٤٥	دار الحديث الداودية	الأمير علم الدين سنجر	الشيخ نور الدين أبو عبد الله محمد بن القوام	التعيمي: المدارس ص ٥٠ - ٥١ - ٥٢ العلموني: المصدر نفسه ص ١٣
٤٦	دار الحديث السامرية	الصدر الكبير سيف الدين أبي العباس أحمد بن البغدادي	الشهاب بن القوام	التعيمي: المدارس ص ٤٥ - ٥٥ العلموني: مختصر تبييه الطالب ص ١٤

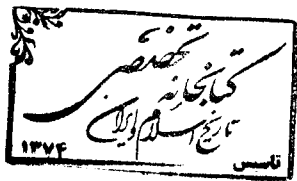
٥٨- ٥٧- ٥٦- ٥٨- التعليمي: الدارس العلموني: مختصر تربيته الطالب ص ١٥	شهاب الدين بن تيمية والد الشيخ تقي الدين المشهور ثم ولده ثم الحافظ أبو عبد الله الذهبي العالم المشهور صدر الدين سلمان المالكي	لم يعرف واقفها	دار الحديث السكرية	٤٧
٦١- ٦٠- التعليمي: الدارس ص	الحافظ المزي	أبي الفتح نصر الله بن أبي العز بن ابي طالب الشيباني الدمشقي المعروف بابن الشقيقة	دار الحديث الشيقية	٤٨
٦٢- ٦١- التعليمي: الدارس ص العلموني: مختصر تربيته الطالب ص ١٦- ١٢	الفخر ابن عساكر - الحافظ زكي الدين البرزالي - الفخر الحنبلي	أول من أقامها شرف الدين بن عروة الموصلي	دار الحديث العروية	٤٩
٧٤- ٧٣- التعليمي: الدارس ص العلموني: مختصر تربيته الطالب ص ١٨	لم نقتف على أحد جلس فيها	محمد بن عقيل بن كروس جمال الدين محتسب دمشق	دار الحديث الكروسية	٥٠
٧٦- ٧٥- التعليمي: الدارس ص ٧٧- ٧٨- ٨٩- ٨٠- ٨٢- ٨١- ٨٣ العلموني: مختصر تربيته الطالب ص ١٩- ١٨	الحافظ بن عساكر - القاسم بن عساكر - زين الأمان بن عساكر - زين الدين خالد التابلسي شيخ ابن عساكر - تاج الدين الفزاري - جمال الدين التابلسي - جمال ابن الصابوني - المجلد بن المهتار - فخر الدين الحنبلي	نور الدين محمود بن أبي سعيد زكي بن اسنقر التركي	دار الحديث النورية	٥١

التعمي: الدارس ص ٧٢- ٧٣ العلموني: مختصر تبييه الطالب ص ٢٤	علاء الدين بن العطار - تقي الدين بن رافع	شهاب الدين أبو المحامد إسماعيل بن حامد الشافعي الأنصاري الخزرجي القوصي	دار الحديث القوصية	٥٢
التعمي: الدارس ص ٩٦- ١٠١ العلموني: مختصر تبييه الطالب ص ٢٦- ٢٧	تاج الدين أبو بكر أبو طالب المعروف بالاسكندري - نجم الدين إسماعيل المارداني - صفى الدين الهندي الأموي الشافعي - بن الصصري - جمال الدين الزرعي - محي الدين بن جهيل - شهاب الدين بن المجد - صدر الدين بن جلال القزويني - تقي الدين السبكي - بهاء الدين السبكي	اخت نور الدين ارسلان بن اتابك صاحب الموصل وهي امرأة الملك الاشرف موسى	المدرسة الاتابكية	٥٣
التعمي: الدارس ص ١٢٦- ١٢٧ - العلموني: مختصر تبييه الطالب ص ٢١	رفع الدين الجيلي - نجم الدين بن سني الدولة - أمين الدين بن عساكر - برهان الدين بن الخلخالي - مجد الدين المارداني	الملط المظفر نور الدين عمر ابن الملك الأمجد	المدرسة الأبجدية	٥٤
التعمي: الدارس ص ١٥٤- ١٥٥ - العلموني: مختصر تبييه الطالب ص ٢٦	نجم الدين الباذرائي البغدادي واقفها - ثم ابنه كمال الدين سلا - عز الدين الاريلي - تاج الدين بن الفرقاح - برهان الدين الغزاري - كمال الدين بن انشيزاري	نجم الدين الباذرائي البغدادي	المدرسة الباذرائية	٥٥

٥٦	المدرسة الركنية الجوانية	ركن الدين منكورس	شمس الدين بن سني الدولة - ابنه صدر الدين - ثم ولده نجم الدين - ثم شمس الدين بن خلكان - النووي - بدر الدين بن سني الدولة - ابو شامة - علاء الدين بن نحلة - ركن الدين الحرستاني	التعليمي: المدارس ص ١٩٠-١٩١ - ١٩٢-١٩٣ العلموني: مختصر تبييه الطالب ص ٤٢
٥٧	المدرسة الصالحية	الصالح إسماعيل بن الملك العادل	نجم الدين احمد بن المقدسي - شهاب الدين بن المجد - ناصر الدين بن المقدسي - إمام الدين القزويني - كمال الدين بن الزمكاني	التعليمي: المدارس ص ٢٣٩-٢٤٠ - ٢٤١ العلموني: مختصر تبييه الطالب ص ٥٠ - ٥١
٥٨	المدرسة المزينة	الملك الأفضل أتمها الملك العزيز	القاضي محي الدين بن الزكي - ثم ولده زكي الدين - ثم أخوه محي الدين - ثم جمال الدين الحرستاني - شمس الدين الشيرازي - سيف الدين الامدي - إمام الدين بن الزكي - ثم أخوه بهاء الدين	التعليمي: المدارس ص ٢٩١-٢٩٢ ٢٩٣-٢٩٤ العلموني: مختصر تبييه الطالب ص ٦٠-٦١ الشميساني: المرجع نفسه ١١٩
٥٩	العمادية	نور الدين الشهيد محمود وعند قدوم العماد الكاتب أنزل بها كما الدين الشهرزوري فتسببت اليه	الخضر بن شبل المعروف بن عبد وهو خطيب دمشق - ثم ولديه من بعده ثم بدر الدين بن الصايغ - ثم شمس الدين الشيرازي - ثم شرف الدين ابن أنة - ثم محي الدين بن الصايغ	التعليمي: المدارس ص ٣٠٨-٣٠٩ - ٣١٠ العلموني: مختصر تبييه الطالب ص ٦٤

٦٠	الخاتونية البرانية	زمره خاتون زوجة اتابك زنكي	أبو الحسن البلخي - فخر الدين الغازي - ولده نجم الدين - شرف الدين الحوراني - صدر الدين سليمان	التعميمي: الدارس ص ٢٨٤ - ٢٨٥ - ٢٨٦ العلموني: مختصر تبيينه الطالب ص ٨٧
٦١	الشهبانية البرانية الحسامية	شبل الدولة الحسامي الرومي	صفي الدين السنجاري - نور الدين بن قاضي آمد - عز الدين بن عبد العزيز - بدر الدين بن الغورية - رشيد الدين البصري	التعميمي: الدارس ص ٤٠٧ - ٤٠٨ - ٤٠٩ العلموني: مختصر تبيينه لطالب ص ٩٢ - ٩٣
٦٢	المدرسة العزية البرانية	الامير عز الدين استادار المعظم	شمس الدين بن فلوس - رشيد الدين العزيزي - تاج الدين العالي - فخر الدين بن الصلاح - شمس الدين سبط ابن الجوزي	التعميمي: الدارس ص ٤٢٣ - ٤٢٤ - ٤٢٥ - ٤٢٦ العلموني: مختصر تبيينه الطالب ص ٩٦ - ٩٧
٦٣	المدرسة العلمية	الامير سنجر علم الدين المعطي	صدر الدين المعروف بابي الدلالات - ثم ولده نجم الدين - ثم تقي الدين التركماني - شرف الدين الراسميني - كمال الدين بن عبد الحق	التعميمي: الدارس ص ٤٢٩ - ٤٣٠ - العلموني: مختصر تبيينه الطالب ص ٩٨
٦٤	المرشدية	انشاء بنت الملك لمعظم شرف الدين عيسى بن العادل (خديجة)	شمس الدين بن عطاء الاذري - صدر الدين بن الكاش - صدر الدين بن عقبة - شمس الدين الحريري	التعميمي: الدارس ص ٤٤٣ - ٤٤٤ - العلموني: مختصر تبيينه الطالب ص ١٠٥

التعليمي: الدارس ص ٤٦٠ - ٤٦١ ج ١ العلموني: مختصر تنبيه الطالب ص ١١٠	نجم الدين بن فخر الدين القاري - الصفي البصري - ثم نجم الدين الصرخدي - محي الدين بن عقبة - نجم الدين الكلثي	فخر الدين ابن الأمير شمس الدين بن المقدم	المدرسـة المقدامية البرانية	٦٥
العلموني: مختصر تنبيه الطالب ص ١١٥	شمس الدين محمد بن رمضان	جمال الدين موسى بن يقمور الباروقي	المدرسـة اليفغرية	٦٦
التعليمي: الدارس ص ٨ - ٩ العلموني: مختصر تنبيه الطالب ص ١١٩ الشميساني: المرجع نفسه ص ٩٦ - ٩٧	جمال الدين المعروف بجار المالكية - ابن الحاجب - ثم زين الدين الزواوي - ثم جمال الدين الزواوي	صلاح الدين الأيوبي	المدرسـة الصلاحية	٦٧
التعليمي: الدارس ج ٢ ص ٧٧ العلموني: تنبيه الطالب ص ١٢٧	ضياء الدين محمد بن عبد الواحد المقدسي - عز الدين بن شيخ التقي - شمس الدين خطيب الجبل	ضياء الدين محمد بن عبد الواحد المقدسي	المدرسـة الضيائية	٦٨
التعليمي: الدارس ص ٢٣ - ٢٤ - ٢٥	عز الدين بن التقي سليمان - شمس الدين خطيب الجامع عبد الله بن الحافظ عبد الفتي أبو محمد المقدسي	محي الدين بن الجوزي ابن المحاسن يوسف بن الشيخ أبي الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد التيمي البكري	المدرسـة الجوزية	٦٩

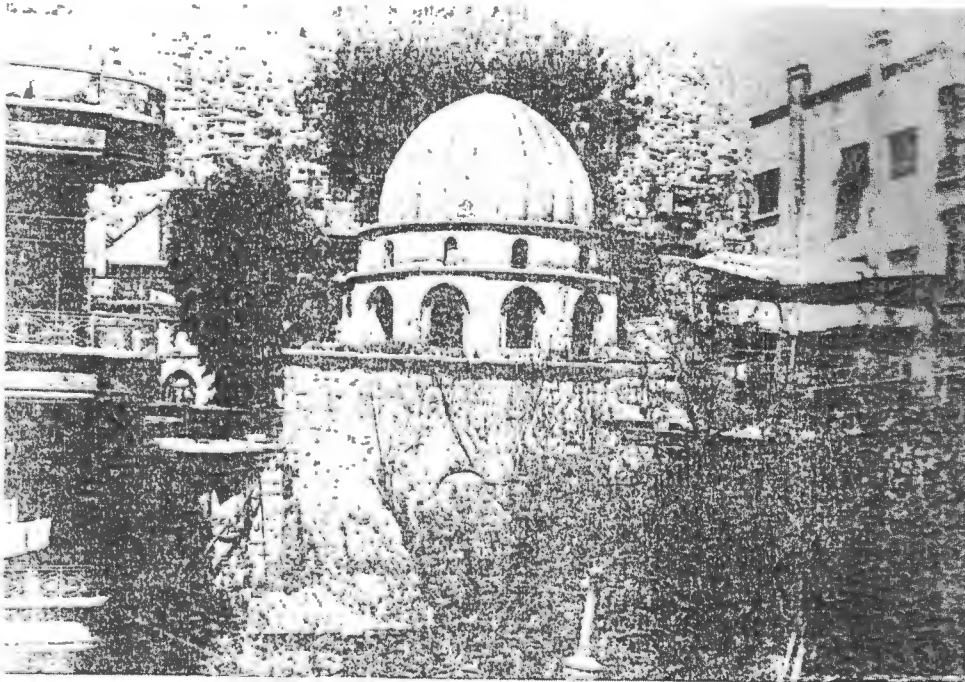




المدرسة العزيفية وفيها قبر صلاح الدين



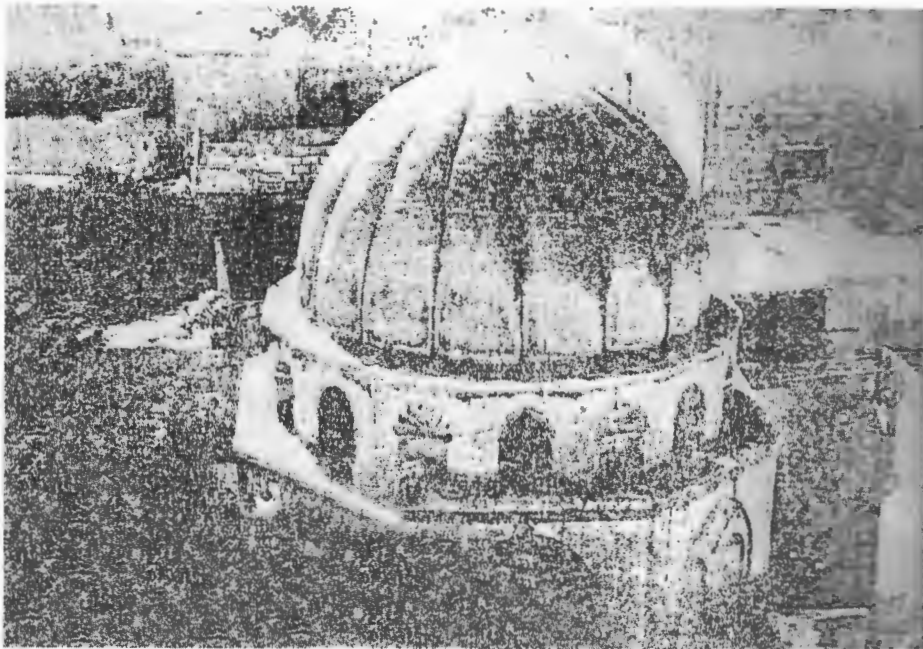
المدرسة الماردينية
أنشأتها خاتون زوجة صلاح الدين الأيوبي



المدرسة اليغمرية



المدرسة الركنية
جدار المدرسة



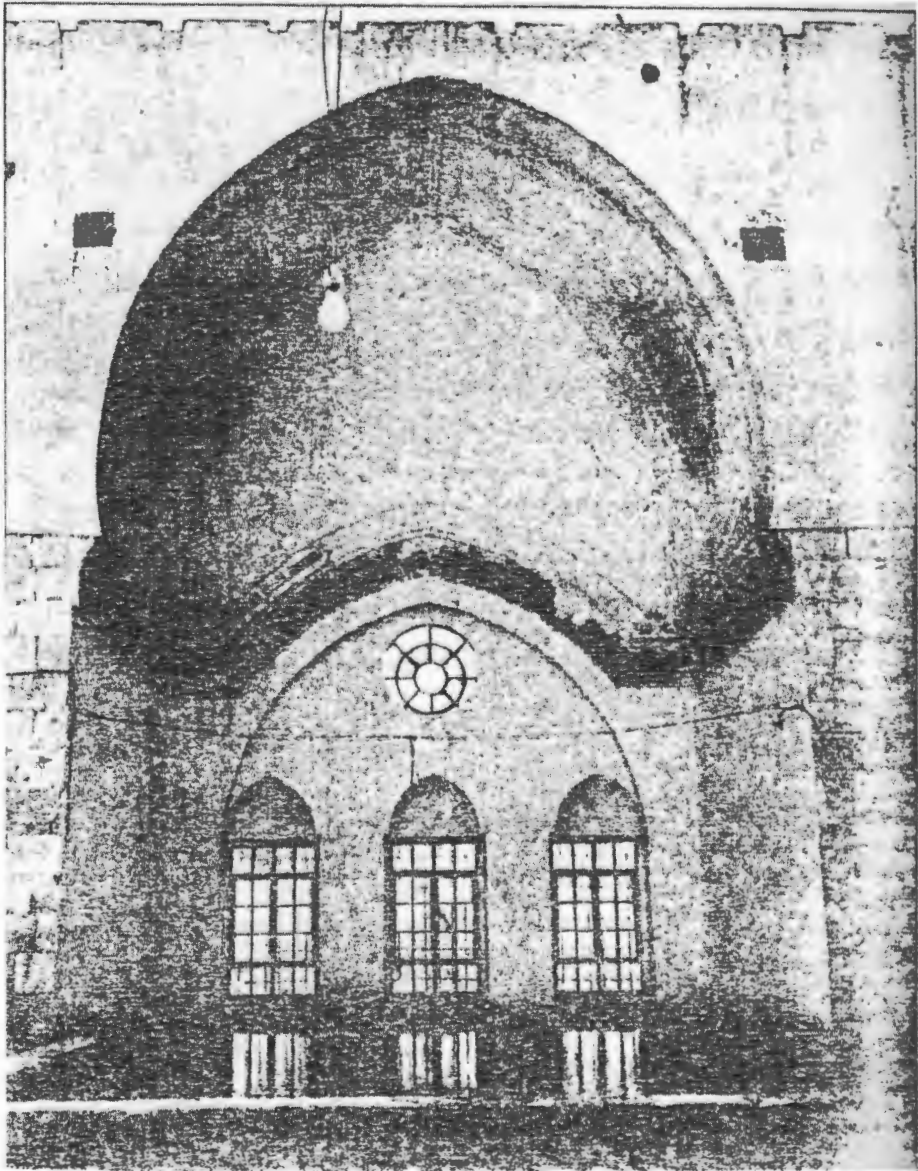
المدرسة الخاتونية



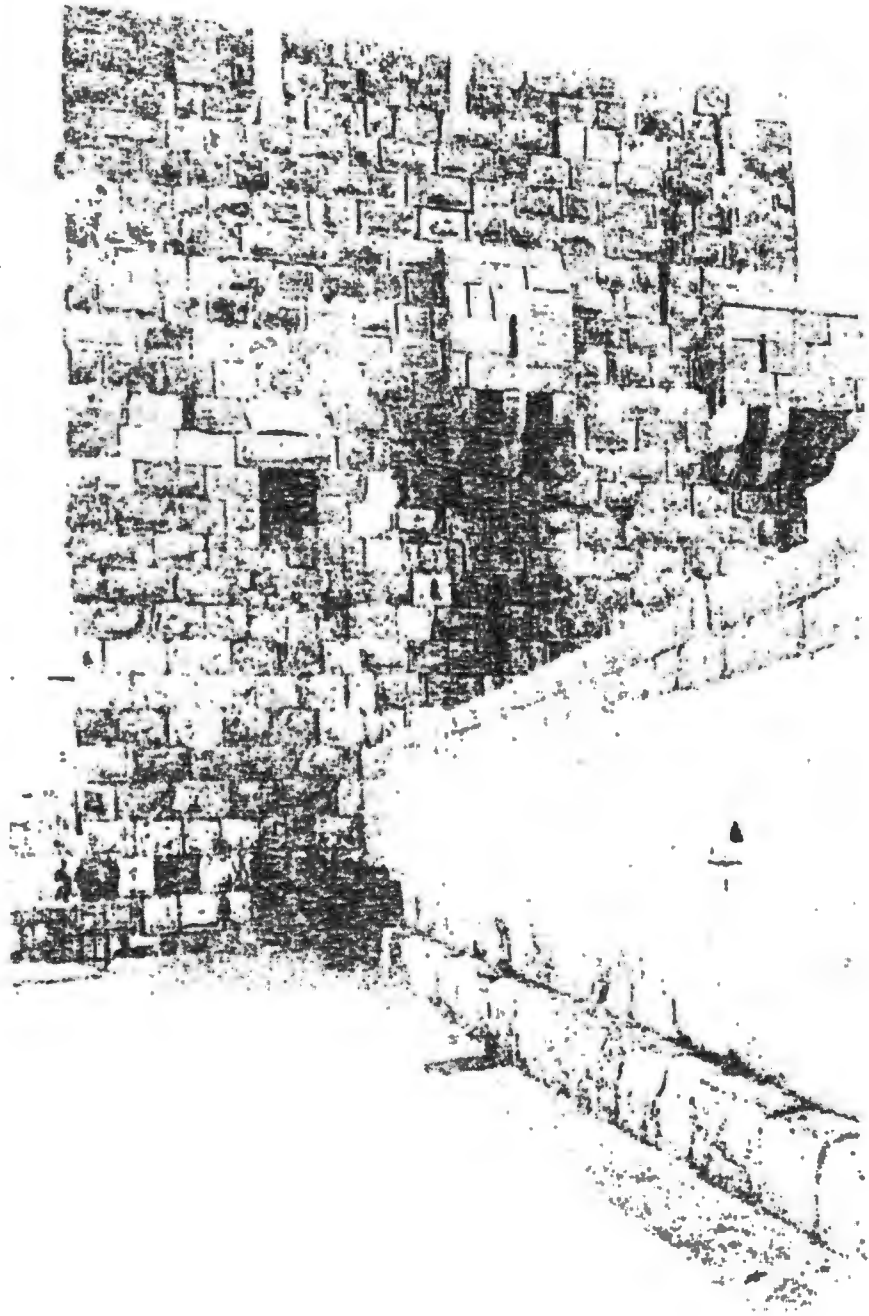
المدرسة الركنية
واجهه المدرسة



المدرسة العادلية الصغرى



البيمارستان القيمري

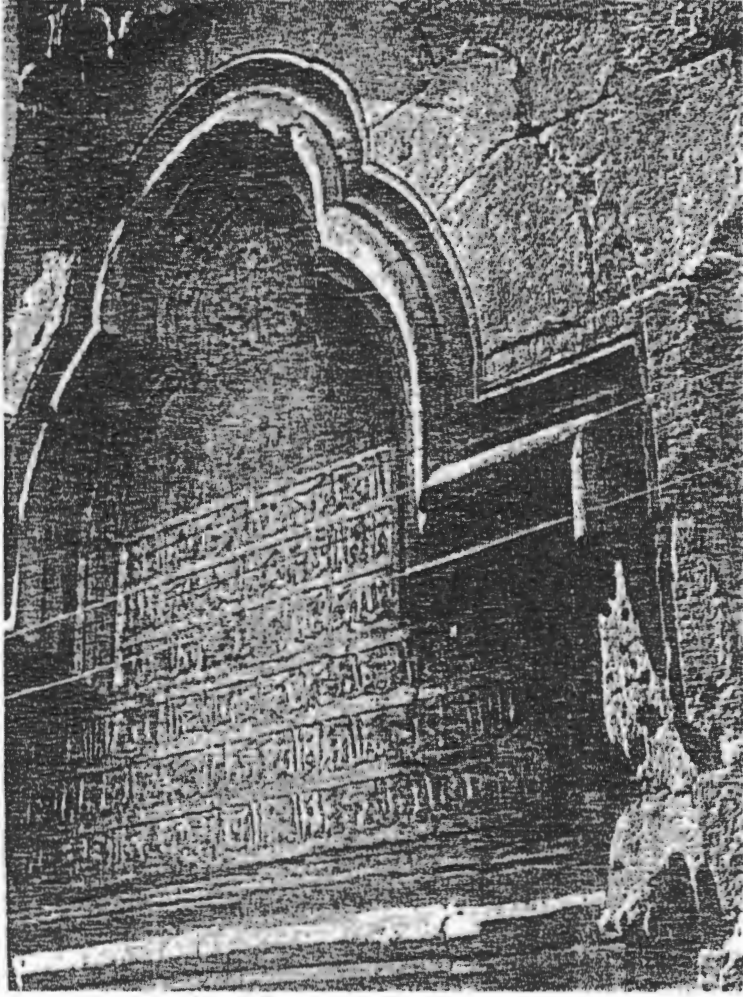


الجهة الشمالية للقلعة



الواجهة الشرقية للبرج الذي بناه الأمير مبارز الدين إبراهيم بن موسى وكتب عليه:

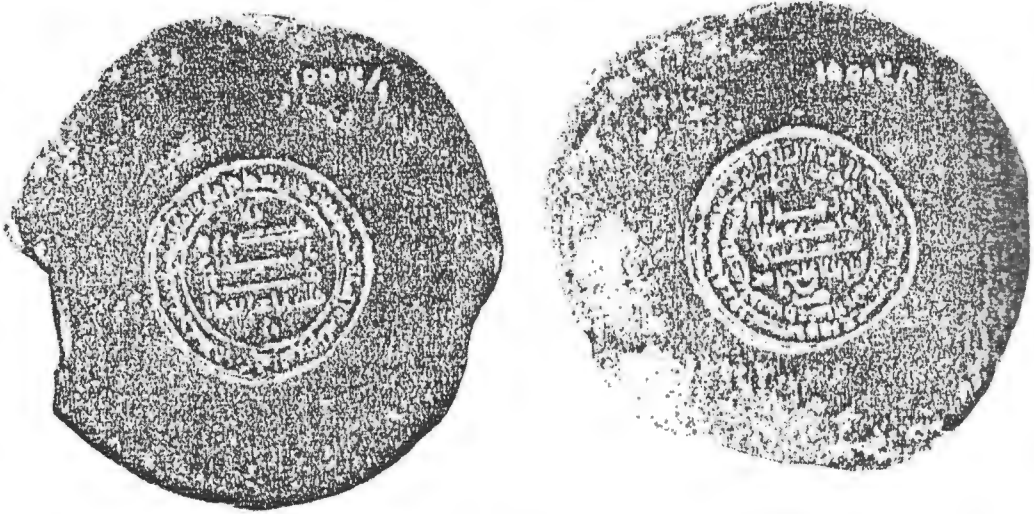
- ١ - بسم الله الرحمن الرحيم أمر بعمارة هذا البرج
- ٢ - المبارك مولانا السلطان الملك العادل
- ٣ - المظفر المؤيد المنصور سيف الدنيا والدين سلطا
- ٤ - ن الإسلام والمسلمين قامع الكفرة والمشركين حا
- ٥ - مي الحرمين الشريفين أبا بكر بن أيوب خليل أمير المؤمنين
- ٦ - أعز الله نصره وذلك في سنة عشر وستمائة بتولي
- ٧ - الأمير مبارز الدين إبراهيم بن موسى أدام الله أيامه



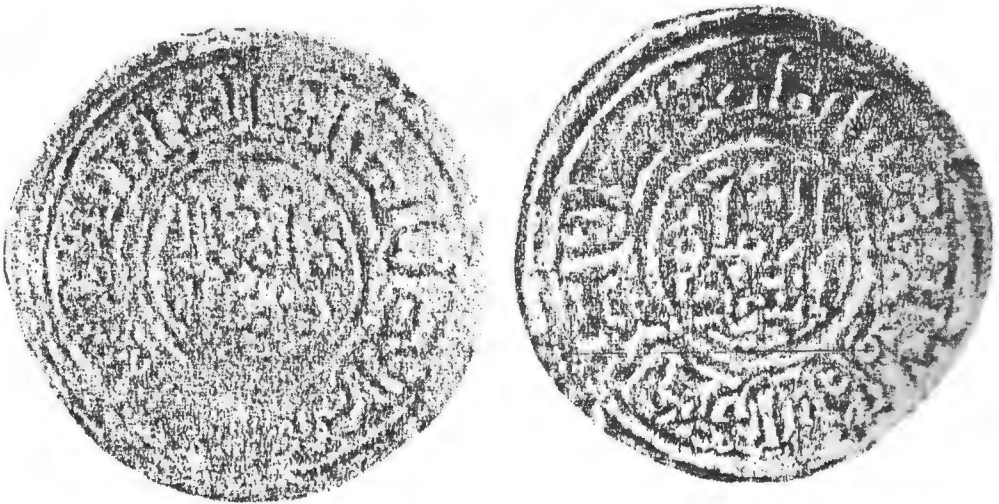
الواجهة الشرقية للبرج رقم / 1 / الذي بناه الملك العادل وكتب عليه:

- ١ - بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على سيدنا محمد وآله. أمر بعمارة هذا
البرج المبارك مولانا السلطان الملك العادل المجاهد المرابط المظفر المؤيد المنصور سيف
- ٢ - الدنيا والدين سلطان الإسلام والمسلمين قاتل الكفرة والمشركين قاهر الخوارج
والمتمردين ملك الديار المصرية والشامية والاخلاطية أبو بكر بن أيوب بن شادي خليل
أمير المؤمنين أدام الله سلطانه.
- ٣ - وبنى هذا البرج العبد الفقير إلى رحمة الله تعالى الملك المنصور محمد بن عمر
بن شاهنشاه بن أيوب أعز الله نصره بتولي نائبه أبي الغنائم.

قوالب سك النقود في العصر الأيوبي



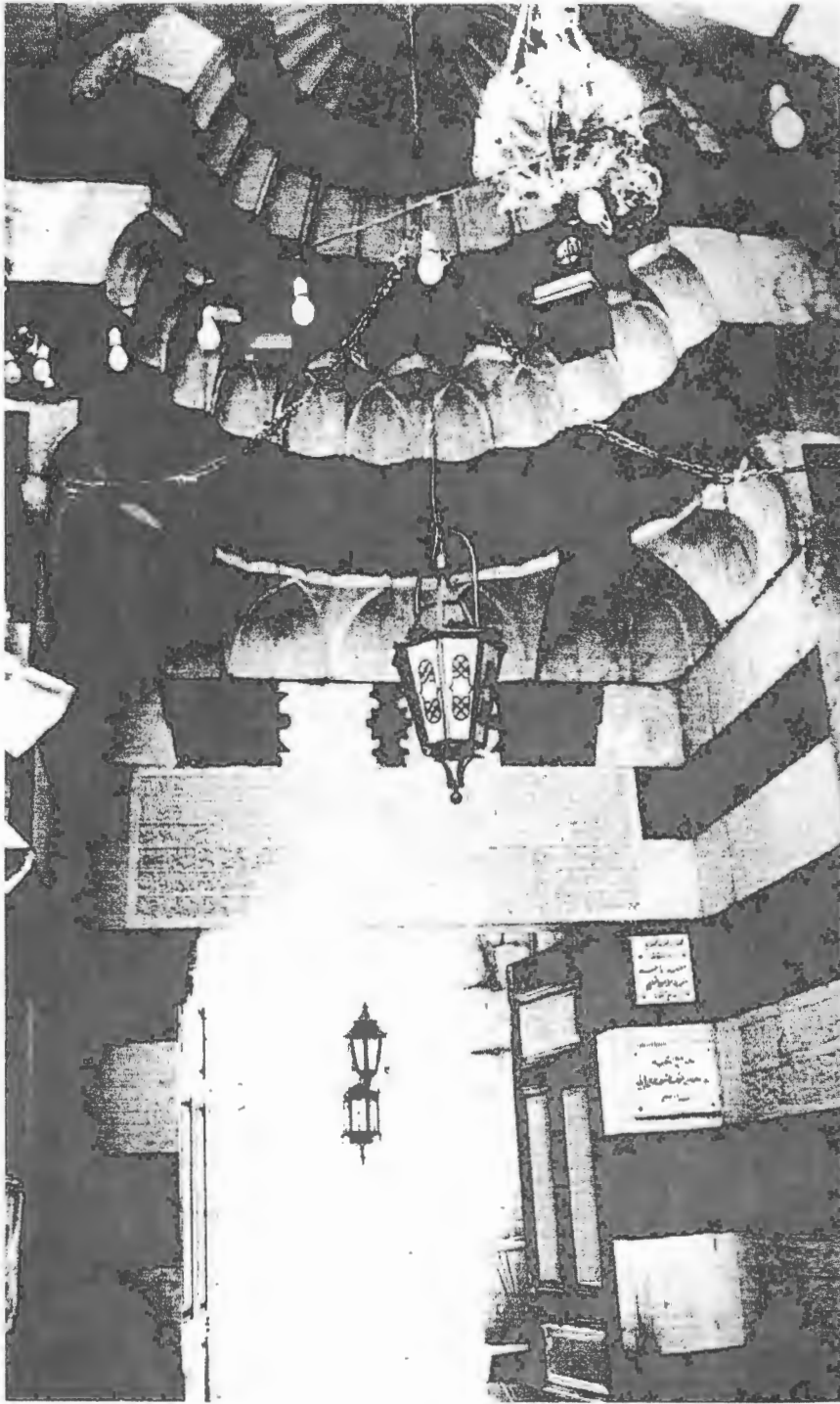
وجهي قالب من الرصاص كخطوة أولى لصنع قوالب الفولاذ



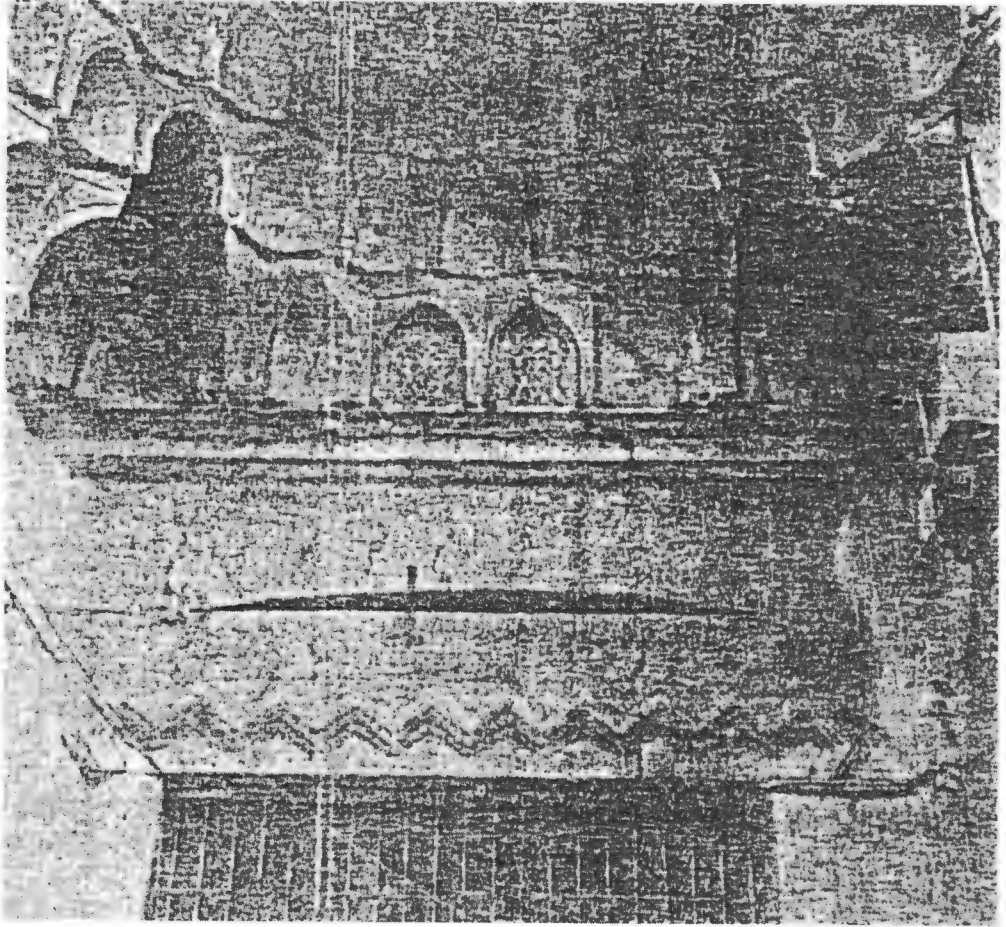
ظهر التجربة

وجه التجربة

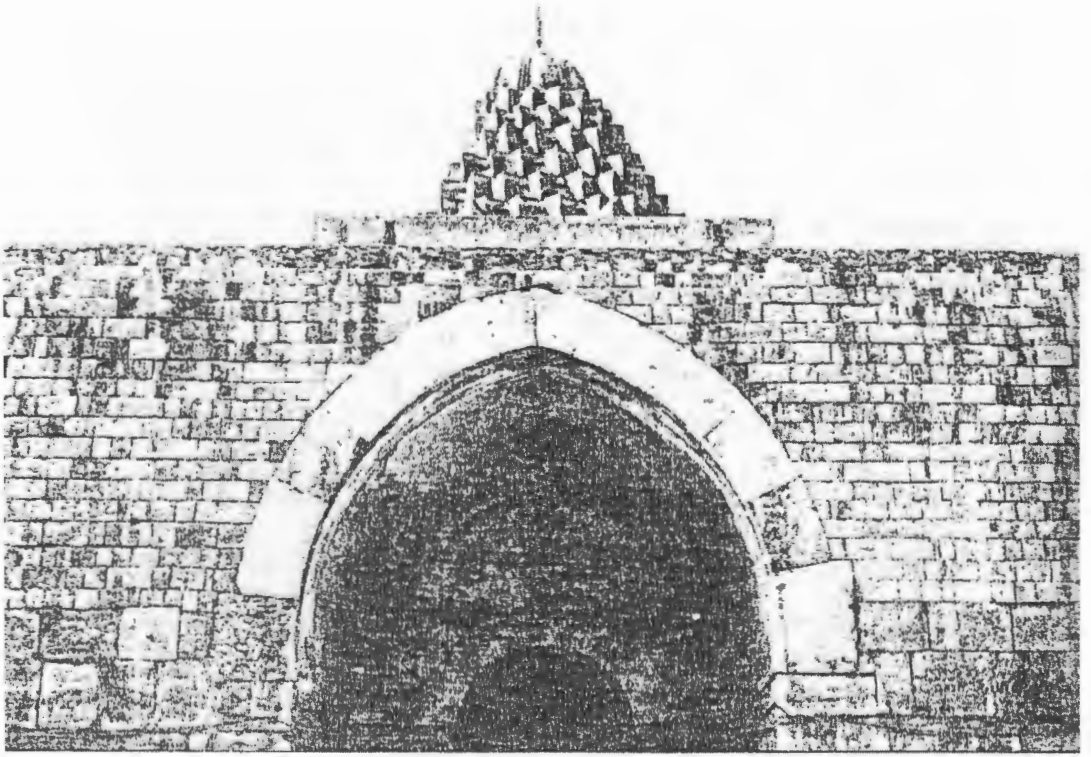
تجربة لسك أحد الدنانير الأيوبية



جامع التوبة - قبة المدخل الخارجي



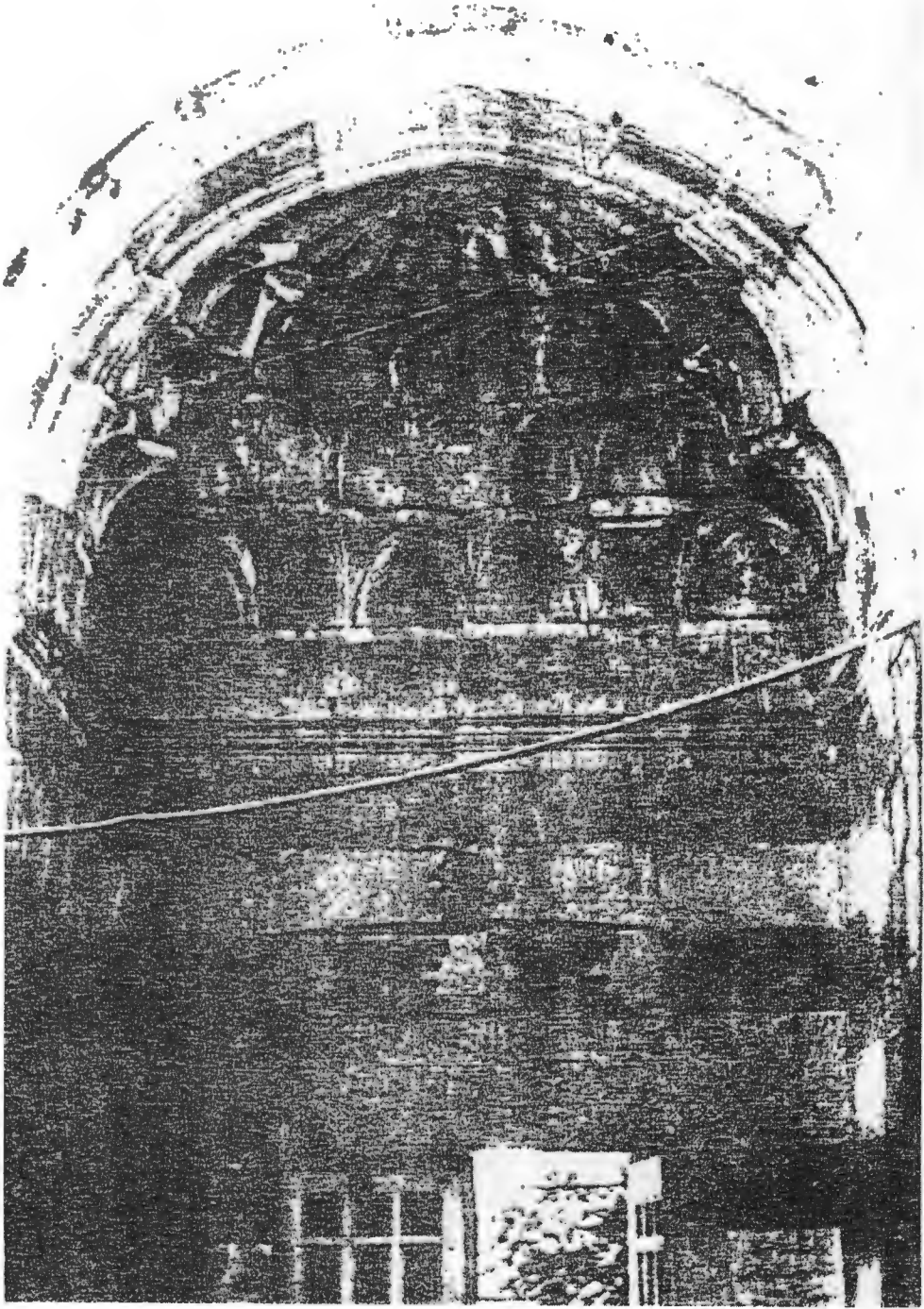
باب القلعة الشرقي
(إيوان الباب ومقرنصاته)



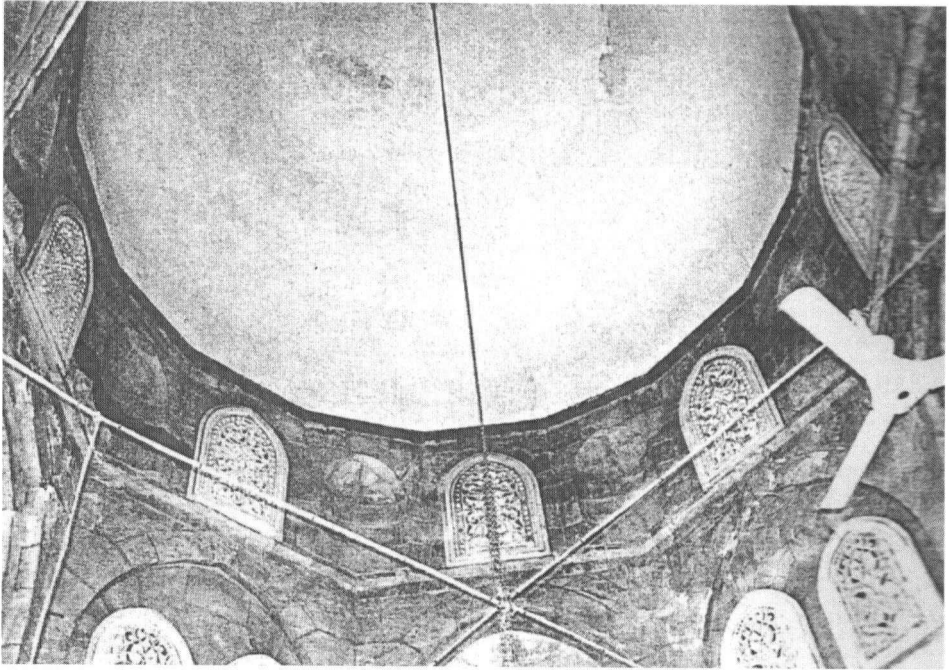
بیمارستان نور الدین (متحف الطب والعلوم حالياً)



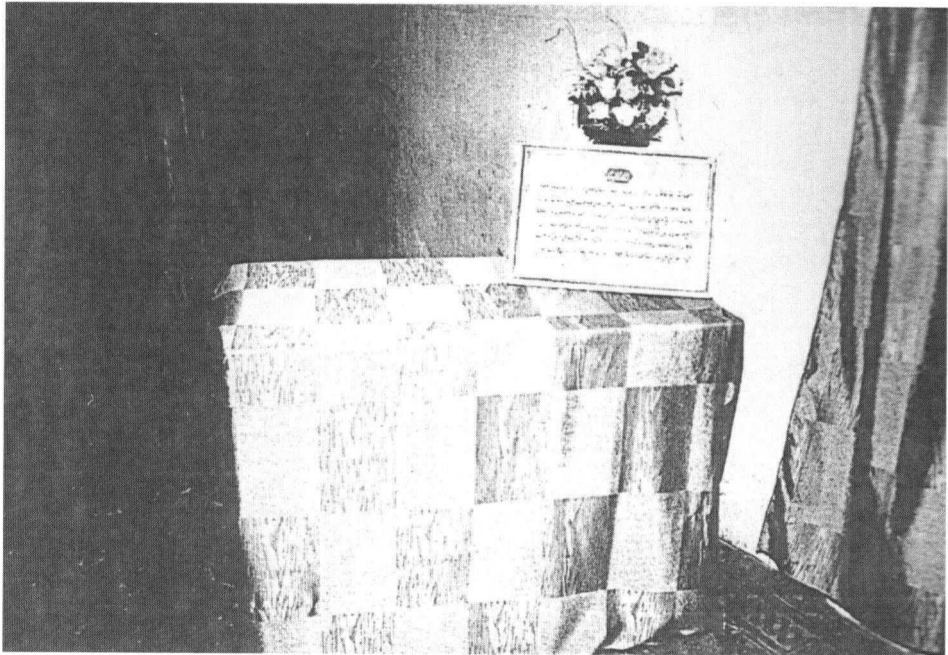
المدرسة العادلية الكبرى



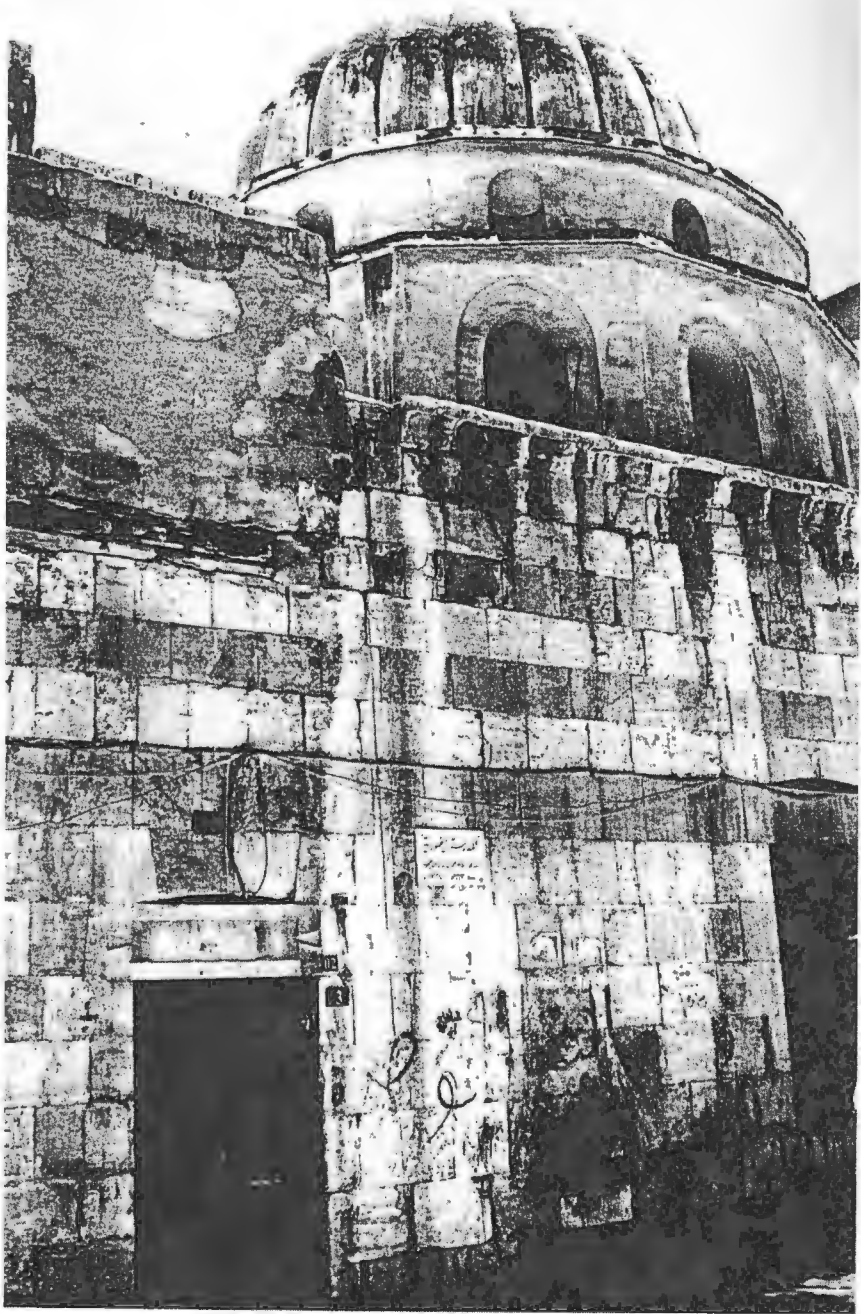
باب البيمارستان القييري في دمشق



المدرسة اليغمرية
منظر داخلي لقبة المدرسة



مدرسة الصاحبة
مرقد خاتون أخت صلاح الدين داخل المدرسة



المدرسة اليفمرية

دنانير أيوبية



دينار أيوبي مصوب وقد ترك القالب مناطق ملساء متقابلة من الوجهين



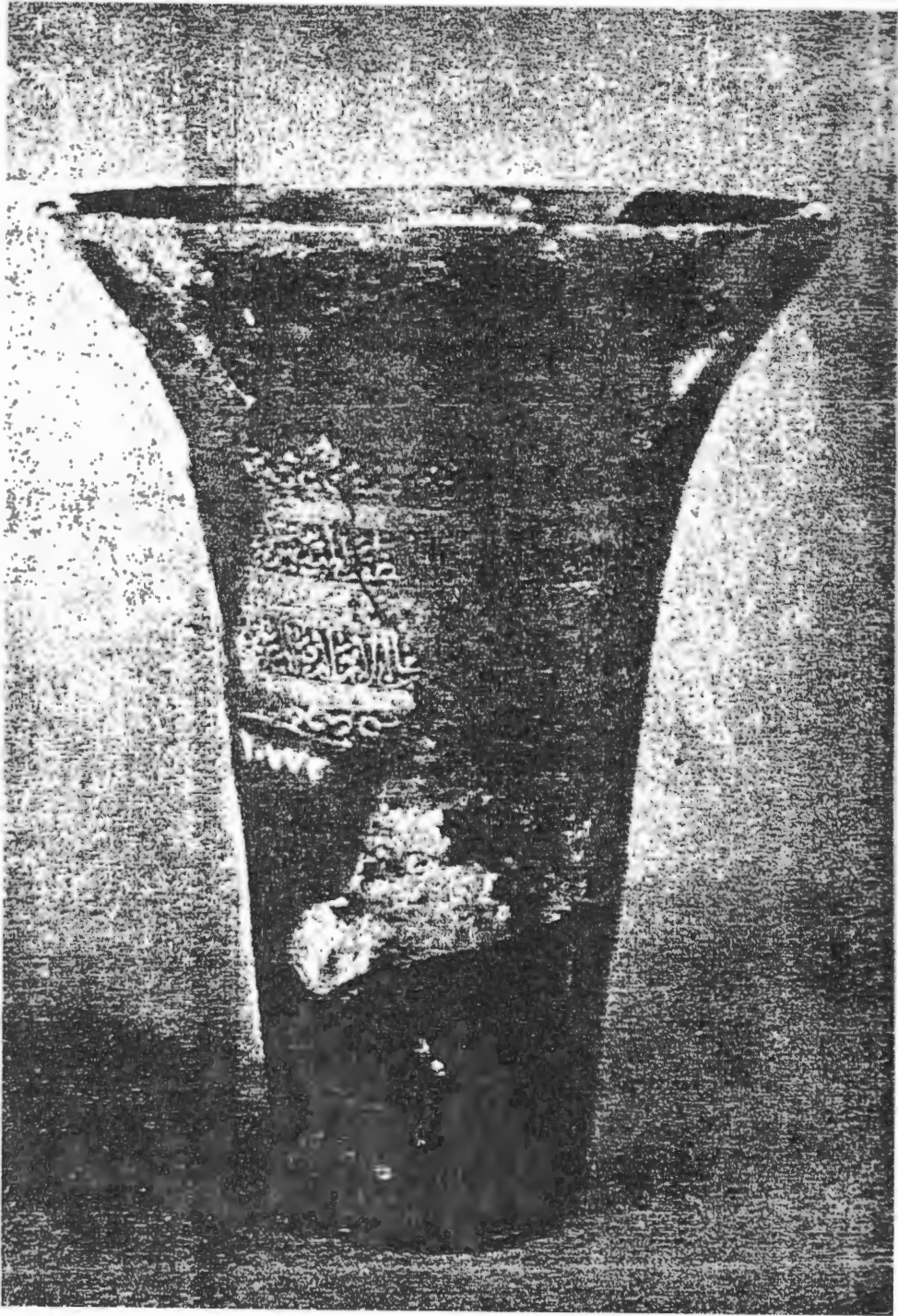
دينار أيوبي مضروب على البارد فتشقت السبيكة من أثر الطرق



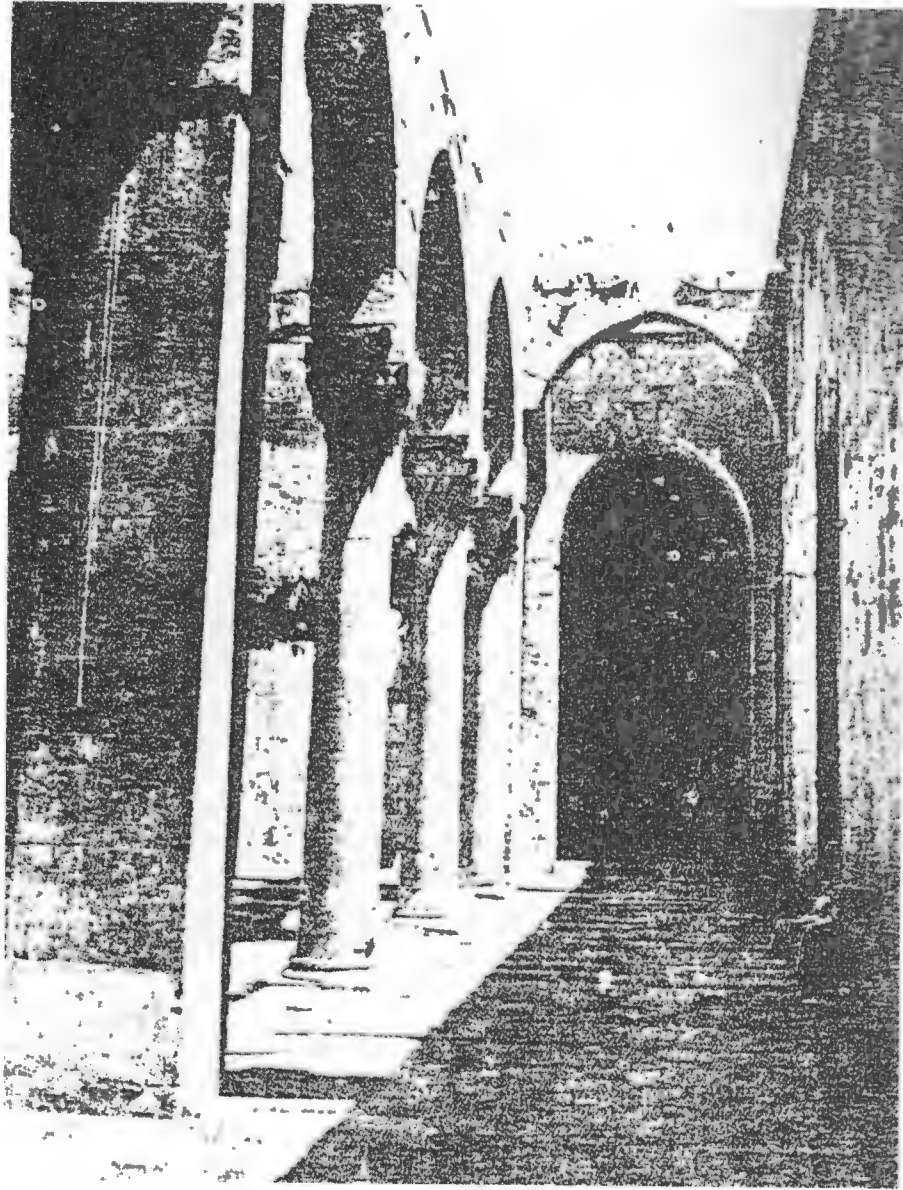
صورة تمثل صلاح الدين
 تتوضع على جدار غرفة مرقد صلاح الدين



قطعة من القماش الذي كان مستعملاً في تزيين الجدران



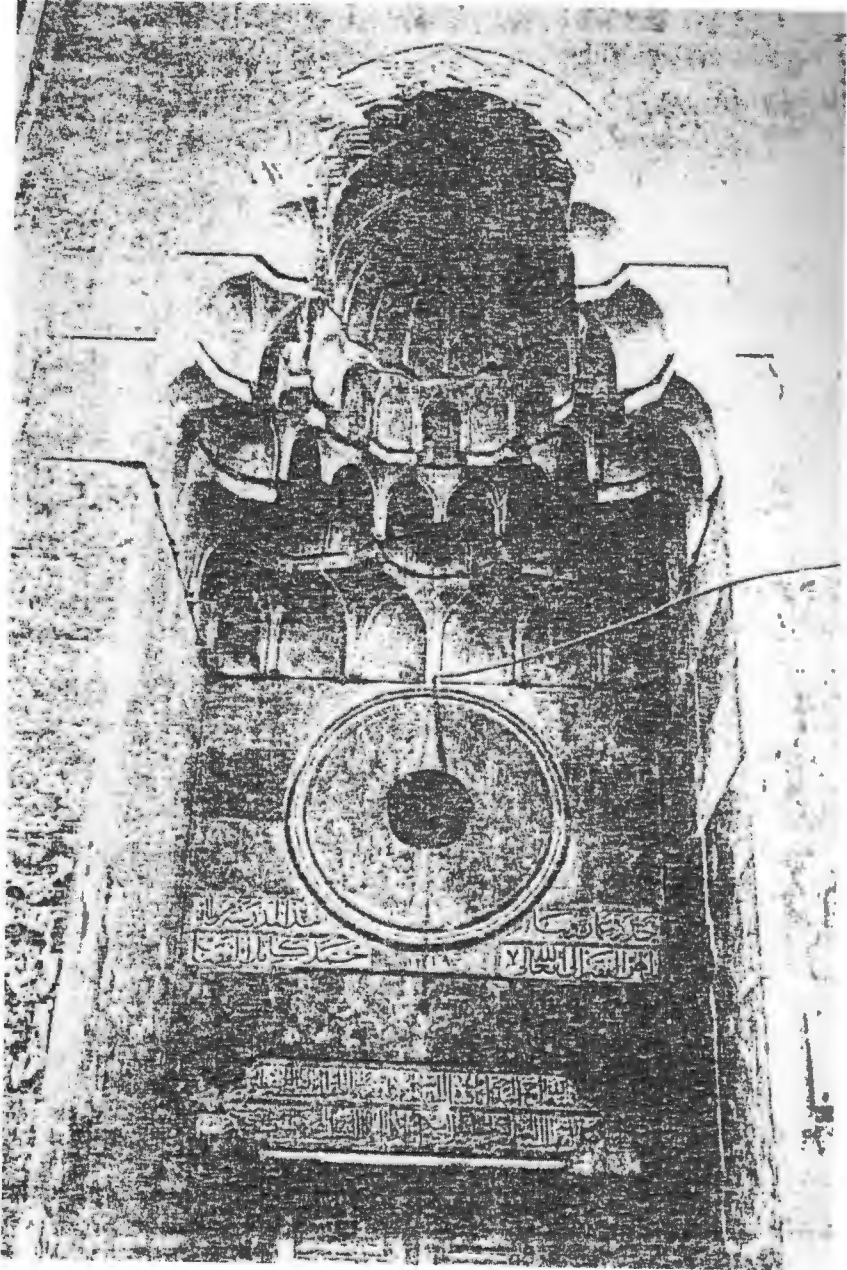
كأس زجاجية مموهة بالميناء تحمل اسم الملك العادل



جامع الفردوس ومدرسته - الدهليز
بناء ضيفة خاتون زوج الملك الظاهر غازي

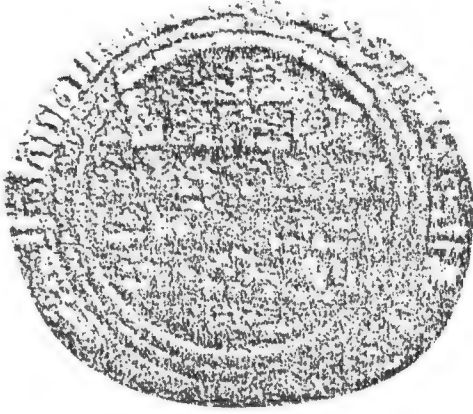


جدار قلعة دمشق الشرقي

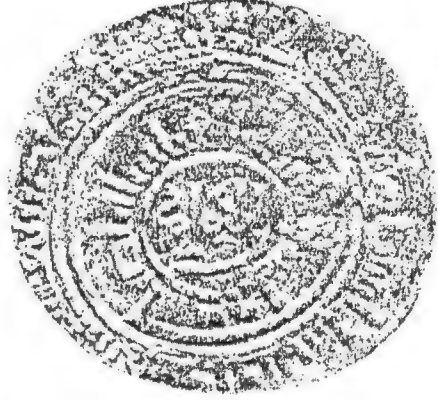


دار الحديث تنكز

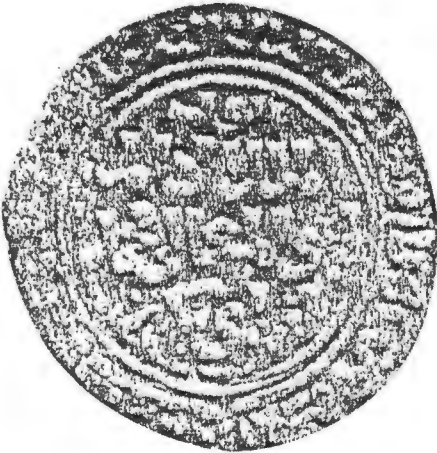
دنانير أيوبية



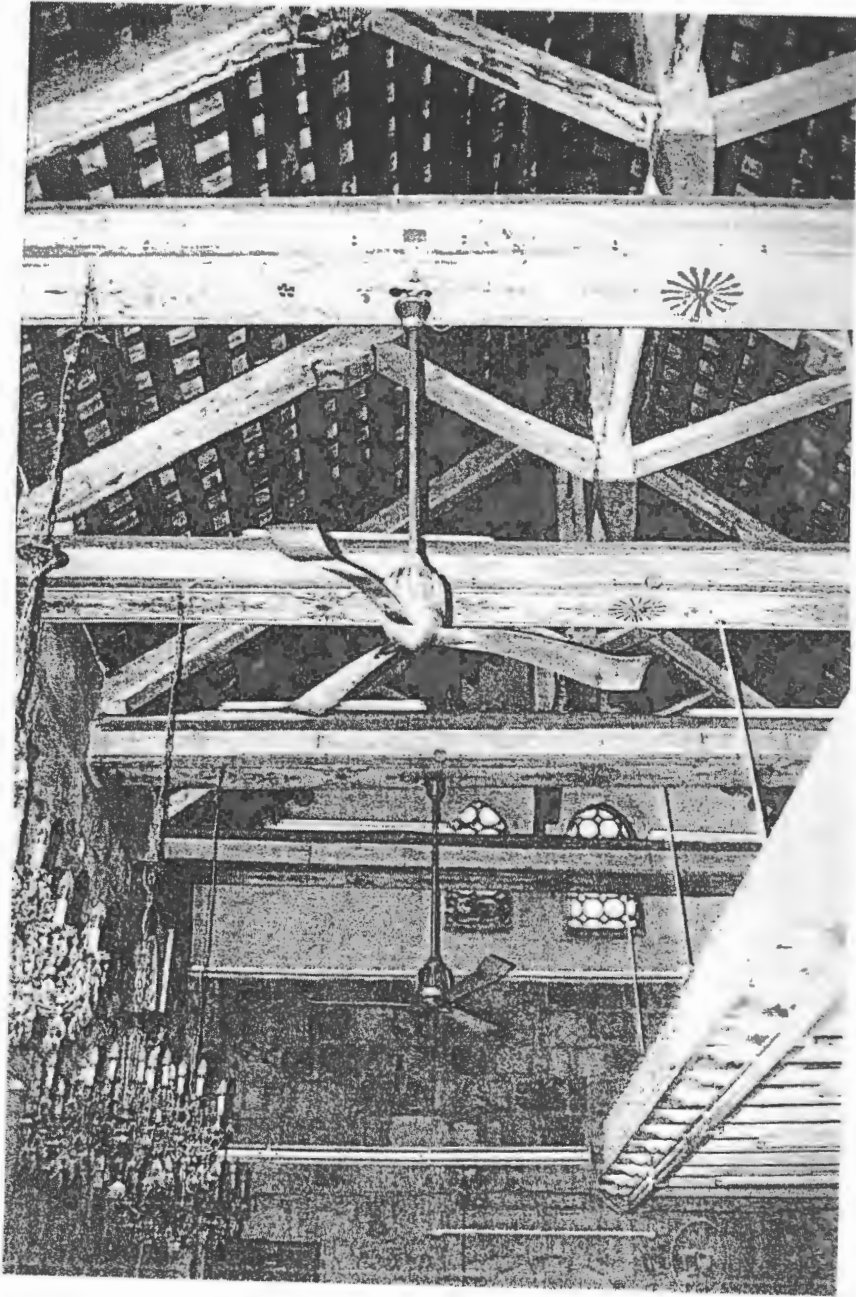
ظهر دينار أيوبي مصبوب وتبدو
عليه الحبيبات البارزة



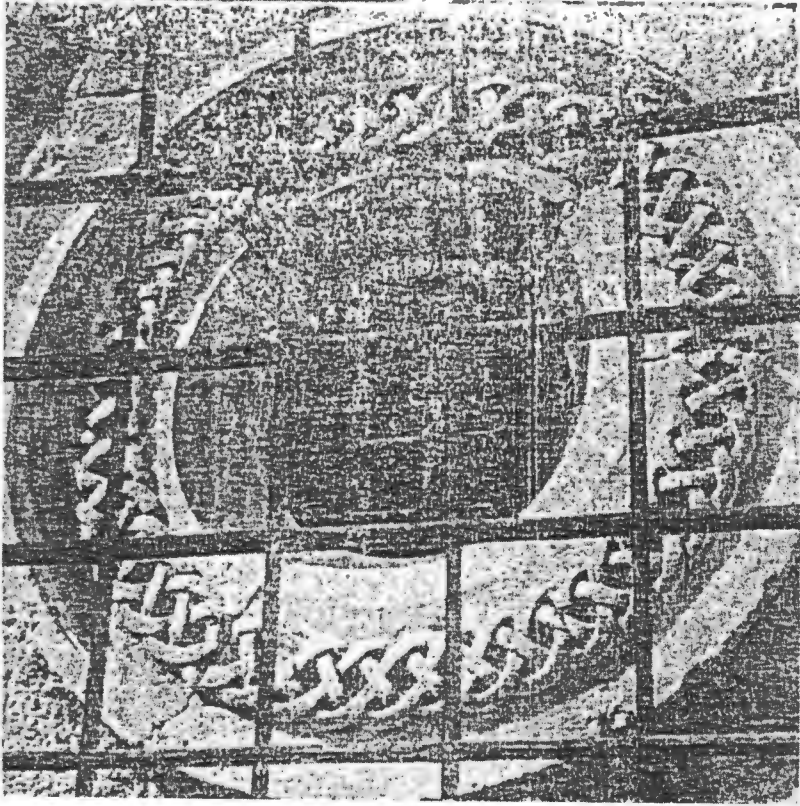
وجه دينار أيوبي مضروب مرتين



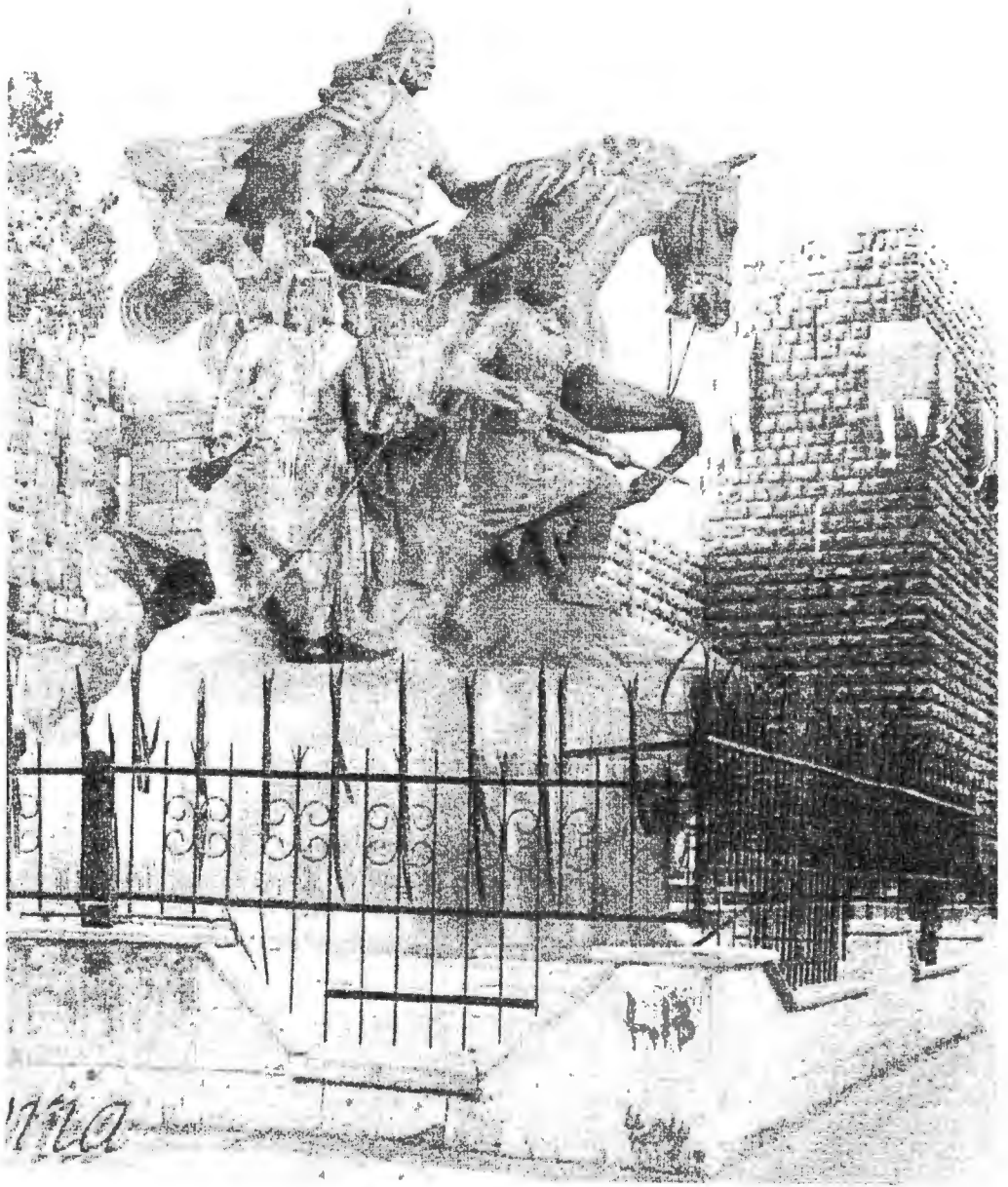
دينار أيوبي باسم الملك الكامل يبدو على الوجه الأيمن خطأ النقاش في كتابات الهامش



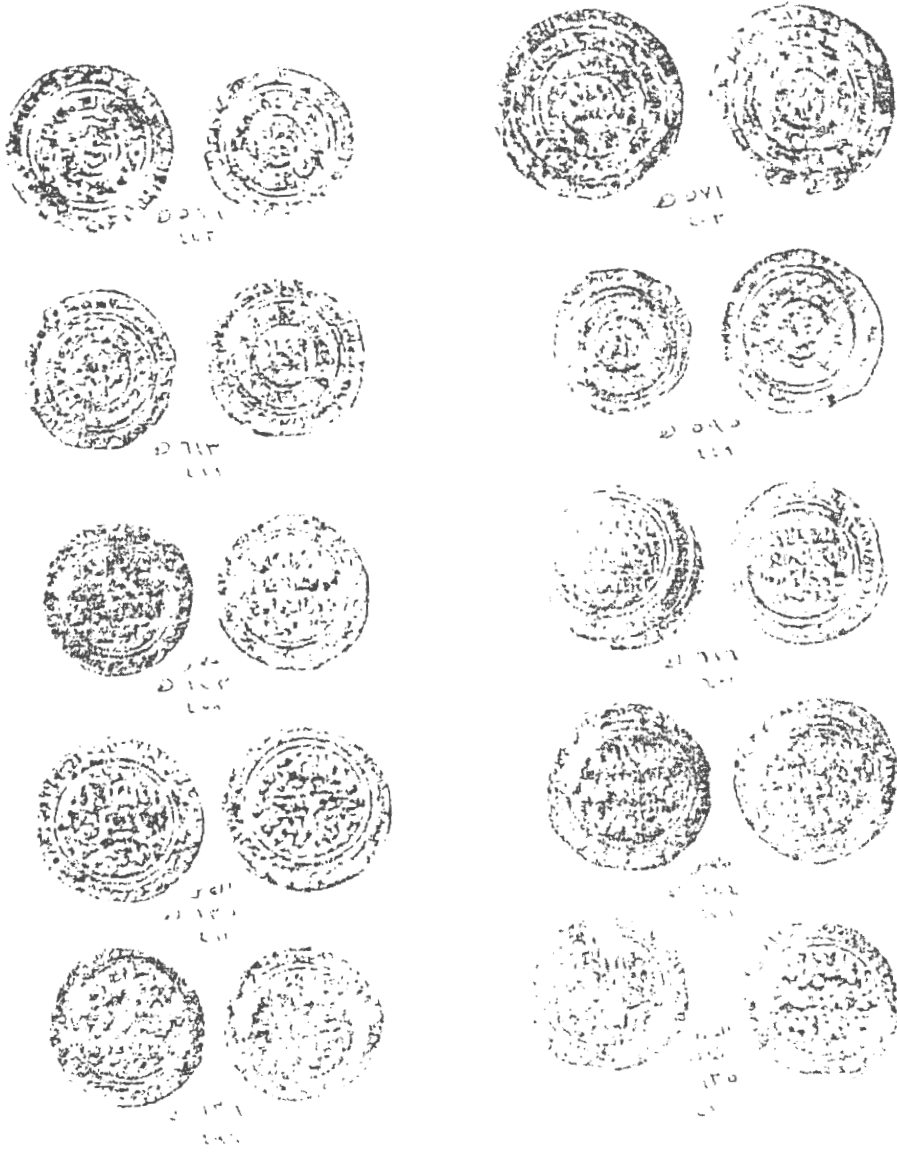
منظر داخلي للمدرسة الماردينية



نافذة من عهد الملك العادل أبي بكر في الواجهة الشرقية للبرج رقم (2)



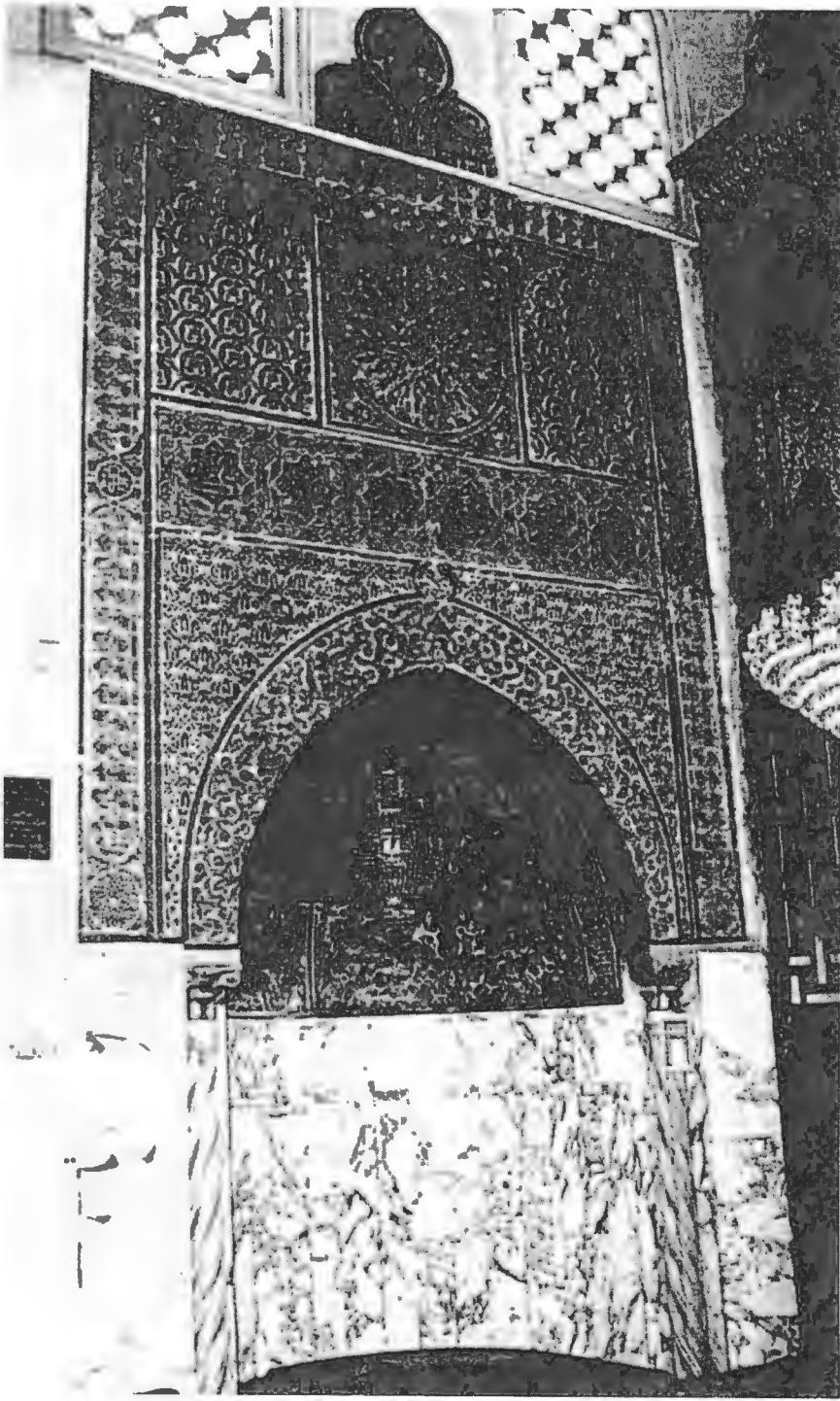
النصب التذكارى لصالح الدين أمام قلعة دمشق



نقود تعود للعصر الأيوبي



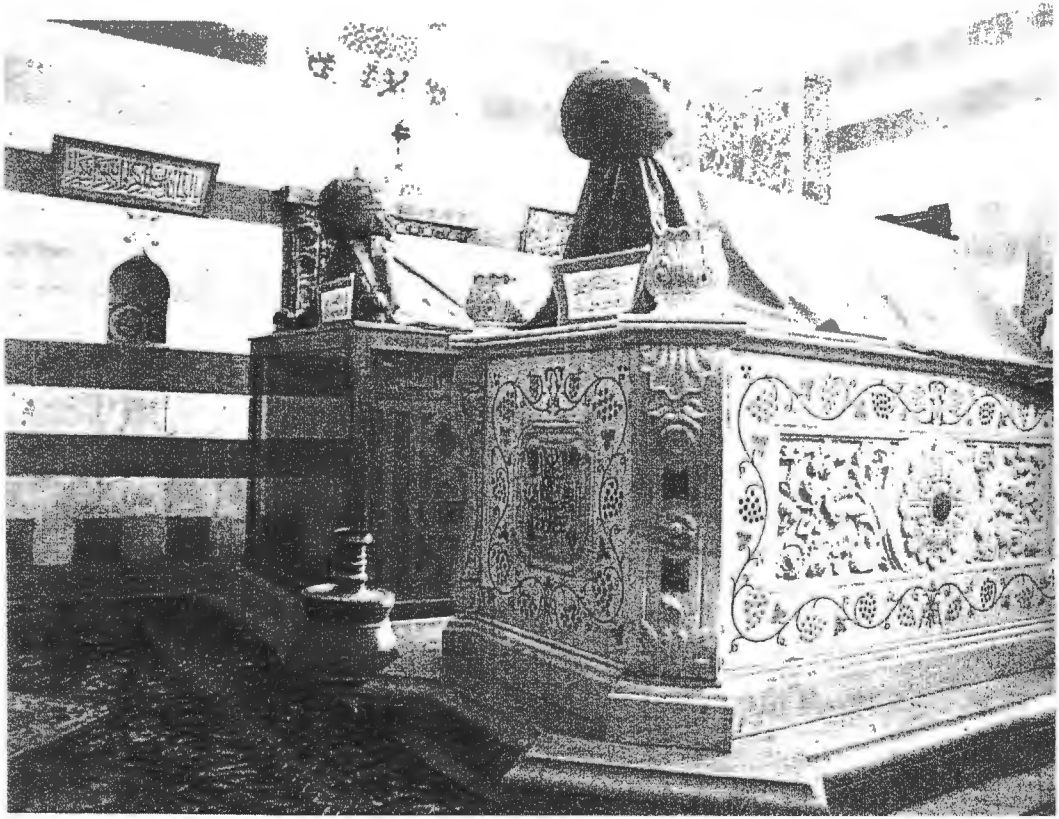
مأذنة المدرسة الركنية



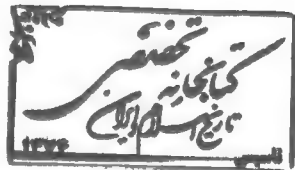
محراب مسجد التوبة



مدرسة الصاحبة خاتون أخت صلاح الدين



مرقد صلاح الدين الأيوبي



الهيئة التدريسية:

أمر صلاح الدين بتنظيم العمل في شتى المدارس التي أنشأها على اختلاف تخصصها في أمور العلم أو الدين، فكان القائمون بالتدريس فيها ينقسمون فريقين:

الفريق الأول: وهم المدرسون المتبحرون في العلم، الذين يقومون بتدريس التفسير والحديث أو الفقه، أو ما إلى ذلك^(١)

الفريق الثاني: هم المعيدون، وهؤلاء يقومون بإعادة ما تليه المدرسون على الطلاب حتى يرسخ في أذهانهم، وكان المعيد لا يبخل بوقته في سبيل إفهام العاجزين عن الفهم في سعة صدر، ورحابة أفق، وكان المعيد يجلس في العادة بجوار المدرس، حتى إذا انتهى الدرس، وخرج المدرس بقي المعيد مع الطلاب، ليقوم بعمل المدرس في شرح ما قد صعب عليهم.^(٢)

هذا وقد أصبح منصب المعيد في هذه الفترة مرموقا، وقلما أن خلت منه مدرسة من المدارس التي أنشئت في هذه الفترة، فقد عين صلاح الدين معيدين بالمدرسة الناصرية.^(٣)

وكان يقوم بالتدريس في المدرسة مدرس أو أكثر، يختار من شيوخ علماء عصره، وأوسعهم علما، وأبعدهم صيتا، لأنهم على أساس مكانته وشهرته، تتوقف سمعة المدرسة وأهميتها.

هذا وقد اعتمد التدريس على الإلقاء والتلقين والإملاء، وربما دارت مناقشات علمية بين المدرس وطلابه.^(٤)

(١) ابن جبير: الرحلة ص ٢٤٤ - ٢٤٥.

(٢) الرمادي: صلاح الدين الايوبي ص ٦٧.

(٣) السيوطي: حسن المحاضرة ص ١٥٧ - المقرئزي: المواعظ ص ٣٧٤

(٤) عاشور: مصر والشام في عصر اليوبين والماليك ص ١٣٣.

هذا ولم تكن هناك ميزة بين العلماء المدرسين، والمدرسين الآخرين الذين اتخذوا من التدريس مهنة، إذ كان الجميع يعملون بأجر، أو تطوعاً، من أجل تثقف الناس وتعليمهم عن طريف التدريس تارة، أو عن طريف الكتب ونشرها طورا.

وكان أخذ العلم من المدرس هو الذي نال الاهتمام عند المسلمين، الذين كانوا يكرهون كما ذكر أخذه عن الكتب وحدها. لدرجة أنهم كانوا يقولون: "إن أعظم البلية هو تشيخ الصحيفة".^(١)

وكانوا يطلبون من المدرس أن يكون عالماً بالعلوم، وأن يكون كثير البحث مع طول أناة، ليتسنى له دراسة نفسية من يعهد إليه، ويستطيع بالتالي النزل إلى مستواه، ويعمل على الاتصال العاطفي به، كما كان يطلب منه أيضاً، أن يكون منزهاً عن أخذ مال الوقف المنوط به أحياناً، وأن يتقيد بشروط الواقف، وأن ينفذ رغباته، وأن يحافظ على محتويات الوقف، وأن لا يتعاطى التدريس في غير المكان أو المدرسة التي كلف بها، إلى غير ذلك من الشروط التي كان يضعها أصحاب الأوقاف^(٢) أو الدولة، في بعض الأحيان، والتي اشترطت فوق ذلك شروطاً دينية وغير دينية، تتناسب واتجاهاتها، فحرمت من ممارسة مهنة التعليم كل من لم يتمذهب بمذهبها بل ودعت إلى معاداته وملاحقته واضطهاده.

أما عن المستوى المعيشي للمدرسين، فقد اختلف من فئة إلى أخرى، فقد ذكر أن المدرسين المعينين من قبل الدولة كانوا يتناولون مرتبات شهرية منتظمة من الخزنة العامة للدولة، أما المدرسون الذين كانوا يعينون من قبل صاحب الأوقاف بنص مكتوب، فقد كانوا يأخذون مرتباتهم من إيرادات الأوقاف،

(١) ابن جماعة (بدر الدين أبو عبد الله محمد بن ابراهيم): تذكرة السامع والمتكلم من أدب العالم والمتعلم حيدرآباد_ الهند_ دائرة المعارف المثمانية ٢٥٣هـ ص ٨٧.
(٢) طلس: التربية والتعليم في الإسلام ص ١٢٩.

وكانت هذه المرتبات تختلف باختلاف مكانة المدرس من جهة، وريع الوقف من جهة ثانية، ولكنها على العموم كانت كما ذكر تميل إلى السخاء والوجود. أما المدرسون الذين كانوا يجرون عقوداً مع الطلاب أو مع أوليائهم، فإن مرتباتهم كانت تتأثر بمستوى هؤلاء الطلاب المادي والخلقي، فإذا كان ولي الأمر ميسوراً وكريماً، فإنه كان يقدق على المدرس، وإذا كان شرهاً وشحيحاً فإنه كان يقلل من المرتب الذي يمنحه للمدرس أياً كان مركزه العلمي^(١)

ومن المؤسسات العلمية التي كان لها أثراً كبيراً في النهضة العلمية إضافة للمدارس:

الكتاتيب: وهو نظام قديم في بلاد الشام ودمشق، وقد اهتم به الأيوبيون، وخاصة في عهد صلاح الدين، وتذكر المصادر أنه عندما كان الصبي يشب عن الطوق يلتحق بإحدى هذه الكتاتيب، ليتعلم القرآن ويحفظ طرفاً من الحديث الشريف، كما كان يتعلم الخط العربي ويحاول أن يتقنه ما استطاع إلى ذلك سبيلاً، وكان يتعلم الغلمان إلى جانب هذا بعضاً من أصول الحساب، ويحفظون بعض الشعر أو المأثور من الحكم والأمثال، وكان الصبية يتعلمون أداء صلاة الجماعة، وطرق الابتهاج إلى الله في صلواتهم، وكان معلمو هؤلاء الصبية يتبعون في تعاليمهم تقاليد معروفة لا يحدون عنها، ولا يخرجون عن حيزها، مثل ألا يستخدم المعلم تلميذه في قضاء أغراضه الخاصة، أو إنجاز أموره العاجلة أو نحو ذلك.^(٢)

(١) حسن شمساني: مدارس دمشق في العصر الأيوبي ص ٤٤- ٤٥

(٢) الرمادي: صلاح الدين الأيوبي ص ٦٦

هذا وقد انشأ صلاح الدين عددا من الكتاتيب لتعليم أبناء الفقراء والأيتام خاصة، مما جعل ابن جبيريعد ذلك من مآثره الكريمة المعبرة عن اعتناؤه بأمور المسلمين عامة.^(١)

المساجد: شغلت المساجد دورا بارزا في إحياء الحركة الثقافية، إضافة لكونها مكانا للعبادة، حيث كانت تخرج بطلاب العلم لشتى أصنافهم، منهم الماهر في علم قراءات القرآن أو تفسيره، كما كان منهم النابغ في النحو، الصرف، والعروض، أو أوزان الشعر، هذا وقد شغل جامع دمشق دوراً هاماً في هذا المجال، حيث وصف لنا ابن جبيري جامع دمشق عندما زارها وصفاً دقيقاً، وبين أن هذا الجامع كان قبلة للعلماء من كل صوب.^(٢)

الخوانق: وقد اهتم الأيوبيون ببناء الخوانق وشيدوا العديد منها. ومما حفظته لنا المصادر:

١ - الخانقاه الاسديّة: داخل باب الجابية، بدرب الهاشميين، المعروف بدرب الوزير، أنشأه أسد الدين شيركوه، ولي مشيختها نجم بن الدين القرشية، ثم بهاء الدين بن شمس الدين البعلي، ثم السيد ناصر الدين بن نقيب الأشراف، ثم بدر الدين بن البرهان.^(٣)

٢ - الخانقاه الحسامية: شمالي المدرسة الشبلية البرانية، عند جسر كحيل، منسوبة لأم حسام الدين محمد بن عمر بن لاجين، ست الشام، أخت السلطان الناصر صلاح الدين، ودفن حسام الدين بالتربة التي أنشأتها (أمه) بمحلة العونية بالشامية البرانية بالقبر الأوسط، وتوفي في الليلة التي توفي فيها تقي الدين عمر بن شاهنشاه سنة سبع وثمانين وخمسائة، ففجع السلطان

(١) ابن جبيري: الرحلة ص ٢٧

(٢) ابن جبيري: المصدر نفسه ص ٢٧

(٣) العلموني: مختصر تنبيه الطالب ص ١٤٠

صلاح الدين بابن أخته، وابن أخيه في ليلة واحدة، ولي مشيختها الشيخ شرف الدين نعمان.⁽¹⁾

٣ - الخانقاه الخاتونية: تقع ظاهر باب النصر المعروف الآن بباب دار السعادة، في أول الشرف القبلي على بانياس، شرقي جامع تتكز ولصيقه، وبابها يفتح قبلة، منسوبة إلى خاتون بنت معين الدين، زوجة نور الدين الشهيد، ولي مشيختها عبد الواحد المعروف بابن سكيئة، ثم شهاب الدين أحمد الرومي، ثم سراج الدين عمر السلاوي، ثم الشهاب الدلجي، ونسب إلى الزندقة ففرغ عنها لولي الدين بن قاضي عجلون، ثم نجم الدين أخوه، ثم أخوه زين الدين عبد الرحمن، ثم تقي الدين أبو بكر أخوه ثم شهاب الدين أحمد البقاعي، ثم ولده.⁽²⁾

٤ - الخانقاه الروزنهارية: بالبرج المستجد، خارج باب الفراديس الأول، والترية منسوبة للشيخ أبي الحسن الروزنهاري سنة عشرين وستمائة.⁽³⁾

٥ - الخانقاه الشهابية: داخل باب الفرج، غربي العادلية الكبرى، وشمالي المعينية، إنشاء الأمير ايدكين بن عبد الله، الأمير علاء الدين الشهابي، كان من خيار الأمراء وشجعانهم، توفى سنة سبع وسبعين وستمائة، ودفن بسفح الترية الشيخ عماد الرومي، ولي مشيختها شمس الدين السلسبيلي.⁽⁴⁾

٦ - الخانقاه الشريفة: تجاه الهروية، شرقي دار الحديث الأشرفية، لصيف الطومانية شرقي باب القالعة الشرقي، وغربي العادلية الصغرى، بها تربة منشؤها شهاب الدين أحمد بن شمس الدين بن الفقاعي، ويحتمل أن تكون مدرسة لقول ابن شداد: (أول من درس بها رشيد الدين الفارقي).⁽⁵⁾

(١) العلموني: المرجع نفسه ص ١٤٣

(٢) العلموني: المرجع نفسه ص ١٤٣

(٣) العلموني: المرجع السالف ص ١٤٤

(٤) العلموني: المرجع نفسه ص ١٤٦

(٥) العلموني: المرجع نفسه ص ١٤٧

٧ - الخانقاه النجمية: بناحية باب البريد، إنشاء نجم الدين والد صلاح الدين، وسيف الدين، وشمس الدولة، وسيف الإسلام، وشاهنشاه، وتاج الملوك وست الشام، وربيعه خاتون، واخو الملك أسد الدين شيركوه، شب به فرسه فسقط، فحمل إلى داره ومات بعد أيام ودفن عند أخيه، وذلك سنة ثمان وستين وخمسة، ثم في سنة تسع وسبعين نقل إلى المدينة المنورة.^(١)

٨ - الخانقاه الناصرية: بجبل قاسيون على نهر يزيد، إنشاء الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن الملك العزيز.^(٢)

٩ - الخانقاه الناصرية الجوانية: إنشاء الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب ابن شادي بدرج خلف، عند قيسارية الصرف. وكانت داره لما كان واليا بدمشق^(٣) ويقول كرد علي^(٤): (انه كان بدمشق من هذه الخوانق، والخانقات ست وعشرون خانقاه وكانت مهمة هذه الخوانق الانقطاع للعبادة فيها من قبل أتباع الطرق الصوفية، وقد أمد صلاح الدين هذه الخوانق، ورتب للفقراء الواردين إليها أرزاقا معلومة).

مكاتب مؤدبي الصبيان: انتشرت في مدن الشام بيوت مؤدبي الصبيان، حيث اعتاد الناس على إرسال أولادهم إليها، ويبدو أن الناس امتنعوا عن إرسال بناتهم لتعلم، وكانت بيوت مؤدبي الصبيان مكانا اجتمع فيه عدد كبير من الذكور من مختلف الأعمار، لذلك كان هذا المكان أشبه بيورة حيث أمضى الأولاد أوقاتهم باللعب بالكعب والبيض والنرد، وكان بعض الأطفال يتعرض للفسق ولتعلم قبيح العادات، لذلك أوصى المحتسب أن لا يسمح لمؤدب بالعمل إذا لم يكن متزوجا ولا يسمح لعازب أن يفتح مكتبا إلا أن يكون شيخا كبيرا قد

(١) العلموني: المرجع نفسه ص ١٥٢

(٢) العلموني: المرجع السالف ص ١٥٤

(٣) العلموني: المرجع نفسه ص ١٥٤

(٤) كرد علي: خطط الشام ج ٦ ص ١٣٠

اشتهر بالدين والخير، ومع ذلك لا يؤذن للتعليم إلا بتزكية مرضية، وثبوت أهلية لذلك، بمعرفة الحروف وضبطها بالشكل.^(١)

العلوم عند الأيوبيين:

العلوم الأدبية:

١- الشعر: من المعروف أن الأيوبيين كانوا عربيا بثقافتهم وتربيتهم ونشأتهم، فقد نشأوا نشأة عربية إسلامية، لهذا شغفوا حبا باللغة العربية وآدابها وعلومها، وقربوا إليهم الشعراء والعلماء والكتاب.

لقد كان إلى جانب اهتمام وتشجيع أبناء البيت الأيوبي للحركة الأدبية دوافع ومؤثرات حركتها وسيرتها، ومن هذه الدوافع والمؤثرات، الغزو الصليبي الذي رافق ولادة الدولة الأيوبية وعاشها حتى الزوال، كان هو النفير الذي دوى، فأيقظ الشعب الإسلامي من غفلته، ووحده بعد تفرقه، وجمعه بعد شتاته، وأعاد إليه الجد بعد أن أضعفه الترف، وأثلته الدعة. هذا الغزو هو الذي بعث في الحياة الأدبية الانتعاش، فاذكى حواس الشعراء. وأجج انفعال الكتاب وأمدهم جميعا بمعين من المعاني والأفكار. فأصبح الأديب أو الشاعر لا يكتب أو يمدح استجابة لدافع خارج عن شعوره، أو تحقيقا لرغبة مفروضة عليه، وإنما كان يستمد من نفسه الوحي والإلهام، ومن محيطه الشعور والإقدام.

ولقد تميز العصر الأيوبي بطابع خاص هو طابع الجهاد والكفاح ضد الصليبيين، ومن ثم كان من الطبيعي أن تنعكس تلك الصورة في نفس الشعراء والكتاب في جميع أنحاء الشرق العربي، فانطلقت أسنتهم وأقلامهم تشيد بالانتصارات، وأعمال البطولة، وتمدح أبطالها المدافعين عن حوزة الإسلام والعروبة، وتعبّر عن آمانيها وآمالها بمستقبل أفضل.^(٢)

(١) ابن الإخوة: المصدر نفسه ص ٢٦٠ - ٢٦١ - الشيزري: المصدر نفسه ١٠٣ - ١٠٥

(٢) العبادي: تاريخ الأيوبيين والمماليك ص ٩٤ - ٩٥ - أحمد بدوي: الحياة الأدبية في عصر الحروب

الصليبية بمصر الشام ص ٤٠٧ - ٥٤٢ القاهرة ١٩٥٤.

كذلك علينا ألا نتجاهل، أو نتناسى التأثير الفاطمي أو العباسي على تلك الحياة، سيما وإن الدولة الأيوبية كانت قد حلت محل الخلافة الفاطمية، واستولت على جميع مقدراتها المادية والحضارية، فكان من الطبيعي أن تحصل تفاعلات ثقافية وأدبية وضحت معالمها مع الأيام، وظهرت واضحة في كتابات الشعراء والأدباء.^(١)

كذلك ظهر التأثير العباسي واضحاً عندما اتجه الشعراء والأدباء والعلماء الأيوبيون إلى محاكاة نظائريهم العباسيين في أساليبهم وطرق تعبيرهم، وبلغوا في ذلك حظاً كبيراً لدرجة تجعل من اليسير وضع بعضهم إلى جوار تيار الشعراء والأدباء العباسيين.^(٢)

ويمكن القول أن شعراء العصر الأيوبي قد أخذوا بالاضطرابات التي أحدثت بأيامهم، فصرفتهم عن التحليق في أجواء العبقرية الشعرية، كما أخذوا باتجاهات العصر التي لفتتهم إلى المحسنات اللفظية والصناعة التي تلهي وتعوق الذهن الشاعر من الإختراع والإبداع، لذلك كان شعر هذا العصر سطوحياً، يكرر نفسه في أفكاره وتعبيراته وصناعاته، فقيراً في صورته، بحيث لا تجد أمامك شيئاً جديداً، حتى لتكاد تستطيع نسبة أبيات هذا الشاعر إلى ذلك.^(٣)

لقد كان صلاح الدين أكثر تذوقاً للأدب، وألين حجاباً للشعراء من نورا لدين الزنكي، فقد روى عنه أنه كان يحفظ كتاب الحماسة لأبي تمام الطائي، وكان يتذوق الشعر ويردد بعضه في مجالسه ويميز الجيد من الرديء منه.^(٤)

(١) محمد كامل حسين: دراسات في الشعر في العصر الأيوبي ص ١٨٥ القاهرة ١٩٥٧

(٢) الشميساني: مدارس دمشق في العصر الأيوبي ص ٢٧

(٣) ديوان عرقلة الكلبي: تحقيق أحمد الجندي دار صادر بيروت ١٩٩٢ المقدمة ص و

(٤) الروضتين ج ١ ص ٢٢٩ - ياقوت: معجم الأدباء ج ٢ ص ١٨٠

ولم يكن صلاح الدين الوحيد من بني أيوب ممن تذوقوا الشعر والأدب، بل كان هناك العديد يتبارون مع الشعراء في مدارس الشعر والنثر ونقدهما. ولقد كان لبعضهم ميل فطري إلى الكتابة وقول الشعر، حتى أن بعضهم كان يجيد قرضه وإنشاده.

فالأفضل علي بن يوسف بن أيوب بن شادي نور الدين أبو الحسن، أكبر أولاد صلاح الدين والمعهود إليه بالسلطنة، كان فاضلاً شاعراً حسن الخط.^(١) ومن شعره^(٢):

أما أن للسعد الذي أنا طالب لإدراكه يوماً يرى وهو طالب؟
ترى هل يرني الدهر أيدي شيعتي؟ تمكّن يوماً من نواحي النواصب
ومنهم تاج الملوك أبو سعيد بوري بن أيوب بن شادي أصغر أبناء أيوب، ولد في ذي الحجة سنة (٥٥٦هـ/١١٦١م) وكان كريم الطباع، لطيف الأخلاق، له كرم وشجاعة وفضل وفصاحة، وله ديوان شعر. قال بعضهم في شعره الفث والسمين، لكنه بالنسبة إلى مثله جيد^(٣) ومن شعره:^(٤)

يا مانعي أن اجتني زهراً في روضتي خديته منبته
لا تبخلن على المحب بما يبلي غداً، وتزول بهجته
ومنهم أيضاً الملك المعز فروخشاہ بن شاهنشاه بن أيوب بن شادي عز الدين أبو سعيد بن نور الدولة الأيوبي صاحب بعلبك، أقطعه عمه صلاح الدين إياها سنة (٥٧٥هـ/١١٧٩م) وناب عنه بدمشق سنة (٥٧٦هـ/١١٨٠م)، وفي سنة

(١) ابن كثير: البداية والنهاية ج١٣ ص ١٠٨ - شفاء القلوب ص ٢٥٦. مرآة الزمان ج٨ ص ٦٣٧ - ذيل الروضتين ص ١٤٥

(٢) عبد الحسين الخضر: الشعراء الأيوبيون مجلد الأول (ديوان السلطان خليل) المسمى نجوم الفلك من نظم الملك ١٩٩٣ ص ٧١

(٣) شفاء القلوب ص ٥٦ - وفيات الاعيان ج١ ص ٢٦١ - شذرات الذهب ج٤ ص ٢٦٥ - مرآة الزمان ج٨ ص ٢٧ - النجوم الزاهرة ج٦ ص ٩٦ مفرح الكروب ج٢ ص ١٤٤ - كشف الظنون ص ٧٨٠

(٤) الخضر: نجوم الفلك من نظم الملك ص ٦٢

(٥٧٧هـ/١١٨١م) سار إلى الكرك فتهب وقتل، وفتح شقيف، وكان من الأفاضل الأمثال، كثير الصدقات، متواضعاً سخياً، جواداً مقداماً، متصللاً من المظالم، شاعراً نصيحاً. ^(١) ومن شعره في وصف دمشق: ^(٢)

دمشق، سفاك الله صوب غمامةً فما غائباً منها لذي رشيد
عسى مسعداً لي أن أبيت بأرضها إلا أنني لو صح لي لسعيد
ومنهم الملك المعظم عيسى بن أبي بكر بن أيوب بن شاذي ولد بالقاهرة سنة
(٥٧٦هـ/١١٨٠م)، ونشأ بالشام وتفقه على مذهب الإمام أبي حنيفة، وكان
يحفظ المجلدات، وقال سبط ابن الجوزي: "انه لا يقيم وزن الشعر في بعض
الأوقات، مع أن له تصنيفاً في العروض وله ديوان شعر" ^(٣)

ومنهم الملك الناصر داود بن عيسى بن أبي بكر بن أيوب بن شاذي، ولد سنة
(٦٠٢هـ/١٢٠٦م)، واستقر في ملك دمشق بعد أبيه، زوجه الكامل ابنته
عاشوراء، ثم حصلت بينهما وحشة، فألزمه بطلاق ابنته، فخاف ولجأ إلى
المستنصر سنة (٦٣٣هـ/١٢٣٥م). ^(٤)

ومنهم أيضاً الملك المؤيد إسماعيل بن علي بن محمود بن محمد بن عمر بن
شاهنشاه بن أيوب بن شادي صاحب حماة (أبو الفداء)، ولد بدمشق بدار
الزنجيلي، وكان المؤيد فيه مكارم وفضيلة من فقه وطب وعلم هيئة وأدب،
وكان محباً للعلماء، مقرباً لهم، صنف "تقويم البلدان" فهذه، وله "المختصر
في أخبار البشر" ونظم الحاوي" ^(٥)

(١) شفاء القلوب ص ٢٢٣ - مرآة الزمان ج ٨ ص ٣٧٢ - الروضتين ج ٢ ص ٣٣ - النجوم الزاهرة ج ٦
ص ٩٦ - البداية والنهاية ج ١٣ ص ٧٩ - شذرات الذهب ج ٤ ص ٢٥٩.

(٢) مرآة الزمان ج ٨ ص ٣٧٢ - الخضر: المرجع السالف ص ٦٤.

(٣) شفاء القلوب ص ٢٧٦ - مرآة الزمان ج ٨ ص ٦٤٤ - ذيل الروضتين ص ١٥٢ - مفرج الكروب ج ٤
ص ٢١٨ - السلوك ج ١ ص ٢٢٤.

(٤) شفاء القلوب ص ٣٤٦ - مرآة الزمان ج ١ ص ١٢٦ - ذيل الروضتين ص ٥٠ - السلوك ج ١ ص ٤١٢
- البداية والنهاية ج ١٣ - ص ١٩٨.

(٥) شفاء القلوب ص ٤٥٨ - فوات الوفيات ج ١ ص ١٨٣ - طبقات السبكي ج ٦ ص ٨٤.

ومن شعراء هذا العصر عرقلة الكلبي أبو الندى حسان بن نمير، شاعر عربي أصيل، عاش في دمشق، كانت الفصاحة ابرز ظاهرة في حياته، كما كانت النكتة و" خفة الدم " من ميزاته التي عرف بها^(١) وقد وصفه العماد الأصفهاني وصفاً جميلاً، فقال: " لقيته في دمشق شيخاً خليعاً، ريعه مائلاً إلى القصر، أعور مطبوعاً حلو المنادمة، لطيف النادرة، معاشرراً للأمرء، شاعراً مستطرف الهجاء " ^(٢)

ولد عرقلة عام (٤٨٦هـ / وتوفي عام ٥٦٧هـ) والذي يبدو لنا من الاطلاع على تاريخ حياة الشاعر انه بدوي الأصل من بادية بني كلب، وهي المنطقة التي تقع إلى الشرق من دمشق وحمص وحماء، وتمتد إلى تخوم العراق، وهي التي تسمى بادية السماوة، ولقد نشأ في هذه الصحراء على عادة أهلها، وكان يتردد إلى دمشق بين حين وآخر، وقد استقر في هذه المنطقة التي تقرب من منازل الأمرء من آل أيوب وعلى رأسهم السلطان صلاح الدين الذي عرف الشاعر، وسمع شعره، وأغدق عليه من أعطياته^(٣)، ولم يزل عرقلة خصيصاً بالأمرء السادة بني أيوب ينادمهم ويداعبهم ويطايبهم، وله في صلاح الدين مدائح، وله منها منائح^(٤). فمن جملة قوله فيه، وكان قد وعده انه متى ملك مصر يعطيه ألف دينار، فقصده ومدحه بأبيات منها:

يا ألف مولاي، أين ألف دينار	قل للصلاح معيني عند إعساري
وما تفي جنة الفردوس بالنار	أخشى من الأثر أن حاولت أرضكم
من بعض ما خلف الطاغى أبو العار	فجد بها عاضدات مسطره
عتقا ثقالا، كأعدائي وأطماري ^(٥)	حمرأ، كأسيافكم عزا كخيلكم

(١) شذرات الذهب ج٤ ص ٢٢٠ - قوات الوفيات ج١ ص ١٤٤ - النجوم الزاهرة ج٦ ص ٦٤

(٢) خربة القصر: ج١ شعراء الشام طبعة مجمع اللغة العربية ص ١٧٨.

(٣) الخريدة ج١ ص ١٧٨

(٤) ديوان عرقلة: المقدمة ص هـ.

(٥) الخريدة المصدر نفسه ج١ ص ١٧٨ ١٧٩، ديوان عرقلة ص ٤٩

ومما قاله في وصف دمشق^(١):

دمشق، حيث من حي، ومن ناد
ليس الندامي ندامي حين تنزله
حقاً وللورق في أوراقه طرب
يا غادياً، رائحاً، عرج على بردي
وقوله فيها أيضاً:^(٢)

أما دمشق، فجنات معجلة
ما صاح فيها على أوتاره قمر
يا حبذا ودروع الماء تنسجها
ومنهم أيضاً الأمير مؤيد الدولة أسامة بن مرشد، ولد سنة ٤٨٨ هـ، نزل

دمشق، وانتقل منها إلى مصر، عاد إلى دمشق في عهد سلطنة الملك الناصر
صلاح الدين يوسف بن أيوب في سنة (٥٧٠ هـ / ١١٧٥ م)^(٣)، ومن أشعاره التي
انشدها وكان بجلسة صلاح الدين مع العماد الكاتب وكان يلعب بالشطرنج.

انظر إلى لاعب الشطرنج يجمعها
كالرء يكدح للدنيا، ويجمعها
مغالباً، ثم بعد الجمع يرميها
حتى إذا مات خلاها وما فيها^(٤)

وقال في مدح الملك الناصر صلاح الدين:

سمعت صروف الدهر قول العاتب
وتجافت الأيام عن مطلوبه
هو من عرفن فلو عصاه نهاره
وتمنيت حرب المليك الحارب
وقراره، أكرم به من طالب
لرماه نقع جيوشه بغياهب^(٥)

ومما قاله أيضاً في مدح الملك الناصر صلاح الدين قصيدة منها:

(١) الخريدة المصدر نفسه ج ١ ص ١٩٨، ديوان عرقلة ص ٢٢

(٢) الخريدة المصدر نفسه ج ١ ص ٢٠٤

(٣) الخريدة المصدر نفسه ج ٢ ص ٤٩٩

(٤) الخريدة المصدر نفسه ج ٢ ص ٥١٦

(٥) خريدة القصر وجرديّة العصر ج ٢ ص ٥٢٧

لا زلت يا ملك الإسلام في نعم قرينها المسعدان النصر والظفر
 تردى الأعادي وتستصفي ممالكهم وعونك الماضيان السيف والقدر
 فأنت اسكندر الدنيا، بنورك قد تضاءل المظلمان: الظلم والضرر^(١)
 ومنهم أيضاً أبو طالب بن الخشاب، وهو عقيل بن يحيى، من أهل باب شرقي
 من دمشق من عوامها، وقد مدح الملك الناصر صلاح الدين بقصيدتين ومنهما
 قال:

أطاعتك أطراف الردينية السمر وسالمك التوفيق في البر والبحر
 وعشت مدى الأيام لا قال قائلٌ كبابك زند في عظيم من الأمر^(٢)
 ومنهم أيضاً وحيش الأسدي هو الأديب أبو الوحش، سبغ بن خلف بن محمد
 بن عبد الله بن أحمد بن زيد بن زياد بن المرار بن سعيد الققعسي، ولد سنة
 (٥٠٤ هـ/١١٠٩م)، ومن جملة ما مدح به الملك الناصر صلاح الدين عند وصوله
 إلى الشام، وملكه دمشق سنة (٥٧٠ هـ/١١٧٥م) قصيدة منها:

قد جاءك السعد والتوفيق واصطحبا فكُن لأضعاف هذا النصر مرتقبا
 لله أنت، صلاح الدين، من أسد أدنى فريسته الأيام إن وثبا
 وأجلق ثغرا لا نظير له فجتتها عامرا منها الذي خربا
 نادتك بالذل لما قل ناصرها وأزمع الخلق من أوطانها هربا^(٣)
 ومنهم أيضاً نشوء الدولة أبو الفضل أحمد بن عبد الرحمن بن علي بن
 المبارك السلمي من دمشق من بني نفاذه شاب محب للفضل، حريص على
 تحصيله، بجملته وتفصيله، وقد كتب ديوانا شعريا ورسائل، وهو يتولى
 الإشراف على الهري بالقلعة، ومن قصائده التي مدح بها الملك الناصر صلاح
 الدين سنة سبعين وخمسائة حين اخذ دمشق:

بدا في سماء الملك من شخصك البدر وقابله الإقبال والفتح والنصر

(١) الخريدة ج ٢ ص ٥٤٥

(٢) الخريدة ج ٢ ص ٣٩١-٣٩٢

(٣) الخريدة ج ٢ ص ٢٤٢.

وقد حل برج السعد في خير طالع وأمينه، من حوله الأنجم الزهر
 وجلى ظلام الشرك إقبال نوره فأصبح مخذولا له الدال والقهر
 أتى بعد ما نادت دمشق لبعده إلى ربها: تالله مسني الضر^(١)
 ومنهم أيضاً كمال الدين الشهرزوري الكاتب الأديب، مات سنة
 (٥٧٢هـ/١١٧٧ م)، ومنهم عبد القاهر بن عبد الله الواواء الشاعر الأديب، طبع
 ديوانه حديثاً توفى سنة (٥٦٧هـ/١١٧٢ م)، ومنهم أيضاً الشهاب فتیان بن علي
 الاسدي الحنفي الدمشقي، المعروف بالدمشقي، نسبة إلى بلاد الشاغور وهو من
 الشعراء الأفاضل، قدم على الملوك ومدحهم وعلم أولادهم، وله ديوان شعر،
 سكن بدمشق في محلته المعروفة بالشاغور، وأقام مدة في الزيداني، وله فيها
 أشعار لطيفة توفى سنة (٦١٥هـ / ١٢١٨ م)^(٢)

ومنهم أبو الربيع سليمان بن نجاح القوصي، سكن دمشق وكان بارعا في
 الأدب، ومن شعره اللطيف:

أراك منقبضاً عني بلا سبب وكنت بالأمس يا مولاي منبسطة
 وما تعهدت ذنباً استحق به هذا الصدود لعل الذنب كان خطا
 فان يكن غلطة مني على غرر قل لي لعلي أن استدرك الغلطا^(٣)
 ومنهم أيضاً رشيد الدين، وهو أبو حفص بن أبي الكتائب الربيعي الشافعي
 الدمشقي، اشتهر بالانظم، وله ديوان شعر، وكتب الإنشاء، وكان له يد طولی
 في البديع واللغة، وانتهت إليه رئاسة الأدب، وكان يشارك في الأصول والطب،
 ويقال عنه شيخ علماء الأدب واللغة^(٤)

(١) الخريدة: ج ٢ ص ٣٢٩.

(٢) العماد لكتاب: الخريدة (القسم الشامي) ج ١ ص ٢٤٧- ٢٥٩- ياقوت: معجم البلدان ج ٣ ص ٦٣
 - ابن خلكان وفيات الاعيان ج ٤ ص ٢٤- ٢٦- حاجي خليفة: كشف الظنون ج ٢ ص ١٨٥٠ - ابن
 العماد: شذرات الذهب ج ٥ ص ٦٣- ٦٤- الحصني: منتخبات التواريخ في دمشق ص ٤٨٢- ٤٨٨ -
 ٤٩٤.

(٣) الحصني: المرجع نفسه ص ٥٠٠.

(٤) الحصني: المرجع نفسه ص ٥١٩- ٥٢٠..

ومنهم سبط بن التعاويذي، الذي يصف تواضع صلاح الدين يقول فيه:
لك عفة في قدرة، وتواضع في عزة، وشراسة في لين^(١)
ومنهم أيضاً العماد الكاتب، الذي رثا صلاح الدين عند وفاته بقصيدة بلغت
مئتين واثنين وثلاثين بيتاً يقول فيها:

شمل الهدى، والملك عم شتاته والدهر ساء واقلعت حسناته
أين الذي كانت له طاعتنا مبدولة؟ ولربيه طاعاته
بالله أين الناصر الملك، الذي لله خالصة صفت نياته؟
أين الذي شرف الزمان بفضله؟ وسمت على الفضلاء تشريفاته
أين الذي عنت الفرنج لبأسه ذلاً؟ ومنها أدركت ثاراته^(٢)

ومنهم أيضاً الشاعر الأمير سيف الدين علي بن عمر بن قزل توفى بدمشق
سنة (٦٥٥هـ/١٢٥٧م) كان شاعراً مطيعاً، وله ديوان مشهور وقد رآه بعضهم
بعد موته^(٣)

ومنهم شرف الدين أبو المحاسن محمد بن نصر بن الحسين بن علي بن محمد
بن غالب، المعروف بابن عنين، نشأ بدمشق، وكان منزله قبلي الجامع الأموي^(٤)
ويدأ يقول الشعر سنة (٥٦٥هـ/١١٧٠م) وهو ابن ستة عشر سنة.

وعندما تملك صلاح الدين دمشق، لم يتقرب ابن عنين من السلطان، ولا من
حاشيته بل أنه هجاهم، حتى إن السلطان أمر بإخراجه من دمشق إلى حيث يشاء
من البلاد، فخرج منها رافعا صوته بقوله:

فعلام أبعدم أختاثة؟! ما خانكم يوماً ولا سرقا
أنفؤ المؤذن من بلادكم إن كان ينفي كل من صدقا^(٥)

(١) الحصني ص ١١٦.

(٢) الحصني ص ١٣٠ - ١٣١.

(٣) عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان ج ١٨ ص ٣٨٨.

(٤) البداية والنهاية ج ١٣ ص ١٣٧ - ديوان ابن عنين ص ٩٤.

(٥) ابن عنين: الديوان ص ٣٢.

وطاف البلاد من الشام إلى العراق والجزيرة وأذربيجان وخراسان وغزنة
 وخوارزم، وما وراء النهر ثم دخل الهند واليمن، وعاد إلى دمشق بعد وفاة صلاح
 الدين، وخروج ابنه الملك الأفضل من دمشق، واستيلاء الملك العادل عليها، وربما
 كانت غربته عن دمشق عشرين سنة أو تزيد، زار ابن عنين جميع الممالك
 الإسلامية في الشرق، فلم يجد من ملوكها ما خفف عنه ألم الغربة، ولم يحاول
 التقرب منهم، فبدأ يشعر بالندم على ما فرط منه، وأيقن أن ملوك بني أيوب
 ألين حجابا، وأندى يدا، وأرحب صدرا، وقصيدته التي قالها وهو في بلاد ما
 وراء النهر يحن بها إلى دمشق ويذم الأعاجم، ويمدح بني أيوب، تصور ما يساور
 نفسه من الحنين والندامة، يقول فيها^(١)

أحن من وراء النهر داري حنين العود أوثقه الغراس
 وكيف تبيت تطمع في مدحي وجاء نوالها العجم الخساس
 ولو أنني مدحت ملوك قومي تراغت حولي النعم الدخاس
 فإن الناس في طرق المعالي لهم تبع، وهم للناس راس
 هذا وقد كتب ابن عنين إلى الملك العادل قصيدته الرائية يستعطفه بها،
 ويستأذنه في الدخول إلى دمشق، وهي من حر الشعر، وقد تكون أحسن شعره
 أولها:

ماذا على طيف الأعبة لوسرى وعليهم لوسا محوني بالكرى^(٢)
 فأذن له العادل، فلما دخل دمشق قال:
 هجوت الأكابر في جلق ورعت الوضيع بسب الرفيع
 وأخرجت منها، ولكنني رجعت على رغم أنف الجميع^(٣)

(١) الديوان: ص ٣٢.

(٢) الديوان: ص ٣

(٣) الديوان ص ٩٤

وأبلغ الأثر في حنين ابن عنين إلى الوطن، ووصف محاسنه ومباهجه، حتى أصبح لا يرى الدنيا إلا في دمشق، ويستصغر كل ما كسبه من مال ومتاع ومعرفة في جنب الإقامة فيها قال في ذلك:

ولو أنني خيرت في هذه الدنـبـيا لما اخترت غير أهلي وداري^(١)
سأله الملك المعظم يوماً عن عجائب ما رأى في البلاد التي سافر إليها فقال:
"كل ما في الدنيا مفرق، هو في بلدك مجموع موجود"^(٢)

كان الملك المعظم عيسى بن الملك العادل صاحب دمشق قد قرب إليه ابن عنين، وجعله من خواص بطانته، يسمر معه في مجالسه، فيرتاح لحسن حديثه، وسحر منادمته، وفي أواخر دولة المعظم تولى الوزارة بدمشق، فضبط الأمور واحسن السيرة، وعف عن الأموال، وكان يسافر مع المعظم في المهمات إلى الممالك المجاورة، قال ابن خلكان: "رأيته بمدينة اربيل سنة (٦٢٣هـ/١٢٢٦م) رسولا عن المعظم"^(٣)

وعندما توفى المعظم سنة (٦٢٤هـ/١٢٢٧م) رثاه ابن عنين بأنفاسه ودموعه، كما مدحه في حياته بأحسن شعره، توفى بدمشق وهو ابن إحدى وثمانين سنة (٦٣٠هـ/١٢٣٢م) من مؤلفاته "مختصر الجمهرة"^(٤) لابن دريد وكتاب "التاريخ العزيزي"^(٥) الذي يظهر انه ألفه للملك العزيز سيف الإسلام طفتكين بن أيوب صاحب اليمن، والكتابان مفقودان لا يعرف مكانهما.

النثر: اتصف النثر في هذا العصر بإتقان الصناعة اللفظية، والتفنن في البديع والجناس والسجع، والمبالغة في التتميق، كما يبدو ذلك بوضوح في كتابه عماد الدين الأصفهاني، وخاصة كتاب (الفتح القسي) الذي أرخ فيه تحرير صلاح

(١) الديوان ص ٧٦.

(٢) ابن الجزري؛ حوادث الزمان مخطوط عن مجلة المجمع العربي ٥٢٩/١٩.

(٣) ابن خلكان: وفيات الاعيان ج ٢ ص ٣٣.

(٤) كشف الظنون: ج ١ ص ٢٢٨

(٥) كشف الظنون: ج ١ ص ٤٠٤

الدين بيت المقدس، ومن أعلام النثر في ذلك العصر القاضي الفاضل المتوفى سنة (٥٩٦هـ/١٢٠٠م) وكان وزير صلاح الدين، وكتب عدداً ضخماً من الرسائل والكتب^(١)

التاريخ:

نشطت حركة التاريخ على نطاق واسع متخذة صوراً عديدة، وأسباب هذا، توجد في حقيقة أن بعض الشخصيات القيادية من المتحدثين والفقهاء قد بذلت اهتماماً خاصاً بتدوين التاريخ، ويمكن ذكر الحافظ ابن عساكر، وابن الأثير الجزري، وأبو شامة المقدسي كأمثلة بارزة، مع أن أغلب هؤلاء المؤرخين اشتهروا خلال فترة حياتهم وفيما بعد بعلوم أخرى غير علم التاريخ كالفقه أو الحديث، كما أسهم بعض العلماء الذين شغلوا مناصب رسمية لدى أيوبي دمشق بتدوين التاريخ في مصنفاتهم أو بالوثائق الرسمية التي أعدها في المناسبات، كالقاضي الفاضل والعماد الكاتب، وابن شداد، فكان إسهامهم بهذه الطريقة على جانب كبير من الأهمية بالكتابات التاريخية.^(٢) وبذلك يمكن، اعتبار التاريخ أنه حصل على دعم من خلال طائفة من العلماء، ومن خلال عناية بعض السلاطين والأمراء والأشخاص الآخرين من ذوي السلطة.

واتخذ العمل التاريخي في هذه الفترة منحياً، الأول: التاريخ العام كما في (الكامل في التاريخ) لابن أثير الجزري^(٣). والثاني: التاريخ المحلي وهو النوع المفضل لدى مؤرخي هذه الفترة، وهذا النوع بدوره اتخذ أنماطاً عدة، منها ما رتب ترتيباً زمنياً مثل: "الروضتين" لأبي شامة، شهاب الدين أبو القاسم عبد الرحمن بن إسماعيل بن إبراهيم المقدسي ثم الدمشقي الشافعي المقري النحوي

(١) أبو شامة: كتاب الروضتين ج ٢ ٢٤٢

(٢) ابن شداد: النوادر السلطانية (سيرة صلاح الدين) ص ٢٥ - ٤٠ - ٤١ - ١٧٥. ابن العديم: بغية الطلب ص ١٢٢٥ - ١٥٨٧. وأورد أبو شامة في كتابه الروضتين ج ١ ص ٢ الكثير من رسائل القاضي الفاضل، والعماد الكاتب.

(٣) ابن الأثير: الكامل في التاريخ ج ١ ص ١٦ وما بعدها.

المؤرخ صاحب التصانيف، ومنها أعمال تراجم كـ " تاريخ دمشق " للحافظ ابن عساكر، وهناك أعمال جمعت بين التراجم والتأريخ الحقيقي، ورتبت أحداثه بحسب السنين كـ " الذيل على الروضتين " لأبي شامة. وكان منها أيضاً التراجم لفئات معينة كـ " عيون الأنباء في طبقات الأطباء " لابن أبي أصيبعة، وكان منها الكتابات التي تناولت سير الأفراد كـ " النوادر السلطانية " أو ما عرف - بسيرة صلاح الدين يوسف ابن أيوب -، وكان منها أعمال تراجم ذات صفة عامة، كما عمل ياقوت الحموي في كتابه " إرشاد الأديب " كما اهتم كبار المؤرخين بالوثائق الرسمية في موادهم، فالعماد الأصفهاني - محمد بن محمد (ت ٥٩٧هـ/١٢٠١م) خدم في ديوان الإنشاء، حيث اقتبس الكثير من الوثائق التي أعدها هو بنفسه، وضمنها في كتابيه " البرق الشامي " ^(١) و "الفتح القسي في الفتح المقدسي" وذكر في الأول أخبار نور الدين وصلاح الدين يوسف ابن أيوب، والفتوحات والحوادث التي جرت في بلاد الشام في أيامه، ودوره فيها شخصياً، ورتب تلك الوقائع والأحداث على السنين، وأرخ فيه منذ السنة التي قدم فيها إلى دمشق (٥٦٢هـ/١١٦٦م) وتأتي أهمية الكتاب من وثاقته ومعاصرة مؤلفه للأحداث ومشاركته فيها، وقد هذب الفتح بن علي البنداري هذا الكتاب، وأطلق عليه اسم " سنا البرق الشامي " ^(٢).

أما كتابه الثاني والذي أطلق عليه اسم " الفتح القسي في الفتح المقدسي " أوقف مواد على سيرة صلاح الدين يوسف بن أيوب، وفتوحاته، ورتب وقائمه حسب السنين، وبدأه بسنة (٥٨٣هـ/١١٨٧م) وهي السنة التي فتح فيها صلاح الدين بيت المقدس ونهاه بوفاة صلاح الدين يوسف بن أيوب سنة (٥٨٩هـ/١١٩٣م) ^(٣) ومن مؤلفاته "نصرة الفترة وعصرة القطرة" ترجمة عن الفارسية، ثم

(١) حاجي خليفة: كشف الظنون ج ١ ص ٢٣٩.

(٢) طبع بتحقيق الدكتورة فتحية البزاوي ط ١٩٧٩ . مكتبة الخانجي مصر.

(٣) العماد الكاتب: الفتح القسي في الفتح المقدسي . ط مصر ١٢١٢هـ أبو شامة: الروضتين ج ١ ص

٤٠٥ حاجي خليفة كشف الظنون ج ٢ ص ١٣١٦.

زاد عليه، واحتوى هذا الكتاب أخبار السلاجقة، ووزرائهم، وأكابر دولتهم، ورتب فيه الأحداث حسب السنين، وبدأه سنة (٤٤٧هـ/١٠٥٥م)، لكن بعد العماد عن مسرح الأحداث في الدولة السلجوقية ولكونه في الشام، لم يمكنه من تحقيق غايته، فاختصر في مصنفه هذا على ذكر ما عرفه من مجمل الأحداث، دون الدخول في تفاصيلها، وأنهى الكتاب بأحداث سنة (٥٧٥هـ/١١٧٩م).^(١)

وكان منهم ابن عساكر: علي بن الحسن بن هبة الله، أبو القاسم الدمشقي المتوفى سنة (٥٧١هـ/١١٧٥م) نشأ بدمشق، وسمع الكثير من شيوخها إلى أن أصبح شابا، ثم ارتحل طالبا للعلم وسماع الحديث، فارتحل إلى بغداد ونيسابور وغيرها من البلاد، واخذ الكثير عن شيوخها، حتى بلغ عدد شيوخه الذين اخذ عنهم بالسماع ألفا وثلاثمائة شيخ، وستة وأربعين شيئا انشده، وعن مئتين وتسعين شيئا بالإجازة جميعهم في معجم شيوخه، وبضع وثمانون امرأة لهن معجم صغير، وقد أشار إليه الذهبي، ثم عاد ابن عساكر بعد رحلته الطويلة إلى دمشق، وكان إمام أهل الحديث في زمانه جمع بين معرفة الأسانيد، والمتون، وولي مشيخة دار الحديث النورية بدمشق، ودرس فيها، صنّف ابن عساكر تاريخا لمدينة دمشق في ثمانين مجلدة وكل مجلدة عشرة أجزاء، وهو اعظم تاريخ في تراثنا العربي، ففي مقدمة الكتاب تكلم عن فضائل الشام وفتوحها وخططها، وذكر مساجدها وأبوابها ودورها وكنائسها وأنهارها، وبعد هذا الكتاب اضخم معجم للتراجم ظهر بعد تاريخ بغداد وهو مصدر لتاريخ رجال الشام كله لا لدمشق وحدها، وتستفاد من خلال التراجم أمور كثيرة تتعلق بالتاريخ السياسي والعلمي والحضاري للشام، استمد الحافظ

(١) الذهبي: العبرج؛ ص ٢٩٩ - ياقوت: معجم الأدباء ج ٥ ص ١٨١ - السخاوي: الإعلان ص ٣٦٨
البنداري: تاريخ دولة آل سلجوق ص ٧ - ١٢ - ٢٧٨ - حاجي خليفة: كشف الظنون ج ١ ص ٧٠٢ - ابن كثير: البداية والنهاية ج ١١ ص ٣٠ - ابن العماد: شذرات ج ٤ ص ٣٢٢.

تاريخه من مصادر كثيرة مفقودة الآن، وكل ما ألف عن دمشق والشام قبل الحافظ فهو موجود في التاريخ. ^(١)

وكان للمرأة اهتمام واضح في "تاريخ دمشق" فقد أفرد لها مجلدة كبيرة، ترجم فيها للنساء الشهيرات اللواتي قطن دمشق، أو وردن إليها، أو مررن بها، ورتبه أيضاً حسب حروف المعجم على طريقة المحدثين. ^(٢)

ويبدو أن الحافظ ابن عساكر فرغ من تصنيف تاريخ دمشق في سنة (٥٦٢هـ/١١٦٦م) ويؤكد ذلك ما ذكره العماد الأصفهاني ^(٣) انه عندما قدم إلى الشام، وأقام بدمشق وكان ذلك في السنة المذكورة - تردد إلى ابن عساكر - وقد صنّف "تاريخ دمشق وشاهده العماد وكان في سبعمائة كراسة، كل كراسة عشرة ورقات".

وعندما مات ابن عساكر لم يأخذ الكتاب شكله النهائي، والذي أعطاه شكله النهائي ولده القاسم بن عساكر، وهو أهم رواة هذا الكتاب، ثم أبو اليمن الكندي، وذكر ابن العديم في كتابه "بغية الطلب" ^(٤) أن احمد بن شاكر بن عبد الله بن محمد، أبا العلاء (٦٣٨هـ/١٢٤٠) كان من أهل الفضل وبيت العلم والقضاء، سمع أباه أبا اليسر شاكراً، والحافظ أبا القاسم علي بن عساكر الدمشقي وغيرهما، وكان يقطن معرة النعمان، وقدم إلى حلب مرارا متعددة، وقال ابن العديم: "وكنّت ظفرت بسماعه في عدة أجزاء من تاريخ دمشق للحافظ أبي القاسم، فانتخبت منها جزءاً لطيفاً، وقرأته عليه بسماعه منه، وسمعه بقراءتي جماعة كانوا معي بحلب، وهكذا يؤكد ابن العديم أن

(١) بدران، تهذيب تاريخ دمشق ج ١ ص ٧ - ٩٨، المنجد: معجم المؤرخين الدمشقيين ص ٢٨ - ٥٢

(٢) طبع هذا الجزء من كتابه في مجلد واحد بتحقيق سكيئة الشهابي بدمشق.

(٣) الخريدة ج ١ ص ٢٧٦.

(٤) ابن العديم: البغية ج ٢ ص ٧٧٨ - ٧٧٩.

الحافظ علي بن عساكر درس كتابه " تاريخ دمشق " لطلاب هذا الشأن أيضاً.^(١)

واختصر أبو شامة، عبد الرحمن بن إسماعيل المقدسي " تاريخ دمشق " لابن عساكر مرتين الكبير، وهو في خمسة عشر مجلداً، الصغير في خمس مجلدات وكلاهما تام.^(٢)

وهما بحكم المفقود حتى الآن، ومن الطبيعي أن أبا شامة قرأ كتاب " تاريخ دمشق " لابن عساكر قراءة بحث وفهم، كي يتمكن من اختصاره.

وعلى ضوء ذلك يتبين لنا أهمية الأثر الكبير الذي تركه ابن عساكر في الحياة الفكرية في عصره والعصور التالية.

وأرخ بعضهم لانفسهم ك " أسامة بن منقذ " الأديب المؤرخ اصله من شيزر، وسكن دمشق طويلاً ومات فيها سنة (٥٨٤هـ / ١١٨٨م) في كتابه " الاعتبار " حيث يتضمن الكتاب سيرته إضافة لحوادث عصره، ومن أعماله أيضاً " النيرين في سيرة العمرين " وهو تهذيب لكتاب ومناقب عمر بن الخطاب، وكتاب مناقب عمر بن عبد العزيز وكلاهما لابن الجوزي.^(٣)

ومنهم أيضاً المؤرخ الكاتب القاضي الفاضل، عبد الله بن علي البيساني (٥٩٦هـ / ١١٩٩م) وكان محباً للعلم والعلماء، واقتناء الكتب، فجمع في مكتبته ما يزيد على مائة ألف كتاب وكان له نساخ ومجلدون، وبحكم مكانته الوظيفية في الدولة، اطلع على مجريات الأحداث فيها بأدق التفاصيل،

(١) العماد الكاتب: الخريدة " القسم الثاني " ج ١ ص ٢٧٤ - ٢٨٠ - ابن الجوزي: المنتظم ج ١٠ ص ٢٦١ - ياقوت: معجم الادباء ج ١٢ ص ٧٢ - ٧٨ - سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان ج ٢ ص ٢١٢ - ٢١٤ - ابن العديم: بغية الطلب ج ٢ ص ٧٧٨ - ٧٧٩ - أبو شامة: الروضتين ج ١ ص ٢ - ٤ - ابن خلكان: وفيات الأعيان ج ٢ ص ٢٩٢ - ٢٩٩ - السبكي: طبقات الشافعية ج ٧ ص ٢١٥ - ٢٢٢ - ابن تفردي: بردي: النجوم الزاهرة ج ٦ ص ٧٧ - حاجي خليفة: كشف الظنون ج ١ ص ٥٤ - ٥٧ - ١٠٣ - ٢٩٤ - ٣٤٢ - ابن العماد شذرات الذهب ج ٤ ص ٢٢٩

(٢) أبو شامة: الروضتين ج ١ ص ٢ - الذيل على الروضتين ص ٢٩

(٣) ياقوت: معجم الادباء ج ٥ ص ١٨٨ - الذهبي: المبرج ج ٢ ص ٢٥٢ - ابن كثير: البداية والنهاية ج ١ ص ٣٣١.

وقيل أن مصنفاته تزيد على مائة مجلد، ويبدو أن أغلبها رسائل تتحدث عن مسائل عرضية، سياسية، وعسكرية، واجتماعية، وغير ذلك، وهي مجموعات ذات موضوعات مستقلة، وهناك عدة رسائل على شكل مخطوطات في المتحف البريطاني، وقد استعمل كل من العماد الكاتب، وابن أبي طي، وأبي شامة، هذه الرسائل في مصنفاتهم، ولوحظ أن أبا شامة أورد في كتابه "الروضتين" ما يزيد على خمسين رسالة للفاضل، ولعل اهتمامه البالغ بالرسائل في كونها تدعم رواياته لأنها ذات صفة رسمية، وقد صنف القاضي الفاضل تاريخاً على الحوادث الجارية في كل يوم "المياومات".^(١)

نهج القاضي الفاضل في جميع رسائله وكتابه "المياومات" أسلوباً إخبارياً، قصد من خلاله إظهار براعته الأدبية والبلاغية وتأتي أهمية رسائله ومصنفه "المياومات" للمؤرخين في موضوعية الأحداث التي احتوتها لمعايشته لها، وإطلاعه عليها عن كثب، وتخطيطه لدولة صلاح الدين من النواحي السياسية والعسكرية والاجتماعية وغير ذلك.

ومن مؤرخي هذه الحقبة ابن صصري، الحسن بن هبة الله بن محفوظ بن صصري الدمشقي أبو المواهب محدث، مؤرخ، تلميذ ابن عساكر، توفى بدمشق سنة (٥٨٦هـ/١١٩٠م) من مؤلفاته "فضائل بيت المقدس" و"فضائل الصحابة" ومعجم الشيوخ.^(٢)

ومنهم أيضاً الضياء المقدسي، محمد بن عبد الواحد بن أحمد المقدسي الصالحي الحنبلي، صاحب المدرسة الضيائية بسفح قاسيون، فقيه، ومحدث، ومؤرخ، توفى بدمشق سنة (٦٤٣هـ/١٢٤٥م) من مؤلفاته "فضائل الشام" في ثلاثة

(١) ياقوت: معجم الادباء ج ١ ص ٥٢٧ - ابن الاثير: الكامل ج ١٢ ص ١٥٩ - ابن العديم: بغية الطلب ص ١٤٢٤ - ١٥٨٧ - ٢٤٤٨ - ٢٥٤٨ - ٤٦١٥ - سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان ج ٢ ص ٤٧٢ - أبو شامة: الروضتين ج ٢ ص ٢٤١ - ٢٤٤ - الذيل على الروضتين ص ١٧. ابن خلكان: وفيات الأعيان: ج ٣ ص ١٥٨، الذهبي: سير أعلام النبلاء ج ٢١ ص ٣٣٨ - ٣٤٤ - ابن كثير: البداية والنهاية ج ١٣ ص ٢٤ - ٢٦ - ابن العماد: شذرات الذهب ج ٤ ص ٣٢٤ - ٣٢٧.

(٢) الذهبي: العبر ج ٤ ص ٢٥٨ - الذهبي: تذكرة ص ١٣٥٨. - السخاوي: الاعلان ص ٦٠٥ - ابن العماد: شذرات ج ٤ ص ٢٨٥.

أجزاء، "وسيرة الحافظ عبدا لغني بن عبد الواحد المقدسي" في جزئين "و" سيرة الموفق عبد الله بن احمد بن قدامة "جزءان" و"مناقب جعفر بن أبي طالب" (١) ومنهم أيضاً المرخ المشهور، سبط ابن الجوزي، يوسف بن قزاوغلي تركي بغدادي، وصل إلى دمشق بعد الستمائة بقليل، وعاش فيها قرابة نصف قرن، واتصل بملوكها، توفي سنة (٦٥٤هـ / ١٢٥٦م) من مؤلفاته، واشهرها كتاب "مرآة الزمان" جعله في أربعين مجلداً، بدأ به من أول الزمان حتى سنة وفاته، ورتب ما بعد الهجرة على السنين، يذكر الحوادث ثم الوفيات. (٢) ومنهم البكري صدر الدين الحسن بن محمد النيسابوري، ثم الدمشقي محدث عني بالحديث أتم عناية، ولي بدمشق مشيخة الشيوخ وحسبة دمشق، وعظم شأنه أيام الملك المعظم الأيوبي توفي سنة (٦٥٦هـ / ١٢٥٨م) من مؤلفاته حسبما ذكر الذهبي بأنه شرع في مسودة "ذيل على تاريخ ابن عساكر" (٣) ومنهم القاسم بن عساكر (٤) وهو القاسم بن علي بن الحسن، بن الحافظ الكبير بن عساكر، كان من كبار المحدثين شديد الورع، تولى دار الحديث النوريه بعد أبيه، توفي بدمشق سنة (٦٠٠هـ / ١٢٠٣م) من مؤلفاته "ذيل على تاريخ أبيه" ولم يكمل، و"الجامع المستقصى في فضائل المسجد الأقصى" و"الأنباء المبينة في فضائل المدينة" و"منتخبات من تاريخ دمشق" ومنهم ابن الحاجب (٥) عمر بن محمد بن منصور الأميني الدمشقي، المعروف بابن الحاجب، محدث ثقة مؤرخ توفي

-
- (١) الذهبي: العبرج ٥ ص ١٧٩، الذهبي: التذكرة ص ١٤٠٥، ابن كثير: البداية والنهاية ج ١٢ ص ١٩٦، النعمي: تنبيه الطالب ج ٢ ص ٩١.
- (٢) الذهبي العبرج ٥ ص ٢٢٧، ابن العماد: شذرات ج ٥ ص ٢٧٤، ابن كثير: البداية والنهاية ج ١٢ ص ١٩٤.
- (٣) الذهبي: العبرج ٥ ص ٢٢٧، ابن العماد: شذرات ص ٢٧٤.
- (٤) الذهبي: تذكرة الحفاظ ج ٤ ص ١٣٦٧، السبكي: طبقات الثقافية ج ٥ ص ١٤٨، السخاوي: الإعلان ص ٦٣٢ - ٦٤٢ - ابن العماد: شذرات ج ٥ ص ٢٧٤.
- (٥) الذهبي: العبرج ٥ ص ١٢١، الذهبي: تذكرة ص ١٤٥٥، ابن العماد: شذرات ج ٥ ص ١٣٨، حاجي خليفة: كشف الظنون ص ٢٩٤.

بدمشق سنة (٦٣٠هـ/١٢٣٣م)، من مؤلفاته "معجم شيوخه" و"معجم البلدان والبقاع التي سمع بها" و"ذيل لتاريخ ابن عساكر"، ومنهم ابن الصلاح.^(١) تقي الدين عثمان بن عبد الرحمن بن موسى بن الصلاح الدمشقي، محدث كبير، ومفسر عالم بالرجال درس بمدارس دمشق، توفي سنة (٦٤٣هـ/١٢٤٥م) من مؤلفاته كتاب "طبقات الشافعية" وكتاب "حلية الشافعي" و"المؤلف والمختلف في أسماء الرجال".

لم تتوقف شهرة كتاب هذا العصر وعلمائه على العمل بالعلوم الأدبية، بل دخر هذا العصر بعلماء عظام عملوا بشتى أنواع العلوم العقلية والعلمية، من هندسة وفلك وطب ومما يميز علماء هذا العصر انهم اشتغلوا بأكثر من علم واحد، فمنهم من اشتغل بالعلوم الأدبية والعلمية معا أو العلوم الفقهية والعلمية أيضاً، أي لم يظهر هناك تخصص بعلم واحد فقط إلا نادراً، وان كان هناك براعة في علم أكثر من غيره.

الطب:

زها الطب في عهد الأيوبيين في دمشق، وتعددت فروعه وكان هناك أطباء للأمراض الباطنية وأطباء لأمراض العيون، وغيرهم وكان يسمى طبيب العيون "كحالة" كما كان هناك جراحون وأخصائيون في علاج العظام، ويسمى طبيب العظام "المجبر" وقد حفظ هؤلاء الأطباء تعاليم ابقراط التي تقضي بالاعطى الطبيب المريض دواء مضراً، ولا يقدم للعامل دواء مجهضاً، ولا للرجال دواء مانعاً للنسل، ولا يعمل على إفشاء الأسرار وهتك الأستار، وقد تأثر الطب بالثقافة اليونانية تأثراً كبيراً، وكان لجالينوس ستة عشر كتاباً تدرس في هذا الوقت منها كتاب "منافع الأعضاء" وكتاب "النبض" وكتاب "المزاج".

(١) الذهبي: العبرج ٥ ص ١٧٧، أبو شامة: ذيل الروضتين ص ١٧٦، السخاوي: الإعلان ص ٦٠٢، القاسي: المنتخب المختار ص ٢٣١.

ومن وصف ابن جبير يتضح لنا ازدهار دمشق، وتقدم الطب فيها، حيث استمر البيمارستان النوري الذي أنشأه نور الدين محمود، وتابع نشاطه زمن صلاح الدين الأيوبي حتى بلغ الذروة في التنظيم وتفقد المرضى، وتخصيص جناح للعلاج الخارجي، إضافة إلى العلاج داخل المستشفى مع تخصيص قسم خاص للنساء^(١)

كما ظهر الاهتمام بالطب البيطري لكثرة استخدام الخيول، واستخدم كثيراً من الآلات الطبية الدقيقة^(٢) ومما يدل أيضاً على النهوض بالعلوم الطبية في هذا العصر ظهور مدارس متخصصة للطب، منها:

المدرسة الدخوارية: تقع بالصاغة القديمة قبلي الجامع الأموي، أنشأها مهذب الدين عبد الرحيم بن يحيى بن حامد المعروف بالداخور في سنة (٦٢١هـ/١٢٢٤م) وأول من درس فيها وأوقفها.^(٣)

المدرسة اللبودية النجمية: موقعها خارج البلد، ملاصقة لبستان الفلك الشيري، أنشأها نجم الدين يحيى بن محمد اللبودي^(٤).

المدرسة الدنيسرية: غربي البيمارستان النوري والصلاحية بآخر الطريق من قبله أوقفها عماد الدين محمد بن عباس الدنيسري الطبيب الماهر الحاذق الشاعر، خدم الأكابر والوزراء وعمر ثمانين سنة توفى سنة (٦٨٦هـ/١٢٨٩م)^(٥) هذا وقد استخدم أطباء هذا العصر أساليب متعددة ومتنوعة في علاج المرضى، ويروي أسامة بن منقذ في كتابه (الاعتبار) قصصاً متنوعة في هذا المجال، ومما أورد في هذا الكتاب عن الطبيب ابن بطلان^(٦) انه كان لابن

(١) ابن جبير: تذكرة الاخبار عن اتفاقات الاسفار ص ٢٧٢.

(٢) الرمادي: صلاح الدين الأيوبي ص ٦٨

(٣) المدارس ج ٢ ص ١٢٧ - الذهبي المبرجي ص ١١١

(٤) المدارس: ج ٢ ص ١٣٥

(٥) المدارس: ج ٢ ص ١٣٣ - ابن كثير: البداية والنهاية ج ١٣ ص ٣١٠

(٦) الموسوعة الشامية: الاعتبار ص ٢٨٣ - ٢٨٤

بطلان إصابات عجيبة في الطب ومعجزات في مداواته، وقام تلاميذه بدور كبير في إنعاش الطب في العصر الأيوبي، وكانوا يتلقون عنه أساليبه فمن ذلك أن رجلا أتاه وهو في دكانه، والرجل قد انقطع صوته، فلا يكاد يفهم منه إذا تكلم، فأتاه ابن بطلان بخل فقال له: اشربه فشربه، وجلس هنيهة، ولم يلبث أن فاجأه القيء فتقيأ، ونزل من جوفه كثير من الطين مع هذا الخل، فانفتح حلقه واستوى كلامه فقال ابن بطلان لابنه وتلاميذه: لا تداووا بهذا الدواء أحدا فتقتلوه، فان هذا الرجل كان قد علق بالمريء شيء من غبار الغريلة ولم يكن يخرج إلا الخل".

كما حكى عن أسامة بن منقذ أنه كان يميز بين البرص والحبوب التي تصيب الجلد من الأمراض الجلدية الأخرى، كما عالج حالة من أمراض البهاق، وشفى امرأة من صداع شديد كان ينتابها، بل انه حكى أن طبيبا اسمه أبو الوفا عالجه هو نفسه، إذ لحقه برد عظيم وقشعريرة من غير حمى، فكان يلبس الثياب الكثيرة ويتدثر بالفرو، فشكا أسامة إليه ما يشعر به من ألم فقال له: احضروا لي بطيخة هندي، فأحضرها له أسامة، فكسرهما، وقال له: كل منها ما استطعت، فقال له: أنا أموت من البرد، وهذا الطعام بارد، فكيف أكل هذه مع بردها غير أن أسامة أطاع الطبيب، فما انتهى أكله منها حتى عرق وزال ما كان يشعر به من البرد، فقال له الطبيب: الذي كان بك من غلبة الصفراء، وما كان برد حقيقي".^(١)

وقد حكى ابن بطلان لتلاميذه من أطباء هذا العصر أن رجلا أتاه فشكا له مرضه، فرآه قد استحکم به الاستسقاء، وكبر بطنه ودقت رقبته، وتغيرت سحنته، فقال له يا ولدي: ما لي واللّه فيك حيلة، ولا بقي الطب ينجع فيك، فانصرف ثم اجتاز به بعد مدة وهو في دكانه وقد زال عنه ما كان به من المرض، وضمّر جوفه وصفت حاله، فدعا ابن بطلان، وقال له: ما أنت الذي

(١) الموسوعة الشامية: الاعتبار ص ٢٨٢ - ٢٨٤

حضرت عندي من مدة وبك الاستسقاء، وقد كبر بطنك ودقت رقبتك، وقلت لك ما لي فيك حيلة؟ قال: بلى، قال: فيماذا تداويت حتى زال ما كان بك؟ قال: والله ما تداويت بشيء ! أنا رجل صعلوك مالي شيء، ولا لي من يدور بي سوى والدة عجوز ضعيفة، كان لها دين خل، فكانت كل يوم تطعمني منه بخبز، قال ابن بطلان، بقي من الخَل شيء؟ قال الرجل: نعم قال: امش معي ارني الدن الذي فيه الخل، فوجد في أسفله أفعيين، فقال له: يا بني ما كان يقدر يداويك بخل فيه أفعيان حتى تبرأ إلا الله عز وجل^(١).

كما استخدم بعض أطباء هذا العصر الشعر في الطب، فنظم بعض المنظومات الطبية، ومن ذلك الطبيب محمود بن عمر بن ربيعة، الذي ذكر بن أبي أصيبعة عنه في كتابه "عيون الأنبياء في طبقات الأدباء" انه كان ذا قدرة على نظم الكتب الطبية رجزاً في سهولة ويسر، وسرعة تدعو إلى الدهشة ووضع أرجوزة في فصد الدم، ونظم كتاباً سماه "لطف المسائل وتحف السائل" وقد أدرك هذا الطبيب أواخر عهد صلاح الدين وهو شاب، وتوفي عام (٦٣٥هـ/٢٢٨م) ومن وصاياه الطبية قوله:

تَوَقَّ الامتلاء وعد عنه	وإدخال الطعام على الطعام
وإكثار الجماع فان فيه	لمن والاه داعية السقام
ولا تشرب عقيب الأكل ماء	فتسلم من مضرات عظام
وقل ما استطعت الماء بعد الر	ياضة واجتنب شرب المدام

وهذه الوصايا لا تحتاج إلى تعليق لأن الإفراط في الطعام يولد التخمة، والتخمة تريك الهضم وتضر الجسم. كما أن الإفراط في مزاوله العلاقات الجنسية يسبب الضعف، والملل والانهيار، وما إلى ذلك. كما أن الإفراط في شرب الماء يسبب الإفراط في التعرق، وكثرة إفراز العرق دليل على الضعف،

(١) الموسوعة الشامية: الاعتبار ص ٧٠.

وان كان العرق ضرورياً في بعض حالات الحمى، لأنه يساعد على خفض درجة الحرارة^(١).

ومنهم محمد بن عبد الكريم المهندس الحارثي، ولد ونشأ بدمشق، وكان يعرف بالهندسة لجودة معرفته واشتهاره بها قبل ان يتحلى بمعرفة الطب، وكان أول أمره نجارا وينحت الحجارة، تفرد في زمانه في العلوم الحكيمة والفلكية والرياضية، وله مصنفات في رؤية الهلال، واختصر الأغاني الكبير، توفي سنة (٥٩٩هـ/١٢٠٢م) ويذكر أن باب البيمارستان النوري واكثر أبواب الخانات النفيسة هي صنع يده من حجارة ونجارة.^(٢)

ومنهم أيضاً موفق الدين عبد العزيز السلمي، كان في أول أمره فقيها في المدرسة الأمينية القريبة لجامع دمشق، واشتغل بعد ذلك في صناعة الطب وجعل دأبه علمها وعملها، وصار متميزا بها في البيمارستان، ثم صار طبيب الملك العادل أبي بكر بن أيوب، وكان شديد الشفقة على الفقراء يعطيهم ما يحتاجون من الأدوية والأغذية^(٣) سنة (٦٠٠هـ/١٢٠٣م).

ومنهم نجم الدين يحيى بن اللبودي عالم في الحكمة والهندسة، وصاحب المدرسة الطبية المنسوبة إليه في دمشق، وصاحب دار الهندسة أيضاً، وله ثلاث عشرة رسالة في الرد على البغدادي عبد اللطيف وله عدة مصنفات.^(٤)

ومنهم أيضاً شمس الدين بن اللبودي المعروف بالمهذب سافر من دمشق إلى بلاد العجم لتلقي العلوم الحكيمة، ثم رجع وصار افضل أهل زمانه بها، وكان شيخ أطباء البيمارستان النوري، وكان عالما بالرياضيات وعلم حل الزيج (٦٢٦هـ/١٢٢٨م).^(٥)

(١) ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء ص ٣٢٠. الرمادي: صلاح الدين الأيوبي ص ٧١.

(٢) ابن أبي أصيبعة: ص ٣١٢ - ٣١٣ - منتخبات التواريخ لدمشق ص ٤٨٤

(٣) ابن أبي أصيبعة: طبقات الأطباء ص ٣١٤ - منتخبات التواريخ لدمشق ص ٤٨٤

(٤) ابن أبي أصيبعة: المصدر السابق ص ٣٠٣ حتى ٣١٠ - منتخبات التواريخ لدمشق ص ٤٨٤

(٥) ابن أبي أصيبعة: المصدر السابق ص ٣٠٢ - ٣٠٣ - منتخبات التواريخ لدمشق ص ١٩٤.

ومنهم المذهب الداخوار عبد الرحيم بن علي بن حامد الدمشقي شيخ الطب وواقف المدرسة التي بالصاغة العتيقة على الأطباء، وصنف التصانيف في الطب وحظي عند الملوك. ^(١) ومنهم عمر بن علي بن البذرخ الدمشقي عالم بالطب وشاعر، وله تأليف (٥٧٦ هـ/ ١١٨٠ م) ^(٢)

ومنهم أبو زكريا يحيى البياسي من أطباء السلطان صلاح الدين (٥٧٤ هـ/ ١١٨٧ م)، عمل لأستاذه في الطب ابن النقاش علي بن عيسى بن هبة الله آلات كثيرة تتعلق بالهندسة، وكان يعرف النجارة، وابن النقاش كان أوحده زمانه في صناعة الطب وله مجلس عام للمشتغلين عليه، وكان يعالج أيضاً كتابة الإنشاء، (٥٧٤ هـ/ ١١٧٨ م) ^(٣)

ومنهم الرضي الرحبي أبو الحجاج يوسف بن حيدرة شيخ الطب بالشام وأحد من انتهت إليه معرفة الفن، قدم دمشق مع أبيه حيدره الكمال ولازم الاشتغال على المذهب ابن النقاش فنوه باسمه وبنى على علمه، وصار من أطباء صلاح الدين يوسف، وامتدت أيامه وصارت أطباء دمشق تلامذته (٦٣١ هـ/ ١٢٣٣ م) ^(٤) ومنهم رفيع الدين الجيلي أبو حامد عبد العزيز، كان بارعاً في علوم الطب توفي سنة (٦٤١ هـ/ ١٢٤٤ م) ^(٥)

ومنهم سعد الدين بن إبراهيم بن عبد العزيز، أبو اسحق كان علامة زمانه في صناعة الطب، أتقن جزئيات أنواعها، واحكم كليات أصولها، ولد بدمشق سنة (٥٨٣ هـ/ ١١٨٧ م) وخدم بصناعة الطب في البيمارستان ثم تولى رئاسته، وله

(١) الموسوعة الشامية: ج ٥ ص ٣١١ - ابن أبي أصيبعة ص ٣٩٠ - منتجات التواريخ لدمشق ص ٤٩٩.

(٢) حاجي خليفة: كشف الظنون ص ٢٤٣ - أحمد عيسى: معجم الأطباء ص ١٣٥ - الحصني المرجع

السابق ص ٤٨٠

(٣) ابن أبي أصيبعة: المصدر السابق ص ٢٦٨ - الحصني: المرجع السالف ص ٤٨٥.

(٤) ابن أبي أصيبعة: المصدر السابق ص ٣١٦ - الحصني: المرجع السالف ص ٢٠٥

(٥) المصدر المتقدم ص ٥٠٦

مجلس عام للمشتغلين بصناعة الطب ت (٦٤٤هـ/١٢٤٥م). وله من الكتب (شرح الإشارات والتبهيئات).^(١)

ومنهم بدر الدين بن قاضي بعلبك عبد الرحمن، نشأ بدمشق واشتغل بصناعة الطب تولى رئاسة جميع الأطباء والكحالين والجراحين بدمشق ت سنة (٦٥٠هـ/١٢٥٢م)، خدم الملك الأشرف موسى بن الملك العادل سنة (٦٢٢هـ/١٢٢٥م)، استخدمه الملك الجواد بدمشق سنة (٦٣٥هـ/١٢٣٨م)، وولاه الرياسة على جميع الأطباء والكحالين والجراحين^(٢). ومنهم جمال الدين بن حيدرة الرحبي، أصله من الرحيبة ولد ونشأ في دمشق كان من أكابر العلماء، أوجد زمانه في العلوم الدينية والحكومية اشتغل بصناعة الطب (٦٥٨هـ/١٢٦٠م)^(٣) ومنهم شرف الدين بن الرضي الرحبي، برع في الطب، تولى رئاسة الطب في محل أبيه ت (٦٦٧هـ/١٢٦٩م)^(٤) ومنهم موفق الدين أحمد بن القاسم بن خليفة عاش بدمشق وتوفي بصرخد، عرف بابن أصيبعة الدمشقي الطبيب الأديب، مؤلف كتاب "عيون الأنبياء في طبقات الأدباء" ت سنة (٦٦٨هـ/١٢٧٠م)^(٥).

ومنهم عز الدين بن طرخان الأنصاري الدمشقي العلامة السويدي، برع في الطب وصنف فيه وفاق الأقران، وكتب الكثير من الكتب بخطه المليح، وله كتاب "الباهر في الجواهر" وكتاب "التذكرة في الطب" وقد انتخب شيخاً للطب بالديار المصرية والشامية، قال الذهبي: ألف في الطب كتاب شامل،

-
- (١) ابن أبي أصيبعة: المصدر السالف ص ٢٨١ - ٢٨٣، الحصني: المرجع السالف ص ٥٠٦.
 - (٢) ابن أبي أصيبعة: المصدر السابق ص ٤٢٣ - ٤٢٤. ابن كثير: البداية والنهاية ج ٧ ص ٦٥٧، ابن العماد: شذرات ج ٥ ص ٣٢٧، السخاوي: الاعلان ص ٢٠٩.
 - (٣) ابن أبي أصيبعة: المصدر السالف ص ٣٢٨، الحصني: المرجع السالف ص ٥١١.
 - (٤) ابن أبي أصيبعة: المصدر السالف ص ٣٢١، الحصني: المرجع السالف ص ٤١٥.
 - (٥) ابن أبي أصيبعة: المصدر السابق انظر المقدمة، الحصني: المرجع السالف ص ٤١٥.

وهو كتاب عظيم تدل فهرسته على أن يكون ثلاثمائة مجلدة. (٦٩٠هـ / ١٢٩٤م)^(١)

ونبغ في دمشق أيضاً ابن المنفاخ نجم الدين، ويعرف بابن العالم لان أمه كانت عالمة دمشق وتعرف ببنت دهني اللوز، طبيب عالم بالحكمة والمنطق والأدب، له مؤلفات مات سنة (٦٥٢هـ / ١٢٥٤م)^(٢).

ومنهم إدريس بن محمد أبو القاسم العطار المعروف بالوالوية الدمشقي، روى العلوم عن محمد بن أبي در الصالحاني، وقيل أنه جاوز المائة ت سنة (٦٠٦هـ / ١٢٠٩م).^(٣)

ومنهم موسى بن ميمون (٦٠١هـ / ١٢٠٤م)، وهو الطبيب الخاص لصلاح الدين وابنه الأفضل^(٤)

ومنهم علاء الدين ابن أبي حزم القرشي الدمشقي المعروف بابن النفيس المتوفى سنة (٦٨٧هـ / ١٢٨٨م)^(٥) وقد قيل فيه: "لم يوجد على وجه الأرض قاطبة نظير له، ومنذ ابن سينا لم يوجد أحد في عظمته" وهذا يعبر إلى حد كبير عن مدى الإعجاب بالطبيب العربي العظيم.

والغريب في أمر هذا العالم أن صديقه في الدراسة ابن أبي أصيبعة، مؤرخ الطب العربي وابن أحد أطباء العيون صاحب الموسوعة التاريخية التي جمع فيها أسماء ٣٩٩ طبيباً عربياً. وتراجم حياتهم، لم يذكر اسم هذا الطبيب العربي المشهور. قضى ابن النفيس حياته بين دمشق والقاهرة، وعاش بدمشق عندما كانت ولاية تابعةً للسلطان العادل سيف الدين الأيوبي أخي صلاح الدين، وكانت دمشق آنذاك تعيش نهضة عالمية طبية عارمة، إذ كان قد أمها

(١) الذهبي: العبرج ٥ ص ٢٦٦، الحنبلي: شذرات ج ٥ ص ٤١١. الحمصني: المرجع السالف ص ٥٢٠.

(٢) الحمصني: المرجع السالف ص ٥٢٠.

(٣) الذهبي: العبرج ٥ ص ١٧، الحمصني: المرجع السالف ٤٨٦.

(٤) ابن أبي أصيبعة: المصدر السالف ص ٥٨٢ - ٥٨٣.

(٥) ابن كثير: البداية والنهاية ج ١٣ ص ٣١٣.

الكثيرون من أطباء بغداد وعلمائها، أضف إلى ذلك أن حكماها وولاتها تباروا في إنشاء المدارس والمستشفيات والمكتبات، كان أستاذ ابن النفيس هو الطبيب ابن الدخوار الذي درس على يده ابن أبي أصيبعة، وكان رئيس أطباء المستشفى النوري الكبير، من مؤلفاته "الموجز في القانون" وهو ملخص لكتاب القانون لابن سينا، وشرح قانون "ابن سينا" وأورد فيه نظريته الجديدة^(١)

ضياء الدين بن البيطار: هو الحكيم الأجل العالم أبو محمد عبد الله بن احمد المالقي النباتي ويعرف بابن البيطار، اجتمع به ابن أبي اصيبعة بدمشق سنة (٦٣٣هـ/١٢٣٥م) وقد وصفه بأنه حسن المعاشرة، وفيه كمال المروءة وطيب الأعراق، ويقول ابن أبي اصيبعة بأنه شاهد معه من ظاهر دمشق كثيرا من النبات في مواضعه، وكان في خدمة الملك الكامل محمد بن أبي بكر بن أيوب، وكان يعتمد عليه في الأدوية المفردة والحشائش وكان رئيسا على سائر العشابين وأصحاب البسطات، ولم يزل في خدمته إلى أن توفي الملك الكامل رحمه الله بدمشق. وبعد ذلك توجه إلى القاهرة فخدم الملك الصالح نجم الدين أيوب بن الملك الكامل. وكانت وفاته سنة (٦٤٦هـ/١٢٤٧م) بدمشق ومن كتبه "الإبانة" و"الإعلام في المنهاج من الخلل والأوهام" وكتاب "الجامع في الأدوية المفردة" وكتاب "المغني في الأدوية المفردة" وهو مرتب بحسب مداواة الأعضاء الآلة، وكتاب "الأفعال الغريبة والخواص العجيبة"^(٢)

مهذب الدين بن النقاش: هو الشيخ الإمام أبو الحسن علي بن أبي عبد الله عيسى بن هبة الله النقاش، مولده ومنتشوه ببغداد. عالم بعلوم العربية والأدب وكان يتكلم الفارسية، واشتغل بصناعة الطب على الأجل أمين الدولة هبة الله بن صاعد بن التلميذ، ولازمه مدة، واشتغل بعلم الحديث، ولما وصل إلى دمشق

(١) مرجحيا (محمود عبد الرحمن): الجامع في تاريخ العلوم عند العرب ص ٢٧٥ - ٢٧٦ - بيروت ١٩٨٨،

طبعة ثانية، الحنبلي: شذرات الذهب ج ٥ ص ٤٠١ - ٤٠٢، الذهبي: المبرج ص ١٨٩.

(٢) ابن أبي اصيبعة: المصدر السالف ص ٢٢٠ - ٢٢١ - ٢٢٢

بقي بها يطبب وكان أوحد زمانه في صناعة الطب، وله مجلس عام للمشتغلين عليه وخدم بصناعته الطب، الملك العادل نور الدين محمود ثم الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب توفي في دمشق (٥٧٤ هـ/١١٧٨ م).^(١)

شمس الدين الخوي: هو الصدر الإمام العالم الكامل قاضي القضاة شمس الدين، حجة الإسلام، سيد العلماء والحكماء، أبو العباس أحمد بن الخليل بن سعادة بن جعفر بن عيسى، من مدينة خوي، كان أوحد زمانه في العلوم الحكمية، عارفاً بأصول الطب وغيره من أجزاء الحكمة، ورد إلى دمشق أيام السلطان الملك المعظم عيسى بن الملك العادل، وقرأ عليه جماعة من المشتغلين وانتفعوا به، قال ابن أبي أصيبعة: "قرأت عليه (التبصرة) لابن سهلان"، ولاء الملك المعظم القضاء، وجعله قاضي القضاة بدمشق، له تصانيف منها تنمى تفسير القرآن، لابن خطيب الري وكتاب في النحو، وكتاب في علم الأصول، توفي بدمشق سنة (٦٣٧ هـ/١٢٤٠ م).^(٢)

سيف الدين الأمدي: أبو الحسن علي بن أبي بن محمد بن سالم التقلبي الاسدي، كان أذكى أهل زمانه، وأكثرهم معرفة بالعلوم الحكمية، والمذاهب الشرعية والمبادئ الطبية، قدم دمشق سنة (٦١٧ هـ/١٢٢٠ م) وخدم الملك المعظم شرف الدين عيسى بن الملك العادل أبي بكر بن أيوب، فأنعم عليه وأكرمه غاية الإكرام، وولاه التدريس، وكان إذا نزل وجلس في المدرسة وألقى الدرس والفقهاء عنده يتعجب الناس من حسن كلامه في المناظرة والبحث، ولم يكن أحد يماثله في سائر العلوم، وكانت وفاته سنة (٦٣١ هـ/١٢٣٣ م) وله من الكتب، كتاب (دقائق الحقائق) وكتاب

(١) ابن أبي أصيبعة: المصدر نفسه ص ٢٦٥ - ٢٦٧.

(٢) ابن أبي أصيبعة: المصدر نفسه ص ٢٨٠ - ٢٨١. الذهبي: العبرج ص ١٥٢.

(رموزالكنوز) وكتاب (لباب الألباب) وكتاب (أبكار الأفكار) في الأصول،
وكتاب (مناجح القرائح)^(١)

موفق الدين بن المطران: موفق الدين أبو نصر اسعد بن أبي الفتح الياس بن
جرجس المطران كان سيد الحكماء وأوحد العلماء، وافر الآلاء، جزيل
النعماء، أمير أهل زمانه في علم الطب وعملها، وأكثرهم تحصيلاً لأصولها
وجملها، جيد المداواة لطيف المداراة، مولده ومنشأه بدمشق، وكان أبوه طبيباً
أيضاً، واشتغل بالطب على مهذب الدين بن النقاش، وخدم بصناعة الطب الملك
الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب، وكان لموفق الدين همة عالية في تحصيل
الكتب، حتى أنه مات وفي خزانته من الكتب الطبية وغيرها ما يناهز عشرة
آلاف مجلد، خارجاً عما استسخه، توفي (٥٨٧هـ/١١٩١م) بدمشق له من الكتب
كتاب "بستان الأطباء وروضة الألباء" و"المقالة الناصرية في حفظ الأمور
الصحية"، "كتاب على مذهب دعوة الأطباء"، كتاب "الأدوية المفردة"، "كتاب
آداب طب الملوك"^(٢)

مهذب الدين بن الحاجب: كان طبيباً مشهوراً فاضلاً في الصناعة الطبية،
متقناً للعلوم الرياضية معتياً بالأدب، متعياً في علم النحو، مولده بدمشق، ونشأ
بها، واشتغل بصناعة الطب على مهذب الدين بن النقاش ولازمه مدة. وكان
كثير الاشتغال محباً للعلم قوي النظر في صناعة الهندسة، وكان قبل اشتغاره
بصناعة الطب قد خدم في الساعات التي عند الجامع بدمشق. ثم تميز في صناعة
الطب، وخدم في البيمارستان الكبير، توفي بحماه بعلة الاستسقاء.^(٣)

كمال الدين الحمصي: هو أبو منصور المظفر بن علي بن ناصر القرشي،
من الفضلاء المشهورين والعلماء المذكورين، وكان كثير الخير وافر المروءة،

(١) ابن أبي أصيبعة: المصدر نفسه ص ٢٨٥- ٢٨٧

(٢) حاجي خليفة: كشف الظنون ص ٢٤٣ - ابن أبي أصيبعة / ص ٢٨٧٢٩٥ - ٢٩٧ - أحمد عيسى:
معجم الأطباء ص ١٣٥ المرجع السابق ٤٨٠.

(٣) ابن أبي أصيبعة: المصدر السابق ص ٢٩٨ - ٢٩٩

اشتغل بصناعة الطب على الشيخ رضي الدين الرحبي، وكذلك اشتغل بالأدب، كان محباً للتجارة وأكثر معيشته منها، وكانت له دكان في الخواصين بدمشق يجلس فيها، ويكره التكسب بصناعة الطب وإنما كان الملوك، وأكثر الأعيان يطلبونه ويستطبونه لما ظهر من علمه، وبأن من فضله، وطلبه الملك العادل أبو بكر بن أيوب وغيره لخدمهم ويبقى معهم في الصحبة فما فعل، وبقي سنين يتردد إلى البيمارستان الكبير، يعالج المرضى فيه احتساباً، ثم النزم بعد ذلك بأن قررت له فيه جامكية وجراية، وبقي كذلك إلى أن توفي سنة (٦١٢هـ - ١٢١٥م) وله من الكتب شرح كتاب "العلل والأعراض" لجالينوس، " الرسالة الكاملة في الأدوية المسهلة " واختصار كتاب " الحاوي " للوزاري لم يتم، مقالة في " الاستسقاء " اختصار كتاب " المسائل " لحنين بن اسحق وقد أجاد فيه.^(١)

موفق عبد اللطيف البغدادي: الشيخ الفاضل موفق الدين أبو محمد عبد اللطيف بن يوسف بن محمد بن علي بن أبي سعد، ويعرف بابن اللباد، كان مشهوراً بالعلوم، متميزاً في النحو واللغة العربية عارفاً بعلم الكلام والطب، وكان قد اعتنى كثيراً بصناعة الطب لما كان بدمشق واشتهر بعلمها، وكان يتردد إليه جماعة من التلاميذ وغيرهم من الأطباء للقراءة عليه، ولد سنة (٥٥٧هـ / ١١٦٢م)، ويذكر موفق الدين بأنه عندما دخل إلى دمشق وجد فيها من أعيان بغداد والبلاد ممن جمعهم الإحسان الصلاحي جمعاً كثيراً منهم جمال الدين عبد اللطيف، وابن طلحة الكاتب والكندي البغدادي النحوي، ويقول بأنه (موفق الدين) عمل بدمشق تصانيف جملة منها "غريب الحديث الكبير"، و"غريب ابن قتيبة"، و"غريب الخطابي"، ومن كتبه كتاب المجرد في غريب الحديث، " وكتاب الواضحة في أعراب الفاتحة " و"شرح الخطب النباتية، شرح أربعين حديثاً طبية، "شرح جالينوس لكتب الأمراض الحادة لأبقراط"، اختصار

(١) ابن أبي أصيبعة: المصدر نفسه ص ٢٢٩ - ٢٣٠

كتاب آلات التنفس، "كتاب النخبة وهو خلاصة الأمراض الحادة" ومقالة تشتمل على أحد عشر بابا في حقيقة الدواء والغذاء، ومعرفة طبقاتها، وكيفية تركيبها ومقالة في البادئ بصناعة الطب" و"كتاب النصيحتين للأطباء والحكماء" و"كتاب المحاكمة بين الحكيم والكيميائي".^(١)

سافر إلى مصر وعاد ثانية إلى دمشق، واجتمع بالسلطان في عكا أقام بدمشق زمن الملك الأفضل، ثم نزل المدرسة العزيفية بدمشق، وذلك في سنة (٦٠٤هـ/١٢٠٧م) وشرع في التدريس والاشتغال، وكان يأتيه خلق كثير يشغلون عليه ويقرؤون أصنافا من العلوم.

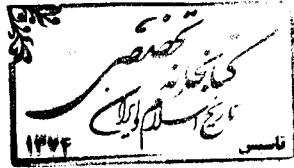
موفق الدين المنفاخ: هو الحكيم العالم الأوحد أبو الفضل اسعد بن حلوان، اصله من المزة واشتغل بصناعة الطب وتميز فيها وفي أعمالها، وخدم الملك الاشرف موسى ابن أيوب توفى سنة (٦٤٢هـ/١٢٤٠م)^(٢)

وكذلك ظهر علماء في الفلك في دمشق الأيوبية، ومنهم شمس الدين بن المؤيد العرضي الدمشقي وهو من الحكماء الذين كانوا بدمشق ودعاهم نصر الدين الطوسي لبناء المرصد الايلجاني وأقام مرصدا فلكياً في دمشق، وكان هو وابنه محمد من علماء الفلك، وتولى إحداهما الأرصاد في مرصد مراغه، وقد وضع محمد العرضي كرة تمثل الأرض ولا تزال محفوظة في متحف درسلان في ألمانيا.^(٣)

(١) ابن أبي أصيبعة: المصدر السالف ص ٣٣٠ - ٣٤٩ البغدادي: وصف مصر ص ١٠.

(٢) ابن أبي أصيبعة: المصدر نفسه ج ٣ ص ٤٣٢.

(٣) الحصني: منتخبات التواريخ لدمشق ص ٥٠٧.



الخاتمة

على ضوء ما تقدم نرى أن دمشق لم تعرف الاستقرار السياسي طيلة أيام الحكم الأيوبي لها إلا لمدة محدودة، منها مدة حكم صلاح الدين، ومع كل ذلك بقيت دمشق تنبض بالحياة، حيث أنها لم تتأثر كثيراً بمجريات الأحداث التي حلت بها، فتابعت حركتها الاقتصادية والاجتماعية، وازدهرت نهضتها الفكرية، فكانت دمشق محطة لطلبة العلم من شتى أنحاء العالم الإسلامي. لقد حُشدت إمكانيات دمشق وسخرت كل طاقاتها من أجل محاربة الصليبيين، فمنذ عهد نور الدين زنكي أصبحت مركزاً من مراكز التحرير، حيث انطلقت منها الجيوش الإسلامية لقتال الصليبيين، وإبعادهم عن أرض الوطن، وبعد وفاة نور الدين رفضت دمشق الاستقلال عن الدولة العربية الإسلامية التي عمل نور الدين على تأسيسها لذلك سعت إلى دحر الفتن التي حاولت إبعادها عن هذه الدولة.

في عهد الصالح إسماعيل بن نور الدين، قام المخلصون من أبنائها بالاستعانة بصلاح الدين الأيوبي نائب نور الدين في مصر، الذي عمل مسرعاً على عدم التفريط بهذه المدينة لأنه كان يدرك أهمية هذه المدينة، واستطاع صلاح الدين بمدة قصيرة أن يعيد الوضع إلى ما كان عليه زمن نور الدين، وتمت وحدة بلاد الشام مع مصر ثانية، وأصبحت دمشق تمثل مركز الثقل في هذه الدولة، وعمل صلاح الدين على حشد كل الطاقات في دمشق لمحاربة الصليبيين أعداء العرب والإسلام، وأثبت جدارته في ملاقاته هؤلاء الأعداء، واستطاع دفعهم عن البلاد الإسلامية خاسرين مدحورين يجرون أذيال الخيبة والإخفاق.

لم يكن صلاح الدين إدارياً بارعاً فحسب، بل برع بالتسويات الرضائية، وحفظ التوازنات لإرضاء الجميع، لم يكن يهتم بتعقيدات الإدارة، فكان

يتركها لغيره بسبب انشغاله الكامل بالمهمة الحربية، ولما كان المتطوعون بالولاء الشخصي له قد كثرت نسبتهم في الجيش، وجلهم من الأكراد - فقد قلت نسبة المماليك فيه، وقام هذا الولاء مقام الكابح المشترك للجميع، فلم تظهر المنافسات ولا التحاسد على الإقطاعات، وإن نال أفراد أسرته - وهم المؤسسة العسكرية الأم - النصيب الأوفى من ذلك، ولما كان لا يشترط على نوابه وحكامه في إدارة الأقاليم والإقطاعات، إلا معاملة الرعية بالمساواة والإسهام في نفقات الجهاد والاحتفاظ بجيوشهم جاهزة دوماً للقتال. إذأ فقد ترك الأمور الإدارية كلَّها وراء ظهره، وكان لا يهتم بسوى الولاء المخلص من أتباعه، لأنه كان يعرف أن هذا الولاء هو الذي يجمع القوى بيده، ولذلك كان يهتم به، وقد قال مرة لصديقه المصاحب له ابن شداد: «إنني لو حدث لي حادث الموت ما تكاد تجتمع هذه العساكر»^(١).

قال العماد: كتب له النواب بدمشق مرة: «إن الأموال ضائعة، وإن الأطماع فيها رائحة وإن في أرباب الصدقات أغنياء لا يستحقونها، وإن أرباب العنايات استوعبوها، وما استوجبوها، وإن المصلحة تقتضي أفراد جهات لما سنع من مهمات»^(٢).

وكانت الصدقات مبلغ أحد عشر ألف دينار، فقال لي: اكتب عليها جميعاً بالإمضاء، ولا تكدر على ذوي الأموال موارد العطاء، فقلت: أما أتلو عليك الأسماء، فقال: لا بل نُزُهني عن هذه الأشياء.. فبقيت تلك الرسوم دائرة^(٣).
كان صلاح الدين يبني فكره الإداري بكل بساطة على الثقة بنوابه وعماله، ويقبل شكوى الناس فيهم، وقلماً كانت تقوم الشكوى، ومشى مع هذه الثقة، وربما كان سبب ذلك أريحته المبالغ فيها في كثير من الأحيان،

(١) ابن شداد: ص ٢١٨.

(٢) أبو شامة: ج ٢ ص ٥.

(٣) أبو شامة: ج ٢ ص ٥.

فقد كان سفاحاً للمال لا يدخره لوقت الحاجة، وهذا ما أخرج كل الإخراج أيام الحرب ضد الحملة الصليبية الثالثة...

وقد كتب القاضي الفاضل: «إن المولى أنفق مال مصر في الشام، وأنفق مال الشام في فتح الجزيرة، وأنفق مال الجميع في فتح الساحل»^(١) وقد قال مرة: «يمكن أن يكون في الناس من ينظر إلى المال كما ينظر إلى التراب»^(٢) وكانت هذه الناحية نقصاً في إدارته، لأن عدداً من ولاته أثروا الثراء الفاحش ولم يحاسبوا، وكانت حملاته العسكرية مناسبات لحملات من السخاء كانت تغضب أحياناً أمراؤه وخواصه، وتخرج القائمين على خزائنه.

استطاع صلاح الدين أن يرضي أفراد أسرته، لأنه عدّهم سنده الأول في فتوحاته وكانت مطامع أفراد أسرته متفقة مع مفاهيم عصره، لكنها لم تتفق مع طموحات صلاح الدين ومفهومه للدولة. كانوا جديدين على عمليات الحكم، ويفهمونه على أنه امتلاك لأراضي الناس ورقابهم، لا على أنه إدارة لشؤونهم وتسيير لرعية هم مسؤولون عنها. ومفهومه هذا أتاه من توقد حماسته الدينية، أما أسرته فكان مفهومها مستقى من واقع ما يجري في العصر. وقد عانى صلاح الدين من تباين الحاليين وعبر عن هذا التباين يوم قال لأخيه العادل - وهو يطلب عقد تملك لحلب مقابل ١٥٠ ألف دينار اقترضها صلاح الدين منه: «أظننت أن البلاد تباع وتشترى أو ما علمت أن البلاد لأهلها المرابطين بها، ونحن خزنة للمسلمين ورعاة وحراس لأموالهم»^(٣).

بعد ذلك عمّد صلاح الدين على إجراء بعض التعديلات والتغييرات في دولته وذلك في سنة (٥٨٢هـ/١١٨٦م)، وكانت هذه التغييرات جوهرية بالنسبة له:

(١) أبو شامة: ج ٢ ص ١٧٧.

(٢) ابن شداد: ص ١٨.

(٣) أبو شامة: ج ٢ ص ٥٢.

. أعاد تعيين أخيه العادل في مصر وصياً على العزيز عثمان بن صلاح الدين دون تمليكه قلعة أو إقطاعاً.

. عين ابن أخيه تقي الدين عمر لإقطاع (ميفارقين) و (ديار بكر) بعد أن تمرد في مصر أو كاد يخرج عن الطاعة.

. وتم إعادة ابن صلاح الدين الظاهر غازي لولاية حلب.

. وبقي شيركوه بن ناصر الدين محمد في إقطاعه لم يتغير.

بعد أن عمل صلاح الدين على تنظيم أمور دولته داخلياً، أعطى العمل الدبلوماسي الخارجي نصيبه، حيث أن صلاح الدين قد أدرك من خلال تجاربه ومسؤولياته خلال عشرين سنة ونيف أن الإطار الخارجي له أثره في الدولة، وقد يؤثر عليها تأثيراً خطيراً، وأن القوى المادية التي بنى منها دولته قطعة قطعة، لا تكفي لضمان الاطمئنان إلى مسيرة الأمور كما يشتهي، ولا بد من صداقات وهدنات وعلاقات سلام تقوم مع القوى الخارجية، بل ومع المعادية أحياناً، وهكذا وجه دبلوماسيته إلى القسطنطينية «بيزنطة».

وكان من ثمرات هذه العلاقة أن زاد العداء بين بيزنطة وفرنجة الشام، مما زاد في اطمئنان صلاح الدين إلى بيزنطة وإلى قبرص، كما أنه عمد إلى استمالة تجار جنوى وبيزا عندما فتح لهم بعض مرافقه، لأنه كان يعلم أن مصلحة هؤلاء تغلب على تدينهم، وتجعلهم ينسون حتى الحرمان الذي يمكن أن يرميهم به البابا، كما أنهم متنافسون فيما بينهم، فاستغل منافساتهم، وبذل كثيراً من الجهود لاجتذاب تجارتهم إلى مرفأى مصر، مما لا يؤدي إلى تأمين منافقهم، ولكن إلى تأمين منافع الدولة وزيادة مواردها.

لقد كان الشغل الشاغل لصلاح الدين: قضية الجهاد التي كانت تمثل القضية المركزية التي شغلته حتى وهو في صيده أو صلاته أو في خلوته مع أولاده.

وفي مطلع سنة (٥٨٣هـ/١١٨٧م) كانت جميع الخيوط بيد صلاح الدين، وأتته الفرصة عندما قام أرناط بنقض الهدنة التي طلبها هو بنفسه من صلاح الدين عندما تعرض لقافلة ثقيلة معها نَعَمٌ جليلة متجهة من القاهرة إلى دمشق، أوائل سنة (٥٨٣هـ/١١٨٧م).

صدرت أوامر صلاح الدين فتدفقت الجيوش عليه من مصر والشام وديار بكر والموصل، واتجه صلاح الدين من دمشق نحو حوران ليخوض معركة من معارك الشرف، تمثلت بمعركة حطين حيث استطاع أن يحقق فيها نصراً على أكبر حركة استيطانية غربية شهدتها العصور الوسطى، واستطاع من خلالها أن يحرر المشرق العربي وأرضه بالذات من المجموعات البشرية التي غزته للبقاء فيه.

وتحقق حلم صلاح الدين بتحرير بيت المقدس ومعظم المناطق الساحلية، لقد كانت هذه المعركة هي المؤشر الأولي والأساسي لرفض استقرار الفرياء على هذه الأرض.

لم تستبد بصلاح الدين نشوة النصر، ولم تُبعدهُ عن خلقه الطيب المتسامح، وظل يعتبر الأرض المسلمة واستردادها أهم من محو من عليها من الأعداء، وكانت فكرة إجلائهم لا إبادتهم هي محور اهتمامه وسياسته.

لقد كانت سنة (٥٨٥هـ/١١٨٩م) سنة القلق الأعظم، بالنسبة لصلاح الدين حيث أن القوى التي جمعها في حطين، وفتح فيها فلسطين قد عادت إلى مواقعها، وبقيت معه بعض القوى التي كانت بدورها موزعة على حاميات المدن والقلاع المفتوحة.

وأصبح هم صلاح الدين الاحتفاظ بالمواقع المفتوحة لأن ذلك أيسر من الاستيلاء عليها ثانية. لقد تجلت بطولة صلاح الدين في أنه استطاع كسر التقليد العسكري السائد منذ قرون حيث استطاع أن يبقي حوله جيشاً دائم الحركة والحرب، لمجرد الولاء الشخصي له ومحبهته، واستطاع بالقدوة

والشجاعة والإخلاص للمبدأ والجهاد أن يرفع سوية التسليح الخلقي، ولم يكن ثمة توازن فيما بين قواه الثابتة أثناء هذه السنوات والتي كانت تتموج في أعدادها حسب أهواء الأمراء المشاركين معه، وبين الفرنج الذين جاءتهم في هذه الفترة نفسها نجدات ضخمة من مختلف أنحاء أوروبا انضمت إلى جانب قواهم المحلية. لقد كان لسقوط عكا بيد الفرنج سنة (٥٨٧هـ/١١٩١م) رنة الفجيمة العظيمة، لا بسبب أهميتها التجارية والاستراتيجية فحسب، ولكن بسبب ما قدّر المسلمون أنه سوف يتبعها من المصائب، ولهذا كان الدفاع الشرس والشديد الطويل عليها من المجاهدين.

إن حقيقة صلاح الدين تكمن في أنه انتصر في حطين وحرر القدس، وكان المفروض أن يتابع الكفاح حتى تتحرر البلاد كلها، لذلك قاتل صلاح الدين بعد حطين العدو خمس سنوات (٥٨٣هـ-٥٨٨هـ/١١٨٧م-١١٩٢م) وبذل صلاح الدين حياته الباقية في فلسطين ثم في شمال بلاد الشام، ثم أمام عكا، ثم في فلسطين مرة ثانية.

استطاع صلاح الدين رغم تقدم سنه الوقوف في وجه أكبر حملة صليبية عرفها التاريخ (الحملة الصليبية الثالثة) بكل عظمتها والتي امتد تاريخها ثلاث سنوات (٥٨٥هـ - ٥٨٨هـ / ١١٨٩م - ١١٩٢م) والتي تعتبر من أكبر الحملات الصليبية في عدد جيوشها وأساطيلها.

لقد فشلت هذه الحملة في تحقيق هدفها الأساسي، وهو استرداد الأماكن المقدسة في فلسطين من المسلمين، وإن استطاعت أن تسيطر على معظم شواطئ الشام.

إن الهدنة التي عقدت بين الصليبيين الفرنج وصلاح الدين والتي حررت في ٢٠ شعبان سنة (٥٨٨هـ/١١٩٢م) لا يفصلها عن وفاة صلاح الدين سوى ستة أشهر، قضى منها شهرين في القدس يزيد في تحصينها، ويبني بها عدداً من الأبنية

الدينية، وكذلك قام بتحصين مدن الساحل ثم رحل إلى دمشق لتكون آخر أيامه بها.

لقد ترك موت صلاح الدين فراغاً كبيراً لم يسده بعده لا في الخلق الأسمى ولا المبادئ ولا في الجهاد أحد من إخوته ولا أولاده، لأنه كان نموذجاً فريداً في كل الأمور كانوا أقزاماً أمام ذكره، فلم يشعر أحد منهم بالمدلة التي كان يشعر بها لاحتلال الفرنج أرض المسلمين، ولا قضى واحد منهم قرابة ثلاثين سنة من عمره على ظهر فرسه يحارب هؤلاء الأعداء، ولا شعر أحدٌ منهم بالإحباط الذي شعر به وهو يهادن مرغماً حين انفجرت في جسده أمراضه، ومضى، وأصبح على الأيام بطلاً ورمزاً.

ترك صلاح الدين خلفه دولةً مترامية الأطراف، وفراغاً ضخماً لم يستطع أحد من أبنائه السبعة عشر، أو إخوته، أو أبناء إخوته أن يملأه.

بدأت عوامل سقوط وتهاوي الدولة الأيوبية بعد وفاة صلاح الدين تظهر إلى حيز الوجود، وذلك على أثر حرب الوراثة التي نشبت بين أبناء البيت الأيوبي، حيث أغرت الأمانى الدنيوية، والمصالح الشخصية بعض ملوك بني أيوب فتنازعوا على السلطة، وعلى امتلاك الإقطاعات، وطمع ورثة صلاح الدين بمدينة دمشق لكونها كانت تمثل مركز الثقل في بلاد الشام، وبدأت الحروب بين أبناء صلاح الدين (الأفضل صاحب دمشق والعزيز صاحب مصر) وكانت نتائجها ذات آثار سلبية على دمشق، وذلك بسبب تعرضها للخراب والدمار من قبل المتحاربين، وعانى أهلها الكثير من ويلات هذه الحروب، حيث عمّ الفلاء والفقير فيها تلك الآونة، وكان المستفيد الوحيد من هذه الحروب الملك العادل صاحب الكرك، والأردن، والجزيرة، وديار بكر، والتي كانت تمثل بالنسبة له إقطاعات ثانوية إذا ما قيست بدمشق أو حلب أو مصر.

كان العادل يرجو أن يخلف أخاه صلاح الدين، وقد وصف ابن واصل الملك العادل بأنه كان «ذا مكر شديد وخديعة، صبوراً ذا أناة وتوذه» فلم يشأ أن يتعجل الحوادث عقب وفاة صلاح الدين وأخذ يتصرف بأناة ريثما تتضح الأمور. ومما يؤكد طمع العادل بوراثته أخيه صلاح الدين هو ذلك التصريح، الذي أدلى به على من حوله من الأمراء عندما سيطر على مصر عقب وفاة العزيز عثمان، وخلق الملك المنصور بن العزيز حيث قال: «إنه قبيح بي أن أكون أتاك صبي مع الشيوخوخة والتقدم، والمملك ليس هو بالإرث وإنما لمن غلب».

لم يرق العادل إلى مستوى صلاح الدين وإن استطاع أن يوحد مصر مع بلاد الشام حيث أن هدفه لم يكن يمثل الهدف الذي نهض من أجله صلاح الدين. إن هدف صلاح الدين كان واضحاً وليس هناك من أدنى شك به، وقد تمثل بالجهاد ضد الصليبيين، أما هدف العادل حسب المعطيات التاريخية فقد تجلى بمحاولة تملك البلاد فقط دون إعطاء حالة الجهاد ضد الصليبيين أي اهتمام، ويؤكد ذلك سقوط دمياط بيد الفرنجة في عهده رغم امتلاكه مصر والشام، لكنه لم يستطع أن يمتلك قلوب الرعية التي تُعتبر الأداة الكبرى لصد غارات وتعديات الصليبيين.

استطاع أبناء العادل (المعظم، والأشرف، والكامل) بعد وفاة أبيهم أن يشكّلوا حلفاً قوياً استطاع التصدي للصليبيين، وإلحاق الهزيمة بهم مما اضطرهم إلى توقيع معاهدة أواخر سنة (٦١٨هـ/١٢٢١م) مع الكامل الذي كان يسعى رغم وقوف إخوته إلى جانبه ضد الصليبيين إلى مهادنتهم والجلاء عن مصر مقابل إعطائهم بيت المقدس ومعظم القلاع الموجودة على ساحل بلاد الشام، وهذا يدل على مدى ضعف هذا الحلف وتخوف الكامل من إخوته لذلك قرر الاستغناء عن بيت المقدس مقابل وقوف الصليبيين إلى جانبه ضد إخوته، ورغم كل ذلك نستطيع القول أن التحالف الذي حصل بين أبناء العادل أدى إلى التغلب على الحملة الصليبية الخامسة واندحارها عن مصر.

وكما نوهت من قبل أن هذا التحالف كان هشاً بين الأخوة الثلاث لذا فسرعان ما انفرط عقده وبدأت المرحلة الأولى من الصراع بين أبناء العادل، وذلك في نهاية عام (٦٢٠هـ / ١٢٢٣م) وتعرضت دمشق ثانية للخراب والدمار من قبل المتحاربين. إن هذه المرحلة التي ظهرت بها الصراعات الأيوبية، كانت مرحلة خطيرة جداً على الأيوبيين حيث كانوا أحوج ما يكونوا إلى الاتحاد، في ذلك الوقت منهم من أي وقت مضى وذلك نتيجة ظهور خطر جديد تمثل بالخورازمية، وقد ظهر هذا الخطر الجديد نتيجة مباشرة لحركة التوسع المغولي بعد أن دمر المغول دولة الأتراك الخوارزمية سنة (٦١٨هـ / ١٢٢٠م).

على أن وجه الخطورة في الصراع الذي قام بين أبناء العادل هو أن الفريقين المتنازعين استمانا بقوى خارجية، فاستجد المعظم صاحب دمشق بالخورازمية، في حين استجد الملك الكامل صاحب مصر بالإمبراطور فردريك الثاني الذي قاد ما عُرف بالحملة الصليبية السادسة، وعلى ما يذكر المؤرخون إن قوام الحملة كان لا يتجاوز ستمائة جندي فقط. وكان من نتيجة ذلك تسليم بيت المقدس للصليبيين من قبل الكامل ذلك مقابل وقوف الصليبيين إلى جانبه ضد أخيه، ورغم وفاة أخيه قبل وصول الحملة فإن الكامل سلمهم المدينة دون حرب من أجل أن يضمن بقاءه على السلطة ويتوسع على حساب أراضي إخوته.

لقد كان إقدام الكامل على هذا العمل بمثابة وصمة عار لحقت به لأنه جعل الأراضي الإسلامية سواء في بلاد الشام أو مصر تبدو لقمة سائفة للصليبيين وغيرهم ممن يريد أن يسيطر على خيرات البلاد.

لقد تناسى الكامل تلك الدماء الإسلامية التي أريقَت من أجل استعادة بيت المقدس وباقي الحصون الإسلامية في بلاد الشام.

إن ما أقدم عليه الكامل من تحالفه مع الصليبيين، أفرز وضعاً جديداً تمثل بتخوف ملوك بني أيوب بالشام من الكامل، مما دفعهم إلى تشكيل تحالف جديد (الأشرف صاحب دمشق - وأسد الدين شيركوه صاحب حمص - وصفية

خاتون الوصية على حلب)، للنيل منه لكن هذا التحالف لم يفلح وذلك بسبب وفاة الركن الأساسي فيه المتمثل بصاحب دمشق الملك الأشرف سنة (٦٣٥هـ/١٢٣٨م) وبعد وفاة الأشرف اضطرت الأحوال ثانية في الشام، وعاد تأجج الصراع بين ملوك بني أيوب حيث حاول كل منهم أن يسيطر على ممتلكات الآخر.

عمّت فوضى شديدة في بلاد الشام نتيجة الصراع الذي دار بين الصالح إسماعيل صاحب دمشق، وبين الصالح أيوب، وقد شارك في هذا النزاع كسالف عهده بقية أفراد البيت لأيوبي في الشام، وزاد من تلك الفوضى أنها جاءت في الوقت الذي تعرضت فيه بلاد الشام لغزو جموع من الخوارزمية من ناحية، وتهديد المغول من ناحية ثانية، ثم وصول حملة صليبية جديدة من ناحية ثالثة.

وكان من الأجدى بالأيوبيين، وفي هذه المدة الزمنية بالذات أن يكونوا متحدين أكثر من أي وقت مضى حيث أن أعداءهم المترصين بهم أصبحوا كثر، لكن ابتعادهم عن حركة الجهاد وأطماعهم الدنيوية دفعهم للتحاسد فيما بينهم، وحاول كل منهم القضاء على الآخر بينما كان الأعداء يسرحون ويمرحون بحرية في بلاد المسلمين.

لقد شكّل استرداد بيت المقدس ثانية من قبل الناصر داود صاحب الأردن صدمة كبيرة للصليبيين الذين عملوا على التوجه إلى دمشق، بوصفها مركز الحركة الجهادية في بلاد الشام، لكن هذه الحملة فشلت عندما أقدم العادل الثاني بإرسال جيش أنزل الهزيمة بالصليبيين قرب غزة سنة (٦٣٧هـ/١٢٣٩م) وذلك قبل عزل العادل.

لقد أبت دمشق العروبة أن تكون في يوم من الأيام سنداً للأعداء تساندتهم ضد أبناء عروبتهما وهذا ما حدث عندما عمل الصالح إسماعيل على تسليم بيت المقدس وكثير من قلاع المسلمين في الشام للصليبيين من أجل النيل من الصالح

أيوب صاحب مصر حيث أن جيوش الصالح إسماعيل التي أعدت لمساندة الصليبيين في غزو مصر لم تقبل فكرة طعن إخوانهم المصريين، فانقلبت ضد الصالح إسماعيل وانضمت إلى جانب الجيش المصري ليشارك الجميع في مهاجمة الصليبيين الذين حلت بهم الهزيمة، وعاد الصراع من جديد بين الأيوبيين في الشام بقيادة الصالح إسماعيل والأيوبيين بمصر بقيادة الصالح أيوب حيث استعان الأول بالصليبيين واستعان الثاني بالخوارزمية الأمر الذي ترتب عليه تحول الموقف بالشام تحولاً جذرياً لصالح (الصالح أيوب) حيث استطاع مع حلفائه الخوارزمية من استعادة بيت المقدس من أيدي الصليبيين سنة (٦٤٢هـ/١٢٤٤م) وكانت هذه آخر مرة يستولي فيها المسلمون على بيت المقدس في عصر الحروب الصليبية إذ لم يقدر لجيش صليبي أن يدخلها بعد ذلك أبداً حتى الحرب العالمية الأولى.

استطاع الصالح أيوب بمساعدة الخوارزمية من تحقيق انتصار عظيم على الصليبيين في غزة سنة (٦٤٢هـ/١٢٤٤م) ولم يكن هذا الانتصار أمراً عادياً، بل كان أعظم كارثة حلت بالصليبيين بالشام منذ موقعة حطين، حيث أطلق المؤرخون على هذه المعركة اسم «حطين الثانية» بعد ذلك عمل الصالح أيوب على إلحاق الهزيمة بالخوارزمية الذين انقلبوا عليه وعملوا على مساندة الصالح إسماعيل، لقد أدرك الصالح أيوب خطورة وضع الخوارزمية في المنطقة لذلك رفض إقامتهم بدمشق، وكذلك عمل على إبعادهم عن مصر وبعد ذلك تمكن الصالح أيوب من ضم القلاع الصليبية إليه، ولم يبق للصليبيين سوى يافا، وعلى هذا استعادت الدولة الأيوبية وحدتها للمرة الثانية بعد صلاح الدين، وأصبح السلطان أيوب يمتلك دمشق وبيت المقدس فضلاً عن القاهرة، وأقام بدمشق سنة (٦٤٧هـ/١٢٤٩م). وإذا كان سقوط بيت المقدس في أيام صلاح الدين سنة (٥٨٣هـ/١١٨٧م) هو الذي بعث إلى قيام الحملة الصليبية الثالثة، فإن سقوطها في سنة (٦٤٢هـ/١٢٤٤م) في يد الصالح أيوب كان السبب الذي أدى إلى قدوم

الحملة الصليبية السابعة بقيادة لويس التاسع سنة (٦٤٧هـ / ١٢٤٥م) والتي باءت بالفشل.

لقد جهد الصالح أيوب حتى وهو على فراش الموت، في مقارعة الأعداء، وتنظيم شؤون الدفاع عن البلاد، وكانت وفاته نقطة البداية لانفصال مصر عن بلاد الشام وذلك بتحكم المماليك بأمراء بني أيوب فيها.

لم تكن دمشق بعيدة عن الأحداث التي كانت تجري بمصر حيث أنها كانت تشكل معها دولة واحدة وعلى أثر وفاة الصالح أيوب، وفي خضم الأحداث التي كانت تحصد الأيوبيين بمصر، تملك الناصر يوسف بن العزيز محمد بن الظاهر صاحب حلب دمشق، لكن الناصر لم يستطع حماية أملاك أجداده في بلاد الشام، وذلك بسبب أطماعه التي بدت واضحة كل الوضوح بمحاولته ضم مصر إليه مما أثار الصراع ثانية بينه وبين مماليك مصر، لكن تدخل الخلافة العباسية بين الطرفين أوقفت الصراع بينهما، وذلك سنة (٦٥١هـ / ١٢٥٢م) واكتفى كل منهما بما بين يديه من البلاد.

ولم يكن تدخل الخليفة العباسي المستعصم في ذلك الوقت هدفه إيقاف التغفل الصليبي في شؤون المشرق العربي فحسب، بل كان غرضه أيضاً توحيد الجهد، لتكوين جبهة إسلامية أمام خطر جديد أشد من الخطر الصليبي وهو الخطر المغولي.

لقد كان لهذه الأحداث انعكاساتها السلبية على الوضع العام في دمشق، حيث بدأ التخلف عن الركب الحضاري واضحاً، كما عملت الحروب الداخلية التي ظهرت بين الأيوبيين على إضعاف تلك القدرة العسكرية التي كانوا يواجهون بها الأعداء. وعلى أثر ذلك طمع الأعداء بالأيوبيين نتيجة فرقتهم، وأضحت البلاد التي كانوا يحكمونها عرضة للنهب لكل طامع، وأخذت بوادر الانحطاط تخيم على دولة بني أيوب في دمشق.

لقد خلقت الصراعات الأيوبية على دمشق وضعاً جديداً داخل البلاد، حيث انقلبت تلك الصورة الجميلة التي كان يتفنى بها أهالي دمشق، تلك الصورة التي رسمها صلاح الدين والتي من خلالها عمل على إنصاف الرعية، وتأمين كل متطلباتها على الرغم من انشغاله بحروبه، حروب التحرير، لذلك تقانى الناس في دمشق وسائر بلاد الشام في الدفاع عن البلاد، وبذلوا كل غالي ونفيس في سبيل ذلك.

أما بعد صلاح الدين فقد تغيّرت الأمور، حيث أصبح بعض أمراء بين أيوب يستعينون بأعدائهم الصليبيين من أجل إحراز نصر على بعضهم بعضاً، ويتخلون عن الأراضي التي حررت بدماء الشعب، كل ذلك مقابل تقديم معونة بسيطة من قبل الأعداء على إخوتهم.

على الرغم مما عانته دمشق الأيوبية من أحداث ألت بها بقيت هذه المدينة تحتفظ بجانب كبير من حيويتها ونشاطها، وأخص بالذكر الجانب الاجتماعي، والجانب الفكري الذي لم يكن مرتبطاً بالسلطة السياسية، رغم وجود عدد كبير من سلاطين بني أيوب الذين عملوا على تشجيع الناحية الفكرية، حيث أضحت مدارس دمشق منارات علم لكل من يريد أن يقتبس منها، سواءً في أيام السلم أو زمن الحرب، وأثبتت دمشق بأنها لن تستكين ولن ترضخ رغم كل الظروف التي فرضت عليها حيث سرعان ما كانت تدبّ بها الحياة بعد كل حدث كان يلمّ بها وتستعيد وتنهض، من جديد لتعاود نشاطها. اتصفت الحياة الاجتماعية بدمشق في عهد الأيوبيين بطابع الجهاد، والكفاح، وكان أثر ذلك يبدو واضحاً في أزياء وملابس وأطعمة الأيوبيين، حيث امتاز المجتمع في عهدهم بعدم البذخ، هذا وقد اعتاد أبناء المجتمع تقليد حكامهم حتى في حياتهم اليومية، وها هي حياة صلاح الدين التي سبق وأشرنا إليها كانت حياة تقشف ولا يشغل باله سوى الجهاد في سبيل الله وطرد المقتصبين عن أرض الوطن، لقد كان لحركة الجهاد تأثيراً مدوياً على الناحية

الاجتماعية، حيث دعت هذه الحركة إلى إسلام سلفي، دون بدع ولا مد، كما أن الوضع الذي كان يعيشه المجتمع فرض على الحكام والناس بأن واحد الاهتمام بأمر دينهم، والتعمق فيه، ويدل على ذلك كثرة المصلين والمتعبدين، وكثرة المؤسسات الدينية سواء المساجد أو المدارس أو الزوايا والريط والخانقاوات، وكثرة مجالس الوعظ التي كانت تقام في المساجد من أجل إرشاد الناس. ويبدو أيضاً أن المرأة في عهد الأيوبيين نالت حظاً وافراً في حياتها الاجتماعية حيث شغلت دوراً كبيراً، كأم، ومعلمة، ومجاهدة، حتى أن بعض النساء وصلن إلى مرتبة العلماء.

كما كان لانعكاس تجربة الفتوة التي تطورت في عهد الخليفة الناصر، على الأوساط، الشعبية بدمشق بعد أن سلك طريقها السلطان العادل وأولاده، لدليل واضح على تقليد أفراد المجتمع لسلاطينهم. لقد وجدت الأوساط الشعبية من تجربة الفتوة عنصر إجابة على أسئلة خاصة ذاتية، وهذا يحد ذاته أحدث تلاقٍ بين هذه التجربة، وبين أوساط الصوفيين، حيث أن الصوفية الفردية أخذت تتحول إلى صوفية تجمعات أو على الأقل إلى صوفية حياة جماعية.

لقد عانى الفلاح بدمشق زمن الأيوبيين سواءً خلال الحروب مع الفرنج أو الحروب الأهلية الكثير الكثير من الويلات، كما أن الفلاح تعرض للابتزاز من قبل جباة الضرائب والمقطعين، وخاصة عندما تغيب عين الرقابة عنهم.

إن ما سببته الحروب الصليبية، والحروب الأهلية من خراب للقري وإحراق للغلال ومصادرة للأهالي، كانت نتائجها ذو وقع كبير على الناحية الاجتماعية من حيث ارتفاع أسعار المواد، وانتشار المجاعات.

ورغم كل ذلك كانت دمشق تتبض بالحياة مع كل المنغصات التي تعرضت إليها وتنهض من جديد، وهذا يبدو لنا واضحاً من خلال نهضتها العلمية التي تعتبر ركن هام من أركان الحياة الاجتماعية، كما أن حركة البناء التي شهدتها دمشق خلال عهد الأيوبيين منذ بداية الدولة وحتى سقوطها تعتبر مؤشراً

هاماً على حيوية هذه المدينة وعدم تأثرها بتلك الأحداث التي ألمت بها سواء من خلال الحروب الصليبية أو الحروب الأهلية، ومع كل ذلك فقد جهد الأيوبيون بالعناية بكل مرافق الحياة الاجتماعية التي تومن الراحة لأبناء المجتمع، كما انصب اهتمامهم على العناية والرعاية بالأغراب والفقراء والأيتام، كما اهتموا ببناء البيمارستانات، وعملوا على تأمين كل متطلباتها.

ومع كل ذلك لم يحافظ حكام دمشق الأيوبيون في آخر عهودهم على دمشق وما عملته من تراث، بل تخلوا عنها وتركوها عرضة لهمجية المغول، حيث انسحب الناصر يوسف الأيوبي الثاني مع معظم أفراد أسرته من دمشق، فور وصوله خبر زحف المغول إليها.

وتركها تعاني مصيرها بنفسها، مما دفع بهذه المدينة إلى التسليم بدون قتال، لكون أهلها كانوا منهكين نتيجة تلك الأحداث التي ألمت بهم من قبل المتحاربين على السلطة من الأيوبيين، وعلى الرغم من كل ذلك بقيت دمشق تحتفظ بجانب كبير من الحيوية، والإمكانات السياسية وسوى ذلك، حيث أنه بعد طرد المغول منها على أثر هزيمتهم أمام جيوش المماليك في معركة «عين جالوت» قامت دمشق بدور كبير ضد المغول في بلاد الشام.

المصادر والمراجع

المصادر العربية

- ١ - ابن الأثير: علي بن محمد الجزري، الملقب بعز الدين (ت ٦٣٠هـ/١٢٣٢م)
الكامل في التاريخ طبعة دار صادر بيروت (١٤٠٢هـ/١٩٨٢م)
التاريخ الباهر في الدولة الأتابكية في الموصل - تحقيق عبد القادر أحمد
طليمات القاهرة ١٩٦٣م.
الجامع الكبير في صناعة المنظوم من الكلام.
- ٢ - ابن الأثير: نصر الله بن محمد بن عبد الكريم الملقب بضياء الدين.
المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر ط مطبعة البابي الحلبي - القاهرة
١٩٣٩م.
- ٣ - الأسدي: محمد بن خليل الأسدي
التيسير والاعتبار والتحرير والاختيار فيما يجب من حسن التدبير والتصرف
والاختيار - تحقيق د. عبد القادر أحمد طليمات دارا لفكر العربي ١٩٦٧.
٤ - الإدريسي: أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن إدريس الحمودي الحسني
(ت ٥٦٠هـ/ ١١٦٤م).
نزهة المشتاق في اختراق الآفاق «المعهد الفرنسي».
- ٥ - الاصطخري: أبو إسحق إبراهيم بن محمد الفارسي (ت في النصف الأول
من القرن الرابع الهجري).
المسالك والممالك - تحقيق محمد جابر بن عبد العال الحسني - ومحمد شفيق
غريال - القاهرة ١٩٦١.

- ٦ . الأصبهاني: محمد بن محمد عماد الكاتب (٥١٩ / ٥٩٧ هـ - ١١٢٤ / ١٢٠١ م):
- الفتح القسي في الفتح القدسي تحقيق وشرح وتقديم محمد محمود صبح
القاهرة ١٩٦٥.
- ديوان العماد ، الأصفهاني.
- خريدة القصر وجريدة العصر قسم شعراء الشام ج١ تحقيق د. شكري
فيصل المطبعة الهاشمية ١٣٧٥ هـ / ١٩٩٥ م ج٣ - ١٣٨٣ هـ / ١٩٦٤ م:
- البستان الجامع.
- تاريخ دولة آل سلجوق.
- ٧ . الأنطاكي: يحيى بن سعيد (ت في القرن الخامس الهجري)
- التاريخ المجموع على التحقيق والتصديق.
- ٨ . الأماجد الأيوبي: أبو محمد الحسن بن الملك الناصر داود (ت ٦٦٠ هـ /
١٢٦٢ م).
- الفوائد الجليلة في الفرائد الناصرية «نسب الأيوبيين» - تحقيق د. صلاح
الدين المنجد - دار الكتاب الجديد بيروت (١٣٩٨ هـ / ١٩٧٨ م).
- ٩ . ابن أبي أصيبعة: موفق الدين أبو العباس أحمد بن القاسم (ت ٦٦٨ هـ /
١٢٧٠ م)
- عيون الأنباء في طبقات الأطباء - بيروت دار الثقافة ١٩٧٨.
- ١٠ . ابن بسام: محمد بن أحمد (ت بعد ٨٨٤ هـ / ١٤٧٩ م).
- نهاية الرتبة في طلب الحسبة - تحقيق حسام الدين السامرائي بغداد ١٩٦٨
مطابع المعارف.
- ١١ . ابن بطوطة: أبو عبد الله محمد (ت ٧٧٩ هـ / ١٣٧٧ م):
تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار - دار التحرير المصرية
(١٣٨٦ هـ / ١٩٦٦ م).

- ١٢- البنداري: أبو إبراهيم، قوام الدين الفتح بن علي (٥٦٢هـ / ٦٤٣هـ،
١١٦٦ - ١٢٤٥م):
- سنا البرق الشامي (مختصر البرق الشامي للعماد الأصفهاني) تحقيق د.
فتحية مكتبة الخانجي بمصر ١٩٧٢م.
- ١٣- ابن تفردي بردي: أبو المحاسن جمال الدين بن يوسف (ت ٧٨٤هـ /
١٤٦٥م)
- النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة - دار الكتاب المصرية ١٩٦٣.
- ١٤- التنوخي: أبو علي المحسن بن علي (ت ٣٨٤هـ / ٩٩٤م)
- نشوة المحاضرة وأخبار المذاكرة - أو جامع التواريخ تحقيق عبود الشالجي -
بيروت (١٣٩١هـ / ١٩٧١م).
- الفرغ بعد الشدة - تحقيق عبود الشالجي القاهرة (١٣٧٥هـ / ١٩٥٥م).
- ١٥- ابن تيمية: تقي الدين الحراني (٧٢٨هـ - ١٣٢٧م)
- الحسبة ومسؤولية الحكومة الإسلامية - مطابع شركة الإعلانات
الشرطية.
- ١٦- الثعالبي: أبو منصور عبد الملك بن محمد إسماعيل (ت ٤٢٩هـ / ١٠٢٨م)
- لطائف المعارف - تحقيق إبراهيم الإبياري وحسن كامل الصيرفي دار إحياء
الكتب العربية (١٣٧٩هـ / ١٩٦٠م).
- يتيمة الدهر.
- ١٧- الجاحظ: أبو عثمان عمرو بن بحر (ت ٢٥٥هـ / ٨٦٩م)
- كتاب التبصر بالتجارة - تحقيق حسن حسني عبد الوهاب بيروت ١٩٦٦م.
- الدلائل والاعتبار في الخلق والتدبير.
- الحيوان - القاهرة (١٣٥٧ - ١٩٣٨م).
- ١٨- ابن جبير: محمد بن أحمد الأندلسي (٥٣٩ - ٦١٤هـ / ١١٤٤ - ١٢١٧م)

- تذكرة بالأخبار عن اتفاقات الأسفار (رحلة ابن جبير) صادر للطباعة والنشر بيروت (١٣٣٩هـ / ١٩٥٩م).
- ١٩- حاجي خليفة: مصطفى بن عبد الله.
- كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، مجلد ١ و٢، طبعة دار الفكر ١٩٨٢ وطبعة ليبزغ ١٨٣٧
- ٢٠- الحموي: أحمد بن محمد.
- النفحات المسكية في صناعة الفروسية.
- ٢١- الحموي (ابن نظيف): أبو الفضائل محمد بن علي بن نظيف (ت ٦٣١/١٢٣٤م):
- التاريخ المنصوري - تحقيق د. أبو العيد دودو - مراجعة عدنان درويش - مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق (١٤٢٢هـ / ١٩٨٢م).
- ٢٢- الحموي: ابن حجة، الشيخ تقي الدين أبو بكر بن علي (ت ٨٣٧/١٤٣٤م):
- ثمرات الأوراق فيما طاب من نوادر الأدب وراق، طبعة أولى مصر (١٣١٢هـ / ١٩٠٥م).
- ٢٣- الحموي (ابن واصل): جمال الدين محمد بن سالم (ت ٦٩٧هـ / ١٢٩٩م):
- مفرج الكروب في أخبار بني أيوب - تحقيق جمال الدين الشيال جامعة فواد الأول ١٩٥٣.
- التاريخ الصالحي.
- عهد صلاح الدين الأيوبي، نشره لأول مرة عن مخطوط كمبردج وباريس واستامبول / حققه وعلق حواشيه وقدم له د. جمال الدين الشيال مطبوعات - إدارة إحياء التراث القديم - وزارة التربية والتعليم المصرية - إدارة الثقافة العامة المطبعة الأميرية بالقاهرة - ١٩٥٠.
- ٢٤- الحموي (ياقوت): شهاب الدين أبو عبد الله (ت ٦٢٦هـ / ١٢٢٩م):

- معجم البلدان - دار صادر - بيروت (١٤٠٤هـ / ١٩٨٤م).
- إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب (معجم الأديب) القاهرة ١٩٢٧م.
- ٢٥ - الحنبلي: أحمد بن إبراهيم (ت ٨٧٦هـ / ١٤٧٨م).
- شفاء القلوب في مناقب بني أيوب - تحقيق ناظم رشيد بغداد - ١٩٧٨م.
- ٢٦ - الحنبلي: مجير الدين (ت ٩٢٧ - ٩٢٨هـ / ١٥٢١ - ١٥٢٢م)
- الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل - دار الجيل بيروت ١٩٧٣.
- ٢٧ - ابن حوقل: أبو القاسم محمد بن حوقل النصيبى (ت أواخر القرن الرابع الهجري)
- صورة الأرض: طبعة ثانية - قسم أول - ليدن ١٩٣٨.
- ٢٨ - ابن خرداذبة: أبو القاسم عبد الله بن عبد الله (ت حوالي ٣٠٠هـ / ٩١٣م).
- المسالك والممالك - ليدن (١٣٠٦هـ / ١٨٨٩م)
- ٢٩ - خسرو: أبو المعين ناصر (ت ٤٨١هـ / ١٠٨٧م)
- سفرنامه - نقله إلى العربية - يحيى الخشاب ط أولى القاهرة (١٣٦٥هـ / ١٩٤٥م)
- المحاسن اليوسفية.
- ٣٠ - ابن خطيب الناصرية: أبو الحسن علاء الدين محمد بن سعيد بن علي (ت ٨٤٣هـ / ١٤٤٠م)
- الدر المنتخب في تكملة تاريخ حلب - نسخة مصورة عن المخطوط رقم ١٢١٤ وقف مدرسة الأحمدية بمدينة حلب.
- ٣١ - ابن خلدون: عبد الرحمن بن محمد (٨٠٨هـ / ١٤٠٥م)
- مقدمة: دار التحرير المصرية (١٣٨٦هـ / ١٩٦٦م)
- العبر وديوان المبتدأ والخبر، منشورات مؤسسة الأعلمي - بيروت (١٣٩١هـ / ١٩٧١م)

- ٣٢- ابن خلكان: أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن أبي بكر
(٦٨١هـ / ١٢٨٢م)
- وفيات الأعيان - تحقيق إحسان عباس - بيروت ١٩٦٩.
- ٣٣- الخوارزمي: أبو عبد الله بن أحمد بن يوسف الكاتب (ت ٣٨٣هـ)
- رسائل الخوارزمي.
- ٣٤- الداوداري: أبو بكر عبد الله بن أيك (ت ٧٣٦هـ / ١٣٦٣م)
- كنز الدرر وجامع الفرر - ج ١ تحقيق بيراند ركله القاهرة.
- الدر المطلوب في أخبار بني أيوب، تحقيق سعيد عبد الفتاح عاشور القاهرة
١٩٧٢م.
- ٣٥- ابن أبي الدم: إبراهيم (ت ٦٤٢هـ).
- تاريخ ابن أبي الدم - مخطوطة - البودليان - مارش ٦٠.
- ٣٦- الدمشقي: أبو البقاء عبد الله بن محمد البدري المصري الدمشقي (ت
٨٨٧هـ / ١٤٨٢م)
- نزهة الأنام في محاسن الشام - القاهرة (١٣٤١هـ / ١٩٢٣م)
- ٣٧- الدمشقي: أبو الفضل جعفر بن علي الدمشقي - عاش في القرن السادس
الهجري / الثاني عشر الميلادي.
- الإشارة إلى محاسن التجارة - القاهرة (١٣١٨هـ / ١٩٠٠م)
- ٣٨- الدمشقي: شيخ الريوة شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أبي طالب
الأنصاري (ت ٧٢٧هـ / ١٣٢٧م).
- نخبة الدهر في عجائب البر والبحر - بطرسبرغ (١٢٨١هـ / ١٨٦٥م).
- ٣٩- الدمشقي: زين الدين عبد الرحيم بن عمر الدمشقي المعروف بالجويري.
- المختار في كشف الأسرار (كشف أسرار المحتالين).
- ٤٠- الذهبي: شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان (ت ٧٤٨هـ).
- دول الإسلام تحقيق فهم شلتوت - محمد مصطفى إبراهيم القاهرة ١٩٧٤.

- العبر في خبر من غير - تحقيق صلاح الدين المنجد ط ٢ ١٩٨٤ .
- سير أعلام النبلاء ج ١ ط مؤسسة الرسالة بيروت ١٩٨١ م - ١٩٨٥ .
- ٤١- الزيبيدي: المرتضى (ت ١٩٥ هـ / ١٨٠١ م)
- ترويح القلوب في ذكر ملوك بني أيوب - تحقيق د. صلاح المنجد - مطبوعات مجمع اللغة العربية دمشق (١٣٩١ هـ - ١٩٧١ م).
- ٤٢- ابن الزيات: محمد بن ناصر الدين الأنصاري.
- الكواكب السيارة في ترتيب الزيارة طبعة مصورة مكتبة المثنى بغداد.
- ٤٣- السبكي: تاج الدين أبو النصر عبد الوهاب (ت ٧٧١ هـ / ١٣٦٩ م)
- طبقات الشافعية الكبرى (١٣٢٤ هـ / ١٩٠٦ م).
- معيد النعم ومبيد النقم - الإصلاح السياسي والإداري في الدولة الإسلامية ط ١ سنة ١٩٨٣ - حقوق الطبع محفوظة لدار الحداثة.
- ٤٤- السيوطي: عبد الرحمن بن أبي بكر.
- حسن المحاضرة في أخبار ملوك مصر والقاهرة ١٩٧٩ م.
- بغية الوعاة - تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ط ٢.
- ٤٥- أبو شامة: شهاب الدين عبد الرحمن بن إسماعيل بن إبراهيم المقدسي
الدمشقي: (ت: ٦٦٥ هـ / ١٢٦٧ م).
- كتاب الروضتين في أخبار الدولتين - القاهرة - ١٩٥٦ ج ١ قسم ثاني.
- ذيل الروضتين.
- ٤٦ - ابن الشحنة: أبو الفضل محب الدين محمد بن الشحنة (ت ٨٩٠ هـ / ١٤٨٥ م).
- الدر المنتخب في تاريخ مملكة حلب - سلسلة تواريخ المدن السورية رقم ١ /
- تقديم عبد الله محمد الدرويش - دار الكتاب العربي (دمشق ١٤٠٤ هـ / ١٩٨٤ م).
- ٤٧ - ابن شداد: بهاء الدين يوسف (ت ٦٣٢ هـ / ١٢٣٤ م).

. النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية - نشرة جمال الدين الشيال القاهرة

١٩٦٤م.

(سيرة صلاح الدين الأيوبي).

- من النوادر السلطانية - منشورات وزارة الثقافة والإرشاد القومي اختار

الصنوص وقدم لها محمود درويش ١٩٧٩.

٤٨ - ابن شداد: أبو عبد الله عز الدين محمد بن علي بن إبراهيم الحلبي (ت

٦٨٤هـ / ١٣٨٥م)

. الأعلام الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة - تحقيق سامي الدهان

(١٣٨٢هـ / ١٩٦٢م).

٤٩ - الشيزري: عبد الرحمن بن نصر (ت ٥٨٩هـ / ١١٩٣م).

- نهاية الرتبة في طلب الحسبة - تحقيق السيد الباز العريني - دار الثقافة بيروت

لبنان ١٩٦٩.

٥٠ - إخوان الصفا: من أواسط القرن الرابع الهجري.

- رسائل إخوان الصفا وخلان الوفا - بيروت ١٩٥٧.

٥١ - الطبري: أبو جعفر - محمد بن جرير (ت ٣٢٠هـ / ١٩٢٢م)

- تاريخ الرسل والملوك - عشرة أجزاء تحقيق محمد أبو الفضل - القاهرة

(١٩٦٨م - ١٩٧١م).

٥٢- الطرسوسي: مرضي بن علي بن مرضي الطرسوسي (ت ٥٨٩هـ /

١١٩٣م).

- موسوعة الأسلحة القديمة تحقيق كارين صادر - دار صادر بيروت.

٥٣- ابن طولون: شمس الدين محمد بن علي (ت ٩٣٥هـ / ١٥٢٨م).

- مفاكحة الخلان في حوادث تاريخ مصر والشام - تحقيق محمد مصطفى -

المؤسسة المصرية للطباعة والنشر القاهرة ١٩٦٢.

- قضاة دمشق.

- الثغر البسام في ذكر من ولي قضاء الشام.
٥٤. ابن عبد الهادي: جمال الدين يوسف بن حسن (ت ٩٠٩هـ / ١٥٠٤م).
- غدق الأفكار في ذكر الأنهار - تحقيق صلاح خيمي - بدون تاريخ.
٥٥. عرقله: حسان بن نمير الشهير عرقله الكلبى (ت ٥٦٧هـ / ١١٧١م).
- ديوان عرقله الكلبى - تحقيق أحمد الجندي - دار صادر بيروت ط ١٩٩٢.
٥٦. ابن العديم: كمال الدين (ت ٦٦٠هـ / ١٢٦٢م).
- بغية الطلب في تاريخ حلب - طبعة دمشق ١٩٨٩ تحقيق د. سهيل زكار.
٥٧. ابن عساكر: أبو القاسم - ثقة الدين علي بن الحسين (ت ٥٧١هـ / ١١٧٦م).
- تاريخ دمشق الكبير.
٥٨. العظيبي: أبو عبد الله محمد بن الرئيس أبي الحسن علي بن محمد بن أحمد التتوخي (ت بعد سنة ٥٥٨هـ).
- تاريخ العظيبي.
٥٩. العلموني: عبد الباسط.
- مختصر تنبيه الطالب وإرشاد الدارس إلى أحوال دور القرآن والحديث والمدارس، تحقيق صلاح الدين منجد دمشق ١٩٤٧.
٦٠. ابن العماد: عبد الحي.
- شذرات الذهب في أخبار من ذهب دار المسيرة - بيروت ط ٢، ١٩٧٩م.
٦١. العمري: شهاب الدين أحمد بن فضل الله (ت ٧٤٢هـ / ١٣٤١م).
- مسالك الأبصار وممالك الأمصار ج ١ - تحقيق أحمد زكي باشا القاهرة (١٣٤٢هـ - ١٩٢٤م).
٦٢. العمري: القاضي ابن فضل الله العمري شهاب الدين أحمد بن يحيى (٧٠٠هـ / ٧٤٩هـ).
- التعريف بالمصطلح الشريف - تحقيق محمد حسين شمس الدين - دار الكتب العلمية - بيروت - لبنان ١٩٨٨.
- ٦٣ - ابن العميد: جرجس بن العميد بن الياس (ت ٦٧٢هـ).

. أخبار الأيوبيين.

٦٤ . ابن عنين: شرف الدين أبو المحاسن محمد بن نصر الله بن نصر بن

مكارم الأنصاري الدمشقي.

. ديوان ابن عنين طبع المجمع العلمي والأدبي.

٦٥ . العيني: محمود بن أحمد البدر العيني.

. عقد الجمان من تاريخ أهل الزمان تحقيق د. سهيل زكار.

٦٦ . الفارقي: أحمد بن يوسف بن علي بن الأزرق الفارقي.

. تاريخ الفارقي - حققه وقدم له د. بدوي عبد اللطيف عوض - دار الكتاب

بيروت ١٩٧٤م.

٦٧ . أبو الفداء: الملك المرشد عماد الدين إسماعيل بن عمر صاحب حماة (ت ٧٣٢هـ /

١٣٣١م).

. تقويم البلدان - باريس ١٨٦٠م.

. المختصر في أخبار البشر - القسطنطينية (١٢٨٦هـ / ١٨٦٣م).

٦٨ . ابن الفرات: ناصر الدين بن محمد بن عبد الرحيم (ت ٨٠٧هـ / ١٤٠٤م).

. تاريخ الدول والملوك - أو تاريخ ابن الفرات - الأجزاء ٧ - ٨ - ٩. تحقيق

قسطنطين زريق - ونجلاء عز الدين - بيروت ١٩٣٩ - ١٩٤٢م - المجلد ٤ - ٥. تحقيق

د. حسن محمد الشماخ (١٣٨٦هـ / ١٩٦٧م) البصرة - العراق.

٦٩ . ابن الفقيه: أبو بكر أحمد بن محمد (ت ٢٩٠هـ / ٩٠٣م).

. مختصر تاريخ البلدان - نشوه دي غويه - طبعة ليدن (١٣٠٢هـ / ١٨٨٥م).

٧٠ . القاسمي: محمد سعيد

. قاموس الصناعات الشامية - المسمى بدائع الغرف في الصناعة والحرف

تحقق ظافر القاسمي - لاهاي ١٩٦٠م.

٧١ . ابن قاضي شبهة: بدر الدين (ت ٨٥١هـ / ١٤٥٣م).

- . الكواكب الدرية في السيرة النورية (تاريخ السلطان نور الدين محمود بن زكي) تحقيق محمد زيدان . دار الكتاب الجديد . بيروت ١٩٧١ .
٧٢. القرشي: محمد بن محمد بن أحمد «ابن الأخوة» (٦٤٨هـ / ١٢٥٠م) (٧٢٩هـ / ١٣٢٩م).
 - معالم القرية في أحكام الحسبة . تحقيق د. محمد محمود شعبان صديق،
 وأحمد عيسى المصيص . الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٦م.
- ٧٣ . قزا أوغلي: شمس الدين أبو المظفر يوسف بن قزا أوغلي (سيط ابن الجوزي) (ت ٦٥٤هـ / ١٢٥٦م).
- مرآة الزمان في تاريخ الأعيان . قسم ١ وقائع سنة ٤٩٠ . ٥٨٩هـ .
 وقائع ٥٩٠هـ / ٦٥٤م ط أولى سنة ١٣٧هـ / ١٩٥٢م .
٧٤. القزويني: زكريا بن محمد (ت ٦٨٢هـ / ١٢٨٣م).
 - آثار البلاد وأخبار العباد . دار صادر بيروت ١٩٦٠م .
- ٧٥- القشيري: أحمد بن سعيد بن عبد الرحيم بن إبراهيم (ت ٣٣٤هـ / ٩٤٥م).
- تاريخ الرقة ومن نزل بها من أصحاب رسول الله ﷺ والتابعين والقضاة والمحدثين . تحقيق طاهر النعساني حماة (٣٧٨هـ / ١٩٥٩م) [الرسالة القشيرية].
- ٧٦- ابن القلانسي: أبو يعلى حمزة بن أسد بن علي بن محمد التميمي المعروف بابن القلانسي (ت ٥٥٥هـ / ١١٦٠م).
 - تاريخ دمشق . تحقيق د. سهيل زكار . دار حسان للطباعة والنشر دمشق ١٩٨٣ .
٧٧. القلقشندي: أبو العباس أحمد بن علي (ت ٨٢١هـ / ١٤١٨م)
 - صبح الأعشى في صناعة الإنشاء (نسخة مصورة عن الطبعة الأميرية) وزارة الثقافة والإرشاد القومي . المؤسسة المصرية للطباعة والنشر القاهرة (١٣٨٣هـ / ١٩٦٣م).

- من كتاب صبح الأعشى - اختار النصوص وعلق عليها وقدم لها - عبد القادر زكار - منشورات وزارة الثقافة والإرشاد القومي دمشق ١٩٨٣ م.
- قلائد الجمان في التعريف بقبائل عرب الزمان تحقيق إبراهيم الإبيباري - دار الكتاب العربي ط٢ سنة ١٩٨٠.
٧٨. ابن كثير؛ عماد الدين إسماعيل بن عمر (ت ٧٧٢هـ / ١٣٧٢م)
- البداية والنهاية طبعة جديدة ومنقحة ١٣٩٨هـ / ١٩٧٨م.
٧٩. الماوردي: أبو الحسن علي بن محمد بن حبيب (ت ٤٥٠هـ / ١٠٥٨م)
- الأحكام السلطانية - طبعة أنجر بونا ١٨٥٣م.
- ٨٠ - ابن محزومة:
- قلادة النحر في وفيات الدهر.
- ٨١ - المسعودي: أبو الحسن علي بن الحسين (ت ٣٤٦هـ / ٩٥٧م).
- مروج الذهب ومعادن الجوهر.
- التتبيه والإشراف - بيروت ١٩٦٨.
- ٨٢ - مسكويه: أبو علي أحمد بن محمد (ت ٤٢١هـ / ١٠٣٠م)
- تجارب الأمم وتعاقب الهمم - نشر باعتناء آمد روز - ومرجليوث - القاهرة وأكسفورد (١٩٢٠ - ١٩٢١م).
- ٨٣ - المقدسي: شمس الدين أبو عبد الله، محمد بن أحمد المقدسي (ت ٣٨٧هـ / ٩٩٧م).
- أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم - ليدن ١٩٠٦.
- ٨٤ - المقرئ: تقي الدين أحمد بن علي (ت ٨٤٥هـ / ١٤٤١م)
- إغاثة الأمة بكشف الغمة - طبعة دار ابن الوليد ١٩٥٦م.
- النقود الإسلامية (شذوذ العقود في ذكر النقود) تحقيق محمد السيد - بحر العلوم - النجف (١٣٨٧هـ / ١٩٦٧م)
- المواعظ والاعتبار في ذكر الخطط والآثار - دار التحرير المصرية ١٩٦٧م - ١٩٦٨.

- السلوك لمعرفة دول الملوك نشره زيادة القاهرة ١٩٤٣.
- اتعاض الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفاء - نشره الشيال القاهرة ١٩٤٨.
- ٨٥ - ابن مماتي: الأسعد بن مماتي (ت ٦٠٦هـ / ١٢٠٩م).
- قوانين الدواوين - جمع وتحقيق عزيز سوريال - مصر ١٩٤٣.
- ٨٦ - المنادي: محمد عبد الرؤوف (ت ١٠٣٠هـ / ١٦٢٢م).
- النقود والمكايل والموازن - تحقيق رجاء محمود السامرائي - منشورات وزارة الثقافة والإعلام - الجمهورية العراقية ١٩٨١.
- ٨٧ - منقذ: سامة بن منقذ (مؤيد الدولة أبو مظفر أسامة بن مرشد الكناني الشيرزي)
- الاعتبار - تحرير فيليب حتي - مطبعة جامعة مرنستون - الولايات المتحدة ١٩٣٠.
- ٨٨ - المهلبى: الحسن بن أحمد المهلبى (ت ٣٨٠هـ / ٩٩٠م).
- المسالك والممالك قطعة من كتاب مفقود - مجلة معهد المخطوطات العربية المجلد الرابع الجزء الأول - سنة ١٩٥٨.
- ٨٩ - مؤلف مجهول:
- المقصد الرفيع المنشأ الهادي إلى صناعة الإنشاء - تحقيق ودراسة خليل شحادة جامعة القديس يوسف - بيروت ١٩٨٨.
- ٩٠ - النهائي: يوسف بن إسماعيل.
- جامع كرامات الأولياء ط بيروت دار صادر ج ٢.
- ٩١ - النعيمي: عبد القادر بن محمد (ت ٩٢٧هـ / ١٥٢٠م).
- المدارس في تاريخ المدارس - تحقيق جعفر الحسني دمشق (١٣٦٠هـ / ١٩٤٨م).
- ٩٢ - النويري: شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب (ت ٧٣٣هـ / ١٣٣٣م).

- نهاية الأرب في فنون الأدب - المطبوع ٢٨ جزءاً ، - نسخة مصورة عن طبعة دار الكتب - وزارة الثقافة والإرشاد القومي - بدون تاريخ.
- ٩٣ - ابن أبي الهيجاء:
- من تاريخ ابن أبي الهيجاء - الموسوعة الشامية.
- ٩٤ - ابن الوردي: سراج الدين عمر بن مظفر بن محمد (ت ٧٤٩هـ / ١٣٤٨م).
- تتمة المختصر في أخبار البشر (أو تاريخ ابن الوردي) المطبعة الوهبية (١٢٨٥هـ / ١٨٦٨م).
- ٩٥ - الياقعي: عبد الله بن أسعد.
- مرآة الزمان.
- ٩٦ - اليعقوبي: أحمد بن جعفر بن واضح (ت ٢٩٢هـ / ٩٠٥م).
- البلدان: مطبوع مع كتاب الأعلام النفسية لابن رسته ليدن ١٨٩١م نشره ري غويه.
- ٩٧ - اليميني: عمارة
- النكت العصرية في أخبار الوزارة المصرية ط هارتوج.
- ٩٨ - أبو يوسف: يعقوب بن إبراهيم (ت ١١٢هـ / ٧٣٠م)
- الخراج - طء (القاهرة ١٣٩٢هـ)
- ٩٩ - الأيوبي: الحسن بن داود بن المعظم عيسى بن العادل محمد بن أيوب.
- الفوائد الجليلة في الفرائد الناصرية - (نسب الأيوبيين) دار الكتاب الجديد - بيروت ١٩٧٨ نشرها وقدم لها صلاح الدين المنجد.
- ١٠٠ - اليونيني: قطب الدين موسى بن محمد بن أحمد (ت ٧٢٦هـ / ١٣٢٦م)
- ذيل مرآة الزمان - حيدر آباد - الهند ١٩٥٤ - ١٩٦١.

المراجع

- ١٠١ - أشتور: التاريخ الاقتصادي والاجتماعي في العصور الوسطى - تحقيق عبد الهادي عبلة دار قتيبة للنشر.
- ١٠٢ - أمين: أحمد
- ظهر الإسلام ط٣ - القاهرة ١٩٦٢.
- ١٠٣ - أمين: حسين.
- تاريخ العراق في العصر السلجوقي.
- ١٠٤ - بدران: عبد القادر.
- تهذيب تاريخ دمشق الكبير هذبه ورتبه عبد القادر بدران - دار المسيرة بيروت ١٩٧٩.
- منادمة الأطلال ومسامرة الخيال دمشق ٢٥ رجب ١٣٧٩هـ.
- ١٠٥ - البدليسي: شرف خان.
- شرفنامه - ألف بالفارسية - ترجمة إلى العربية محمد علي عوني راجعه وقدم له يحيى الخشاب الجزء الأول بتكليف من الإدارة العامة للثقافة ووزارة التربية والتعليم وإحياء الكتب العربية (صلاح الدين بن يوسف بن نجم أيوب بيروت ١٩٧٨).
- ١٠٦ - بدوي: أحمد أحمد.
- صلاح الدين الأيوبي بين شعراء عصره وكتابه.
وزارة الثقافة والإرشاد القومي الإدارة العامة للثقافة ١٩٦٠.
- ١٠٧ - بدوي: عبد الرحمن.
- تاريخ التصوف الإسلامي ط١ الكويت ١٩٧٥.
- ١٠٨ - البزاوي: رأفت محمد.

- السكة الإسلامية في مصر - عصر دولة المماليك الجراكسة ط ١ القاهرة
١٩٩٣ م.
- ١٠٩ - بول: ستانلي لين.
- الدول الإسلامية - القسم الأول - ترجمة محمد صبحي فرزات بإشراف
أحمد دهمان.
- ١١٠ - بيتشوف:
- تحف الأنبياء.
- ١١١ - بيطار: أمينة.
- تاريخ العصر العباسي - مطابع مؤسسة الوحدة ١٩٨٠.
- الحياة السياسية وأهم مظاهر الحضارة في بلاد الشام - منشورات وزارة
الثقافة والإرشاد القومي بدمشق ١٩٨٠ م.
- تاريخ العصر الأيوبي دمشق (١٤٠١هـ - ١٤٠٢هـ / ١٩٨١ - ١٩٨٢ م).
- موقف أمراء العرب بالشام والعراق من الفاطميين.
- ١١٢ - جب: هاملتون:
- دراسات في حضارة الإسلام - تحرير ستانفور - دمشق - وليم بولك ترجمة
إحسان عباس - محمد يوسف نجم - محمود زايد - دار العلم للملايين بيروت ١٩٦٤.
- ١١٣ - الجمل: إبراهيم محمد حسن.
- الفتوة في الإسلام.
- ١١٤ - الجندي: محمد سليم.
- تاريخ معرة النعمان - ٣ أجزاء - تحقيق عمر رضا كحالة - دمشق (١٣٨١هـ - ١٩٦٣ م).
- الجامع في أخبار أبي العلاء المعري.
- ١١٥ - حتي: فيليب
- تاريخ سورية ولبنان وفلسطين ج ١ تحقيق جورج حداد وعبد الكريم رافق -
بغداد نيويورك.

١١٦. حسن: إبراهيم حسن.
 - تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي ط أولى ١٩٦٧م.
 - تاريخ الدولة الفاطمية في المغرب ومصر وسورية.
 ١١٧. حسن: علي إبراهيم.
 - تاريخ الممالك البحرية.
 ١١٨. حسني: الأمير علي.
 - تاريخ سورية الاقتصادي - دمشق (١٣٤٢هـ / ١٩٢٤م)
 ١١٩. الحصني: تقي الدين.
 - منتخبات التواريخ لدمشق.
 ١٢٠. حلوة: عبد الحنان:
 - زراعة الحور في سورية دمشق ١٩٥٥.
 ١٢١. حلوة: عبد الحنان وجميل معلا.
 - زراعة الزيتون في سورية.
 ١٢٢. حمادة: محمد ماهر.
 - الوثائق السياسية والإدارية العهد الفاطمية والأتابكية والأيوبية بيروت ط
 ١٩٨٠.
 ١٢٣. حمزة: عبد اللطيف.
 - صلاح الدين - بطل حطين - ١٩٥٨ (دار الفكر)
 ١٢٤. الخضري: عبد الحسين.
 - ديوان السلطان خليل الأيوبي (نجوم الفلك من نظم الملك) دمشق ١٩٩٣.
 ١٢٥. خاتشا تريان الكساندر:
 - ديوان النقوش العربية في أرمينية - تحقيق شوكت يوسف.
 ١٢٦. خير: صفوح.
 - مدينة دمشق - وزارة الثقافة السورية - دمشق ١٩٨٢م.

١٢٧. الدباغ: مصطفى مراد.
- بلادنا فلسطين ج ٥ ق ٢ «الخليل» ط ١ بيروت ١٣٩٢ / ١٩٧٢ م.
- ج ٢ ق ٢ «نابلس» ط ١٠ بيروت ١٣٩٠ - ١٩٧٠ م.
- ج ٤ ق ٢ «بيروت» ١٣٩٢ - ١٩٧٢.
١٢٨. الدمشقي: عبد القادر.
- الدارس في تاريخ المدارس - تحقيق جعفر السني - ج ١، ج ٢ مكتبة الثقافة الدينية ١٩٨٨.
- ١٢٩- الدمشقي: محمد حسن العطار
- علم المياه الجارية في مدينة دمشق / أو رسالة في علم المياه الجارية - تحقيق أحمد غسان سبانو ط ١ دمشق ١٩٨٠ م.
- ١٣٠- دراج: أحمد
- الوثائق العربية المحفوظة في دور الأرشيف الأوربية (مصر الإسلامية) الندوة الدولية لتاريخ القاهرة.
- ١٣١- دهمان: محمد أمين.
- في رحاب دمشق دراسات عن أهم أماكنها الأثرية ومقالات عن أهم حوادثها المجهولة وأبحاث ثقافية دار الفكر ١٩٨٢.
- ١٣٢- الدوري: عبد العزيز.
- تاريخ العراق الاقتصادي في القرن الرابع الهجري - بغداد ١٩٤٨،
- ١٣٣- الدومي: أحمد عبد الجواد.
- صلاح الدين الأيوبي - الناشر مؤسسة الخانجي مصر ط ١.
- ١٣٤- ربيع: حسنين محمد.
- النظم المالية في مصر زمن الأيوبيين جامعة القاهرة ١٩٦٤.
- ١٣٥- رشيد: د. ناظم.

- ديوان عماد الدين الأصبهاني - حققه وقدم له د. ناظم رشيد كلية الآداب
جامعة الموصل ١٤٠٤هـ / ١٩٨٣ المصدر د. سهيل زكارا.
- ١٣٦- ركابي: جودت.
- الأدب العربي من الانحدار إلى الازدهار دار الفكر ط ٢ دمشق ١٩٨٢.
- ١٣٧- الرمادي: د. جمال الدين
- صلاح الدين الأيوبي - مطابع الشعب ١٩٥٨.
- ١٣٨- ربحاوي: عبد القادر.
- قلعة دمشق - تاريخ القلعة وآثارها وفنونها المعمارية دمشق ١٩٧٩ - مطبوعات
هيئة تدريب القوات المسلحة في الجيش العربي السوري.
- ١٣٩- الزرعي: محمد بن أبي بكر (ابن قيم الجوزية)
- الفروسية طبعة مصورة - دار الكتب العلمية بيروت.
- ١٤٠- زعرور: إبراهيم.
- الحياة الاجتماعية في بلاد الشام في العصرين الأيوبي والمملوكي.
- ١٤١- زكار: سهيل.
- التاريخ العباسي والأندلسي والسياسي والحضاري.
- مدخل إلى تاريخ الحروب الصليبية.
- أخبار القرامطة.
- حطين ومسيرة التحرير.
- الموسوعة الشامية في تاريخ الحروب الصليبية.
- تاريخ الدولة العربية في العصر العباسي جامعة دمشق ١٩٨٩.
- ١٤٢- زكريا: أحمد وصفي.
- عشائر الشام ط دمشق ١٩٧٣ ج ١.
- جولة أثرية دمشق ١٩٣٤.
- ١٤٣- زيتون: عادل.

- العلاقات الاقتصادية بين الشرق والغرب في العصور الوسطى - دمشق (١٤٠٠هـ / ١٩٨٠م).
- ١٤٤- زيدان: جرجي:
- تاريخ آداب اللغة العربية.
- صلاح الدين ومكائد الحشاشين ط٤ مطبعة الهلال ١٩٣٣.
- ١٤٥- زيود: محمد.
- حالة بلاد الشام الاقتصادية - منذ العهد الطولوني حتى نهاية العصر الفاطمي - ١٩٨٧م.
- ١٤٦- سبانو: أحمد غسان.
- مملكة حماة الأيوبية دمشق ١٩٨٤.
- ١٤٧- سرور: محمد جمال الدين.
- النفوذ الفاطمي في بلاد الشام - في القرن الرابع والخامس الهجري.
- تاريخ الحضارة الإسلامية في الشرق ط٢ - دار الفكر (١٣٨٧هـ / ١٩٦٧م).
- ١٤٨- سعد: أحمد صادق
- تاريخ مصر الاجتماعي والاقتصادي بيروت ١٩٧٦.
- ١٤٩- سلام: محمد زغلول.
- الأدب في العصر الأيوبي - دار المعارف بمصر ١٩٦٨م.
- ١٥٠- سوحاجيه: جان.
- دمشق الشام لمحة تاريخية نقلها إلى العربية فؤاد أفرام البستاني.
١٥١- سيد الأهل: عبد العزيز.
- أيام صلاح الدين ط١ سنة ١٩٦١م.
- ١٥٢- شياور: عصام محمد.
- السلاطين في المشرق العربي معالم دورهم السياسي والحضاري - السلاجقة الأيوبيون
١٥٣- شبلي: أحمد.

- . تاريخ التربية الإسلامية ط ٢ منقحة مزيدة. القاهرة. مكتبة النهضة المصرية ١٩٦٦.
١٥٤. الشرباجي: أحمد
- . الفزالي والتصوف الإسلامي.
١٥٥. الشكعة: مصطفى
- . معالم الحضارة الإسلامية. دار العلم للملايين بيروت ١٩٨٢.
١٥٦. الشهابي: قتيبة.
- . أسواق دمشق القديمة.
١٥٧. الشهابي: مصطفى.
- . الأشجار المثمرة. دمشق ١٩٢٤.
١٥٨. الصفوي:
- . الوافي ج ١
١٥٩. الصوري: وليم
- . تاريخ الحروب الصليبية.
١٦٠. طرخان: إبراهيم علي.
- . النظم الإقطاعية في الشرق الأوسط في العصور الوسطى القاهرة (١٣٨٨هـ/
- ١٩٦٨م).
١٦١. عاشور: سعيد عبد الفتاح.
- . المؤسسات الاجتماعية في الحضارة العربية بحث داخل موسوعة الحضارة
- العربية الإسلامية ط بيروت ج ٣.
- . بعض أضواء جديدة على ابن عساكر والمجتمع الدمشقي في عصره.
- . الحركة الصليبية. صفحة مشرقة في تاريخ الجهاد العربي في العصور
- الوسطى ط ٢ مطبعة الأنجلو مصرية ١٩٧١م.
- . نظم الحكم والإدارة في عصر الأيوبيين والمماليك. دار المعارف للطباعة
- والنشر. سوسة. تونس.

١٦٢. عامر: محمود علي.
 - المكابيل والأوزان والنقود منذ فجر الإسلام وحتى العهد العثماني - دراسة وثائقية - ابن حيان دمشق ١٩٩٧.
١٦٣. عاصي: حسن.
 - التصوف الإسلامي - مفهومه - تطوره - مكانته من الدين والحياة.
١٦٤. عبادي: أحمد مختار.
 - تاريخ الأيوبيون والمماليك - دار النهضة العربية بيروت ١٩٩٥.
١٦٥. عبد الجواد: أحمد
 - عبد الغني: عارف.
 - نظم الاستخبارات عند العرب والمسلمين - مؤسسة الرسالة ١٩٩١.
١٦٦. العريني: سيد الباز.
 - الإقطاع في الشرق الأوسط - حوليات كلية الآداب بجامعة عين شمس.
١٦٧. عزام: عبد الله.
 - مقدمة الشاهنامة.
١٦٨. عيسى: أحمد.
 - تاريخ البيمارستانات في الإسلام، دار الرائد العربي ط٢ ١٩٨٢.
١٦٩. علوان: عبد الله ناصح.
 - صلاح الدين بطل حطين ومحرم القدس من الصليبيين.
١٧٠. علي: أحمد إسماعيل.
 - تاريخ بلاد الشام في العصر العباسي.
- تاريخ بلاد الشام منذ ما قبل الميلاد حتى نهاية العصر الأموي - دراسة سياسية اجتماعية اقتصادية.
١٧١. علي: سيد أمير.
 - مختصر تاريخ العرب - نقله إلى العربية عفيف بعلبكي بيروت ط٤ ١٩٨١ م.

١٧٢. الغزوي؛ كامل بن حسين بن مصطفى.
- نهر الذهب في تاريخ حلب - المطبعة المارونية بحلب «بدون تاريخ».
١٧٣. غني؛ قاسم.
- تاريخ التصوف في الإسلام ط١ القاهرة ١٩٧٢.
١٧٤. فريد؛ محمد (أبو حديد)
- صلاح الدين الأيوبي وعصره - مطبعة دار الكتب المصرية بالقاهرة ١٩٢٧.
١٧٥. القاسمي؛ ظافر.
- المرأة في تاريخ ابن عساكر.
١٧٦. قساطلي؛ نعمان أفندي.
- الروضة الفناء في دمشق الفيحاء ط١ ثانية بيروت لبنان (١٤٠٢هـ / ١٩٨٢م).
١٧٧. قلنجي؛ قدری.
- صلاح الدين الأيوبي - دار العلم للملايين نورا ١٩٤٧.
١٧٨. كاهن؛ كلود.
- تاريخ الشعوب الإسلامية منذ ظهر الإسلام حتى بداية الإمبراطورية العثمانية مجلد أول تحقيق بدر الدين القاسمي ط١ بيروت ١٩٧٢.
- الحركات الشعبية والاستقلال الذاتي في المدن الإسلامية خلال القرون الوسطى - مجلة الاجتهاد العدد السادس - بيروت ١٩٣٠.
١٧٩. كحالة؛ عمر رضا.
- دراسات اجتماعية في العصور الإسلامية.
١٨٠. كرد علي؛ محمد.
- خطط الشام ٦ أجزاء طبعة ثالثة (١٤٠٣هـ / ١٩٨٣م) الناشر مكتبة النوري.
- غوطة دمشق ط٢ مطبعة الترقی بدمشق (١٣٧١هـ / ١٩٥٢م).
- تاريخ الحضارة في القرون الوسطى والحديثة - مطبعة التقدم بمصر.
١٨١. لودولف؛ رحلة لودولف (الموسوعة الشامية)

١٨٢. ماير: - الملابس المملوكية ترجمة عربية القاهرة ١٩٧٢.
١٨٣. مبارك: زكي.
١٩٥٤. التصوف الإسلامي في الأدب والأخلاق طبعة القاهرة ١٩٥٤.
١٨٤. متز: آدم.
- الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري - نقله إلى العربية محمد عبد الهادي أبو ريدة القاهرة ١٣٥٩هـ / ١٩٤٠م.
١٨٥. مدكور: إبراهيم.
- معجم العلوم الاجتماعية ط١ القاهرة ١٩٧٥.
١٨٦. مصطفى: شاکر
- الحركات الشعبية وزعمائها في دمشق لمجلة كلية الآداب والتربية - جامعة الكويت العدد ٣ - ٤ سنة ١٩٧٣.
- صلاح الدين الفارس المجاهد والملك الزاهد المفترى عليه.
- التاريخ العربي والمؤرخون «دراسة في تطور علم التاريخ ومعرفة رجاله في الإسلام» بيروت ط٢ ١٩٧٩.
١٨٧. الملقن: عمر بن علي.
- طبقات الأولياء طبعة القاهرة.
١٨٨. المنجد: صلاح الدين.
- معجم المؤرخين الدمشقيين وآثارهم المخطوطة والمطبوعة - دار الكتاب الجديد - بيروت ط١ ١٩٧٩.
١٨٩. ناصيف: أحمد عبد السلام.
- الشرطة في مصر الإسلامية ط١ سنة ١٩٨٧.
١٩٠. الندوي: أبو الحسن علي الحسيني الندوي.
- صلاح الدين الأيوبي - البطل الناصر لدين الله - دار القلم - دمشق.
١٩١. النقاش: زكي.

- العلاقات الاجتماعية والثقافية والاقتصادية بين العرب والإفرنج خلال الحروب الصليبية - دار الكتاب اللبناني (١٣٨٦هـ / ١٩٤٦م).
١٩٢. الموسوعة السياسية - رئيس التحرير: د. عبد الوهاب الكيالي. المؤسسة العربية للدراسات والنشر ج ٣ ط ٢ سنة ١٩٩٣.
١٩٣. المعجم الجغرافي: مركز الدراسات العسكرية ط ١ سنة ١٩٩٢ مجلد ٤.

المراجع الأجنبية

1 – Ashtor. E: **Asocial and Economic History of the near east in the middle ages**. London, 1967.

2 – Coitein. s. d:

- the main industries of the Mediterranean area as reflected in the rewords of the Cairo geniza jesho. IV (1961).

- AMediterranean society 2 vols. Berkley and Los Angeles (1967 – 1971).

- Letters of medieval jawish traders – Princeton university prose 1973.

3 – D .ohson: **History. des Mongols.**

4 – Grossest: **History. des croisades.**

5 – Joinville Jean: **history de saint Louis (paris 1847).**

6 – King E: **the Knights hospitalers in the holy land** London (1931).

7 – K. M Stton: **A History of the crusode.** Philadelphia 1962 – vol 2. p. p 487521.

8 – Lamonte: **feudal monarchy in the Latin Kingdom.**

9 – Lane Pool:

- **History of Egypt in the middle ages (London 1925).**

- **Saladin and the fall of the Kingdom of Jerusalem** new york. 1898.

10 – Lopez, R. S. and I. W Raymond: **medieval trade in the Mediterranean world.** New York. 1955.

11 – Runsiman, Steven:

- **By son tine civilization London. Eduardo Arnold.**
co. 1963 – hist. of the crusades.
12 – Schlumberger: campaigns du roi amoury.
13 – Tolkowsky: the gate way of Palestione.
14 – Vasiliev: history of the Byzantine empire. Vol. 1
(Madison 1964).
15 – Wite: L , Egypt, arable.
16 – Hassan Ein Rabe: The fin ancial system of Egypt
1169 – 1341. Oxford University , A. H. 564 – 741 / a. d
Press 1972

المحتوى

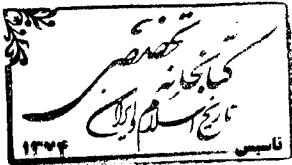
٧	تقديم
١١	- استهلال:
٢٣	- الأحوال السياسية خلال المصريين الأتابكي
٢٣	- العصر الاتابكي
٥٧	- الأيوبيون: (أصلهم - نسبهم - طريقهم إلى السلطة)
٨٧	الباب الأول: الأوضاع السياسية والإدارية
٨٩	الفصل الأول: من الناصر صلاح الدين إلى العادل
٨٩	- الناصر صلاح الدين الأيوبي
١١١	- الملك الأفضل نور الدين علي بن صلاح الدين
١١٤	- العزيز بن صلاح الدين
١١٥	الفصل الثاني: دمشق من العادل إلى الناصر صلاح الدين بن العزيز
١١٥	- العادل الأول سيف الدين أبو بكر
١٢٢	- المعظم شرف الدين عيسى بن العادل
١٢٥	- الناصر داود بن عيسى بن العادل
١٢٩	- الملك الأشرف مظفر الدين موسى بن العادل
١٣٠	- الملك الصالح إسماعيل
١٣٢	- العادل الثاني سيف الدين أبو بكر بن الملك الكامل
١٣٣	- نجم الدين أيوب بن الكامل
١٣٣	- الملك الصالح إسماعيل
١٣٧	- الملك الصالح نجم الدين أيوب (المرّة الثانية)
١٤٠	- الملك المعظم توران شاه بن الصالح أيوب
١٤١	- الناصر صلاح الدين يوسف بن العزيز

١٤٩	- الفصل الثالث: نظم الحكم والإدارة
١٤٩	- الإقطاع العسكري ودوره الإداري
١٥٥	- أهم المناصب الإدارية زمن الأيوبيين
١٧٦	- القضاء.
١٨٢	- الدواوين
١٩٩	الباب الثاني: - الجانب الاقتصادي والاجتماعي والثقافي
٢٠٩	الفصل الأول: الزراعة في دمشق الأيوبية
٢٠٩	آ- أنواع المزروعات
٢١١	- الحبوب والبقول
٢١١	- الخضار
٢١٢	- الأشجار المثمرة
٢١٨	- الورود.
٢١٩	- الثروة الحراجية
٢١٩	- المراعي
٢٢٠	ب - ملكية الأراضي:
٢٢٠	- الإقطاع المدني
٢٢٠	- الإقطاع العسكري
٢٢٩	- الآثار الناتجة عن نظام الإقطاع العسكري على الزراعة:
٢٢٩	آ- الآثار الإيجابية
٢٢٩	ب- الآثار السلبية
٢٣٠	- ملكية الأوقاف
٢٣٢	ج - المعوقات التي عانت منها الزراعة زمن الأيوبيين:
٢٣٢	- العوامل البشرية:
٢٣٣	- الحروب - انتشار الأوبئة والأمراض
٢٣٥	- العوامل الطبيعية:
٢٣٩	د- الثروة الحيوانية

٢٤٣	- الفصل الثاني: الصناعة في دمشق الأيوبية
٢٤٥	أ- أشهر الصناعات:
٢٤٥	- الصناعات النسيجية:
٢٤٦	- صناعة الحرير.
٢٤٨	- صناعة القطن.
٢٤٩	- صناعة الكتان.
٢٤٩	- الصباغة.
٢٤٩	- الصناعات المعدنية:
٢٤٩	- الحديدية والفولاذية.
٢٥٢	- النحاسية.
٢٥٤	- صناعة الورق.
٢٥٥	- صناعة الزجاج.
٢٥٧	- صناعة الخزف والفخار والقاشاني.
٢٥٩	- الصناعات الخشبية.
٢٦٠	- الصناعات الجلدية وديباغة الجلود.
٢٦١	- صناعة الصابون.
٢٦١	- صناعة العطور.
٢٦٣	- صناعة الأدوية والمعاقير الطبية.
٢٦٤	- الصناعات الغذائية:
٢٦٤	- صناعة طحن الحبوب.
٢٦٤	- صناعة الخبز.
٢٦٦	- صناعة المربيات.
٢٦٧	- الفصل الثالث: التجارة في دمشق الأيوبية
٢٦٧	- أهمية التجارة.
٢٧٠	- عوامل ازدهار التجارة:
٢٧٨	- الأسواق ومراقبتها.

٢٧٩	- أنواع التجارة:
٢٨٠	- التجارة الداخلية
٢٨٠	- التجارة الخارجية
٢٨٠	- الصادرات والواردات
٢٨٢	- النقود الأيوبية
٢٨٥	- الأوزان والمكاييل والمقاييس
٢٨٦	- العمائر التجارية:
	- الفنادق - القياسر - الخانات - الوكالات - المتاجر
٢٩١	- واردات بيت المال ونفقاته:
٢٩٤	- آ- الموارد المالية:
	- الزكاة - الخراج - الجزية
	- ضريبة المعادن
	- ضريبة دار الضرب أو السكة
	- ضريبة أعشار التجارة
	- ضريبة المكوس
	- ضريبة الأسواق والحوانيت والطواحين
	- ضريبة الوارد
	- ضريبة الإقطاع المدني والعسكري
٣٠٠	- نفقات الدولة:
	- رواتب ومخصصات الجند المستأجر
	- نفقات أبنية التحصين
	- رواتب العاملين في الدولة
	- عطاءات السلطان
	- أعمال البناء

٣١٣	- الفصل الرابع: - الحالة الاجتماعية في دمشق الأيوبية
٣١٣	- تمهيد.
٣١٥	- عناصر المجتمع.
٣١٧	- الوجود الصليبي وأثره على الحياة الاجتماعية
٣٢٠	- دور العلماء والأدباء في المجتمع.
٣٢٦	- مكانة المرأة ودورها الاجتماعي
٣٣٠	- الأحداث ودورهم الاجتماعي
٣٣٨	- أوضاع الفلاحين والبدو.
٣٤٤	- التصوف وأثره في المجتمع.
٣٥١	- المؤسسات الاجتماعية
٣٦١	- العادات والتقاليد.
٣٧٧	- الفصل الخامس: - الحالة الثقافية في دمشق الأيوبية
٣٧٧	- عناية الأيوبيون بالناحية الثقافية
٣٨٤	- المؤسسات العلمية (المدارس - الكتاتيب - الخوانق - المساجد
٤٢١	- العلوم الأدبية (الشعر - النثر - التاريخ)
٤٣٩	- العلوم العقلية والعلمية (الفلك . الطب ومدارسه . الهندسة الكيمياء)
٤٥٣	- خاتمة البحث
٤٦٩	- المصادر والمراجع



❖ صدر حديثاً عن دار التكوين

- تاريخ دمشق من القرن الرابع إلى القرن السابع الهجري
- نزهة النفوس في بيان المعاملة بالفلوس لابن الهائم
- الفكر الانتروبولوجي في التراث العربي الإسلامي
- تاريخ بلاد الشام في القرن التاسع عشر
- عشائر النور في بلاد الشام
- دمشق في العصر الأيوبي
- روائع التراث في دمشق
- أربعة كتب في الجهاد
- جامع دمشق الأموي
- أخبار القرامطة
- كتاب الأرواح
- الزرادشتية
- الزندقة

❖ قيد الإنجاز

- مدن الشام ومصر في العصر المملوكي
- العالم الإسلامي والأحلاف الصليبية المغولية
- تاريخ دمشق لابن صصره في أواخر العصر المملوكي الأول